جهادُ الأبطال

في طرابلس الغرب

تأليف

الطاهر احمد الزاوي

الناشرون
دارف المحدودة
لندن

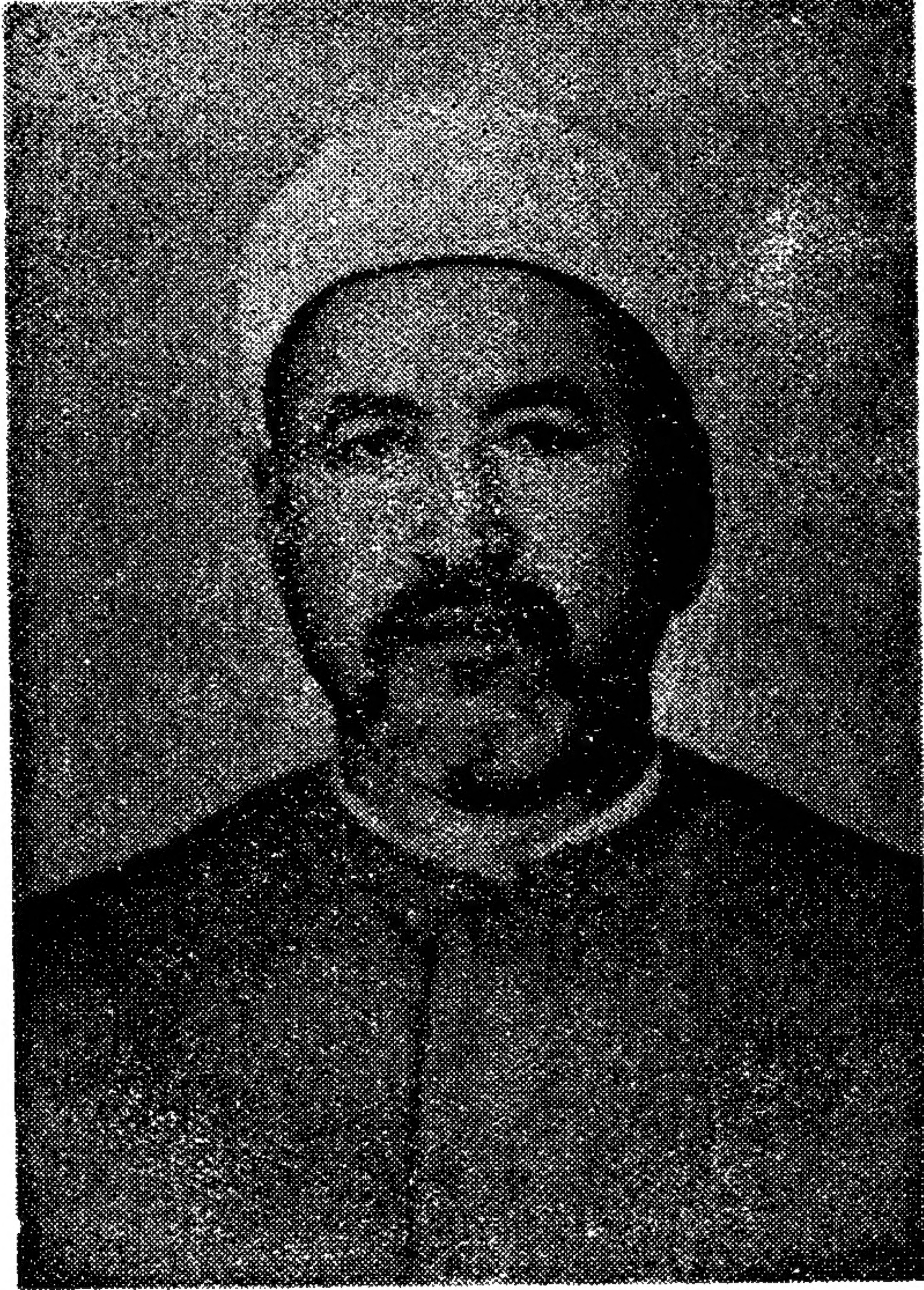
الطبعة الثالثة

جهادُ الأبطال

في طرابلس الغرب

تأليف
الطاهر احمد الزاوي

الناشرون دارف المحدودة
لندن - المملكة المتحدة
١٩٨٤



صورة المؤلف

الطبعة الثالثة

إهداء الطبعة الأولى

إلى حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا .

أهدي إليكم - باسم طرابلس العزيزة - كتابي هذا.

لا لأنه يليق بمكانتكم عندي. ولكنه أعز ما أملك .

الطاهر الزاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الرحمن عزّام

نقدّم إلى مواطنينا الأعزاء صديقاً من أعز أصدقائهم ، ورجـلاً من أبرز رجالات نهضتهم الحديثة هو حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا .

وليس من طرابلسي لا يعرف لهذا الرجل مشاركته في جهادنا ، وفضله على قضيتنا، ولكن لمناسبة طبع كتابي (جهاد الابطال) أحببت أن أصدّره بكلمة عن هذا الرجل العظيم في تاريخ حياته في طرابلس اعترافاً بفضله وجميل خدماته .

نشّأ هذا الرجل نفسه على حب العرب ، وكرّس حياته لخدمتهم . واعتنق هذا المبدأ منذ نعومة أظفاره، فشبّ عليه وشاب معه ، فامتزج بدمه ، وتربى منه لحمه ، فأصبح لا يرى ولا يسمع إلا بعيون العرب وآذانهم .

وكانت له في قضايا العرب مغامرات لا تحلو له الحياة إلا في معامعها .وكانت القضية الطرابلسية أول ما افتتح به هذه المغامرات ، فكان لها المحل الممتاز من جهوده للقضايا العربية .

وكان في أوروبا قبيل الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ مع بعض الطلبة الشرقيين يعملون للقضايا العربية . وبعد نشوب الحرب وقع عليه اختيار إخوانه للسفر إلى مصر للإشراف على بعض المصالح التي تخصّهم . وقد حـاول أن يخرج من

مصر للالتحاق بالجيش التركي ، فمنعه الإنجليز ووضعوه تحت مراقبة البوليس . وقد استطاع ـ بعد محاولات ـ أن يهرب إلى حدود مصر الغربية والتحق بالسيد أحمد الشريف السنوسي في ديسمبر سنة ١٩١٥ واشترك في الهجوم الذي قام به الأتراك على حدود مصر . ولما فشل هذا الهجوم ، وتغلب الإنجليز على الترك والسيد أحمد السنوسي بقي هو ونوري بك في برقة ، وأبديا بعض المحاولات لاستئناف الهجوم ثانية ، ولكن اتصال السيد إدريس بالإنجليز والطليان ، والبدء في مفاوضات الزويتينة حال دون ذلك .

والتحق بصراتة في نوفمبر سنة ١٩١٦ بعد أن ضاقت (برقة) عما اعتزم القيام به لخدمة العرب . وكانت فيها حكومة برياسة رمضان بك السويحلي ، فوجد من نشاط رئيسها وإخلاصه ما طمأن نفسه لإمكان العمل في محيط ملائم لرغباته . ووجد رمضان في تفكيره الصائب ونشاطه المتواصل ما جعله منه محل الثقة والرضا . وكانت توجيهاته في محل القبول والتقدير دائماً .

وصادف وقت مجيئه إلى مصراتة وجود حرب بينها وبين ترهونة ، فكان رسول خير بين المتحاربين حتى طفئت الفتنة وسلم الوطن من شرها .

واتصلت الغواصات الألمانية بمصراتة فكانت تأتي بالمدد لتغذية حركة الجهاد في طرابلس فكان هذا مما ساعد «عزّاماً» على السعي في تنشيط الإدارات المختلفة في مصراتة وترهونة والعزيزية وغيرها . وأفسح أمامه المجال للعمل للتقريب بين وجهات نظر الزعماء وأطماعهم .

وسافر إلى الآستانة في أغسطس سنة ١٩١٧ لأمور تتعلق بالحرب وأرسلته الحكومة العثمانية إلى برلين وفينّا لعمل الترتيبات اللازمة لإرسال العتاد الحربي إلى طرابلس . ولحق به نوري في الآستانة في يناير سنة ١٩١٨ وقد أثنى عليه أمام الأمير شكيب ثناء عاطراً .

ولما عين الأمير عثمان فؤاد قائداً للقوات الإفريقية عين مستشاراً له، ورجع إلى مصراتة في مارس سنة ١٩١٨ .

وجاء دور الجمهورية الطرابلسية فكان أشد الناس تحمساً لها ، وفي مقدمة الداعين لتأسيسها . وعـــيّن مستشاراً لها فكان مثال التوفيق فيما يشير به أو يستشار فيه .

وفي سنة ١٩١٩ كان صلح بنيادم ، فأبدى في مفاوضاته – بصفته مستشار الجمهورية – من الملاحظات والرأي الصائب ما كان له أحسن الأثر في ملائمة مواده لحالة الطرابلسيين ، وكان الجنرال ترديتي في شك من إخلاص العرب،فأبدى معه من المحاولات ما أقنعه بحسن نيتهم ورغبتهم في السلم . ولم يفته أن حذّره من فوات الفرصة ، فكان لتحذيره نتائجه الحسنة في ركون الطليان للصلح .

وأُسست حكومة القطر الطرابلسي فكان مركز عزام محفوظاً بين أعضائها لاينفردون بمداولاتهم عنه ، ولا يتخلف عن مجالسهم . وأسس حزب الإصلاح الوطني وجريدة (اللواء الطرابلسي) فكانت آراء عزام فيها محـــل الانظار والقبول من الجمهور الطرابلسي دائماً .

ولم يخف على الطليان ما لعزّام من الأثر الواضح في توجيه الرأي الطرابلسي، فكانوا يعملون لإبعاده ، عن طريق الدس بينه وبين الزعماء تارة، ومحاولة حجزه في مدينة طرابلس أخرى ، ولكنهم لم يجدوا لذلك سبيلاً .

وانتقل رمضان إلىمسلاتة فكان عزام معه،وكانت المدة التي قضاها رمضان في مسلاتة من أدق الأدوار في الحركة الطرابلسية لما صحبها من التحزب ضـده والعمل لإسقاط حكومته فكانت مشاركة عزام له في التفكير تخفف عنـــه ما يجده في نفسه من متاعب الحكم والعمل لإحباط الدسائس .

وبعد وفاة رمضان كان دعاة الفتنة يتوثبون لإيقاظها فكان لمساعيهخير أثرٍ في إحباط دعايتهم. وقد كلفته سفارته في الخير أسفاراً طويلة، فقد قطع المسافة فيما بين مصراتة وزوارة ثلاث عشرة مرة في ثمانية أشهر لجمع الكلمة والتأليف بين القلوب .

وجاء دور مؤتمر غريان فكان أحد المؤسسين ، وأول المنادين بالوحدة وجمع الكلمة . وقد أعطاه الله يداً سحرية ما مسّ بها جسم طرابلسي إلا لان قلبه ، وحنّت إلى الاتحاد نفسه ، ورأى في عزام الأخ الصادق والناصح المخلص .

وانتخبت هيئة الإصلاح المركزية فكان مستشارها ، ولو أراد غير هذا المركز لما فاته إدراكه ، ولكن كياسته جعلته لا يتطلع إلى ما يمكن أن يتطلع إليه غيره . وهو ما دام في محل الرضا من الجميع لا يهمه ما وراء ذلك .

وكان يُعرف لدى العامة من الطرابلسيين بعزام المصري ، فكانت مصريته لا تزيده إلا احتراماً ، ولا ينعت بها إلا في مقام التكريم . واذا كانت مصريته تزيده تكريماً ، فلا شك أن كياسته كانت سبباً في احترام هذه المصرية . ولو كان عبد الرحمن عزام غير مصري لما قلل ذلك من شأنه عند الطرابلسيين.

وقد عرف عزام كيف يمثل هذه المصرية تمثيل الكياسة والوفاء والإخلاص، فكان أخاً لجميع الطرابليسيين ، ناصحاً فيا يقول مخلصاً فيما يعمل ، فكان الطرابلسيون ينظرون إلى مصريته بالمنظار الذي ينظرون به إليه . ولقد أفاد مصريته بكياسته وحسن تقديره للأمور أكثر مما استفاد منها .

ولم يقتصر حبه على الزعماء والبارزين من أعيان الشعب بل كان له في كل ناد ذكر وفي كل مجلس حديث .

قضى عزام نحو ست سنوات في طرابلس كان فيها مثال الطرابلسي المخلص لوطنه . وكان ـ وما يزال ـ طرابلسياً لا ينقصه من معاني هذه الكلمة إلا أنه ولد في مصر . وقد تأثر بحب الطرابلسيين حتى اصهر فيهم مرتين ، وأصبحت لأولاده فيهم خؤولة .

وفي كل هذه المدة لم تربط له ماهية لا من حكومة مصراتة ولا من غيرها . وكان يسرّ الطرابلسيين ان يتفضل بقبول ما يرى فيه كفايته ولكنه ابى . وكان يكتفي في حياته عا بينه وبين الرؤساء من صلة وثيقة . وحينما رجع إلى

مصر في سنة ١٩٢٢ ووصل إلى (سيوه) جاءته رسائل تهنئة فلم يكن لديه ما يرد به على الرسائل ، فتسلف خمسة جنيهات من أحد رفقائه ليقوم بهذا الواجب .

ولم يكتف في مصر بعمله للقضية الطرابلسية ، بل فتح لنفسه طريقاً إلى الوظائف الكبرى في الدولة المصرية. فانتخب عضواً في مجلس النواب سنة ١٩٢٤ وعين وزيراً مفوضاً لمصر في العراق ، وإيران ، والحجاز ، وافغانستان في سنة ١٩٣٦ . وعين وزيراً مفوضاً كذلك في تركية سنة ١٩٣٩ . وكانت هـذه السفارات مما أفسح له مجال التوسع في دراسة القضايا الإسلامية والعربية فتخصص فيها حتى أصبح المرجع الذي يحتاج إليه جميع المشتغلين بهذه القضايا ، سواء من الناحية الدولية أو من الناحية الاقليمية . وأُسندت إليه وزارة الأوقاف في سنة ١٩٣٩ وفي سنة ١٩٤٠ أسندت إليه وزارة الشؤون الاجتماعية .

ولما أسست الجامعة العربية سنة ١٩٤٥ لم يجد العرب بداً من انتخابه أميناً عاماً لها لما يعلمونه فيه من جدارة بهذا المنصب .

وقد رأى في توليته منصب أمانة الجامعة فرصة لخدمة القضية الطرابلسية ، فأثارها في المحيط الدولي ، ودافع عنها في إنجلترا ، وفرنسا ، وفي هيئة الأمم المتحدة . واستعمل نفوذه لدى دول الجامعة العربية ووفودها لدى هيئة الامم ومجلس الأمن . وكان له فيها مذكرات ضافية ، وتصريحات صحفية ، وخطب رنانة هدد فيها دول أوروبا بالحرب إذا لم تعترف باستقلال الشعب الطرابلسي المجيد .

وقد أثمرت جهوده اعتراف هيئة الأمم بوحدة ليبيا واستقلالها فكان له كل الفضل فيما أصابته قضيتنا من نجاح .

الطاهر الزاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الأولى

في القرن العشرين . وفي وقت أخذت فيه الشيخوخة بخناق الحكومة العثمانية ، وعلى مرأى من رجالاتها الذين لم يحسنوا سياسة الملك، أخذت أوروبا تكيد للاسلام والعرب ، وترسم الخطط المحكمة لابتلاع الشرق ، والقضاء على بقية حضارته الباقية .

وفي سنة ١٩١١ تمّ إحكام الخطط لقطع طرابلس من جسم وطن العربية وفصلها عن المملكة العثمانية . وفي أكتوبر من هذه السنة كانت أساطيل دولة الروم تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، فكان اعتداء فظيع ، وكانت إغارة شعواء مثّلت فيها قوة الحديد والنار أفظع رواية عرفت للظلم في تاريخه المظلم . ووجد الطرابلسيون أنفسهم أمام دوي المدافع وأزيز الطائرات ، وجيوش الظلم المدججة بالسلاح تحيط بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فتنادوا إلى الحرب ، ونفروا إليها خفافاً وثقالاً دفاعاً عن الوطن وذوداً عن كرامة العرب . ودلف إليها شيبهم وكهولهم ، وشبانهم ونساؤهم ، غضباً للحرمات وحباً في الجهاد في سبيل الله . وفي أقل من خمسة عشر يوماً

اشتعلت نار الحرب من حدود مصر إلى حدود تونس .

ولقد كان في أول رصاصة أطلقت في طرابلس رسالة الاستغاثة حملها الأثير إلى شعوب العربية قاصيها ودانيها ، فلبت الغوث من أقصى حدود اليمن إلى أقصى حدود مراكش ، واذّن مؤذّن الكفاح حيّ على نصر العرب ، فأرسلت الإعانات والاحتجاجات من جميع هذه الأقطار ، فكان هذا مما شد العزائم ، وحفز الهمم لملاقاة الإيطاليين والثبات أمامهم ، وكانت مصر وتونس في مقدمة هؤلاء المغيثين .

وشمرت الحرب عن ساقها . وشمل البلاد الطرابلسية دوي المدافع . ولهب البارود كان يأخذ بمعاطس الرجال ، وتركز الجهاد في السواحل وعلى أبواب المدن ، فما طلّت رأسٌ إيطالية إلا اصطدمت في رصاصة عربية .

وكانت الحرب الطرابلسية هائجة مائجة أراد الله لها أن تعم البلاد من أقصاها إلى أقصاها فتركزت فيما بين البحر والجبل ثمانية عشر شهراً : من اكتوبر سنة ١٩١١ إلى مارس سنة ١٩١٣ ثم امتدت إلى فزان تتقاذفها أمواج الصحراء ، فكان وقودها تلك الفلول من الطليان التي فقدت توازنها واختل نظامها . وما استقر بها المقام في فزان حتى ارتدت على أعقابها في ديسمبر سنة ١٩١٤ تسابق الريح فراراً بالحياة ولا فرار . وكانت القرضابية وما تبعها من نصر مؤزر وفتح مبين ، لم يكن للطليان ملجأ بعده إلا حصون البحر ومدافع الاسطول .

ووقف الطرابلسيون ثانية على سواحل البحر وأبواب المدن . وتركزت الحرب فيما بين مصراتة وزوارة ثمان سنوات فكانت حرباً مريرة قاسية ، ما تركت بيتاً في طرابلس إلا طوّحت بأحد أفراده .

وقد شاركنا آلام هذه الحرب وآمالها إخوان من مصر كانوا لنا كما كنا لهم ، وفي مقدمتهم حضرة صاحب المعالي عبد الرحمن عزام باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية ، واليوزباشي إبراهيم عوض استشهد مع رمضان بك السويحلي في

أرفلة . واليوزباشي عبد الحليم حمدي استشهد في معارك الزاوية . والدكتور السيد دسوقي استشهد في سرت ، وغيرهم كثير من الاخوان البررة الذين تشرفوا بالشهادة في هذه البلاد التي باركها الله بالجهاد في سبيله . وكانت آمال العروبة تجمع بيننا وبين هؤلاء السادة في محيط لا يشعر فيه الجميع إلا بالاخوة المثالية .

وانهارت قوة الطليان تحت ضربات العرب. فمدوا أيديهم إلى الصلح .وكان صلح بنيادم في يونيه ١٩١٩ . وساد البلاد سكون التجربة والانتظار دام اثنين وثلاثين شهراً وكانت أطول مدة وقعت بين حرب وأخرى في الحروب الطرابلسية ، وانقطع هذا السكون باعتداء الطليان على مصراتة في يناير سنة ١٩٢٢ . وكانت ثورة ؛ وكان جهاد اليائس بما صحبه من ضعف وفتور أعقبها يأس المخلصين ثم جلاء المجاهدين . وبقي الوطن يتلقى من ضربات الإيطاليين القاسية ما كتب على صفحات القلوب بأقلام المدافع ودماء الشهداء .

كل هذا يجده القارىء مفصلاً في كتابنا هذا في حقيقة كأن قد رأى وقد سمع .

وكان يسوؤني من المتطفلين على التاريخ أن يتجاهلوا جهادنا أو ينسبوه إلى غيرنا ، فكنت أقابل ظلمهم بالصبر ، وألتمس لهم العذر فيما جهلوا ريثما أنتهي من جمع هذا التاريخ الحافل بجلائل الأعمال ، ومصادمات الأبطال . ثم نقول لهم : هاؤم اقرأوا جهاد الطرابلسيين ففيه لطلاب الحقيقة ما يريدون .

وها هو ـ والحمد لله ـ قد برز الى الوجود يحمل من معاني البطولة وضروب المغامرات ما يشرّف الطرابلسيين ، ويرفع من شأن العرب اجمعين . وسميته (جهاد الأبطال) تيمناً بما حواه من اعمال البطولة .

وقد سلخت في جمعه من عمري زهاء عشرين سنة ، ما سمعت بحادثة إلا قيدتها . ولا وقع نظري على مسألة الا نقلتها . وما اجتمعت بعد الهجرة بذي شأن من الطرابلسيين ممن لهم صلة بالحرب وإدارتها الا رويت عنه وناقشته فيما يتعارض مع رواية غيره . ولا سمعت بحاكم منطقة او رئيس إدارة الا أخذت

عنه ما وسعني اخذه .

وكان في مقدمة من رويت عنهم احمد بك السويحلي . وعبد الرحمن عزام باشا . وعون سوف [1] . والتهامي بك قليصة . ومختار بك كعبار . والسيد محمد العيساوي بوخنحر. وعبد السلام افندي المريض وغيرهم كثير من المجاهدين ورؤسائهم الذين لهم دراية بتفاصيل المعارك وتقلباتها .

وما رويت عمن يخامرني فيه شك ؛ أو روايته تخالف من هو أوثق منه عندي .

وكانت مشاهداتي من اكبر العوامل التي شجعتني على الكتابة في الحروب الطرابلسية ، فقد شهدت أول الاحتلال الى قرب صلح اوشى ، وشهدت ما وقع من الحوادث بعد صلح بنيادم سنة ١٩١٩ الى أوائل سنة ١٩٢٤ . وما لم أشهده كان يقع على مسمع مني فكنت اذكره لمجرد سماعه .

وقد اعانني كثيراً على الوصول الى الحقيقة اجتماعي في كثير من الأوقات برؤساء الحكومات وذوي الشأن من قومنا . وقد هيأ لي هذا الاجتماع إيفادي في كثير

---

(١) الكريم ابن الكريم . حضر الجهاد من أول الاحتلال الى أن تغلب الطليان في مارس سنة ١٩١٣ فهاجر الى الشام في جماعات كثيرة من المجاهدين . ورجع إلى طرابلس سنة ١٩٢٠ ولما نشبت الحرب في سنة ١٩٢٢ كان في مقدمة من أسندت إليهم رئاسة المجاهدين . وكانت له جولات في معارك بئر الغنم ومصراتة. وقد تجلت شجاعته في معارك مصراتة سنة ١٩٢٣ بمقدار قل" ان وصل اليه غيره . وجرح في معركة الكراريم . وكان إذا احتدم القتال مشى بين الصفوف وهو ينادي « انا عون بن سوف » وفي سنة ١٩٢٤ هاجر الى مصر وبقي فيها الى سنة ١٩٣٠ وفي هذه السنة في ٦ من مايو ذهب لزيارة طرابلس ، ولم يلبث ان رجع الى مصر وبقي فيها الى سنة ١٩٤٥ . وفي هذه السنة رجع الى طرابلس . وكان يطالب باستقلال البـــلاد ووحدتها . ويتقدم قومه لدى الانجليز فيما يعن" لهم من مصالح . وفي سنة ١٩٤٧ مرض فسافر الى ايطاليا للتداوي وعملت له جراحة في بطنـه توفي بسـببها يوم ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٧ ، ودفـن في طرابلس . عليه رحمة الله .

من البعوث الحكومية ، مما سهل عليّ الاطلاع على كثير من الحقائق .

وقد وجدت من صديقنا الفاضل الاستاذ إبراهيم الرفاعي [١] معونـــة لا أنساها ، وهي ترجمة كل ما احتجت اليه من كتاب جرازياني « نحو الفزان » من اللغة الإيطالية الى اللغة العربية ، فقد توصلت بهذا الكتاب الى حقائق ما كنت أجدها في غيره .

وقد بذلت جهدي في الوصول الى الحقيقة . وكثيراً ما اعترضتني مناسبات رأيت فيها مبرراً لترك بعض الحقائق الى وقت آخر . واعتقد اني وضعت لقومي ما يصلح أساساً للبناء عليه في مستقبل الأيام . والله يحفظ لطرابلس أبناءها ، ويحقق لها وحدتها واستقلالها ؟

رجب سنة ١٣٦٩
مايو سنة ١٩٥٠

الطاهر الزاوي

---

(١) هو من اولاد سيدي ابن جحا من الاشراف سكان الخمس . درس في الازهر وتخرج في كلية الشريعة سنة ١٩٤٦ . وكان يجيد اللغة الايطالية .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

استقلال ليبيا :

يزعم بعض من لا يعلمون حقيقة جهاد الشعب الليبي عن وطنه وحريته أن استقلال ليبيا كان منحة من هيئة الامم المتحدة .

ومعنى هذا أن الشعب الليبي لم يقدم من التضحية ما يستحق به الاستقلال . وسنعرض ـ في كلمات قليلة ـ بعض أعماله ، في ثوراته على الحكم التركي ، وفي حروبه مع الطليان ، لنعلم القليل مما ضحّى به ، للحصول على الحرية ودفع الظلم .

منذ ثلاثمائة سنة والليبيـــون في صراع مرير مع الترك للتخلص من ظلمهم واستبدادهم ، وفساد حكمهم .

وقد ثار عليهم الليبيون أكثر من ثلاثين مرة في فترات من الزمن متتابعة ، قام بها رؤساء القبائل في كل من طرابلس وبرقة . وما كان السكوت عن الثورة في بعض الأحيان الا انتظاراً للفرص والظروف المواتية .

واستمر الترك في حكمهم الفاسد : فوضى في الحكم . وسلب الأمـــوال

بالضرائب الفادحة ، والغصب ، وعدم اهتمام بالاصلاح . ففشى في الشعب الجهل لعدم المدارس ، وتمكن فيه الفقر لقلة التجارة والزراعة ، وانعدمت الصناعة ، وكثرت فيه الأمراض لقلة الأطباء، وأصبح في حالة دونها كل ما يتصوره الانسان من حالات البؤس .

وجاء الاحتلال الايطالي في اكتوبر سنة ١٩١١ وقد هيأت له تركيا جميع الوسائل التي تسهل عليه احتلال ليبيا . فسحبت جيشها وسلاحها، وبقي الشعب في فقره ، وجهله ، ومرضه ، وقلة وسائل دفاعه . بقي وحده أمـــام الحقيقة الرهيبة: جيوش جرارة ، وأساطيل مدمرة ، وطائرات تدق القرى والمدن بقنابلها .

فهل قصَّر الشعب في الدفاع عن وطنه ؟ وهل قعد به فقره وجهله عن القيام في وجه العدو الغاصب ؟ كلا . بل هبّ هبة رجل واحد من حدود مصر إلى حدود تونس ، برجاله ، ونسائه ، ودافــع بالعصي ، والسيوف ، والبنادق ، وأكل الحشيش ، والبلح الشيص ، وافترش الأرض ، والتحف السماء ، ووقف أمام العدو في خط واحد ، يبتدىء من قصر بوكماش غرباً ، وينتهي في بردى سليمان شرقاً .

وشكل إدارات تقوم على شؤون المجاهدين . وبقي الطليان ثلاث عشرة سنة لم يتجاوز ما احتلوه مسافة رمي المدفع .

وفي سنة ١٩١٣ وصلوا إلى فزان وثار عليهم المجاهدون في نوفمبر سنة ١٩١٤ وأجلوهم عن فزان ، وركبوا أقفيتهم في الصحراء فلا تمرّ بمكان فيها إلا وجدت فيه جثثاً من قتلى الايطاليين ، وانكمشوا في الساحل كما كانوا .

ويطول بنا الكلام لو أردنا أن نعد المعارك بين الليبيين والطليان التي تكاد تكون فاصلة. نعد منها: (بو عرقوب) و (زنزور) و (القرضابية) و(سيدي بلال) و (حروب عمر المختار) وغير هذه كثير .

واستمرت حربنا مع الايطاليين نحو عشرين سنة ، والايطاليون يرمون في

لهبها بما لديهم من جيوش جرارة ، وأساطيل مدمّرة ، وطائرات مهلكة ، والليبيون أمامهم وجهاً لوجه ، يديرون شؤونهم المدنية والعسكرية وحدهم ، منقطعين عن جميع العالم ، ليس لهم مورد من المال الا ما تنتجه سواعدهم ، وليس لهم من العتاد الحربي إلا ما يغنمونه من عدوهم .

وفي مدة الحرب انشأوا الجمهورية الطرابلسية في مصراتة سنة ١٩١٨ وأنشأوا (حكومة القطر الطرابلسي) سنة ١٩١٩ . وأنشأوا حكومة (هيأة الاصلاح المركزية) سنة ١٩٢٢ . وبذلوا في الدفاع عن وطنهم ما لا يقل عن سبعمائة وخمسين ألف نسمة ، قتلوا برصاص الايطاليين ، ومشانقهم . كل ذلك في سبيل الوصول إلى حريتهم واستقلالهم .

فهل بعد كل هذا البذل من الأنفس والمال ، والصمود في وجه تلك الجيوش الايطالية الجرارة يقال ان استقلال ليبيا جاء منحة من هيئة الامم المتحدة ؟!

إن الجهاد الليبي هو غرة في جبين الامة العربية في القرن العشرين . وما سمعنا أن شعباً ضحّى بنصف عدده في الدفاع عن شرفه وحريته غير الشعب الليبي .

وقد وقف عشرين سنة أمام قوة لم يكن بينه وبينها نسبة ، فهي تفوقه في جميع مقومات الحياة ، ولا يملك من أنواع القوة إلا إيمانه بحقه في الحياة ، وحبّه للموت دفاعاً عن الشرف والكرامة .

وقد جاء في بعض الإحصائيات عن خسائر الطليان في ليبيا أنها بلغت ٢٥٠ ألف جندي بين قتيل ومفقود ، و ١٤ مليار ليرة نفقات حربية .

وكانت للشعب الليبي جولات في الحرب العالمية الثانية يعرفها له الانجليز ، ولا ينكرها عليه الفرنساويون ، كانت من الأسباب في انتصار الحلفاء على إيطاليا .

وقد قدّم من دلائل جدارته بالاستقلال ما لم يقدمه أحد .

وفي الوقت الذي يفتخر فيه بهذا البذل السّخي في الميدان الحربي، لا ينسى ان يقدم الشكر لأشقائه العرب وأصدقائه من غـــير العرب على ما قدّموا له من مساعدة في الميدان السياسي : ميدان مناقشات هيئة الامم المتحدة ، التي كانت من أقوى الأسباب في إحباط مشروع (بيفن ـ سفورزا) الذي تآمر به الانجليز والطليان على هضم حقوقه .

ولن ينسى للانجليز ذلك الموقف البغيض الذي حاولوا به فصل برقة عن طرابلس ، والذي مهّدوا له بإقامة حكومة في برقة ، واعترفوا بها قبل أن يتم تشكيلها . ولما لم يتم لهم ما أرادوا منها بذلوا جهدهم في جعل استقلال ليبيـا اتحادياً لا وحدوياً ، وكان لهم ما أرادوا ليتسع المجال أمام تدخلهم السافر في تلك الهياكل التي نصبوها ، والتي كان لهم بواسطتها الغُنم ، وعلى الشعب الليبي الغرم.

وحتى بعد الاستقلال ، لم يلق الشعب الليبي السلاح ؛ لأنـــه أدرك أن في استقلاله شوائب يجب عليه إزالتها حتى يكون استقلالاً تاماً .

وقد مرّ عليه ثمانية عشر عاماً وهو على أحرّ من الجمر في انتظار الفرصة التي يكمل بها استقلاله. ولقد قام بهذه المهمة نفر من أبنائه البررة صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فثاروا في وجه الظلم ليلة التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩هـ واقتلعوا ما بناه الانكليز من جذوره ، وألحقوا أخراهم بأولاهم ، وآتى الله بنيانهم من القواعد ، فهدمت قواعدهم ، وشالت نعامتهم إلى غير رجعة . وتم الجلاء ، وتحقق النصر باذن الله .

وقد يجد بعض المواطنين في جهاد الابطال ما كان يودّ ألا يُذكر . ولكنها الحقيقة ، الحقيقة المرّة ، التي تكون حربة في ضمير من تحدثه نفسه بالخيانة ، أو بعمل ما يستحيى منه .

وأرجو من مواطني أن يكون عندهم من الشجاعة الأدبية ما يجعلهم يتحملون مسؤوليات أعمالهم ، وذلك مما يعد من مكارم الأخلاق .

ذو القعدة سنة ١٣٨٩
يناير سنة ١٩٧٠

الطاهر الزاوي

الإهداء

أهدي الطبعة الثانية من (جهاد الابطال) إلى مواطنيّ الذين ألحّوا عليّ في إعادة طبعه .

الطاهر الزاوي

تمهيد

منذ أن احتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ قوي التنافس بين فرنسا وانجلترا في امتلاك البلاد الشرقية. واتجهت سياسة الفتح والتوسع الاستعماري اتجاهاً أوسع من ذي قبل. وكان الطليان ينظرون إلى هذا التنافس بعين القلق، وقويت الرغبة في نفوسهم في أن يكونوا أحد المستعمرين وثالث المتقاسمين، فأخذوا يترقبون الفرص للحصول على حصتهم من هذه الغنائم المقسمة.

وقد وجدوا من الاسباب ما أغراهم بحصر تفكيرهم في احتلال طرابلس: منها أن وجود الإنجليز في مصر والهند وغيرهما من البلاد الشرقية، وتفوّق الأسطول الإنجليزي في البحار يحدّ من مطامعهم في استعمار البلاد البعيدة عن شواطىء البحر الأبيض. ووجود فرنسا في الجزائر ومطامعها في تونس، ونفوذها في مراكش يحول دون تحقيق مطامعهم في بلاد المغرب، ولم يبق بين حدود النفوذ الفرنساوي والنفوذ الإنجليزي إلا طرابلس، ويوشك أن تتفقا بشأنها على سياسة معينة فتحرم منها إيطاليا وتبقى محصورة في أوروبا. فلم يبق إذاً أمامها ما تنتظر له الفرص إلا طرابلس الغرب، فأخذت تعدّ نفسها لاحتلالها في المستقبل القريب أو البعيد.

ولما اجتمع الامبراطور نابليون الثالث، وزوج الملكة فكتوريا في أوربورن سنة ١٨٥٧، واقترح نابليون إعطاء جزء من طرابلس إلى حكومة سردينيا

أيقظ فيهم هذا الاقتراح رغبة الاستعمار ووقع منهم موقع التشجيع على الإقدام على ما هم بسبيله بشأن طرابلس .

وجاء احتلال تونس سنة ١٨٨١ فأثار مخاوف الإيطاليين أن تمتد يد فرنسا إلى طرابلس وتضمها إلى تونس .

واحتلت فرنسا فاشودة في يوليو سنة ١٨٩٨ وكانت تابعة للسودان المصري ، فكان لهذا العمل أسوأ الوقع على نفوس الإنجليز ، وحصلت مشادة بينهم وبين فرنسا ، فأنذروها بالحرب إذا هي لم تتخلّ عن فاشودة ، فانسحب الجنود الفرنساويون يوم ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ وانتهى المشكل إلى هذا الحد .

وقد أحدث هذا النشاط الفرنساوي في الاستعمار قلقاً في الرأي العام الإيطالي ، فطوراً تحتل تونس وتفوز بغنيمتها ، وتارة تحتل فاشودة لتأخذ قسطها من السودان المصري ، ولولا موقف الإنجليز الحازم لفازت بالغنيمتين .

ولم تخف إيطاليا هذا القلق فطلبت من فرنسا أن توافقها على احتلال طرابلس ، فساومتها فرنسا على ألا تتدخل في سياسة المغرب الأقصى ، فرضيت إيطاليا بذلك ، واتفقتا في شهر ديسمبر سنة ١٩٠٠ على أن تطلق فرنسا يد إيطاليا في معالجة المسألة الطرابلسية ولا تتعرض لها بشيء ، وعلى ان تطلق إيطاليا يد فرنسا في معالجة المسألة المغربية ولا تتعرض لها بشيء . وقد حصل بينهما اتفاق آخر بهذا المعنى في أول نوفمبر سنة ١٩٠٢ . وقد أبلغ هذان الاتفاقان إلى انجلترا والنمسا فأقرتاهما ولم تعارضا .

غير أن حادث فاشودة ما زال يشغل بال الكثيرين من الإنجليز والفرنساويين لأنه انتهى إلى حد لا يكفي لقطع القلاقل وحسم المشكلات ، فمن الممكن جداً ـ ما دام الفرنساويون والإنجليز يتسابقون في مضمار التوسع الاستعماري ـ أن تصطدم الدولتان على مثل فاشودة ، وقد لا ينتهي هذا الصدام بمثل ما انتهت به مشكلة فاشودة ، بل ينتهي بحرب قد لا تكون وبالاً على الطرفين . ففكروا في وضع خطة نهائية لتقسيم إفريقية والبلاد الشرقية ، ولوقف هذا

التنافس الاستعماري . وحصر كل فريق سياسته في ناحية لا يشاركه فيها الآخر. فعقدوا اجتماعاً سرياً في لندن في ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ اتفقوا فيه على تنازل إنجلترا عن التدخل في شؤون المغرب مقابل تنازل فرنسا عن التدخل في شؤون مصر .

وكان هذا المؤتمر أعظم حجر وضع في بناء المقبرة التي بنتها انجلترا وفرنسا ليدفن فيها المسلمون خاصة والشرقيون عامة . ولما اطلع الإيطاليون على هذا القرار وعلموا أن انجلترا وفرنسا تقاسمتا إفريقية ، وحددت كل منهما سياستها بإزاء الأخرى ، وأن طرابلس لم يتناولها هذا التقسيم ، أرسلوا مذكرة إلى الباب العالي قالوا فيها : « إنها ما دامت الحالة غير متغيرة في البحر المتوسط فإن إيطاليا لا تدّعي بشيء في طرابلس الغرب ، ولكن إذا حصل تغيير في البحر المتوسط يخل بالتوازن الدولي فهي مضطرة أن تتخذ تدابير لوقاية مصالحها » .

ولم يقتصروا على هذا ، بل رأوا أن الفرصة سانحة بالمطالبة بقسط من هذه الغنيمة ، فطلبوا من انجلترا وفرنسا وألمانيا الموافقة على احتلال طرابلس وألحوا في ذلك .

وكان من أشد الناس إلحاحاً في ذلك كريسبي رئيس وزراء إيطاليا إذ ذاك ، وله رسائل عديدة في هذا الشأن إلى دول أوروبا يطلب منها الموافقة على احتلال إيطاليا طرابلس وعدم التعرض لها . منها رسالة كتبها إلى السفير الإيطالي في برلين إذ ذاك جاء فيها :

« أما وقد احتلت فرنسا تونس دون أقل معارضة من دول أوروبا فلم يبق إذاً شك في أنها ستقدم غداً فتحتل طرابلس كما احتلت تونس ، فيجب علينا إذاً أن نسعى في تحديد سلطة فرنسا في تونس بحجة الوقوف في وجه فرنسا ومطامعها ، وعدم ازدياد قوتها البحرية والبرية » .

وقد كتب رسالة أخرى إلى اللورد سالسبوري الإنجليزي جاء فيها : « إن

فرنسا بتعدّيها على الحدود التونسية وغيرها تبرهن على أنها تنوي الاستيلاء على طرابلس » .

فكتب المختص بالشؤون الإيطالية في لندن إلى كريسبي يقول له :

« إن رسالة سعادتكم أثّرت تأثيراً كبيراً في اللورد سالسبوري. وقد أمرني بإبلاغكم أنه يعتقد بأنه إذا جاء يوم يطلب فيه تغييراً كبيراً كان أو صغيراً في البحر الأبيض المتوسط فإن طرابلس الغرب ستكون بلا شك نصيباً لإيطاليا لا لغيرها ، ولكن اللورد سالسبوري مع ذلك لا يوافقكم على نقطة واحدة ، ويعتقد أن زمن الاستيلاء على طرابلس لم يحن بعد ، نعم إن إيطاليا ستستولي على طرابلس ، ولكنها يجب أن تتمثل بذلك الصياد الذي يتحين الفرص ليتمكن من إصابة فريسته ولا تفلت منه ولو كانت مجروحة » .

ويتضح من رسالة سالسبوري أنه يوافق إيطاليا على احتلال طرابلس ويحرّضها على تحين الفرص الملائمة لتكون الضربة قاتلة. ويؤيد هذا ما كتبه المستر « أرنست بانيت » أحد نواب البرلمان الإنجليزي سابقاً ، ونصه :

« ... ثم جاءت إيطاليا فأعلنت ضم طرابلس الغرب إلى أملاكها ، فلم تجد من دول أوروبا إلا تحبيذاً وموافقة . ولقد صدق أحد الضباط الأتراك في قوله لي : إنا لا نكاد نخطو خطوة في ميدان التقدم حتى نرى أوروبا واقفة في طريقنا تمنعنا عن متابعة خطوات مباركة ، فأنتم بذلك تخنقون الطفل في بدء نشأته ولا تعطونه فرصة يظهر بها مقدرته » . ثم قال :

« ولو كانت أوروبا بريئة من اشتراكها في عمل إيطاليا المعيب لحقّ للحكومة العثمانية رفع أمرها إليها ، ولكنها لسوء الحظ ليست إلا شريكة لإيطاليا في جريمتها ضد الحق والإنسانية ، وذلك بأنها كانت جميعها عالمة بعزم إيطاليا على غزو طرابلس ، فلم تقف في وجهها وتمنعها من تنفيذ عزمها ، بل أذنت لها في العمل ، وأرفقت إذنها بكلمات التشجيع والتحبيذ . وأنا ـ كإنجليزي ـ أخجل

ولا يرتاح ضميري لدى تذكّري بأن بريطانيا العظمى كانت إحدى هذه الدول المتفقة على سلب الدولة العثمانية قطعة من أرضها » .

وما يعلمه الناس في عصرنا هذا من التكالب الأوروبي على احتلال البلاد الشرقية ، والتعصب ضد أهلها ، وسلبها كل مقومات الحياة الصالحة لا يحتاج للتدليل عليه إلى مثل هذه النصوص ، فذلك أمر علمه الكبير والصغير ، ومن له دراية بالسياسة ومن لا يفقه فيها شيئاً ، ولكن التاريخ يجب أن يدعم بالحجج لإقناع من سيوجدون في القرون المقبلة .

ومن الاسباب التي حملت الطليان على احتلال طرابلس أنها قريبة من سواحلها ، ولا يفصلها عنها إلا البحر الأبيض . ومنها أن طرابلس كانت تابعة لروما قبل الفتح الإسلامي ، وبعده في فترات متقطعة ، فالاستيلاء عليها فيه ثأر للنفس وإرضاء للنعرة القومية بما استردوا من العرب الذين كانوا أجلوهم عنها. هذا من جهة . ومن جهة أخرى فإن طرابلس كانت تابعة للدولة العثمانية ، وكانت هذه الدولة بلغت سن الشيخوخة ، حتى كان الأوربيون يعبّرون عنها « بالرجل المريض » وكانت الدول الأوربية تمعن في إرهاقها ، وتثير عليها الشعوب التابعة لها وتمدّهم بما يلزم الثورة من المال ومعدات الحرب ، وتقتطع كل ما أمكنها اقتطاعه من الولايات التابعة لها . وهي بهذا كله إنما تريد الإجهاز على هذا الرجل المريض لتستولي على مخلفاته .

وكانت هذه السياسة الأوربية المعاكسة من أقوى الاسباب المؤثرة في ضعف الولايات العثمانية البعيدة على مركز الدولة . يضاف إلى هذا ما كانت عليه الدولة من ضعف بالغ وخلافات مستحكمة ، وما كانت تجده من مناوأة الدول الأوربية لها والوقوف لها في كل طريق من طرق الإصلاح .

إهمال طرابلس :

كانت طرابلس خالية من جميع أسباب القوة والعمران . فقد جاء الاحتلال

الإيطالي وهي لا يوجد فيها من أنواع المواصلات إلا طرق القوافل التي ألفها الناس منذ مئات السنين . ولا يوجد فيها من وسائل النقل إلا الجمال . ولا يوجد فيها شيء من أنواع التعليم الحديث . وإلى يوم الناس هذا سنة ١٩٤٥ لم تنجب طرابلس محامياً حقوقياً ، ولا قاضياً قانونياً ، ولا طبيباً جامعياً ، ولا مهندساً معمارياً ، وكانت خالية من أسباب الثروة إلا قليلاً من الزراعة على المطر وبعض الحيوانات وشجر النخل والزيتون ، مع خصب أرضها ، واستعدادها للإنبات وتربية الحيوانات . وكانت خالية من الجند وآلات الحرب وجميع وسائل الدفاع . وجاءت سياسة الاتحاديين بعد إعلان الدستور في ٢٤ يوليه سنة ١٩٠٨ - فيما يختص بطرابلس - مقوية لهذا الضعف فجردوها من كل ما بقي فيها من جند وسلاح . وكانت وزارات الحكومة العثمانية المختلفة لا تدخر وسعاً - كلّ فيما يخصها - في تحسين حالة الولايات العثمانية التركية وتحصينها ، إلا طرابلس فقد أهملوها من كل شيء : من المعارف ، والمواصلات ، والزراعة ، ووسائل الدفاع ، وكل مرافق الحياة الهامة . وكان مكتب الزراعة التركي في طرابلس يمتنع أن يقرض الطرابلسيين أو يعطيهم من البذور ما يحتاجون اليه ، في الوقت الذي كان فيه مكتب الزراعة الإيطالي التابع لبنك دي روما يفتح أبوابه على مصراعيها لإقراض الطرابلسيين كل ما يحتاجون اليه وتقديم جميع أنواع المساعدة لهم .

هذا وغيره يعلمه رجال الحكومة العثمانية في الآستانة وطرابلس ، ومع ذلك لم يتداركوا الحال بأي نوع من أنواع الإصلاح . يزاد على هذا بُعدها عن مركز الدولة ، وضعف الدولة ضعفاً مميتاً ، وعدم وجود المتعلمين تعليماً عصرياً، وجهل الفنون العسكرية جهلاً مطبقاً .

وغير هذا كثيراً من أسباب الضعف التي جعلت مركز البلاد ضعيفاً في الدفاع سواء من الناحية المادية أو الناحية المعنوية . اللهم إلا ما كان من بعض القلاع في العاصمة ، وكانت هذه القلاع لا تمتد اليها يد الإصلاح إلا في القليل

النادر ، فهي دائماً بين مد وجزر تبعاً لسياسة الولاة المخلصين أو المنافقين .

هذا النقص في أسباب قوة الدفاع البادي في كل ناحيه من نواحي حياة الطرابلسيين أغرى بهم الإيطاليين ، وهيأ لهم امتلاك وطنهم بقوة الحديد والنار . وكان الطليان يرون في طرابلس منفذاً للسودان [1] فزادهم تكالباً عليها .

كل هذه الأسباب ـ متفرقة ومجتمعة ـ جعلت الطليان يتحيّنون الفرص لاحتلال طرابلس .

وقد وصلت إيطاليا بما بذلت من جهود لدى الدول الأوربية إلى نتيجة هي أنها آنست منها الرضى عن مساعيها لاحتلال طرابلس فزاد نشاطها وأخذت في إعداد ما يلزم لضرب هذه الفريسة ضربة قاتلة كما قال « سالسبوري » في رسالته آنفة الذكر . واتجهت في سياستها مع الدولة العثمانية اتجاهاً يدل في جميع مظاهره على انها تقصد احتلال طرابلس . وجعلت في مقدمة سياستها سياسة بذل المال ، والسعي في رفع شأن ضعاف النفوس ، وتمكينهم من مناصب الدولة لتصل من طريقهم إلى أغراضها السيئة .

بنك دي روما :

أُسس فرع لبنك دي روما في طرابلس سنة ١٩٠٥ ، على أثر نشاط الدعاية الإيطالية ضد الدولة العثمانية ، واكتتب البابا بالثلثين من مجموع رأس ماله . وقد استعمل رجب باشا كل نفوذه في معارضة تأسيسه ، ولكن حكومة الآستانة كانت تشايع السياسة الإيطالية فأوعزت اليه بعدم التشدد خوفاً من (القلاقل

---

(١) قد تحققت هذه الفكرة حينما احتلوا الحبشة سنة ١٩٣٥ . فكانت طرابلس أكبر عون لهم في هذه الحرب برجالها ومواصلاتها ، وكانت الجيوش ومعدات الحرب تشحن من موانئها على طريق قناة السويس . وكانت الكفرة ـ وهي على حدود السودان ـ مركزاً للاستطلاع بالطائرات والسيارات . وكان في برنامج الطليان احتلال السودان الواقع بين طرابلس والحبشة .

السياسية) وأنشىء البنك رغم أنفه ، وبدون استصدار مرسوم من حكومة الآستانة أو موافقة الحكومة المحلية . واتخذ الطليان منه مركزاً للدعاية ، وأسندوا إدارته إلى « براشياني » وهو أحد ثعالب السياسة ، ومن أشد الناس تعصباً لجنسيته وعلى العرب . وكان كثير التجول في البلاد الطرابلسية لبثّ الدعاية فيها والاطلاع على ميول السكان . وكان يقوم بهذه الرحلات تحت حماية حكومة طرابلس ورعايتها . وكان يبذل المال من سعة في كل مناسبة . واتصل ببعض الأعيان ممن كانت في أخلاقهم نعومة ؛ فاتخذ منهم أصدقاء وسمّاراً .

وقد تمكن الطليان من التأثير على حقي بك ـ وكان إذ ذاك سفيراً في روما للدولة التركية ـ بأن يتوسط لديها في التساهل مع بنك دي روما في شراء الأراضي ، فكتب اليها يقول :

« إن إيطاليا تبذل جهداً كبيراً لمساعدة الحكومة العثمانية ، خصوصاً بعد الدستور ، ومن الواجب على الباب العالي أن يتسامح مع بنك دي روما تثبيتاً لأواصر المودة بين الدولتين ، وإحكاماً لمباني الحب والصداقة » .

وبناء على هذه التوصيات من سفير الدولة أوعز الباب العالي إلى الحكومة المحلية بطرابلس أن تقبل بيع الأراضي الفراغ باسم المدير العام لبنك دي روما ، ولكن رجب باشا عارض هذه السياسة أشد المعارضة . وصار يمانع في بيع الأراضي لبنك دي روما ، ويحرض الأهالي على الشراء بعضهم من بعض ، فإذا لم يوجد أحد التجأ إلى أصحاب الشفعة ، فاذا لم يوجدوا التجأ إلى المجلس البلدي ، فاذا عجز المجلس البلدي حرّض دائرة الطابو (دائرة المساحة) على عدم التسجيل بحجة أن البنك شخص معنوي ، والبيع يشترط فيه القبول والإيجاب ، وهما لا يتحققان في الشخص المعنوي .

وبما أن البنك أُسس بدون استصدار مرسوم سلطاني كان رجب باشا يوعز إلى المحاكم العثمانية في طرابلس بأن لا تُقبل قضاياه لأنه لم تتوفر في تأسيسه الشروط القانونية ، وكانت المحاكم تنفذ هذه الرغبة . فاستاء مدير البنك من هذه

المعاملة وذهب إلى الآستانة يشكو تصرف رجب باشا إلى الصدر الأعظم « حقي باشا » . فأصدر حقي باشا أمراً إلى نظارة العدلية ونظارة الخارجية بوجوب قبول القضايا من بنك دي روما في المحاكم العثمانية ،ولا حاجة للحصول على إرادة سلطانية بشأنه لأن سفراء الدول اعترضوا على القانون العثماني بشأن الشركات والمرافق المالية الأجنبية .

وبسبب ما أبداه رجب باشا فيمعارضة السياسة الإيطالية، وتلمس الأسباب في معاكستها تمكـّن ـ إلى حد كبير ـ من منع انتقال الاملاك الطرابلسية إلى بنك دي روما رغماً على الجهود التي بذلها الطليان، والتهديدات المختلفة والأوامر التي تأتيه على الآستانة بعدم المعارضة .

ومن تساهل الحكومة العثمانية أن أذنت للطليان في إنشاء مكتب بريد خاص بالبريد الإيطالي ، وكان هذا المكتب المنتدى الذي يجتمع فيه سماسرة بنك دي روما ، لتدبير الحيل للتعجيل باحتلال طرابلس ، وتهيئة الأفكار للإنصراف عن العثمانيين وتسليم البلاد للايطاليين .

وأذنت لهم في إرسال بعثة عسكرية سنة ١٩٠٦ تتألف من عدة ضباط قالوا عنها إنها بعثة علمية للبحث عن الآثار وصلت إلى سوكنة وفزان ، وتمكنت من وضع خرائط حربية لجميع المناطق التي مرت بها .

انصار بنك دي روما :

وقد وجدت هذه الدعاية أنصاراً من أُناس كانوا يرون أنفسهم في المقدمة ، وإذا كانت أقدار الرجال توزن بأعمالهم فسيجد أبناؤنا في أعمال هؤلاء النفر ما يهيء لهم المقعد اللائق بهم ، وهم من الذين انحطت مداركهم ، وقصرت هممهم عن القيام بالواجب [١]. وكانوا موظفين في بنك دي روما ، ويأخذون مرتبات

(١) قد تضطرنا المجاملة الىترك ذكر اسماء هؤلاء المساكين ، ونكل امرهم إلى الله الذي قدموا عليه بهذه الاعمال المخزية إلى ان يحين الوقت الذي تذكر فيه مقرونة بما قدمت ايديهم ، وما ذلك الوقت ببعيد ، فإن التاريخ يمهل ولا يهمل .

حسب مراكزهم الاجتماعية وما يقدّمونه من خدمات ضد وطنهم .

وفي مقدمة هؤلاء عمر المنتصر ، وأحمد المنتصر ، ومصطفى بن قواره الزليتني [1] وأحمد الزّميرلي .

وإنه ليسوءنا ان ينتمي هؤلاء الأعيان الذين يعدّون أنفسهم من خيرة أبناء الشعب إلى عدو دينهم ووطنهم ، ويحاولوا أن يذللوا له الصعاب ليسهل عليه احتلال الوطن .

ان هؤلاء النفر لم يكن لهم من دينهم رادع ، ولا من اخلاقهم وازع . ولم يجدوا من نفوذ الحكومة العثمانية ما يمنعهم من التعاون مع عدو الوطن ، فانهارت قواهم أمام مغريات بنك دي روما وما كان يغدقه عليهم من الأموال وما يعدهم به من المناصب ، فوقعوا في هاوية خيانة الوطن فباءوا بغضب من الله وغضب من المواطنين .

وكانت الدعاية الإيطالية تقوى وتضعف تبعاً لقوة إرادة الوالي وضعفها ، ولشدة معارضته للسياسة الإيطالية ومسايرتها .

المشير رجب باشا :

عيّن والياً على طرابلس سنة ١٩٠٤ [2] وكان برتبة مشير وكومندان .

وكان سعادته من أشد الناس وطأة على السياسة الإيطالية ، وعهده من أحسن عهود الولاة الاتراك في طرابلس ، فكان عهد إصلاح ونشاط . وكانت سياسته

---

(١) ولما ظهر ميله إلى الطليان وخدمة سياستهم ضد الوطن أقيل من مجلس المبعوثان (النواب) وانتخب بدله شفيق بك متصرف الخمس .

(٢) قضى في طرابلس اكثر من عشر سنوات شغل فيها عدة مناصب كبيرة من مناصب الدولة . وقد تولى منصب الولاية سنة ١٩٠٤ وبقي فيه نحو ست سنوات وقد اكسبه نشاطه المستمر شهرة كبيرة قبل تولي الولاية وبعدها . وما ينسب اليه من أعمال ليس قاصراً على زمن الولاية ، فإن ما كان يشغله من المناصب الكبيرة كان يهيء له دائماً القيام بما يراه من أعمال الاصلاح .

في طرابلس تقوم على أساسين : معارضة سياسة إيطاليا ، ونشر التعليم . وقد أفلح في الناحيتين ، فوقف للسياسة الإيطالية في كل طريق ، واستعمل نفوذه في معارضتها إلى أبعد حدود المعارضة . فما سلكت السياسة الإيطالية سبيلاً إلا وجدت رجب باشا واقفاً لها بالمرصاد . وأصلح القلاع والحصون وأتى بالجند والأسلحة من الآستانة ، وكان يشجع على الزراعة ويحث على تعلم العلم والاستزادة منه . ورغّب الناس في الجندية بأساليبه الحكيمة ، حتى وجد الناس ما طمأن نفوسهم إليها ، وانخرط كثير منهم في سلكها .

وكان مخلصاً في عمله ، لبقاً في أساليبه ، يدخل على الناس من حيث يجدون الطمأنينة في أنفسهم إلى ما يطلبه منهم .

وقد ظهرت آثار هذه الاساليب الحكيمة في تكييف الروح العامة في مدة وجيزة مما جعل السياسة الايطالية تنظر إليه بعين الاهتمام والجد . وأحسّ دعاة الطليان بفشل سياستهم في تنفير الطرابلسيين من الجندية ، فاتجهت سياستهم إلى عزل رجب باشا ، وما زالوا يسعون به لدى حكومة الآستانة حتى عزل ، وجيء بعده بولاة كانوا آلة في يد السياسة الايطالية فقطعت الطريق على إصلاحات رجب باشا بعد أن بدت بشائرها في كثير من نواحي الحياة الطرابلسية ، وبقيت البلاد مهملة من كل شيء وهي في حاجة إلى كل شيء .

تهمة باطلة :

قد يحلو لكثير ممن لحظوا على طرابلس قبل الاحتلال الايطالي ، خلوّها من النظام والعمران والتعليم العصري أن ينحوا باللائمة على الطرابلسيين ويرون في حالهم هذه قصوراً منهم وتقصيراً في واجب العلم والعمران .

وفي الحقيقة ان اللوم لا يقع على غير الحكومة العثمانية وولاتها في طرابلس ، والناس في سلوكهم على دين ملوكهم . والذي يؤيده التاريخ ويتمشى مع سنة التطور أن الامم إنما تنهض في ظل ما يتاح لها من صلاحية الحكم والأداة الحاكمة .

فالحكومة بما لها من السلطة والهيمنة على مقدرات الأمة ومصائرها هي التي تسيّر الشعب إلى ما فيه الصلاح ، وتمهد له الطريق إلى أسباب الثروة ، وتفتح له دور العلم والصناعات. وقد تقع من الحكومة بعض الاخطاء في قيادة الشعب فينهض لتقويم هذا الخطأ بعض أفراده ممن تخرجوا في مدارسها وما أنشأته من دور العلم والثقافة .

فالحكومة إذاً هي المعلم الاول للشعب . وهي التي تربي من يصلح لقيادة الشعب وتستعمله في مصالح الشعب . أما ان شعباً يرشد من غير مرشد، أو يتعلم من غير معلم ، فذلك ما لم يعرفه التاريخ فيما أعلم .

وإذا سلم هذا فإن اللوم لا يقع على الطرابلسيين لا في كثير ولا قليل ، وإنما يقع على الحكومة التركية والولاة التي كانت تبعث بهم لمباشرة الحكم في طرابلس. فما كان يهم هؤلاء الولاة من أمر طرابلس إلا جباية الاموال وما يوفر لهم حياة الترف وطيب العيش . أما ما ينهض بالشعب الطرابلسي ويدفع عنه غائلة الجهل والفقر فلا يفكرون فيه ولا يمر لهم ببال .

والذي يشاهد عهد رجب باشا على قصره ، وما حصل فيه من إقبال الناس على التعليم والجندية ، والرغبة في التوطن والزراعة لا يخامره شك في أن في الشعب الطرابلسي استعداداً للأخذ بقسطه من الحضارة العلمية والاقتصادية ، وأن مسلك الحكام الترك هو الذي أوقفه موقف اللوم والانتقاد ، كما أن الذي يشاهد سوء سياستهم في طرابلس وغلظتهم في الحكم ، وقسوتهم في جباية الضرائب يحمد للطرابلسيين احتفاظهم بوجودهم ولو على تلك الحال الناقصة وسنزيد الموضوع شرحاً إن شاء الله .

محمد علي سامي [١] :

ولما عزل رجب باشا تولى الامور بعده محمد علي سامي أمير اللواء ، وكان

(١) ذكر في مجلة الهلال « الجزء الثاني من السنة العشرين » ان رجب باشا عين والياً على=

رئيس اركان حرب الولاية، وهو جندي ليس عنده من الحنكة السياسية والإدارية ما يكفل تصريف الأمور في وجهاتها الصحيحة ، فعادت الدعاية الايطالية إلى الظهور، لأنها وجدت من ضعفه مشجعاً، وبقي في الحكم نحو ثمانية أشهر ثم عزل.

أحمد فوزي باشا :

كان أحمد فوزي باشا برتبة فريق ، وعين والياً بعد محمد علي سامي ، فزاد نشاط السياسة الايطالية في زمنه و كثر أنصارها ، ووجدوا من خزانة بنك دي روما مشجعاً لهم، وأصبح لها أنصاراً من الموظفين في جميع مصالح الحكومة: في التلغراف ، وفي البريد ، وفي غيرهما من مصالح الحكومة . وقد حدث أن حكومة طرابلس أحدثت تعديلاً داخلياً ، فاقتضى الحال أن استغنت عن بعض الموظفين ، فانتهزها بنك دي روما فرصة ووظفهم عنده ، فكان ذلك مما شجع الدعاية الايطالية وزاد في انتشارها .

وأنشأت الحكومة الإيطالية مدارس في طرابلس ، فكانت تقبل التلاميذ

طرابلس سنة ١٩٠٤ ولم يذكر نهاية حكمه ولا من تولى بعده .

وجاء في كتاب «ليبيا في العهد العثماني» للميجور أنتوني جوزيف كاكيا ، تعريب يوسف حسن العسلي : ان رجب باشا عين والياً على طرابلس من سنة ١٩٠٦ - ١٩٠٩ وتولى بعده احمد فوزي سنة ١٩٠٩ ولم يذكر له نهاية. وتولى بعده ابراهيم باشا من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١١

وقد جاء في بعض المصادر في حكام طرابلس : محمد علي سامي باشا ، وأحمد فوزي باشا ، وحسني باشا ، على هذا الترتيب وكلهم بعد رجب باشا ، وذكر هذا المصدر ان مدة هؤلاء الثلاثة لم ترد على سنتين . وإذا سلمنا ان تعيين ابراهيم باشا كان سنة ١٩٠٩ اتضح لنا ان مدتهم لم ترد على سنة واحدة لأن سنة ٩ هي التي عزل فيها رجب باشا وعين فيها ابراهيم باشا . على ان هؤلاء الثلاثة ، لم يذكر في المعينين منهم إلا احمد فوزي كما ذكر آنفاً . اما الاثنان الباقيان فيظهر انها اسندت اليهما ادارة البلاد إدارة مؤقتة الى ان يصدر المرسوم السلطاني بتعيين الوالي كما نشاهده الآن كثيراً .

وقد يكون لعلماء التاريخ بعض الملحوظات على هذا الترتيب . وعذري في ذلك قلة المصادر . وتوقفي عند ما وقفت عليه منها بعد الاستعانة بمعلومات بعض المواطنين على ترجيح ما اخترته .

بالمجان، وكانت المدارس التركية تطرد بعض التلاميذ إما لقلة الأمكنة أو لعجزهم عن دفع المصاريف، فكانت المدارس الإيطالية تتلقاهم بالترحيب [1] .

كل هذا تعلمه الحكومة العثمانية سواء في الآستانة وفي طرابلس ، ولكن الإهمال غلب على جميع أعمالها ، وقد عرف الموظفون منها ذلك فتجرأوا عليها، ووجدوا في حماية النفوذ الايطالي في طرابلس ما شجعهم على التمرد والخروج على الطاعة .

وقد بلغ من جرأة هؤلاء الخارجين على الوطن ، أن جعـــل أحدهم من بيته استراحة لقنصل إيطاليا في غدواته وروحاته ، كما جعل بيته نادياً يجتمع فيه مروجوا السياسة الإيطالية للتشاور فيما يصدر إليهم من التعليمات من بنك دي روما والقنصلية الإيطالية ، وأصبح الموظف في حكومة طرابلس الذي لا رادع له من وجدانه وأخلاقه يفعل ما يشاء من غـير أن يخشى لوماً ، اتكالاً على حماية القنصلية الإيطالية له .

وكانت الجرائد المحلية « تعميم حريت » التركية ، و « الترقي » و « المرصاد» و « أبو قشة » العربية تبين للحكومة والرأي العام مقاصد إيطاليا وأغراض بنك دي روما ، وتنبّه أولياء الأمور إلى المصائب التي يسعى البنك في جرّها على طرابلس،فلم يصغ إليها أحد من رجال الحكومة المسؤولين،ولكنها أثـّرت في الرأي العام ، وفهم أن البنك أسس لترويج سياسة الطليان ، وأنه مصدر المصائب على البلاد . وقد خشي البنك مغبة انقلاب الرأي العام عليه ، فأنشأ مطبعة وجريدتين : (إيكو دي تريبلي) و « استيلا » وصارتا تدافعان عن

---

(١) بذل احمد راسم باشا معارضة شديدة في انشاء المدارس الايطالية ، واستعمل نفـوذه للتنفير منها . وبالرغم من ذلك فقد تعلم فيها كثير من الفقراء واليهود ، وصاروا تجاراً بعد ذلك وربطوا معاملتهم التجارية بإيطاليا وصاروا يروجون بضائعها .

وبلغ الذين يتكلمون الايطالية قبيل الاحتلال في مـدينة طرابلس ٣٠٪ اكثرهم من اليهود بينما الذين يتكلمون التركية لا يزيدون على ٥٪ .

سياسته ، وتحاولان إقناع الناس أنه مؤسسة تجارية ، وأنه أبعد المؤسسات عن سياسة الاستعمار، ولكن الرأي العام لم يتأثر بهذه الأكاذيب. وما يغني الشعور العام إذا كانت الحكومة لا تشعر به .

ولاية حسني باشا :

وبعد نقل احمد فوزي باشا عينت الحكومة حسن حسني باشا خلفاً له ، فكان من معاول السياسة الإيطالية الهدّامة. وكان ضعيف الإرادة، سيء الإدارة، ركياً بجنسيته ، إيطالياً بروحه وأعماله ، أتى على كل ما بقي في البلاد من روح مقاومة السياسة الإيطالية ، وكان من أكبر المشجعين على إنشاء شركة فوسفات إيطالية، وأفسح المجال للتدخل الإيطالي حتى اشمئز الناس من أعماله ، وأدركوا سوء عاقبتها السيئـــة ، وتسرّبت إلى نفوسهم كراهة الحكم العثماني ، وجاهرت الصحف الإيطالية في زمنه بتحبيذ فكرة احتلال طرابلس ، وأغرت حكومتها بذلك ، وحرّضت الشعب على مطالبتها بتنفيذ هذه الفكرة، ووصفت طرابلس بالخصب والرخاء لتغري الشعب الإيطـــالي بمحبتها ، وتثير شعوره لفكرة الاحتلال . وألّف الشعراء فيها الأناشيد الحماسية ، ولقّبوها «طرابلس الجميلة».

وألّفت حكومة إيطاليا فرقة خاصة لاحتلال طرابلس سمتها « الفرقة الطرابلسية » ، وعلمتها تعليماً خاصاً ، وألبستها لباساً خاصاً يشبه لباس الطرابلسيين .

وقد تجاوزت الجرائد الإيطالية كل حدٍّ في الغض من كرامة الترك والطرابلسيين والحكومة العثمانية ، لتظهرهم في نظر الشعب الإيطالي بمظهر هين لا يقام له وزن ليندفع في تحبيذ فكرة احتلال طرابلس .

كل هذا وأكثر منه تعلمه الحكومة العثمانية في الآستانة وفي طرابلس ، وهي التي سهلت للطليان أسباب هذه الدعاية ، وأباحت لهم التمكن من مرافق البلاد ومصالح الحكومة حتى بلغت جرأتهم إلى ما ذكرنا بعضه ، ومع ذلك لم تحاول

أن تصلح من هذا الغلط الفاحش وهذا الإفراط في التفريط ، وتركت الحوادث تجري في غير مصلحتها ، ومصلحة الطرابلسيين :

مَنْ يَهُنْ يسهُل الهوان عليه ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

وقد استاء الطرابلسيون من بذاءة الصحف الإيطالية ، وإمعانها في الشتم والتحريض على احتلال طرابلس ، فاجتمع منهم جمهور كبير لتأليف مظاهرة احتجاجاً على لهجة الصحف الإيطالية ، فمنعهم الوالي « حسني باشا » بحجة أن الحكومة الإيطالية لم يظهر منها ما يؤيد لهجة الصحف ، فاجتمع نحو خمسين من أعيانهم وأرسلوا عريضة بالتلغراف إلى الآستانة يظهرون فيها استياءهم من لهجة الصحف الإيطالية واستعدادهم للدفاع عن وطنهم وقد وقّعوها جميعاً ، وهذا نصها :

« إن أهالي طرابلس الغرب الذين يتباهون بارتباطهم بمقام الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية منذ عصور ، قد عقدوا عزيمتهم على مقاومة كل قوة تحول بينهم وبين هذا الارتباط المتين الذي هو أعظم قيمة من حياتهم ، وأنهم لا ينثنون عن الدفاع في هذا السبيل ولو انثنت عنه الحكومة العثمانية نفسها ، ونحن ننبه الوزارة الحاضرة بكل وسائل التنبيه إلى وجوب تحصين البلاد من الوجهتين البحرية والحربية اللتين أهملت العناية بهما إلى الآن . ونلفت نظرها إلى موافاة البلاد بالذخائر والمؤن التي تكفيها مدة عام كامل على الأقل. ولقد كان في عزم شعبنا الطرابلسي المعروف بتديُّنه ونزعته القومية أن يعلن على الإيطاليين حرباً اقتصادية فيقاطع تجارتهم وتجارهم ، ولكنهم رجحوا جانب الصبر والتريث في الوقت الحاضر لئلا يشوشوا على الحكومة أمرها وعلى رجال السياسة مداولاتهم ومذاكراتهم. وعلى كل حال فإن رجالنا وأولادنا قد عاهدوا الله والشرف والذمة على أن يريقوا ـ بكل سرور ـ آخر نقطة من دمائهم قبل أن يدنس تراب وطنهم أقدام السلطة الاجنبية .

وإنا ننقل إليكم هذه الكلمات على أسلاك البرق ونحن فوق ماكينة التلغراف

ننتظر بفارغ الصبر جواب سؤالنا » .

وقد جاء الرد على هذه العريضة من الصدر الأعظم ونصه : « إن الحكومة ستدافع عن طرابلس ما استطاعت الدفاع ، فإن واليها بكر سامي بك سيسافر إليها عما قريب » .

وكان هذا التسويف والمماطلة ، ثم الاهمال جزاء أعيان الطرابلس لمحبتهم وإخلاصهم لحكومة الآستانة .

لم يثن عزم الطليان عن التمهيد لاحتلال طرابلس شيء من هذه الاحتجاجات والمظاهرات . وقد وثقوا بمعاونة من بيدهم الامر في الآستانة وفي طرابلس. وقد لمس سماسرة بنك دي روما قوة النفوذ الايطالي في إخماد كل حركة وطنية تناوئهم أو تحدُّ من نشاطهم ، فزادوا نشاطاً ، ووجدوا سوقاً رائجة لبث سمومهم وترويج دعاياتهم . ورأت إيطاليا أن تزيد هذا النفوذ تثبيتاً ، فطلبت من حكومة الآستانة أن تأذن لها في إنشاء شركة فوسفات، فلم يمانع الوالي «حسني باشا » . فألفت الشركة مبدئياً برأس مال قدره مليون فرنك ، يقسم على مائة سهم كل سهم عشرة آلاف فرنك . وانضم إليها كل من استطاع من أنصار بنك دي روما ، وكان في مقدمة المشجعين لهذه الشركة والي طرابلس « حسني باشا » وياوره حسن بك ، وترجمانه فروكر اليهودي ، ومدير الريجي فونوفسكي ، وكثير غيرهم من كبار موظفي الحكومة. وكان مدير الريجي هذا من أكبر الدعاة لإيطاليا . وقد عارض كثير من الوطنيين في إنشاء هذه الشركة لأنهم أدركوا المقصود من إنشائها ، وهو تمكين رؤوس الأموال الايطالية من البلاد ، وترويج السياسة الإيطالية . ولكن ماذا تنفع معارضتهم والوالي وشيعته من أكبر أنصارها ، وحكومة الآستانة لا تتردد في الموافقة على أي مشروع إيطالي في طرابلس .

وقد أرسل بنك دي روما أحد المواطنين وهو أحمد الزميرلي ـ وهو من

الموظفين فيه لحساب الدعاية الإيطالية ـ إلى الآستانة على حسابه ليروّج لفكرة الشركة ويستصدر أمراً بتأسيسها ، ولكنه لم يوفّق ورجع مخذولاً .

وطنية :

لما عاد أحمد الزميرلي إلى طرابلس يجرّ أذيال الخيبة ، وكل الناس يعلمون لمن ينتمي ولماذا ذهب ،ورست به الباخرة على المرسى طلب زورقاً أومركباً شراعياً ينتقل فيه من الباخرة إلى الرصيف ، فامتنع جميع البحارة أن يقدّموا له أحد زوارقهم أو مراكبهم ، وقد نقلوا إلى الرصيف جميع الركاب ما عداه . وبعد مظاهرات وهتافات وطنية ، كانت تخرق أذنيه ، وبعد تدخل مدير بنك دي روما ووساطة الوالي ، أنزلوه وعلى وجهه غبرة ترهقها قترة .

وإنها لوطنية صادقة من البحارة الطرابلسيين أبت عليهم أن يحملوا في زوارقهم رجلاً عرف بمالأته للطليان ضد وطنه ، وأسمعوه من الإهانات ما كان يكفي لوقف نبضات قلبه لو كان عنده قليل من الاحساس .

ولو كان لمثل هذا المسكين وشيعته من سماسرة بنك دي روما بعض ما عند هؤلاء البحارة من الوطنية وعلو النفس لما دلوا العدو على عورات وطنهم ، ولما لوّثوا أعراضهم بمثل هذه المخجلات المبكيات .

وليس بدعاً في الدنيا أن يوجد في طرابلس مثل هؤلاء النفر الذين فسدت أخلاقهم وانماعت حيويتهم ، ولم ينالوا من التربية الفاضلة ما يصدف بهم عن مثل هذه السفاسف . فإن أمة في الدنيا لا تخلو منهم ، وقد تضافرت تواريخ العالم على وجود هذا النوع في كل زمان ومكان . وبودنا أن يكون فيما يلاقونه من مقت في حياتهم وبعد مماتهم عبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد .

حوادث في ولاية حسني باشا :

أ ـ قدم إلى طرابلس المستر « كوزمان » من الارجنتين ، وأصدر جريدة سماها (بروجريسو) وصار يطعن فيها على الحكومة الإيطالية ، ويبين نوايا

بنك دي روما السيئة حتى تضايق منه البنك والإيطاليون . وبقي على ذلك عدة أشهر .

ب – جاء إلى طرابلس مصور أمريكي، وبينما كان يصور جامع أحمد باشا مرّ صبي أمام العدسة فشوّه الصورة فضربه، وحضر البوليس لفك المشكلة، فتطاول عليه الاميركي وضربه، فأخذه إلى القسم للتحقيق . وغضب قنصل أمريكا واعتبر هذا إهانة له، وطلب من حسني باشا ترضيته فأجاب لذلك في حفل رسمي بحضور كثير من الأجانب وطرد البوليس من الخدمة بدون وجه قانوني، وانتهزها قنصل الطليان فرصة وطلب من الوالي نفي الصحفي كوزمان، فأجابه لطلبه ونفاه بغير وجه قانوني . وقد استاء لعمله هذا كثير من الاجانب وأهل البلاد . وخرجت الجرائد الإيطالية عن الحد ولم تراع قانون المطبوعات العثماني بإيعاز من البنك . وظل حسني باشا ينعم براحته ولم يحرك ساكناً لكل ما يعمل في طرابلس .

ج – في عهد حسني باشا جاءت لجنة فرنساوية إلى طرابلس للبحث عن مناجم الفوسفات ومعها أمر من نظارة الداخلية العثمانية بوجوب المحافظة على أعضائها، فاحتج الإيطاليون على هذا العمل واعتبروه إهانة لهم وتعدّياً على حقوقهم . وقالوا « إن هذا يمس شرف إيطاليا صاحبة السيادة في طرابلس » .

د – جاءت لجنة أمريكية إلى بني غازي للبحث عن الآثار القديمة، فاعتبر الطليان هذا العمل اعتداء، وطالبت الجرائد الحكومة بإعلان سيادتها على طرابلس، وإجبار الحكومة العثمانية على إخراج اللجنتين .

ودافعت الجرائد المحلية عن الحكومة بأنها حرة التصرف في إعطاء الامتياز لمن شاءت، فزاد ذلك في استياء الطليان، وطلبت جرائدهم إرسال الأسطول الإيطالي لاحتلال طرابلس .

هـ – (مدام كي دافلبين) سيدة فرنسية زوجة طبيب الصحة في طرابلس،

كاتبة فاضلة ساءتها خزعبلات الطليان ونواياهم السيئة في طرابلس ، فأخـذت تكتب في القضية الطرابلسية ، وتفنّد مزاعم الطليان وما يعتمدون عليه من حجج لا أساس لها ، وتصرح بعجز إيطاليا عن احتـــلال طرابلس ، فاستاء الطليان من كتابتها ، وطلبوا من حكومتهم عزل زوجها وإخراجها من البلد ، ورفعوا أمرها إلى الباب العالي ، فوعد بإخراجها هي وزوجها من البلد .

وقد رأى الطليان فيما قدّمه لهم حسني باشا من المساعدات أن الفرصة سانحة للوصول إلى نتيجة هذه المقدمات ، وهي احتلال طرابلس ، ولأمر مـا تأخّر تنفيذ هذه السياسة المبيتة هذه ، فعزل حسني باشا وعين بدله إبراهيم أدهم باشا .

ابراهيم أدهم باشا :

تولى والياً على طرابلس وقائداً عاماً لجيشها في سنة ١٩٠٩ وقد وجد البلاد في ارتباك عظيم وفوضى ما بعدها مزيد . ووجـد النفوذ الإيطالي متغلغلاً في البلاد بسبب سياسة الضعف والإهمال التي اتبعها من تقدّمه من الولاة، وخصوصاً حسني باشا الذي كان طوع إشارة الايطاليين . ووجد الفساد قد دبّ في الإدارة الحكومية بشكل يدعو إلى اليأس من إصلاحها. ولمس ما في الادارة من ارتباك، وما خالط نفوس السكان من هلع من هذا المصير الذي أصبح منهم قاب قوسين . كل هذه الأمور جعلت إبراهيم باشا يجزم بأن طرابلس لم يبق بينها وبين الاحتلال الايطالي إلاّ عشية أو ضحاها . فوقف من سياسة الطليان موقفاً حازماً، وشرع في إصلاح ما يمكن إصلاحه ، وقبض على الأمور بشدة واستعمل نفوذه في كل صغيرة وكبيرة ، وشرع في جمع الرديف وتعليم المتطوعين ليجمع أكبر عدد ممكـن من الجند للدفاع عن البلاد .

وقد كانت صدمته للإيطاليين شديدة ، وخيّب آمال السياسة الايطالية في كل ما وصل إليه نفوذه حتى سمي عدو إيطاليا الأكبر . وكتب عـدة تقارير لحكومة الآستانة ينبهها إلى ما يحيط بطرابلس من خطر السياسة الإيطالية .

وفرض الجندية على الوطنيين ، وأمكنه أن يجمع من البلاد نحو سبعة آلاف جندي . وشرع في تحصين الحدود الغربية الفرنساوية والجنوبية السودانيـة : فوضع قوة في « جنت » « وغات » ووضع خرائط جغرافية حربية للمناطق التي تصلح لحشد الجند والدفاع .

ومنع البنك من إخراج الحجارة الأثرية من قرقارش وناحية جنزور بحجة أنه لا يجوز إخراج المعادن الحجرية بدون رخصة ، وأنها منطقـــة عسكرية ، وقانون الطوبجية لا يسمح بالاقتراب منها . فاشتد الطليان وصحفهم في مناوأته والتطاول عليه ، وهو دائب في عمله لا يقابلهم إلا باللين . وعرض عليه بنك دي روما أن ينير المدينة بالكهرباء بدون مقابل ، محافظة على صداقة العثمانيين فرفض ، فامتعض الطليان وازدادوا كفراً .

وطلب المستر « كوزمان » العودة إلى طرابلس فلم يمانع إبراهيم باشا فخرج الطليان عن دائرة أدبهم ، واحتج سفيرهم لدى الباب العالي وطلبوا عزل إبراهيم باشا . وهذا لم يمنع كوزمان من عودته إلى طرابلس وتجمهر الطليان لمنعه بالقوة، فأحاطته الحكومة بالبوليس ونفذت إرادة إبراهيم باشا ورجع الطليان ولسان الحال يقول لهم ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ .

ولما منع الطليان من البحث عن آثار قرقارش التجأوا الى حكومة الآستانة فأعطتهم رخصة بالبحث عن الآثار في مناطق أخرى .

ومن محاولات إبراهيم باشا للمحافظة على طرابلس أنه لما أيقن بخطر سياسة الطليان، وهو يعلم أن البلاد خالية من الجند والمعدات الحربية ، رفع إلى حكومة الآستانة اقتراحاً هذا نصه :

« حيث انه لا يوجد لدى الدولة قوة بحرية تؤمِّن توصيـــل الأسلحة إلى طرابلس فيما إذا أغارت عليها دولة كدولة إيطاليا، فإنه يجب إرسال كمية وافرة من السلاح لثكنات طرابلس وتأسيس معمل للسلاح أو للرصاص على الاقل في نفس طرابلس ، بحيث يكون في أيدي الاهالي عدة كافية يدافعون بها عـن أنفسهم لأنهم رجال أشداء ذوو بصائر في الحرب » .

فأهمل الباب العالي هذا الاقتراح رغماً عن النذر التي كان بعضها يتلو بعضاً ، بأن إيطاليا ستغير على طرابلس وبرقة .

وقد أدركت إيطاليا أن سياستها في طرابلس معرّضة للخطر ، فلجأت إلى حكومة الآستانة تشكو إليها شدة معارضة إبراهيم باشا لسياستها في طرابلس، فكانت تأتيه الأوامر من حكومة الآستانة بما يرضي الايطاليين، فكان يسوّف ويراوغ في شيء من اللباقة كسباً للوقت وانتهازاً للفرص. وقد ألحّ الطليان على حكومة الآستانة في نقله مـن طرابلس والتجأوا إلى رئيس الوزراء حقي باشا للتأثير عليه في نقله فوافق على ذلك ، وأصدر أمره بعزله في سبتمبر سنة ١٩١١ واستدعاه إلى استنبول ليفسح المجال للاحتلال الايطالي . ولم تعين الحكومة بدله لا وكيلاً ولا أصيلاً . وبقيت البلاد بلا والٍ ولا قائد (١) ، وهو حادث لم يسبق له مثيل، مما يدل على تآمر حقي باشامع الايطاليين على احتلال طرابلس. وبعد عزله بنحو ١٥ يوماً حوصرت طرابلس بالأسطول الايطالي .

وفي أواخر أيام إبراهيم باشا أرسلت إيطاليا بعثة عسكرية للاطلاع على دواخل طرابلس قالت عنها إنها بعثة علمية جغرافية ،والحقيقة أنهابعثةعسكرية من بين أعضائها ضباط من هيئة أركان حرب الجيش الإيطالي لعمل خرائط ومصورات حربية .

وقد بقيت هذه البعثة تتجول في البلاد حتى قامت الحرب وقبض على أعضائها في جمادى الأولى سنة ١٣٣٠ مارس سنة ١٩١٢ وجيء بهم إلى الجبل وكان من بين أعضائها الكونت سفورزا الذي سيأتي ذكره في مفاوضات الشيخ سوف والشيخ سليمان الباروني معه في بنقردان سنة ١٩١٣ .

ولما كان إبراهيم باشا مقيماً في الآستانة وأرسلت إيطاليا إنذارها النهائي إلى الحكومة العثمانية أرسلت اليه لتأخذ رأيه في مسألة طرابلس ، فأجابها بقوله : « اني أدركت الأمر من زمن بعيد ، وأرسلت الى الحكومة تقريراً منذ سبعة

---

(١) انظر التقرير الذي قدّمه نواب طرابلس الى مجلس النواب التركي .

أشهر فلم تلتفت اليه » ثم ترك المجلس وقال : لا أعرف غير ذلك .

ولما طُلب إبراهيم باشا إلى الآستانة ولم تعيّن الحكومة بدله ترك الأمر لبسيم بك الدفتردار . وبسيم بك هـــذا كان دفتردارا في أيام حسين حسني باشا الذي جاء بعده إبراهيم باشا ، ولكنه لم يشارك حسين حسني في تصرفاته ، وهو من الرجال الذين كانوا يعارضونه في سياسته الإيطالية ، وهو وإن كانت تغلب عليه الشيخوخة ، ولكنه أبى إلا أن يكون وفياً لوظيفته وحكومته . وقد أبقاه إبراهيم باشا في منصبه لما عرف فيه من الإخلاص والوفاء .

حقي باشا :

هو رئيس الوزارة العثمانية زمن احتلال الطليان طرابلس . وأول مسؤول عن هذا الاحتـــلال . وهو رئيس العصابة التي بيّتت الشر لطرابلس ومكّنت الإيطاليين من الاستيلاء عليها . وهو إيطالي النزعة من صغره . اشتهر بحبـــه للمدنية الإيطالية ومعاشرة الإيطاليين، ويفضل دائماً التردد على الأندية الإيطالية، وله علاقة ودّية متينة بالسفارة الإيطالية في الآستانة . وقد حمله حبه للايطاليين أن يطلب سفارة روما على أثر استقالته من نظارة المعارف ووكالة نظارة الداخلية. وبعد تعيينه سفيراً بروما ازدادت أواصر المحبة بينه وبين الإيطاليين. ولما استقال حسين حلمي باشا من الصدارة أرسل السنيور ناثان اليهودي شيخ مدينة روما الى جمعية الاتحاد في سلانيك رسالة برقية يطلب فيها أن ترسل اليه أحد معتمديها ، فأرسلت اليه رحمي بك [1] مبعوث سلانيك ، ولما قابله في روما طلب اليه أن يبلغ الجمعية رغبته في تعيين حقي باشا صدراً أعظم . وقد أبلغ رحمي بك هذه الرغبة الى الجمعية فقبلت، واستدعي حقي باشا الى الآستانة في ١١ يناير سنة ١٩١١.

وصدرت الإرادة السنية بتعيينه صدراً أعظم مع الإنعام عليه برتبة الوزارة .

---

(١) رحمي بك هذا صهر حسني باشا والي طرابلس الذي وجدت منه السياسة الايطالية كل مساعدة وكان من اكبر انصارها .

وهو الذي عزل إبراهيم باشا والي طرابلس بناء على رغبة السنيور غالي قنصل إيطاليا فيها ، وأمر بنقل السلاح الموجود بها بحجة إصلاح بعضه ، وإبدال ما لا يصحّ منه بطراز جديد كما، أمر بسحب الجنود منها بحجة الحاجة اليهم في حرب اليمن .

ويقول الأمير شكيب : « وكان يوجد في طرابلس أربعون ألف بندقية من نوع سنيدر فاسترجعتها الحكومة الى الآستانة على وعد أن ترسل بدلاً عنها أربعين ألف بندقية موزر ، ولكنها لم ترسل شيئاً » .

والحقيقة غير ذلك فإنه يريد إخلاء البلاد من معدّات الدفاع ليسهل على الإيطاليين احتلالها . وأخلى القلاع من المدافع والحرس ، ولم يبق في كل قلعة سوى ثلاثة من الجنود من غير ضابط بعد أن كان في كل قلعة ١٥ جندياً وضابط. ولم يبق في القطر كله إلا ألفا جندي بعد أن كان فيه نحو عشرين ألفاً .

وقد فعل حقي باشا هذا في الوقت الذي يعلم فيه كل الناس أن الطليان يستعدون لاحتلال طرابلس وهم على وشك مهاجمتها .

ولما رجع حقي باشا من روما في ١١ / ١ / ١٩١١ وكان سفيراً بها ، سأله محمود شوكت باشا : هل هناك خوف من الطليان على طرابلس ؟ ، فأجابه : لا خوف على طرابلس من الطليان ، ويمكنك أن تأخذ من حامية طرابلس لنجدة اليمن بدون أن تخاف من الطليان أي ضرر .

وهذا إخبار من حقي باشا بغير الحقيقة ، لأن تحرّش الطليان بطرابلس كان أوضح من أن يجهله الرجل العادي في المملكة العثمانية فضلاً عن حقي باشا الذي كان سفيراً لدولته بروما .

وقد سأل مكاتب الجريدة النمساوية الحرة محمود شوكت باشا (١) بصفته وزيراً للحربية عن القوة الموجودة في طرابلس فأجابه بقوله: إن «القوة النظامية

---

(١) تولى محمود شوكت باشا نظارة الحربية التركية بعد عزل حقي باشا .

الموجودة في طرابلس تبلغ ٣٢ ألف جندي، وقد أرسلت إليها في الأيام الأخيرة إثني عشر ألفاً فيكون المجموع ٤٤ ألفاً .

ومن الأسف الشديد أن يصدر مثل هذا البيان من رجل مسؤول ، وهو لا يتفق مع الحقيقة في شيء . وشوكت باشا يعلم قبل غيره أن القوة النظامية في طرابلس لم تبلغ يوماً من الأيام في تاريخ الترك الطويل فيها ٤٤ ألفاً . والذي نعلمه ويؤيده الواقع أن أقصى ما بلغه الجيش النظامي في طرابلس في زمن رجب باشا هو عشرون ألفاً . وقد نقص هذا العدد قبيل الاحتلال حتى وصل الى ألفين في زمن وزارة حقي باشا ، وهو الذي كان أمر بسحبه منها بحجة الاستعانة به في حرب اليمن ، وليس هذا إلا مجرد تمويه ، فإن للحكومة ولايات في الشرق أقرب إلى اليمن منها إلى طرابلس ، وأغنى منها بكثير ، وفيها من المعدّات الحربية أكثر مما في طرابلس . والحق الذي تؤيده جميع الظواهر ومجاري الأمور أن وزارة حقي باشا كانت مهدت جميع السبل لاحتلال طرابلس .

فهذا التصريح من شوكت باشا وزير الحربية لا يتفق مع الحقيقة في شيء [1] .

---

(١) روى الأمير شكيب في تعليقه على تاريخ ابن خلدون حكاية سمعها من انور باشا يوم ان كانا معاً في معسكر عين منصور بالجبل الأخضر ببرقة سنة ١٩١٢ فقال :

« استأذن انور باشا في السفر الى طرابلس ، فقال له شوكت باشا (ناظر الحربية): لا أرى فائدة من سفرك، وربما يقتلك العرب في الطريق لأن الطليان يقدرون ان يرشوهم بالمال فيغتالوك. فقال له انور : « لقد اهملنا طرابلس اهمالاً فظيعاً ضاقت فيه فسحة العذر ، فيجب علينا ان نعوض تفريطنا في حقها ، وان نبذل كل ما نستطيعه في سبيل الدفاع عنها ، واذا كان العرب يقتلوننا فيكون الذنب ذنبهم ونعود نحن معذورين » .

ولما رأت الدولة اصرار انور على الجهاد بنفسه في طرابلس زودته بخمسة آلاف جنيه لا غير لاعتقادها عقم حركته هذه ، فذهب ومعه عدة ضباط مروا بمصر متنكرين . وكان مصطفى كال من جملة هؤلاء الضباط وما كاد يصل برقة حتى وافته الأخبار بانتصار العرب على الطليان فاشتد عزمه وأخذ في السفر .

وإذا ضممنا إليه ما عُرف عن أعضاء جمعية الإتحاد والترقي من الآراء المتطرفة بشأن طرابلس ، وما عرف عن حقي باشا من إهمال شأن طرابلس إهمالاً زائداً على كل تقدير اتضح لنا أن الذين بيدهم مقاليد الحكم زمن الاحتلال كان بينهم شبه إجماع على تسليم طرابلس .

ولما عُزل إبراهيم باشا ولم تعين الحكومة بدله احتجّ نواب طرابلس في الآستانة على بقاء البلاد على هذا الوضع الشاذ في هذا الوقت الذي يعدّ فيه العدو نفسه للهجوم عليها ، فعيّنت بكر سامي والياً عليها في رمضان سنة ١٣٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ ولم يكن هـذا العلاج إلا تسكيناً للعواطف الثائرة على الحكومة بالانتقاد لهذه التصرّفات السيئة في هذه الأوقات العصيبة .

ولم يرسل بكر سامي إلى طرابلس رغماً على وعد الحكومة بإرساله ومطالبتها به تنفيذاً لرغبة الطليان في بقاء البلاد من غير حاكم لأن وقت الاحتلال قد قرب . وكان في إمكان الحكومة أن تعيّن والياً من العثمانيين الموجودين في طرابلس كالدفتردار وغيره ، ولكن هكذا شاءت حكومة الآستانة لتترك لنفسها مندوحة لانتحـال ما يشبه أن يكون عذراً وما هو بعذر ، ولكنه التمويه وألاعيب السياسة الضالة .

وكان حقي باشا أغلب أوقاته في مـنزل روبيلان باشا الإيطالي مفتش الجاندرمة يقامر مع بناته ومن يجتمع معهن من الفتيات الإيطاليات إلى ما بعد نصف الليل . وفي ليلة ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ — وهي الليلة السابقة لليوم الذي تسلّم فيه حقي باشا الإنذار بعزم إيطاليا على احتلال طرابلس — كان حقي باشا يقامر مع بنات روبيلان في منزلهن ، فقالت له كبراهن : « يا فخامة الباشا غداً ستتلقى لائحة من السفارة الإيطالية » تعني الإنذار بعزم ايطاليا على احتلال طرابلس ، قالت ذلك وقهقهت . وفي هذه القهقهة من السخرية ما خفي على حقي باشا فهمه . وفي صبيحة تلك الليلة دخل عليه السفير الإيطـالي في الآستانة « ده مارتينو » وسلّمه الإنذار الإيطالي .

ولما رجع حسين كاظم باشا السفير العثماني بروما إلى الآستانة ، بعد إعلان إيطاليا الحرب سأله مندوبو الصحف عن المسألة الطرابلسية فقال : « إني كتبت إلى نظارة الخارجية منذ شهر يناير سنة ١٩١١ بأعمال إيطاليا ضد طرابلس ، ونبهتها للخطر الإيطالي الذي يهددها ويهدد الحكومة العثمانية ، ولما رجعت الآن بعد تسعة أشهر وجدت جميع مكاتباتي التي كنت أُرسلها إليها لم تُفتح .

ويقول الأمير شكيب : « وقد أغفل حقي باشا الاطلاع على مثل هذه النوايا من إيطاليا . ومن أجل ذلك استقال ملوماً، بل مغضوباً عليه ولم يقدر أن يدافع عن نفسه .

وذلك في مجلس عقد ـ فوق العادة ـ في القصر السلطاني إثر مطالب خمسة قدّمتها إيطاليا إلى الباب العالي وهي :

(١) خروج العساكر العثمانية من طرابلس وبني غازي ودرنه

(٢) تشكيل جندرمة فيها تحت قيادة ضباط من الطليان .

(٣) أن تكون إدارة الجمارك بأيدي موظفين من الطليان .

(٤) لا يتعيّن وال لطرابلس إلا برضا إيطاليا .

ووجّه رئيس مجلس الشيوخ « سعيد باشا » لحقي باشا كلاماً قال فيه : إن مطامع إيطاليا لم تكن مجهولة عند تركيا وأنه سبق لإيطاليا أن قدّمت مذكرة في سنة ١٩٠٤ بعد اتفاقها مع انجلترا وفرنسا .

وقد توجّه اللوم في هذا المجلس إلى حقي باشا إلخ . ما قال الأمير شكيب ، وقد أجاب الباب العالي برفض مطالب إيطاليا قائلاً لها : « إذا كانت ايطاليا تصمم على احتلال طرابلس فإن الدولة تقوم بالواجب عليها بإزاء اعتداء ايطاليا» .

حماقة :

في اليوم الذي تسلـّم حقي باشا فيه الإنذار بعزم إيطاليا على احتلال طرابلس دخل عليه سفير فرنسا لحاجة له ، وانجرّ بهما الحديث إلى إيطاليا وطرابلس ، فقال السفير : فأشرت على حقي باشا بترضية ايطاليا وحلّ المسألة ودياً ، فقال له حقي باشا : نحن لا نبالي بإيطاليا ولا يهمنا أمرها .

ويعلم الله وحقي باشا أن هذا تمويه لا أكثر ولا أقل .

وخرج السفير الفرنساوي من عنده فالتقى بسفير ايطاليا ده مارتينو داخلاً عليه وفي جيبه الإنذار ، وكان قد علم قبل ذلك أنه سيقدم اليوم إنذاراً لحقي باشا بشأن احتلال طرابلس ، فانتظره حتى خرج ، فسأله عما جرى بينهما فقال:

« إني أخرجت البلاغ من جيبي وقدّمته لحقي باشا طالباً منه أن يقرأه ، فتناوله مني باسماً وألقاه أمامه وقال : شكوى أخرى لكم يا حضرة السفير ، إني سأنظر فيها وأجيب حضرتكم بعد أيام قليلة . فتبسمت وقلت : « إنها أهم من شكوى عادية . فأرجو أن تتفضلوا بقراءتها الآن لأن حكومتي قد ضربت فيها أجلاً للجواب. ففضّ الظرف وقرأ ما فيه، ولما رأيت علامات الاضطراب قد بدت على وجهه ودّعته وانصرفت » .

هذا ما يرويه سفير فرنسا فيما يتعلق بكبير وزراء الدولة العثمانية ، وما دار بينه وبين سفير ايطاليا في هذه الفترة العصيبة التي طعن فيها سفير ايطاليا حقي باشا بخنجر في قلبه ، فلم يألم لذلك ، بل تبسّم له ، فنبهه بأن يشعر بالألم فشعر ، فتركه يتلوى ومضى . أفلا يعد هذا حماقة ؟!.

وهذا نص الانذار :

« يا صاحب الدولة: ما انفكـّت الحكومة الإيطالية منذ سنين تذكـّر الباب العالي بضرورة وضع حد لسوء النظام وإهمال الحكومة العثمانية في طرابلس وبني غازي، وإنالة هذه البلاد ما تتمتع به جميع أقسام إفريقية الشمالية. وهذا التغيير

الذي يقتضيه التمدّن يجعل المصالح الحيوية بحسب ما تستلزمه مصلحة إيطاليا في أول درجة بالنظر لقصر المسافة بين تلك البلاد والشواطىء الإيطالية. وبالرغم من حسن مسلك الحكومة الإيطالية ، التي كانت دائماً موالية ومعاضدة لتركيا في كثير من المسائل السياسية في العهد الأخير ، وبالرغم على اعتدالها وصبرها حتى الآن كانت الحكومة العثمانية تجهل رغائبها في طرابلس ، وفوق ذلك كانت جميع مشروعات الطليان في تلك الأصقاع تلاقي دائماً مقاومة مطردة لا تحتمل .

فالحكومة العثمانية هي التي كانت تبدي عداءً دائماً نحو الحركة الإيطالية الشرعية في طرابلس وبني غازي ، وما زالت كذلك حتى الآن . واقترحت الحكومة الملكية الإيطالية أن تتفاهم معها ، وأعلنت أنها ميّالة إلى أن تمنح أي امتياز اقتصادي يتفق مع المعاهدات النافذة وشرف تركيا ومصالحها . ولكن الحكومة الملكية الإيطالية لا تشعر الآن أنها في أحوال موافقة للدخول في المفاوضات بهذا الموضوع : المفاوضات التي برهن الاختبار على عدم نفعها ، وهي لا تشتمل على ضمانة للمستقبل ، ولن تكون إلا سبباً للاحتكاك والنزاع .

ومن جهة أخرى فقد وردت الأخبار الى الحكومة الملكية الإيطالية من قنصليها في طرابلس وبني غازي تفيد أن الحالة هناك خطرة جداً بسبب التحريض العام على الرعايا الإيطاليين ، ذلك التحريض الذي قوّاه الضباط وسائر موظفي الحكومة حتى أصبح خطراً شديداً لا على الإيطاليين فحسب بل على سائر الأجانب أيضاً على اختلاف جنسياتهم . ولما أصبحوا يخشون على حياتهم شرعوا يهجرون البلاد بسرعة .

ثم إن وصول النقّالات العسكرية العثمانية الى طرابلس زاد الحالة خطراً وحرجاً ، مع أن الحكومة الملكية الإيطالية نبّهت الحكومة العثمانية الى نتائجه السيئة من قبل . ولهذا فالحكومة الملكية مضطرة الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة دفعاً للخطر الناجم عنه .

ولما رأت الحكومة الإيطالية نفسها مضطرة إلى الحرص على شرفها ومصالحها قرّرت أن تحتل طرابلس وبني غازي احتلالاً عسكرياً . هذا هو الحل الوحيد الذي تعوّل عليه ايطاليا .

والحكومة الملكية تنتظر أن تصدر الحكومة العثمانية أوامرها حتى لا تصادف ايطاليا في الاحتلال معارضة من رجال الحكومة العثمانية ، ولا تجد صعوبة في إنفاذ ما تريد انفاذه ، وبعد ذلك تتفق الحكومتان على تقرير الحالة اللازمة .

وقد صدرت الأوامر للسفير الإيطالي في الآستانة بأن يلتمس جواباً جازماً في هذه المسالة من الحكومة العثمانية في مدة أربع وعشرين ساعة من تسليمه هذا البلاغ ، فإذا لم تجاوب عليه كانت الحكومة الإيطالية مضطرة الى تنفيذ المشروعات المدبرة لضمان الاحتلال ، وترجو أن يبلّغ جواب الباب العالي المنتظر في اربع وعشرين ساعة لنا على يد السفير العثماني في رومة » .

وزير الخارجية

في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١ — سان جوليانو

وقد اضطرب حقي باشا لهذه الكارثة ونسي أنه هو الذي مهّد لوقوعها ، وهيّأ لها أسبابها بيديه ورجليه ، ونهض من فوره إلى مقابلة جلالة السلطان محمد الخامس ليطلعه على البلاغ ، ولما قرأه جلالته ظهرت عليه علامات الغضب والانفعال ووبّخ حقي باشا توبيخاً شديداً وقال له: «لقد خربت الدولة في سنتين» ثم طرده من حضرته .

رد الحكومة العثمانية :

وقد ردّت الحكومة العثمانية على هذا الإنذار بما نصه :

« إن طرابلس الغرب ولاية عثمانية لا يتخلى عنها الباب العالي بأي حال من

الأحوال ، والطليان المقيمون بها لا خطر عليهم البتة ، ولا لزوم مطلقاً لإرسال جنود إيطالية إليها ، فإن حماية الطليان فيها هي من واجبات الحكومة العثمانية ، كما أنه لا خوف على مصالح الطليان التجارية هناك .

ولما كانت العلائق الودية لا تزال متصلة بين الدولتين فالتجهيزات التي قامت بها إيطاليا في البر والبحر تخالف عواطف الولاء ، وتضاد تلك العلائق ، بل هي تعاكس التأكيدات التي قامت بها حكومة الطليان مؤخراً بتصريحها بلسان وزير خارجيتها باعترافها بسلامة الأراضي العثمانية ، وبأنها لا تنوي احتلال طرابلس الغرب .

وعلى كل حال فالباب العالي مستعد للدخول في المخابرات بشأن مطالب إيطاليا ، وإذا رفضت ذلك فلها متابعة مقاصدها ، وإذ ذاك تقوم الحكومة العثمانية بما يفرض عليها » .

وهذا الجواب سلم إلى سفارة إيطاليا في الساعة السادسة من صباح يوم الجمعة ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩١١ .

وقد عثرتُ على رواية أخرى لهذا الرد ، ولما بينهما من الاختلاف البيّن أحببت أن نثبتها معاً ليختار القارىء من مجموع ما اشتملتا عليه ما يوافق نص الإنذار ويكون أمسّ بالموضوع . وهذا نص الرواية الثانية :

« إن سفارة جلالة الملك تعلم حق العلم الأسباب التي دعت ولاية طرابلس وبني غازي ألاّ يكون لها من الترقي والمنافع النصيب المروم . وإذا نظر المرء بإنصاف إلى الحقيقة يرى أنه لا يمكن جعل الحكومة الدستورية مسئولة عن حالة هي نتيجة الحكم الماضي . ولكن بالرغم مما تقدم قد بحثت حكومة الباب العالي في أعمال السنوات الخمس الدستورية فلم ترَ فيها معارضة للأعمال الإيطالية النافعة .

إن اشتراك رؤوس الأموال الإيطالية في ترقية شئون هذه الولاية العمرانية أمر طبيعي في نظر الحكومة السلطانية ، فقد قابلت بكل ارتياح المشروعات

التي تقدّمت لها، ونظرت بعين الرعاية إلى الأعمال التي أشارت اليها سفارة جلالة الملك ، فهي لم ترجع أبداً عن هذه الأفكار وعن رغبتها في توثيق حسن الصداقة بين الحكومة في دائرة الثقة المتبادلة والمودة . والاقتراح الأخير الذي اقترح على السفارة الإيطالية وهو رغبة الحكومة العثمانية في إعطاء امتيازات للحكومة الإيطالية توسع دائرة حركة ايطاليا الاقتصادية في الولاية هو أكبر دليل على ذلك. فالحكومة العثمانية التي تعلم حق العلم ما توجبه عليها الاتفاقات الدولية المعقودة مع الحكومات الأخرى ، والتي لا يمكن إلغاءها بمجرد رغبة أحد المتعاقدين ترى أنها تساهلت كثيراً في إجابة رغائب الحكومة الإيطالية الاقتصادية، ودلّت على رغبتها في المسألة .

أما ما يتعلق بالأمن العام فالحكومة السنية تصرح الآن بما صرحت به قبلاً وهو أنه ليس هناك أثر للقلق والهياج على الإطلاق سواء كان ضد الإيطاليين أو ضد الأجانب المقيمين في طرابلس الغرب وأن البوليس يقوم بواجباته بكل ضبط ودقة .

ولا ترى الحكومة في إرسال الباخرة التي أُرسلت قبل ٢٣ الجاري دون أن تحمل عسكراً ما يدعو إلى القلق والهياج .

فيظهر مما تقدم أن الخلاف ينحصر الآن في عدم إعطاء الضمانات الكافية لرؤوس الأموال الإيطالية في طرابلس وبني غازي . فحكومة الباب العالي تبلغ الحكومة الإيطالية إستعدادها للاتفاق معها ما دامت لا تلجأ الى الاحتلال العسكري . وبناء عليه تطلب من الحكومة الإيطالية أن تقدم لائحة بطلبها التي تقبل بلا شك ما دامت لا تمس سيادة الدولة العلية الفعلية على الولاية المذكورة.

ويتكفل الباب العالي ألا يحدث أقل تغيير في حالة طرابلس الغرب وبني غازي العسكرية في أثناء المفاوضات . ويأمل من حكومة جلالة الملك التي تقدر هذه العواطف الودية أن تجيب هذا الاقتراح » .

هذا هو نص ردّ الحكومة العثمانية على الإنذار الإيطالي . وهــو ردّ فاتر ولغته لغة الذي ملك الخوف عليه مشاعره فتلجلج لسانه وخارت قواه . وعلى رغم ما فيه من الضعف والمسكنة لم يحد من تهيج الإيطاليين ، بل زاد إغراءهم بالحكومة العثمانية فمضوا في تنفيذ خطتهم وأرسلوا اليها انذاراً بإعلان الحرب . وهذا نصه :

« ترابيا في ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١

« صاحب الدولة :

بناء على أمر حكومة مولاي الملك المعظم يتشرف وكيل أشغال السفارة بأن يبلغكم ما يأتي :

إن المدة التي عينتها حكومة جلالة الملك أخيراً للحكومة السلطانية لتحقيق الوسائل التي أصبحت لازمة قد انقضت دون أن تبلغ حكومة جلالتــه رداً مرضياً . وتأخر إعطاء هذا الرد يؤيد عدم إرادة الحكومة أو السلطة المحلية وعجزهما اللذين كثرت الدلائل عليهما عن تأييد الحقوق والمصالح الإيطالية في طرابلس الغرب وبني غازي . ولذلك ترى حكومة جلالة الملكة نفسها مضطرة إلى اتخاذ الوسائط للمحافظة على حقوقهـــا ومصالحها وصيانة شرف الحكومة واعتبارها . ويجب عد الحوادث التي ستجيء – وإن كانت مؤلمة – نتيجة لسوء المسلك الذي سلكته الحكومة السلطانية منذ زمن بعيد .

ولما كانت صلات الودّ والسلام قد انقطعت بهذه الصفة بين البلدين فحكومة إيطاليا تعتبر نفسها محاربة منذ الآن للحكومة العثمانية .

لذلك يتشرف موقـّعه أن يخبر فخامتكم أن أوراق اعتماد وكيل سفارة الدولة في رومة قد سلـّمت إليه ، ويلتمس منكم تسليمه أوراق اعتماده بلا تأخر . وقد كلفتني حكومة جلالة الملك أن أبلغ فخامتكم أن الرعايا العثمانيين يستطيعون البقاء في البلاد الإيطالية مصونة أملاكهم ، وأشغالهم وأشخاصهم .

وتفضلوا يا صاحب الفخامة بقبول احتراماتي الخالصة » ج . ده مرتينو

وقد كشفت إيطاليا بهذا الإنذار عما كانت تخفيه من حقدٍ للدولة العثمانية واستهتار بحقوقها ، وعما كانت تعتزمه من احتلال طرابلس بقوة الحديد والنار.

وقد وقع هذا الإنذار موقع الاستياء من كثير من فضـــلاء العثمانيين وفي مقدمتهم جلالة السلطان محمد الخامس ، وظهر استياؤه في عبارات صرّح بهـا للمبعوثين تدل على ما تركه هذا العدوان الفظيـع في نفسه من ألم . فقد اجتمع في أكتوبر سنة ١٩١١ ستون مبعوثاً ثم انتدبوا عنهم وفداً قابل جلالته للتكلم معه بشأن المسألة الطرابلسية . فقال في خطبة ألقاها عليهم : « إنه كان يريد جمع المجلس ، ولكن وزارة حقي باشا حالت دون ذلـــك » . وزاره وفـد آخر من غير المبعوثين للغرض نفسه ، فقال : « إنني أردت أن أجمع مجلس المبعوثان قبل الآن فعــارضتني وزارة حقي باشا ، وهذه الوزارة كانت مسيَّرة بإرادة جمعية الاتحاد والترقي . »

وقال جلالته : « إني كنت أحب أن تكون جميع استحكامات الدولة كالتي رأيتها في أدرنـــة وسلانيك ، ولكن وزارة حقي باشا أهملت أمر طرابلس ، ومعلوم أن جمعية الاتحاد والترقي أعلنت خطتها منذ عام أو أكثر تجاه طرابلس ، فقالت بضرورة الاقتصاد في نفقاتها الحربية . وحلت الألايات الحميدية التي أنشأها المشير رجب باشا في عهد السلطان عبد الحميد وجرّدت الأهالي من السلاح » .

فهذا الكلام من جلالته أمام الوفود التي جاءت تظهر استياءها من الاعتداء الإيطالي على طرابلس شهادة منه بسوء نية جمعية الاتحاد والترقي نحو طرابلس ، وأنها كانت التكأة التي يعتمد عليهـــا حقي باشا في خدمة السياسة الإيطاليـة لاحتلال طرابلس . وهو صريح في أنه كان يتألم من معارضتها له ولكنه حيل بينه وبين ما يشتهي ، وفي أنه يتبرأ من تبعية وزارة حقي باشا ويستنكر هذا الاعتداء الفظيـع .

ومما يؤثر عن جلالته بشأن المسألة الطرابلسية أنه قال :

« إني طالعت تواريخ العالم فلم أر اعتداء على الحقوق أفظع من هذا الاعتداء الذي ارتكبته إيطاليا . »

وقد أرسل جلالته في اليوم الثـاني من أكتوبر سنة ١٩١١ تلغرافاً إلى كل من ملك الإنجليز والامبراطور غليوم يطلب اليهما التدخل لإنهاء هذه الحرب .

فأجابه ملك الإنجليز معرباً عن أسفه وأنه لا يستطيع التدخل .

وأجابه غليوم إمبراطور ألمانيا معرباً عن احترامه لشخصه ، وأنه أصدر التعليمات لسفيره في روما للتوسط . ثم أظهر لجلالته أن انفراد ألمانيا بالتوسط من غير أن توافقها في ذلك دول أوروبا يجعل هذا التوسط غير مضمون النجاح ، بل يجعله عديم الفائدة . »

وقد صرح سفير ألمانيا في الآستانة للصدر الأعظم بأنه لا فائدة من تدخل الإمبراطور .

وهذا نوع من الصراحة السياسية مكسو بثوب من المجاملة يقصد منه إفهام جلالة السلطان أن ألمانيا لا شأن لها بهذا التدخل .

وقد قدّمنا آنفاً أن دول أوربا ـ وفي مقدمتها انجلترا وألمانيا ـ متفقة على تسليم طرابلس للطليان .

ولم تخف جريدة الماتان الفرنساوية سرورها باحتلال طرابلس وإعلان الحرب على الدولة العثمانية ، فقد نشرت بتاريخ ٢٦ مارس سنة ١٩١٢ ما نصه : « إن الحرب التي أعلنتها إيطاليا في طرابلس ليست حرباً خاصة ، ولكنهـا حرب المدنية على الهمجية ، وصولة النصرانية على الإسلام ، ولهـاتين الصفتين صارت إيطاليا جديرة بعطف الدول الأوروبية عليها » .

وقد نشرت «الماتان» هذا الكلام بعد أن مضى على ايطاليا نحو نصف سنة في طرابلس ولم تتجاوز أسوار المدينـــة لتستنهض همم أوربا لمعاونتها على الحرب

الطرابلسية في لهجة تستفز بها شعور النصرانية لحرب صليبية أخرى .

وهذه هي الحقيقة التي يجب أن نفهمها دائماً من غزو الأوربيين للبلاد الشرقية. وكل ما جاء على غير هـذا النمط من الصراحة إنما هو مجاملات سياسية لا تمت الى الحقيقة بصلة .

وإن الإنسان ليقرأ في ثنايا كلام السلطان محمد وحيد الدين أسف من لا يملك من الأمر شيئاً، وتحسُّر من سلبت إرادته وهضمت حقوقه، وقد صرح بملء فيه بما يفهم منـه أن وزارة حقي باشا هي المسؤولة عن هـذا العدوان الفظيع عن طرابلس ، وأن جمعية الاتحاد هي التي أهملت أمر طرابلس .

ومن العثمانيين الذين أظهروا استياءهم من تهجم الطليان سعادة المشير فؤاد باشا ، فإنه لما سمع أن الطليان أرسلوا انذاراً للباب العالي أخرج وسامـين كانت حكومة ايطاليا قد أهدتها اليه ، ووضعها في علبة وأرسلها الى سفـارة ايطاليا في الآستانة ومعها خطاب قال فيه : « انني يا حضرة السفير أعيد اليك الوسامين اللذين أخذتها من حكومتك لإنني أرى من العـار على جندي عثماني أن يحمل وسامات دولة تعتدي اعتداء اللصوص كدولة ايطاليا » .

وكثير من العثمانيين يحملون مثل هذا الشعور النبيل ضد إيطاليا . ولكن ماذا يفيد هذا الشعور وقد ملك الأمر علينا وعليهم جمعية الاتحـاد والترقي ، وأساءت إلينا في غير اكتراث ولا مبالاة . وسلمت قطراً من الأقطار العربية المسلمة إلى اعداء العربية والاسلام .

ولمناسبة ما أُشيع إذ ذاك من قرب اعتـداء الطليان على طرابلس تحدّث فخري باشا إلى سعيد باشا رئيس الوزارة المصرية واللورد كتشنر لافتاً نظرهما إلى العواقب الوخيمة التي تلحق مصر من وجود دولة مستعمرة على حدود مصر الغربية . فأجاب اللورد كتشنر بأن انجلترا جعلت هاتين الولايتين العثمانيتين من نصيب إيطاليا. فردّ عليه فخري باشا بأن الدول الكبرى تصرّفت فيما هو ملك

لغيرها . وأن تصرفها هذا لا يفيد طرابلس ولا تركية ولا مصر ، وهي البلدان التي يهمها الأمر قبل غيرها . ونحن نعلم أن انجلترا كانت من أكبر المحرّضين على احتلال طرابلس وبرقة .

ولم يفت فخري باشا أن يتحدث إلى حقي باشا مقترحاً عليه أن يتحصل على فرمان سلطاني يولي خديو مصر أمر طرابلس الغرب وبرقة بوصفه ممثلاً للسلطان العثماني. وأبان له أن الحدود المشتركة والعنصر والدين واللغة والمصلحة والشعور، كل ذلك يجمع بين الشعبين ، وأن هذا الحل كفيل بأن يساعد على صون مصالح الولايتين مع مصالح مصر وتركية .

ولكن حقي باشا كان في شغل عن العمل بهذه النصائح. فإن إيطاليا ملكت عليه شعوره وعقله بحيث جعلته لا يسمع إلا ما تقول. ولا يعقل إلا ما تشير به.

احتجاج :

وقد وقف نواب طرابلس وبرقة من أعمال حقي باشا موقفاً مشرفاً ، وانتقدوا سياسته انتقاداً مراً، وبيّنوا ما جرّته حماقته على طرابلس من الويلات، واتهموه بالخيانة العظمى ، وطلبوا محاكمته أمام الديوان العالي ، وقدّموا بذلك تقريراً إلى البرلمان التركي ، وانضم إليهم كثير من نواب العرب مشاركة لهم في شعورهم وإظهاراً للوحدة العربية .

ولا يفوتنا أن نسجل هذا التقرير الذي قدّمه نواب طرابلس في مجلس المبعوثان الى البرلمان التركي ،وهو من الوثائق التاريخية في سجل الوطنية مصحوباً بالإعجاب والتقدير . وهذا نصه [١] :

« أيها السادة : إن طرابلس الغرب البائسة قد أمست بصولة أعداء العدل

---

(١) يلاحظ أن هذا التقرير كتب بالتركية ، وقد عثرت على ترجمة أخرى تخالف التي نقلتها في بعض العبارات ، ولكنها تتفق معها في المعنى .

والإنسانية عرضة للانفصال عن وطننا الطاهر، وإذا فقدنا طرابلس الغرب يفقد بها وطننا العزيز المقدس ربع أراضيه ، وتفقد أمتنا المجيدة مليونين من أبنائها ، وتفقد السلطنة العثمانية ما بقي لها من السلطان في إفريقية. وأخيراً تفقد الخلافة الإسلامية ارتباطها المحسوس بتسعين مليوناً من المسلمين في القارة الإفريقية .

نرى الدنيا تباهي بالمدنية والإنسانية، ولكن بالرغم من هذه المزاعم الكاذبة لا يستطيع أحد أن ينكر أن الحق لا يزال للقوة إلا إذا كان مكابراً ولا أثر للاذعان في قلبه . من أجل ذلك نبكي دماً ، لعلمنا أن القوى العثمانية لا تقدر على الدفاع عن طرابلس الغرب وبني غازي ، وأن تلك الإيالة المفتقرة إلى قوة بحرية عظمى ، لا تزال منقطعة عن السلطنة العثمانية ، ولا صلة بينها وبين عاصمة العثمانيين .

إن المحافظة على طرابلس الغرب من أعدائها الذين في جوارها تتوقف على وجود قوة عثمانية تكافىء قوتهم ، وعلى بحرية عثمانية رهيبة تقابل بحريتهم .

نحن لا ننكر إهمال الحكومة السابقة الخائنة لأمر التربية القومية ، والقوة البحرية العثمانية ليس مما يتلافى في بضع سنوات ، ولكن الدنيا كلها وضمائر الأمة أجمعها تعتقد انه كان من الممكن إعداد القوى للدفاع عن هذا الوطن البائس وتأخير الاستيلاء عليه ، أو على الأقل اتخاذ بعض الوسائل السياسية الخارجة عن هذه القوى لصون الشرف العثماني و كرامة الأمة .

ليست القوة البحرية الدولية هي وسائل الاحتفاظ بحقوقنا ومصالحنا في مثل ولاية طرابلس ، بل كان يعوزنا في الوقت نفسه أن تكون لنا سياسة خارجية متينة وواضحة ، وتشكيلات إدارية مالية تتفق ومصلحة البلاد ، وتنظيمات حربية تلائم موقع طرابلس وخصائصها .

ثم إن هذا الوطن العثماني المقدّس في حاجة إلى الاتفاق مع دولة تتكفل باستقلاله وبقائه بقوتها الحربية البحرية ، لا بالألفاظ والوعود الكاذبة ، كما كان

شأننا إلى هذا اليوم .

أما الوسط الخاص بطرابلس وبني غازي فيلزم أن تكون له تشكيلات إدارية واقتصادية تلائم وضعه الجغرافي والقومي ، وذلك بأن يكون ذا إدارة ملكية ومالية ، وتشكيلات عسكرية وطنية ، يضمنان بقاءه وحياته منفرداً إلى الأبد ، يخفق على أرجائه العلم العثماني الجليل .

أجل ، إنه لم يكن من الممكن إكمال أسطولنا بالسرعة التي كانت الأمة ترجوها وتنتظرها ، ولكن ألم يكن من الممكن الشروع في الوسائل الإدارية والمالية والعسكرية التي ذكرناها ؟

إننا –ويا للأسف– لم نحاول أن نعمل شيئاً،ولم نحرك ساكناً لإصلاح سياستنا الخارجية والتشكيلات المالية والترقية العسكرية ، وتركنا طرابلس وبني غازي لنتائج سياسة اتفاق الدول عليها ، وخدعنا أنفسنا بأنفسنا ، إذ أعلنّا للدنيا ولساسة أوروبا الطامعين أننا بسطاء لا شأن لنا إلا بحب السلام .

اخترنا لأنفسناخطة هي أشبهبالبطالة والجهل، وهي أسقم الخطط وأسخفها، فجاهرنا إخواننا الطرابلسيين بالنفور منهم وعدم الثقة بهم والاطمئنان اليهم كما فعلنا ذلك مع غيرهم من إخوانناسكان الممالك العثمانية مع أن الطرابلسيين الأبطال هم الذين يسفكون دماءهم اليوم من أجل الوطن المحبوب .

ومن جرّاء هذه الخطة السخيفة لم نعمل شيئاً ، فظهرت الثورات في بلادنا ، واشتعلت المملكة بالحروب الداخلية فضعف جسم الوطن . وليس ذلك فقط ، بل أهملنا النظر في إصلاح ماليتنا . وهذا بيت المال يرزح تحت أثقال الملايين من الديون ، وتركنا طرابلس الغرب تئن من آلام الجوع والبؤس ، ولم نترك في أرجائها إلا جسماً ضعيفاً عاجزاً ، حتى انتهى الأمر – بإهمالنا وغفلتنا – أن أصبحت طرابلس إلى هذا اليوم خالية من الجيش ومن وسائل الدفاع ، ومن كل أنواع الاستعداد . ولم تقف بنا الحال عند حدّ الإهمال في الماضي، بل عزمنا على

الاستغناء بتاتاً عن اتخاذ شيء من هذه التدابير والوسائل الجديّة .

لذلك فعلت وزارة حقي باشا التي فاقت حكومة الدور السابق في الإهمال والغفلة والعطلة وعدم التفكير .

من ذلك أنها لم يخطر أبداً في بالها أن تدّخر في طرابلس وبني غازي مايكفي جيشنا المرابط هناك من الأرزاق والمؤن والذخائر الحربية التي من شأنها أن تردّ شكيمة أعدائنا الطامعين في الاستيلاء على بلادنا ، أو تؤخر زمن شروعهم فيما يعللون به نفوسهم .

ثم إن هناك من الأغلاط السياسية والإدارية الأخرى التي ارتكبتها وزارة حقي باشا بشأن طرابلس الغرب ما يضطرنا ـ نحن مبعوثي هذه الولاية ـ إلى أن نذكرها بكل حزن وأسف .

إنقاص الجيش :

فأول ذلك أن طرابلس الغرب ـ حتى في عهد الإدارة السابقة ـ كان يوجد فيها دائماً من خمسة عشر الفاً إلى عشرين الفاً من الجيش النظامي ومن وراء هذا الجيش أربعون إلى خمسين الف مقاتل من جنود الآلايات الحميـدية المعلمة تعليماً عسكرياً بحيث يمكن استخدامها في الدفاع عن البلاد في حين الحاجة إليها . أما وزارة حقي باشا فإنها ـ فضلاً عن عدم اهتمامهـا لهذه العدّة الرهيبة ـ أهملت أيضاً العمل بما جاء في ميزانية هذه السنة من إقـرار استخدام تلك الآلايات . وفوق ذلك فإنها سحبت القسم الأكبر من جنود طرابلس النظاميين لقتال أهل اليمن ، ثم لم ترجعهم بعد ذلك ولم ترسل جنوداً بمقدارهم إلى هذه الولاية .

ثم إن جنود الفرسان في طرابلس كانوا بنصّ ميزانية السنة الماضية آلايين (ثماني أرطه) وهما الآلاي السابع والثلاثون والآلاي الثامن والثلاثون، فسحبت وزارة حقي باشا نصف هؤلاء الفرسان من طرابلس ، ولم تبق فيها غير آلاي

واحد (أربع أرط [1]) .

إهمال تجنيد الطرابلسيين :

ثانياً — لمّا قدمنا إلى هذا المجلس على أثر إعلان الدستور ، صار الشعب الطرابلسي ينتظر بفروغ الصبر أن تعمل الحكومة ما يجعل طرابلس في مأمن من اعتداء العدو الطامع فيها . وكثيراً ما كانوا يرسلون المحاضر يتعجّلون بها هذا الإصلاح الواجب . وقد طالما طلب أهالي طرابلس منا أن نستعجل الحكومة بتطبيق نظام التجنيد على أولئك الأهالي ، وكنا نبلغ الحكومة ذلك شفاهاً وتحريراً ، حتى تمكن المجلس في اجتماعه الثاني من تخصيص نفقات للجنة التجنيد التي سترسل إلى طرابلس مؤلفة من قائمقام وكاتب ألاي وأربعة ضباط برتبة يوزباشي ، وثلاثة عشر ضابطاً برتبة ملازم أول ، وواحد وعشرين شاويشاً . وبالرغم على أن هذه النفقات كانت داخلة في ميزانية السنة الماضية لم ترسل اللجنة في تلك السنة ، بل تأخرت الى ما قبل أربعة أشهر فقط . وزيد على ذلك بكل أسف أن هذه اللجنة لم تكن بشكل يلائم حالة البلاد وحاجتها، بدليل أن الذين بلغوا سنّ التجنيد في طرابلس الغرب ستة عشر ألف رجل ، ولم تدخل اللجنة منهم في سجلات الجندية غير ثلاثة آلاف وأربعمائة . وعرض الباقون أنفسهم على اللجنة بصفة متطوعين فرفض طلبهم ولم يقبلوا في الجيش العثماني . وبهذا أُطفئت شعلة الحماس ، وانقطعت رغبة الشعب في الدخول في الجندية ، كما أهملت الحكومة النظر في تشكيلات جيش الرديف وهو عدة البلاد في الساعات الحرجة .

إخلاء البلاد من السلاح :

ثالثاً : كانت حكومة العهد السابق عنيت كل العناية بادخار أكثر من أربعين ألف بندقية من طراز « مارتين وسنايدر » لتسلح بها جيشاً من الأهالي ،

---

(١) بمقتضى النظام التركي يجب أن يكون في طرابلس ١٧ طابوراً من المشاة وعشرة كوكبات من الفرسان ، وست بطاريات من مدافع الصحراء .

وتؤلف منهم جيشاً وطنيـاً للدفاع عن البلاد عند مسيس الحاجة . أما وزارة حقي باشا فإنها سحبت هذه المقادير من البنادق بحجة أنها تريد استبدالها بأخرى من الطراز الحديث . وكانت النتيجة أن فرغت مخازن طرابلس من هذه البنادق ولم يعوّض عنها غيرها .

ثم إن حكومة العهد السابق كانت هدفاً للاعتراضات المتوالية من الأجانب على إرسالها المدافع والأسلحة الضخمة إلى طرابلس ولكنها مع ذلك لم تفتر عن انتهاز الفرص لإرسال هذه الأسلحة سراً إلى طرابلس وبكل احتياط . أمـا في عهد الحكومة الدستورية فمع أن إرسال هذه الأسلحة صار حراً لا يعترض عليه أحد ، ومع أن مجلس الأمة لم يضنّ على ميزانية نظارة الحربية بالإذن في صرف كل ما تمس إليه الحاجة للدفـاع عن الوطن ـ مع ذلـك ظلت طرابلس الغرب البائسة التي هي مطمح مطامع الأعـداء منسية ومهملة ، ولم تر الحكومة حاجة الى إصلاح حصونها .

إخراج الضباط وخصوصاً ضباط العرب :

رابعاً : كان الصبيان ـ فضلاً عن رجال الوزارة ـ يعلمون ما تضمره إيطاليا من الأمل في الاستيلاء على طرابلس عاجلاً أو آجلاً . وكان هذا يقضي بالإكثار من عدد الضباط ، خصوصاً الذين يعرفون منهم اللغة العربية وعادات البـلاد وأحوالها الطبيعية والعسكرية ، لكي يتسنى لهؤلاء الضباط عند حدوث أقـل اعتداء أن يقودوا فرق الأهالي التي تمرّنت من قبل على الجندية ، حتى انه كان يوجد في البلاد بعض من أبنائها الذين تخرجوا في المدرسة الحربية في الآستانة . أما الحكومة الحاضرة فإنها أخرجت من طرابلس كل هؤلاء الضبـاط الوطنيين وغيرهم من العارفين بلغة البلاد ، ولم يرسل بدلهم إلا عدداً قليلاً لا يفي بالحاجة ولا يعرف لغة البلاد . ولذلك أصبح رجال طرابلس الغرب الذين تسلحوا الآن لصدّ هجمات العدو في ضيق شديد، لأنهم لا يفهمون مقاصد الضبـاط وأوامرهم الحربية .

القحط والجوع :

خامساً : منيت البلاد مدة أربع سنوات متوالية بقحط شديد ، وما زلنا من سنتين نخاطب رجال الوزارة ونكاتبهم من أجل تلافي أضراره . وكثيراً ما كان رجال وزارة حقي باشا يعترفون لنا بوجاهة مطالبنا ، ولكنهم مع ذلك أهملوا البلاد وتركوا أهلها يتخبطون في أزمة القحط وآلام الجوع .

ولما عدنا بعد انفضاض المجلس إلى طرابلس وجدنا مائتي ألف نسمة من أهلها قد هاجروا الى تونس وغيرها فراراً من الجوع والقحط ، ورأينا أربعة آلاف شخص من الشيوخ والنساء والأطفال والمرضى قد لجأوا الى مذلة السؤال ليسدّوا رمقهم وينقذوا حياتهم من مخالب الموت . وكنا علمنا أن خمسمائة وأربعة عشر شخصاً من هؤلاء ماتوا جوعاً من شهر مارس إلى غاية شهر يوليه الماضي ، فقدمنا إلى الصدر الأعظم حقي باشا تلغرافاً ورسائل بتاريخ ١٣ يوليه طلبنا فيها من الحكومة أن تصرف في هذا السبيل العشرة الآلاف جنيه التي وضعت في الميزانية باسم التخصصات غير المنظورة بموجب مادة قانونية خاصة ، وافق عليها المجلس في آخر اجتماعه الماضي ، ولكن الحكومة لم تُعر هذا الطلب التفاتاً .

وقد قررت الحكومة إرسال ستمائة ألف كيلة إلى طرابلس وتوزيعها على الأهالي بطريق القرض لأجل البذر والأكل ، ووضعت لذلك مادة قانونية خاصة ، ولما عدنا من طرابلس إلى الآستانة ألححنا على الحكومة بطلب الإسراع في إرسال هذه الحبوب . ومع الأسف نقول إن الحكومة تباطأت في الأمر إلى أن أعلنت الحرب ولم يرسل شيء من ذلك . وبهذا أصبح أبطال طرابلس المدافعون بأرواحهم عن حوزة الوطن بين عدوّين: الإيطاليين المعتدين، والجوع الذي لا يرحم .

الموظفون :

سادساً : بما أن للعدو في هذه الولاية مطامع سياسية فإن الحال تقضي بأن

يكون الموظفون فيها عارفين لغة البلاد وتقاليدها وأحوالها . وأن يكون كبار الموظفين في بعض أماكنها من أشراف البلاد و كبارها ليتسنى إدارتها على وجه يتفق مع مصلحة الشعب ومصلحة الحكومة . ولكن وزارة حقي باشا قد أهملت هذا الأمر الخطير ، وجعلت توظف في البلاد طائفة من المحسوبين والذين يعتمدون على الالتماسات والوسائط وبذلك انقطع أمل الأهالي من ظهور أي إصلاح على يد رجال الإدارة .

عزل إبراهيم باشا :

سابعاً : لم يسبق لهذه الولاية أن تبقى قبل الآن يوماً واحداً بدون والٍ وقائد ، نظراً لأهميتها وحالتها الدقيقة التي لا تحتاج إلى تعريف . ولكن وزارة حقي باشا كانت أسرع ما يكون إجابة لإشارة إيطاليا بعزل إبراهيم باشا والي طرابلس وقائدها، وأمرته بمغادرة طرابلس قبل أن ترسل والياً وقائداً يحلاّن محله. وبقيت مترددة في إرسال الوالي والقائد مدة شهر ونصف كان الإيطاليون يبذلون فيها كل جهد لإعداد ما يلزم للاستيلاء عليها . وظلت هذه الإيالة تحت إدارة دفتردار ساذج لا يعرف لغة البلاد ولا يعلم شيئاً من أحوالها . وسلمت مقاليد القيادة إلى أميرألاي لا يمتاز عن صاحبه الدفتردار. وكم في هذا من التأثير السيىء على نفوس أهل الولاية الذين حقّ لهم ان يصدّقوا ما كان أعداؤنا يشيعونه بينهم من أنّ الحكومة العثمانية في غنى عن هذه الولاية ، وقد عزمت على بيعها. و كأنما كل هذه الأمور لم تكن كافية في نظر وزارة حقي باشا ، فسحبت البكباشي وحيد بك قائد الحصون التي هي الوسيلة الوحيدة لمقاومة أسطول إيطاليا، ولم ترسل قائداً يقوم مقامه . وبذلك قطعت وزارة حقي باشا كل وسائل الرجاء في مداومة الدفاع .

تقصير حقي باشا :

ثامناً : ليس من يجهل ما كانت إيطاليا تضمره منذ سنوات كثيرة من الأمل في الاستيلاء على طرابلس وبني غازي ، لأن إيطاليا لم تكن تكتم آمالها فيها ، فكانت تعلن ذلك عند كل فرصة للأمم الغربية ، وللأمة العثمانية نفسها . ثم

أخذت هذه الآمال تظهر في السنوات الأخيرة ، وأصبحت إيطاليا تنتهز سنوح الفرص المناسبة . وكان الواجب على حقي باشا لمّا كان سفيراً في روما أن يعلم ذلك حق العلم وأن يدركه أكثر من غيره . ولكنه تعامى عما كان يشاهده بنفسه ، وأهمل تنبيه مجلس المبعوثان له لما كان صدراً أعظم ، وضرب عرض الحائط بالتقارير الرسمية التي كانت تأتيه من والي طرابلس ومن سفير العثمانيين في روما ، ووقف موقف المتفرج من محادثات إيطاليا مع الدول بشأن طرابلس عند ظهور مسألة مراكش ، بل وقف تلك الموقف عندما كانت إيطاليا ترسل على وطننا أسطولها وتجيش علينا جيوشها. وأغرب من ذلك أنه سمح لسفرائنا الذين في عواصم أوروبا أن يتفرقوا هنا وهناك، ويتركوا مراكزهم الهامة ، بينما كانت المسألة قد دخلت في شكلها الحادّ وأزمتها الصعبة .

إهمال طرابلس زمن الحرب :

تاسعاً : وبينما كان عدوّنا يتأهب لمهاجمة طرابلس وغزوها ظلت وزارة حقي باشا على غفلتها ، ولم تزوّد جيش طرابلس القليل بما يحتاج إليه من وسائل المقاومة ، ولم ترسل إليها شيئاً من النقود التي يتوقف عليها أمر الدفاع ، فسهل بذلك على العدو بلوغ آماله ودخول البلاد .

على هذا النحو من الإهمال سار حقي باشا فترك طرابلس وبني غازي لقمة سائغة للإيطاليين لا جند فيها ولا سلاح ، ولا ذخيرة ، ولا ضباط ، ولا والٍ ، ولا قائد : ولا مؤونة ، ولا مال . وعلى هذا النحو سلمت تلك القطعة المباركة التي لم يبق لنا غيرها في القارة الإفريقية . وليس في تاريخ الأمم مثال للإهمال والتفريط والتجرّد من حب الوطن أعظم من هذا المثال .

بناءً على ذلك نتقدم ـ نحن مبعوثي طرابلس باسم الشعب الذي ننوب عنه ونعبر عن رغباته ـ باتهام حقي باشا وزملائه أمام الأمة كلها ، فإنهم هم الذين جرّوا على العثمانيين هذه السبة المؤلمة والكارثة الكبرى.

إن وزارة حقي باشا بهذه الغفلة التي ظهرت منها في الشؤون الداخلية والخارجية والمالية والحربية قد أخلّت بالمادة الأولى من القانون الأساسي العثماني الذي هو أساس بناء الدولة والدستور . ولا يسعنا إلا أن نرفع الصوت عالياً بدعوة مجلس المبعوثان إلى القيام بواجبه وأداء وظيفته .

وقد بادرنا ـ نحن مبعوثي طرابلس ـ إلى استعمال حقنا الذي تخوّله لنا المادة (٣١) من القانون الأساسي . وإذا وفقنا إلى إنقاذ الوطن من إهمال مهلك يهدّد استقلاله ، وإذا نجحنا في تقرير مبدأ المسؤولية ومعاقبة المقصّرين ، فقد قمنا بما وجب علينا وأدّينا حقوق وطننا » .

صادق	محمود ناجي
مبعوث طرابلس	مبعوث طرابلس

* * *

هذا البيان التاريخي الذي أتى على كل المخازي التي ارتكبها حقي باشا بشأن طرابلس ، والتي خان من أجلها دولته وباع ضميره وشرفه ليقدم طرابلس هدية للطليان نظير مآرب شخصية ، وشهوات تترفّع عنها نفوس من يتولون مقاليد الأمم ـ نقول هذا البيان لم يترك مجالاً للقول لمن يريدون أن ينتحلوا المعاذير لحقي باشا وعصابته .

وهو احتجاج صارخ على خيانة حقي باشا وحكومته ، قام به النواب الطرابلسيون أداءً للواجب ، ووفاءً لحقوق الوطن وأمانته .

وكان يمثل طرابلس في مجلس المبعوثان التركي ثمانية نواب : محمد بك فرحات الزاوي ، وصادق بك بن الحاج ، ومختار بك كعبار ، ومحمد ناجي ـ هؤلاء الأربعة نواب عن المنطقة الغربية : من زوارة إلى قصر خيار ، ويشمل المدينة ، وغريان وترهونه ، وورفلة .

والشيخ سليمان الداروني ، وأحمد فكيني ـ هذان الاثنان نائبان عن منطقة الجبل من يفرن إلى نالوت ويشمل غدامس وجامي بك،« تركي» نائب عن منطقة ..ران ومصطفى بن قداره ـ نائب عن منطقة الخمس ـ من ساحل الأحامد ..ى مسرت ـ . ولما أظهر ميله إلى الطليان في بداية الاحتلال أقيل ، ..خلفه في النيابات شفيق بك متصرف الخمس .

ولم يوقّع البيان إلا صادق بك وناجي بك . ويظهر أن بقية النواب كانوا ..ير موجودين .

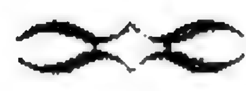
وقد أحال مجلس النواب التركي هذا التقرير إلى لجنة خاصة أُلّفت للبحث ..سبب لحقي باشا ووزارته من الخيانة العظمى لمحاكمته ، ولكنها لم تعمل شيئاً ، لأن سياسة حقي باشا ووزارته كانت متمشية مع آراء جمعية الاتحاد والترقي ، التي كانت قابضة على زمام الأمور في المملكة العثمانية كلها ، وكان من رأيها ألا تتمسك الحكومة العثمانية بطرابلس ، فمن غير المعقول أن يحاكم حقي باشا ووزارته ما دام ينفّذ آراء جمعية الاتحاد وحائزاً لرضاها .

* * *

إلى هنا ينتهي الدور السياسي الذي مهّد للغارة الطليانية على طرابلس. ومن الأسف أن ما لدينا من المصادر التاريخية لم نعثر فيه على أكثر من هذه المعلومات. ونعتقد أن ما خفي علينا كثير ، لأن هذا الدور كان من أفظع الأدوار السياسية التي ارتكبت أغلاطها في زمن الحكومة العثمانية علانية وبغير مبالاة . وكان الفارس المجلي في هذا الميدان المخزي هو حقي باشا رئيس الوزارة التركية .

وإلى هنا ينتهي فصل من فصول رواية الاحتلال الإيطالي لطرابلس، ونسدل الستار على لغة الكلام ومحاورات المنطق، ونترك ثعالب السياسة وما يصوّرونه للناس من مناظر لا تلبث أن تتكشف عن نتن الخيانة وخبث الضمائر ، فقد انتهوا إلى ما قدّمت أيديهم ، والله يتولى جزاءهم .

وقد انتهى التاريخ مما سجله لهم من عار سيبقى على مدى الأيام سبّة لا تمحى — نترك هذا ونستمع إلى لغة الحديد والنار، ولندخل معمعان الحرب وننقب في تلك الأراضي الطاهرة عن الأجسام الممزّقة والأشلاء المبعثرة لنجمع من دمائها الزكية ما نسجل به ما وجب لها من فخار، وما قدّمت للوطن من فـــداء، أرخصت في ميدانه تلك النفوس الغالية .



الأبطـــال

بمناسبة تسمية كتابنا « جهاد الأبطال »، أحببت أن أقول كلمة في الأبطال . وقد ظهر لي مما درست من أنواع البطولة أن الأبطال ثلاثة :

١ ـ رجل تتوالى عليه الكوارث والنكبات فترغمه على إعداد نفسه لمواجهتها بما يدفعها عنه ، لا يبالي طريق الموت أو غيره متى كان ذلك موصلاً إلى الدفاع عن نفسه . وقد يكون في طبيعة هذا الرجل الرضا بما يتسير له من طرق الحياة ، ولكن قسوة الحياة هي التي جعلت منه أسداً غاضباً ، وجعلت من اطمئنانه إلى الحياة اطمئناناً إلى الموت لا يدانيه في أبشع صورة متى ما أحسّ بضيم أو هوان .

٢ ـ ورجل نشأ منذ نعومة أظفاره في بيئة لها أعداء كثيرون ، تقاتل هذا، وتغزو ذاك ، وتتعرض لكل من تطالبه بثأر لتثأر منه ، كما تحذر كل من يطالبها بثأر لتدفع عن نفسها الشرّ ، وهكذا دواليك ، صراع مستمر ، و كفاح لا ينقطع ، وكل هذا يقع على مرأى منه ومسمع ، فيقع نظره على الجريح تثجّ دماؤه ، وعلى عضو مبتور ، ورأس مهشّم ، وعلى قتيل هنا وقتلى هناك ، ويرى جماعات تجمعت لإنقاذ فضيلة أودفع رذيلة ، وتصاحبه هذه المناظر من طفولته إلى كهولته ، ويباشر منها في أطوار حياته ما تمكنه مباشرته ، فتنطبع في نفسه هذه الصور على مختلف أشكالها ، فيعتاد اقتحام المهالك ، وتصبح البطولة سجية له . وأكثر

ما يكون هذا في القبائل البدوية . وقد يكون هذا في الجيوش الدولية، فيصبح الجندي بطلاً بعد أن قضى شطراً من حياته وادعاً ، وذلك بتأثير ما أحاطته به البيئة من آلات القتل ، وما صاحبه من النصر في معامع الحروب .

٣ – ورجل غُرس في نفسه النزوع إلى المعالي فهو دائب البحث عنها ، فأينما عنّت له من طريق القلم أو السيف دفع بنفسه اليها ، لا يبالي تخطفته السيوف أو أثخنته الجراح.وهو لا يرى فيما يعترضه دونها صعاب إلا ما يحفز همته ليقتحم عليها معاقلها ، ولا يبالي أوقع على الموت أو وقع الموت عليه . قد يحتاج هـذا النوع إلى كبح جماح النفس إلى البغي والإعتداء وإلى رياضتها على مـا تقتضيه الفضيلة ومكارم الأخلاق .

ونحن واجدون في أبطال طرابلس من تكوّنت بطولته على نحو من هذه النماذج الثلاثة . وقد وجدوا في الحرب الطرابلسية ميداناً لإبراز ما أضفته عليهم بيئات العز والنفوس الكبيرة ، فكانوا في طليعة من أدّوا للوطن واجبه . وقد وجب لهم علينا تخليد الذكر ، والاعتراف بالجميل .

ونرجو الله أن يوفقنا لكلمة الحق ، وأن يهيء نفوس مواطنينا لقبولهـا ، فإن الرجوع إلى الحق فضيلة .



الطرق المحرَّمة والممنوعة
في الحرب

بمناسبة مشروعنا في كتابة « جهاد الأبطال » رأينا أن نلخّص ما كتبه العلامة الأمير أمين أرسلان في كتابه « حقوق الملك ومعاهدات الدول » مما يتعلق بالطرق المحرّمة والممنوعة في الحرب .

قال الأمير : تقسّم هذه الطرق الى بربرية وغدرية :

فالطرق البربرية المحرّمة هي: (١) جرح العدو اذا استسلم (٢) الإجهاز على الجريح (٣) عدم إعطاء الأمان للعدو والمقاتل سواء كان السبب بغضاً أو انتقاماً أو تهويلاً (٤) لا يجوز إهانة العدو ولا تعذيبه حتى ولو كان ذلك في سبيل إجباره على إباحة أسرار دولته (٥) لا يجوز الفتك بالعدو غيلة أو إغراء آخر على قتله سواء كان سلطاناً أو جندياً (٦) لا يحق لأي كان إسقاط آخر من حق حماية الشرائع وإجازة قتله لكل فرد [1] .

وأما الطرق الممنوعة فهي : (١) استعمال القنابل والقذائف والأسلحة التي تزيد في تعذيب الجرحى بلا فائدة (٢) الرشق بالأسهم المسمومة ، أو الرمي برصاص مضوع ومشقوق ، أو استعمال رصاص دمدم ، وتسميم الآبار والأنهار والسهام والطعام ، والغدر ، فكل خدعة غير جائزة تعد غدراً واغتيالاً مثال ذلك : لا يجوز الإخلاف بالوعد ، أو النكث بالعهد أو الكذب بالقول ، المهاجمة فجأة في أثناء هدنة ، والتظاهر بالتسليم حتى إذا اقترب العدو منه قتله بسهولة .

---

(١) وقد شددت الدول في تطبيق هذه القاعدة على نابليون لما رجع من منفاه في «جزيرة البا» سنة ١٨١٤ وكان ذلك باغراء وزيره زالاين المشهور .

إحتلال طرابلس

ظنّ الطليان أن طرابلس لقمة سائغة ، وأكلة ناضجة لا تلبث أن تبتلع فتهضم. وقد عبّر أحد أركان الحرب الإيطاليين عن الحملة التي ساقوها على طرابلس بأنها « نزهة بحرية » وقدّروا للانتهاء من فتحها ١٥ يوماً. وقد سمع اللورد كتشنر الإنكليزي بهذا التقدير فاعتبره تهوراً من الطليان ، وقدّر هو لاحتلال طرابلس ثلاثة أشهر . وكان هذا التقدير وذاك على حد قول الشاعر :

* ويقدّرون فتضحكُ الأقدارُ *

وقد استمرت الحرب اثنتين وعشرين سنة . ضحّى الطرابلسيون فيها بكل مرتخص وغالٍ ، وخاضوا غمارها راضية نفوسهم بما يلاقون من القتل في سبيل الله ، وبما يبذلون من الأرواح الغالية فداءً للوطن ، وأخيراً تغلبت القوة وكانت الدولة للغاصبين .

كان الأسطول الإيطالي متأهباً للهجوم على طرابلس قبل إعلان الحرب على الدولة العثمانية . وفي يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩١١ أعلنت إيطاليا الحرب . وفي هذا اليوم ظهرت طلائع الأسطول أمام طرابلس ، وضرب نطاقاً حول المدينة من الشرق والشمال، والشمال الغربي، وسدّد مدافعه إلى قلاعها، وعرف الأبعاد،

وحدّد المسافات التي يضرب منها المدينة وبقي ينتظر الأمـر بالضرب . وكان الأسطول بقيادة القومندان أدميرال « أوبري » .

ولما أيقنت الحكومة العثمانية بأن الطليـان سيهاجمون طرابلس في القريب العاجل شحنت الباخرة أدرنه بالسلاح والعتاد الحربي وأرسلتها إلى طرابلس . وقد وصلت ميناء طرابلس يوم٢٧ سبتمبر سنة ١٩١١،وكانت رافعة العلم الألماني خوفاً من الأسطول الإيطالي الذي كان يراقب طرابلس، وكانت تحمل خمسة عشر ألف بندقية من نوع «ماوزر» ومليوني خرطوشة، وأفرغت هذه الشحنة كلهـا، ووزعت على الطرابلسيين. وكانت عناية إلهية تلك التي أعمت الأسطول الإيطالي حتى اخترقت الباخرة أدرنة حصاره أمام أفواه مدافعه الموجّهة إلى طرابلس .

وقد أرسلت الحكومة الإيطالية مذكرة في ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩١١ تقول فيها : « وصلت الباخرة أدرنة إلى مياه طرابلس، وبعد وصول مذكرة إيطاليا للباب العالي لا يسمح لأيّ باخرة عثمانية بالمرور من تلك الميـــاه لأن الأسطول الإيطالي قد ضرب نطاقاً لمحاصرة السواحل ، ويعتبر إرسال أي مدد للحامية التركية في طرابلس عملاً عدائياً ضد إيطاليا » .

وقد شاهدتُ الباخرة أدرنة بعـد تفريغ شحنتها وهي جاثمة في مينـــاء طرابلس، وبقيت حتى نسفها الطليان بعد احتلال المدينة .

ومنذ أن بدت طلائع الأسطول الإيطالي حول طرابلس أمر نشأت بـــك بالاستعداد لنقل المهمات الحربية من المدينة . ومن الأسف أنه لا يوجد من وسائل النقل في طرابلس إلا الجمال ، وقليل من البغال عند الحكومة .

وكان نشأت بك ينتظر أمر الآستانة فيما يجب عمله ، وعلى ذلك فـلم يأمر بالشروع في نقل المهمات إلا في آخر لحظة ، وبعـد أن أيقن من قطع التلغراف البحري الذي كان يربط مدينة طرابلس بالآستانة ، عند ذلك أمر بنقل مـــا تركته جمعية الاتحاد والترقي في طرابلس من مهمات الحرب وعتادها وقد بذل العرب جهوداً مشكورة في النقل على جمالهم وساعدوا الجنود مساعدة كان لها

أكبر الأثر في إخراج أكبر كمية ممكنة إلى العزيزية وعين زارة وسواني بنيادم . ولما ضاق الوقت عن النقل أمر نشأت بك العرب بأخذ ما بقي في مخازن الحكومة من السلاح ، فأخذوا كل ما فيها ، كما وزع عليهم كل ما جاءت به الباخرة أدرنة ، فكان لتوزيع السلاح على العرب أكبر الأثر في نفوسهم .

وقد سرى خبر ظهور الأسطول الإيطالي أمام المدينة في البلاد من أقصاها إلى أقصاها سريان الكهرباء ، وتولى الموظفون وأعيان البلاد في المراكز حثّ الناس على التطوع للجهاد ، فلبّى الناس هذه الدعوة وجاءوا إلى المدينة من كل صوب ليتحققوا ماذا جرى ، وقد بلغ الحماس بالناس منتهاه ، وغصّت المدينة بالمتطوعين، وكان هذا في أول أكتوبر ، وكان الجيش الإيطالي ما يزال بالأسطول ينتظر الأمر بالنزول . وفي اليوم الثاني من أكتوبر أرسل قائد الأسطول إلى وكيل الوالي (الدفتردار) الأميرال « فافاريلي » في بارجة حربية ومعه قنصل إيطاليا في طرابلس ليطلب منه تسليم المدينة في الحال ، وإخلاءها من كل ما يعوق الجيش الإيطالي في نزوله إلى البر [1] . وكان نشأت بك [2] — وهو أركان حرب الجيش العثماني بطرابلس — مع الدفتردار ، فأجاباه بأنهما لم يتلقيا أمراً من الباب العالي بالتسليم ، وأنهما يريان تأخير كل عمل حتى يأتي الأمر من

---

(١) كنت حاضراً أنا وجمهور كبير من الطرابلسيين واقفين بقرب دار الحكومة (السراية الحمراء) حينما تقدمت بارجة الاميرال فافاريلي ، ونزل منها وصعد الى وكيل الوالي . وكنت جئت الى المدينة مع الذين جاءوا للتطوع في الجهاد .

(٢) كان نشأت بك وقت الاحتلال الايطالي رئيس أركان حرب ، وبرتبة أمير ألاي ، وكان منير باشا لواء ووكيل كومندان ، فلما مرض منير باشا عين نشأت بك بدلاً عنه . ثم جاءه الامر برتبة وال وكومندان فخلت وظيفة رئيس أركان حرب التي كان يشغلها ، فشغلها فتحي بك الذي كان ملحقاً بالسفارة التركية في باريز .

وقد جاء الامر بتعيين نشأت بك والياً وكومنداناً على طريق تونس ومنها الى ذهيبة إلى نالوت . وكان الموظف المسؤول عن هذه المراسلات قائمقام نالوت الدكتور رأفت بك . وكانت الأخبار تأتي إلى نالوت رأساً في خط مستقل .

الباب العالي. وما دام يمكن حلّ المسألة ودّياً فلا فائدة من إراقة الدماء. فرفض الأميرال الإيطالي قبول ذلـــك وقال : « إن مسألة الأسطول والجيش تتعلق بكرامة الأمة الإيطالية ، والأمر الذي صدر لا يمكن مقاومته وسيبدأ الحرب عما قريب » فأجابه وكيل الوالي ونشأت بك بما يأتي : « إن جيش طرابلس وسكانها لا يصغون إلى أوامر تصدر إليهم من إيطاليـــا ، وهم يعرفون كيف يحافظون على وطنهم » . وكانت هذه الكلمة آخر ما قيل في محاولات دفع الشرّ ووقاية الأرواح من الموت ، فخرج فافاريلي بدون تحية [1] . وبعد وصوله الى حيث الأسطول يرابط في عرض البحر وأخبر القائد بما جرى أرسل القائد إلى الدفتردار إنذاراً بضرب المدينة بعد أربع وعشرين ساعة. وأرسل نسخة من هذا الإنذار إلى قناصل الدول الموجودين في المدينـــة يعلمهم بذلك ، ويطلب إليهم الالتجاء إلى الأسطول، وقد جمع وكيل الوالي رجال الحكومة وأعيان البـلاد، وقرأ عليهم الإنذار .

وقد وقـّع هذا الإنذار من قناصل الدول موقع الخوف والذعر، وكان أشدّهم قلقاً قنصل إسبانيا ، حتى توهـّم أن الفرنجة سيذبحون عن آخرهم . وقد سمعوا أن نشأت بك ومن معه من ضباط الترك قرروا الدفاع عن المدينة إلى آخر جندي منهم وسيموتون تحت أنقاضها ولو أدّى ذلك إلى فناء جميع من فيها ، فازدادوا خوفاً ، واجتمع وفد منهم وذهب لمقابلة نشأت بك ومن معـــه من الضباط ، فاجتمعوا بهم في دار القنصلية الألمانية ـ وتقع في ربض المدينة من الناحية الغربية ـ ولما تحققوا منهم صحة الخبر توسّلوا إليهم بكل ما يمكن التوسل به ورجـوهم بإلحاح في العدول عن هذا القرار رحمة بالسكان وإبقاء على أرواح النساء والاطفال. وبعد لأي ، وحديث طال للرجاء في أخذ ورد تحصلوا منهم على وعد بالانسحاب من المدينة بدون مقاومة فيها. ففرح القناصل كثيراً وعدّوها شهامة من الأتراك ،

---

(١) الخروج بدون تحية معناه في مثل هذه الظروف انتهاء كل محاولة للسلم ، ولم يبق إلا الشروع في الحرب .

ومروءة من نشأت بك ورفقائه . وأثنت جرائدهم على هذا الخلق الكريم من الأتراك. وسجّلها لهم مؤلفوهم في كتبهم التي ألفوهافي الحرب الطرابلسيةمقرونة بالشكر والثناء ، كما اعتبروا طلب قائد الأسطول إلتجاءهم إليه في آخر لحظة خطأ في الرأي ، وعدم تقدير لما يجب من الوقت الطويل لنقل عشرات الألوف من السكان ، وقد قرروا البقاء في المدينة ثقة بشهامة الأتراك وبوفائهم بعدهم ، واعتماداً على نشاط البوليس العثماني في حفظ الأمن . وقد عهد قناصل الدول إلى قنصل أمريكا المستر «وود» أن يكتب إلى قائد الأسطول بهذا المعنى فكتب ما ترجمته :

« إن القناصل ورعايا دولهم لهم الثقة التامة بالحكومة العثمانية المحلية ، ولذلك فهم قد عزموا على البقاء في المدينة » .

وترجم هذه الرسالة إلى الفرنسية « توبلين فيس » قنصل فرنسا، ووقّعوا عليها كلهم وبعثوا بها إليه .

وكان البوليس العثماني عند ظنهم ، فقد حافظ على النظام بكل شجاعة، كما وفى الضباط بوعدهم ولم يعرضوا المدينة والسكان لتدمير القنابل والتهام النيران.

وفي الساعة العاشرة من صباح اليوم الثالث من أكتوبر ذهب القناصل لزيارة الموظفين العثمانيين وتوديعهم فوجدوا نشأت بك ، والجنرال منير باشا ، والدفتردار ، ومدير الأمور السياسية فأظهروا لهم أسفهم لما حصل ، فقال لهم مدير الأمور السياسية : « إن هذا الاعتداء ربما كان معقولاً منذ خمسمائة سنة ، ولكن في القرن العشرين يعدُّ توحشاً » .

ويقول الذين شاهدوا هذه الحادثة : إن قنصل أمريكا اعتبر هذا الكلام توبيخاً للأوروبيين عموماً ، وكان السبب فيه توحّش الإيطاليين واعتداءهم الفظيع .

ضرب المدينة بالمدافع :

في الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد ظهر اليوم الثالث من

أكتوبر سنة ١٩١١ بدأ الأسطول الإيطالي في ضرب مدينة طرابلس . وفي هذا اليوم أتمّ نشأت بك نقل الجنود منها ، ولم يبق فيها إلا بعض المدفعيين الذين كلفوا باستعمال المدافع الصالحة من القلاع ضد الأسطول ليشغلوه عن ضرب الجنود المنسحبة ،وقد تم لهم ذلك،ووصل الجنود «سواني بنيادم» و«عين زاره» في سلام.

وقد اشترك في ضرب المدينة ست مدرعات من المدرعات الضخمة ، وكانت القلاع والحصون قد أُهملت في وزارة حقي باشا من الإصلاح وأُخذ ما فيها من المدافع بحجة إصلاحها أو تغييرها ، وهي معاذير تنتحلها وزارة حقي باشا والإتحاديون . والواقع أن هذه الأعمال كانت تمهيداً للاحتلال الإيطالي . ولم يقاوم من هذه القلاع مقاومة تذكر إلا القلعة السلطانية والقلعة الحميدية فتغلب الأسطول على القلعة السلطانية في اليوم الأول ، وتغلب على القلعة الحميدية في اليوم الثاني وهو اليوم الرابع من أكتوبر ، وبسقوط القلعة الحميدية انقطعت المقاومة من القلاع وانسحب من بقي حياً من جنودها ولحق ببقية الجند في «سواني بنيادم» .

وبما أن القلاع كانت مهملة ، ومدافعها كانت من الطراز القديم فلم تبدِ من المقاومة إلا ما ذكرنا .

ويقول الذين كتبوا في وصفها : إن قذائفها كانت لا تتجاوز خمسة أميال ونصفاً ، بينما كان الأسطول الإيطالي يضربها من مسافة سبعة أميال . وبعد أن أثـرت عليها ضربات الأسطول تقدمت منها بعض البوارج وضربتها من مسافة ثلاثة أميال .

برج سيدي يعقوب [1] — يقع شرقي سيدي يعقوب المدفون بزاوية الميساوية . ويبعد عن البحر إلى الغرب بنحو خمسين متراً . وقد أزاله الطليان .

(١) سمي بهذا الاسم لوقوعه بجوار سيدي يعقوب ، ولم يعرف اسمه الحقيقي .

ولم يبق من آثاره إلا بعض الجدران أُقيمت عليها أبنية تستعمل للسكنى وغيرها. ويلصق جداره من الشرق قبوات منخفضة عن مستوى جدرانه، كانت تلجأ إليها المراكب البحرية في زمن يوسف باشا إذا هاج عليها البحر. والموجود الآن سنة ١٣٧٠ = ١٩٥٠ منها تسع قبوات، وهي مخازن مقبوة بالحجر، ولم تعُد صالحة لما أُنشأت من أجله، وفصل بينها وبين البحر بشارع، وقد أُزيلت ولم يبق لها أثر.

أما قلعة قرقارش فما زالت آثارها موجودة في قرقارش. وأما القلعة الحميدية فكانت بجوار سيدي الشعاب ولها آثار هناك.

وكانت آخر القلاع دفاعاً القلعة الحميدية، فسكتت سكوتها الأخير بعد حياة طويلة كانت فيها مناط آمال الطرابلسيين في الدفاع عن وطنهم في مثل هذه الأيام العصيبة [١].

هذه القلاع هي أبراج بنيت في عصور مختلفة للدفاع عن البلاد، منها:

برج يوسف باشا – بني في السور القديم على شارع الساعة بينه وبين مدرسة الكاتب. ويبعد عن الساعة إلى الشرق بنحو مائتي متر كما يبعد عن مدرسة الكاتب إلى الجنوب بنحو ستين متراً قبالة بوابة سوق الحرير الواقع بجوار فندق الريح من الجنوب. وإلى جنوبيه بنحو مائة متر تقع الترسانة القديمة التي أزالها الطليان وبنوا مكانها صندوق التوفير.

وكان هذا البرج يطلُّ على البحر، ويفصل الآن بين مكانه وبين البحر شارع عرضه نحو عشرين متراً. وقد ضربه الطليان في احتلالهم ولم يبقوا له أثراً.

برج سيدي الشريف – يتصل هذا البرج بالبحر شمالي برج سيدي يعقوب،

---

(١) الذي نعرفه من هذه القلاع: القلعة السلطانية، والقلعة الحميدية، وبرج الشعاب، وبرج التراب، وقلعة قرقارش.

وشرقي برج بوليلة ، في مكان يقال له الفلفول . ويقع في جـــواره من الغرب « بئر إسبانية » وهي حفرة في البحر عميقة تسمى بهذا الاسم . وتقـع بالقرب منه إلى الغرب «النقازة» وهي صخرة مرتفعة في وسط البحر متصلة ببرج بوليلة يصعد عليهـا السباحون ويثبون من عليها في الماء .

برج بوليلة – يقع في الجهة الشمالية من المدينة ، داخلٌ في البحر بنحو مائة متر خارج السور القديم ، مسامتاً لجامع سيدي المشاط من الشمال ، ويتوصـل إليه بطريق على حوامل مبنية بالحجر في وسط البحر ، وما زالت منه بقية إلى الآن سنة ١٣٧٠ = ١٩٥٠ .

برج التراب – يقع في مسامة برج بوليلة من الجنوب ، في النصف بينه وبين جامع المشاط . وهو مبني في السور القديم . وقد أزاله الطليان ولم يبقوا له أثراً وبنوا مكانه قبر الجندي المجهول .

وفي اليوم الرابع من أكتوبر ، وعقب انقطاع مقاومة القلاع أنزلت المدرعة «غاربالدي» أربعة من جنودها ، وكانوا نحو ثلاثمائة بحّار ومعهم أربعة مدافع رشاشة لتعطيل ما قد يكون باقياً من المدافع في القلاع بعد أن تحققوا تهدُّمها وفراغها من الجند ، ثم عادوا إلى الأسطول . وهو أول يوم وطئت فيــه أقدام الطغاة أرض الوطن العزيز .

وفي اليوم الخامس من أكتوبر نزل فريق من البحارة ونسفوا الباخرة أدرنة التي جاءت محمّلة بالسلاح وقد تقدّم ذكرها آنفاً . وفي الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر نزل فريق من البحارة في القلعة السلطانية ، ونزل فريق آخر منهم بين القلعة والمدينة ، وفي الساعة الخامسة بعد الظهر رفع العلم الإيطالي على دار الحكومة « السراية الحمراء » وقد حصل كل هـــذا من غير أن يلقى الطليان أي مقاومة إلا ما ذكرنا من شأن القلاع .

وبينما كانت طرابلس تضرب بمدافع الأسطول الإيطالي كانت وزارة حقي

باشا تحتضر وكانت أنفاسها في النزع الأخير. وكانت تحاول الحصول على موافقة بعض رجال الدولة بالاعتراف للطليان بالأمر الواقع ولكنها وجدت معارضة شديدة ، وكان في مقدمة المعارضين صاحب الفضيلة شيخ الإسلام الأستاذ صبري ، وناظر الداخلية ففشلت ،وقدّمت استقالتها فقُبلت . وسقطت ولسان الدنيا يقول « لالعا [1] » وألفت وزارة سعيد باشا يوم ٥ من أكتوبر سنة ١٩١١ وهو اليوم الذي نزلت فيه الجنود الإيطالية في طرابلس .

نزول الطليان في طرابلس :

في اليوم الخامس من أكتوبر سنة ١٩١١ ،نزلت الجنود الإيطالية في طرابلس ، وكانت الحملة مؤلفة من ثمانية ألايات من المشاة ،وألاليين من الجنود الراكبين [2] ، وعشرة آلاف من الخيالة والطبجية والمهندسين ، وجملتها نحو أربعة وأربعين ألفاً ، وتولى قيادتها الجنرال كنيفا . وقد تتابع إنزالها من يوم ٥ أكتوبر إلى يوم ٢٣ منه ، ونزل معظمها يوم ١٧ منه . ونشرت «مجلة ليبيا» المصورة في شهري فبراير ومارس سنة ١٩٣٧ ما نصه :

في اليوم الرابع من أكتوبر سنة ١٩١١ نزل الإيطاليون في طبرق وفي يوم ٥ منه نزلوا في طرابلس . وفي يوم ١٧ منه استولوا على درنة ، وفي يوم ١٩ منه نزلوا في بني غازي وفي يوم ٢٠ منه نزلوا في الخمُس) .

وقد أصاب الطرابلسيين شبه ذهول في أيام الاحتلال الأولى ، كما أن الطليان شُغلوا بترتيب شؤونهم في هذه المدة ، فلا العرب هاجموهم في المدينة ، ولا هم قاموا بأعمال حربية خارجها .

منشور ايطالي :

وفي أثناء هذا الفتور وزّع القائد الأعلى للجيش الإيطالي « كارلو كنيفا »

---

(١) كلمة تقال لمن وقع ؛ ومعناها : لا قام من وقعته .

(٢) المحمولة على الآلات الميكانيكية .

منشورا على العرب يدعوهم فيه إلى الخضوع والتسليم بالأمر الواقع ، وإلى عدم معاونة الترك ، ويتهدّدهم فيه بالفنـاء إذا هم لم يستجيبوا لقوله . وهـذا نصّ المنشور :

« بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على كافة الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

بأمر ملك إيطاليا المعظم فيكتور عمانوئيل الثالث نصره الله وزاد مجده .

أنا الجنرال كارلو كنيفا قائد العساكر الإيطالية الموكل إليهـا محو الحكومة التركية من طرابلس والقيروان ، والمقاطعات التابعة لها . فبناءً عليـه أُعلن الشعوب جميعهم القاطنين في المقاطعات المنوّه عنهـا من شاطىء البحر إلى آخر الحدود الداخلية ، الذين يملكون بيوتاً في المدن وبساتين وحقولاً ومراعي حول المدن نفسها أو بعيداً عنها ما يلي :

إن العساكر الخاضعة لأمري لم يرسلها جلالة ملك إيطاليا — حمـاه الله — لإضعاف واستعباد سكان طرابلس والقيروان وفزان والبلاد الأخرى التابعة لها التي توجد الآن تحت سيادة الأتراك ، بل لتعيـد إليهم حقوقهم وتقتصّ من المتدين عليهم ، سواء كان الأتراك أو أي شخص كان يريد استرقاقهم . وعليه فأنتم يا سكان طرابلس والقيروان وفزان والبلاد الأخرى التابعة لها من الآن سيحكمكم رؤساء منكم موكل إليهم أن يقضوا بينكم بالعدل والرأفة عمـلاً بقوله تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ . وستكون هذه الأحكام تحت حماية ورعاية ملك إيطاليا السامي حرسه الله .

واعلموا أنه ستبقى الشرائع الدينية والمدنيـة محترمة ، ويحـترم الأشخاص والأملاك والنساء والحقوق وجميع الامتيازات المختصة بأماكن العبادة والبرّ ، لأن غاية أعمال الرؤساء يجب أن تكون واحدة وهي تحسين حالتكم والعمل على استتباب راحتكم ، ويجب أن يكون ذلك مطابقاً للشريعة الغرّاء والسنّة المحمدية

السمحاء . وسيقضى بينكم بالعدل طبقاً للشريعة وحسب أوامرها بواسطة قضاة قد اشتهروا بتفقههم في الشرع ، ذوي إستقامة وسيرة حميدة ، كما أنه لا نغضّ الطرف عمن يظلم من الرؤساء ، ولا نغتفر غشاً أو خداعاً من أحد القضاة فالكتاب والشريعة والسنة فقط تقضي وتحكم بينكم .

واعلموا جيداً أنه لا يُدعى أحد منكم للخدمة العسكرية بالرغم عن إرادته ، وإنما يقبل للدخول فيها أولئك الذين يرغبون الإنضمام تحت اللواء الطلياني باختيارهم ، لأجل حماية النفوس والأملاك ، ولكي يكفلوا للبلاد السلم والنجاح ، وأما الآخرون فيبقون في بيوتهم ، وعاكفين على العمل في حقولهم ورعاية المواشي أو معاطاة التجارة والصناعة والحِرف الضرورية لقيام الحياة المدنية .

وعلى هذا فكل امرىء يمكنه أن يقيم الصلاة في معبده (الجامع) حسب تعاليم دينه . ويلزمكم أن تتضرّعوا إلى الله عزّ وجل أن يرفع مجد الشعب الإيطالي ومجد ملكه لأنه أخذكم تحت حمايته .

والإيطاليون يرومون أن يكون اسمهم مهاباً من جميع أعدائكم ، وأما منكم فيكون محبوباً ومباركاً فقط .

وبناءً عليه ، وحسبما خوّلني جلالة ملك إيطاليا العادل المنصور وحكومته ، أُعلنكم بما تقدم ، وسيجري مفعوله من هـذا اليوم من شهر شوال سنة ١٣٢٩ ليبقى كأساس للعلاقات المستقبلة التي ستوجد بين الحامية والمحميين ، وبين الإيطالي وسكان هذه البلاد ، وإني واثق بأنكم تقبلون هذا المنشور بسرور قلبي لأنه سيكون قانوناً يجب أن يحفظ بأمانة واستقامة ضمير وشهامة من كلا الطرفين .

وإذا وُجد من لا يحترم الشرائع ، أو لا يعتبر الأشخاص ، أو يمسّ حرمة النساء ، أو يخترق حرمة الملك ، أو يقاوم ، أو يثور على إرادة العناية الإلهية التي أرسلت إيطاليا إلى هذه البلاد ، وباسمها صدرت لي هذه الأوامر وقبلتها ممن يملك حق الأمر فسيكون الانتقام منه عظيماً ، وسأحافظ على تنفيذها بالقوة

الموكلة لعهدتي بنبراس العدل والحق .

فيا سكان طرابلس والقيروان والمقاطعات التابعة لها اذكروا أن الله قد قال في كتابه العزيز : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرُّوهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين﴾ وقد جاء أيضاً: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ وجاء أيضاً :﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ أي الذين يصلحون الأرض ويمنعون منها الفساد وينشرون فيها العدل والعمران . وجاء أيضاً : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ أي إن تفسدوا في الأرض إن توليتم أمور الناس ويقاتل بعضكم بعضاً ، إن الذين يفعلون ذلك يلعنهم الله ويصمّهم ويعمي أبصارهم ويستبدلهم بغيرهم . وجاء أيضاً : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ . وجاء ايضاً : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ فإرادة الله ومشيئته سبحانه قضتا أن تحتل إيطاليا هذه البلادلأنه لا يجري في ملكه إلا ما يريد،فهو مالك الملكوهو على كلشيء قدير . فمن أراد أن يظهر في الكون غير ما أظهره مالك الملك رب العالمين ، المنفرد بتصرُّفاته في ملكه الذي لا شريك له فيه ، فقد جمع الجهل بأنواعه وكان من الممترين .

وبناءً عليه يلزم على كل مؤمن أن يرضى ويسلم بما تعلـّقت به الإرادة الربانية وأبرزته القدرة الإلهية ، فالملك له سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء .

فإيطاليا تريد السلام ، وتريد أن تبقى بلادكم إسلامية تحت حماية إيطاليا وملكها المعظم ويخفق فوقها العلم المثلث الألوان: أبيض وأحمر وأخضر ، إشارة إلى المحبة والإيمان والعشم في وجه الله » .

* * *

هذا منشور الجنرال كنيفا الذي ظنّ أنه خاتمة « النزهة البحرية » التي عبّر

بها عن احتلال طرابلس . وقد تخيّل أن انضواء الطرابلسيين تحت علمه المثلث لا يحتاج إلا إلى مثل هذه الثرثرة ثم يُهرعون إليه أفواجاً. وهذا من جهل الطليان بنفسية الشعوب ، وعدم دراستهم البيئة الطرابلسية ، وعدم معرفتهم ما تنطوي عليه نفس المسلم العربي .

وكانوا يعتمدون في معلوماتهم عن الطرابلسيين على سماسرة الاستعمار الذين لا يهمهم إلا ملء جيوبهم ، يضاف إلى هذا ما كانوا يشاهدونه بأنفسهم من عدم المعارف في طرابلس وخلوها من أسباب الحضارة الحديثة ، فخيّل إليهم أن هذا هو كل ما يجب أن يتوفر من الأسباب لاحتلال شعب عربي مسلم وكسر شوكته واستعباده. وكان يجب عليهم أن يعرفوا أن الذي يخون وطنه ويدلّ العدو على عوراته ويمكّنه من مقاتله ، هو أشدّ خيانة لغيره ، فهو لا يتورّع عن أن يخترع من المعلومات الباطلة ما يوصله إلى ملء جيوبه . ويجب عليهم كذلك أن يعرفوا ما تنطوي عليه نفس الشعب الطرابلسي من الإباء وعزة النفس التي هي من أخص صفات الشعوب العربية ، وما كانت متأثرة به نفسه من التعاليم الإسلامية التي تحرّم عليه الخضوع لمن لا يدين بدينه ، وتوجب عليه قتاله لأجل التخلص من سلطانه ، وهو فائز في كلتا الحالتين بإحدى الحسنيين : إما حياة العزة وسعادة النصر والظفر ، وإما جزاء الشهادة ورضوان الله في جنته .

وقد دلّتهم تجارب ثلاثين سنة على ان الذي حمل الطرابلسيين على قتال الطليان عشرين سنة إنما هو عزة النفس وإباؤها ، وتأثر نفوسهم بالتعاليم الإسلامية إلى أبعد حد . ولو درسوا نفوس الطرابلسيين من هاتين الناحيتين قبل إقدامهم على احتلال طرابلس لأراحوا أنفسهم من هذا العناء ، ولكن من الأسف لم يعلموا هذا إلا بعد أن فاتهم القطار .

وقد اخطأ « كنيفا » التقدير في تأثير هذا المنشور على نفوس الطرابلسيين ، فإنه لم يطلع عليه أحد غير تلك الأيدي المأجورة التي كتبته ، فضلاً عن كونه يؤثر على الطرابلسيين أو يغير من موقفهم إزاء محاربة الطليان والوقوف في وجوههم

وإن القارىء لا يكاد ينتهي من قراءة هذا المنشور حتى يوقن بأنه من صنع أولئك الذين غضب عليهم الوطن من صنائع بنك دي روما فابتلاهم الله بقلة الحياء وموت الضمير . وفي الحديث : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

منشور إيطالي :

وفي يوم ٢٩ من شوال سنة ١٣٢٩ الموافق ١١ من أكتوبر سنة ١٩١١ أصدر روفائيل بوباريجي والي طرابلس منشوراً يذكر فيه قوة إيطاليا ويدعو فيه العرب إلى الخضوع والترحيب بالجنود الإيطالية ، وهذا نصه :

«أيها الأهالي المحترمون لا يخفى عليكم انه وصل اليوم القسم الأول من عساكر برية إيطاليا ، وسيصل عما قريب ألوف كثيرة من هذه العساكر فاحتفوا إذاً ورحّبوا بهم وأكرموا مثواهم ، فإنهم ما وطئوا هذه الديار إلا بعواطف المؤاخاة ، وبأشدّ ما يمكنهم من الرغبة للدفاع عن حقوقكم ، والذبّ والمحافظة عن دينكم المقدّس ، وصيانة عرضكم وناموسكم ، وفضلاً عن ذلك فإنهم قد تلقوا من الحكومة الإيطالية أوامر شديدة في هذا الشأن .

واعلموا أيها الأهالي أن هذه العساكر قدمت وستقدم إلى هذه البلاد لكي يجيروكم وإيانا ويكفّوا عنكم وعنّا عدوكم وعدونا. لتحيى إيطاليا ، ليحيى الملك .

طرابلس في ١١ من أكتوبر سنة ١٩١١ ـ ٢٩ من شوال سنة ١٣٢٩

والي طرابلس وما يجاورها

روفائيل بورباريجي

قلنا آنفاً إنه أصاب البلاد شبه ذهول في أيام الاحتلال الأولى ، ولكن هذا الذهول الذي شمل البلاد من أقصاها إلى أقصاها لم يطل ، وحصل اتصال بين أعيان البلاد ، وتبادلوا الرأي فيما يجب عمله ، وكان الرأي الراجح في جانب الحرب .

وقبل مواجهة الطليان بفكرة الحرب أحبّ الأعيان أن يتصلوا بقواد الأتراك ليكونوا على بيِّنة من رأيهم ، فألّفوا وفداً كان من بين أعضائه محمد بك فرحات الزاوي ، والشيخ علي بن تنتوش ، وذهبوا إلى نشأت بك في العزيزية ، وتشاوروا معه فيما يجب عمله .

ومن أغرب ما يتصوّر أن الترك كانوا غير واثقين من إخلاص العرب ، كما أن العرب غير واثقين من إخلاص الترك ،وهذا دليل على فساد سياسة الترك وجهلهم بما يجب على الحاكم من تعرُف ميول الناس والامتزاج بهم .

ومن أسوأ ما وقع من تصرُّفات الترك أنه كان يوجد نحو خمسة آلاف جندي وطني ، فتآمر الترك على طردهم وحاولوا نزع سلاحهم . وقد تمكن كثير منهم من الهرب بسلاحه .

وبناءً على ما عند نشأت بك من تعليمات سرِّية بعدم الحرب كتب هو ومن معه من ضباط الأتراك عرائض بتوقيعاتهم يطلبون فيها من الطرابلسيين الموافقة على عدم الحرب في طرابلس . ولما دعوا إلى توقيعها بعض ضباط العرب ومن بينهم علي أشرف أفندي المزوغي [١] (من ترهونة) ملازم أول . وصنعي أفندي الترهوني يوزباشي ـ امتنعوا وهددوهم بالثورة عليهم إذا لم يوافقوا على الحرب .

والحقيقة أن الحاكم التركي شديد التمسُّك بمظهر الحاكمية أمام العرب ولا يوجد في جوانب نفسه ما يتسع للامتزاج بالعربي والاتصال به في نقطة تنتج عنها مصلحة عامة.وهو شديد التمسك بإصدار أوامره في شيء كثير من العجرفة والكبرياء . وكانت أكبر صلة بين الطرابلسيين والترك هي مسألة الديانة لا أكثر ولا أقلّ . وهي الناحية الوحيدة التي كانت تسلي الطرابلسيين عما يقاسونه من صعوبة أخلاق الترك وجفائهم ، لذلك كان كل من الفريقين يجهل الآخر ، حتى في

---

(١) استشهد في معارك عين زارة الاولى .

أحرج الأوقات كانوا مضطرين للتفاهم عما يجب عمله لمصلحة الجميع .

ولما اجتمع الوفد بنشأت بك وأبدى له فكرة الجهاد التي هي فكرة الشعب أبدى بعض التردّد معتذراً عن ذلك بقلة الجند ، وهذا العذر إنما هو لمجرد التخلص ، والحقيقة أنه لا يثق في العرب لأنه يجهل نواياهم وأنه يحاول أن ينفذ التعليمات السرية التي تلـّقاها من جمعية الاتحاد والترقي بعدم الحرب. ولكن الوفد أفهمه انه لا بد من الجهاد، وإذا تردّد الجيش في الاشتراك في الحرب فقد لا تحمد عاقبة هذا التردد .

نشأت بك في الميدان (١)

وإزاء هذا الإلحاح المشوب بالتهديد لم يرَ نشأت بك والضباط الأتراك بدّاً من الموافقة على الحرب ، فقرّروا الجهاد ، وأرسلوا بهذا القرار إلى عموم القبائل الطرابلسية في شرقي البلاد وغربيها ، فقوبل من سكان القطر جميعاً بالسمع والطاعة ، ونفر الناس خفافاً وثقالاً للجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وأخذ نشأت بك يعدُّ جيشه للقاء العدو، واتخذ العزيزية مركزاً لقيادته ، وكان مقرّ الجند في عين زارة وسواني بنيادم، ونقلت بعض الأشياء الثقيلة إلى غريان. وقصد المجاهدون مراكز الجند والتفـّوا حوله، وانضمّ فرحات بك ومن معه من الأعيان إلى نشأت بك لتدبير أمور الجهاد والمجاهدين .

وعيّن نشأت بك موظفين إداريين : فعيّن محمد بك شلابي قائمقاماً في الزاوية

(١) ولد في بني غازي ، ودخل المكتب الرشدي العسكري بطرابلس الغرب سنة ١٢٨٠. وبعد ثلاث سنوات تحصل على الشهادة النهائية منه ، وسافر إلى الآستانة ، وبقي في سلك مكتب الطبجية إلى سنة ١٣١٣ حيث انتقل إلى قسم الطبجية ، وترقى منه سنة ١٣١٦ إلى رتبة ضابط استحكام . وقد امتاز بين رفقائه بفنون الحرب وهو يتكلم الفرنسوية والألمانية ، فضلاً عن العربية والتركية وكان قائد منطقة العزيزية .

بعد أمين المهدوي ، وعيّن الهادي بك كعبار قائمقاماً في غريان ، وموسى بك قرادة قائمقاماً في الجبل (يفرن) .

وكان في مقدمة المجاهدين سكان السواحل: زوارة، والزاوية ، وورشفـانة، والنواحي الأربعة ، وترهونة وزليطن ، ومصراتة ، وغريان . وحضر من أولاد أبي سيف السيد محمد بن عبدالله ومعه جماعة منهم ، ثم تلاحق النـاس من كل جهة ، واجتمعوا في المنطقة التي تبتدىء من ترّينة غرباً وتمتد إلى حدود ترهونة شرقاً . واجتمع من المجاهدين خلق كثير ، ومعهم جماعة من النساء يتولـّين بعض أمور المجاهدين ويحرسن الأمتعة وقت الهجوم مع من يبقى معهن ممن لا قدرة لهم على الحرب .

وأذكر أنه كان من بـين هؤلاء النسوة امرأتان من نساء بلادنا « الحرشا » : اسم إحداهما غيثية ، وهي زوجة أبي بكر بن محمد، من أشراف أولاد أبي حميرة وأصلها من أولاد « بو عيسى » سكان الصابرية ، مات عنها زوجها وبقيت تربي أولادها.وكان سنـّها إذ ذاك حوالي خمس وأربعين سنة. واسم الأخرى «عائشة» بنت ميلاد زوجة الأسطى حميدة الجربي الحداد ، وهي من الجنس الأسمر، مات عنها زوجها كذلك وبقيت تربي أولادها . وسنـّها في مستوى صاحبتها . وقـد تفشّت الحمى في المجاهدين فكانتا تقومان بشؤون المرضى وتواسيانهم . ولم أنس بعد أنهما كانتا ليلة الهجوم على الهاني تشجّعان الناس بالزغاريد وتدعوان لهم بالسلام والنصر .

وفي مدة انتظار المجاهدين في سواني بنيادم وما حولها كان الضباط الأتراك مهتمين بتعليم المجاهدين الحركات العسكرية النظامية ، فكانوا يجمعوننا في أوقات مخصوصة ويمرّنوننا على النظام العسكري ، وقد تناول هذا النظام الفرسان منا والمشاة . وكان الوقت ضيقـاً لا يتسع لأكثر ممـا كان حاصلاً . وهي محاولات كانت من قبيل « ما لا يدرك كله لا يترك كله » .

وقد بقي المجاهدون في انتظار الهجوم على الطليان إلى اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر سنة ١٩١١ وفي ليلة ٢٦ منه توجّهنا إلى قصر الهاني لمهاجمة العدو .

ترجمة أدهم باشا :

وكان ممن اشتهروا في الحرب الطرابلسية أدهم باشا .

وهو من القوّاد العرب المعدودين ، ومن رجالات العسكرية العثمانية المتقاعدين ، والمشهود لهم بالكفاية الحربية .

ولما أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية في طرابلس دفعته الحمية العربية إلى التطوع في سلك المجاهدين . وعندما وصل إلى طبرق لم يجد بها سوى ثلاثة جنود ، فرفع العلم العثماني . واتصل ببادية العرب فأخذ يخطب في رجالها ، ويحثّهم على الجهاد في سبيل الله والوطن . فتأثروا بخطبه ، ولبّوا دعوته . ولم يكن معهم إذ ذاك إلا السيوف وبعض بنادق صيد قديمة . ولم يلبث أن وردت إليه الأسلحة عن طريق مصر ، فوزّعها عليهم ، وأخذ يهاجم بهم الطليان وقد انتصر عليهم مراراً عديدة .

أول اصطدام في بومليانة

يوم ١٠ من أكتوبر سنة ١٩١١

نرجع بالقارىء قليلاً إلى اليوم العاشر من أكتوبر ، فقد شغلنا عنه بمفاوضات الزعماء مع نشأت بك ، ودعوة الناس إلى الجهاد واجتماعهم له .

وأول اصطدام بالطليان كان في بومليانة يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩١١ وهي أول مرة أطلق فيها الطرابلسيون رصاص بنادقهم على الطليان ، وكانت الحدّ الفاصل بين استعداد الفريقين للحرب ومباشرتها : وكان ما أطلق فيها من رصاص أول هاتف ببذل الفداء لحماية الوطن .

وسبب هـذا الاصطدام أن المجاهدين لم يكتفوا بمراقبـة العدو من بعيد ، فقرّروا ان يقتحموا عليه معاقله ، فألفوا جماعة من الطرابلسيين[1] بقيادة ضابط تركي ، وتسللوا تحت جنح الليل فاقتحموا عليـه أسوار المدينة لاكتشاف أعماله حتى وصلوا إلى بومليانة ، وهنـاك انتهزوا منـه غرة وأطلقوا عليـه رصاص بنادقهم إيذانـاً له بأنهم في أعقابـه إذا أدبر ، وفي انتظاره إذا أقبل ، وقـد أطلقت عليهم النار من جميع الجهات ، ورماهم الأسطول بمدافعه الضخمة، وظنّ الطليان ان قيامتهم قد قامت.وفي الصباح وجدوا ثلاثة شهداء وجريحاً واحداً. كلهم مصابون برصاص البنادق ، وذهبت أعمال الأسطول عبثاً . وهؤلاء الثلاثة أول جماعة تشرفوا بالشهادة في الجهاد الطرابلسي – على مـا نعلم – في حادثة أُطلق فيها الرصاص من الجانبين .

احتلال مدينة الخمس

٢٠ من اكتوبر سنة ١٩١١

اقتصرت أعمال الطليان في الخمسة عشر يوماً التي تلت احتلال مدينة طرابلس على ترتيب جيوشهم فيها ، وبناء الاستحكامات وحفر الخنادق . وكان الأسطول في البحر يراقب الشواطىء ، ويختار أسهل النقط وأضعفها لإنزال جنوده في بقية المدن الساحلية التي تقضي الخطط الحربية بسرعة احتلالها .

وفي يوم ٢٠ من أكتوبر داهم الأسطول مدينة الخمس وأطلق عليها مدافعه ، ولكنه لم يجد فيها مقاومة لأنه لم تكن فيها حامية ،فنزلت جنوده فيها واحتلوها بدون مقاومة بعد أن انسحب منها عسس المجاهدين .

ومدينة الخمس تقع على ساحل البحر شرقي مدينة طرابلس على مسافة ١٢٠كم.

---

(١) يقول المسيو « ريجنالد » المكاتب الحربي الفرنساوي: « ولم يزد عددهم على ١٥ رجلا ».

وهي مدينة صغيرة قائمة على جزء من أنقاض لبدة ـ المدينة الأثرية المشهورة ـ وكانت دائماً مركزاً لمتصرف الجهة الشرقية [1] .

وحينما ضرب الأسطول الإيطالي الحصار على مدينة طرابلس ، وقبل أن تقطع أسلاك التلغراف البحري أرسل أهل مدينة الخمس تلغرافاً إلى الآستانة احتجاجاً على أعمال الطليان واستنجاداً بحكومتها . وهذا نصه بعد الديباجة :

« إن طرابلس الغرب تربط الحكومة العثمانية بإفريقية ، فالتفريط فيها عمل تأباه الوطنية العثمانية . وأن أهلها ليفاخرون بانتسابهم إلى الخلافة والسلطنة العثمانية ، فارتباطها هذا هو فخرهم الأعظم ، ولئن كانت جزءاً صغيراً من السلطنة فإن سكانها على اختلاف مشاربهم يبلغون حكومة الآستانة انهم أقاموا اجتماعات كثيرة ، وقرّروا ان يسفكوا آخر قطرة من دمائهم فداءً للوطن. فلينعم الباب العالي والأمة العثمانية وصحافتها بالاً ، وليهدأ روعها فإن وطنهم لا يباع إلا بالدم .

لقد أُهملت بلادنا في السابق إهمالاً مرّاً ، فلترسل إلينا المؤن والذخائر والعُدد الحربية على جناح السرعة لنذود عنها ونرفع رؤوسنا بوطنيتنا . وإننا نرجو من حكومتنا ألاّ تجيب الإيطاليين إلى مطلب ، ولا تعطيهم امتيازاً في بلادنا ولو امتيازاً اقتصادياً على الإطلاق . وإنا ننصح للحكومة ألا تحملنا على عدم مقاطعة الإيطاليين الذين صاروا في نظرنا أعداء الدولة . فهذه الحرب الاقتصادية تعود عليهم بخسارة فادحة لنعلمهم كيف يكون الاعتداء .

وليعلم جميع العثمانيين أننا نستقبل الموت باسمي الثغور مهللين. فحياتنا نبذلها رخيصة غير آسفين في سبيل شرف الدولة ، ولا نقبل ان يكون شبر أرض من بلادنا مهدداً من الأجانب ، فشيوخنا وشبابنا متفقون على استقبال الموت بقلوب

---

(١) كلمة « متصرف » : لقب حكومي مدني يطلق على حاكم المنطقة ، وهي تساوي لقب مدير في ألقاب الحكومة المصرية .

لا تهاب المنايا ، فذلك خير من استبداد الأجنبي بهم .

هذا ما نعرضه وجموعنا واقفة في مكتب التلغراف وفي خارجه ، نطلب إمدادنا لنقوم بالواجب علينا » .

وبأدنى تأمّل في هذا التلغراف يتصوّر القارىء ما عليه الروح الطرابلسية من تحمس لملاقاة العدو ، ويدرك إلى أي حدّ وصل الاستياء والتهيج بالشعب .

وكان قائد منطقة الخمس خليل بك عم أنور باشا ، وهو الذي تولى الدفاع عنها بمن انضمّ إليه من المجاهدين [1] .

وقد انحاز خليل بك ومن معه من المجاهدين إلى المرقب ، وهو ربوة شامخة تشرف على مدينة الخمس من الناحية الجنوبية الشمالية ، وأقاموا حوله خط دفاع ، وتحصّنوا وراء هذه الربوة ، وأخذوا على العدو مسالك البلد ، فما من أحد من الطليان يحاول الخروج من مدينة الخمس أو الإتيان بأي حركة إلا كان عُرضة لرصاص المجاهدين .

وقد ضاقت الحال بالعدو فجمع جيوشاً جرّارة وهاجم بها المجاهدين عدة مرات محاولاً بذلك إجلاءهم عن المرقب واحتلاله حتى يفك عن نفسه هذا الحصار الذي طال أمده . ومرت به فترة لم يتمكن من تحقيق هذه الأمنية . وسنرجع إلى الموضوع في حوادث سنة ١٩١٢ .

واقعة المنشيـــة

٢٣ من أكتوبر سنة ١٩١١

لم يرق المجاهدين ما حصل لهم في بومليانة ، فقرروا أن يكيلوا للطليان

---

(١) خليل بك، رقي بعد ذلك إلى رتبة باشا ، وفي الحرب العامة سنة ١٩١٤ التحق بالعراق ووقعت له فيها حروب مع الانجليز هزمهم فيها شر هزيمة . وكان قائداً محنكاً ، وشجاعاً تملأ مهابته قلوب الأعداء .

كيلا بكيل خصوصاً وأنهم في واقعة بومليانة إنما جاءوا للاستطلاع لا للهجوم . وقد انتهزوا غرّة من الإيطاليين فانقضّوا عليهم في فجر يوم ٢٣ من أكتوبر ، فانتقموا منهم وثأروا لأنفسهم مما وقع لهم في بومليانة .

قام المجاهدون بهذا الهجوم على طول خط القتال من قرقارش غرباً إلى ساحل المدينة الشرقي، وهو خط يكوّن شبه هلال من ناحيتي الغرب والجنوب. وكان قلب الجيش موجهاً إلى المنشيـــة وهي مركز الهجوم ، أما الجناحان من ناحية قرقارش ومن ناحية ساحل المدينة الشرقي فكان مقصوداً بهما المناورة لتضليل القيادة الإيطالية وصرف نظرها عن مراكز الهجوم . وقد بدأ الهجوم عند انبثاق الفجر ، وانطلت الحيـــلة على القائد الإيطالي وظن أن الهجوم عام فوزّع قوته على طول الخط. ولما اشتدت المعركة انضم الجناحان إلى القلب تنفيذاً للخطة المرسومة ، فظن الطليان أن هذا الانسحاب تقهقر من المجاهدين ، ولكنه على رأي المثل العربي : « أمر دبّر بليل » . وحمي وطيس المعركة في المنشية ، وثار أهلها على الطليان وضربوهم ضرباً لا هوادة فيه، واستمر القتل في الطليان، وفتك المجاهدون بهم فتكاذريعاحتى ملأت بجثثهم أخاديد الأرض وآبار البساتين[1]. ولم يلبث قائد الجيش الإيطالي حتى جاءه الخبر بأن جيوشه هُزمت ، فحاول أن يتدارك الأمر ولكنــه أفلت منه . وقــد استشهد كثير من المجاهدين ، نظراً لضيق المنطقة ، واضطرارهم لمطاردة الطليان في بعض الشوارع .

ويرجع الفضل في هذا النصر المؤزّر الذي أحرزه المجاهدون في المنشية : أولاً إلى إحكام خطة الهجوم ، وثانياً إلى ثورة أهل المنشية وصدق بلائهم في الطليان، ذلك البلاء الذي كتبوه على صفحات التاريخ بدمائهم الطاهرة ، فإنه مــا كاد

---

(١) بعد ما استتب الأمر للطليان اعتصموا ببساتين المنشية وبيوتها التي وقعت فيها هذه المعركة ، وبنوا فيها نصباً تذكارياً سموه « تذكار الجنود البرسالليري » . وقد أنزلوا في إحدى الآبار ممن كانت قد ملأت في هذه المعركة بجثث الطليان مصابيح كهربائية ، وصاروا ينيرونها في أوقات مخصوصة تذكاراً لمن ألقيت جثثهم فيها .

أهل المنشية يسمعون بهجوم إخوانهم المجاهدين حتى ثاروا على الطليان وأثخنوهم قتلاً ، وكانت ثورتهم مما عجّل بهزيمة الطليان .

والتجأ قائد الحملة الإيطالية « بريتش » ومعه بعض الجنود إلى أحد بيوت العرب فتحصّنوا فيه ، لكن العرب تسوّروه عليهم وقتلوهم ، ولم ينجُ منهم إلا إثنان التحقوا بمن بقي من فلول جيشهم .

وكان الجيش الإيطالي في هذه الواقعة مكوناً من الأورطتين الرابعة والخامسة ، وفرقة البرسالليري الحادية عشرة . وقد قال المستر فرانسز ماكولا يصف بعض ما حل بالطليان من هزيمة في هذه المعركة : « إن العرب أوشكوا أن يفنوا كل فرد من جنود الأورطتين : الرابعة والخامسة ، وفرقة البرسالليري الحادية عشرة » .

واقعة شارع الشط في ٢٣ من أكتوبر سنة ١٩١١ :

شارع الشط : يمتد من قرب سيدي الشعاب وينتهي في الجهة الشرقية بالسور الذي بناه الطليان حيث « كشلة بوستة » . وكل هذه المسافة في أرض النوفليين . وكانت المعركة تشتمل هذه المسافة في مثلها مرتين إلى الجنوب؛ وليس هو شارع الشط الذي يقع على البحر مباشرة .

وقد قتل في هذه المعركة قائد الجيش الإيطالي الجنرال كنتوري ونصب له الطليان سنة ١٩٣٥ تمثالاً على شارع الملك فيتوريو إلى الشمال منه بقرب «سقالة الحلفا» التي على البحر بنحو عشرين متراً . وبقرب تمثال الغزالة وقد أزيل ولم يبق له أثر .

وكما تسمى هذه الواقعة واقعة المنشية تسمى واقعة شارع الشط ، وذلك أن فرقة البرسالليري وضعت في الناحية الشرقية لتحمي ميسرة الفرقتين الرابعة والخامسة ، فهاجمها المجاهدون من الشرق فاضطرت إلى الانسحاب ، فاقتفوا أثرها وأرغموها على القتال والتحموا معها في مقتلة بقرب شارع الشط ، فاضطرب

نظام الجيش الإيطالي وبدت عليه الهزيمة ، واشتدت عليه ضربات المجاهدين من كل ناحيـة ، فكانت الدائرة عليـه . وكانت هزيمة فرقة البرسالليري فيما حول شارع الشط من البساتين ، فلذلك سميت واقعة شارع الشط .

وبعد انجلاء المعركة رجع المجاهدون إلى أماكنهم ، ورجع معهم بعض أهل المنشية ، الذين ثاروا على الطليان ، وبقي أناس منهم مع كثير من النساء والأطفال .

وقد جُن جنون الطليان لهذا الانحدار الفظيع الذي أصابهم في أول معركة استعد فيها كل من الطرفين للقاء الآخر ، فعاثوا في سكان المنشية قتلاً ، وثأروا لأنفسهم من النساء والأطفال ، ومثلوا بهم تمثيلاً يأباه شرف الجندي الذي يحترم نفسه ، والقـائد الذي يمثل شرف القيادة . وكان الأجدر بالجندي الإيطالي أن يثأر لنفسه من الذين نازلوه في الميدان وجهاً لوجه ، وجعلوه أضحوكة أمـام الجيوش الأوروبية ، ولكنها عادة اتبعها في الحرب الطرابلسية ، فما من معركة تحصل ويكون في طريقه جماعة من النساء والأطفال إلا مثّـل بهم سواء أكان منتصراً أم منهزماً .

وقد كتب مراسل انجليزي شهد الواقعة بنفسه في «مجلة بلاكوو» في ديسمبر سنة ١٩١١ ما نصه : « صدرت الأوامر بإخلاء الواحة [١] في الحال ، وأن يقتل كل عربي معه سلاح ، أو يوجد معه ما يدل على أنه اشترك في الثورة » .

وقال مكاتب التيمس : « إن الشدة التي استعملها الجيش الطلياني في الانتقام من العرب الذين ثاروا يوم الاثنين يصحّ أن يقال عنها انها كانت عمل قتل إجمالي بدون تفريق ، وقد فتحت أبواب سفك الدماء ، وفي أكثر الأحيـان تجاوز الطليان كل حد ومثّـلوا بالأبرياء » .

ونشرت الديلي كرونكل ما نصه : « ظل الجيش الطلياني ثلاثة أيام يطلق

---

(١) يقصد المنشية .

الرصاص على كل من يلقاه في طريقه بدون محاكمة ، فقتلوا البريء والمجرم على السواء ، وقتل عدد كثير من النساء والأطفال . وقد بلغ مجموع من قتلوهم من العرب من يوم الاثنين إلى يوم الجمعة أربعة آلاف عربي ، وصدرت الأوامر بإعدام كل عربي يوجد في الواحة — يعني المنشية — وأن يدخلوا المنازل واحداً واحداً » .

ويقول غيره : « إن جثث الشيوخ والنساء والأطفال كانت أكواماً مكدّسة وكان ما ارتكبه الطليان في المنشية والساحل من أفظع ما شوهد في تاريخ البشر » [١] .

وكانوا يقتلون الشيوخ والعجائز ، والأطفال في البيوت : يقتلون الشيخ على مرأى من أبنائه الصغار ، ويقتلون الأطفال على مرأى من والدهم المريض أو المُقْعد ، ويتركون قتلاهم في الشوارع حتى تتعفّن أجسامهم . ويتركون الجرحى في الشوارع يئنّون ، وعلى مرأى من رجال الصليب الأحمر حتى يموتوا .

كانوا يتلهّون بقتل النساء والأطفال أينما رأوهم أو التقوا بهم كما يتلهى صائد الطيور باصطيادها .

كانوا لا يتركون القتيل إلا بعد أن يفرغوا فيه رصاص مسدساتهم بعد أن يتحققوا موته . كل هذا كان في شوارع المدينة التي استولوا عليها من أول وهلة وبدون مقاومة ، ولم يقدر سكانها على الهجرة ، وليس عندهم قدرة على الدفاع ، وفي القرى التي يستولون عليها وتدخل تحت نفوذهم .

والذي يطّلع على ما كتبه مراسلو الجرائد الأجنبية في أكتوبر سنة ١٩١١

---

(١) كثيراً ما ننقل عن مراسلي الصحف الأجانب الذين كانوا يرافقون الجيش الايطالي في طرابلس ، ليطمئن القارىء إلى صحة ما نكتبه من هذه الفظائع المؤلمة ، والتي لفظاعتها قد لا تستريح النفس للتصديق بها . ولو سمحت لنفسي أن أقول غير الحق لما أمكن للخيال أن يتصور أفظع مما ينقله هؤلاء المكاتبون وهم شهود عيان مع الجيش الايطالي ، ومن بني جنسه ودينه . والخبث ما شهدت به الأصدقاء .

يرى العجب العجاب من تلك الفظائع البشعة . ومن أولئك الإيطاليين الذين تجردوا من كل مقوّمات الشرف ، وصفات الانسانية .

وكانت صدمة المنشية شديدة على الطليان فنبهتهم إلى خطئهم في تقدير الطرابلسيين ، وحوّلت مجرى تفكيرهم في هذه الحرب التي أقدموا عليها ، ووضعت أيديهم على ما للعرب من قوة العزيمة وشدة الشوق إلى لقاء العدو ، والاستهانة بالموت في سبيل الدفاع عن وطنهم ، وأدركوا لذلك أن ما أتوا به من قوة لن يقوى على مقاومة العرب ، وأنهم إذا أحيط بهم مرتين في مثل واقعة المنشية فلن يكون أمامهم إلا الجلاء عن طرابلس . وكانت واقعة المنشية من الوقائع التي رفعت من شأن الطرابلسيين في حروبهم مع الطليان .

واقعة الهاني

٢٦ من أكتوبر سنة ١٩١١

كان النصر الذي أحرزه المجاهدون في واقعة المنشية مما حبّب إليهم لقاء العدو وأطلعهم على بعض مواضع الضعف فيه . وما بلغهم من تنكيل العدو بإخوانهم سكان الساحل والمنشية حافزاً لهم على التفكير في اتخاذ خطة سريعة لإنقاذ من بقي منهم . وقد أجمع رأيهم على القيام بهجوم سريع قبل أن يجمع العدو شمله ويزيد في تحصين مراكزه . فاتفق الرأي على أن يكون هذا الهجوم يوم الخميس ٢٦ من أكتوبر سنة ١٩١١ .

وقد انقضى يوم الثلاثاء والأربعاء ٢٤ و ٢٥ منه في مناورات على طول الخط لعجم عود العدو ومعرفة مواضع الضعف منه ، وفي يوم الأربعاء أعطيت الأوامر للمجاهدين بالاستعداد للهجوم على قصر الهاني . وكان المجاهدون مجتمعين في سواني بنيادم وما حولها ، ونظراً لما بين مجتمع المجاهدين وقصر الهاني من مسافة ، فقد صدرت التعليمات بالسير من المغرب حتى نصبّح العدو مع بزوغ

الفجر ، وهذا ما حصل .

وكانت عندنا عقيدة أنا وكثير ممن عرفتهم من المجاهدين أن رصاص المدفع الرشاش لا يخترق الجسم ، وكل ما له من أثر أن يصطدم بـه ، ثم يسقط في الأرض . وقد توجهنا إلى الهجوم على العدو ونحن على هذه العقيدة . وهي وإن كانت لا تتفق مع الواقع ولكنها شجعت كثيراً من المجاهدين على الإقدام ، ومنشؤها الدعاية لتهوين أمر الطليان .

وقصر الهاني يقع شرق ساحل طرابلس على مسافة ١٥ كم تقريباً وهو الذي كان في مواجهة أهل الزاوية وزوارة وورشفانة. واشترك في المعركة كذلك النواحي الأربعة ومصراتة وترهونة وغيرهم كثير . وسار مجاهدو الزاوية ومن انضم إليهم في صفوف طويلة تعب الضباط الأتراك في تنظيمها . واعترضنا في طريقنا بعض الأراضي الرملية حتى أحسسنا بالإعياء . وكانت الأنوار الكاشفة تنير أمامنا الأراضي للاستكشاف ما بين حين وآخر ؛ فكنا نؤمر بالوقوف حتى تنطفىء لأن الحركة مما يعين على تبين الأشخاص .

وعند انبثاق الفجر ، وفي لحظة لا تزيد على بضع ثوان خشعت الأصوات ، وحُبست الأنفاس ، وإذا بلغة الحديد والنار تملأ ضوضاؤها ما بين السماء والأرض ، وإذا بالمجاهدين يندفعون كالسيل المنهمر إلى الأمام يخاطب بعضهم بعضاً : « تقدموا فإن رصاص المتراليوز لا يقتل » ويعنون بالمتراليوز المدفع الرشاش وأسرف الطليان في إطلاق المدافع من الأسطول ، والأبراج البرية ، والمدافع السيارة ، وكان صوت المدافع الرشاشة يملأ الفضاء في ضجة لا تنقطع ، والجنود الإيطاليون يطلقون الرصاص في غير روية . وبالرغم على هذه الضجة النارية لا يلبث الإنسان أن يسمع صوت المجاهدين يأمر بعضهم بعضاً بالتقدم في شجاعة وحماس ، وخرج الأمر من أيدي الضباط الذين حرصوا كثيراً على أن يكون الهجوم نظامياً،ولكنهم كانوا قلة بحيث لم يمكنهم ضبط حماس المجاهدين. واندفع المجاهدون تحت هذا الستار من النار فاخترقوا خطوط العدو وشاركوه

في البلاد ، وتترسوا بأسوار البساتين وجذوع النخل ، واستمروا في تقدمهم إلى أن أشرفوا على المدينة ، وسمعت فيهـــا أصوات التهليل والتكبير ، فاشتعلت الحميّة في صدور بعض النـاس فركض جواده في أحد شوارعهـا ونادى بأعلى صوته « الجهـاد في سبيل الله » . واستمرت المعركة في شدتها إلى مـا يقارب الظهر والمجاهدون في أتون من الجحيم لا تسمع إلا أصوات الرصـاص وزمجرة المدافع ، ثم خفّ إطلاق النار وأخذت المعركة تنجلي شيئاً فشيئاً ، وإذا بهـا تسفر عن كثير من الشهداء ، ودفـع المجاهدون أغلى مـا يُدفع في سبيل الله لإنقاذ الوطن .

ومما يجب أن يذكر في هذه المعركة أنه كان مع جماعة زوارة رجـل اسمه سالم بن أبي بكر الشوشان وهو من موالي عائـلة بوسهمين . وكان من شعراء البادية المبرزين ، يخشى الناس لسانه ، ويخافون هجاءه ، ولا تسمح لإنسان نفسه أن يعرّضها لكلمة هجاء من مثل هذا الشاعر المفلق ولو أدّى الأمر إلى موته ، فكان هذا الرجل يشجع الناس ويحذرهم مما ينتظرهم من العـار إذا هم خبنوا . فكان لتشجيعه أكـبر الأثر على نفوس المجاهدين ، فكانوا يتهافتون على الموت تهافت الإبل العطاش على الماء ، حتى كادوا يفنون عن آخرهم . وقد كتب على هذا الرجل أن يصاب بشظية قنبـلة في بطنه فاندلقت أمعـاؤه ، فربط بطنه بحزام ، واستمر يحرّض المجاهدين ، ولكنه ما لبث أن أعيـاه جرحه وسقط شهيداً عليه رحمة الله . وكانت الخسارة فادحة من الطرفين في هذا اليوم المشهود في الحرب الطرابلسية . وكان معي اثنان من أبناء عمي : علي بن عبد الله ، وإبراهيم بن محمد ، فاستشهد إبراهيم ، ورجعت أنا وعلي .

وما أنس لا أنس أستاذي الجليل الشيخ عبد الرحمن بن عبد الحميـد البشتي ونحن في طريقنا إلى لقاء العدو ، وهو راكب فرسه يتنقل في صفوف المجاهدين يميناً وشمالاً يأمرنا بالصبر عند لقاء العدو ، ويشجعنا بقوله تعالى: ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ و ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ﴾ وغير

ذلك من الالفاظ التي تشقّ طريقها إلى قلوب المجاهدين المؤمنين . كما اني لم أنس الشيخ محمد سوف شيخ المحامين في عصره ، وهو راكب على جواده يؤانس المجاهدين بعد رجوعهم من المعركة ، ويثبت قلوبهم ، ويحرضهم على الاستمرار في الجهاد ، ويقول لهم : « لا يصح أن نصدر عن البئر قبل أن نشرب » ، ومعناه : يجب علينا أن نصبر على ملاقاة العدو ، ولا نترك الجهاد حتى نطرده من بلادنا .

وقد مهّدت واقعة الهاني الطريق للمجاهدين لمزاحمة الطليان حول المدينة ، وتخفيف الضغط على سكان الساحل والمنشية الذي حصل لهم بسبب واقعة يوم الاثنين ، وسهلت للكثيرين منهم الانضمام إلى المجاهدين الذين اقتحموا على العدو مواقعه بالساحل والمنشية ، ونازعوه فيهما مواضع أقدامه .

وفي يوم ٢٧ أكتوبر – وهو اليوم التالي للمعركة – تمّ انسحاب الطليان إلى الناحية الغربية مما يسامت مكتب الزراعة وسيدي المصري من الناحية الشمالية فيما بينهما وبين المدينة ، واتخذ المجاهدون من بيت السيد بركة الشريف مركزاً لهم ، ونصبوا مدفعاً في « قوز الزناتي [١] » وصارت قذائفه تقع في سوق الثلاث داخل أسوار المدينة وحول دور الحكومة . وأحسّ الطليان بخطر هذا المدفع عليهم فبيّتوه ، وصوّبوا نحوه مدافعهم من البر والبحر حتى « جرحوه » على حد تعبير المجاهدين ، يعني كسروا عجلة العربة التي كانت تجرّه ، فتعذر إصلاحه كما تعذر استعماله ونقله ، وسكت في غير جبن ، وفقد المجاهدون معونته .

ونشط المجاهدون في مضايقة الطليان في كل مكان ، حتى قال أحد الطليان: « وأصبح العرب يخرجون الينا من كل مكان كأن الأرض تنبتهم » .

وقد علم المجاهدون أن جماعة من ضباط الطليان اتخذوا بيتاً بسانية الباشا[٢]

---

(١) القوز في اللغة الطرابلسية الدارجة يطلق على الكثيب من الرمل .

(٢) سانية الباشا: هي سانية أحمد راسم باشا. ولفظ السانية يطلق في اللغة على الحيوان الذي يستعمل لاخراج الماء من الآبار ، وتوسع الطرابلسيون في إطلاقه على البستان .

بالمنشية محلاً للهوهم ويأتون إليـــه ببعض المومسات ، فانقضّوا عليهم ذات ليلة فقتلوهم عن آخرهم ، ووجدوا في البيت « بيـانو » فأخذوه معهم ورجعوا إلى معاقلهم .

وفي الأسبوع الأول من نوفمبر سنة ١٩١١ حاولت قوة كبيرة من الطليان استرداد الساحل والمنشية ولكنها لم تفلح . واستمر المجاهدون في أماكنهم ، كما استمر الطليان في هذه الحال المزعجة إلى أول ديسمبر سنة ١٩١١ حيث أخذوا يستعدون لاحتلال عين زارة .

وقد ذكر المستر فرانسز ماكولا [١] فيما كتبه عن واقعة الهاني أنهـا واقعة « رمى فيها الجيش الإيطالي سلاحه وركن إلى الفرار » . ثم قال : « وبلغ من فشل القوم – يعني الطليان – أن أرجعوا معسكرهم في اليوم الثـــاني ميلاً إلى إلى الوراء حتى تمكن العدو – يعني الطرابلسيين – من الدنوّ إلى المدينة ، ورمى قنابله فأصاب منزل القائد العام بالذات » .

وقال المستر أرنست بانيت [٢] فيما كتبه عن هــذه الواقعة : « وقد أثرت حوادث ٢٦ أكتوبر على الجنرال «كنيفا» وأركان حرب جيشه حتى أنهم قرروا رسمياً التقهقر بمراكزهم إلى الوراء لناحية المدينة » وقـــد جاءت رواية هذين الرجلين مطابقة لما شاهدناه ورويناه .

---

(١) فرانسز ماكولا صحفي انجليزي مـــع الجيش الايطـالي يكاتب الجرائد الانجليزية والامريكية . وقد جمع ما شاهده في حروب الطرابلسيين مع الطليان في كتاب ، وترجمه الى العربية يوسف أفندي سركيس ، ونشر فصولاً منه في «جريدة المؤيد» في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ .

(٢) نائب من نواب الانجليز في مجلس العموم ، وكان مع الجيش العثماني في العزيزية يكاتب الجرائد الانجليزية ، وكتب ما شاهده في الحرب الطرابلسية وسماه « مع العثمانيين في طرابلس » وقد ترجم هذا الكتاب سليم أفندي سركيس إلى العربية ، ونشر فصولاً منه في جريدة المؤيد في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ .

أثر واقعة الهاني في نفوس الطليان :

هذه هي الصدمة الثانية التي اصطدم بها الطليان مع الطرابلسيين في الحرب الطرابلسية وقد كانوا يعتقدون أن احتلال طرابلس نزهة بحرية ، ولكنهم وجدوا في طريق هذه النزهة من الشوك ما جعلهم يتحسسون مواضع أقدامهم ، ومن أسود العرب ما منع عنهم الطريق وردّهم على أعقابهم مدحورين .

وقد كان من أثر هذه الواقعة عليهم أن فقدوا توازن أعصابهم . وملكت روح الانتقام عليهم مشاعرهم ، فأطلقوا يد الجند في النساء والأطفال ، بل وفي المرضى والعجزة من سكان المدينة والمنشية والساحل ، فصاروا يتلهّون بقتل هؤلاء كما يتلهّى الصياد بصيده .

وقد وصف مكاتبو الجرائد الأوروبية الجيش الإيطالي بكل نقيصة ، وجرّدوه من كل إنسانية وكرامة لما ارتكبه من الفظائع التي لا يرتكبها إنسان. والتي تخالف المروءة وقواعد الإنسانية العامة . وخرج عن كل تقليد مدني وأتى كل ما تحرّمه القوانين الدولية .

ويظهر أن الطليان أول من سنّ قتل الإنسان بطريق الذبح . فكان المجاهدون يدخلون بيوت المنشية بعد واقعة يوم الاثنين ، فيجدون أفراد الأسرة بأكملها : نساءها ورجالها وأطفالها مشدودين بالحبال ومذبوحين ذبح الخراف. وهي حقيقة أجمع المجاهدون على رؤيتها، كما أجمع مكاتبو الصحف الإفرنج على روايتها .

وقد أضرم الطليان بهذه الوحشية نار الحقد في صدور الطرابلسيين ولكنهم – رغماً على هذا – كانوا يترفّعون عن كل نوع من أنواع التمثيل، فكانوا إذا تقابلوا مع الإيطاليين لا يفعلون بهم غير القتل بالرصاص ، أو بالخناجر والسيوف إن اختلطوا بهم . وكانوا في كل حال من الأحوال – يترفعون عن قتل النساء والأطفال والعاجزين عن القتال من الرجال .

وقد استباح الطليان القتل في مدينة طرابلس بشكل لم يَرْوِ التاريخ مثله ، واشترك في هذه القسوة الضباط والجنود ، وجماعة الصليب الأحمر ، حتى القساوسة الذين يدعون التشبّه بالمسيح . وسنفرد لهذه الفظائع فصلاً خاصاً إن شاء الله .

ضم طرابلس إلى أملاك روما :

كان الطليان حريصين على الظهور أمام الأوروبيين بمظهر المنتصر الظافر ، بالرغم على ما يعانونه من الصعاب في طرابلس، وعلى انكسارات جيشهم المتتالية وكانوا يشوّهون الحقائق وينشرون ما يفيد انتصار جيشهم ، وإن كان هو المنهزم المغلوب .

وقد أرادوا أن يفهموا العالم أنهم غير مكترثين لما يجري في طرابلس فاستصدروا أمراً ملكياً بتاريخ ٥ من نوفمبر سنة ١٩١١ بإلحاق طرابلس بأملاك روما . وحوّل هذا الأمر في ٢٥ من فبراير سنة ١٩١٢ إلى قانون رقم ٨٣ من قوانين الدولة واجب التنفيذ . وقد فعلوا هذا في الوقت الذي كان رصاص المجاهدين يصل إلى دور الحكومة بمدينة طرابلس .

واقعة عين زارة واحتلالها

٨ من ديسمبر ١٩١١

إن الحوادث يأخذ بعضها برقاب بعض ، ويهيىء بعضها لبعض. فما من واقعة إلا وتمتّ للتي بعدها بأسباب لا تلبث أن تخرج في قوة تختلف باختلاف قوة هذه الأسباب وضعفها : فقد هيأت حادثة بومليانة لواقعة المنشية ، ونشأت عن واقعة المنشية واقعة الهاني ، وها نحن أولاء نرى واقعة الهاني تمتّ إلى واقعة عين زارة بأقوى الأسباب ، وتدفعها إلى الظهور دفعاً في عجلة تقتضيها ظروف

الطليان الحرجة وتهديد مركزهم في مدينة طرابلس .

استمر المجاهدون في الساحل والمنشية نحو الأربعين يوماً يضايقون الطليان ويقضّون مضاجعهم : يضربونهم في كل شارع من شوارع الساحل والمنشية ، وفي كل بستان ومنزل من بساتينهما التي أجدبت إلا من الرصاص ، ومنازلهما التي خلت إلا من جثث القتلى والمذبوحين .

ولم يجد الطليان مخرجاً من هذا المأزق الحرج إلا بإجلاء المجاهدين من الساحل والمنشية . واحتلال عين زارة من أهم العوامل التي تسهل الاستيلاء عليهما . ولا يمكن الوصول إلى عين زارة إلا بقوة عظيمة تحتاج من الوقت والنفقات والتفكير ما يكفل لها النجاح . وقد جمع الطليان ما يمكن جمعه ، وطلبوا نجدة من «سيراكوزه» فجاءت على وجه السرعة. ويقول مكاتبو الافرنج: إنه تهيأ للطليان جمع خمسة عشر ألف جندي مجهّزين بأحدث آلات الحرب وأكملها . ويقول المجاهدون : إن الإنسان إذا نظر إلى هذا الجيش لا يرى إلا أجساماً بشرية تتحرك في مسافة من الأرض تبتدىء من قرقارش وتملأ ما بين جنزور والمنشية مارة بالقِرْوِد وقاصدة إلى الجنوب . وعلى كل حال فإن وصف المجاهدين لهذا الجيش كان مطابقاً لوصف مكاتبي الصحف الإفرنجية فيما يتعلق بكثرته واستعداده .

كان المجاهدون يرابطون في سواني بنيادم وعين زارة وما حولها . وهذا الخط يمتد جنوبي سيدي المصري ومكتب الزراعة وقصر الهاني ، التي كانت يحتلها الطليان ، وينحني من عين زارة إلى الشمال ويدخل إلى الساحل والمنشية . وكانت طلائع المجاهدين تصل إلى جنزور وسيدي بلال على شط البحر لاكتشاف حركات العدو. وكان الطليان شبه محصورين في الهاني والمصري ومكتب الزراعة لأن طلائع المجاهدين كانت تمنعهم من الإتيان بأي حركة ، وكان تجوّل المجاهدين في الساحل والمنشية يقطع الصلة بينهم وبين وصول المدد إليهم من مدينة طرابلس.

والوضع الحربي على هذا الشكل يقتضي الطليان الهجوم من الجهة الغربية على

طريق قرقارش والقِرْوِد [1] فيما بين جنزور والمنشية ، لأن هذه الجهة هي التي تواجه قيادة المجاهدين من الناحية الشرقية الشمالية ، وهذا ما حصل .

وفي أوائل ديسمبر سنة ١٩١١ كثرت طلائع الطليان للكشف والاستطلاع بشكل لفت نظر قيادة المجاهدين وأحست أن في الأمر شيئاً ، فأرسلت مدافع كبيرة كان الجيش التركي أخرجها في انسحابه من المدينة ، ونصبت في أمكنتها اللائقة بها ، استعداداً لما عساه يحصل نتيجة لهذه الحركات غير العادية .

وفي اليوم الرابع من ديسمبر شرع الأسطول يمهّد للهجوم فشرع في ضرب عين زارة وما حولها من مواقع المجاهدين ضرباً لا ينقطع. وكثر تردد الطائرات على خطوط المجاهدين وضربهم بالقنابل . وابتـــدأ زحف الجيش الإيطالي على المنشية بثلاث أرط واستمر القتال النهار بطوله، وفي المساء رجع الجيش الزاحف على المنشية إلى مراكزه ، وفي اليوم التالي أعاد الكرة في الهجوم على الساحل والمنشية ، وهجم ألف وخمسمائة على ميمنة المجاهدين في عين زارة لأنهم رأوا أنها أضعف نقطة يمكن اقتحامها. وبينما المعركة على شدّتها في المنشية وعين زارة والمجاهدون صامدون للعدو جاءت الأخبار إلى نشأت بك بخروج العدو من ناحية قرقارش والقِرْوِد بقوة عظيمة ليضرب ميسرة المجاهدين ويحيط بهم من الجنوب والغرب وهـــذا الوضع يمكنه من فك الحصار على المصري ومكتب الزراعة والهاني ، فرأى ممـــا لا مناص منه أن يأمر المجاهدين بالإنسحاب إلى الوراء لأن العدو أحاط بهم من اليمين والشمال وخرج في مواجهتهم من الأمام ، فأصدر أمره إلى من في المنشية والساحل بالتأخر وكانوا لا يعلمون بخروج المجاهدين من ناحية قرقارش ، فكبر عليهم الانسحاب ، وكادوا يترددون في الأمر لأنهم كانوا في مركز يمكنهم من الثبات أمام العدو . ولكنهم لما علمـوا الحقيقة امتثلوا وانسحبوا إلى عين زارة. وقد تكاثرت جيوش العدو ، واكتشف

---

(١) تطلق كلمة « القرود » في لغة الطرابلسيين الدارجة على الأرض التي تخالط تربتها الحجارة الصغيرة وتكون في العادة قليلة الخصب .

الأسطول محل المدافع التي كانت تقوم بقسطها في المعركة ، فاتخذ منها هدفاً لصواعقه المدمرة ، وثبت المجاهدون ما أمكن الثبات ، ولكن القوة الهائلة اضطرتهم إلى الانسحاب فأخلوا عين زارة وانسحبوا على مهل — كما يقول مكاتبو الجرائد الإفرنج — إلى سواني بوغمجة وما حولها لا يخشون حصاراً ولا مطاردة. واضطروا لترك المدافع لأنها ثقيلة من عيار ١٥ ، وكل مدفع منها يحتاج في جرّه إلى ١٩ بغلاً ، ولا يوجد هذا العدد من البغال ، فضلاً على أن الأرض رملية لا يمكن جرّ هذه المدافع فيها في وقت انسحاب المجاهدين ، وهو ظرف يقتضي كثيراً من السرعة ، وقد تركوها غير صالحة للعمل . وتم استيلاء العدو على عين زارة في اليوم الثامن من ديسمبر سنة ١٩١١ بعد معركة دامت أربعة أيام بدون انقطاع . وجرح في هذه المعركة رمضان السويحلي . واستولوا أيضاً على سواني بنيادم .

جمجمة :

طبّل الطليان وزمروا لاحتلال عين زارة . ولا شك أن القوة غير متكافئة لا في العدد ولا في العُدد ، فإن عماد حرب المجاهدين على البندقيـــة ، بخلاف الطليان فإن سلاحهم من أحدث طراز الأسلحة من جميع أنواعهـا . وعندهم الأسطول الذي لا يمكنهم أن يفارقوا معاقلهم طرفة عين إلا في حماية مدافعه .

ومن المبالغة غير المقبولة أن يقال إن عدد المجاهدين بلغ أربعة آلاف مجاهد فضلاً عن ثمانية آلاف التي ذكرها العدو في بلاغه عن إحتلال عين زارة . أما الجيش الإيطالي فكان مؤلفاً من ١٥ ألفاً غير الاحتياطي .

ولنذكر هنا ما ذكره المستر « أرنست بانيت » بصدد التهكم بالجيش الإيطالي في هذه المعركة قال : « والغريب في تصرف الطليان أن جيشهم الهاجم — وعدده خمسة عشر ألف مقاتل — أباح للأتراك الانسحاب بكل سكينة ولم يعترضهم ، ولا أدري ما كان يصنع فرسانهم ؟ وهل يخطر لعاقل أن أي جيش أوروبي غير

إيطالي يسمح لعدد قليل من أعدائه بالإنسحاب بدون أن يبدي أقل معارضة ؟!
وبدلاً من عمل هذا الواجب فإن تلك الألوف الطليانية اقتحمت المعسكر الفارغ
واستولت على المدافع المعطّلة ».

وقد ذكر صاحب كتاب « في بلاد الناس » تعقيباً على ما كتبه مراسلو الجرائد الأوروبية تهكماً بالجيش الإيطالي فقال : « بلغ عدد الجنود الإيطالية في الثاني من شهر ديسمبر سنة ١٩١١ مائة وعشرين ألف جندي : منه سبعون ألفاً في مدينة طرابلس و ٢٥ ألفاً في بني غازي ، و١٥ ألفاً في درنه و ٥٠٠٠ آلاف في كل من ثغري الخمس وطبرق » . وإذا نظرنا إلى مركز الطليان الحرج وما يتطلّبه منهم الموقف الحربي من توسيع خطوطهم وفك هذا الحصار عنهم رأينا أن تقدير الجيش الإيطالي بخمسة عشر ألفاً فيه كثير من تحرّي الحقيقة .

وقد ذكر الطليان أنهم تغلبوا على جيش للعرب مؤلف من ثمانيــــة آلاف مقاتل . ونردّ عليهم بما كتبه أيضاً « المستر أرنست بانيت » الانجليزي فقال : « كما أنه غير صحيح قولهم إنهم هزموا ثمانية آلاف من العرب وأجلوهم عن عين زارة والحقيقة أنه لو تيسّر وجود أربعة آلاف عربي ـ لا ثمانية آلاف ـ لقابلوا بالنصر والابتهاج ١٥ ألفاً من الطليان » .

هذا بعض ما كتبه الأوروبيون ـ مراسلو الجرائد الأوروبية ـ عن الجيش الإيطالي في هذه المعركة .

ومهما قلبت النظر في هذه الواقعة سواءً من ناحية قلة الجيش وكثرته ، أو من ناحية العتاد الحربي وآلات الدفاع ، أو من ناحية حسن القيادة والإنتبـــاه إلى خدع العدو ، فلا يمكنك أن تجد فيها ما يشين سمعة المجاهدين أو يقلـل من شجاعتهم .

مناورة :

أراد الطليان أن يصرفوا نظر قيادة المجاهدين إلى الإهتمام بغير الذي هو بين

يديها او على مقربة منها ، فذهبت مدرّعتان من أسطولهم في ١٥ ديسمبر سنة ١٩١١ إلى ناحية زوارة وأنزلتا بعض بحارتها في مكان يقرب منها ، وكان قائد تلك المنطقة موسى بك اليمني برتبة « قومندان » وسرعان ما فطن لهم سكان تلك الناحية فحضروا وطردوا البحارة الذين نزلوا . ولما رجع البحارة إلى المدرعتين أطلقتا المدافع على المجاهدين ، ولم يصب أحد بسوء . وقد حاولوا أن يفعلوا مثل هذا في يوم ١٦ منه ، ففي نحو الساعة الخامسة صباحاً جاء طرادان إلى نفس المكان الذي وقفت فيه المدرعتان في اليوم الأول وأنزلا نحو ١٥٠ بحاراً ، وكان العرب قد فطنوا لهم فكمنوا لهم بأمر موسى بك ، ولم يلبثوا أن انقضّوا عليهم فقتلوا ضابطهم وبعض الجند،ففروا وتركوا بعض البنادق وكثيراً من الخرطوش ، فحبطت هذه المناورة ورجع الطليان خائبين .

الهجوم على زنزور

في ١٧ من ديسمبر سنة ١٩١١

بعد أن احتلّ الطليان عين زارة انفسح أمامهم مجال العمل قليلا ، وأصبح جنوبي المدينة كله في أيديهم . وقد أنشأوا حصناً في الرأس الأحمر وهو ربوة عظيمة بالقرب من عين زارة من الناحية الشمالية ، ووضعوا فيه ١٤ ألف جندي. وأنشأوا من قبل احتلالها حصناً في الهاني ، وحصناً في المصري ، وحصناً في مكتب الزراعة « عدا الحصون التي أنشأوها في قرقارش . وانحاز المجاهدون بعد احتلال عين زارة إلى سواني بوغمجة ، وقسم منهم إلى سواني بنيادم والعزيزية ، وامتدوا في جنوبي زنزور إلى تِرّينة مما يلي الزاوية . وقد اطمأن الطليان إلى الحصون التي أنشأوها بعد أن عززوها بالمدافع ، وملأوها بالجند لتقوى على ردّ الهجوم على المدينة فيما إذا حصل هجوم عليها من المجاهدين ؛ وجمعوا جيشاً لاحتلال زنزور ، وكان الجيش مؤلفاً من أربع أرط من الفرسان وقسم من أورطة ٧٣ ، وقسم من أرطة خمسين، ومن أرطة مدفعية علىالبغال.

وقد علمت قيادة المجاهدين بهذا الاستعداد فاحتاطت للأمر . وفي اليوم السابع عشر من ديسمبر سنة ١٩١١ خرج هذا الجيش عن طريق قرقارش قاصداً زنزور ، وصادف أنه لم يكن فيها إلا أربعة من الفرسان من المجاهدين . ولما رأوا جيش العدو قادماً أخلوا له الطريق ودخل زنزور بدون مقاومة ، وهدم مبنى التلغرفات وقطع أسلاكه . وقد التحق الفرسان الأربعة بإخوانهم في جنوبي زنزور ، وأرسلوا نذيراً إلى العزيزية يخبر القيادة باحتلال العدو زنزور ، وقد تقدم العدو إلى جنوبي البلدة فالتقى بتسعة عشر مجاهداً فأطلقوا عليه الرصاص من بنادقهم ، فظن أن قوة كامنة له وراء الآكام فأطلق ساقه للريح ورجع من حيث أتى ، ولم يبت إلا في المدينة وقرقارش تحت حماية الأسطول .

ويقول الذين كتبوا على هذه الحادثة : « إن العدو أطلق مائتي مدفع من البر والبحر تمهيداً لهذا الهجوم الفاشل » .

واقعة طبراز [١]

في ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١١

لما فشل الطليان في هجومهم على زنزور أرادوا أن يجرّبوا حظهم مرة ثانية ، فاتفق رأيهم على أن يهاجموا المجاهدين في سواني بوغمجة ، وهي جنوبي عين زارة ، بقوة كبيرة مؤلفة من ثلاث أرط من المشاة ، وأرطة من الفرسان ، وثلاثة مدافع على البغال ، وبضعة مدافع مكسيم وبعض المشاة من فرقة البرساليري الحادية عشرة . وكان هذا الجيش بقيادة الكولونيل «فارا» .

ولا يخفى على من له إلمام بأعمال الجيش الإيطالي في طرابلس أن سوء الطالع ما انفكّ ملازماً له ، فهو على رغم ما يعده من كثرة الجند ومختلف الأسلحة

(١) وتعرف أيضاً بواقعة السررة ، وواقعة سررة الجلابة وهي من الوقائع المشهورة .

النارية ، فإن الهزيمة لا تفارقه ، وإذا نجح ففي الغالب إنما ينجح من قبيل الصدف .

وبينما هو سائر في طريقه إلى سواني بوغمجة التقى بعسس المجاهدين فيطبراز فاعترضوا طريقه وقاوموه ، وكانوا نفراً قليلاً ، ولم يلبثوا أن جاءتهم نجدة وانقلبت المقاومة إلى معركة . وقد حصل اختلال في صفوف الجيش الإيطالي بسبب المصاولة التي كانت بينه وبين المجاهدين ، فضلّ الطريق واتجه إلى غير قصده . وكان المجاهدون يبذلون جهد المستطاع لتضليله والحيلولة بينه وبين قصده ، وقد حاول أن يهتدي فشغله الدفاع عن الإهتداء وحاول أن يجدّ في الدفاع عن نفسه فأنهكه التعب وخارت قوته المعنوية لهذا المركز الحرج الذي وجد نفسه فيه . ومما زاد في حيرته أنه حيثما توّجه وجد أمامه المجاهدين ، وظل المجاهدون طول النهار يضربون وجوهه وأدباره ، ويقلبونه ذات اليمين وذات الشمال وهو لا يدري أين يتوّجه ، في حيرة ملكت عليه شعوره ،وموقف حرج لم يجد فيه مجالاً للتفكير في أمره . وقبيل المغرب أمكنه الاتجاه إلى الشمال . وقد اشتدت مضايقة المجاهدين له ، وصار الرصاص يتخطّفه من كل ناحية ، وبقيت قتلاه مبعثرة في كل منخفض من الأرض ، وعلى كل رابية . وقد أزعجه تكبير المجاهدين وزاد في فشله ، فكلما دنوا منه صاحوا به : «الله أكبر» وأطلقوا عليه الرصاص فلم يزده ذلك إلا إرتباكاً .واختلط عليه الأمر فأخطأ في تقدير الزمان والمكان . فلما جنّ عليه الليل إزدادت حيرته ، فأمر القائد الجيش بالنزول لأخذ قسط من الراحة ، فنزل في جوار « سدرة الجلابة » ونصب حوله المدافع والرشاشات وحفر الخنادق ، فما زاد ذلك إلا شدة في حصاره . وتجمع المجاهدون حوله وأصلوه ناراً حامية ، فأمر القائد الجيش بالرحيل فرحل ، وسار بقية الليل وهو في شك بأن وجهته عين زارة . وبعد لأي ، وفي وضح النهار الثاني وصل خبره إلى عين زارة فجاءته نجدة وأدركت من بقي منه على قيد الحياة .

وقد كتب المستر « أرنست بانيت » يصف هذه المعركة فقال : « أما خسائر الطليان في هذه الواقعة فمئات من القتلى . وقد جمع العرب نحو مائتي بندقية وكمية وافرة من الذخيرة . وعرضت في اليوم الثاني كميات كبـــيرة من أحذية الطليان وبرانيطهم للبيع. أما خسائر المجاهدين فكانت أحد عشر قتيلاً وأربعين جريحاً. ومما لا ريب فيه أن الذي أبقى على بقية جيش الكولونيل «فارا» وحال دون قتلهم جميعاً هو قلة الخراطيش لدى العرب. فما رأيت أمة في الأرض تسرف في إطلاق بنادقها مثل هؤلاء العرب » .

وكتب جندي إيطالي من خط القتال إلى شقيقه يقول له : « إني آسف لهزيمة البرساليري في بئر طبراز ، بعد أن قتل منهم أكثر من مائة وجرح ما يربو على مائة وخمسين » .

والقارىء يرى فيما يكتبه الأجانب مما شاهدوه من الجيش الإيطـــالي تلك الحقيقة الناصعة التي نرويها عن كبار المجاهدين ورؤسائهم ممن خبرناهم وعرفنا مبلغ صدقهم .

ضد ملك إيطاليا :

كان في إيطاليا حزب اشتراكي يرأسه « ماتيوتي » يخطّىء الحكومة الطليانية في إعلانهـا الحرب الطرابلسية. وفي بعض أعضائه جرأة دونها جرأة الفوضويين والفدائيين. وقد شاهدنا منهم السنيور مرتيني في طرابلس سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠ يكتب في الجرائد الطرابلسية يطالب حكومته بإعطاء الطرابلسيين حقوقهم كاملة .

وكان فيها حزب جمهوري متطرّف يكره الملوكية الإيطالية ويعمل ضدها في وضح النهار وعلى رؤوس الأشهاد .

ومن أعضائه المتطرفين السنيور « امليكارسبرياني » العضو الجمهوري في مجلس نواب إيطاليا . وكان هذا العضو من أشد أعداء الحكومة ومعارضيها في إقدامها

على الحرب في طرابلس .

وقد كتب مقالاً في جريدة «الأومانيته» الفرنساوية في أول يناير سنة ١٩١٢ يسفـّه فيه آراء الملوكية الإيطالية، ويلصق بها أقبح النقائص وأحقر الصفات . وهذا نص تعريب ما جاء في مقاله :

« إننا لو شئنا أن نسرد في هذا المقام سائر الجرائم التي ارتكبتها الملوكية المدنـّسة التي فضحتنا أمام الملأ، ودهورتنا في حضيض المهانة منذ وطئت بقدميها ثرى طرابلس الغرب لما انتهينا من إحصائها .

أما أنا فلن أبرح ممسكاً بتلابيبها لأنها لا تنقضي لحظة بدون أن تقيم الدليل على أنها لم تمحُ اسمي من صفحة ذاكرتها...ولقد جرّأ هذا الملك الفظّ الدعي على أن يذيع بواسطة أعوانه المحقّرين أن ميوله منصرفة نحو الاشتراكيين ... وحقيقة الواقع أنه لا يميل إلى الحزب الاشتراكي ... وإنما كل ميوله وتعطفاته منصرفة نحو القسوس والجندرمة والسفاكين، والمشانق التي رفعها بواسطة أعوانه لرفع أعلام المدنية، وللإشارة إلى ما يريده بالطرابلسيين من الحضارة والعمران .

وملك إيطاليا مثل حيّ لوالده من وجوه الانعطاف على الخونة . وإنه لفي استطاعتي أن أذكر هنا أسماء ستة من رؤساء الوزارات الذين لم يعهد إليهم بالرياسة إلا بعد أن قدموا البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على أنهم خانوا الحزب الجمهوري .. إلى أن قال : تلك هي المدنية التي تريد الملوكية المجرمة من « سافويا » وضع غراسها في طرابلس الغرب [1] » .

---

(١) نشرت تعريب هذا المقال جريدة المؤيد بعددها الصادر يوم ٢٠ / ١ / ١٩١٢ وقد نقلناه بدون زيادة ولا نقص فيما نقلناه . وحذفنا بعضه لما اشتمل عليه من ألفاظ لا تسمح الظروف بنشرها. هذه الألفاظ كانت تتعلق بنقد حسن باشا القرمانلي والحط من كرامته . وأقل ما اشتملت عليه وصفه بالخيانة لوطنه، وخدمة السياسة الايطالية ضد مواطنيه، وموافقته على كل =

وعلى اثر ما صادف الجيش الإيطالي من هزائم منكرة في طرابلس سرت روح من التذمُّر في إيطاليا لم تقتصر على الأحزاب المعارضة بل شملت كل الغيورين على شرف إيطاليا العسكري؛ حتى اضطر بعض النواب الإيطاليين إلى التصريح بقوله : « إن إيطاليا في هذه الحرب الطرابلسية أكلت ضربة هائلة في اسمها العسكري » فمثل هذا التصريح وهذا المقال نتيجة لما يحسّ به الشعب الإيطالي من الهزائم التي لحقتهم في الحرب الطرابلسية .

وفي هذا التذمر الساري في طبقات الشعب الإيطالي ، وفي هذه المعارضة الشديدة للحكومة ، وفي ما يكتبه مكاتبو الصحف الأجنبية بين كل حين وآخر دليل واضح وشاهد صدق على انتصار الطرابلسيين وحسن بلائهم .

في مدينة الخمس :

نعود بالقارىء إلى مدينة الخمس لنضع يده على ما وقع فيها من أحداث حربية ، وما قام به خليل بك من أدوار سياسية في الاتصال برؤساء القبائل لاقناعهم بفكرة الجهاد والدفاع عن الوطن .

سيف النصر

كانت مدينة الخمس في التقسيم التركي الإداري مركز المتصرّفية ،ويدخل تحت نفوذها مركز سرت . وكان سيف النصر رئيس قبيلة أولاد سليمان من أعيان منطقة سرت .

وكان بينه وبين حكومة الترك ثأر قديم لأنها قتلت عبد الجليل وسيف

ما كانوا يرتكبون من جرائم قتل الطرابلسيين وتشريدهم. وما زالت هذه المعاني مدوّنة في عدد جريدة «المؤيد» المذكور .

النصر [1] في ثورة عبد الجليل عليها سنة ١٢٥٨ هـ . وطاردته هو في عدة مناسبات لإخضاعه لحكمها فاعتصم منها بالصحراء ، لهذا لم يسرع في المشاركة في حرب الطليان. ومرّ نحو ثلاثة أشهر والحرب قائمة ولم يبدِ حراكاً .

وقد أراد خليل بك أن يأخذه بالحكمة فأرسل إليه وفداً من الأعيان مؤلفاً من : الحاج فرحات القاضي ، والحاج فرج بن إبراهيم من مسلاتة . ومحمد نوري أفندي السعداوي من مصراتة . ومحمد بن عامر رئيس بلدية سرت . وعلي فائق مسيك الغرياني من ضباط الجيش . ولما اجتمع به شرح له الظروف الحرجة والخطر المحدق بالبلاد . وأعطاه كل التأكيدات بأن الحكومة لا تنوي له إلا الخير . ولكنه اعتذر فيئس الوفد من إقناعه ورجع واستمر سيف النصر بعيداً عن حركة الجهاد إلى أن احتل الطليان الجفرة سنة ١٩١٣ . وكان تلكؤ سيف النصر عن المشاركة في الجهاد نتيجة مساعٍ بذلها عمر المنتصر عنده لإقناعه بالإنضمام إلى الطليان ، ولا أقل من أن يرضي صديقه عمر المنتصر بعدم اشتراكه في الحرب . ويظهر أن عمر المنتصر أمكنه أن يؤثر على سيف النصر بعد أن لوّح له بشيء من المغريات التي كانت متوفرة لدى بنك دي روما ، فركن إليه وسارا في طريق واحدة .

ولما وقع الإحتلال الإيطالي كان عمر المنتصر حاكماً لسرت . ولم يلبث ان انتقل إلى طرابلس ، حيث نفوذ الطليان وتولى بعده محمد الأدغم من قبل خليل بك .

وكان اعتصام سيف النصر بالصحراء وبعده عن المدن ومراكز الحكومات من أقوى الأسباب التي سهّلت له المراوغة في الاشتراك في الجهاد، فقد مرت على الحرب نحو ثلاثة أشهر لم يقم من جانبه بأي مشاركة فيها ، أو بما يدل على إستعداده للمشاركة . ومثل هذا الموقف في مثل هذه الظروف يحمل على سوء

---

(١) أحدهما والده والآخر عمه .

النية ، وينبّه إلى إتخاذ ما يلزم لدرء ما عساه أن ينجم عن هذا الموقف من الخطر ... وهذا ما وقر في نفس خليل بك قائد منطقة الخمس ، فقد ساور نفسه من الخوف ما دعاه لأن يجدّ في إتخاذ الوسائل للوقوف على جلية نفس سيف النصر ، فأرسل إليه بواسطة محمد الأدغم حاكم سرت يطلب إليه الاشتراك في الجهاد هو وأتباعه . فأجابه بأنه مستعد وآخذ في جمع المجاهدين للمجيء بهم إلى خط القتال . وبعد أيام حضر هو وأخوه غيث ، ونحو ثلاثمائة رجل من غير سلاح إلى سرت ، فقابلتهم حكومتها بكل احترام ، وعيَّنت لهم أرزاقاً مدة إقامتهم في سرت ، وتكفلت لهم بما يكفيهم في طريقهم إلى خطوط الحرب ، ظناً منها أنهم سيذهبون إلى القتال ، كما هو ظاهر من حالهم ، وكما هو سبب دعوتهم ... وقد طلب سيف النصر من حكومة سرت ما يكفي لتجهيز ألف مجاهد من الأرزاق والسلاح ، فأجابته إلى طلبه ، وسلمت له ما كان موجوداً بمركز سرت ريثما تحضر له الباقي . فأعطته باسم المجاهدين ثلاثمائة جوال من الأرز ومائة جوال من الدقيق . وأعطته لنفسه عشرين جوالاً من الأرز وعشرين صندوقاً من الزيت ، وصندوقاً من الشاي « وأربعة أجولة من السكر ومائة ليرة ذهباً ، كل هذا غير مخصصاته مع المجاهدين بصفته رئيساً لهم .

ومع هذا الإكرام والاحترام اللذين غمرته بهما حكومة سرت كانت نفسه غير راضية ، وكان مصرّاً على عدم الوفاء ، وعدم الاشتراك في الجهاد .

وكان علي فائق مسيك الغرياني رئيس التجهيزات في سرت ، وهو المشرف بحكم وظيفته ـ على أرزاق المجاهدين وتصريفها . وكان قومندان هذه المنطقة محمد بن حسن الشيخ من مصراتة .

وبعد أن سلـّم له ما ذكرنا من السلاح والأرزاق طلب إليه قائد المنطقة أن يسافر هو ومن معه إلى خط القتال ، فتلكأ وراوغ ثم ارتحل هو ومن معه من مركز الحكومة إلى المشيطية ، وهي تقع جنوبي سرت مسافة ساعتين . وكان

التجار قد وضعوا فيها بضائعهم نظراً لبعدها عن محل الخطر ، وعيّنوا خفراء لحفظهـا .

ولما رأى سيف النصر وأتباعه كثرة هذه البضائـــع المكدّسة وسوس لهم شيطان الطمع بالإغارة عليها واغتصابها من أهلها وقوّى في نفوسهم الإقدام على فعل الشر ما أصبح لديهم من السلاح الذي أعطي لهم ليقاتلوا به الطليان، فاتفقوا على ذلك ، وبيّتوا الغدر بحراس البضاعة. وكان مندوب حكومة سرت يحثّهم على السفر إلى خط القتال فكانوا يراوغون ، وينتحلون المعاذير انتظاراً لفرصة ينفّذون فيها ما بيّتوه من الغدر . وأرسلوا سرّاً إلى أنصـارهم من بادية سرت ليأتوا لهم بالإبل ليحملوا عليها ما سيغتصبونه من أموال الناس .

وفي ذات صباح هجموا على بضائع التجار ، وشدّوا وثاق الخفراء، وشرعوا في حملها على الإبل .. وسرعان ما تسرّب الخبر إلى مركز الحكومة ، وعـــلم أرباب الأموال بغدرهم، فخفوا إلى محل الحادث وأدركوهم قبل أن يتمّوا فعلتهم، وأحدقوا بهم قبل أن يغادروا المكان واشتبكوا معهم في معركة أسفرت عـن سبعة عشر قتيلاً ، منهم أربعة عشر من أتباع سيف النصر ، وهرب هو فيمن بقي معه حياً من أتباعه ، وتركوا كل شيء في مكانه ، ولم يتمكنوا حتى مـــن دفن قتلاهم والتحقوا بفزان .

وهذا أول دور من أدوار سيف النصر التي مثلها في الجهاد الطرابلسي ، دعاه المسلمون إلى قتال الطليان فقاتل المجاهدين ونهب أرزاقهم ، وسنذكر بقية أعماله في محالها ، وعند مناسباتها ، وسيجد فيها القارىء صورة مصغّرة لتاريخ هذا الرجل الذي ملأ صيته الصحراء ، وبنى شهرته على غير ما بنى عليه سادات العرب شهرتهم من جلائل الأعمال وكرم الفعال ، ونصرة المستغيث ، والدفـاع عن الحوزة .

وقد أدرك خليل بك أن وجود سيف النصر في الصحراء بعد أن قام بهذا الدور خطر على المجاهدين والمصلحة العامة ، وانه سيكون مصدر فتنة بمـــا

سيقوم به من الإغارات إنتقاماً لنفسه ، فأراد أن يأخذه من طريق الحكمة ولين الجانب فأرسل إليه الوفد الذي ذكرناه في ص ١١٧

واقعـــة قرقارش

٢٢ من ينـــاير ١٩١٢

كانت خيبة الطليان في الهجوم على سواني بوغمجة مؤلمة . وكان السبب المؤثر فيها خطأ القيادة الإيطالية في تقدير الزمان الصالح لخروج الجيش والطريق الذي يسلكه ، وقد رجعت فلول جيوشهم من الهجوم عليها في حالة من الخيبة قليلة النظير .

وكان لهم في هذه الحادثة من دروس العبرة ما جعلهم يفكرون في إعداد ما يواجهون به هذا العـــدو الخفي الذي كان يفاجئهم من حيث يشعرون ولا يشعرون . وقد أصابهم شبه ذهول فمكثوا مدة لا يقومون بهجوم . وانتهز المجاهدون هذه الفرصة وشنّوا الغارة عليهم في ناحية قرقارش عدة مرات حتى قلق الطليان وفكروا في مواجهة هذا الغزو المتكرر ، فجاءوا بنجدة من إيطاليا يوم ١٢ من يناير ١٩١٢ قوامها ثلاثون ألف مقاتل ، استعداداً للرد على المجاهدين بمثل أعمالهم . وفي يوم ١٩ منه أغار المجاهدون على الطليان في قرقارش فأجلوهم عنها إلى الحمامجي [١] والمدينة ، ثم رجعوا إلى مراكزهم لأنهم لا يمكنهم البقاء فيها نظراً لقربها من الأسطول وثكنات الجيش .

وكانت الخطة المتبعة عند المجاهدين في الحرب الهجوم أو المناوشة وأخـذ ما يمكن أخذه من غنيمة وأسرى ، ويتحاشون الدخول مع العدو في معارك فاصلة نظراً لكثرة جنده وقلتهم. فلما جلا الطليان عن قرقارش أخذ المجاهدون

---

(١) مكان يتصل بمدينة طرابلس من الجهة الغربية . وكان فيه بعض النخيل وقليل من البيوت . ولما بنى الطليان سوراً حول مدينة طرابلس أصبح داخل السور .

ما وجدوا من أسلابهم ورجعوا إلى مراكزهم في زنزور . وقد اكتشف الطليان يوم ٢١ من يناير أن قرقارش خالية من المجاهدين فرجعوا إليها وأشاعوا أنهم احتلوها ، والحقيقة ما ذكرناه .

وفي يوم ٢٢ منه خرجوا بقوة عظيمة مؤلفة من ألاي من المشاة وبلوك من الفرسان ، وبطارية مدافع لاحتلال زنزور ، فاعترضهم المجاهدون بما لديهم من قوة ومنعوهم من التقدم إلى زنزور واضطروهم إلى الرجوع إلى المدينة ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وقتل وجرح من المجاهدين ما يقارب الخمسين .

شجاعة :

هناك في بلاد الدفاع ، وتحت سمع التاريخ وبصره ، يمثل البطولة العربية في الدفاع عن النفس والكرامة شعب من شعوب العرب البواسل ، ويشترك في ميدان القتال رجاله ونساؤه : يدافع الرجل عن عرضه ووطنه ، وتحذره المرأة العار وقبح الأحدوثة ، فيتفانى في الدفاع. وقد تضطرّ المرأة مهمتها في التحريض وتقديم المساعدات للرجل إلى الاقتراب من العدو فتكون عرضة لرصاصه وشظايا قنابله .

وتوجد جماعة من النساء التحقن بالمجاهدين للتشجيع وحراسة الأمتعة إذا ذهب المجاهدون إلى صف القتال ، وسقاية المحاربين وتضميد جراحهم وما إلى ذلك .

وذهاب بعض النساء مع المجاهدين عادة عربية قديمة منذ الفتح الاسلامي وقبله . وقد كان جماعة منهن مع النبي ﷺ في واقعة أُحد .

وكان ممن عثرنا على أخبارهن في الحرب الطرابلسية اللائي كن يشاركن المجاهدين في القتال : مبروكة المقسية » وهي خادم سوداء ، شوشانة من شواشنة الصيعان ، حضرت معارك زنزور ، وجرحت في فخذها ، وكانت

تتقدم المجاهدين وتحثّهم على ملاقات العدو بزغاريدها وتشجيعها . وقد اعجب نشأت باشا بشجاعتها فأعطاها سيفاً ، فكانت تتقلده حين تدخل المعركة .

وعثرنا أيضاً على خادم سوداء من شواشنة [1] محمد بك شلابي ، وكانت من هذا النوع في الجرأة والإقدام . وأقرب الظن أن التي عناها مكاتب جريدة (باري جرنال) وسمّاها جاندارك الثانية هي إحدى هاتين الفتاتين .

جاندارك الثانية :

وقد لفتت حادثة من هذا النوع نظر مكاتب جريدة(باري جرنال)ـ وكان مع الجيش التركي بطرابلس ـ فكتب فيما وصف به الطرابلسيين من الشجاعة يقول : « إن فتاة عربية هجمت على المواقع الإيطالية في قرقارش في نفر من بني جلدتها تشجّعهم على النزال والكفاح ، وهي مجرّدة من السلاح ممتطية جواداً أسود متشحة برداء أسمر ، وقد أصابتها شظايا قنبلة جرحت ذراعها اليسرى . ولم يمنعها ما حلّ بها من حثّ قومها على اقتفاء أثر الإيطاليين وتمزيق شملهم، بينما كانت مدافع الإيطاليين تقذف من أفواهها النيران المميتة » .

ولشدة إعجاب الكاتب بهذه العربية الباسلة سماها « جاندارك الثانية » وهو معذور في هذه التسمية ، لأنه لا يعرف مثلاً أعلا في البطولة النسائية غير جاندارك الفرنساوية . ولو تتبع التاريخ العربي لوجد الكثير من أمثال هذه الفتاة . وقد وصلت أخبارها إلى تركيا فأثنت عليها الأديبة التركية « فاطمة عليّة » بنت جودت باشا في مقال نشرته جريدة صباح .

ومن الأسف أني لم أوفّق إلى معرفة اسمها ونسَبها ،بالرغم على ما بذلته من جهد في السؤال عنها .

---

(١) يطلق هذا الاسم على من كانت مملوكة من السودان ثم عتقت . ويقال للذكر شوشان وفي الغالب يبقون بجوار ساداتهم . وكثيراً ما يعتزون بمن ظهرت نجابته منهم .

وأحرِ بهذه الفتاة أن تسمى « خولة بنت الأزور » الثانية كما سمتها جريدة «المؤيد» ، وهي من النساء العربيات اللاتي اشتهرن بالشجاعة .

وخولة هذه هي خولة بنت الأزور أخت ضرار بن الأزور الصحابي المشهور، التي برزت في الشجاعة أيام الفتح الإسلامي في الشام .

في الخمس :

أراد الطليان أن يجرّبوا حظهم في الخمس فهجموا بعشرة آلاف جندي على مجاهدي منطقة الخمس في ٢٧ من يناير ١٩١٢ لإجلائهم عن مرتفعات المرقب فثبتوا لهم، وكان القتال وجهاً لوجه، واستعمل فيه السلاح الأبيض، وانتهى الأمر بارتداد الطليان .

جبن :

في الوقت الذي تتجلى فيه الشجاعة العربية في طرابلس، ويدافع الطرابلسيون عن وطنهم دفاعاً شريفاً ، وتتجلى في دفاعهم خصال المروءة والترفع عن قتل من لا يحملون السلاح من الإيطاليين ـ كانت نذالة الطليان تدفعهم إلى قتل النساء وذبح الأطفال والشيوخ من الطرابلسيين ، وأسر من لا يقدرون على حمل السلاح . وكان جبنهم وحقارة نفوسهم يحملانهم على إتيان ما تترفّع عنه نفس الجندي الباسل والإنسان المؤدب .

وقد شاهد المكاتبون الأجانب من فظائع الطليان في طرابلس ما ضاقت نفوسهم عن تحمّل رؤيته ، وبلغ بهم الإستياء إلى حدّ لم يمكنهم معه أن يملكوا شعورهم ويخفوا سخطهم على أعمال الطليان. وقد رأوا من أكبر العار على أوروبا والدين المسيحي أن تُنسب هذه الفظائع الإيطالية إلى دولة أوروبية مسيحية . وفي وسط هذا التذمر الشائع أوجس الطليان في نفوسهم خيفة من تسرّب هذا التذمر إلى الخارج ، فشدّدوا الرقابة على الأخبار ، ومنعوا المراسلين من نشر

الحقائق. وبالرغم على ما اتخذوه من الاحتياطات فقد تمكن بعض هؤلاء المراسلين الذين كانوا مع الجيش الإيطالي من إرسال بعض مشاهداتهم إلى جرائدهم . ومن هؤلاء المراسلين مكاتب جريدة « لندن إكسبريس » الخصوصي في طرابلس ، فقد بعث برسالة إلى جريدته في ٢٩ صفر سنة ١٣٣٠ ينـــاير سنة ١٩١٢ يقول فيها :

« هل ماتت المسيحية في أوروبا ؟ أم ضاع الإنصاف والعدل ؟. تشددت إيطاليا في المراقبة على الأخبار حتى لا تصل إلى أوروبا ، فلم يعد يسمع عن تلك البلاد أخبار بعد ما افتضح أمر الطليان في المجزرة البشرية والمذبحة الهائلة التي ذهبت فيها النساء والأطفال بيد النذالة ، إلا أن هذه المذبحة التي عرف العالم أمرها لم تكن الوحيدة التي خرقت بها إيطاليا القوانين الدولية ، وتعدت بعملها حدود المدنية ، بل هناك عشرات من أمثالها أُخفيت أخبارها » .

وجاء فيها : « والحق يقال إن فرائص الطليان ترتعد من العربي ، والسبب في ذلك تلك الغلطة التي ارتكبوها من ذبح الرجال العزّل من السلاح والنساء والأطفال .

هذه حقائق لا يرقى إليها الشك ، خصوصاً وقد جاءت على لسان مسيحي انجليزي ، وهي تدل ـ في صراحتها ـ على نوع من النذالة والجبن اللذين يلجأ إليها الطليان حينما يريدون أن يظهروا شجاعتهم مع أضعف الناس عن الدفاع ، وهم الشيوخ والأطفال ، أما في مواجهة المجاهدين في ميادين القتال ، فهم إلى تسليم سلاحهم ، أو الهرب إن أمكنهم ، أسرع من النعامة أمام الصائد .

بأي ذنب قُتِلتْ :

وجاء فيها أيضاً : « وقد زرت صباح يوم مستشفى الهلال الأحمر ، وفيه مرضى وجرحى كثيرون . فوجدت في إحدى خيامه بنتاً عربية تتقيؤ وإلى جانبها الطبيب ، فأراني في جنبها جرحاً كبيراً من رصاصة اخترقته ، فسألتها: ما سبب هذه الضربة ؟ فقالت : دخلت العساكر الإيطالية بيتنا فقتلت أبي

وأمي وأختي ، وكنت قريبة من باب الدار فهربت ، فانطلق جندي في أثري ورماني برصاصة كانت السبب فيما ترى .

فبأيّ ذنب رُمِيت هذه الطفلة بالرصاص ؟ وأي نفس لا تشمئز من التنكيل بهذه الطفلة البريئة الساذجة ؟ » .

وهذه واحدة من عشرات المآسي التي يرتكبها الإيطاليون مع الأطفال في طرابلس، والتي إن دلت على شيء فإنما تدلُّ على همجية متأصلة، وإنسانية فقدت مقوّماتها فأمعنت فيما تترفع عنه حتى الذئاب العاوية .

الكونت سفورزا في الأسر :

أشرنا في صدر الكتاب إلى بعثة الكونت سفورزا العسكرية ، وقد بقيت هذه البعثة تتجوّل في داخل طرابلس إلى أن قامت الحرب الإيطالية ، وقبض عليها في صفر سنة ١٣٣٠ يناير سنة ١٩١٢ ، وعلى رغم ما عرف عنها من الأغراض السيئة التي كانت تخفيها تحت ستار اللقب العلمي الذي انتحلته لنفسها فإن الطرابلسيين قد عاملوها بأحسن ما تعامل به البعثات العلمية ، وبقيت في يفرن إلى أن سلّمت إلى الطليان بعد صلح أوشي في نوفمبر سنة ١٩١٢ .

فشل السياسة الايطالية :

فكّرت السياسة الإيطالية — عقب هذه الهزائم المنكرة — في أن تجد لها مخرجاً من هذا المأزق الذي سقط فيه شرفها العسكري إلى الحضيض ، وأصبح جيشها أضحوكة بين جيوش دول أوروبا . وقد مرّ على جيشها أكثر من ثلاثة أشهر وهو لا يستطيع القرار في غير حماية الأسطول ، وما يزال محصوراً في مدينتي طرابلس والخمس . ولا تزيد أبعد نقطة احتلها أمام مدينة طرابلس — وهي عين زارة — على ١٥ كيلومتراً .

وقد ثبت لدى الجهات العليا في إيطاليا، أن سبب هذا الخذلان هو ما تسرّب إلى الجنود من الخوف ، وما أصاب روحهم المعنوية من الخوَر . وقد أدركوا

ذلك عن التجربة في عدة معارك كانوا يحشدون فيها الألوف منهم ، ولكنها لم تأتِ بالفائدة التي كان يجب الحصول عليها من هذا الجيش الكثير المسلح بأحدث وسائل الحرب وآلات الدفاع. وقد تمرّد بعضهم على الأوامر وامتنع عن خوض المعارك ، وانتحر بعضهم ، وأُصيب بعضهم بالجنـــون من شدة ما أصيبوا به من هزائم .

وقد رأوا علاجاً للموقف أن يُدخلوا على الجندية الإيطالية عنصراً أجنبياً طلباً للكثرة ولتحسين الموقف ، فجاءوا بجنود من مصوع ، ووصلت أول فرقة منهم إلى طرابلس في يناير سنة ١٩١٢ وكان الطليان يقدمونهم في معامع الحرب ليكونوا وقاية لمن وراءهم من الإيطاليين ،وكان لهم جَلَد على تحمل السير في الجبال حفاة ، وقد قامت ضجة إذ ذاك في الجرائد المصرية احتجاجاً على أعمال الطليان في مصوع وتجنيد سكانها ، بحجة أنها بلاد مصرية وتابعة للدولة العثمانية .

رأي القائد الأعلى الايطالي :

ولا بدّ لعلاج هذا الموقف من أخذ رأي القائد العام للجيوش الإيطالية في طرابلس وهو كارلو كنيفا ، فاستدعته حكومة روما في منتصف فبراير سنة ١٩١٢ لسؤاله عن أسباب فشله : وقد سألته « هــــل أنت في مركز جيد مع ما حصلت عليه من الوسائط ، لأن ما حصلت عليه من حكومتك يجعل لإيطاليا الظفر المبين في طرابلس حتى إذا وضعت شروط الصلح مع تركيا كان الصلح قطعياً بتنازلها عن تلك الولاية » ؟ .

فأجاب « كنيفا » بلا تردد : « ليس لديّ هذا المركز » .

وقال في آخر حديثه : « إن كل ما أستطيع الإجـــابة عنه هو التدرج في الاستيلاء على كل قطعة من أرض طرابلس وإذا أردتم نصراً باهراً فإما أن تبحثوا عن قائد غيري أو اطلبوه بعيداً عن صحراء طرابلس ، لأن حرباً استعمارية كهذه لا يقدر جيش فيها على الحصول على فوز باهر لا في يوم ولا في شهر ولا في

سنة ، بل ولا إلى مدة طويلة [1] .

إن خسائرنا في الشهور الخمسة الأولى تجاوزت ملياراً ونصفاً من الفرنكات».

ثم سئل : «ولِمَ لم تنتهز فرصة احتلال عين زارة وتتعقّب العدو ؟ ». فقال : « إن تعقب العدو لا يُجدي نظراً لسرعة حركته وتنقله ، وان كل تقدم إلى الأمام إن لم يكن حاسماً فإنه يعرض الجنود بلا فائدة إلى المشاق ، ولا يكون له إلا أثر سيىء ، لأن عودة الجنود إلى معسكراتها تعدّ تقهقراً ، فلذلك لا أوافق على الزحف إلى الأمام في الحال أو في القريب العاجل » .

إلحاق طرابلس بروما

٢٥ فبراير سنة ١٩١٢

سياسة الأمر الواقع :

وفي هذا التاريخ حوّل «المرسوم الملكي» الصادر بتاريخ ٥ من نوفمبر سنة ١٩١١ بضم طرابلس إلى أملاك روما إلى قانون من قوانين الدولة ، ويظهر أن الغرض منه إرضاء الرأي العـــام الإيطالي ، وظهور الحكومة أمامه بشيء من مظاهر الحزم والنشاط ، ويقصدون من وراء هذا العمل أيضاً صرف نظر الترك عن التشبّث بحقوقهم في طرابلس فيما سيحدث من مفاوضات حيث إنها أصبحت جزءاً من روما . وكثيراً ما يتشبث المستعمرون في اغتصاب الحقوق من أهلها بسياسة الأمر الواقع ، وذلك بأن يسلكوا من الطرق الملتوية ما يجعـــلون به صاحب الحق أمام حقيقة واقعة : إما باستصدار أمر يحتم عليهم القانون تنفيذه ولو بالقوة كالمراسيم الملكية ، أو وضع اليد من طريق القوة فيضطر صاحب الحق إلى التسليم أو مقابلة القوة بالقوة إذا كان قادراً .

---

(١) صرح هذا القائد بأن احتلال طرابلس «نزهة بحرية» .

مغـــامرة :

كانت الحكومة العثمانية ـتودّ بكل وسيلة ـ أن تقوى المقاومة في طرابلس لأن انشغال القوات الإيطالية فيها يخفف عنها ضغط السياسة الإيطـــالية في الأناضول والبلاد التركية ، ولكن يقظة الأسطول الإيطـالي في البحر الأبيض المتوسط كانت تحول دون وصول أي مدد إلى طرابلس . وقد أرادت أن تجرب ـ مع اليأس من النجاح ـ فأرسلت باخرة تقلّ ٢٥٠٠ طن من الأدوات الحربية لإنزالها في أي نقطة من السواحل الطرابلسية . وقد أسرها الأسطول الإيطالي في مياه صقلية يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩١٢ .

إحتـــلال المرقب

٢٨ فبراير سنة ١٩١٢

المرقب ربوة صخرية عالية تقع جنوبي مدينة الخمس إلى الغرب بقليل، والذي يستولي عليها يكون له تمام السيطرة على المدينة . وكان الطليان قبل احتلاله لا يمكنهم الإتيان بأيّ حركة إلا كانوا عرضة لرصاص المجاهدين الذين كانوا يحتلونه . وقد ضاقوا بهذه الحال ذرعاً وأرادوا التخلص منها بأي ثمن ، فجهزوا جيشاً كبيراً وهاجموا المجاهدين فيه يوم ٢٨ فبراير سنة ١٩١٢، ودافع المجاهدون دفاعاً مشرّفاً . ودام القتال النهار بطوله ، ثم اضطروا إلى الانسحاب واحتله العدو ، واستشهد في هذه المعركة كثير منهم . ومن حينذاك أصبح مركز المجاهدين مهدداً لما للمرقب من الإشراف على ما حواليـه من الأرض إلى مسافات بعيدة .

وقد حصَّنه الطليان تحصيناً هائلاً ، ونحتوا في صخوره معاقل ووضعوا فيها من المدافع الثقيلة والرشاشة وفرق الجند ما جعله من أمنع الحصون وأقواها في طرابلس .

طرد الطليان من عين زارة

ربيع الآخر سنة ١٣٣٠ مارس سنة ١٩١٢

منذ أن احتلّ الطليان عين زارة في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١١ وهم في قلق مستمر من غارات المجاهدين عليهم في الليل والنهار ، وفي الصباح والمساء، حتى في أوقات الأكل وساعات اللعب ، وهي بطبيعة موقعها وانفصالها عن المدينة عرضة لغزوات المجاهدين ومحاصرتهم . وتبعد عن المدينة إلى الجنوب بنحو ١٥ كيلومتراً . وقد وصلها الطليان بالمدينة بسكة حديد ضيقة . وكانوا يؤملون أن يقيموا فيها خط دفاع أمامياً لأن أرضها سبخة ومنكشفة ، وكل ما فيها مما يمكن استعماله في الأغراض الحربية ، ربوة عالية في جهتها الشمالية تسمى «الرأس الأحمر» ، نصب الطليان عليها مدافع ، وبنوا حولها ثكنات للجيش .

وقد فكروا فيما يقيهم شر هذه الغارات التي لا تنقطع ، وهذا الرصاص الذي يطلقه عليهم المجاهدون في كل لحظة ، فأحاطوا أنفسهم بسور من الأسلاك الشائكة حول الرأس الأحمر ، ونصبوا فيما تركوه من فتحات في هذا السور فخاخاً من حديد توارى في الأرض بحيث لا يميّز مكانها من بقية الأرض ، وأوصلوا بها أجراساً كهربائية تنبّه العسس لما يقع فيها ، فإذا ما وقعت فيها رِجل إنسان أمسكت به وتحرك الجرس بحركتها فيتنبّه العسس ويقبض على من وقع فيها .

ومما احتال به الطليان لإتقاء مضايقة المجاهدين ، أن نصبوا آلة لها صوت كنُباح الكلاب ، اعتقدوا أن العرب إذا سمعوا صوتها ظنوا أنها كلاب تنبحهم فيبتعدون عنهم . وسرعان ما فطن العرب لذلك وأيقنوا أنها خدعة عملت للتلبيس عليهم ، وذلك لأن صوتها كان متواصلاً وبدون انقطاع بخلاف نباح الكلاب الذي لا يخلو من تقطع وفترات سكوت .

ولم تغن هذه التحصينات عن الطليان شيئاً ، من إزعاج المجاهـــدين إياهم وإقلاق راحتهم . وما زالوا بهم حتى أمكنتهم الفرصة فهجموا عليهم ، وكان هجوماً موفقاً صحبهم فيه التوفيق وأخرجوهم من عين زارة في ربيــع الآخر سنة ١٣٣٠ مارس سنة ١٩١٢ وقتلوا منهم كثيراً ، وغنموا غنائم لا تحصى ومنها آلات تلغرافية وتليفونية .

وفي هذه المعركة ظهر الضعف والخورَ على الجنود الإيطاليين وسرت فيهم روح التمرّد على الأوامر ، ولولا ما أبدته الفرقة التي جاءوا بها من مصوّع من المقاومة الشديدة لكانت هزيمتهم منكرة ، ولأخذوا عن بكرة أبيهم .

إحتلال زوارة

في ١١ إبريل سنة ١٩١٢

كان طرد الطليان من عين زارة نذير شؤم عليهم لأنه أول هزيمة اصطدموا بها بعد أن قوّوا جيشهم وعدّلوا خططهم ، على ضوء ما لاقوه من صعاب في محاربة الطرابلسيين ، ولكنهم لم ييأسوا ، فاتجه تفكيرهم لاحتـــلال زوارة ، وكانت إذ ذاك لم تحتل بعد وقد دخلت الحرب في شهرها السابع .

وكانوا يؤملون من وراء هذا الإحتلال أن يتسع الميدان الحربي فيضطر المجاهدون إلى توزيع جيوشهم ، وبذلك تضعف قوتهم ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فكانوا يؤملون أن يقطعوا طريق الإعانات التي كانت ترسل إلى الطرابلسيين على طريق تونس . وقد قلنا في صدر الكتاب إن حركة الجهاد في طرابلس امتازت بصبغة عربية شرقية ، وذلك لأنها كانت باكورة النهضة العربية العامة المسلحة فكان الحماس لها شديداً والعطف عليها شاملاً ، وكان لهذه الصبغة أثرها الملموس في الإعانات التي كانت تتدفق عليها من تونس وكانت هذه الإعانات من أكبر العوامل في ثبات الطرابلسيين وتشجيعهم على مداومة

القتال . وكما أن تونس كانت تمدّنا بالإعانات كذلك كانت طريقها مفتوحة لمجيء الضباط ومراسلي الصحف الأوروبيين .

ولا يوجد من وسائل النقل في طرابلس غير الإبل ، فكانت الأرزاق تنقل من « بنقردان » إلى العزيزية ومراكز المجاهدين في كل ناحية . وما دام العربي يجد سلاحه ، ويكفل قوته وقوت عياله فأحْرِ به أن يخلص في جهاده وأن يؤدي الواجب .

وقد أدرك الطليان هذا ، فأرادوا أن يقطعوا طريق الإعانات عن المجاهدين ولا يكون ذلك إلا باحتلال زوارة .

مناورة :

أراد الطليان ان يُورّوا بغير قصدهم فهاجموا المجاهدين في زنزور عدة مرات بينما كان الاستعداد على قدم وساق لاحتلال زوارة، وقد كشفت قيادة المجاهدين القصد من هـــذه المناورة فأمدت ناحية زوارة بما يلزم من المجاهدين واستعدّوا لمواجهة هذا الغزو الجديد .

وكانت جيوش المجاهدين تكوّن هلالاً مفتوحاً نحو المدينة يبتدىء بحدود ترهونة شرقاً وينتهي بساحل البحر في مواجهة زنزور غرباً .

وقد أعدّ الطليان قوة كبيرة بقيادة الجنرال « جار يوني » تتألف من اثني عشر ألف جندي مجهزين بأكمل العـــدد والآلات الحربية لتنفيذ هذه الخطة ، وحمل الأسطول هذه القوة من طرابلس . وفي صبيحة يوم ٢٥ من ربيع الآخر سنة ١٣٣٠ الموافق ١١ من إبريل سنة ١٩١٢ أطلقت المدمـــرات الإيطالية مدافعها على زوارة حتى كادت البلاد تنسف ، وتحت هذه الصواعق المحرقة تمكنت الجيوش الإيطالية من النزول في زوارة وتمّ احتلالها .

وفي هذه المدة جاءت مركب محملة سلاحاً ، بطريق التهريب وأنزلته على

الشوشة ـ مكان غربي قصر بوكاش ـ وكان ممن ساعدوا في إنزال هذه الشحنة السيد محمد أفندي الشامخ، شاويش النقطة، وبفضل جهوده تمكن العرب من إنزالها وتهريبها إلى المجاهدين .

وقد أصبح ميدان زوارة الميدان الثالث في طـرابلس ، أما الميدان الأول والثاني فهما ميدان العزيزية وهو الميدان الرئيسي ، وميدان الخمس .

وفي يوم احتلال زوارة احتلّ الطليان شبه « جزيرة المخابز » قرب قصر بوكاش وهي جزيرة فروة، وكانت تسمى رأس المخبز . وقد هجم المجاهدون على هذه الجزيرة يوم ٦ من جمادى الأول محاولين استردادها فلم يوفقوا .

وكان لميدان زوارة أهمية كبرى لأنه يعرّض طريق الإعانات إلى الخطر ، ولذلك ُعني بشأنه عناية خاصة ، وجمع له المجاهدون من كل ناحية ، فاجتمع فيه مجاهدو زوارة وخويلد والسعفات والنوايل ، وكلهم من سكان تلك المنطقة ، وانضم اليهم فريق كبير من مجاهدي العجيلات والزاوية ، واختير له من رؤساء المجاهدين الشيخ محمد سوف ، والسيد عبد الرحمن أفندي العروسي ، والبنباشي محمود أفندي القلالي الزاوي . وعلى رأس هؤلاء جميعاً قائد المنطقة العام موسى بك اليمني [1] ، وهو مشهود له بالحنكة والنبوغ في الفنون العسكرية . وقد قيل فيما كتب عنه : « إنه طبق في حرب طرابلس كل ما يمكن تطبيقه من النظريات العسكرية الحديثة . وكان فطناً لكل مـــا يمكن أن يعمل ، ووقف للايطاليين بالمرصاد مدة بقائه في الحرب » . اهـ .

وكان محترماً عند الطرابلسيين أ ّيما احترام . وقـــد وجد من صدق عزيمة

---

(١) كان أيام نزول الطليان قومندان طابور برتبة بنباشي وبعد صلح أوشى سافر مع نشأت إلى الآستانة . وفي سنة ١٩١٥ رجع مع نوري بك إلى برقة . وبعد فشل الهجوم التركي على حدود مصر بقي في برقة ، ثم نفاه السيد ادريس السنوسي إلى الكفرة ، كما أخرج من برقة كل من كان يتابع السياسة التركية .

الطرابلسيين في القتال ما شجّعه على بذل جهوده وإظهار مقدرته .

وفي هذا الشهر حصل هجوم من المجاهـــدين على قصر بوكماش ولم ينجحوا في استرداده .

وفي ٢٣ منه هجم الطليان على سواني بوغمجة ولم يتمكنوا من احتلالها . ثم أعادوا عليها الهجوم في ٢٧ منه فاحتلوها وبقي المجاهدون حولها يحاصرونها .

وفي ٣ مايو ١٩١٢ خرجوا منها بقوة كبيرة بقيادة الجنرال «غارياني» لإقصاء المجاهدين عن أماكنهم . ودارت معركة كبيرة ولم ينل الإيطاليون بغيتهم ، فأعاد المجاهدون عليهم الكرّة في صبيحة اليوم الرابع منه ، وفي اليوم الخامس هجم المجاهدون على لبدة .

وكرّر العدو ضغطه على المجاهدين في الميادين الثلاثة ، فكانوا يقفون منه تارة موقف المدافع ، وتارة يهاجمونه في اليوم التالي لهجومه عليهم . وكان قصد العدو من هذه الشدة في الهجوم إنزال ما يمكن من الخسائر بالمجاهدين ، ومعرفة محل الضعف منهم ليُنزل بهم أشد ضربة يمكنه إنزالها بهم ، ولكنهم كانوا فطنين لِما يراد بهم ، فكانت شيمتهم الصبر ورائدهم النصر .

احتلال زنزور

في ٩ يونيه ١٩١٢

نحن الآن نكتب في حوادث الشهر التاسع من ابتداء نشوب الحرب في طرابلس ، والطليان لم يحتلوا زنزور بعد ، وهي لا تبعد عن طرابلس أكثر من ١٦ كيلومتراً .

وعجز الطليان عن احتلال زنزور في كل هذه المدة ، دليل على عجزهم عن مصارعة الطرابلسيين ، وعلى ما يبدونه من شدة المقاومة وحسن البلاء .

ومهما حاول الطليان انتحال المعاذير لمـــا أصابهم من النكبات في الحرب الطرابلسية فلن يجدوا في أساليب الكلام ما يعتذرون به عن حصرهم هذه المدة كلها فيما حوالي مدينة طرابلس والخمس وزواة ، ولما وسعهم إلا الاعتراف بالعجز إن كان لديهم بقية من إنصاف .

لم يأتِ احتلال زوارة بالفائدة المرجوّة منه وهي قطع طريق الإعانات التي كانت تأتي من تونس . وكانت في زنزور قوة كبيرة من المجاهدين نظراً لقربها من مركز القيادة العامة للمجاهدين وهو العزيزية ، واحتلالها يهدد مركز القيـــادة تهديداً مباشراً ، فكانوا يتمنون أن يظفروا باحتلالها مهما ضحّوا في سبيلها. وقد أجمعوا أمرهم على أن يقوموا بهذه التجربة فجمعوا جيشاً قوامه ثلاثون ألفـــاً بكامل عُدده . وفي صبيحة اليوم التاسع من يونيه سنة ١٩١٢ ابتدأ هذا الجيش العرمرم زحفه على زنزور ، وانبثق الفجر على دوي المدافـع يصمّ الآذان من البر والبحر. وضجيج الرصاص من البنادق والمدافع الرشاشة يملأ الفضاء. وربض المجاهدون في متاريسهم ينتظرون دنوّ الطليان منهم ، حتى إذا ما أصبحوا على مرمى رصاص بنادقهم أصلوهم ناراً حاميـــة ، واشتدّ وطيس المعركة ، والتفّ المجاهدون على ميسرة العدو من ناحيـــة قرقارش . واستمرت المعركة طول النهار . وقد استعملت فيها المدافع من البر والبحر بكثرة لا نظير لها ثم انجلت عن احتلال زنزور .

الهجوم على المرقب

في ١٢ يونيه ١٩١٢

منذ أن احتلّ الطليان المرقب في٢٨ فبراير سنة ١٩١٢ والمجاهدون يحاولون استرداده وقد هاجموه عدة مرات لسبر ما أودع الطليان فيه من قوة . وكانت فكرة استرداده من العدو الشغل الشاغل لقائد منطقة الخمس خليل بك .

وقد ثبت لديه من أخبار السرايا التي كانت تهاجمه أنه محصّن تحصيناً قلّ أن يوجد نظيره فيما أحدثه الطليان في طرابلس من حصون : فقد أنشىء عليه حصنان قويان ، وأحيطا بثمان مناطق من الأسلاك الشائكة ، وجهزا بما يكفي للدفاع عنهما من المدافع الثقيلة والرشاشات والجنود ، وشقّت في صخوره طرق توصل بينه وبين مدينة الخمس ، تمرّ فيها قوافل المؤن والذخائر ولا تتعرض لأي خطر من الخارج . كل هذا لم يمنع خليل بك من مهاجمته لأسباب كان يستند إليها في إمكان القيام بهذه المهمة. فجمع من خيرة المجاهدين نحو ألف ، ووكل قيادتهم إلى ضباط ذوي كفاية . وجهزت جماعة من المجاهدين بمقصات أعدت لقص الأسلاك الشائكة ، وفتح طرق لدخول المجاهدين منها .

وفي ليلة ١٢ يونيه سنة ١٩١٢ ابتدأ الزحف على هذه الكتلة من الحديد والنار . وتمكنت جماعة المقصات من فتح ثغرات في مناطق الأسلاك الشائكة ، فتدفق منها المجاهدون يبغون الوصول إلى ما وراءها ، واقتحموا على الطليان حصونهم ، ونازعوهم فيها مواضع أقدامهم ، وقتلوا من فيها إلا من اعتصم بالفرار ، واستولوا على ما فيها من سلاح ومتاع .

وبينما كان المجاهدون يستولون على الحصنين ، كان فريق منهم يتقدم إلى ساحل البحر تحت وابل من نيران المدافع والأساطيل، حتى وصلوا إلى معسكر الطليان الاحتياطي المخيم في البساتين بين أشجار النخيل ، فأعملوا فيه رصاصهم وقتلوا كثيراً ممن فيه .

وقد أحدث هذا التوسع من المجاهدين عدم تماسك بين صفوفهم. وقد أدرك الطليان هذا فجمع قوة كبيرة للحيلولة بين جماعات المجاهدين وصوّبت المدافع نيرانها إليهم من المرقب وسيدي بارق ، ومدينة الخمس وبعض مرتفعات لبدة ، ومن الأسطول بشدة لا مثيل لها ، فكثر القتل في المجاهدين ، فرأوا أن بقاءهم على هذه الحالة المزعجة يسبب لهم خسارة كبيرة نظراً لتوسعهم في الهجوم ، وكثرة الجيوش الإيطالية التي تخللت صفوفهم . ولم يمكنهم نقل ما استولوا عليه

في الحصون فأضرموا فيه النيران ، وعاد من بقي منهم إلى معسكرهم ، وما كاد يبلغه إلا بشقّ الأنفس .

وجاء في البلاغ العثماني أنه : « قتل من الطليان في هذه المعركة سبعة عشر ضابطاً ، ونحو ألف جندي ، واستشهد من المجاهدين نحو مائة وجرح نحو المائتين » .

والذي سمعته ممن شهدوا المعركة في وصفها الفظيع يدل على أن العدد الذي ذكر من شهداء المجاهدين أقل من الحقيقة .

علي فائق أمسيك :

وكان من بين الذين تشرّفوا بالشهادة في هذه الملحمة الضابط النجيب علي فائق أفندي امسيك الغرياني ، وقد كسرت ذراعه في المعركة ، فدافع بمسدسه حتى كسرت الثانية ، ثم قتل عليه رحمة الله .

إحتلال سيدي سعيد (١)

في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٢

كان يوم إحتلال «سيدي سعيد» يوماً مشهوداً، أبلى فيه المجاهدون بلاءً حسناً بقيادة البنباشي محمود أفندي القلالي الزاوي. وعقل بعض المجاهدين رجليه خوف أن تحدّثه نفسه بالفرار ، وقد استشهد كثير من المجاهدين يوم ذاك وهو على هذه الحال . وقد كتب الله الشهادة في هذا اليوم لنحو أربعمائة من زوارة أبلوا في هذه المعركة بلاءً حسناً أذكر منهم : الصادق بن يوسف من السعفات شيخ قبيلة أولاد منصور الطبيب من السعفات ، ولنحو أربعين مجاهداً من الزاوية فقط ،

---

(١) مكان يقع غربي زوارة بنحو عشرين كم . ووقعت معركة شديدة في سيدي عبد الصمد جنوبي زوارة بنحو ٨ كم .

أذكر من بينهم العربي ابن رحومة بن حمد ، وسالم بن حمد بن سالم وكلاهما من قبيلة أولاد أبي حميرة سكان الحرشا . وفي مقدمة هؤلاء الشهداء رئيس مجاهدي الزاوية حضرة السيد عبد الرحمن أفندي العروسي من أعيان الأبشات ورجالات الزاوية المشهورين، وكانت سنه إذ ذاك حوالي خمسين سنة ، رحمه الله وشكر له. وتعرف هذه المعركة بمعركة السكّومة . وجملة من استشهدوا في هذه المعركة نحو ستمائة مجاهد .

وقد بقي الطليان محصورين في منطقة زوارة وسيدي سعيد إلى ما بعد الصلح ، لم تمكنهم جيوشهم وأساطيلهم وطائراتهم من التقدم خارج حماية الأسطول قيد شبر ، وبقيت طرق الإعانات محفوظة بفضل ما بذله المجاهدون من الجهود في الدفاع عنها .

إحتلال مصراتة

٩ يوليه سنة ١٩١٢

مرّت تسعة أشهر على احتلال الطليان طرابلس وهم محصورون في ثلاث مدن من المدن الساحلية ، وهي : الخمس ، طرابلس – العاصمة – وزوارة . وكلما فتحوا لهم ميداناً من هذه الميادين الثلاثة على أمل أن يتسع لهم المجال في إرهاق المجاهدين خاب أملهم ، وازدادوا حرقة على ضياع أموالهم وفقد رجالهم قبل الحصول على نتيجة أو ما يشبه أن يكون نتيجة . ولم يبق أمامهم إلا مدينة مصراتة ، التي بقيت هذه المدة كلها محروسة بعناية الله وهمّة أبنائها من شرور الطليان ومصائبهم. ولم يقتصر أبناؤها على الدفاع عنها فقط ، بل كان لهم جيش في ناحية العزيزية يرابط مع المرابطين ويجاهد مع المجاهدين . وقد اصطدموا بالطليان يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩١١ وهو اليوم السابق ليوم معركة الهاني كان لهم فيه موقف حميد ، وفقدوا فيه من خيرة رجالهم نحو الأربعين رجلاً ، حفظ

لهم التاريخ في صحائفه ما يستوجب الشكر .

كان الطليان يعتقدون أن الحلقة المفقودة من سلسلة مدن السواحل هي مدينة مصراتة فأعدّوا أنفسهم لاحتلالها، وجهزوا لها جيشاً جرّاراً وأسطولاً عظيماً. وفي اليوم التاسع من يوليه سنة ١٩١٢ ظهرت على سواحلها تلك الجزر العائمة من الأسطول الإيطـــالي ، وأخذت ترميها من مدافعها بقذائف تدكّ الجبال دكاً ، ونزلت الجيوش في حماية نيران مدافع الأسطول المتقـــدة . ولم يكن أمام هذه المدافع إلا بنادق تختبىء وراء آكام الرمال ، فلم يتمكن المجاهدون من صدّ هذا التيار الجارف فاحتلوا قصر حمد وتقدموا منه إلى « المواطين » عاصمة مصراتة وفي إحدى هذه المعارك جرح رمضان السويحلي في بطنه جرحاً بليغاً كاد يودي بحياته ، وانتقل السكان إلى الغيران ، وأحاط الطليان المواطين بسور من التراب وجعلوا فيه أبراجاً ونصبوا عليها مدافع واضطر مجاهدو مصراتة إلى الانسحاب من الميادين الغربية للدفاع عن مصراتة . وقد أصبحت مصراتة الميدان الرابـع .

وبقيت مصراتة تحت الاحتلال إلى أن خرج الطليان منها بعد واقعـــة القرضابية التي سيأتي خبرها مفصلاً في محله .

استرداد زنزور

٢٥ من نوفمبر سنة ١٩١٢

لا بدّ للذي يهمه أن يسيطر على مدخل مدينة طرابلس الغربي أن يحتل زنزور ، ويمكنه ـ باحتلالها ـ أن يتحكم في طريق المواصلات بين الزاوية والعزيزية من ناحية ترّينة ، بل ويهدد العزيزية نفسها. وكان هذا أمل الطليان من احتلالهم زنزور يوم ٩ يونيه سنة ١٩١٢ ، ولكن الطليان لم يوفّقوا لهذا الغرض لما كان يبديه المجاهدون من شدّة المقاومة ؛ وبقوا محصورين في زنزور .

وقد رأت قيادة المجاهدون أن تحتل زنزور لتعيد سيطرتها على مدخل المدينة

الغربي ، وهو مما يزيد في حصر الطليان ويضايقهم ، فجمعت نحو ألف وخمسمائة مجاهد ، وابتدأ الزحف صبيحة يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٢ ، وحصلت معركة هائلة دامت سبع ساعات كان النصر فيها للمجاهدين ، وتمّ طرد الطليان من زنزور يوم ٢٥ منه وبقيت تحت تصرف المجاهدين إلى أن حصل صلح أوشى في أكتوبر سنة ١٩١٢ .

إشاعات الصلح (١)

كان مما التجأت إليه إيطاليا لإضعاف المقاومة في طرابلس ، حملها الدول الأوروبية على التوسط في الصلح بينها وبين تركية لتتفق معها على صلح تشترط عليها فيه أن تسحب جنودها من طرابلس، وبذلك تضعف المقاومة فيها ويضطر العرب للتسليم . وكانت الدول الأوروبية راغبة في حمل الحكومة العثمانية على الصلح مع التساهل ، ولكن الحكومة العثمانية كانت تقابل هذه الرغبة بشيء من الصلابة في التمسك بحقها في طرابلس ، حتى اعتبرت الحكومات الأوروبية هذا التمسك رداً لوساطتها .

وفي أوائل سنة ١٩١٢ كثرت إشاعات الصلح حتى وصلت إلى المجاهدين في طرابلس وكانت الحرب على قدم وساق ، وبالرغم على أن هذه الإشاعات لم تؤيد بما يثبت صحتها عند رؤساء المجاهدين ، فقد كان لها في نفوسهم أسوأ الأثر ، واحتجوا عليها لدى مجلس المبعوثان بتلغراف أرسلوه إلى الآستانة في ١٥ من المحرم سنة ١٣٣٠ ديسمبر سنة ١٩١١ ووقعه عنهم الشيخ سليمان الباروني. وهذا نصه بعد الديباجة :

---

(١) لم نراع في هذا الموضوع ترتيبه الزمني مع ما قبله من الحوادث لتكون سلسلة الكلام فيه متصلة بعضها ببعض .

« لا نرضى بصلح يخلّ بعثمانيتنا ويجعل للعدو أي مدخل في بلادنا ولو أبرمته الدولة ورضيه الخليفة . ونحن إلى الآن نحارب باسم العثمانيين والطرابلسيين ، فإذا أبرم الصلح على ما لا يرضينا أمكننا مداومة الحرب باسم الطرابلسيين فقط إلى آخر قطرة من دمائنا . ولا يوجد بيننا متقاعد عن الحرب أو ميّال إلى العدو أو مسالم له قط . وقد أوجبنا الحرب على كل قادر بدون استثناء . ولا دخل في ذلك للترك أصلاً . وسنجلب ما يلزمنا من المدافع الموجودة في غريان إلى خط الحرب إذا تجاوز العدو خط النخيل . وما دامت الدول العظمى ملتزمة الحياد فإننا نحارب باسم دولتنا ووطننا ، ومتى ظهر منها الوقوف في طريق إنتصاراتنا وقوفاً غير مشروع فإننا نعدّ ذلك منها تعصباً وإذاً سنحارب باسم الدين فقط .

وَمَن لم يَذُدْ عن حوضهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ ومن لا يَظلِم الناسَ يُظلَمِ »

والذي حمل الطرابلسيين على هذا الاحتجاج هو أن مساعي الصلح كانت تجري بين الترك والإيطاليين بدون ان يكون للطرابلسيين فيها دخل . وليس من مصلحة الطرابلسيين أن يسكتوا على مثل هذا التصرف لأنهم هم الذين ستعود عليهم نتائج هذا الصلح إن خيراً أو شراً . كما أنه كان من واجب الترك ألا يبرموه بدون أخذ رأي الطرابلسيين فيه .

وقد تضمَّن احتجاج الطرابلسيين تهديداً للدول الأوروبية بالحرب باسم الدين إذا هي لم تكفّ عن التدخل في شؤون الطرابلسيين بغير المصلحة . والحرب باسم الدين مما يخشاه الأوروبيون دائماً ويقضّ مضاجعهم ، لأنهم يعتقدون أن المسلم أشد ما يكون قتالاً لهم إذا كان يقاتل باسم الدين .

الضغط على الحكومة العثمانية :

وقد رأى الطليان من الوسائل التي تحمل الحكومة العثمانية على طلب الصلح تهديد سواحلها وضرب ثغورها ، واحتلال جزرها .

ولم ترق هذه السياسة في نظر الدول الأوروبية، خوفاً على مصالحها في المدن والثغور الساحلية العثمانية ، وخوفاً من توسع إيطاليا الاستعماري . وكانت حجتهم في هذه المعارضة أن الاتفاق الذي حصل بينها وبين إيطاليا قاصر على الإذن بالأعمال الحربية في طرابلس، وقد بذل الطليان مساعي كبيرة لدى الدول الأوروبية ، وأعطوا ضمانات بقصر الأعمال الحربية على المنشآت العثمانية فقط ، وعدم المساس بأي مصلحة من مصالح دول أوروبا ، وعندئذ أُذِنَ لهم بالقيام بمناورات على الثغور والسواحل العثمانية ، فضرب أسطولهم القنفذة يوم ١٢ من يناير سنة ١٩١٢ . وأمدوا السيد محمد الإدريسي بالمال والسلاح للقيام بالثورة على الدولة العثمانية ، فحاصر أبْها قاعدة عسير وكانت تابعة لها .

وعندما كانت إيطاليا تقوم بهذه المناورات، كانت دول أوروبا تسعى لحمل الحكومة العثمانية على عقد صلح مع الطليان ، فقد ذهب سفراء انجلترا وألمانيا وروسيا وفرنسا والنمسا في روما ، إلى المركيز سان جوليانو وزير الخارجية الإيطالية إذ ذاك في الأسبوع الأول من شهر مارس سنة ١٩١٢ ، وطلبوا منه أن يطلعهم على الشروط التي تشترطها إيطاليا للصلح مع تركيا بشأن طرابلس ، فأبلغهم في اليوم العاشر منه مذكرة تحتوي على ما يأتي :

١ — « اعتراف تركيا بضم طرابلس إلى إيطاليا وملكيتها لها واسترجاع جنودها منها .

٢ — إذا قبلت تركيا هذا الشرط ـ وهو أساسي ـ فإن إيطاليا مستعدة للتساهل في الأمور الدينية والمالية ، وإعلان عفو عن الأهالي ، وفي وضع التعريفة الجمركية ، وإلغاء الامتيازات القنصلية في السلطنة العثمانية » .

وقابل سفراء الدول الخمسة في الآستانة محمد عاصم بك وزير الخارجية التركية ، وسلموه اقتراحات إيطاليا ، وطلبوا منه الردّ مع استعمال اللين وشيء من التساهل للوصول إلى نتيجة . وفي اليوم الثامن من إبريل، سلمهم مذكرة مشتملة على كثير من الإعتدال والمجاملة ، وعلى شكر الدولة لتوسطها في الصلح . وقد

جاء في المذكرة: « إنه لا يسع الدولة العثمانية قبول إقتراحات إيطاليا مطلقاً.» واشتملت المذكرة على شروط هذا نصها :

١ – «المحافظة على حقوق ملكية السلطان لطرابلس وبرقة محافظة حقيقية.

٢ – جلاء الإيطاليين عنها عسكرياً .

٣ – منح إيطاليا امتيازات اقتصادية في تلك البلاد » .

وجاء في المذكرة :

« إنه لا يسع الدولة قبول صلح على غير هذا الأساس وإلا ساد الاضطراب السلطنة كلها » .

وكما رفضت تركية شروط إيطاليا كذلك رفضت إيطاليا شروط تركية ، ورجعت الحال إلى ما كانت عليه قبل تقديم المذكرات .

ولم يرض تمسك تركية بحقها الدول الأوروبية ، واعتبرته رفضاً لوساطتها ، فأغرت إيطاليا بضرب السواحل التركية على البحر المتوسط ، فجمعت أسطولاً ضخماًوهاجمت ساموس ورودسفي أواسط شهر إبريل سنة١٩١٢؛ وفي ١٩منه هاجمت مدخل الدردنيل بتسع وثلاثين بارجة ، وأطلقت عليه مائة وثمانينقنبلة، فقابلتها القلاع بالمثل ، فأغرقت إحدى البوارج وانهزم الأسطول الإيطالي .

وبعد خمسة أيام من حادثة الدردنيل ظهرت قطع من الأسطول أمام جزر الدوديكانيز واحتل بعضها يوم ٢٣ من إبريل. واحتلت عاصمة الجزر يوم ٥ مايو. ولم يأت يوم١٣ منه حتى احتل الطليان ثلاث عشرة جزيرةمن جزر الدوديكانيز. وكل هذا لم يثن من عزم حكومة الآستانة في تمسكها بطرابلس .

وكان مما شجع الحكومة العثمانية على التمسك بحقوقها في طرابلس مؤازرة الشعب التركي لها ، وتحمّسه لعدم الاعتراف بأي حق للطليان في طرابلس .

وكان للبرنس يوسف عز الدين ولي عهد المملكة العثمانية ، رأي مشرف

بشأن الصلح مع الطليان ، فقد جاء فيما صرّح به في هذا الشأن : « إن الصلح لا يتفق مع مصلحة الدولة العثمانية ، لا مادياً : لأن النصر ما زال حليفنا ؛ والطليان على كثرتهم وقوتهم لم يتجاوزوا الساحل . ولا أدبياً : لأنه لا يعقل أن يسلم الخليفة في أمة مسلمة تُدين له بالطاعة إلى أمة مسيحية اعتدت عليها . كما أنه ليس من المعقول أن نتنازل عن حقوقنا الشرعية في طرابلس وما زال النصر حليفنا » .

وجاء أيضاً على لسان الصدر الأعظم قوله :

« ونحن عاقدو العزيمة على عدم إبرام الصلح إلا على قاعدة الإعتراف بحقوق ملكية السلطان الحقيقية والفعلية على طرابلس الغرب . أما القول بأننا سنعطي حق السيادة الدينية على هذه البلاد ، فإنه خداع ومغالطة ، لأن هذه السيادة موجودة على كل مسلم » .

وعلى هذا الطراز من الإحساس الشريف ، كان الإحساس العام في تركية .

وليت هذا الإحساس وهذا التمسك بطرابلس كان وقت أن أُهمل شأنها ، ونقلت جيوشها ومدافعها إلى اليمن ، وأعرضت عن إصلاحها وزارة حقي باشا بإيعاز من الإتحاديين ، وسلمت لقمة سائغة للطليان على مرأى ومسمع من هؤلاء جميعـــاً .

أما القيام بمثل هذه الحركة الآن فقد جاء بعد أن « فات القطار » وأقلّ ما يقال فيها إنها ليست من أجــل طرابلس فقط ، بل لأجــل تخفيف الضغط الإيطالي عن تركية أيضاً ، لأنه كلما اشتدت المقاومة في طرابلس كلما شغلت أكبر عدد ممكن من الجيوش الإيطالية . وفي مثل هذا يقال : « الصيفَ ضيّعتِ اللبن » .

وقد توالت الفتن بعد ذلك ، وكثرت المؤامرات الحزبية والطائفية ، واشتد النزاع بين الإتحاديين والائتلافيين ، واندلع لهيب الثورة الداخلية في ألبانيا ، واضطرب الرأي العام في الآستانة ، فرأت حكومة سعيد باشا أن تدخل في

مفاوضات مع الطليان لتصل إلى نتيجة ، تهدّىءمن هذا الاضطراب الذي أصبح يهدّد المملكة العثمانية بالفوضى ثم بالزوال .

بدء المفاوضات :

ابتدأت المفاوضات أيام وزارة سعيد باشا ، في جوّ مضطرب ، وفتن تكاد تجتاح المملكة العثمانية كلها .

وأول جلسة عقدت بين المتفاوضين كانت في لوزان (سويسرا) يوم ١٢ يوليه سنة ١٩١٢ . وكان يمثل الحكومة العثمانية محمد نابي بك سفيرها في بلغراد ، وفخر الدين بك سفيرها في الجبل الأسود . ويمثل إيطاليا السنيور فوزيناتو ، والسنيور بيرتوليني ، والكونت فولبي . وقد اشتدت الأزمة السياسية في الآستانة ، فاستقالت وزارة سعيد باشا يوم ٢٧ يوليه سنة ١٩١٢ ، وخلفتها في الحكم وزارة مختار باشا فرأت أن تستمر في المفاوضات . فاستمرت بقية شهر يوليه ، وشهر أغسطس ونصف شهر سبتمبر ، وكل من الطرفين يقترح ما لا يرضى صاحبه فيرد عليه اقتراحه ، ويقترح الثاني بدوره فيرد عليه الأول ، وهكذا دواليك . وكانت العقبة التي لا تلتقي فيها الآراء هي الاعتراف بإلحاق طرابلس بروما؛ فالطليان يصرّون على الإعتراف من الترك بهذا الإلحاق،والترك يصرّون على عدم الإعتراف به .

مؤامرة :

في ١٣ مارس سنة ١٩١٢ تحالفت حكومتا الصرب والبلغار ضد تركيا مدة ست سنوات . وفي ٢٩ منه تحالفت البلغار واليونان ضدها أيضاً مدة ثلاث سنوات . وفي ٨ من أكتوبر سنة ١٩١٢ أعلن أمير الجبل الأسود الحرب على تركيا . وفي ١٣ منه طالبت اليونان والصرب والبلغار تركيا بالإصلاحات في الروملي ، وطلبت توزيع العساكر العثمانية المرابطة في الروملي . وكانت مذكرة هذه الدول شديدة في لهجتها ، فلم يبق أمام تركية إلا إعلان الحرب .

وكان لهذه المؤامرة الإجماعية من دول البلقان أثر كبير في الضغط على تركيا حتى اضطرّت إلى إبرام الصلح مع إيطاليا .

وفي مدة المفاوضات كانت الدعاية الإيطالية تتغلغل في قلب الأناضول وتحرّض على الثورة . وتمد الألبان وغيرهم من الثوار بالسلاح والأموال اللازمة وكثرة الأخذ والرد في المفاوضات لم تزد الحالة في المملكة العثمانية إلا سوءاً ، فاعتزمت وزارة مختار باشا أن تصل بالمفاوضات إلى نتيجة لتتفرغ لمعالجة هذه الفوضى التي كادت تعمّ المملكة كلها ،فانتدبت رشيد باشا وزير الزراعة وزوّدته بسلطة واسعة ، فسافر إلى لوزان يوم ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩١٢ للاشتراك في المفاوضات ، وبمجرد وصوله استؤنفت بحضوره واستمرت إلى أوائل أكتوبر سنة ١٩١٢ حيث اتفق الطرفان على شروط رأى فيها كل منهما ما يصلح أن يكون نهاية لهـــذه المفاوضات وإن كان الترك يرون أنهم لم يصلوا إلى غرضهم ولكنهم رضوا بهذه النتيجة على مضض بعد أن أرهقهم الثورة الداخلية ، وبعد أن بذلوا كل ما في وسعهم للحصول على ما يمكن الحصول عليه . وفي ٩ منه سافر رشيد باشا إلى أوشى لتوقيع المعاهدة مع الطليان .

معـــاهدة أوشى (١)

الملاحق – الإتفاق السرّي

نص معاهدة أوشى :

لما كان جلالة ملك إيطاليا وجلالة سلطان العثمانيين يرغبان كل منهما كالآخر في إيقاف الحرب الدائرة بين الدولتين فقد عيّنا مندوبيهما : فعيّن جـلالة ملك

(١) اطلعت على نص ثان لهذه المعاهدة يختلف قليلاً على هذا النص في ألفاظه ويتفق معه في المعنى . وسبب الاختلاف في الألفاظ الأختلاف في الترجمة .

إيطاليا المسيو بيترو برتوليني الحامــــل نشان تاج إيطاليا من الدرجة الأولى ، ونشان القديسين: موريس ولازار من الدرجة الثانية والعضو في مجلس النواب والمسيو جويدو فوزيناتو الحامل نشان تاج إيطاليا من الدرجة الأولى ونشان القديسين : موريس ولازار من الدرجة الثانية والعضو في مجلس النواب وفي مجلس الدولة. والمسيو جيسب فولني الحامل نشان القديسين:موريس ولازار من ونشان تاج الدرجة الثالثة إيطاليا من الدرجة الثالثة .

وعيّن جلالة سلطان العثمانيين عطوفة محمد نابي بك الحامل للنشان العثماني من الدرجة الأولى والمندوب فوق العادة والمعتمد المفوض . وسعــادة روم أوغلو فخر الدين بك الحامل النشان المجيدي من الدرجة الثانيــة ، والنشان العثماني من الدرجة الثالثة والمندوب فوق العادة والمندوب المفوض . وقد تبادل أولئــك المفوّضون فحص أوراق اعتمادهم فوجدوها صحيحة قانونيـــة واتفقوا على المواد الآتية :

المادة الأولى ـ تتكفـّل الدولتان أن تتخذا ـ حالما تمضى المعاهـــدة ـ الإجراءات الضرورية لوقف رحى الحرب حالاً.وسيرسل معتمدون خصوصيون إلى ساحة الحرب لتنفيذ ذلك .

المادة الثانية ـ تتكفل الحكومة العثمانية وحكومة إيطاليـــا أن تصدرا الأوامر حالاً بعد إمضاء هذه المعاهدة باستقدام ضباطها وجيوشها وموظفيها الملكيين ، الأولى من طرابلس الغرب وبرقة ، والثانية من الجزر التي احتلتها في بحر إيجه .

ويجلو الضباط والجيوش والموظفون الملكيون الإيطاليون فعلاً عن الجزر المذكورة بعد جلاء الضباط والجيوش والموظفين العثمانيين عن طرابلس وبرقة .

المادة الثالثة ـ تتبادل الحكومتان الأسرى والرهائن بأسرع ما يمكن .

المادة الرابعة ـ تتكفل الحكومتان بإصدار عفو عام تام : فتعفو حكومــة

إيطاليا عن سكان طرابلس وبرقة ، والحكومة العثمانية عن سكان جزر بحر إيجه التابعين للسلطنة العثمانية الذين اشتركوا في الحرب أو الذين أُسندت إليهم بعض التهم بسببها ما عدا الجرائم المختصة بالحق العام بحيث لا يمكن محاكمة أي شخص من أي طبقة أو من أي فئة كانت ، ولا مسّ شخصه أو أملاكه أو حقوقه بسبب أعماله السياسية أو العسكرية ، أو بسبب الآراء التي أبداها في مدة الحرب . ويطلق في الحال سراح الأشخاص الذين سجنوا أو نفوا بسبب ذلك

المادة الخامسة ـ يعمل حالاً بجميع المعاهدات والإتفاقات والعقود التي عقدت أو كانت نافذة بين الفريقين المتعاقدين قبل إعلان الحرب مهما يكن جنسها أو نوعها والغاية منها . وتعود حالة الحكومتين ورعاياهما إزاء بعضهما إلى مثل ما كانت عليه قبل وقوع الحرب .

المادة السادسة ـ تتكفل إيطاليا بأن تعقد مع الدولة العثمانية حينما تجدد معاهدتها التجارية مع الدول الأخرى . معاهدة تجارية على قاعدة الحق العام الأوروبي ، بمعنى أن تترك للدولة العثمانية كل استقلالها الإقتصادي ، وحق السير في أمورها التجارية والجمركية على خطط الدول الأوروبية من دون أن تغلّ يدها الإمتيازات القنصلية والمعاهدات الأخرى المعمول بها الآن. ولا يُعمل بهذه المعاهدة التجارية إلا حينما يعمل بالمعاهدات التجارية التي تعقدها الدولة العثمانية على هذه القاعدة مع الدول الأخرى . ثم إن إيطاليا تقبل من جهة أخرى رفع رسوم الجمرك النسبية عن البضائع في السلطنة العثمانية من ١١ إلى ١٥ في المائة باحتكار الأصناف الخمسة الآتية ، أو بزيادة الرسوم على ما يستهلك منها ، وهي البترول ، وورق السيجارة ، وثقاب الكبريت ، والكحول ، وورق اللعب ، على شرط أن تشمل هذه المعاملة جميع واردات البلاد الأخرى في آن واحد ، وبلا تميز ولا تفريق . وتكون إدارة هذه الاحتكارات ملزمة بأخذ قسم من هذه الأصناف من الواردات الإيطالية بحيث يعيّن مقدار هذا القسم على قاعدة الوارد السنوي منها . ويكون ثمنها مطابقاً لحالة السوق حين شرائها ، مع

مراعاة جنس البضائع ومتوسط ثمنها في السنوات الثلاث السابقة لسنة إعلان الحرب .

فإذا رأت الدولة العثمانية أن تستعيض عن احتكار هذه الأصناف بفرض ضريبة إضافية على ما يُستهلك منها ، وجب لفرض هذه الضريبة على الأصناف المذكورةالإيطالية أن تفرض أيضاً على حاصلات الدولة العثمانية والأمم الأخرى من هذه الأصناف .

المادة السابعة ـ تتكفل الحكومة الإيطالية بإلغاء مكاتب البريد الإيطالية في السلطنة العثمانية حالما تُلغي الدول التي لها مثل هذه المكاتب في بلاد الدولة العثمانية مكاتبها .

المادة الثامنة ـ لما كانت الدولة العلية تنوي مفاوضة الدول في مؤتمرات وبطريقة أخرى في إبطال الإمتيازات القنصلية من السلطنة العثمانية واستبدالها بنظام الحق الدولي ، فإيطاليا تعلن من الآن رغبتها في تعضيدها في ذلك تعضيداً صادقاً ، وتعترف بأحقّية مقاصدها من هذا القبيل .

المادة التاسعة ـ تعلن الدولة العثمانية أنها مستعدة أن تعيد الرعايا الإيطاليين الموظفين في مصالحها والذين اضطرت أن تفصلهم عنها حين إعلان الحرب إلى وظائفهم إظهاراً لرضاها عن خدماتهم الصادقة لها ، وأن تدفع لهم رواتب الاستيداع عن الأشهر التي قضوها خارج وظائفهم ولا يضرّ هذا الانقطاع عن الخدمة أقل ضرر بالمستخدمين الذين يستحقون معاشاً .

ثم تتكفل الحكومة العثمانية أيضاً أن تتوسط لدى المصالح التي لها علاقة بها مثل صندوق الديون العمومية وشركات السكك الحديدية والبنوك وغير ذلك ، حتى تعامل الرعايا الإيطاليين الذين كانوا في خدمتها نفس هذه المعاملة .

المادة العاشرة ـ تتكفل حكومة إيطاليا أن تدفع سنوياً إلى صندوق الديون العمومية العثمانية لحساب حكومة جلالة السلطان مبلغاً معادلاً لمتوسط

المبلغ الذي خصّ في السنوات الثلاث السابقة لإعلان الحرب من إيرادات ولايتي طرابلس وبرقة لصندوق الديون العمومية العثمانية ، ويعيّن مقدار هـذا المال السنوي معتمدان ، تعيّن أحدهما حكومة إيطاليا والآخر الحكومة العثمانية ، فإذا وقع خلاف بين المعتمدَين يرفع الأمر إلى مجلس تحكيم يرأسه مرجح يعيّن باتفاق الفريقين ، فإذا لم يتمّ الاتفاق على ذلك عيّن كل فريق من الفريقين دولة وعيّنت الدولتان مرجحاً . ويحق لكل من حكومة إيطاليا وصندوق الديون العمومية العثمانية ـ بواسطة الحكومة السلطانية ـ أن يطلب استبدال هذا المال السنوي بمبلغ تكون فائدته موازية للمال السنوي المذكور بمعدل ٤ ٪ .

وتعترف حكومة إيطاليا من الآن أن هذا المال السنوي لا يكون في حال من الأحوال أقلّ من مليوني فرنك إيطالي، وهي مستعدة أن تدفع إلى صندوق الديون العمومية العثمانية رأس المال كله دفعة واحدة حالما يطلب منها ذلك .

المادة الحادية عشرة ـ يعمل بهذه المعاهدة من تاريخ إمضائها .

ولهذه المعاهدة ملاحق ثلاثة نذكرها تباعاً .

الملحق رقـم ١ (١)

منشور جلالة السلطان إلى سكان طرابلس وبرقة :

« لما كانت حكومتنا السّنية في حالة يستحيل معها عليها أن تسديكم المساعدات التي تحتاجون إليها للدفاع عن وطنكم، ولما كانت من الناحية الأخرى مهتمة بضمان راحتكم وهنائكم حاضراً ومستقبلاً ، فرغبة منا في اتقاء مواصلة حرب مدمّرة لكم ولعائلاتكم، وذات خطر على إمبراطوريتنا ، وفي إدخـال الهناء والسلام إلى وطنكم قـد منحتكم استقلالاً داخلياً مطلقاً وتاماً بما لي من

(١) جاء في الملحق رقم ١ أن نائب السلطان والقاضي تدفع رواتبهما الحكومة العثمانية .

حقوق السيادة عليكم ، وستدار بلادكم بموجب قوانين جديدة وأنظمة خاصة ، يشترك رجالكم في إعدادها لكي تأتي مطابقة لحاجاتكم وعاداتكم .

ولقد عيّنت شمس الدين بك المعروف بصدق الخدمة ممثلاً لي عندكم ، ومنحته لقب نائب السلطان ، وعهدت إليه بحماية المصالح العثمانية في بلادكم ، وذلك لمدة خمس سنوات مع احتفاظي بحق تجديدها أو تعيين غيره .

ولما كانت أمنيتنا المحافظة على بقاء الأحكام الشرعية القائمة بينكم ، فقد احتفظنا بحق تعيين القاضي الذي يتولى تعيين نواب عنه من العلماء أبناء البلاد فيقضون بينكم طبقاً لما تقضي به الشريعة .

وستدفع رواتب القاضي من جانبنا ، ومثل ذلك راتب نائب السلطان . أما الموظفون الشرعيون الآخرون فتدفع رواتبهم من دخل البلاد » .

الملحق رقـــم ٢

وهو منشور من ملك إيطاليا إلى سكان طرابلس وبرقة :

« عملاً بالقانون رقم ٣٨ الصادر يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ والذي يجعل طرابلس الغرب وبرقة خاضعتين خضوعاً تاماً مطلقاً للسيادة الملكية الإيطالية ، ورغبة في التعجيل بإعادة السلم إلى هاتين المقاطعتين ، وبناءً على اقتراح مجلس الوزراء أصدرنا المرسوم الآتي :

المادة الأولى — منح العفو التام العام للطرابلسيين والبرقاويين الذين اشتركوا في الحرب أو الذين أسندت إليهم بعض التهم بسببها ، ما عدا الجرائم المختصة بالحق العام ، بحيث لا يمكن محاكمة أي شخص من أي طبقة أو أي فئة كانت ولا مسّ شخصه أو أملاكه وحقوقه بسبب أعماله السياسية أو العسكرية ، أو بسبب الآراء التي أبداها مدة الحرب ، ويطلق في الحال سراح الأشخاص الذين سجنوا أو نفوا بسبب ذلك .

المادة الثانية – يظل أهالي طرابلس وبرقة متمتعين بتمام الحرية في إقامة شعائر الدين الإسلامي كما كانوا في الماضي ويواظبون على ذكر اسم جلالة السلطان الأعظم بصفته خليفة المسلمين في الصلوات العامة ، ويعترف بالنيابة عنه للشخص الذي يعيّنه جلالته لذلك ، ويدفع راتب هـذا النائب من الإيرادات المحلية ، وتحترم حقوق المصالح الدينية « الأوقاف » كما كانت في الماضي . ولا يوضع أقل عائق في سبيل علائق المسلمين بقاضي القضاة رئيسهم الأمين الذي يعيّنه شيخ الإسلام، والنواب الذين يعيّنهم هو والذين تدفع رواتبهم من الإيرادات المحلية .

المادة الثالثة – ويعترف أيضاً لنائب السلطان المذكور بحماية مصالح السلطنة العثمانية والرعايا العثمانيين ، حسب ما صارت إليه في الولايتين المذكورتين بعد إصدار قانون ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ .

المادة الرابعة – تعيّن بمرسوم ملكي لجنة يكون من أعضائها بعض أعضاء البلاد تقترح وضع الأنظمة المدنية والإدارية للولايتين ، على أن يستمدا من المبادىء الحرة ويقوما على احترام أخلاق البلاد وعوائدها .

الملحق رقـم ٣

هذا الملحق خاص بما يجب عمله مع سكان جزائر بحر إيجه ، وليس فيه ما يتعلق بطرابلس لا من قريب ولا من بعيد لذلك رأينا عدم ذكره .

الاتفـاق السرّي

وقد وضع اتفاق سرّي لهذه المعاهدة ، وهذا نصه :

المادة الأولى – تتعهد حكومة الامبراطورية العثمانية بأن تصدر في خـلال ثلاثة أيام من توقيع هذا الاتفاق على الأكثر فرماناً موجهاً إلى الشعب الطرابلسي

والبرقاوي يطابق الملحق رقم ١ .

المادة الثانية — يجب أن توافق الحكومة الملكية الإيطالية مقدّماً على تعيين نائب السلطان والرؤساء الدينيين ، وأن تحدد رواتب هؤلاء الرؤساء ونائب السلطان باتفاق خاص يعقد بين الحكومتين وتدفع رواتبهم من الدخل المحلي ، ما عدا راتب القاضي فإن الحكومة العثمانية هي التي تدفعه ، ويجب ألا يزيد عدد هؤلاء الرؤساء على ما كان عليه عند إعلان الحرب .

المادة الثالثة — تتعهد الحكومة الإيطالية الملكية بأن تصدر في خلال مدة ثلاثة أيام على الأكثر من نشر الفرمان الملكي المنصوص عليه في المادة الأولى مرسوماً ملكياً مطابقاً لنص الملحق رقم ٢ .

المادة الرابعة — تتعهد الحكومة العثمانية بأن تصدر في خلال مدة ثلاثة أيام على الأكثر من نشر الفرمان الملكي المنصوص عليه في المادة الأولى إرادة ملكية طبقاً لنص الملحق رقم ٣ [١] .

المادة الخامسة — عقب نشر المراسيم الثلاثة ذات الطرف الواحد المنصوص عليها في ما تقدم يوقع الفريقان المتعاقدان معاهدة عامة طبقاً لنص الملحق رقم٤ .

المادة السادسة— ومن المتفق عليه طبعاً والمفهوم من هذا الاتفاق أن حكومة الامبراطورية العثمانية تتعهد بأن لا ترسل ولا تسمح بإرسال سلاح من تركيا إلى طرابلس الغرب وبرقة أو ذخائر أو أسلحة أو ضباط أو جنود .

المادة السابعة — لا تطالب حكومة من الحكومتين المتعاقدتين الأخرى بما أنفقته من نفقات على إطعام أسرى الحرب وإيوائهم .

المادة الثامنة — يتعهد الفريقان الساميان المتعاقدان بإبقاء هذا الاتفاق سرياً ، على أن يكون لكل حكومة حق الخيار في إعلانه عند تقديم المعاهدة

---

(١) الملحق رقم ٣ لا دخل له فيما يتعلق بطرابلس وبرقة .

المنصوص عليها في الملحق الرابع إلى برلمانها .

يوضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ يوم توقيعه .

المادة التاسعة — ومن المتفق عليه أن الملاحق المنصوص عليها في هذا الاتفاق تُعد جزءاً متمماً له .

كتب في «لوزان» بنسختين يوم ١٥ أكتوبر سنة ١٩١٢ .

بيتروبير توليني . جويدو فوزيناتو. جيسب فولبي
محمد نابي . روم أوغلو فخر الدين

وتنفيذاً لما جاء في الاتفاق السرّي المذكور آنفاً ، فقد وضعت نصوص المعاهدة ، ووقع عليها مندوبو الحكومتين في الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر يوم ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٢ [١] .

* * *

تعليق :

هذه معاهدة أوشي وملاحقها. والمتأمّل في هذه النصوص يرى أن أهم ما جاء فيها مما يتعلق بطرابلس هو ما جاء في المادتين الأولى والثانية من مواد المعاهدة مما يتعلق بوقف القتال وسحب الجنود والضباط الأتراك من ميدان القتال في طرابلس وبرقة، وهو أهم ما يصبو إليه الطليان . وما جاء في الملحق رقم ١ وهو المنشور الذي صرّح فيه جلالة السلطان محمد الخامس بتنازله عن حقوقه في طرابلس

(١) كانت الدولة العلية أثناء المفاوضات في أحرج الأوقات . فقد أعلنت الحرب على دول البلقان في الساعة الثانية والدقيقة الأربعين من مساء اليوم السابع عشر من أكتوبر سنة ١٩١٢ وهو اليوم السابق ليوم توقيع المعاهدة . وفي الساعة الثالثة والدقيقة الأربعين من صباح يوم توقيع المعاهدة هجمت الجيوش العثمانية على بلغاريا والصرب .

وبرقة لأهلها ، ومنحهم استقلالاً داخلياً مطلقاً تاماً ، ولم ينسب إليه في مواد المعاهدة ولا في ملاحقها ما يقيّد هذا الاستقلال أو ينقصه. وهو بما له من حقوق السيادة في هاتين المقاطعتين له أن يمنح هذا الحق ، وقد منحه لأهله .

أما بقية المواد فبعضها يتعلق بالتجارة،وبعضها بالأمور المالية أو الامتيازات القنصلية أو غير ذلك مما ترغب إيطاليا الحصول عليه أو إعطاءه في مقابلة ما هو خير منه .

وقد أصرّ جلالة السلطان على أن يكون هذا الاستقلال تاماً، ولكن الطليان أبوا أن يوافقوا على ذلك . ولذلك ترى نصوص المعاهدة خلواً من التعرض لحق السيادة على طرابلس ووضعت الملاحق لتفسير وجهة نظر كل فيما يتعلق بهذه السيادة .

وكان تنازل جلالة السلطان على حق سيادته على طرابلس وبرقة لأهلها تقديراً منه لجهود هذا الشعب الأبيّ ومكافأته على إخلاصه لعرش آل عثمان إلى آخر لحظة من لحظات المقدرة والإمكان .

وقد نقض الطليان كل ما في هذه المعاهدة، وغدروا بالترك والطرابلسيين على السواء وأتوا في الحرب الطرابلسية بما يورث العار والشنار. وقد تولى الله جزاءهم، فرماهم بداهية الدواهي ، وأدال منهم بأكثر مما أدالوا من غيرهم ، وقد قتل موسوليني بأيدٍ إيطالية واحتلت عاصمتهم « روما » بجيوش الحلفاء وأصبحوا أذلاّء صاغرين .

بعد المعاهدة :

نشر القائد الإيطالي في طرابلس خبر هذا الصلح يوم ٢١ من أكتوبر سنة ١٩١٢ ، وأبلغه إلى نشأت بك القائد الأعلى للمجاهدين .

وقد استغرق هذا الكفاح بين الحق والباطل من يوم نزول الطليان في

طرابلس إلى يوم إبلاغ خبر الصلح لنشأت بك اثني عشر شهراً وستة عشر يوماً.

وقد وقعت في هذه المدة وقائع دامية يجدها القارىء مدوّنة في مواضعها من كتابنا هذا. وكان لحق الطرابلسيين في هذه المعارك جولات على باطل الإيطاليين رفع من شأن العرب كلهم بمقدار ما حطّ من شرف الجيش الإيطالي .

وقد تمكن الطليان في هذه المدة كلها من احتلال أربع مدن فقط من المدن الساحلية . مدينة طرابلس « العاصمة » وقد أحاطوها بسور من الحجر وبقوا محصورين فيما حواه السور . ومدينة الخمس ، وبقوا محصورين فيها فقط. ومدينة زوارة وبقوا محصورين فيها إلى أن احتلوا سيدي عبد الصمد ، وسيدي سعيد ، فوسعوا دائرة احتلالهم في دائرة قطرها نحو ١٠ ك . ومدينة مصراتة ، وبقوا محصورين فيها من قصر حمد إلى المواطين، في محيط قطر دائرته مسافة نحو ١٠ك.

* * *

وبهذه المعاهدة ينتهي الشطر الأكبر من الدور الأول من الحرب الطرابلسية ، وهو الشطر الذي يشرف نشأت بك على أعماله الإدارية والحربية بوصفه ممثلا للحكومة العثمانية وواليا على طرابلس . ومع نشأت بك محمد فرحات الزاوي ، والشيخ سليمان الباروني ، والهادي كعبار ، وأحمد المريض ، وعلي بن تنتوش . ويوجد عساكر من بقايا الجيش العثماني في طرابلس قبل الاحتلال يبلغ عددهم ١٥٠٠ تقريباً .

وكان هذا الشطر من الدور الأول يعتمد في عتاده الحربي على ما كان للدولة العثمانية في طرابلس من البنادق وبعض المدافع. وعلى قليل من البنادق التي غنمها المجاهدون من الطليان في المعارك التي دارت بينهم لأن الغنائم لم تكثر إذ ذاك .

وأرغمت الدولة على هذا الصلح إرغاماً ، وبذلت أقصى جهدها في الإحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به من الحقوق التي تفسح أمام الطرابلسيين المجال للمطالبة

بحقهم والدفاع عن استقلالهم فجاء استقلالاً ناقصاً يحتاج إلى تكملة ، وبذل جهود لإقناع الطليان بالإعتراف به . وقد حـــاول الطرابلسيون الوصول إلى تكملة هـــذا النقص من طريق المفاوضات تارة ، ومن طريق الحرب أخرى ، ولكنهم لم يفلحوا .

وقد اشتمل هذا الصلح على خطأين كبيرين كان لهما أثر سيىء في فشل مداومة الطرابلسيين على الجهاد :

الخطأ الأول : أنه وقـِّع من غير مشورة الطرابلسيين، بل وبدون أن يعلموا عنه شيئاً، وهذا تعدٍّ على حقوقهم وتدخّل في أخصّ اختصاصاتهم لأنهم أدرى بما تقتضيه الحال القائمة إذ ذاك . وهم الذين سيقعون تحت عبء هذه الشروط ، ويتحمَّلون تبعتهـــا وتبعة ما ينشأ من ضغط الطليان على الحكومة العثمانية . فاستشارتهم تمكنهم من التفكير في مصيرهم ، وتعطي للأتراك الحجة عليهم فيما يختارون لأنفسهم من مصير .

الخطأ الثاني: أن القوة المعنوية للحرب كانت تعتمد على وجود الترك والعرب متساندين ، وآمال الناس ما تزال متعلقة بالدولة العثمانية ، وما زالت الصلة بذلك الماضي القريب تذكّر الناس بدولة آل عثمان. ووجود الضباط والجنود الأتراك الذين يشاركون الطرابلسيين محنتهم عنوان عملي على بقاء صلة الطرابلسيين بدولة آل عثمان ، صلة المحكوم بالحاكم . فمباغتة الطرابلسيين بمثل هذا الصلح الذي عقد لوقف الحرب من شأنه أن يحلّ العزائم ويثبّط الهمم، وهو ما حصل. فاشتراك الطرابلسيين في هذا الصلح أمرٌ من البداهة بحيث لا يُجهل ولا ينسى . ومع ذلك فقـــد بقي أمر الصلح سراً مكتوماً عن الطرابلسيين حتى انتهى كل شيء ، وصدرت الأوامر إلى نشأت بك بالانسحاب هو ومن معه من طرابلس ، وترك الطرابلسيين في مواجهة الطليان يختارون لأنفسهم ما شاءوا في وقت

لا يتسع للإختيار[1] .

وقد أذاع حاكم طرابلس منشوراً بشأن الصلح في مدينة طرابلس هذا نصه :
« لما كان الأمر العالي الصادر في ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ قد وضع طرابلس والقيروان تحت سلطة المملكة الإيطالية ، والآن لأجل ترقية هاتين الولايتين ، وتأييد الأمن فيهما تقرّر ما يأتي :

١ - يمنح عفواً عاماً جميع أهالي طرابلس والقيروان الذين اشتركوا في الحرب أو الذين اجترموا جرائم مختلفة في مدة الحرب . ولا يسوغ اضطهاد أحد من الأهالي أو التدخل في أموره الشخصية أو المادية ، أو منعه من التمتع بجميع حقوقه ، لأجل أي عمل عمله في الماضي ، سواءً كان العمل عسكرياً أو سياسياً ، أو غير ذلك . وكل من سجن أو أُسر لأجل ذلك يطلق سراحه حالاً .

٢ - إن سكان طرابلس يبقون كما كانوا في الماضي أحراراً ، في ممارسة فروضهم الدينية ، وأن جلالة السلطان الخليفة الأعظم يجب أن يذكر ، كالعادة ، في الصلوات الإسلامية . وسيمثله نائب يعيّنه جلالته . وتدفع ماهية النائب من إيرادات الحكومة المحلية . ويجب أن تبقى حقوق الأوقاف محترمة كما كانت في الماضي ، وألاّ تقوم أية عقبة في سبيل العلائق التي بين المسلمين ورئيسهم الديني - أي القاضي الذي يعيّنه شيخ الإسلام - والتي بينهم وبين نوابه الذين يعيّنهم القاضي نفسه . وأمّا ماهيات القاضي ونوابه فتدفع من الإيرادات المحلية .

٣ - النائب السلطاني المذكور أعلاه تكون وظيفته المحافظة على مصالح

---

(١) قد يقال إن للحصر البحري المضروب على طرابلس دخلا في صرف نظر العثمانيين عن استشارة الطرابلسيين ، ولكن كان من الميسور الاتصال بهم على طريق مصر . ونحن لا ننكر أن البلاد كانت تابعة للدولة العثمانية ، ولكن نرى أنه كان يحسن بجلالة السلطان - وهو يعتزم التنازل عن البلاد - أن يأخذ رأي أهلها ليعدوا أنفسهم لهذا المستقبل الجديد.ولم يكن لاحتجاج الطرابلسيين على عدم إشراكهم في المفاوضات أي أثر، واستمر المفاوضون الأتراك في مهمتهم حتى انتهوا فيها إلى ما ذكرنا .

الدولة العثمانية والرعايا العثمانيين التي لا يمسّها الأمر العالي الصادر في ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ .

٤ ـ سيصدر أمر عالٍ آخر بتعيين لجنة يكون جانب منها من أعيان الأهالي لكي تسنّ قوانين ونظامات للإدارة المحلية في الولايتين بحسب مبادىء الحرية ، بحيث تحترم بموجبها العادات المحلية » اهـ .

والأمر العالي ، المشار إليه ، في ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢هو قرار ضم طرابلس وبرقة إلى إيطاليا ، وقد وقّع عليه الملك وجوليتي رئيس الوزارة ، وجوليانو وزير الخارجية ، وبقية الوزراء .

الإعتراف بتبعية طرابلس وبرقة للطليان

ذكرنا في صدر الكتاب أن دول أوروبا كلها كانت موافقة على احتلال الطليان لطرابلس . وما كادت توقع معاهدة «أوشي » بين الطليان وتركيا حتى تسابقت دول أوروبا الى الاعتراف بتبعية طرابلس وبرقة للطليان . وهي رغبة كانت تنتظر لإعلانها أي مناسبة ، فاعترفت انجلترا بسيادة الطليان على طرابلس في ١٩ أكتوبر سنة ١٩١٢ . وفي ٢١ منه اعترفت فرنسا بهذه السيادة . وفي ٢٣ منه اعترفت بها رومانيا .

وفي ٢٣ منه ابتدأ القواد الإيطاليون في طرابلس يفاوضون نشأت بك ومن معه من كبار الضباط في سفر الجنود العثمانيين طبقاً لشروط الصلح .

ولم تحترم هذه الدول اعتراف جلالة السلطان بتنازله عن حقوقه الشرعية في طرابلس للطرابلسيين ، ولم تعترف بحق الطرابلسيين في بلادهم الذي جاهدوا من أجله ولم يتنازلوا عن شيء منه ، وذهبت تتسابق إلى الاعتراف بحق إيطاليا في طرابلس إرضاءً لها . وهي مبادلات معروفة بين دول الاستعمار : تعترف الواحدة منهن بأحقية غيرها في اغتصاب حقوق الشعوب الضعيفة ، لتعترف لها

هي الأخرى بأحقيتها في مثل هذا الاغتصاب .

وفي ٢٠ منه أرسلت الحكومة العثمانية إلى جميع الولاة في مملكتها تخبرهم بعقد الصلح . كما أرسلت وزارة الحربية العثمانية إلى نشأت بك تعلمه بذلك وتأمره بالانسحاب هو ومن معه من الأتراك من ميدان القتال ، وأن يسلموا أنفسهم إلى الطليان ليأتوا بهم إلى الآستانة .

مفاجأة :

عقب وصول الخبر إلى نشأت بك جمع رؤساء المجاهدين والضباط الطرابلسيين وأعيان البلاد والوجهاء وأبلغهم الخبر ، فوقع عليهم وقوع الصاعقة . وسرعان ما عاودت الناس تلك الشكوك التي ساورتهم في أول الاحتلال ، من إهمال الترك لبلادهم ، والتفريط في حقوقهم ، ووقع في روع بعضهم أن هذه حلقة سقطت من الدور الذي مثلته وزارة حقي باشا ، جاءوا بها الآن لإتمام الفصل وسدل الستارة على بقية الرواية .

وكانت هذه المفاجأة سبباً في حلّ عزائم المجاهدين ، وتسرّب اليأس إلى النفوس ، وذهب كثير من المجاهدين إلى بيوتهم تعلو وجوههم الكآبة والحزن .

كل هذا سببه عدم أخذ رأي الطرابلسيين في هذا الصلح ، ولو استشيروا لأعدوا أنفسهم للأمر على كلا الوجهين ، واختاروا في سعة من الوقت ما يرون في أنفسهم الكفاية له ، وما تساعدهم ظروفهم الوطنية والمالية على القيام به ، ولوقع من نفوسهم الموقع المعدّ له . ولكنه شيء حصل لم يكن لهم فيه رأي ، فباءوا بغرمه واستأثر غيرهم بغُنمه .

بين السلم والحرب :

جاء خبر الصلح والجهاد قائم ، والطليان محصورون في المدن الساحلية ، والمجاهدون يتّقدون حماساً للقاء العدو ومنازلته ، فنزل ذلك الخبر على حماس

المجاهدين برداً. وعلى أثر ذلك عقد قواد الجيش ورؤساء المجاهدين وأعيان البلاد اجتماعاً تبادلوا فيه الرأي فيما يجب عمله إزاء هذا التحوّل الجديد وكان في مقدمة المجتمعين نشأت بك وفتحي بك والشيخ سليمان الباروني، ومختار كعبار، والهادي كعبار، وأحمـد المرّيض، وعلي بن تنتوش، وفرحات الزاوي. واتفقوا مبدئياً على مطالبة الطليان بالإعتراف بالاستقلال الذي منحهم إياه جلالة السلطان، والدخول معهم في مفاوضة لتكميل ما عساه أن يكون في معاهدة «أوشى» من نقص. وانتخبت هيئة المفاوضة من الهادي كعبار، وعلي بن تنتوش وفرحات الزاوي.

غير أن نشأت بك كان يضمر رأياً آخر لم يصارح به المجتمعين، ذلك أنه كان يميل إلى جمعية الاتحاد، ويريد مواصلة الحرب باسمها.

وهي مناورة سياسية ينطبق عليها المثل العربي «الصيف ضيعت اللبن» فإن موقف الإتحاديين من طرابلس غير مجهول. وقد يكون نشأت بك مقتنعاً بعدم فائدتها. ولكنها محاولة، فإن نجحت نسب فخرها إليه، وإن فشلت كان غرمها على غيره.

وأفضى نشأت بك إلى الشيخ سليمان الباروني بهذه المهمة فوجد منه ميـلاً وتعهداً بالقيام بها.

بين الهادي كعبار والباروني:

لما عدل الباروني عن موافقة أعيان البلاد على الدخول في المفاوضة مع الطليان، وتزعّم الحركة التي كانت ترمي إلى مداومة القتال ـ كان لهذا العدول أثر سيىء على نفوس الزعماء، ولم يطق الهادي كعبار صـبراً على ما تأثرت به نفسه من عدول الباروني عن المفاوضة إلى مداومة الحرب، فكاشف الباروني بهذا التأثر في لهجة شديدة، ولكن الباروني استمر في الوفاء بما عاهد عليه نشأت وكان للهجة الهادي الشديدة أثر في فتور العلاقات بينه وبـين الباروني

سيتضح فيما نذكره بعد .

من هنا نشأت فكرتان : فكرة تميل إلى السلم والتقدم إلى الطليان بطلب تنفيذ المعاهدة ، وبالمفاوضة في تكميـــل ما عساه أن يكون فيها من نقص ، وأنصارها من ذكرنا آنفاً ، وجميع أعيان الزاوية وورشفانة وغريان إلى مصراتة يحبِّذونها. وحجتهم في ذلك أن ما لديهم من العتاد الحربي لا يكفي لمقاومة دولة من أكبر دول أوروبا ، والأقوات في البلاد قليلة ، والإعانة التي كانت تأتي من تركيا وقدرها مائة ألف جنيه في الشهر قد انقطعت، والإعانة التي تأتيمن تونس مورد غير ثابت ، وقد يؤدي تغلب العدو إلى قطعها ، فنكون بذلك قد عرّضنا أنفسنا ومستقبل بلادنا إلى الخطر ، فقبول الأمر الواقع على أساس الإعتراف به وتكميل نقصه أولى ، ثم نبذل كل جهودنا لإقناع الطليان بحقوقنا .

وفكرة تميل إلى الحرب ، وأنصارها الشيخ سليمان البـــاروني ، وانضم إليه الشيخ سوف والسيد محمد بن عبد الله البوسيفي . وغرض أصحاب هذه الفكرة تهديد الطليـــان بالقوة لإرغامهم على الاعتراف بالإستقلال الذي اعترف لهم به جلالة السلطان . وتزعّم هذه الجماعة الشيخ سليمان الباروني وسلّمه نشأت بك النقود التي كانت عنده ،وقدرها ألفا ليرة عثمانية ذهباً، وسلّم إليه سنداً بأربعة عشر ألف شوال من الأرزاق يتسلّمها من « بنقردان »[1] .

سفر نشأت بك :

توجّه نشأت بك ومن رغب السفر معه إلى الزاوية ، ثم منهـــا إلى مدينة طرابلس للسفر منها إلى الآستانة ، وكان ذلك في أوائل نوفمبر سنة ١٩١٢ .

---

(١) ذكر الامير شكيب في تعليقه على ابن خلدون أن تركية كانت تصرف على الحرب الطرابلسية مائة ألف جنيه في الشهر . في حين انه ذكر أن الطليان صرفوا على الحـرب الطرابلسية في العشر السنوات الأولى ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جنيه

وكان يوم دخول نشأت بك مدينة طرابلس للسفر منها إلى الآستانة يوم حزن شامل . ومن يصدّق أن نشأت بك تكرهه الأوامر العسكرية على تسليم نفسه إلى عدوّه الذي طالما جرّع جنوده كؤوس الموت وأوردها الهلكة ، ويركب في بوارجه التي طالما رمته بقنابلها لتحمله إلى الآستانة تنفيذاً لما أملاه القوي على الضعيف .

ولما سافر نشأت بك من العزيزية أخذ معه « سفورزا » وبقية أعضاء البعثة الإيطالية الذين كانوا معه وسلّمهم لوالي طرابلس . وقد لقيت هذه البعثة معاملة حسنة من الباروني فأرسل إليه وكيل الوالي خطاب شكر هذا نصه :

« إلى حضرة الفاضل الأديب سليمان بك الباروني جازاه الله . إننا لسنا متيقّنين هل تسلمتم خطابي المحرر تاريخ ٢٤ أكتوبر . وعلى كل حال فقد وصل اليوم هنا أعضاء البعثة العلمية الإيطالية فسمعنا منهم مشافهة ما أفضتم عليهم من اللطف ، وما سعيتم لهم من المساعي ، فكان ذلك تأكيداً كاملاً لما كان قد بلغنا قبلاً . ولا شك أن مسلككم هذا مع وجود التعاون الصريح بيننا هو من المكرمات ، بل دليل لامع على شرف نفسيتكم ، وجميل عواطفكم .

إن المستقبل بيد الله تعالى ، ولكن مهما كان سير الحوادث فيه يجوز لي أن أؤكد لكم أن حكومتنا ستعتبر خلوص نياتكم في أعمالكم عند سنوح فرصة ذلك ، كما أنها قد قدرت من زمان قدر ما تحصلتم عليه من التأثير المستحق في قلوب العرب » .

حرّر في طرابلس الغرب في ١٢ نوفمبر سنة ١٩١٢ .

الجنرال أمير الجيوش الإيطالية
في ولايتي طرابلس وبنغازي

الجنرال تومازوني
وكيل الوالي

نوري بك[1]

كان نوري بك أخو أنور باشا مع نشأت بك في العزيزية . ولما سافر نشأت تخلّف نوري عن السفر معه وذهب إلى (سرت) للإلتحاق بالمجاهدين في برقة تبع السيد أحمد الشريف .

ويظهر أن هذه حلقةمن سياسة الاتحاديين أراد نوري أن يقوم بها في(سُرت) ولكنها لم تفلح . ولما وصل إلى (سرت) تراءى له أن يقيم فيها بضعة أيام ، وصار يشجّع الناس على المضي في الجهاد وعدم التسليم ، وكان الحاكم في (سرت) إذ ذاك عبد الله بن مليطان من جهة خليل بك قائد منطقة (سُرت) فوجد منه تشجيعاً ومناصرة . ومن حسن الصدف أن جاءت مركب تحمل السلاح مبعوثة من الآستانة قبل الصلح ، ولكنها لم تقدر على الدنوّ من السواحل الطرابلسية خوفاً من الأسطول الإيطالي ؛ فانتهزت غفلة ورست شرق (سرت) وأنزلت ما فيها من السلاح وتسلّمه نوري ووزعه على الناس في (سرت) ، فأوجدت هذه الحركة التي جاءت من قبيل الصدف شيئاً من النشاط .

احتلال سرت :

علم الطليان بحركة نوري في سرت ، وخافوا أن يستفحل أمرها فجاءوا معهم بقوة إلى سرت فاحتلوها في أوائل سنة ١٩١٣ وجاءوا معهم بعمر المنتصر وعيّنوه قائمقاماً عليها ، ولم يلبث أن قبض على عبد الله بن مليطان ، وأرسل في أثر نوري من يطلبه للقبض عليه ، وقد أدركه الطلب قبل حدود برقة ، فحماه عبد العاطي الجرم وهدّد الذين ذهبوا في أثره بالقتل إن لم يرجعوا ، فرجعوا ، ونجا نوري إلى برقة ثم سافر إلى الآستانة .

بعد سفر نشأت بك :

اجتمع أنصار المفاوضات وتقدّموا إلى الطليان برغباتهم ، وأرسلوا إليهم

---

(١) رجع الى مصراتة في سنة ١٩١٦ وستأتي أخباره هناك .

جواباً مع الشيخ عمر المنصوري [١] لتعيين الزمان والمكان لبدء المفاوضة ، وقد رأوا من المصلحة أن تتم المفاوضات في مدينة طرابلس فانتقلوا إليها . وقد ساور المجاهدين الشك في نية الطليان نحو المفاوضين. ولكنهم ما لبثوا أن تحققوا حسن نيتهم . وأن المفاوضين لا خوف عليهم . وقد جعلوا أساس مفاوضاتهم ١٤ مادة ، رأوا أن معاهدة « أوشى » لا تتم إلاّ بإضافة هذه المواد إليها [٢].

واجتمع الشيخ سليمان الباروني ، ومن انضم إليه ، من أنصار فكرة الحرب وأعلنوا الطليان برغبتهم في إتمام الصلح والموافقة على المعاهدة على شرط الإعتراف باستقلال طرابلس الذي اعترفت به الحكومة التركية العثمانية بدون مفاوضات ، وإلاّ فهم مصمّمون على الإستمرار على الحرب [٣] ، وامتنع الطليان عن مشاركتهم هذه الرغبة .

وانحاز كل فريق إلى رأيه ، ورأى الطليان في قوتهم ما شجّعهم على التمسك برأيهم ، وكانت النتيجة وقوع الحرب ، فتأثرت بها المفاوضات الجارية وفشلت .

من هذا يُفهم أن الفكرة كانت متحدة ، وهي مطالبة الطليان بالاستقلال ، ولكن اختلفت وجهة النظر في تنفيذها : فأنصار المفاوضات رأوا أن يطالبوا بالحجة والإقناع المنطقي ، وأخذ ما يمكن أخذه والمطالبة بما بقي ، ورأوا أن الإلتجاء إلى الحرب غير مجدٍ للأسباب التي ذكرناها آنفاً . أما الباروني ومن انضم إليه فرأوا أن يطالبوا الطليان بالموافقة على معاهدة «أوشى» ، والإعتراف

---

(١) كان الاستاذ عمر المنصوري من علماء طرابلس العاملين ومن المجاهدين المخلصين. وكان عزيز النفس لم يدنس شرفه بالانتماء الى الطليان . وكان منظوراً اليه بعين الاحترام والتقدير من جميع مواطنيه.

توفي يوم الخميس أول سبتمبر سنة ١٩٤٩ عن نحو سبعين عاماً ودفن بجامع المنصوري ببلدته « صياد » التي كانت تسمى المنصورية عليه رحمة الله .

(٢) لم نعثر على نصوص هذه المواد .

(٣) يظهر من كتاب الباروني الآتي للوالي أنهم لم يتلقوا رداً على هذا البلاغ .

باستقلال البلاد ، وهم على أهبة الحرب ، حتى إذا راوغوا نازلوهم الحرب .

حقيقة :

ثبت من حوادث التاريخ، وما دلت عليه التجارب في معاملات الأوروبيين للشرقيين أنهم لا يعطون ما أخذوا ، ولا يرجعون عما صمموا على اغتصابه إلا بالقوة . والقوة في هذه المواقف هي الحجة الدامغة والحاكم النافذ الحكم ، فما رأينا في التاريخ دولة أوروبية دخلت بلداً إسلامياً وخرجت منه إلا وهي تخوض في دماء أبنائه ، فتلك الأندلس ، وهذه الجزائر وتونس . وكثير من بلاد العرب ما زالت ترسف في قيود الاستعمار ، وقد طالب الكثير منها بحقوقه بالحجة فلم يصغ لما يقول . والتجأ بعضها إلى القوة وبذل الكثير من أرواح أبنائه فلم يصل إلى ما يرضيه، وداهمته القوة فكان القول الفصل لها وحدها. وحوادث التاريخ حافلة بأن النتيجة المفهومة هي ما جاءت من طريق مقدمات الحديد والنار لذلك نرى أنه كان من الواجب على الطرابلسيين أن يفكروا قبل الإقدام على الحرب فيما يضمن لهم دوام الحرب ؛ فإذا ما ضمنوا ذلك وجب عليهم أن يحاربوا ، وكانت الحرب هي الطريق الموصل إلى النجاح .

الباروني في يفرن :

انصرف الباروني ومن معه لترتيب أعمالهم ، فاختاروا « يفرن » مركزاً لهم ، ونقلوا إليها ما سلمه إليهم نشأت في العزيزية من أرزاق وغيرها ، وأنشئت ترتيبات إدارية وكلت أمورها إلى موظفين بقدر ما اقتضته ضرورة الحال القائمة إذ ذاك . واتخذوا الرابطة محلاً لإقامة المجاهدين .

وقد انضم إلى الباروني وصحبه جماعة من العلالقة والعجيلات وزوارة والنوائل وأولاد أبي سيف والصيعان وسكان الجبل ، مع ما يوجد من رؤوس الفتنة المطأطئة خوفاً، وهي تتسمع الأخبار وتنتهز الفرص للتخلص من الباروني وإخوانه ، خصوصاً بعد أن اتسعت شقة الخلاف عليهم وأصبحت جهودهم

لا تكفي لما تتطلبه الحال ، وأصبح ينطبق عليهم المثل القائل :

تكاثرت الظباءُ على خِراش   فما يَدري خراشُ ما يَصيد

ورجع الشيخ سوف إلى منطقة زوارة لمباشرة أعماله هناك ، وبمجرد وصوله هاجم الطليان في العجيلات ، وقُتل في هذه المعركة الشيخ شلـّيق رئيس بلدية العجيلات .

وزحفت جيوش الطليـــان فاحتلت سواني بنيادم والعزيزية ، وزنزور ، والزاوية ، وغريان ، وترهونة وما بعدها من جهة الشرق إلى مصراتة بدون مقاومة ولا معارضة ، وأمكنتهم الفرصة من حصر المجاهدين في محيط ضيق يبتدىء من حدود غريان الغربية ويمرّ شمالاً إلى ما يقارب العزيزية من الجنوب ، ثم يغرّب ماراً بجنوبي زنزور والزاوية إلى محاذاة صرمان من الجنوب، ثم ينزل شمالاً إلى صرمان ، لأنها كانت هي والعجيلات مشمولة بإدارة المجاهدين تبع منطقة زوارة .

وكان عبد النبي بن خير – من رؤساء أرفلـّة – ممن انضموا إلى الباروني وإخوانه في فكرة الحرب ، فترك بعض المجاهدين من أرفلة في الرابطة وذهب إلى بني وليد مركز أرفلة ، بحجة أنه سيجمع المجاهدين ويرسلهم إلى خط القتال والواقع أنه فعل هذا ليكون له حجة عند الطليان بأنه لم ينضم إلى المحاربين ، وكان يحاول أن يضرب عصفورين بحجر ، فصار يكاتب الطليان يستجلب ودّهم ويعتذر لهم عدم حضوره لديهم بما يراه يؤدي إلى هذا الغرض. ويكاتب الباروني في يفرن ويطلب منه الأرزاق باعتبار أنه من أنصاره ، ولم يخفَ على الباروني هذا التلاعب من عبد النبي ، ولكنه كان يصانعه طمعاً في اتقاء شرّه ، وبناء على هذه المصانعة لعبد النبي جاء في بعض كتابات الباروني : « أن خط حربنا يبتدىء من أرفلـّة » والواقع أنه كان لا تتجاوز حدود غريان الغربية شرقاً .

جبـــاية الزكاة :

ولم يكن ما تركه نشأت بك من المال يقوم بحاجة المجاهدين . يضاف إلى ذلك ما أحدثه الخلاف من الوهن والفتور في العزائم وأخذ ما بيد الباروني في النفاد ، وتأخرت مرتّبات الموظفين وأجور الحمالين الذين كانوا ينقلون الأرزاق من بنقردان إلى يفرن . وبدت الحاجة إلى كل شيء ، وظهر النقص في كل شيء؛ فاضطر الباروني إلى جباية الزكاة،فأرسل حاسبين لحصر الحيوانات لجباية زكاتها، وكانت الزراعة لم تنضج بعد فأعدّ العدة لجباية زكاتها أيضـاً ، ولكن النفقات كانت أكثر مما في استطاعته جمعه من المال . وألحّت الحاجة إلى درجة أنه لا يمكن انتظار نضوج الزراعة . أضف إلى ذلك تقدم العدو في كل ناحية ، وضيق المناطق التي بقيت في أيدي المجاهدين التي يمكنهم جباية زكاتها .

وبقي الباروني وصحبه يقاسون الصعوبات ، ويحاولون تذليل بعضها ، واستمرت هذه الحال من اكتوبر سنة ١٩١٢ إلى أول مارس سنة ١٩١٣ ، وفي هذه المدة وقعت بينهم وبين الطليان مناوشات كانت أشبه بمناوشات الإختبار .

وقد علم الطليان أن ما بيد الباروني من الأرزاق نفد أو كاد ، ولا يجهلون قلـّة ما بيده من العتاد الحربي ، فأخذوا يعدّون العدّة لمعركة فاصلة يكون فيها القضاء على المجاهدين ، وبالقضاء عليهم يقضى على آمال المفاوضة ، فجهّزوا جيشاً عظيماً بقيادة الجنرال « لكويوا » ، واتخذوا له مركزاً في العزيزية ومركزاً في غريان ، وكانت خطة الطليان الإطباق على المجاهدين من الشمال والشرق والجنوب.

مكاتبة :

في أثناء ما كان الباروني في (يفرن) كتب إليه القائد الإيطالي كتاباً ينبزه فيه ببعض الألقاب التي لا تتفق مع الواقع[1] ، فرأى فيها البـــاروني مساساً

---

(١) تفهم تلك الألفاظ من نص كتاب الباروني .

بكرامته ، فردّ عليه بما ينفي هذا الإفتراء . وهذا نص كتاب الباروني :

« حمداً وصلاة

إلى حضرة جناب الهمام قائد جيش ووالي الدولة الإيطالية بمدينة طرابلس ، أرشده الله؛ السلام على حضرتكم. ليكنْ في علمكم أني لستُ متقلّباً ولا غدّاراً ولا محباً للمال ، ولا معادياً للإصلاح والمدنيّة ، واسألوا عني الرؤساء والمحاربين يتضح لكم الحق . ولكني رجلٌ عرفتُ قيمة الوطن ومعنى الدين ولذّة الحرية وفضيلة الشرف ، فأنا أكثر الناس شوقاً إلى رؤية بلادنا رافلةً في حلل الترقي ، منتشرة فيها المعارف العصرية والإصلاحات المدنيّة ، على شرط حفظ كرامة سكانها ، وبقاءِ استقلالها المشروع .

أنا لا أكره التعاون مع الأوروبيين والإستفادة مما أودعه الله من الخيرات في بطون أودية بلادنا ورؤوس جبالها ، وتعلم الجاهل من العالم ، ولكن أكره أن أرى الوطني عبداً مملوكاً لغيره ، بحيث لا يملك شيئاً من دينه وعرضه ، فإن الموت أسهل وألذّ طعماً عندي من ذلك .

وقد أدركتُ بالتجربة والسياحة في بلاد الله قيمة الاستقلال ، ولذّة حياته الهنيئة ، وتحققت مرارة الإستعباد والرّقّية ، وعرفتُ ما هي المدنية ، وإني أستسهل في جنب حرية النفس كل صعب ، وها أنا الآن آكل من الطعام أخشنه ، وأنام على الأرض متوسداً سرج جوادي، وأشرب الماء الملح تارة والمرّ أخرى، وأسير في الليل المظلم الممطر ، وفي هاجرة النهار ، ولا أرى هذا إلاّ ألذّ من الشهد ، ولا يزيد بدني إلاّ قوة ، ولا جأشي إلاّ ثباتاً ، وإن نفسي لتتوقَ إلى الشهوات ، ولكن على شرط حفظ الكرامة ، فحافظوا يا حضرة الوالي على شرفنا وشرفكم، وأشيروا على دولتكم بالموافقة على استقلالنا حسب الفرمان السلطاني ، وتعالوا نستعن بكم على تعمير هذه البلاد حيث قضى الله بمجاورتنا ، كما كان أجدادنا من قبل .

لا يغرّنك يا حضرة الوالي أقوال الذين لا يقدّرون المصلحة فترمي بدولتك في حرب جديدة معنا لا تدري عاقبتها ، فإن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء . « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » .

أجبتكم عن جوابكم الأول بما قررناه وأعلناه ، وطلبنا منكم الجواب ، ولكن من الأسف رددتم الرسول بدون جواب . ولعلكم تظنون أننا لا نحارب إلاّ بالترك وتريدون التجربة ولو بمحاربة واحدة . فإن كان كذلك فإن أهالينا يعتقدون أيضاً أن عساكركم ما وقفت أمامهم إلاّ بحماية الأسطول وأبراج المدافع الكبيرة ، فهم جازمون بالانتصار في المواطن البعيدة عن البحر ، ويتمنون أن يجرّبوا أنفسهم فيما بين غريان وسواني بنيادم ، ولكن هل يصحُّ لي ولكم أن نتلاعب بدماء أبناء طرابلس وإيطاليا لمجرّد التجربة ؟ . اللهم إن هذا مما تمجّه العقول المتنوِّرة والأذواق السليمة . وإن أبيتم إلاّ ذلك فنحن حاضرون للدفاع ، والله والناس معنا .

هذا ما اقتضى المقام بيانه من قبيل النصيحة وحقناً للدماء ودمتم سالمين » .

حرّر في مركز الجبل ٢٠ المحرّم سنة ١٣٣١ . سليمان الباروني

معركة جندوبة :

بقيت الجيوش الإيطالية من أوائل مارس إلى ٢٢ منه تستكمل عدّتها ، وتستعد للقضاء على الباروني وأنصاره . وقد علم المجاهدون بهذا الإستعداد ، فزوّدوا نفوسهم بالصبر ، ووطّنوها على الموت في سبيل الله ، واعتمدوا على الله في لقاء هذا الجيش ، وهم يعتقدون أنهم سيفوزون بإحدى الحسنيَين : إمّا الشهادة في سبيل الله ، وإمّا التغلّب على العدو .

وفي صبيحة يوم ٢٣ مارس سنة ١٩١٣ زحفت هذه الجيوش على المجاهدين ، فقابلوها بالثبات والصبر ، وبادلوها إطلاق الرصاص ، وقامت الحرب على ساقها ، وظهرت بشاعتها في تلك الأشلاء الممزّقة والأعضاء المتناثرة ، بعضها يدافع عن

نفسه ووطنه ؛ وبعضها ينتصر لباطله وقوّته . وأخذ الطليان يقذفون بجيوشهم الهائلة كلما فني صفّ من صفوفهم جاءوا بغيره ، وثبت المجاهدون لهذه الجيوش المنهمرة . وبقيت المعركة طول النهار لا تسمع إلاّ أصوات الرصاص ودويّ المدافع . وقد أظهر أولاد أبي سيف بطولة نادرة في هـــذه المعركة من ناحية الرابطة ، وأقبل الليل بظلامه ، وقد رجّحت كفة المجاهدين في الرابطة وكفة العدو في جندوبة ، ولم يبقَ لدى المجاهدين من الخرطوش ما يكفي لمحـــاربة ساعة ، فاضطروا إلى الانسحاب تحت جنح الظلام. وباتوا الليل بطوله مشغولين بدفن شهدائهم ، ونقل جرحاهم إلى (يفرن) . ولم يمهلهم العدو ، فاقتفى أثرهم إلى (يفرن) وصبحهم بجيوشه ، وقد أنهك التعب قواهم مع نفاد ما بأيديهم من الخرطوش فانسحبوا مكرهين من (يفرن) ، وقصد من بقي منهم إلى (نالوت) للإلتجاء إلى الأراضي التونسية .واستمر الطليان في زحفهم، فاحتلوا (غدامس) في إبريل سنة ١٩١٣ ، واحتلوا (مزدة) في يوليه من هذه السنة .

وكانت هـــذه آخر معركة قام بها الباروني وإخوانه للدفاع عن الشرف والوطن ، وطيّر الخبر إلى الشيخ سوف بناحية (زوارة) بالواقعة ، فانسحب المجاهدون من هناك للإلتجاء إلى الحدود التونسية . وغادر المجاهدون وطنهم بعد أن دافعوا عنه إلى آخر سهم ، وآخر ما في الإمكان ، وفضّلوا الجلاء على التسليم للعدو . ففازوا بثواب المجاهدين وأجر المهـاجرين ، وليسوا بأوّل من غلبتهم القوة . والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء .

بعد انتهاء المقاومة في الجبل :

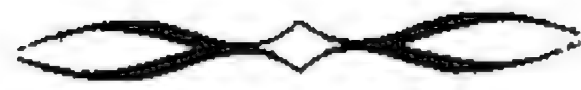
كان الشيخ سوف ، والشيخ سليمان الباروني، والشيخ محمدبن عبدالله البوسيفي أكبر الرؤساء الذين قاموا بالحرب بعد سفر نشأت بك . ولمـا انتهت مقاومتهم بعد واقعة جندوبة اختار الشيخ سوف والشيخ سليمان الباروني ، ومن معهم ، الإلتجاء إلى الحدود التونسية ، ومنها سافر الباروني إلى لندن ثم إلى الآستانة. وهاجر الشيخ سوف ومن معه إلى حلب (الشام) ، واختار السيد محمد بن عبدالله

ومن معه الإلتجاء إلى (فزان) ، واعتصموا هناك في انتظار الطليان مرة ثانية .

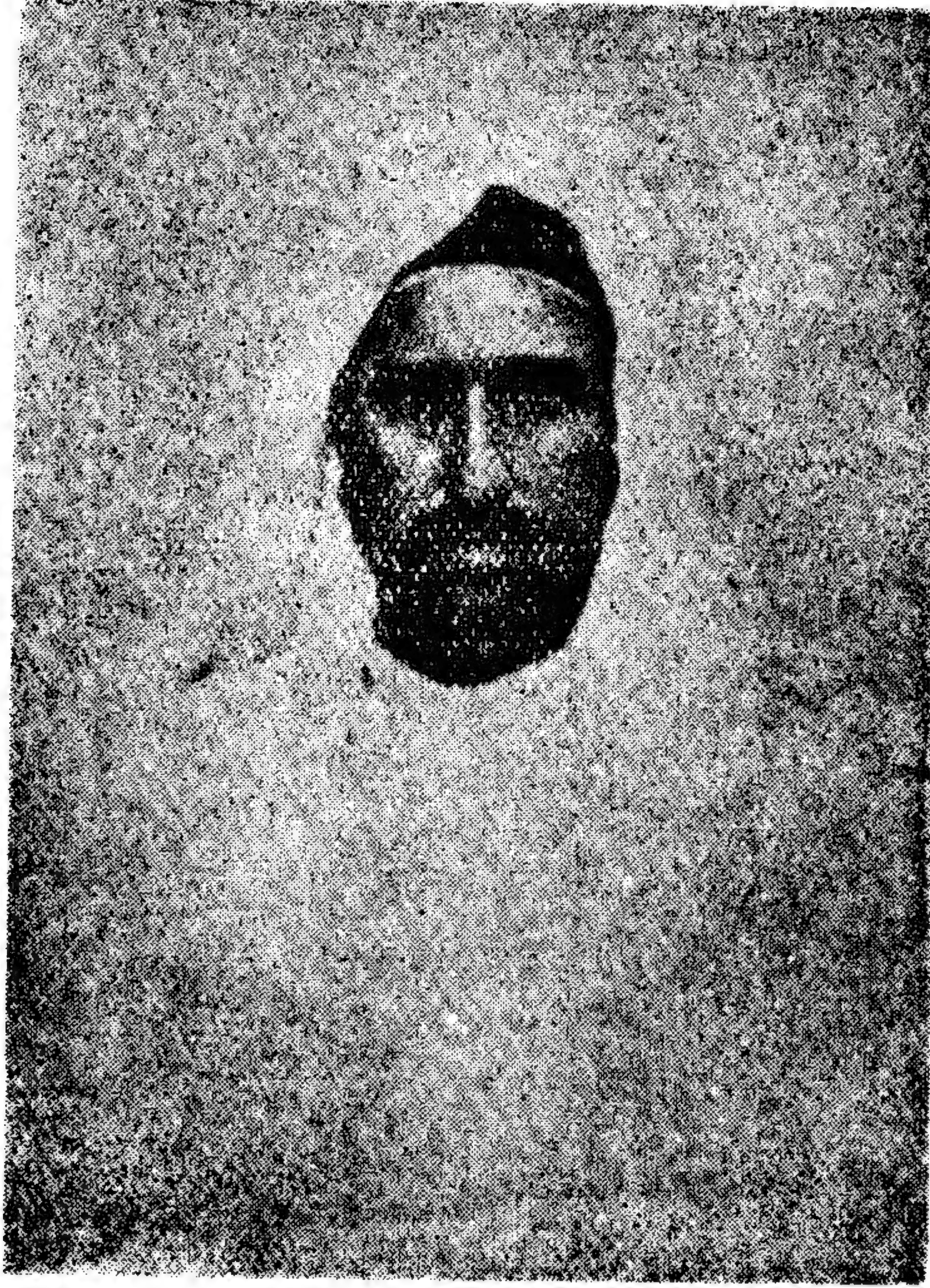
ولقد كان للسيد محمد بن عبد الله ومن معه جولة في حروب (فزان) ، كتبت لهم فيها السعادة والشهـــادة في خبر سنذكره مقروناً بما وجب لهم من الشكر والثناء ، كما أن للباروني وسوف أخباراً ستأتي مفصلة في محلها ، إن شاء الله .

منـــاسبة :

بمناسبة ما دار من مكاتبات بين الشيخ سليمان الباروني والهادي كعبار ، حينما كانت جيوش الباروني تغير على غريان ؛ ولما أشيع عن الهادي عقب هـذه المكاتبات من أخبار يحتاج المنصف إلى تمحيصها ، رأيتُ أن أجمل سيرة الهادي كعبار في الجهاد الطرابلسي من يوم أن احتل الطليان طرابلس إلى أن توفي عليه رحمة الله ، ليمكـّن من يحب إنصاف الناس الوصول إلى الحقيقة ، ومعرفة ما له وما عليه ، من غير تحيّز ، ولا مبالغة .



الهــادي كعبار



هو من أعيان غريان وساداتها ، وفي مقدمة النابهين والمثقفين فيها ، وأصله من (الكول أوغلية) من شراكسة الزاوية . ولد سنة ١٢٩٤ هـ ، وتعلـّم في المدارس التركية ، وتقلـّب في وظائف الحكومة هو وآباؤه. وقد ورث ما كان فيه من نعمة وشهرة عن أُصول كانوا في مثل ذلك . وكان سريـع الملاحظة ، قويّ الذاكرة ، قوي الحجة ، معتدّاً برأيه إلى أبعد حد .

ولما وقعت الحرب الطرابلسية سنة ١٩١١ كان في مقدمة الأعيان الذين دعوا

للجهاد وقاموا به . وكان معدوداً في طبقة المفكرين ممن يحترم الناس آراءهم ، ويقفون عند حدود ما يرسمون . ولما تولى نشأت بك إدارة شؤون الحرب كان الهادي في طليعة من يعتمد عليهم من أعيان طرابلس ، وعيَّنه قائمقاماً على غريان .

ولما تنحَّى الترك عن إدارة الحرب في طرابلس بمقتضى معاهدة أوشي وانتخب الطرابلسيون هيئة من الأعيان لمفاوضة الطليان في إتمام ما ينقص هذه المعاهدة اختير الهادي عضواً في هذه الهيئة . ولما وقع الانقلاب بعد القرضابية كان في مقدمة الثائرين على الطليان والمحاربين لهم . ولما وُقع صلح بنيادم في سنة ١٩١٩ انتخب في هيئة المفاوضة . وكل مجال يُحتاج فيه إلى قوة الحجة وطلاقة اللسان كان الهادي كعبار أول من يدعى إليه ، لا يماري في ذلك أحد .

ولو تتبَّعنا أدوار القضية الطرابلسية كلها من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩٢٢ لا نجد مجالاً من مجالات القول أو العمل إلا والهادي كعبار يشغل منه مركزاً يليق بقدرته ومكانته .

هذا عرض بسيط لحياة هذا الرجل الذي تناولته ألسنة الناس — إن صدقاً وإن كذباً — بما يحطّ من قدره ويخدش كرامته . وليت ما قيل فيه من قبيل ما يمكن أن يتساهل فيه ولكنه من نوع لا تستسيغه النفوس، هو الخيانة العظمى خيانة الوطن ، وبيع المواطنين لمن يدوس كرامتهم ويستذلّ رقابهم ، خيانة الوطن التي لا جزاء لها عند الله ، وعند القانون وعند الناس إلا القتل على أعواد المشانق .

فهل يكون من المسلّم به أن رجلاً يتمتع بمثل هذه المكانة بين مواطنيه ينقلب بين عشية وضحاها إلى خائن لوطنه ، منبوذ من مواطنيه ، تتقزّز النفوس لسماع إسمه ؟ وهل يصحّ — إذا كنا منصفين — أن نخوض في عِرض هذا الرجل بدون أن نبحث عن الدوافع التي سببت له هذه التهم ؟ لا شك أن هذا ليس من الإنصاف في شيء .

وأول تهمة نسبت إليه كان سببها خلافه مع الباروني حينما أجمع زعماء البلاد على مفاوضة الطليان، وخالف الباروني واختار الحرب بناء على اتفاقه مع نشأت بك في مداومة الحرب تنفيذاً لفكرة جمعية الاتحاد والترقي . والهادي لم يكن بدعاً في مخالفته للباروني . بل شأنه شأن الأكثرية المطلقة ، فلم يخالف فكرة المفاوضات إلا الباروني وتبعه في ذلك السيد محمد بن عبد الله البوسيفي ، وانضم إليهما الشيخ سوف ، ولكن الهادي لم يطق صبراً على مخالفة الباروني فصارحه بما في نفسه بلهجة أفهمه بها أنه غير راض على مخالفة ما أجمع عليه الزعماء ، ومن هنا نفهم أنه خلاف في الرأي على ما تقتضيه المصلحة لا أكثر ولا أقل .

وجاء دور الحرب ، وحاصرت جيوش الباروني غريان لأنها كانت محتلة بالإيطاليين مثلها في ذلك مثل جميع البلاد الطرابلسية ، وصار جيش الباروني يغزو بلدان غريان الغربية ، فطلب أهالي غريان إلى الهادي إتخاذ طريق لتأمين أموالهم وأرواحهم ، فكاتب الهادي كعبار الشيخ سليمان الباروني في الكفّ عن غزو بلاد غريان ، فلم تفد الكتابة شيئاً ، ونسب الهادي إلى الطلينة والإنحياز للعدو . وكاتبه الباروني بما يؤكد ذلك ، فردّ الهادي بما يدفع عنه هذه التهم . ويفهم من كتاب الباروني الذي أُطّلعنا عليه أن هناك مكاتبات تبودلت بينه وبين الهادي حسب ما تقتضيه الحال ، وكانت كتابة الباروني في لهجة شديدة يتضح منها أنه كان متأثراً من كتابة الهادي التي لم نطلع على نصها. ولو نقل إلينا الباروني ما اطلع عليه من كتابات الهادي لعلمنا موقف الهادي منه ، والتمسنا له عذراً ، ولكنه اقتصر على تدوين كتابته هو التي كان يؤرّخها بتاريخ ٧ من ربيع الأول سنة ١٣٣١ ، فأهملنا نقلها واكتفينا بالإشارة اليها ، ولو كان جيش الباروني على حدود ترهونة أو مصراتة أو غيرهما من البلاد المحتلة لكان موقفها مشابهاً لموقف غريان من جميع الوجوه .

ومن هذا الوقت بدأت إشاعات السوء تنتشر ضد الهادي بين أنصار الباروني وتسرّبت منهم إلى غيرهم، وفسّرها من لا يدركون فهم الخلاف في الرأي بمخالفته

لمصلحة الوطن . وانتقلوا من هذا إلى رميه بالخيانة العظمى وهي بيع الوطن والإنحياز إلى عدوه".

ولو جاز لنا أن نقول هذا في الهادي كعبار لجاز لنا أن نقوله في غيره من الزعماء من زوارة إلى مصراتة ، لأنهم كلهم متفقون على مفاوضة الطليان ومخالفة الباروني في فكرة الحرب . فإلصاق هذه التهمة الشنيعة بالهادي وحده — ولم يكن لها من سبب إلا مصارحة الباروني وأنصاره برأيه الذي يشاركه فيه جميع الزعماء — لا يتفق مع المنطق والإنصاف ، وليس من ذنب الهادي أن يصارح برأيه ويسكت غيره . وقد عُرف بصراحته واعتزازه برأيه .

وقد انتهى هـــذا الدور بفشل الباروني في مارس سنة ١٩١٣ وسافر إلى الآستانة . ولما عاد منها إلى طرابلس سنة ١٩١٦ وجد الهادي كعبـــار يحتل مكانته بين الزعماء المناهضين للطليان .

هذا سبب التهمة الأولى كما وقعت مع ملابساتها وظروفها .

أما التهمة الثانية فهي شبيهة بهذه في وقوف الهادي عند رأيه ودفاعه عما يراه حقاً . وذلك أنه بعد حرب البربر والزنتان ضعفت المقاومة الوطنية ، وجلا سكان السواحل إلى الجبل ، وكان من الصدف أن اختارت هيئة الإصلاح المركزية غريان مقراً لها ، مما اضطر الطليان أن يجعلها هدفاً للقضاء على الحركة الوطنية . وكان من رأي الهادي أن يفرض عدد من المجاهدين على البـــلاد المحيطة بغريان التابعة لنفوذ الهيئة — وفي مقدمتها ترهونة — وقد تعهد على نفسه أن يأتي بمجاهدين من غريان يساوون عدد مجاهدي ترهونة مهما كثر عددهم وما يتجمع من المجاهدين يكوّن منهم جيش على طول خط الجبل توكل إليه مهمة الدفاع ، ووافقت الهيئة على ذلك ، وكان الطليان يبذلون كل جهودهم للاتصال بالجبل عن طريق الوطية ، وحصل فتور في جمع المجاهدين ، وألحّ الهادي في التنفيذ نظراً لنشاط الطليان المتواصل ، وقرب الخطر من الجبل ولم تنفـّذ الهيئة ما وافقت

FHIT-X

عليه، وواجه الهادي أعضاء الهيئة ورئيسها بلهجة شديدة، وحذرهم من الخطر المحدق بهم، ولكنهم لم يجمعوا من المجاهدين ما يكفي لردّ الخطر الداهم، فأفهمهم بأن غريان أول بلاد معرضة للخطر وإذا لم ينفذوا ما اتفقوا عليه فسيضطر إلى مكاتبة الطليان دفعاً للخطر المحدق بغريان، فلم يبد رئيس الهيئة أي نشاط في التنفيذ، واحتل الطليان الجبل من ناحية يفرن وأخذت طلائعه في التقدم من ناحية العزيزية، فأقدم الهادي مرغماً على مكاتبتهم ليؤمن غريان من شرهم، وهو موقن بما في هذا العمل من خطر على حياته، وتقدم الطليان فاحتلوها وقبضوا عليه وجرت الأمور على ما كان يتوقعه، وذهب ضحية اقتناعه برأيه، وعدم تنفيذ الهيئة ما أجمعت عليه. وعادت الذاكرة بسيئي الظن وبأتباع كل ناعق إلى تلك الإشاعات، فكان لهم فيها ما كان لهم في التهمة السابقة.

هذه أقوى أسباب التهمة الثانية، التي تلصق بالهادي بك كعبار، أشد الشناعات، وأفظع الموبقات.

ولو أخذنا بإشاعات من لا يدركون الأمور لما وجدنا مبرراً لوساطة الباروني بين الطليان وبين خليفة بن عسكر. وكثير من الناس لا يحسن الظن بمن لا يدرك عقله آراءهم، فيخيّل إليه — من طريق الجهل وقصر النظر — أنهم خائنون فيتناولهم بما هم منه براء، وهم في تقديرهم للوطن ومحافظتهم على كرامته فوق مستوى عقول هؤلاء، وفوق ما يدركون.

ولعل فيما ذكرنا وسيلة لمن يريد أن يصل إلى حقائق الأمور، ويعلم أعذار الناس فيما يختارونه لأنفسهم من آراء قد لا يفهمها، وقد تكون أسبابها مجهولة لديه.

الباروني وسوف في تونس [1]:

التجأ الشيخ سوف ومن معه من المجاهدين الذين كانوا في منطقة زوارة إلى

(١) للكلام هنا شعبتان: شعبة تتعلق بسوف والباروني وسنبتدىء بها، وشعبة تتعلق بالطليان وما انتهوا إليه، وسنذكرها بعد ذلك.

حدود تونس ، وعلى أثرهم جاء الشيخ سليمان الباروني ومن معه من المجاهدين ، ومعه من أعيان الجبل ساسي خزام ويوسف خربيش ، واجتمع الجميع في الأراضي التونسية ، فطلبت منهم فرنسا تسليم سلاحهم قبل كل شيء ، فأجابوا الطلب بعد أن يجتازوا الحدود بمسافة يأمنون فيها على أنفسهم من الطليان . وبعد أن تسلمت جميع أسلحتهم قالت لهم : إن الأراضي التونسية لا تتسع لغير أهلها ، وخيرتهم بين أن تختار لهم الحكومة مكاناً يقيمون فيه مجتمعين أو يختاروا لأنفسهم بلداً آخر يذهبون إليه ، فاختار بعضهم الرجوع إلى طرابلس ، والتحق بعضهم بالسيد محمد بن عبد الله في فزان . واختار الباروني الذهاب إلى الآستانة ، واختار سوف الهجرة إلى الشام ، واستمهل حكومة فرنسا ريثما يهيئون لأنفسهم الوسائل الكافية لنقلهم ، فأمهلتهم .

وسلم الباروني الأرزاق الموجودة في بنقردان باسم المجاهدين إلى يوسف خربيش ، وسافر هو وساسي خزام إلى تونس .

الكونت سفورزا :

كان في البعثة العسكرية التي أسرت في الجبل في يناير سنة ١٩١٢ وكانت بينه وبين الشيخ سليمان الباروني معرفة شخصية . ولما سلم العرب البعثة إلى الطليان في نوفمبر سنة ١٩١٢ رجع سفورزا إلى روما ، ولمناسبة معرفته بالباروني كلفته حكومته بالتوسط لدى الباروني في ترك الحرب والدخول في المفاوضات مع المفاوضين ، ولأجل هذا جاء إلى تونس للاتصال بالباروني وقبل اتصاله به تغلب الطليان على الباروني وجلا عن الجبل إلى تونس والتقى به سفورزا . وعدل عن التحدث معه في المفاوضات إلى أن ينصح الناس بالرجوع إلى طرابلس . وكان الحديث بين سفورزا والباروني وساسي خزام بمعرفة الحاكم الفرنساوي . ثم استدعى محمد سوف إلى الإشتراك في الحديث ، فحضر ومعه سعد حلبودة مدير الصيعان ، والشيخ ضو العلاّقي ، فأصروا على عدم رجوع المهاجرين إلى طرابلس ، وانتهى الحديث بينهم وبين سفورزا ، ورجع إلى إيطاليا ، وبقي

المجاهدون في تونس إلى أن يأتيهم الإذن بالهجرة إلى الشام .

وطنية سوف :

في أثناء الحديث مع الكونت سفورزا بدرت منه كلمات رأى فيها الشيخ سوف مساساً بكرامة العرب ، فقال له : « إن طرابلس أمّنا حملتنا وولدتنا وأرضعتنا : أما حق الحمل والولادة فقد أديناه حرباً ، وأما حق الرضاع فلها علينا ألا ندخلها وأنتم فيها » .

سفر الباروني إلى لندن :

سافر الباروني من تونس إلى لندن ليذهب إلى الآستانة .

وقد أشاعت بعض الجرائد عنه بمناسبة تركه الحرب أخباراً غير حقيقية ، اتهمته فيها بالخيانة وأخذ الرشوة. وهي إشاعات لا تركز على أساس من الصحة. وأسبابها الأخبار الكاذبة وإشاعات السوء . فرأى في هذه الإشاعات مساساً بكرامته فاضطر إلى الرد عليها . وقد اجتمع بصاحب مجلة التيمس الإفريقية في ١٤ من شوال سنة ١٣٣١ فأفضى إليه بحديث طويل نقتطف منه ما يتعلق بالرد على هذه التهم الباطلة مع المحافظة على نصه وعدم التصرف فيه ؛ قال الباروني :

« إن حكومة إيطاليا تحققت نزاهتي وعفـّتي من زمن الحرب التركية فلم تتجاسر على مخاطبتي في شأن الرشوة، لأنها لما أشارت إلى ذلك في بعض مكاتباتها الأولى أجبتها بأنني أنا ورجالي لا نرضى إلا بالموافقة على الاستقلال الذي تفضل به علينا السلطان .. » ثم قال :

« إني ما التجأت إلى تونس إلا بعد نفاد كل ما بيدي من لوازم الحرب ...، ثم سلمت سلاحي إلى مأموري فرنسا ليقبلوا دخولي للأراضي التونسية ، ففي مقابلة أي شيء تعطيني إيطاليا أموالها ؟ وبأي وسيلة أطلب أنا منها المال حيث إني لم أترك للصلح مجالاً ، ودافعتها إلى أن أخذت مني البلاد بقوة المدافع و كثرة

الجنود. ولو سأل مخابرو تلك الجرائد بعض رؤساء الحكومة الإيطالية لأخبروهم بأسماء الذين قبلوا الرشوة ، ومدوا أيديهم الحقيرة مطأطئي رؤوسهم لتناول الرشوة ثمناً لشرفهم . أما أنا فـــلا يجدون إسمي إلا في صدور دفاتر الوقائع المشهورة ، والهجوم الشديد في الليل والنهار على الحصون والاستحكامات ، من يوم الهجوم على الهاني إلى يوم دخولي تونس » .

هذا ما نقلناه بنصه من حديثه لمحرر مجلة التيمس الإفريقية وهو واضح فيما قصد إليه من رد تلك التهم الباطلة .

ثم سافر الباروني من لنـــدن إلى الآستانة ، فأكرم السلطان محمد الخامس وفادته ، وأنعم عليه برتبة الباشوية .

وله عودة إلى الجهاد في طرابلس ، وسنذكر أخباره في محلها إن شاء الله .

هجرة سوف ومن معه إلى الشرق

أرسل الشيخ سوف ابنه عوناً إلى الآستانة للإتصال بذوي الشأن فيها لتيسير أسباب الهجرة للمجاهدين ، فسافر من تونس في ذي الحجة سنة ١٣٣١ وأرسل معه كتاباً خاصاً إلى أنور باشا وكان إذ ذاك وزير الحربية — يستنهض همته في تسهيل أمور الهجرة للمجاهدين — فوافق على ذلك، وخصص لهم باخرة للإتيان بهم جميعاً الى الآستانة. وفي شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٢ ركب الشيخ عون الباخرة وجاء بها الى قابس ، حيث كان المجاهدون في انتظاره وكانوا نحو ١٥٠٠ .

وكان مع الشيخ سوف من أعيان المهاجرين الشيخ سعد حلبوده مدير الصيمان. والشيخ ضو بن الحاج العلاقي . والشيخ علي كلّه فركبوها جميعاً من مرسى قابس وقفلت بهم إلى الآستانة . وقد تراءى للحكومة العثمانية أن يقيم المهاجرون الطرابلسيون في حلب ، لأن أراضيها واسعة ، وسكانها عرب ، يتفقون في كثير من عاداتهم مع عادات الطرابلسيين ، فنزلوا في الإسكندرونة ، ومنهـا انتقلوا

إلى حلب حيث استقرّ بهم المقام في ضيافة إخوانهم الشآميين ، وكانت النخوة العربية تدفع العرب إلى الإحتفاء بإخوانهم والقيام بواجب الضيافة .

ولم يطل المقام بالشيخ سوف في حلب حتى قامت الحرب الكبرى في اليوم الثاني من شهر أغسطس سنة ١٩١٤فاستدعته الحكومة العثمانية لترسله إلىطرابلس للقيام بالثورة فيها على الطليان ، فأجاب طلبها وسافر ؛ وسنذكر خبره في محله.

عبد النبي بن خير :

قلنا آنفاً إن عبد النبي بن خير ممن انضموا – في الظاهر – إلى البــاروني وإخوانه في محاربة الطليان . وقد ترك بعض مجاهدي أرفلة مع المجاهدين في الرابطة ، فكان هذا برهاناً عملياً على تأييده فكرة الحرب.ولكنه فيما بينه وبين نفسه لا يؤمن بنجاح هذه الفكرة ، وإنما هي يد اتخذها عند البـاروني ورفقائه ليحفظ مكانته عندهم، ولينال قسطه من أرزاق المجاهدين، وذهب إلى بني وليد مركز أرفلة ليبلو أخبار أهلها ويعرف ميولهم عن كثب ، فاتضح له أن كثيراً منهم يؤيد فكرة الحرب ، وكان الهــادي بن قطنّش وأنصاره يؤيدون فكرة المفاوضات. وكان الطليان يتوهّمون في سيف النصر (غول الصحراء) ويرغبون أن لو اتفق معهم ، فوعدوا عبد النبي بما يرضيه إذا هو حقق لهم هذه الرغبة . وذهب عبد النبي إلى سيف النصر في (هون) وذكر له من عدالة الطليان وحسن نيتهم نحوه ما جعله يصدّق ، وجاء معه إلى بني وليد . فوجدوا الطليان احتلوها بواسطة عبد الهادي بن قطنّش فنزلوا في شميخ . وقام عبدالنبي بدور الوسيط بين الطليان وسيف النصر . واجتمعوا بالحاكم الإيطالي في شعبة الكرمة بوادي بني وليــد واتفقوا على أن يكون سيف النصر متصرفاً على الحفرة . وسافر عبد النبي إلى طرابلس وعيّن مستشاراً للطليان . وذهب سيف النصر إلى سوكنة .

واستمرت هذه المفاوضات بين الطليان وعبد النبي وسيف النصر من مارس

إلى ديسمبر سنة ١٩١٣ .

* * *

إلى هنا انتهينا من ذكر الحوادث التي وقعت في الدور الأول فيما بين (سرت) وحدود تونس ، وما بين الساحل وأرفلة سواء منها ما كان قبل سفر نشأت بك أو بعده ، وأجملنا بعضما يتعلق بألاعيب عبد النبي. وكل ذلك حسب المستطاع ، وحسب ما رويناه عن أوثق المصادر ممن شاهدوه .

وبقيت بقية وقعت حوادثها فيما بين أرفلة وفزان ، وكان بطلها من أنصار الطليان عبد النبي بن خير ، ومن أنصار الوطن جماعة من المجاهدين وعلى رأسها السيد محمد بن عبد الله البوسيفي ، عليه رحمة الله .

وفي أثناء وجود سيف النصر في سوكنة أرسل إليه السيد محمد بن عبد الله يلومه على عدم محاربته للطليان ، ويذكّره بما أشاعه هو وعبد النبي من أنهم اتفقوا على محاربتهم ، فردّ عليهم بأنه لا ينضم إلى الطليان ضدهم ، ولا يأتيهم لا محارباً ولا مسالماً ، وهي مراوغة منه ، لأن المجاهدين كانوا في حاجة إلى معاونته .

ولو حلّت الهداية قلوب عبد النبي وأنصاره من المنشقين وانضموا إلى إخوانهم لكان موقف الطرابلسيين أقوى ، ونهايته أسلم .

وبعد احتلال بني وليد أصبح أهم البلاد وأغناها في يد الطليان ، ودخل تحت نفوذهم من (سرت) إلى حدود تونس ولم يبقَ إلاّ فزان والجفرة وما حواليها من الناحية الجنوبية .

وأراد الطليان أن يجهزوا على البقية الباقية ، ورأوا أن فيما حصلوا عليه من موافقة عبد النبي وملاينة سيف النصر فرصة تمكنهم من أغراضهم ، فألّفوا جيشاً برياسة الكولونيل «أمياني» مكوناً من بتاليوني[1] من عساكر الحبشة ،

(١) البتاليوني : يحتوي على ألف محارب ، ويساوي الفوج .

وثلاث كومبانيات[1] من غيرهم ، وفصيلتين من الطوبجية الجبلية مع ما يلزم هذه الحملة من المعدّات . وسار الجيش إلى سوكنة حيث يقيم سيف النصر واحتلها بدون مقاومة منه ولا من أتباعه . وأخذ الطليان يرسلون جواسيسهم إلى فزان لاستطلاع أحوال السيد محمد بن عبد الله وأتباعه ، وتجمّع لديهم من المعلومات ما أغراهم بالهجوم عليهم .

وعرضوا الأمر على عبد النبي ، على أن يكون مع الجيش الذي سيذهب لإخضاعهم ، فوافق على شرط ألاّ يبقى سيف النصر في سوكنة ، وأن يعيّن هو بدله ، فوافق الطليان على ذلك . وشرع عبد النبي يكاتب أولاد أبي سيف والمقارحة والزنتان وغيرهم من سكان الجنوب ، محاولاً إقناعهم باستسلامهم إلى الطليان ، ويؤكد لهم أنه سيكفل لهم كل أنواع الراحة مع الطليان .

وبعد أن تمّ استعداد الطليان للهجوم على السيد محمد أخبروا عبد النبي بأنهم سيقبضون على سيف النصر ، وكلفوه بالذهاب إلى سوكنة ليحل محله ، وليذهب مع الجيش الذي سيهاجم السيد محمد في فزان .

سفر عبد النبي :

سافر عبد النبي إلى سوكنة . ومرّ في طريقه « بالوديان »[2] منازل أولاد أبي سيف . وهناك اجتمع بالسيد محمد بن بشير . وكان هذا الاجتماع صدفة ، وقد حاول عبد النبي أن يقنع السيد محمد بضرورة خضوع أولاد أبي سيف للطليان ، وأعطاه عهوداً بأنه يكفل لهم راحتهم لديهم . ولكن السيد محمد لم

---

(١) الكومبانية : يتراوح عددها بين ٢٠٠ و ٢٥٠ وتساوي الكتيبة .

(٢) الوديان : محل جنوبي مزده وهي مواطن أولاد أبي سيف ومرابعهم . وكثيراً ما نازعهم في ملكيتها الزنتان ، ووقعت بينهم معارك هائلة بسببها . ومن أشهر هذه المعارك معركة « لجمل » حوالي سنة ١٩١٠ أو ١٩١١ وقد تغلب فيها الزنتان على أولاد أبي سيف فجلوا عن أوطانهم ، واختار السيد محمد بن بشير واخوته : ـ علي وعبد الرحمن ومحمد ـ الجلاء الى أرض سرت ونزلوا في الوادي الأحمر .

يصل معه إلى نتيجة وذهب عبد النبي إلى وجهه ، وبقي السيد محمد في الوديان مع أولاد أبي سيف . ولم يكن مقيماً هناك وإنما كان يقيم في (سرت)، وجاء في مهمة سنذكرها قريباً .

اعتقال سيف النصر وأولاده :

وقبل وصول عبد النبي إلى سوكنة بيومين قبض الطليان على سيف النصر وأولاده : أحمد ، وعمر ، ومحمد، وسليمان، وعبدالجليل، وذهبوا بهم إلى زوارة وتولى عبد النبي مكانه ، وأُسندت إليه متصرفية الجفرة . وابتدأ الطليان أعمالهم الحربية على السيد محمد بن عبد الله ، وكان عبد النبي في مقدمة الحملة .

وفي يوم ٦ من ديسمبر سنة ١٩١٣ تحرّك الجيش الطلياني من سوكنة قاصداً براك لمحاربة السيد محمد بن عبد الله البوسيفي ومن معه من المجاهدين ، والاستيلاء على فزان . وقد وقعت من يوم ٦ ديسمبر إلى يوم ٢٢ منه معارك شديدة في «الشب» و « أشكدة »[١] نال فيها كلا الفريقين من صاحبه .

واقعة المحروقة[٢]

٢٣ من ديسمبر سنة ١٩١٣

وفي اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر سنة ١٩١٣ حصلت واقعة المحروقة، وقد أبلى المجاهدون فيها بلاءً حسناً ، واستشهد فيها السيد محمد بن عبد الله البوسيفي وجمع من أصحابه المخلصين الذين طالما عرضوا أرواحهم للموت في سبيل الله، وقد لاقوا مصارعهم جميعاً فداءً للوطن فذهبوا مشكورين مأجورين .

---

(١) الشب ، وأشكدة : مكانان بقرب براك ، يوجد في الاول معدن الشب . وقتل من المشهورين في معركة أشكدة الشيخ أبو القاسم بن عثمان البدي من أولاد أبي سيف .

(٢) المحروقة : بلدة بوادي الشاطىء من أعمال فزان .

وقد حضر السيد محمد بن عبد الله الحرب من أولها . ولم أنسَ أني التقيتُ به مع المجاهدين قبل واقعة الهاني ، وعليه من هيبة الرجولة وجـــلال الطلعة ما يملأ النفوس مهابة وإجلالاً ، وبقي ملازماً خطوط القتال حتى وقع الصلح ؛ ثم انضم إلى صف المجاهدين . وقد أبلى في واقعة جندوبة هو وإخوانه أولاد أبي سيف بلاءً ما زلنا نحفظه لهم ، ثم انتقل إلى فزان وحـارب العدو حتى لقي ربه شهيداً مضرجاً بدمائه في سبيل الله والوطن . رحمه الله وشكر له .

احتلال فزان

٣ من مارس سنة ١٩١٤

بعد مقتل السيد محمد بن عبد الله البوسيفي :

وقد حاول من بقي من أصحاب السيد محمد بن عبد الله بعد مقتله أن يقوموا بواجبهم ، كما لو كان موجوداً بينهم . ومن كبارهم الشيخ سالم بن عبـــد النبي الزنتاني . وقد احتفظوا بمراكزهم على قدر ما مكّنتهم جهودهم ، واشتدت وطأة الطليان عليهم ، وواجههم عبد النبي مع صفوف الطليان ، فكانوا يجدون في مقاومة الجميع عناء أي عناء . وبقيت مزرق في أيديهم لم يحتلها العـدو إلى أوائل مارس سنة ١٩١٤ ، وفي اليوم الثالث منه احتلها العدو ، وباحتلالهـــا انتهت المقاومة المركّزة[١] في طرابلس كلها من الساحل إلى فزان . والتحق بزاوية العقر في (سرت) بعض من بقي من المجاهدين ، وكثير من أولاد أبي سيف والمقارحة والزنتان ، والطبول من أرفلة ، واستقر بهم المقام هنـــاك منتظرين فرصة أخرى للجهاد .

---

(١) المقاومة المركزة : هي التي يتخذ فيها المحاربون مكاناً معينـــاً يأوون إليه ، وتقيم فيه جماعة منهم تدير شؤونهم .

وإلى هنا انتهى الدور الأول من الجهاد الوطني في طرابلس ، وامتدّ نفوذ الطليان من سرت إلى حدود تونس ، ومن فزان إلى البحر الأبيض ، والدنيا دول . والله يؤتي ملكه من يشاء .

خاتمة الدور الأول :

كثير من الناس تلتوي عليهم طرق الحياة فيطلبون السعادة من طريق يخيّل إليهم أنها تؤدي إليها ، ولكنها لا تؤدي إلاّ إلى الشقاء ، ويسلكون إلى الرفعة طريق الضعة والخسّة ، فيسيرون إلى غاياتهم من طرق لا توصل إلاّ إلى نقيضها.

وهكذا كان شأن عبد النبي بن خير ، فقد استعمل حذقه ، وحصر تفكيره فيما يستميل به الطليان ويرضيهم عنه ، غير حاسب لشيء آخر حساباً كائناً ما كان ، ولو أدّى ذلك إلى القضاء على مواطنيه ونكبة الوطن .

ولو وفّق كل ذي حذق إلى استعمال مواهبه في سعادة وطنه ، لما وجد المستعمرون سبيلاً إلى أغراضهم . ولكن الحذق ما لم يصحبه علوّ النفس فهو شر على صاحبه من البله والغفلة .

وقد خيّل إلى عبد النبي أن استجابة الطليان لمطالبه في مثل تلك الظروف السيئة إخلاص منهم له ، ومكافأة لأعماله معهم التي تراءى له أنها في محل الرضا لديهم . وقد فاته أن المستعمرين يعتبرون هذه المساعدات منه ومن أمثاله دليلا على الخيانة والتهاون بالمصالح الوطنية لا تقابل عندهم إلاّ بعزّة النفس والوقوف من هؤلاء موقف السيد المعطي .

وقد دلّت التجارب على أن المستعمرين يعطون أمثال عبد النبي ويقرّبونهم ، لا للإحترام والمكافأة ، بل للتحقير والإهانة .

وأوّل ما يأخذونه من أمثال هؤلاء ضمائرهم وذممهم ، ثم لا يهمهم بعد ذلك ما فاتهم ، وهم يعتقدون أن صفقتهم رابحة ، وهو الحق الذي لا مراء فيه .

ولم يرضَ الطليان من عبد النبي برأيه ومشورته ، بل كلفوه بحرب مواطنيه فلم يسعه إلا الإجابة . وخرج محارباً في صفوفهم يستظلّ براية تحمل الصليب ، وأنصارها أنصار الصليب ، وسمحت له نفسه أن يوجّه رصاص بندقيته إلى صدور مواطنيه الذين يدافعون عن دينهم ووطنهم .

ومن يدري ماذا كان يختلج في نفس عبد النبي ، وهو يسدّد الضربة إلى مواطنيه ؟ ! . فهل كانت تؤنّبه من أجل هذا العمل المستكره ؟ ! . لا شك أن نفسه كانت تؤنّبه،ولكن سبق السيف العذل ، فقد باع نفسه لمن لا يتساهل في قتلها ، ولبئس ما شرى به نفسه .

وبعد احتلال فزان رجع عبد النبي إلى طرابلس يحمل بين كتفيه ذلك الرأس الذي فكّر في محاربة المسلمين ، وفي القضاء على الحركة الوطنية، وبقي مستشاراً للطليان فيما يبيّتونه من الكيد للوطن ، إلى أن كانت حملة القرضابية فخرج رئيساً على جيش أرفلة .

وكما يحفظ التاريخ للرجال حسناتهم ، كذلك يحصي عليهم سيئاتهم ، فهو الصديق الوفيّ ، والعدوّ الذي لا يرحم.وفي التاريخ عبرٌ لا يعقلها إلاّ العالمون.

ملحق

رحلة أولاد أبي سيف إلى سرت[1] :

لما كان السيد محمد بن عبدالله البوسيفي محاصراً في فزان وانتهت المقاومة في جميع أنحاء البلاد أصبح أولاد أبي سيف محاطين بالطليان من جميع الجهات ، ورأوا أن في بقائهم على هذا الوضع خطراً عليهم ، خصوصاً وأنه لم يبقَ لهم

(١) وقعت هذه الرحلة فيما بين إبريل وأكتوبر سنة ١٩١٤ ، وقد ذكرناها مرتبة حسبما رويناها عن الثقات الذين شاهدوها ، واجتمعوا بأعيان أولاد أبي سيف .

منفذ إلا إلى (سرت) .

ولما كان السيد محمد بن بشير يقيم فيها – وكان من وجهائهم وأصحاب الرأي فيهم – أرسلوا إليه يخبرونه بالأمر ليسعى لهم في مخرج من هذا المأزق ، فذهب إليهم في الوديان – حيث التقى بعبد النبي كما قدّمنا آنفاً – ليتفاوض معهم فيما يجب عمله في مرورهم إلى سرت ، ثم رجع إلى سرت للسعي في هـذا الأمر ، فرأى أن يوسّط لهم عمر بن المنتصر قائمقام سرت إذ ذاك ، وفاتحه في الأمر ، ورجاه أن يتوسّط لأولاد أبي سيف لدى الطليان ليسمحوا لهم بالمرور إلى جهة سرت للإقامة هناك على شروط :

١ – أن يبقوا بسلاحهم .
٢ – وأن تفتح لهم الأسواق للميرة وقضاء مصالحهم .
٣ – وألاّ يتعرّض لهم الطليان بسوء ولا يتعرّضون لهم .

فقبلت وساطته ، ووافق الطليان على ذلك .

فأرسل السيد محمد إلى أولاد أبي سيف بأن الأمر قد تمّ ،ووافق الطليان على دخولكم إلى (سرت) على الشروط الثلاثة ، فانتقلوا هم ، ومن معهم ، بقضّهم وقضيضهم إلى سرت ، وكانوا عدداً كبيراً ، وكانوا مسلحين ، ومعهم كثير من الإبل محملة بالسلاح .

وقد رأى الطليان في كثرتهم ما أوجس في نفوسهم خيفة منهم . وقد ترتّب على خوف الطليان من كثرة أولاد أبي سيف أن احتلوا النوفلية . ووقعت بينهم وبين المغاربة معركة كبيرة استشهد فيها الشيخ عبد الله الأطيوش رئيس المغاربة وجماعة كثيرة من أعيانهم . وبمجرّد وصول أولاد أبي سيف ذهبوا إلى سوق سرت فباعوا من حيواناتهم وأمتعتهم ما هم في غنى عنـــه ، واشتروا ما هم في حاجة إليه من الأثاث والمتاع ورجعوا إلى رحالهم .

وكان في أمل الطليان أنهم بمجرّد وصولهم يذهبون إليهم متهافتين ،

ولكنهم لم يفعلوا ، وأبت عليهم نفوسهم أن يتقدموا إليهم . وقد زاد هذا في مخاوفهم ، فطلبوا إلى عمر المنتصر أن يجمعهم برؤسائهم ،فرفضوا ،وأراد الطليان أن يخضعوهم من طريق القوة ، فخرجوا عليهم في جيش كبير فالتقوا بـــه في النوفلية وحاربوه حتى ارتدّ على أعقابه إلى سرت .

خـــبر :

في أواخر سنة ١٩١٤ أرسل محمد العابد السنوسي ـ وكان في واو ـ إلى عمر المنتصر كتاباً يرجوه فيه أن يتوسّط له لدى الطليان في إعانة . وقد أرسلوا إليه هدايا كثيرة مع الذي جاء بالجواب[١] .

وهذا أول خبر نرويه فيما يتعلق بمحمد العابد ، وله أخبار أُخرى سيأتي بعضها قريباً .

سيف النصر :

بعد أن فشل الطليان في استمالة أولاد أبي سيف من طريق عمر المنتصر ، وفي إخضاعهم من طريق القوة ، التجأوا إلى سيف النصر ـ وكان معتقلاً في زوارة ـ فأتوا به من منفاه ليتخذوه وسيطاً بينهم وبين العرب القـــاطنين في سرت وما وراءها ، ووعدوه بالقيام بكل ما يضمن راحة الناس . وقد انتهز هذه الفرصة لخروجه من الإعتقال . وجيء به هو وابنه أحمد إلى سرت ليقوم بمهمة الوسيط ، وخرج هو إلى زاوية العقر حيث يقيم المغاربة وأولاد أبي سيف وأخبرهم برغبة الطليان في تهدئة الحالة ،وبتعهدهم بكل ما يكفل لهم الراحة ، فلم يجد من الناس إلا إعراضاً ، وأخبروه بأنهم سيحاربون الطليان إلى النهاية . فاعتزم البقاء معهم ، ولم يعد إلى الطليان . ولحق به ابنه أحمـــد وانضمّ إلى المجاهدين . وكان له شأن محمود في واقعة القرضابية .

---

(١) الذي جاء بالجواب هو علي بن محمد الزادمة من أولاد سليمان .

الدور الثاني

مِن الجهاد الطرابلسي

حرب العصابات

مقدمة :

ابتدأ الدور الثاني بحرب العصابات . وذلك أنه باحتـــلال فزان انتهت المقاومة المركزة ، وانتشر الطليان في طول البلاد وعرضها ، وخيّل إليهم أن الأمر قد تم . فاتخذوا لهم مراكز للحكم في بني وليد ، ومزدة ، وسيناون . وغدامس، وبونجيم، والقريات ، وسرت. وكما كان بعض هذه المراكز الصحراوية مراكز للحكم ، كانت كلها مراكز للاتصال بين الشمال والجنوب ، وثكنات للجيش .

وكانت هذه النواحي لأولاد أبي سيف ، والمقارحة ، والزنتان ، وأرفلـّة وغيرهم . وقد سهـّل بُعد ما بين مراكز الطليان لهذه القبائل التجوّل والإتصال بعضهم ببعض في كثير من الطمأنينة ، كما سهّل عليهم الغزو على قوافل الطليان وقطع الطرق عليهم في كل مناسبة ، ومن هنا نشأت فكرة حرب العصابات .
وقد انضم كثير من القبائل التي ذكرناها إلى زاوية العقر [1] ليستندوا إلى

(١) يقال لها زاوية العقر ، وزاوية النوفلية . وهي زاوية للسنوسية بنيت في مكان شرقي سرت يقال له وادي العقر ، وفيه بئر يقال لها النوفلية ، والزاوية تنسب إلى كل منهما .

حركة الجهاد في برقة التي كان يقوم بها إذ ذاك السيد أحمد الشريف ، ولتكون برقة ملجأ لهم إذا اضطروا إلى الجلاء مرة أخرى ، كما أنهم يكوّنون بتقاربهم بعضهم من بعض كثرة يستفيدون منها في مناوأتهم الطليان . وقد كان هؤلاء المجاهدون في نقطة من الجنوب الشرقي من سرت تقع فيما بين النوفلية شمالاً ، وزلّة جنوباً ، ومرادة شرقاً .

وإنه ليبدو لمن لا يعرف جغرافية طرابلس ، أنه باحتلال فزان يستتبّ للطليان الأمر ويستولون على جميع طرابلس . ولكن لأدنى تأمل في الوضع الجغرافي ، وفي طبيعة سكان مناطق الجنوب يدرك أن النتيجة ستأتي عكسية لا محالة . ذلك أن الطليان باحتلالهم فزان وما دونها من الصحراء إلى أرفلّة انقطع قلب جيشهم عن مؤخرته ، وبعدت ميمنته عن ميسرته ، فأصبح قلبه في فزان ومؤخرته في طرابلس ، وميمنته في غدامس وميسرته في سرت . وصار موزعاً في محيط قطر دائرته من الشمال إلى الجنوب نحو ١٠٠٠ كم . يضاف إلى هذا قلة مراكز الإتصال وبُعد ما بينها ، وصعوبة الطرق التي لا تعدو أن تكون جبلية تارة ورملية أخرى ، ويضاف إليه كذلك أن سكان هذه المناطق كلهم من العرب الرحّل ، لا يحلو لهم المقام إلا حيث يسقط المطر وينبت الربيع ، وقد أصبحوا جميعاً مسلحين .

فجيشٌ هذه طبيعة الأرض التي يحتلها ، وهذه حياة السكان الذين يريد أن يخضعهم بالقوة ليس من مصلحته الإيغال في مثل هذه الصحارى دفعة واحدة ، فإن ذلك مما يعرضه لقطع مواصلاته ، والإغارة على مراكز تموينه وقوافل نقله ، كما حصل ذلك له بالفعل . فإن سكان البادية الذين انحازوا إلى زاوية العقر ألفوا عصابات مسلحة ، وركبوا إبلهم وخيلهم وصاروا يغيرون عليه في بونجيم ، ومزدة ، والقريات ، بل وفي غدامس وفزان ، فضلاً عن سرت ومصراتة وبني وليد وما جاورها .

وقد بذل الجيش الإيطالي آخر ما في وسعه للاحتفاظ بمراكزه ، والمحافظة

على طرق مواصلاته وتموينه في تلك الصحراء المترامية الأطراف ، ولكنه لم يستتب له الأمر في فزان إلا تسعة أشهر ، من يوم ٣ من مارس سنة ١٩١٤ وهو اليوم الذي استولوا فيه على مرزق عاصمة فزان ، الى يوم ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١١ وهو اليوم الذي سقطت فيه سبهة والقاهرة .

إعلان الحرب العامة :

وفي هذه المدة التي امتلك الطليان فيها فزان أُعلنت الحرب العامة في ٢ أغسطس سنة ١٩١٤ فكان إعلانها مما زاد في ارتباك الطليان وجعلهم ينظرون من خلال الحوادث الى ما ينتظرهم من جهود مضنية قد تشغلهم عن مواجهة الحوادث في طرابلس بما يجب لها من الاهتمام (١) .

وقد لاقى الجيش الإيطالي في هذه المدة صعوبات جمة فلم يقوَ على مقاومتها ، فخارت قواه واقتطعت أطرافه ، وانهار في تلك الصحراء فابتلعته وأصبح أثراً بعد عين .

واعترف الجنرال جرازياني في كتابه « نحو الفزان » بهذه الصعوبات، واعتبر بعد مراكز الطليان بعضها عن بعض ، وبقاء القبائل العربية مسلحة من أقوى الأسباب التي حالت دون استمرار سيطرة الطليان على القسم الجنوبي من طرابلس .

الغزو على الطليان

بعد أن اتسع الخرق على الطليان ، وفغرت الصحراء فاها لابتلاع جنودهم

---

(١) أعلنت إيطاليا انضمامها إلى الحلفاء في الحرب العالمية الأولى في أغسطس سنة ١٩١٥ . وأعلنت تركيا انضمامها إلى ألمانيا في سبتمبر سنة ١٩١٥ .

ووسائل نقلهم ومعدّات أسفارهم. وكلما وضعوا في جوانبها من جيوش ووسائل المواصلات وظنوا أنها امتلأت قالت هل من مزيد ؟ بعد هذا ركب المجاهدون إبلهم ؛ وضربت عصاباتهم في طول الصحراء وعرضها فجاءوا من الطليان بالأسلاب والغنائم ، وحالفهم النصر والسلامة في كثير من غزواتهم ، فشد هذا النصر عزائمهم ، وقوّى نفوسهم على مهاجمة الطليان في مراكزهم ، وأوقعوا بالطليان في غزواتهم عليهم ما سنسرد بعضه قريباً .

أهم الغزوات :

ومن أهم الغزوات التي قامت بها عصابات المجاهدين على الطليان في الفترة من مارس إلى نوفمبر سنة ١٩١٤ غزوة « الزيدن »[١] وقد غنموا فيها من الطليان خمسمائة جمل محملة أمتعة وبضائع مختلفة ، وقتل فيها كثير من الطليان .

وغزوة الفاتية »[٢] وقد قتل فيها كل من في الحملة ، وغنم فيها المجاهدون اثني عشر بغلاً محملة بنقود الذهب والفضة وأوراق البنكنوت الإيطالية . وكان الغزاة فيها ثمانين رجلاً من المقارحة وأولاد سليمان ، والمغاربة وأرفلّة ، وكان رئيس الغزاة أبا بكر الهليب من قبيلة العوامرة .

وغزوة « بونجيم » وكانت يوم الخميس ، وهو اليوم الذي وقعت فيه واقعة بوهادي الأولى ، أغار المجاهدون على قافلة للطليان ، واستاقوا منها نحو ثلاثمائة جمل ، وقتل كثير من الأحباش . وغزوة الشويرف .

وأول غزوة قامت بها عصابات المجاهدين على مراكز الطليان بعد أن قويت شوكتها هي غزوة القاهرة . فكانت فاتحة الدور الثاني من الجهاد في طرابلس .

---

(١) بئر في وادي (بي) في حدود سرت تبع القذاذفة .

(٢) بئر في وادي (بي) في أرض المقارحة واستشهد فيها الشيخ أحمد بن الحاج أبي القاسم التايب المحمودي .

غزوة القاهرة

في ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٤

القاهرة ربوة عالية في سَبهة ، وفي رأسها قصر قديم وفيه بئر ، ويقال إنها كانت في التاريخ القديم مقر ابن جهيم وابن المنتصر .

وسَبهة تتكون من ثلاث قرى : إحداها القاهرة ، وقد اتخذ الطليان منها حصناً بعد احتلال فزان للدفاع عن سبهة ، وأحاطوها بسياج من المدافع والأسلاك الشائكة حتى أصبحت جدّ منيعة ، واتخذوها مستودعاً حربياً ، وكان رئيس الغزاة عليها الشيخ سالم بن عبد النبي ،وكان مع السيد محمد بن عبدالله البوسيفي ، وبعد أن استُشهد السيد محمد بن عبد الله في واقعة المحروقة التجأ الشيخ سالم بن عبد النبي هو ومن معه من الزنتان إلى نواحي الرملة الغربية، وبقوا متنقلون هناك إلى أن سنحت لهم الفرصة وهاجموا القاهرة وطردوا منها الطليان وغنموا فيها أسلحة وأرزاقاً كثيرة . وقد صبّحوا في القاهرة يوم ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٤ . وكان يوماً أغرّ هبت فيه ريح النصر على جماعة من الطرابلسيين ، فاقتلعوا منها جذور الطليان، وكانت لهم فيها جولة ما زلنا نذكرها لهم بالفخر والإعجاب ، وكان محمد العابد السنوسي موجوداً في ناحية فزان ، فاتصل بالمجاهدين بواسطة المهدي السني ، وأخذ منهم بعض الغنائم .

ومن هذا الوقت ظهر محمد العابد في فزان ، والتحق به كلب السيد . وستأتي أخبارهم إن شاء الله .

أثر سقوط القاهرة :

كان لسقوط القاهرة أثر حميد في نفوس سكان المناطق الجنوبية . ورأوا في اقتراب إخوانهم منهم واستيلائهم على القاهرة مشجعاً على الثورة ، وسرى هذا

الخبر في جميع أنحاء فزان فثار كل من أمكنته الثورة ، وحاصروا مراكز الطليان . وابتدأ الدور الثاني من الجهاد يشق طريقه إلى أم الوطن وما حواليها لاستئناف حلقة ثانية كان سببها هذا النصر المؤزر الذي أحرزته تلك العصابة المباركة – عصابة سالم بن عبد النبي ومن معه – من بقية أنصار السيد محمد بن عبدالله البوسيفي ، عليه رحمة الله .

وقد التجأت هذه العصابة إلى الرملة ، وصارت مأوى لكل محبّ للجهاد حتى كثروا ، وكان لهم هذا الأثر المحمود . وهاجم المجاهدون سبهة في ٢٧ من نوفمبر سنة ١٩١٤ وتسوّروا قلعتها ، وأعملوا رصاص بنادقهم في الحامية الإيطالية فاضطرت إلى التسليم . وبذلك أصبح الطريق إلى فزان مأموناً .

الثورة :

بعد سقوط القاهرة سقطت أوباري ، واندلعت الثورة في فزان ، وأُحيط بالطليان في مراكزهم ، وعجزت القيادة الإيطالية عن إخمادها ، فلم يبقَ أمام الكولونيل إمياني – وهو القائد الأعلى للجيوش الإيطالية في الجنوب – إلا الإنسحاب . ولكن كيف يكون ذلك وبينه وبين محل النجاة نحو ألف كيلومتر؟ . ولكنه أولى من الاستسلام للموت ، ونجاة بعض الجيش خير من تعريضه للفناء كله .

وكان «إمياني» يقيم في مرزق عاصمة فزان ، فانسحب هو وبعض الضباط في يوم ١٠ من ديسمبر سنة ١٩١٤ « في ست سيارات » ، وحمل معه فيها ما خف حمله وغلا ثمنه ، والضباط والعساكر الأوروبيين وترك عساكر المستعمرات الذين بقوا محاصرين ١٦ يوماً ثم سلّموا أنفسهم للمجاهدين . وقد انضم الطليان الذين كانوا معه إلى سوكنة ليتقوّوا بإخوانهم هناك . ودخل هو الصحراء ناجياً بنفسه مع من معه لا يلوي على شيء تاركاً وراءه كل شيء ، حتى وصل مصراتة يوم ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩١٤ . وخرج الطليان من (غات) وتركوا كل ما فيها .

وخرجوا من الجفرة في ٢٧ من يناير سنة ١٩١٥ . وبخروجهم من الجفرة خلت الجهات الجنوبية كلها منهم ، وبقيت مراكزهم في سرت، وبونجيم ، وبني وليد، ومزدة ، وما دونها من المراكز الشمالية إلى طرابلس ، وبقوا كذلك في الجبل، ونالوت ، وسيناون ، وغدامس .

المجاهدون في سرت :

عقب انهزام (إمياني) من فزان في ديسمبر سنة ١٩١٤ نشطت الثورة، وبلغت أخبارها إلى برقة . وكانت الحرب قائمة فيها برياسة السيد أحمد الشريف . وبما أن أراضي سرت على حدود برقة عيّن السيد أحمد الشريف أخاه صفي الدين نائباً عنه لتنشيطها . وقد حضر أحمد التواتي وكيلاً عن صفي الدين فوجد فيها جماعات كثيره من أولاد أبي سيف وغيرهم . وانضم إليهم كثير من مصراتة وسكان السواحل ، وكانوا يغيرون على الطليان في مصراتة وأرفلة ، ويقلقون راحتهم ويقطعون عليهم السبل . وقد توسع المجاهدون في الإغارة فلم يفرّقوا بين الطليان وغيرهم ، فأصيب كثير من الناس في حيواناتهم، فضجّ الناس من هذه الحال وكثرت شكاياتهم ، وانضم كثير منهم إلى المجاهدين . فأدرك الطليان أن الخطر يستفحل شيئاً فشيئاً ، وأن الثورة تسرع إليهم بخطىً واسعة ، وعما قريب تقتحم عليهم حصونهم ، وقد شكى أرباب الحيوانات المنهوبة إلى رمضان فتقدم إلى الطليان ، ورفع إليهم شكايات هؤلاء الناس الذين أُغير على إبلهم تحت سمع الحكومة وبصرها . وأفهمهم أن أول واجب الحكومة أن تحمي السكان من هذه الإغارات وتعطيهم سلاحاً ليدافعوا به عن أنفسهم . وأظهر لهم استعداده للذهاب إلى المجاهدين في سرت لمفاوضتهم في ردّ الإبل ، ومعرفة ما يقصدون من وراء هذا الغزو ، وهل لهم مطالب يريدون أن يتقدموا بها إلى الحكومة أو لا ؟.

رد المنهوبات :

أذن الطليان لرمضان بالذهاب إلى سرت لمقابلة المجاهدين وطلب منهم أن

يعطوه سلاحاً هو ومن يريد الذهاب معه ، فأعطوه ، وذهب في نحو اربعين فارساً من مصراتة لمقابلة المجاهدين في سرت ومعه أخوه أحمد .

وكان الناس قبل أن ينشط المجاهدون في سرت ، وفي المدة التي ساد فيها الحكم الإيطالي ، سئموا معاشرة الطليان واشمأزت نفوسهم من أحكامهم ، ووجدوا من معاملتهم غير ذلك النوع الذي وعدوهم به ، وغير تلك السهولة التي كانوا يظهرونها قبل أن يتم لهم الأمر ، فلما رأوا أن رمضان السويحلي خرج إلى المجاهدين ليفاوضهم في رد الإبل قويَ أملهم في الثورة ، والتحق كثير منهم بالمجاهدين في سرت ، وتجرّأ كثير منهم على طلب السلاح من الطليان بحجة المحافظة على أموالهم من هؤلاء المغيرين ، فأعطوا القليل منهم ، وصاروا ينظرون إلى قرب يوم الخلاص بعين الأمل . وهكذا كان خروج رمضان إلى المجاهدين سبباً في تحمس الناس ضد الطليان وتهيئة نفوسهم للثورة .

وقد وصل رمضان السويحلي إلى المجاهدين في وادي « التلال » واجتمع بأحمد التواتي وهو إذ ذاك وكيل عن رئيس المجاهدين من قبل السنوسية وتذاكر معه في شأن الإبل المنهوبة ، وأفهمه أن ردّها يحدث لهم دعاية طيبة ويرغّب الناس في الإلتحاق بهم. وقد وجد رمضان أصدقاء له حبذوا فكرته ، وأقنعوا التواتي بصواب رأيه . وقد اقتنع التواتي وأمر بإحضار الموجود من الإبل وعدم التصرف في الغائب منها .

وقد أحسّ الطليان بعد سفر رمضان بنشاط في الناس غير عادي ، وبتزايد إلتحاق الناس بالمجاهدين ، فأدركوا أنهم أخطأوا في الإذن لرمضان بالذهاب إلى المجاهدين ، ولكن الأمر أصبح حقيقة واقعة ، فماذا يصنعون ؟.

وأكد لهم خطأهم أن الأخبار التي وصلت إليهم كلها مجمعة على أن الناس أصبحوا في حالة نفسية تنتظر الثورة في القريب العاجل ، فرأوا ــ علاجاً لخطئهم ــ أن يهاجموا المجاهدين في سرت ، فإذا وُفقوا في التغلب عليهم فقد

فضوا وطرهم وأمنوا هذا الجانب ، وإن كانت الثانية كان هذا الهجوم بمثابة اختبار قوة المجاهدين . وعجم عودهم ليعدّوا لهم القوة الكافية . فهاجموهم في قصر بوهادي بعد وصول رمضان إليهم بنحو ثلاثة أيام، فصمدوا لهم، واشترك في المعركة رمضان ومن معه ، ودامت نحو سبع ساعات ، ثم انجلت عن انتصار المجاهدين وارتداد الطليان إلى قصر سرت ، وغنم المجاهدون كثيراً من السلاح ومات وجرح بعض من كان مع رمضان ، وكان من بين الجرحى أخوه أحمد بك السويحلي .

وكان إشتراك رمضان في المعركة دليلاً عملياً على إخلاصه للمجاهدين ، وانتظار الفرص للإنضمام إليهم .

رأي رمضان في جماعة التواتي :

كان رمضان يخيّل إليه أن التواتي وجماعته على شيء من النظام وحسن الترتيب ، بحيث يكونون أساساً لإنشاء جيش تعتمد عليه ثورة تنتظم البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، ولما اتصل بهم ورأى ما هم عليه من النظام ، وما تمدّهم به رياستهم من الآراء ، وكيفية الاتصال بينهم وبين ما يسمونه رياسة؛ وجد الأمر على خلاف ما كان يؤمل ، فكان يعوزهم النظام ، والتوجيه الصالح لما يجب عمله لمصلحة الوطن ، وحسن النية فيما يقومون به من أعمال لا يقصد منها إلا الكسب الدنيوي ، ولم يمنعه هذا من إظهار شعوره معهم .

وكان يريد أن يطيل المقام معهم ليعرف من أمرهم أكثر مما عرفه في هذه المدة القصيرة، ولكن حصول المعركة فيوجوده خصوصاً ـ وقد جرح فيها أخوه أحمد بك ـ جعله يتعجل الرجوع إلى مصراتة خوفاً أن يعلم الطليان حضوره المعركة فينتقموا منه ومن أهله. وقد وعد جماعة التواتي باتخاذ ما يلزم لمساعدتهم وتسهيل انضمام الناس إليهم ، ورجع إلى مصراتة هو وبعض رفقائه ، ومعهم بعض الإبل التي ذهبوا لاستردادها وبقي بعض رفاقه في سرت مع المجاهدين ومنهم

أخوه أحمد لأنه كان جريحاً . وقد برّ بوعده وأمدّ جماعة التواتي ببعض ما كانوا في حاجة إليه .

وسبقه الخبر إلى مصراتة ، وعلمت الحكومة أنه حضر المعركة وحارب مع المجاهدين ، وأن أخاه أحمد جرح في المعركة .

ولما وصل إلى مصراتة سأله الطليان عن بقية رفقائه ، وبقية الإبل المنهوبة وحضوره المعركة ، فأجاب بأن رفقاءه تأخروا لجمع الإبل لأنها وزعت ، أما المعركة فلم يحضرها لأنها وقعت قبل وصوله . فسألوه عن المجاهدين فأخبرهم بأنهم كثيرون ، وأنهم هم الذين فازوا في المعركة ، وقد أصبح لديهم سلاح كثير .

وسواء اقتنع الطليان بجوابه أو لم يقتنعوا ، فإنهم لم يسيئوا إليه .

رفعت الحادثة من شأن رمضان ، واسترعت نظر الحكومة إليه بنوع خاص ، ووقعت عند مواطنيه موقع القبول والتقدير ، لأنها كانت وطنية في الصميم ؛ وكان الناس في حاجة إلى من يفتح لهم هذا الباب من الأعمال الوطنية .

ولم يكن رمضان قبل الآن من أرباب الوظائف أو المقرّبين من الحكومة ، وإنما كان معروفاً بين الناس بالإقدام والشجاعة ، مهاباً بين القوم ، محمي الجانب بما عرف عن أسرته من البأس وعزة النفس . وقد عرف فيه الطليان رجلاً من غير ذلك الطراز الذي يعتمد في حياته على التقرب من الحكومة لكسب الشهرة كيفما اتفق ، راضياً من العمل بالفخر بما للآباء والجدود من مكانة .

وقد أصبح الناس فيه فريقين : صديقاً مناصراً ، وقد وجد من اهتمام الحكومة بشأنه مشجعاً على التمسك بمناصرته ، وعدواً كارهاً أكل الحسد صدره وكلا الفريقين مشغول به من حيث يشعر أو لا يشعر .

ولا يسرّ الطليان أن يوجد في الطرابلسيين من تقفز به أعماله المجيدة إلى حيث لم يصل إليه من عرفوا بالتقدم منذ مئات السنين ، فالإستعمار لا يتفق مع وجود هذا النوع الذي يمثله رمضان السويحلي ، ويراه شوكة في طريقه يجب

خضدها . ولكنهم أكرهوا على مصانعته لأن موقفهم إذ ذاك كان مضطرباً . وقد كانت هذه الواقعة سبباً في اختياره في جيش القرضابية .

جيش لاحتلال فزان :

تخيّل «الكولونيل إمياني» أن هزيمته في فزان وضعت يده على محل النقص في سياستهم فاعتقد أن سببها الوحيد هو قلة الجيوش اللازمة لحفظ الأمن والمواصلات . والحقيقة أن هناك عاملاً آخر أقوى من هذا وألزم منه لامتلاك الصحراء ؛ وهو التأني وعدم الطفرة. وكانت الطفرة من أقوى أسباب انكسار جيشي القرضابية ومرسيط ، لأن إمياني أراد أن يصل بجيشه إلى فزان وسرت بدون أن يؤمن ما خلفه ، ويتخذ العدة اللازمة لتأمين السكان والحيلولة بينهم وبين الثورة والقائمين بها . فما وقع له بعد القرضابية هو ما وقع له في فزان وغيرها ؛ وإنما يزيد عليه بكثرة الجيوش التي كانت سبباً في فداحة النكبة .

وما كاد يستقرّ به المقام في طرابلس بعد مجيئه من فزان منهزماً حتى تقدم لحكومته بشروع حربي هائل ، يحتفظ فيه لنفسه بسلطة مطلقة تمكنه من اتخاذ ما يراه كفيلاً بنجاح هذا المشروع ، وقد شجعه على هذه الفكرة ما رآه من نشاط الروح المعنوية في الناس بعد سفر رمضان إلى سرت . ولم تجد حكومته بداً من إجابته لما طلب نظراً لما أصابها من الهزيمة المنكرة ، ولأنه رجل درس شؤون الصحراء أكثر من غيره ، وتلقى فيها دروساً عملية بتلك الهزيمة التي أصابته في فزان .

وكان من ضمن برنامجه أن يؤلف جيشين كبيرين يتوجه أحدهما إلى الجنوب على طريق غريان ومزدة والقريات ثم إلى فزان ، ويتوجه الثاني إلى سرت ومنها إلى الجفرة ، ويجند أكبر عدد ممكن من العرب في هذين الجيشين برياسة جماعة من رؤساء القبائل وأعيانهم ، علماً منه أنه لا يفلّ الحديد إلا الحديد ، وأبناء العرب أدرى بطبيعة بلادهم ، وأقدر على مقارعة بعضهم لبعض . وقد استشار

في هذا الراي كثيرا ممن لهم صلة بالحكومة الإيطالية ، كعبد النبي بن خير وغيره ، فحبذوه له ووافقوه عليه .

إستدعاء رمضان إلى طرابلس :

كان الطليان قد انتهوا إلى العزم على إعداد الجيشين اللذين تقدم ذكرهما ، وجاء دور التنفيذ وجمع رؤساء القبائل للذهاب معهما .

وقد حضر رمضان إلى طرابلس بناءً على دعوة من حكومتها ، وسألته عما جرى في ذهابه إلى سرت ، فأخبر بما أخبر به حكومة مصراتة .

وكان عبد النبي بن خير إذ ذاك مستشاراً للطليان في طرابلس ، فيقال إنه هو الذي أشار على الطليان باستدعاء رمضان لتكليفه برياسة قسم مصراتة بدلاً من غيره . وقد خيّره الطليان بين ثلاث : إما أن يعقد مع الثوار في سرت صلحاً يريح الطرفين ، وإما أن يحاربهم والحكومة مستعدة لتجهيزه بما يطلبه ، وإما أن ينفى إلى إيطاليا . وكل من الأمور الثلاثة صعب تحمله ، فنفس رمضان لا تسمح بمحاربة إخوانه ومواطنيه ، لأنه أمرٌ يحرمه الدين وتأباه الكرامة ، ولا تسمح أن يسلم نفسه للطليان من غير أن يحاول الإفلات منهم ، وقد اختار أن يقوم بدور الوسيط في الصلح بين المجاهدين والطليان ، فربما أتيحت له فرصة الخروج من هذا المأزق ، فاشترطوا عليه أن يذهب مع جيش الحكومة ، حتى إذا لم تنجح وساطته حاربهم مع بقية الجيش ، فأدرك رمضان لساعته أنها خدعة ، وأن فكرة الصلح إن هي إلا ستار اتخذوه لتنفيذ أغراضهم ، وأنهم مصممون على الحرب لا محالة .

على أن هذا التخيير الذي عرضوه على رمضان لم يعرضوه على بقية الرؤساء ، مما يدل على أنهم يقصدون إلى توريط رمضان لما أدركوه من ميله إلى جهة المجاهدين .

وكانت الفرصة سانحة للقبض على رمضان ، والتخلص منه ، ومما يتوقعون

له من مستقبل يعتقدون أنه في غير صالحهم . ولأمر ما لم ينتهزوا هذه الفرصة ، وكلفوا رمضان كما كلفوا غيره بالمشاركة في هذه الحملة .

وقد اعتبر جرازياني عدم القبض على رمضان ونفيه ضعفاً من الحكومة ، وعدم معرفة منها بحقائق الرجال وتقدير الأمور . وأن ما تركوا من أجله هذه الفرصة خيال لا يمكن تحقيقه ، وآمال لا يمكن الوصول إليها [1] .

وكانت فكرة ذهاب رمضان مع الجيش عقبة وضعت أمامه، إذ لولا وجود الجيش لكان مجال العمل أمامه أوسع ، ولو مانـــع في فكرة الجيش لتحققت مخاوف الطليان منه ، وحينذاك لا يتأخرون في القبض عليه ونفيه إلى حيث لا يعود . وقد أدرك رمضان هذا فرأى من الحكمة أن يختار مصاحبـة الجيش . ومن هنا ابتدأ تفكيره في الإنقضاض على الجيش الإيطالي إذا لم يوافق المجاهدون على الصلح .

إعداد الجيشين :

كان الناس عزلاً من السلاح،وكان الطليان في حاجة إلى جيش عظيم للوصول إلى فزان والجفرةعلى أن يكون قادراً على إبادة من يعترضه في طريقه منجماعات الثوار التي ما تزال تملأ الصحراء ، ولكنهم كانوا عاجزين عن تأليف هذا الجيش من أبناء جلدتهم، لأنهم في حاجة إليهم لتقوية جيوشهم في أوروبا للقيام بنصيبهم في الحرب العظمى ، لأنها ما تزال قائمة إذ ذاك . ومن ناحيـــة أخرى ، فربما انكسر الجيش فتكون خسارتهم في مواطنيهم فادحة . وسواء عليهم أنجحوا أم لم ينجحوا ، فإن الخسارة في كلتا الحالتين واقعة على الطرابلسيين. فعمدوا إلى

---

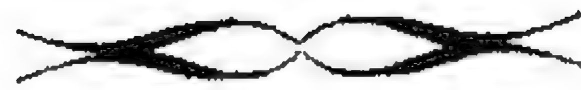
(١) ذكر هذا المعنى في ص ٢٨ من كتاب جرازياني (نحو الفزان) ولم يذكر العلة في عدم القبض على رمضان . ويظهر أنهم كانوا ينوون استعمال رمضان في محاربة المجاهدين ثم يقبضون عليه فيكونون قد ضربوا عصفورين بحجر ، وسواء وفقوا أو لم يوفقوا فإن ذلك سيكون سبة في سمعة رمضان بين مواطنيه ولكن الله أراد غير ذلك وكتب له النصر والفخر .

تجنيد الطرابلسيين ، وأجبروا كل قبيلة على إحضار عدد من الرجال برئاسة واحد من أعيانها ، وجعلوا معهم قسماً كبيراً من الأحباش والإيطاليين ، فكان الجيش مؤلفاً من هذه الأجناس الثلاثة . وكان الطرابلسيون مكرهين على هذا العمل ، ونفوسهم متذمّرة ، مما سهل على رمضان وأصحابه الإنقضاض على الطليان في القرضابية ، وأوقعوا بهم تلك الكارثة المشهورة . وقد جهّز الطليان هذا الجيش بالسلاح والمؤن وما يلزم لنقل أثقاله من الإبل والسيارات .

تقسيم الجيش :

قسّم الجيش إلى قسمين : قسم ذهب إلى جهة الجنوب قاصداً فزان على طريق غريان ومزدة والقريات وكان معه راسم كعبار . وبينما هو سائر في طريقه التقى بجماعة من المجاهدين في وادي مرسيط ، والتحموا معه في معركة حامية انتهت بانكساره ، وغنموا جميع ما معه من معدّات حربية ومتاع ، ونجا منه نفر قليل ومنهم راسم كعبار . وكان ذلك يوم الأربعاء ٢٢ من جمادى الأولى سنة ١٣٣٣ الموافق ٧ من إبريل سنة ١٩١٥ . وإلى هنا انتهى خبره وعفا أثره .

وذهب القسم الثاني إلى الجفرة ، على طريق سرت ، وهو جيش القرضابية ، وسيأتي خبره قريباً .



واقعة القرضابية[1]

١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٣٣

١٩ من إبريل سنة ١٩١٥

مقدماتها :

كانت واقعة القرضابية مبدأ لدور مهم وطني بحت ، وفاتحة عهد لسلسلة من الهزائم المريعة التي لحقت بالجيش الإيطالي ، تتصل حلقاتها بما تقدمها من الهزائم في طول البلاد وعرضها ، لاقى فيها الجيش الإيطالي من النكبات المروّعة شر ما لاقى جيش في العالم من الهزيمة والفناء .

وقد هيأت لها ظروف الوضع السياسي بأسباب كانت في أكثرها طبيعية ومعقولة . ذلك لأن وجود جماعة من المجاهدين في سرت يغيرون على المراكز الإيطالية في كل مكان وهم في إزدياد مطرد بمن ينضم إليهم من المتبرّمين بالحكم

(١) القرضابية: بئر تقع شرقي قصر سرت على مسافة قريبة منه، وقصر بوهادي أطلال لقصر قديم يسمى بهذا الاسم ، ويقع في الجنوب الغربي من قصر سرت. وبما أن الجيوش المتحاربة كانت تشغل المسافة التي بين القرضابية وقصر بوهادي وقت المعركة نسبت المعركة إلى كل منهما، وبما أن المعركة حمي وطيسها في القرضابية ،واستحر فيها القتل أكثر من ناحية بوهادي ؛ اشتهرت بنسبتها إلى القرضابية أكثر .

الإيطالي في كل يوم ، وهزيمة (إمياني) في فزان ، والفتك بالجيوش الإيطالية في الشويرف ، والفاتية ، وبونجيم ، وإقلاق سكان المراكز الإيطالية القريبة من السواحل ـ كل هذا يحتم على الطليان أن يقضوا على أسباب هذه الحركة قبل أن تشتد ، وأن يحافظوا على مراكزهم القريبة من السواحل لئلا تستفحل الثورة فتلتهم ما بقي من البلاد .

على أن الطليان لم ينسوا ما لحق بهم من العار من تلك الهزائم المنكرة ، التي لاقوها في فزان، فهم يودّون أن ينتقموا لأنفسهم من الطرابلسيين ، إذاً فلم يكن للطليان بدٌ من الإصطدام بالطرابلسيين ، في معركة فاصلة ، مثل واقعة القرضابية ، ليحققوا هذه الأغراض أو بعضها .

ولم يكن في حساب الطليان أن تُسرع إليهم الهزيمة في فزان بعد احتلالها بتسعة أشهر فقط، لأنهم أخطأوا التقدير فيما تقتضيه الصحراء من قوة هائلة لحفظ الأمن والمحافظة على طرق مواصلاتهم الطويلة الصعبة . فجاءت هزيمتهم في فزان نتيجة محتمة لجهلهم بسياسة الصحراء وسكانها ، ولأعمال الطفرة التي نشأت عن حبهم الاستعمار قبل أن يعدوا أنفسهم له .

جيش القرضابية :

هذا هو القسم الثاني من الجيش الكبير الذي أعدّه الطليان لغزو الجنوب . واسترداد فزان عن طريق سرت والجفرة . وكان مؤلفاً من أربعة عشر ألفاً . ولسوء نية الطليان بالعرب جعلوا المدفع والرشاشات في حوزة الطليان دائماً وتحت رعايتهم . وكان مع هذا الجيش من الرؤساء : الساعدي بن سلطان من ترهونة ، ورمضان السويحلي من مصراتة، ومحمود عزيز من ظليطن ومحمد القاضي من مسلاتة ، ومحمد بن مسعود من قماطة، وعمر العوراني من الساحل، وعبدالنبي ابن خير من أرفلّة . وكل واحد من هؤلاء رئيس على جماعة من قبيلته . واتفقوا على أن يجتمع الجيش كله على بنعيزار . وكان الرئيس الأعلى لهذا الجيش

الكولونيل إمياني .

أثر الجيش على النفوس :

وقد أحدث هذا الجيش رجّة عظيمة في البلاد، وأصبح الناس بين حزين لما يحل بإخوانه المجاهدين من هذا الجيش العظيم وهم في تلك القلة ، وبين شامت وهم الذين تربّوا على موائد الطليان ، وبين مؤمل خيراً وهم الذين يحسنون الظن بإخوانهم رؤساء الجيش، ولهم فيهم أمل أن يتداركوا الأمور بما يدفع الشر عن الوطن ويحفظ له كرامته .

اجتماع الجيش على بنعيزار :

اجتمع الجيش على بنعيزار في أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣٣٣ إبريل سنة ١٩١٥ ، ثم سار إلى وجهه يملأ الفضاء ، فلا يتوارى عن البصر فوج منه حتى يقع على فوج آخر ، وكانت تلك الصحراء ـ وهو يسير فيها ـ بحراً تتلاطم أمواجه بالبشر .

وقد تشاءم كثير ممن تربّوا على موائد الطليان بوجود رمضان السويحلي مع الجيش على رأس جماعة كبيرة من مصراتة ، لما يعرفونه من كراهته للطليان وحبه الثورة ، كما تفاءل أنصار الثورة بوجوده ، واعتقد كل من الفريقين وقوع الحرب لا محالة : هذا من طريق تفاؤله ، وذاك من طريق تشاؤمه، وكأن الله ألهمهم ما سيكون .

وقد تواترت الأخبار عمن لهم صلة برمضان بأنه كان يعتزم الانقلاب على الجيش الإيطالي إن لم يوافق المجاهدون على الصلح . وقد صرح رمضان بهذا للشيخ محمد بن حسن حينما قال له ـ والجيش على أهبة الخروج من مصراتة ـ كيف تحارب إخوانك المسلمين ؟ فقال له رمضان : أنا ذاهب لدعوتهم إلى الصلح ، فإن امتنعوا فسأنقلب معهم على الطليان . واعتزام رمضان الانقلاب على الطليان

لا يشك فيه إلا مكابر . وقد أكد لي هذه الحقيقة الحاج بعيّو بيت المال ، وهو من أعيان مصراتة ، وكان حاضراً في معركة القرضابية ، كما أكد لي أن رسل رمضان كانت تروح وتجيء بينه وبين التواتي ؛ وكيل صفي الدين للإتفاق على خطة ضد الطليان .

ولا نستبعد أن يكون باقي الرؤساء فكروا في هذا الانقلاب ، ولعل ما رأوه من كثرة جيش العدو منعهم من تنفيذ الفكرة .

وتخلف عبد النبي وجماعة أرفلّة من بنعيزار بحجة أنهم يخافون على أرفلّة من حمد – سيف النصر – .

وقد اتخذ رمضان لسيره ميمنة الجيش ، وكان الكولونيل إمياني يسير في القلب ، وبقية الجيش تسير في الميسرة والمؤخرة .

وكان حمد سيف النصر ، ينزل بالسدادة [1] على ثمد أبي خطوة ، وفي أثناء سير الجيش كتب إليه رمضان بأن يتجنب طريق الجيش ويقترح عليه أن يلتحق بالمجاهدين في سرت ، حتى إذا حصلت مذاكرة في الصلح كان معهم فأبى ، وبقي يطارح الجيش في طريقه من الناحية الغربية ، ويباغته كلما عنّت له الفرصة .

وبينما كان الجيش في طريقه إلى سرت ، كانت الرسل تروح وتغدو بين رمضان والمجاهدين للاتفاق على خطة بينهم . وآخر رسالة أرسل بها رمضان إلى المجاهدين في سرت رسالة حملها عمر أبو دبوس في عشرين فارساً ، وكانت تحتوي على رجاء المجاهدين في عقد صلح ولو مؤقتاً ، حتى يتمكن الناس من إخراج أهلهم من تحت الطليان ، ويدبروا من شؤونهم ما يمكنهم من اللحاق بهم ، فإن لم يمكن هذا فلا أقل من الابتعاد قليلاً من طريق الجيش حتى يصل بوهادي ، لأن خطتهم تقضي بالوصول إليه ، وقد يكون في هذا اقتناع لهم بأنهم نفذوا خطتهم

---

(١) قطعة من جبل حجري تقع على مدخل وادي نفد من ناحية الشمال والشرق .

وقد يتوغلون في الجنوب، وفي هذه الحال يمكن الإطباق على الجيش من كل ناحية وأخذه في الصحراء كما أخذ غيره من قبل . وهذا الشق الثاني من معنى الرسالة ، لا يترك شكاً في أن رمضان كان ينوي العمل مع المجاهدين ولمصلحتهم كيفما كانت النتيجة . وأكد عمر أبو دبوس لأحمد التواتي أن رمضان مصمم على الانتقاض على الطليان لا محالة ، ولكنه يريد أن تكون الفرصة مواتية للعمل المشترك ، فلما علم التواتي بهذا التصميم من رمضان صمم على عدم الانتقال .

وقد رأى رمضان من قوة جيش الطليان وكثرة عديده ما جعله قريباً من الاقتناع بأن المجاهدين لا قبل لهم به ، فكان يقترح هذه الحلول ليتمكنوا جميعاً من تدبير الخطة اللازمة للقضاء على هذا الجيش في كثرة من العدد وسعة من الوقت ولكن المجاهدين رفضوا كلا الإقتراحين ، وكانت هذه المكاتبات تجري سراً بين رمضان والمجاهدين في سرت لا يعلمها أحد إلا الكولونيل إمياني .

وصول الجيش إلى سرت :

لما رفض المجاهدون الصلح والانتقال من مكانهم وصمموا على الحرب مهما كلفهم الأمر ، بقي الوفد معهم ، ورجع الخبر إلى رمضان بما صمموا عليه ، وبعد أن وصل الجيش إلى سرت سأل الكولونيل إمياني رمضان عما تم في شأن الصلح ، فأخبره بأنهم رفضوا الصلح وصمموا على الحرب .

وكان إمياني يميل إلى الحرب لما يراه من كثرة جيشه وآلاته الحربية ، وقلة المجاهدين ، وجهل أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين . فأمر بترتيب الجيش وتهيئته للقتال ، فكان هو والطليان الحمر في مؤخرة القلب والأحباش في المقدمة ، ومصراتة ومن معهم في الميمنة وترهونة وبقية الجيش في الميسرة والمؤخرة . وركب إمياني سيارته ومعه رمضان والساعدي بن سلطان .

الهجــوم :

وفي صبيحة يوم الخميس ١٥ من جمادى الآخرة سنة ١٣٣٣ الموافق ٢٩ إبريل سنة ١٩١٥ صدر الأمر بالهجوم بعد أن رُتّب الجيش على النحو الذي ذكرنا ، وتوجه من سرت إلى حيث تلك الفئة القليلة من المجاهدين ، وقد انساب في تلك البسائط يغطي وجه الأرض سواده ، وثار نقعه إلى عنان السماء . وما هي إلا لحظات حتى التقت طلائعه بالمجاهدين ، فابتدروهم بالرصاص ، وتدفقت سيوله عليهم من كل جهة ، وفغرت المدافع أفواهها ترميهم بحممهـــا ، واختلط صوت البنادق بصوت المدافع ، وخلا الميدان من كل شيء إلا صوت الحديد والنار ، وحمي وطيس المعركة فاستشهد من المجاهدين لأول وهلة نحو ٤٠٠ شهيد ، واشتد الكرب على المسلمين ، ففرح إمياني بذلك وبرق السرور في عينيه . كل هـــذا وجماعة رمضان السويحلي لم يشتركوا في المعركة فلما رآهم إمياني على هذه الحال استفهم من رمضان على هذا الموقف فقال له : هم ينتظرون قدومي إليهم ، فأذن له فذهب إليهم ، وكان حمد سيف النصر قد أغار بخيله على ميمنة المقدمة فتوقفت قليلاً . وصادف مجيء رمضان وقت إغارة حمد سيف النصر فأمر من معه بإطلاق النار على الطليان فأطلقوها عليهم من الخلف فكانت بداية النهاية ، فحاص الجيش في بعضه حيصة الحمر ، ورجعت أولاه على أخراه ، واختلطت خيـــله برجله ، وارتكس بعضه في بعض طلباً للفرار ولا فرار ، وركب العرب أقفيتهم واشتدت الضربة على العدو ، وأنزل الله ساعة النصر ، فتمزق ذلك الجيش ولم ينجُ منه إلا ٥٠٠ جندي[1] ، ونجا الكولونيل إمياني إلى سرت مجروحاً مع من بقي من الجيش ، وبقي في مكان المعركة كل ما كان مع الجيش من معدات الحرب وعتادها : من إبل وخيل وبنادق ومدافع ورشاشات .

وكان أفظع ما يقـــع عليه نظر الإنسان تلك الأكوام من الجثث البشرية .

---

(١) ذكر هذا العدد الأمير شكيب في تعليقه على حاضر العالم الإسلامي ج٢ ص ١٥٠ .

وبمجرد وصول إمياني إلى سرت جرّد جميع العرب من الأسلحة وعقد مجلساً عسكرياً وحكم بالإعدام على كثير من السكان ومن أبناء العرب الذين التجأوا إلى سرت وفي مقدمتهم من الأعيان والرؤساء الحاج محمد القاضي من مسلاتة ، والحاج محمد بن مسعود من قماطة ، وحسونة بن سلطان ، وأبو بكر النعاس ، وأحمد بن عبد الرحمن من ترهونة ، وقتل من غيرهم نحو سبعمائة ، وأصدر أمراً بالقتل العام ، فصار الجند يقتلون الناس في الشوارع وعلى أبواب البيوت ، ويربطون العشرة والعشرين في حبل واحد ثم يقتلونهم ، ورمى كثير من الناس بأنفسهم في البحر فراراً من التمثيل بهم ، فكان منظراً مريعاً ، وبعثوا إلى روما نحو ألف أسير أكثرهم من السكان والحمالين الذين استأجروا جمالهم .

خيبة أمـــل :

كان الكولونيل إمياني في الذروة إذا عُدّ القواد الإيطاليون ، وفي مقدمة النابغين منهم في الفنون العسكرية .

وللمرة الثانية ينكسر الجيش الإيطـــالي بقيادته شر انكسار ، لو قيس بانكسار الجيوش التي هُزِمت في الحروب المشهورة في التاريخ لوجد في مقدمتها . وقد أراد أن يغسل ما لحقه من العار في انكسار جيشه الأول في فزان ، ولكنه .. بفشل أمرّ وخذلان أفظع .

وقد جاء هذا الخذلان المزدوج محققاً لما قاله الأمير شكيب أرسلان عن شجاعة الطليان :

« إذا ذكرت الشجاعة في الدنيا ، وأدلت كل أمة بحجتها في هذا الباب جاء الطليان يكدحون في أُخريات صفوف الأمم . وإن التاريخ لا يذكر لهم يوماً أغرّ في سود الوقائع بل يجدها مشحونة بهزائمهم » .

وهكذا تم النصر للطرابلسيين على الطليان في معركه من أكبر المعارك التي

وقعت في الحرب الطرابلسية .

وكان الفضل في الحصول على هذا النصر المؤزر لرمضان السويحلي وحده ولولا عزمه على الانقضاض على الجيش الإيطالي من أول ما فكر الطليـــان في تكوين هذا الجيش ، ولولا تنفيذ ما اعتزمه حين واتته الفرصة وتقدم جيش إمياني في طريقه لقضي على جميع المجاهدين الموجودين في سرت .

ومما لا شك فيه أن الوفد الذي أرسله رمضان السويحلي ومعه عمر بو دبوس إلى التواتي؛ قد أفهم التواتي أن رمضان ينوي الانقضاض على الطليان ، ولكنه ينتظر الفرصة . وكان مما أوصى به رمضان السويحلي أنه من الخـــير أن يتأخر التواتي قليلاً حتى يتمكن جيش إمياني في الجنوب ، وحينئذ يمكن الإطباق عليه من الجنوب بالمجاهدين الموجودين مع التواتي ومن الغرب بالمجاهدين الموجودين مع حمد سيف النصر ومن الشمال بالمجاهدين الموجودين مع رمضان السويحلي ولو نفَّذ التواتي هذا الرأي لكانت النكبة على الطليان أشد ولكن التواتي لما علم من عمر بو دبوس عزم رمضان على الانتقاض على الطليان ثبت في مكانه ، ولما علم رمضان بتصميم التواتي على الثبات نفذ ما اعتزمه ونزلت الهزيمة بالجيش الإيطالي وكانت أكبر هزيمة نزلت به في طرابلس وأن الذي يتتبع حركة هذا الجيش منذ أن فكر الطليان في جمعه إلى أن شتت الله شمله لا يشك في أن رمضان يعتزم ما نفذه منـــذ اللحظة الأولى . وان الذين يحاولون نسبة النصر الذي أحرزه الطرابلسيون في القرضابية إلى غير رمضان السويحلي، إما أنهم لم يفهموا الحقيقة ، وإما أنهم مغرضون لا يعترفون بالفضل لأهله ويريدون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ونعود فنقول : إن بطل القرضابية هو رمضان السويحلي ، ورمضان السويحلي وحده .

بعد انتهاء المعركة :

وبعد انتهاء المعركة طيّر خبرها باللاسلكي إلى مصراتة وأرفلـّة وترهونة ،

وكتم الطليان الخبر . وفي اليوم الثاني للمعركة بدت عليهم علامات الشدة والانتقام ففهم الناس أن المعركة انتهت في غير مصلحتهم .

وكانت معاملة الطليان لأهل مصراتة قاسية جداً ، فقد جمعوا الأعيان والوجهاء والنساء والأطفال في مكان واحد ، وحشروهم حشراً فظيعاً مريعاً ، لم يحترموا الكبير لسنّه ، ولا الصغير لضعفه ، ولا المرأة لهيبتها وجلالها ، وملاؤهم الأرض ، وغطاؤهم السماء ، وأحاطوهم بالأسلاك الشائكة ، وفرّ كثير من الناس ناجياً بنفسه تاركاً كل ما يملك. وكل من علم الطليان بخروجه من مصراتة حرقوا بيته وصادروا أملاكه .

وكان من بين المقبوض عليهم صديقنا الفاضل التهامي بك قليصة وحرمه وبعض أقاربه ، وأحمد بك السويحلي. وبقوا في مصراتة مدة وهم على هذه الحال المزرية ، ولا يزداد الطليان عليهم إلا قسوة .

ولما اشتد حصار المجاهدين على مصراتة ، وخاف الطليان أن يقتحموها عليهم أخذوا بعض هؤلاء المساجين إلى إيطاليا أسرى ومنهم صديقنا التهامي بك قليصة ،ونقلوا بعضهم إلى مدينة طرابلس مسجونين، ومنهم أحمد بك السويحلي، وبقي مسجوناً فيها أربع سنوات ونصفاً ، كما بقي أكثرهم في السجن والأسر نحو أربع سنوات حتى استبدلوا بأسرى إيطاليين في منتصف سنة ١٩١٩ .

رجوع رمضان إلى مصراتة :

لم يخفَ على رمضان أن الطليان سيعيثون في الناس قتلاً عقب وصول خبر انكسار الجيش مباشرة ، فأراد الرجوع إلى مصراتة ليعمل على إنقاذ أهلها من أيدي الإيطاليين . وبعد ستة أيام من انتهاء المعركة سافر إلى مصراتة ومعه جماعة من قومه مسلحين بما أخذوه من الغنائم ومعهم مدفع واحد ، وهو الذي سمح لهم به صفي الدين ، واحتفظ لنفسه بكل ما غنم في هذه المعركة الهائلة من عتاد حربي من مختلف أنواع الأسلحة وبمجرّد وصولهم إلى مصراتة شرعوا

في حصارها .

ولنترك رمضان السويحلي يحاصر مصراتة ونذهب إلى أرفلـّة لننظر ماذا جرى فيها .

في أرفلـّة :

وصل خبر المعركة إلى بني وليد مركز أرفلـّة في أول يوم بواسطة التلغراف ، وكان وقعه أليماً على نفوس الطليان ولكنهم كتموه . وأراد الحاكم الإيطالي أن يختبر عبد النبي بحيلة يستطلع بها ميوله نحو الطليان فدعاه إليه واجتمع به يوم الأحد ـ وهو اليوم الرابع للمعركة ـ وسأله عما يختاره أعيان أرفلـّة فيما لو فكرت الحكومة في الإنسحاب من بني وليد ، أينسحبون مع الحكومة ؟ أم يبقون في بني وليد وينضمون إلى المجاهدين ؟ وعرض مثل هذا الأمر في مثل تلك الظروف لا يخفى على عبد النبي ، فأدرك في الحال أن نتيجة معركة سرت في غير مصلحة الطليان ، فقال إن الأعيان لا يمكنهم البقاء هنا بعد الحكومة لأن علم الناس بميولهم للحكومة يجعل بقاءهم بعدها خطراً عليهم ، ولا يمكن لعبد النبي أن يجيب بغير ذلك لأنه في قبضة الطليان ، والجند محيطون به من كل ناحية . ثم قال عبد الغني : فإذا فكرت الحكومة فيما تقول فعليها أن تأتي بسيارات لنقل عائلات الأعيان إلى طرابلس . فقال الحاكم الإيطالي : إذاً سنفكر في الموضوع وغداً نعرفك ، وانصرف عبد النبي راجعاً إلى بيته . وقد ظهر للطليان أن يقبضوا عليه فأرسلوا في إثره فلم يجدوه في بيته فأخذوا ما فيه وأحرقوه . وخرج من بني وليد كل من أمكنه الخروج . وفي اليوم الخامس لمعركة القرضابية خرج الطليان في قوة كبيرة لمطاردة المجاهدين فاعترضوهم ، فرجعوا منهزمين إلى قصر الحكومة وتحصنوا فيه ، وأحاطوه بالأسوار والخنادق ووضعوا عليها المدافع .

وفي أثناء هذا الحصار حضر الشيخ سوف ومعه جماعة من المجاهدين ، واشترك

في الحصار نحو أسبوع ثم ذهب إلى غريان لمحاصرتها . وبعد نحو شهر من ابتداء الحصار جاء حمد سيف النصر نائباً عن صفي الدين ومعه جماعة من الذين حضروا القرضابية ونزلوا في مدينة ابن تلّيس في الجهة الشرقية من المكان المحاصر واشتركوا في حصار الطليان .

طلب الهدنة من العرب :

طال حصار الطليان في أرفلة نحو خمسين يوماً ، وضيّق عليهم المجاهدون الخناق ، ولم ينقطع طول هذه المدة إطلاق الرصاص والمدافع من الطرفين . وفي أثناء مدة الحصار أرسلت حكومة طرابلس إلى هؤلاء المحصورين بأن الحكومة لا يمكنها إمدادهم بشيء فعليهم أن يدبّروا أمرهم . وقد قارب النفاد ما عندهم من الأرزاق والعتاد الحربي فلم يسعهم - إزاء هذه الظروف السيئة - إلا أن يطلبوا هدنة من العرب ، فأرسلوا سالم قرحي - وكان ممن انحاز معهم في الحصار - إلى عبد النبي وحمد سيف النصر للتفاهم معهما في كف إطلاق النار لعمل هدنة ، فوافق كل منهما ، وعيّن الزمان والمكان . وانتخب العرب لمفاوضة الطليان أربعة : السيد محمد العيساوي بوخنجر [1] ، وعثمان بن خليفة السكبي ، ومفتاح التايب الحصني وسالم الأصيبعي . وجاء من الطليان ثمانية ضباط ، واجتمع الكل بقرب قصر الحكومة من ناحية قرية الصرّارة ، فعرض العرب على الطليان أن

---

(١) السيد محمد العيساوي بوخنجر من أعيان أرفلة ووجهائها ، عربي في الصميم ، وشريف ينتمي لآل محمد . نابغة النسابين في طرابلس والعالمين بأيام العرب فيها . يقص عليك من أنباء ما تسأله عنه فكأنك تشاهد ما يقصه عليك ويروي لك من أخبار طرابلس وقبائلها ما لا تجده في غير ذاكرته .

تثقف في المدارس التركية في طرابلس ، وتولى من وظائف الحكومة ما هيأته له ثقافته . قوي الذاكرة ، حاضر البديهة ، أديب بطبعه وروحه .

ساير الجهاد الطرابلسي منذ نشأته الأولى . وكان عضواً في مؤتمر غريان وهاجر إلى مصر مع المهاجرين سنة ١٩٢٤ وسعى فيها للقضية مع الساعين . ورجع إلى طرابلس حوالي سنة ١٩٤٥ وعمره يناهز السبعين سنة .

يسلموا أنفسهم وما معهم من السلاح والحيوانات والأرزاق ، ولهم عهد الأمان على أنفسهم وعدم التعرّض لحياتهم ، وضمــان راحتهم حتى يفصل في الحرب . وعرض الطليان أن يتركوا وشأنهم بما معهم من الأرزاق والحيوانات والسلاح ليلتحقوا بمدينة طرابلس ، وهددوا بأنهم إذا تعرّض لهم أحد جعلوا من معهم من العرب في المقدمة ليكونوا عرضة للرصاص ، فلم يقبل العرب ذلك وأصروا على رأيهم ، فوعد الطليان بإعطاء النتيجة في اليوم الثاني . واجتمع المتفاوضون في اليوم الثاني ، ورضي الطليان بالتسليم على ما اشترط العرب . واجتمعوا في اليوم الثالث على أن يتم التسليم . وكان مع الطليان جماعة من العرب أبوا أن يسلموا أنفسهم وخرجوا بسلاحهم ولكنهم أذعنوا آخر الأمر ، ومن الأسف أنه حصل خلاف بين المجاهدين على الجهة التي تتسلمهم ، فحمد سيف النصر يريد أن يتسلمهم لأنه نائب عن صفي الدين الذي يدعي لنفسه صفة الحاكمية . وعبد النبي يريد أن يتسلمهم لأنه رئيس أرفلّة والحادث في بلده فلا يصحّ أن يتولاه غيره، وأيضاً فهو لا يعترف بحكومة صفي الدين. وكان مع بعض هؤلاء الأسرى نساؤهم ، فاستاءوا من هــذا الموقف الذي هم فيه كالخراف المعروضة للبيع وأطلقوا النار على المتخاصمين عليهم ، واشتبك الفريقان في معركه أسفرت عن نحو ألف قتيل وأسر الباقون. أما الطليان الأصليون فلم يشتركوا في هذه المعركة وُخيِّر من بقي من الأسرى بين البقاء مع المجاهدين أو رجوعهم إلى بلادهم فاختار أكثرهم الرجوع إلى بلادهم وكانت هذه المعركة في يونيه سنة ١٩١٥ .

استسلام حامية أرفلّة :

ودامت المفاوضات بين العرب والطليان فيما بين ١٥ و ٢٠ من يونيه سنة ١٩١٥، وانتهت بتسليم الطليان أنفسهم للعرب على ما اشترطوه لهم، وانتهت المقاومة في أرفلّة بعد حصار دام نحو خمسين يوماً . وكان الجيش الإيطالي فيها يقارب ألفين وخمسمائة ، منهم ٧٣٠ إيطالياً بين ضابط وجندي ، ونحو مائتي حبشي .

وسلم الطليان جميع ما معهم من السلاح بعد أن أفسدوا الكثير منه. وسلموا

أربعة مدافع وأربعة رشاشات ، وخمسين بغلاً ، وثمان سيارات كبيرة ، وخمسين ألف فرنك من النقود ، وتركوا لهم ما عندهم من الأرزاق والمأكولات . وبقوا في أمان ؛ وكان من بين الأسرى مع الطليان زكي أمقيق [1] .

صفي الدين في أرفلّة :

جاء صفي الدين إلى أرفلّة بعد أن سلّم الطليان أنفسهم في يوليه سنة ١٩١٥ ، وكان يرى لنفسه صفة الحاكمية ، لذلك يحاول أتباعه دائماً أن يستولوا على جميع الغنائم التي يتركها الطليان في البلدان التي يجليهم أهلها عنها ، ولو لم يحضروها .

وفي أثناء محاصرة الطليان في أرفلّة استولوا على كثير من أموال التجار وبضائعهم ، فأخذها أنصار صفي الدين باعتبار أنها غنائم ، فاستاء المجاهدون لذلك . واتهم عبد النبي بتدبير الحركة ، فحاول حمد سيف النصر أن يقبض عليه فلم يقدر ، فأمر بضرب بيته بالمدافع فضرب .

وفي هذه الأثناء جاءت الأخبار بأن رمضان السويحلي أجـــلى الطليان عن مصراتة ، وأخذ كل ما كان عند الطليان من سلاح ومتاع . فذهب صفي الدين إليها ليستولي على هذه الغنائم .

وقد ذهب عبد النبي إلى مصراتة ليشكو إلى صفي الدين اضطهاد حمد سيف النصر له ، فوجد الدور الذي مثّل في أرفلة يمثل في مصراتة ، فرجع إلى أرفلة وسنفصّل ذلك قريباً .

---

(١) زكي أمقيق من قول أوغلية الزاوية ، وتخرج في المدارس التركية برتبة ضابط . وكان من المجاهدين المخلصين في بداية أمره ، ثم انضم إلى الطليان سنة ١٩١٣ في المدة التي وصلوا فيها إلى فزان ، ثم انضم إلى القائمين بالحركة الوطنية في سنتي ١٩١٨ ، ١٩١٩ . واعتبر الطليان هذا الانضمام مخالفاً لرغبتهم فحفظوها له . ولما تغلبوا في سنة ١٩٢٢ حاول أن يحسن علاقته بهم بالانضمام اليهم فلم يفلح ، وشنقوه سنة ١٩٢٢ .

وبقي اسرى الطليان في أرفلة مدة طويلة لاقوا فيها صعوبات كثيرة من الجوع والعرى إلى أن نقلوهم إلى مصراتة في أواخر سنة ١٩١٧ واستخدموهم هم وأسرى مصراتة في مختلف الصنائع ، وبقوا فيها منعمين إلى أن سلموهم إلى الطليان جميعاً بعد صلح بنيادم .

سقوط مزدة :

كانت الحامية الإيطالية الموجودة في مزدة تستند إلى القوة الموجودة في أرفلة من جهة الشرق ، فلما سقطت أرفلة أصبحت عرضة للخطر من جهة الشرق والجنوب ، فاضطرت إلى الانسحاب منها في يونيه سنة ١٩١٥ .

في ترهونة :

تسرّبت أخبار الهزيمة الفادحة التي حلت بالجيش الإيطالي في القرضابية إلى البُوَيْرات[1] مركز ترهونة كما تسربت إلى مصراتة وأرفلة . وقد أرسل حاكم ترهونة القبطان «موريتي» إلى الشيخ عبد الصمد النعاس والصغيّر المريّض ـ من أعيان ترهونة ـ فلما جاءا إليه أخبرهما أن الجيش الذي ذهب إلى سرت انكسر في القرضابية ، بسبب خيانة العرب للحكومة ، وقد غدروا بالجيش وضربوه من الخلف فانهزم شر هزيمة ، واحتفظ بهم رهينة عنده خوف إنتقاض ترهونة على من فيها من الطليان ، واحتال جماعة الصغيّر المريّض لإخراجه وجاءوا بدله بابنه عبد السلام ، وبقي هو والشيخ عبد الصمد النعاس تحت يد الطليان .

وأدرك الطليان ما في نفوس العرب من الغدر ، فجاءوا بأربعة آلاف جندي إلى ترهونة ليقوّوا مركزهم فيها ، وكان فيها قبل ذلك ٥٠٠ جندي فأصبح فيها ٤٥٠٠ جندي ، ثم وصلت أخبار أخرى بأن الطليان انتقموا من العرب

(١) جمع بئر مصغرة : مكان في ترهونة عرف بهذا الاسم .

الذين معهم من المكـّارين أصحاب الإبل وغيرهم بعد انتهاء المعركة وقتلوهم في سرت شر قتلة ، وقتلوا من أعيان ترهونة : حسونة بن سلطان ، وأبا بكر النعاس ، وأحمد بن عبد الرحمن ، فاشتد حنق الناس على الطليان وبيّتوا لهم الشر ، وصاروا يتربصون بهم . وأحس الناس بقرب الثورة فأخذوا يبتعدون عن مراكز الحكومة .

بدء الثورة :

وفي ذات يوم كان جماعة من ترهونة يسوقون أغنامهم إلى حيث تكون في مأمن فيما لو حصلت حرب مع الطليان ، فرآهم الكربنير [1] فأرادوا إرجاعهم فأبوا ، فأطلقوا عليهم الرصاص فقابلوهم بالمثل وقتل خمسة من الكربنير ، وتسامع الناس وقامت ترهونة قومة رجل واحد ، وحاصروا البويرات ـ وهي مركز الحكومة إذ ذاك ـ وكان يوجد فيها ٤٥٠٠ جندي إيطالي .

وفي الوقت الذي ابتدأت فيه الثورة في ترهونة كانت أرفلة في حالة ثورة ومحاصرة لما فيها من الطليان . وكان رمضـــان السويحلي يحاصر مصراتة . إذاً فالقسم الشرقي كله من البلاد في حالة ثورة على الطليان .

وكان الطليان يستندون في دفاعهم عن ترهونة على العزيزية لأنها حصن منيع وقريبة من المدينة . وقد فكر الطليـــان في إنقاذ المحصورين في ترهونة ، فاتفقوا معهم ـ على طريق الإشارة الضوئية ـ على أنه ستخرج لنجدتهم قوة من العزيزية على طريق بوعرقوب ، وقوة من مسلاتة على طريق الداوون ، وعلى أن يكون خروج القوّتين في يوم الخميس ١٧ من يونيه سنة ١٩١٥ .

---

(١) البوليس الايطالي .

واقعة بوعرقوب وواقعة المسيد

يوم الخميس ٤ من شعبان ١٣٣٣ — ١٧ من يونيه سنة ١٩١٥

أراد الله أن يصدق على الطليان قوله تعالى : « وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مردّ له » فأخطأوا فهم اليوم المتفق عليه : ففهم المحاصرون في ترهونة انه يوم الجمعة فلم يخرجوا يوم الخميس ، وفهمت القوة التي في العزيزية ومسلاتة أنه يوم الخميس فخرجت بخيلها ورجلها تجرّ من آلات الحديد والنار ما أمكنها أن تحمله. وقد تصدى للقوة التي خرجت من مسلاتة جماعة ترهونة الشرقيين فردوها على أعقابها . ويقال لهذه الواقعة « واقعة المسيد » لأنها وقعت في مكان يقال له وادي المسيد .

والتقت القوة التي خرجت من العزيزية بمجاهدي النواحي الأربعة وترهونة الغربيين من الدراهيب وغيرهم برياسة المبروك المنتصر ، وحصلت بينهم معركة من كبريات المعارك التي حصلت في طرابلس فَنِيَ فيها الجيش الإيطالي عن آخره ، وحاول جماعة من الضباط الهرب في سيارة فلحق بهم سبعة فرسان من الدراهيب فقتلوهم ، وقتل اثنان من الفرسان السبعة .

وواقعة بوعرقوب هذه من الوقائع المشهورة في الحرب الطرابلسية ، التي تُعد مثيلاتها على الأصابع ، وكان الفضل فيها للنواحي الأربعة وترهونة ، وغنم فيها المجاهدون من السلاح والعتاد الحربي شيئاً لا يحصى . ودامت المعركة من

الصباح إلى العصر ، وبعد انتهائهـــا انصرف المجاهدون لشأنهم ودفن شهدائهم وتضميد جراح المجروحين منهم .

واقعـــة ترهونة

يوم الجمعة ٥ من شعبان سنة ١٣٣٣ – ١٨ من يونيه سنة ١٩١٥

وجاء دور الطليان المحاصرين في البويرات ، فخرجوا مبكرين في صبيحة يوم الجمعة على اعتبار أنه اليوم المتفق عليه ، بعد حصار طويل دام نحو أربعين يوماً ، نفد فيه زادهم ، وأكلوا أكثر ما معهم من البغال والخيل ، وأخرجوا معهم الشيخ عبد الصمد النعاس وعبد السلام المريّض ؛ وهم كالجراد المنتشر في طريقهم إلى العزيزية فأحاط بهم المجاهدون في وادي الشقيقة [1] ، واشتبكوا معهم في معركة حامية .

واعترضهم الشيخ المبروك المنتصر ومن معه من المجاهدين من الأمام في دفع وادي مِلـّغة ، وأصبحوا محصورين من كل جهة ، ولم يأت الظهر حتى قضي على جميع المشاة بين قتيل وأسير . وبقي الفرسان ومعهم الكبتن موريتي وعبد السلام المريض والشيخ عبد الصمد النعاس ، فجرح حصان عبد السلام المريض فوقع به ، وألهتهم عنه الحرب فنجا من شرّهم ، وهرب الشيخ عبد الصمد على جواده فأنجاه الله ، وقضي على بقية الجيش من الفرسان ، ولم ينج منه إلا الكبتن موريتي في قليل من الخيل نحو العشرة ، فوصلوا العزيزية بعد أن جثم الموت على صدورهم مراراً .

وقد قضت فئة من الطرابلسيين على جيشين عظيمين في يومين متتابعـين ، فكان نصراً باهراً للطرابلسيين ، وهزيمة منكرة للطليان .

---

(١) من أراضي ترهونة شرقي وادي ملغة .

وقد أخذ المجاهدون يوم الجمعة كل ما في البوبرات من معدّات الحرب وآلاتها ، كما أخذوا يوم الخميس كل مخلفات الجيش الذي انكسر في بوعرقوب والمسيد ، وكثر السلاح ونشط الناس لملاقاة الطليان . وكان اختلاف الجيشين في تعيين اليوم المحدد للخروج سبباً لانكسارهما ، ومصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءً فلا مردّ له ﴾ .

* * *

كانت واقعتا بوعرقوب والبوبرات من الوقائع المشهورة في الحرب الطرابلسية التي برز فيها الطرابلسيون في ميدان الجهاد والفتك بالعدو . وكانت نتيجة لانكسار جيش الطليان في القرضابية . وكان بينها وبين القرضابية ٤٨ يوماً، ومما دهش له الطليان أن تنتقل الثورة في هذه المدة القصيرة من سرت إلى بوعرقوب على أبواب مدينة طرابلس . وأيقنوا أن إخمادها غير ممكن فأصدروا أوامرهم بسحب جيوشهم من المراكز التي ما زالوا فيها .



FHIT-U

براكة ابن غشير (١)

لم يطل المقام بالمجاهدين بعد واقعتي بوعرقوب والبويرات حتى استعدوا للهجوم على حصن آخر من أهم الحصون التي يعتمد عليها الطليان وهو « براكة ابن غشّير » وكانت هذه البراكة مقامة على قطعـــة من الأرض متسعة جداً ، وكانت تناوح العزيزية من الناحية الشمالية اتخذها الطليان مركزاً للجيش وحصناً يحمون به العزيزية، فعسكروا حواليها يوم ٤ من رمضان سنة ١٣٣٣ الموافق ١٦ من يوليه سنة ١٩١٥ وكانوا غنموا مدفعاً في معركة بوعرقوب فنصبوه على « هنشير بنت خلف » لضرب البراكة . وفي يوم ٢٠ منه الموافق أول أغسطس سنة ١٩١٥ أحاطوا بها وأطلقوا عليها مدفعهم فأصابها إصابات محكمة، وضيّقوا على من فيها ودافعوا دفاع اليائس وكانوا نحو ١٥٠٠ ، وجاءتهم نجدة من سواني بنيادم فردّها المجاهدون واستولوا على البراكة يوم ٢٦ من رمضان سنة ١٣٣٣ ، الموافق ٧ من أغسطس ١٩١٥ بعد أن هرب من بقي فيها حياً تحت جنح الظلام إلى زنزور ، وأخذ المجاهدون ما فيها من سلاح وأرزاق وملابس .

---

(١) البراكة : كلمة إيطالية معناها بيت من الخشب ، وكانت هذه البراكة كبيرة جداً اتخذها الطليان ثكنة للجيش ، وأحاطوها بسور من التراب ومن ورائه الأسلاك الشائكة . ويحيط بها من الشرق والغرب والجنوب سهل من الأرض نحو كيلومتر من كل ناحية ، فكل من رئي في هذه المسافة رمي بالرصاص .

سوف يعود إلى الجهاد :



محمد بك سوف المحمودي

محمد سوف بك المحمودي

هو ابن الحاج محمد اللافي المحمودي ، وحفيد الشيخ غومة بن خليفة من قبيلة المحاميد المشهورة في طرابلس الغرب .

ولد رحمه الله في وادي سوف بأرض الجزائر سنة ١٢٧٤هـ أثناء هجرة جده الشيخ غومة حينما كان ثائراً على الحكومة التركية لجور الحكام وفساد النظام ؛ وهي السنة التي توفي فيها جده الشيخ غومة . ولقّب « سوف » لأنه ولد في وادي سوف .

تربى في بيت العز والفروسية والكرم ،فكان عزيز الجانب ، فارساً مغواراً ، كريماً إلى أبعد حدود الكرم .

عرفته البيداء ؛ والليل والخيل ، وألفته معامع الحروب وميادين القتال ، فكانت له فيها جولات حفظها له التاريخ في صحائف من عرفوا في العرب بالبطولة .

حارب الطليان من أكتوبر سنة ١٩١١ إلى مارس سنة ١٩١٣ ، ثم هاجر إلى الشام سنة ١٩١٣. وفي مارس سنة ١٩١٤ رجع إلى طرابلس لمحاربة الطليان مرة ثانية . وكان له في هذا الدور من الأثر ما يجده القارىء مذكوراً في مواضعه من هذا الكتاب .

وكان عصمة الأرامل ومأوى اليتامى والمعوزين ، سمـــح النفس ، كريم الأخلاق ، وسيم الطلعة ، متواضعاً حتى ينسيك أن هذا هو الرجل الذي تهاب الشجعان منازلته ، عليه من جلال الهيبة ومهابة الرجولة ما يحببه إليك وتأنس به نفسك .

وكان خصب الخيال ، قوي الذاكرة ، ومن نوابغ شعراء البادية وأفصحهم، يعطي إعطاء من لا يخاف الفقر ، ولا يبقي في بيته شيئــاً وفي جواره معوز . يقدّر العلم والعلماء ، ويعرف الفضل لأهل الفضل .

ولا أتحدث عما له في رياسة الجيوش والإدارة ، فقد ذكرناه في مناسباته مفصلاً في هذا الكتاب . ولما تغلب الطليان في سنة ١٩٢٢ هاجر إلى مصر سنة ١٩٢٤ ، وبقي فيها مرموقاً بعين الإجلال من سادات العرب وكبرائهم .

وقد كان الأجل يدفع عنه الموت في جميـــع ما حضر من زحوف الحرب ومعامعها . ولا يوجد في جسمه موضع شبر إلا وفيه أثر ضربة بسيف أو جرح رصاصـــة .

ولما بلغ الكتاب أجله حضرته الوفاة وهو على سريره يوم ١٥ يوليه سنة ١٩٣٠ بقرية المتراس بجوار مدينة الإسكندرية ، ودفن بها رحمه الله وشكر له .

* * *

وقفنا في أخبار «سوف» في الدور الأول من الحرب الطرابلسية عند انتهاء أخباره بهجرته إلى حلب . ولكن لم يستقر به المقام في حلب حتى قامت الحرب العالمية في ٢ أغسطس سنة ١٩١٤ وكانت حكومة الآستانة قد انضمت إلى ألمانيا ، فرأت في قيام الحرب فرصة لتجديد الثورة على الطليان في طرابلس ، وتغذيتها بكل ما يمكن. وقد رأت أن تمدّها بأكبر بطل من أبطالها وهو الشيخ محمد سوف بك المحمودي ، فاستدعته من حلب إلى الآستانة ، وعرضت عليه

الذهاب إلى طرابلس للتحريض على الثورة فقبل . وزودته بما يحتاج إليه من الأوامر والتعليمات ، وأرفقت معه خليفة الدعيك – الذي عرف أخيراً بخليفة الزاوي – ومحمد فريشك وهما من الضباط الوطنيين من الزاوية الذين تخرجوا في مدارس الحكومة التركية . وتوجه من حلب إلى طرابلس على طريق الإسكندرية ، وكان الإنجليز إذ ذاك حلفاء لإيطاليا فاهتموا لأمره ، وحاولوا القبض عليه هو ومن معه بكل وسيلة، ولكن الله سلمه ، وفشل كل ما اتخذوه من الوسائل للقبض عليه . وقد كلف « انجرام » الإنجليزي علي بن عبد العظيم الأرفلي وغيثا الصايغ من سكان عزبة باشا بالإسكندرية بالقبض عليه ووعدهما بإعطاء ٥٠٠ جنيه ذهباً . ولكنهما لم يتعرضا له وأنكرا وجوده .

ومر سوف ببرقة وكان فيها السيد أحمد الشريف واجتمع به ولم ندر ما دار بينهما من الحديث . وكان السيد أحمد إذ ذاك يحمل لقب « نائب السلطان » فأعطى محمد بك سوف رتبة « وكيل والٍ » ووجد الشيخ سوف كثيراً من أهل طرابلس مهاجرين ببرقة فأخذهم معه وسافروا جميعاً إلى جهة طرابلس .

ووصل سوف إلى سرت في جمادى الأولى سنة ١٣٣٣ الموافق مارس سنة ١٩١٥ قبيل واقعة القرضابية بقليل ، فوجد المجاهدين يشنون الغارات في طول البلاد وعرضها وحالة الطليان تزداد سوءً ، فلم يطل المقام في سرت ، وذهب مغرباً قاصداً ناحية غريان. ووقعت معركة القرضابية قبل أن يصل إلى أرفلة.

ولما مر بأرفلة وجدها محاصرة فاشترك في حصارها ، وبقي مع المجاهدين حتى أخذت ، ثم ذهب إلى غريان ، وقد سبقته أخبار القرضابية ، وأخذ مركز الطليان يتزعزع يوماً بعد يوم ، فأحدث مجيئه نشاطاً في بعض الوطنيين ولحق به الشيخ محمد شطيبة وكثير من الناس وحاصروا غريان ، وذهب جماعة من المجاهدين وأخرجوا كثيراً من سكان وادي القواسم ومن بينهم أسرة شطيبة وخرجت قوة من الطليان لمحاربة سوف ومن معه فالتقوا بهم في كور ، ووقعت بينهم معركة شديدة انتصر فيها سوف ومن معه انتصاراً باهراً ، وأخذوا من

الطليان غنائم كثيرة . واستشهد فيها الشيخ محمد الواعر من أولاد بريك .

ولما انهزم الطليان في بوعرقوب وترهونة تلك الهزيمة المنكرة ، وحاصر المجاهدون البراكة ترك سوف جماعـــة من الذين معه يحاصرون غريان والتحق بمجاهدي ترهونة والنواحي واشترك معهم في حصار البراكة وأخذوا منها غنائم كثيرة تقوّى بها هو ومن معه .

يأس الطليان من إخماد الثورة :

بعد واقعتي بوعرقوب وترهونة وسقوط أرفلّة والبويرات يئس الطليان من قمع الثورة ، وأصبحوا يفكرون في سحب جنودهم من بقية المراكز .

وقد أصدروا أوامرهم في يوم ٥ من يوليه سنة ١٩١٥ بالإنسحاب من جميع المراكز ، ولكن الثورة سبقتهم وحوصرت جيوشهم في كل جهة ، فهوجموا في سيناون يوم ٥ من يوليو سنة ١٩١٥ وبعد كل مشقة خرجت حاميتها ، ووصلت إلى نالوت. وتمكنت القوة التي في يفرن من الوصول إلى الزاوية سالمة . وحاولت الحامية التي في جادو (فساطو) من الهرب إلى الساحـــل ، ولكن المجاهدين أحاطوا بها في الطريق ولم ينج منها إلا قليل . وخرج من في نالوت من الطليان مع من انضم إليهم ممن كانوا في سيناون قاصدين إلى زوارة فأدركهم المجاهدون في الطريق فالتجأوا إلى الحدود التونسية الفرنساوية . وكان بغريان ٤٤٠٠ من الجنود الإيطاليين تمكنوا من الإلتحاق بطرابلس على طريق العزيزية بدون ضرر كبير ووصلوها يوم ٩ يوليه سنة ١٩١٥ . وفي ١٥ منه سقطت العزيزية وسرت . وفي ١٧ منـــه سقطت الزاوية وزوارة . وفي ٥ من أغسطس سقطت مصراتة . وبعدها بقليل سقطت غدامس والتجأت حاميتها إلى الحدود التونسية الفرنسية . وهكذا تم جلاء الطليان عن القطر كله في مدة وجيزة تبتدىء من يوم ٢٩ إبريل وهو يوم القرضابية — إلى منتصف أغسطس سنة ١٩١٥ ، ولم يبق لهم أثر إلا في مدينتي طرابلس والخمس ، وشملت الثورة البلاد كلها ، وتولى قيادتها رمضان السويحلي في مصراتة ، ورؤساء ترهونة في ترهونة والشيخ سوف في العزيزية

وما حواليها إلى زوارة . وامتدت جبهة القتال من مصراتة إلى زوارة ، وكانت العزيزية مركز القيادة العامة برياسة الشيخ سوف .

غنائم العرب من الطليان :

وقد استولى العرب على مقادير هائلة مما تركه الطليان من المؤن والأسلحة والعتاد الحربي وذكر جرازياني في كتابه « نحو الفزان » مقادير هذه الأسلحة فقال : « وقد استطاع العرب الإستيلاء على مقادير كبيرة من الأسلحة والذخيرة التي كانت موجودة في مخازننا في شتى المراكز حيث رجعت قواتنا منها بسرعة دون أن يمكنها نقل ما معها . وقد قدر ما استولى عليه العصاة[1] بنحو أربعين ألف بندقية حربية ، ونحو مائة رشاشة ونحو ثلاثين مدفعاً ، وزد عليها مقداراً كبيراً من الأسلحة التي دخلت وقت الحرب العظمى » .

هذه ترجمة ما كتبه جرازياني بهذا الصدد ، ولعله غير مبالغ فيما يقول فإن الطرابلسيين كانوا كلهم مسلحين بالأسلحة الإيطالية ،واستمرت الحرب الطرابلسية نحو إحدى وعشرين سنة كان نحو ٩٥ في المائة من المجاهدين يحملون السلاح الإيطالي .

سوف في العزيزية :

اتخذ الشيخ سوف العزيزية مركزاً له بصفته وكيل والٍ للمنطقة الغربية ، وعيّن هيئة إدارية برياسته ، وكان من أعضائها : عبيدة المحجوبي من صرمان . والشيخ المبروك المنتصر من ترهونة ، والصويعي الخيتوني من النواحي الأربعة . والفيتوري الرمالي من ورشفّانة ، وعيّن حكام مناطق ، منهم : عون بن الحاج ـ من المحاميد ـ قائمقاماً في الجوش ، وأبو القاسم خيشة ـ من المحاميد ـ رئيساً على المجاهدين ، وأحمد الباشا ـ من المحاميد ـ متصرفاً في يفرن ، ومحمد

---

(١) يعني العرب .

ابن أبي القاسم ـ من المحاميد ـ قائمقاماً على النوايل ، وعيسى أبو سهمين ـ من زوارة ـ قائمقاماً عليها ، وشطيبة في غريان .

وكان لهذا التعيين أثر سيىء على نفوس بعض الناس ، فكان سلطان بن شعبان يرى نفسه أحق بالرياسة في زوارة . لأنه أكبر شأناً وأكثر شهرة من عيسى أبو سهمين . وكان حرب النايلي ـ وهو من رؤساء قبيلة النوايل ـ يرى نفسه أولى برياسة قبيلته من محمد بن أبي القاسم المحمودي . وكذلك الأمر مع ساسي خزام في يفرن فإنه يرى نفسه أولى بحكمها من أحمد الباشا لأنها من أشهر بلاد البربر وهو من أعيانهم .

وقد تدارك الشيخ سوف الأمر فيما يتعلق بيفرن ، فعزل أحمد الباشا وعيّن بدله ساسي خزام متصرفاً . وبقيت الحال في غيرها كما وضعت أول مرة .

استقرار الأمور :

ابتدأت الحال تستقر على هذا الوضع في الجهة الغربية : رؤساء ترهونة في بلادهم ، وسوف في العزيزية ، وتمتد منطقة نفوذه من العزيزية إلى زوارة ، ومن يفرن إلى الزاوية . وأخذ الناس يسيّرون أمورهم في شيء من التؤدة والحذر ، حريصين على التوفيق ، شأن حديث العهد بالإدارة وسياسة الأمور . وبذلت الهيئة الإدارية ما في وسعها لتسيير الأمور في طريقها. وبقيت نفوس الذين رأوا أنفسهم أولى بالأمر متأثرة بفوات ما كانوا يؤملون فحقدوا على هذا النظام ، وأخذوا يعملون لتنفيذ ما في نفوسهم . وفي مقدمة هؤلاء سلطان بن شعبان وحرب النايلي . وستظهر نتيجة مساعي هؤلاء بعد اجتماع الناس بصفي الدين بمسلاتة .

حصار مصراتة

وقفنا من أخبار رمضان السويحلي عند رجوعه من معركة القرضابية لحصار مصراتة .

وقد أتينا على أخبار أرفلـّة وترهونة ، مفصلة كما وصلت إلينا من أوثق المصادر وأصح الروايات. وكان حصار ترهونة وأرفلـّة في وقت متقارب وزمن يكاد يكون متحداً . أما حصار مصراتة فقد طال زمنه ، واقتضت معاناته جهوداً كبيرة .

* * *

وصل رمضان مصراتة بعد حوالي عشرين يوماً من يوم القرضابية وفي هـذه المدة كان رمضان يرسل رسله ليأتوا إليه بأخبار العدو ، وليدلـّوه على مسالك البلد ، ومن أين يمكن دخولها .

وكان لسقوط ترهونة وأرفلـّة في يد المجاهدين أثر سيىء على نفوس الطليان، كما كان مشجعاً لرمضان ومن معه على الإقدام للوصول إلى مثل هذه النتائج المحمودة .

وأول ما بدأ المجاهدون بحصار القوة الإيطالية التي كانت في تاورغه ، فلما أحست بالخطر يتهددها طلبت نجدة من مصراتة لإنقاذها ، فأرسلت إليهـا ، واتفقوا على موعد للإلتقاء على أن تقوم القوة المحاصرة بهجوم في وقت تكون القوة التي جاءت من مصراتة لنجدتها قاربت تصل تاورغه. وقد تمكن المجاهدون من رد القوة التي كانت خارجة من مصراتة وبقي من في تاورغه محصورين .

ولسوء حظ الإيطاليين كانت تاورغه محاطة بسبخة من جميـع الجهات إلا مسالك قليلة معلومة يسلكها الداخل إليها والخارج منها . وهذه السبخة أرض رخوة مشبعة بالمياه تتراءى للناظر أنها أرض ولكنها لا تثبت عليها الأقـدام ، وكل من حاول المشي عليها ابتلعته وهو إلى غير قرار .

وقعد المجاهدون على أبواب تلك المسالك ، فكلما حاول الطليان اقتحامها عليهم أصلوهم ناراً حامية من بنادقهم فتقهقروا . وقد حاولوا الخروج من غير

هذه المسالك فضلّوا الطريق ، وحاولوا خوض السبخة فابتلعتهم عن آخرهم . وعهدك بالرجل منهم يلوّح ـ للإستغاثة ـ بيده ثم ببندقيته ، ثم تنطبق عليه الأرض فلا تجد له أثراً ، فكان حرب الطبيعة أشد عليهم من حرب البنادق والمدافع . وكفى الله المجاهدين شر هذه الفرقة واتجهوا إلى حصار مصراتة ؛ وابتدأ الحصار في ١٨ من مايو سنة ١٩١٥ .

وفي أوائل يونيه سنة ١٩١٥ تمكن رمضان من حصارها من جميع الجهات ، وقطع الصلة بين الطليان وبين قصر َحمد ، وهو الميناء الوحيد الذي تأتيهم منه الأرزاق والإمدادات الحربية .

مناوشات :

وفي أثناء الحصار حصلت معارك بين العرب والطليان أشهرها معركة رأس الطوبة ، وكانت يوم الثلاثاء ١١ من رجب سنة ١٣٣٣ الموافق ٢٥ من مايو سنة ١٩١٥ وقد أصيب فيها المجاهدون بأضرار جسيمة ، واستشهد فيها نحو مائة شهيد كان من بينهم الشيخ عمر شقلوف وهو والد صديقنا الحاج الفيتوري السويحلي . ولم يتمكن الطليان من فك الحصار عليهم .

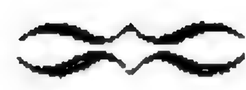
ومعركة بوفار ، وكانت يوم الجمعة ١٤ من رجب واستمرت إلى يوم السبت. وبوفار سبخة جنوبي مصراتة يقال لها سبخة بوفار ، وكان يوماً مشهوداً، دارت الدائرة فيه على الطليان وأسر منهم «القبطان فيكي» وبعض الجنود . وقد بلغ رمضان السويحلي أن الطليان يسيئون معاملة سكان مصراتة ، فاستكتب هذا القبطان جواباً ذكر فيه ما لقيه من حسن المعاملة من رمضان ، وأخبر الطليان بأنهم إن لم يكفوا عن الإساءة لسكان مصراتة فإن حياته ستكون في خطر . ومعركة جرف المقاصبة، وكانت في أوائل رمضان سنة ١٣٣٣ يوليه سنة١٩١٥.

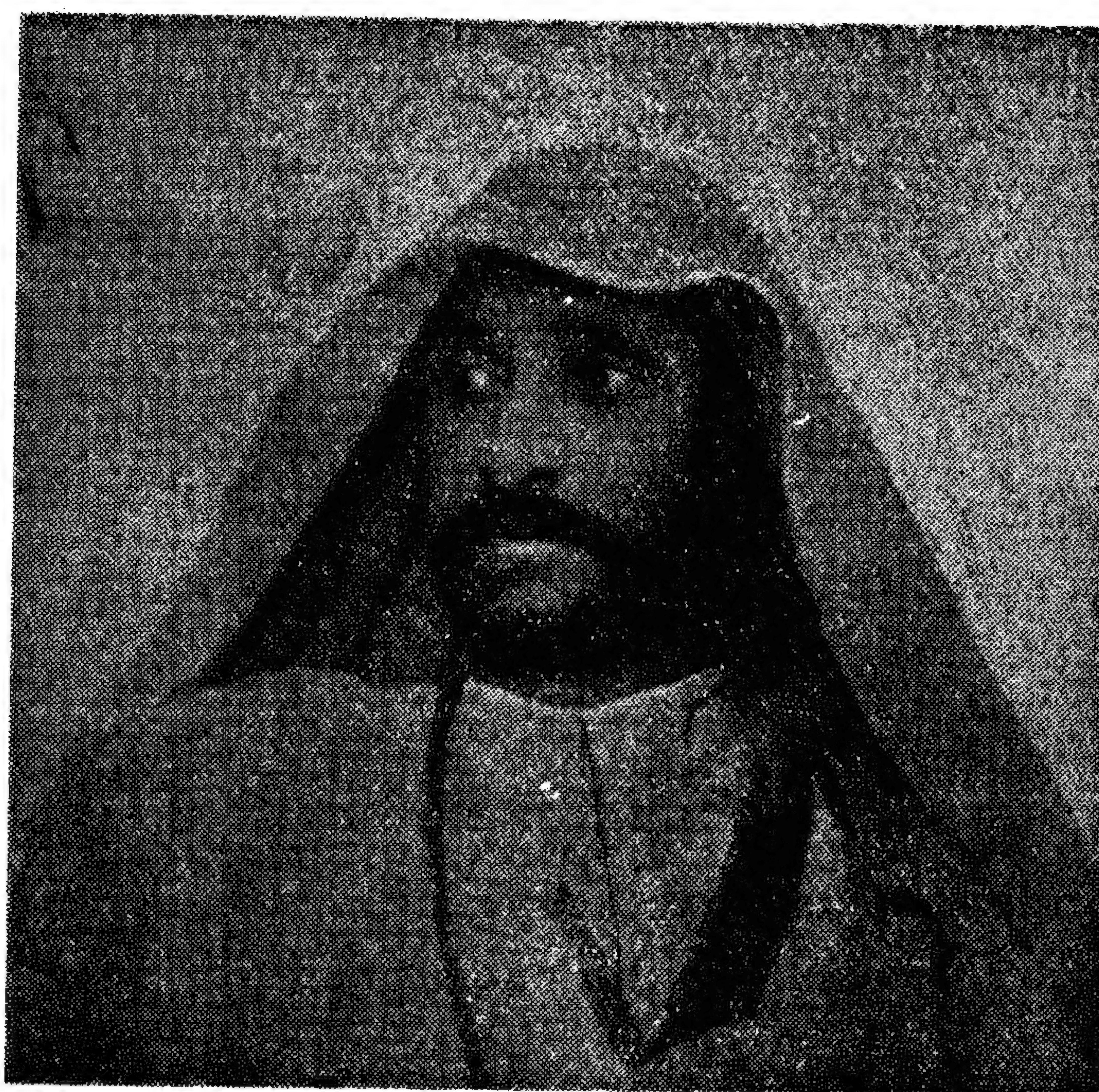
ودام حصار مصراتة نحو خمسة وسبعين يوماً ، فشلت فيها جميع المحاولات التي بذلها الطليان لفك الحصار عنهم . وفي أثناء حصار المجاهدين مصراتة طلبوا

من صفي الدين ـ وكان بأرفلـّة ـ أن يمدّهم بالخرطوش الذي حصل عليـــه من غنائم القرضابية ، فراوغ حتى فات الوقت . ثم أرسل إليهم نصف صندوق من الخرطوش، ولما وصل الرسول إلى مصراتة وجد المجاهدين قد احتلوها . أخبرني بهذا السيّد أحمد السويحلي رحمه الله .

الجلاء عن مصراتة

وفي ليلة الخميس الموافق ٢٤ من رمضان سنة ١٣٣٣ الموافق ٥ من أغسطس سنة ١٩١٥ جمع الطليان كل ما بقي لديهم من قوة ليشقوا لأنفسهم طريقهم إلى البحر ، فتلقاهم المجاهدون بكل حماس واشتبكوا معهم في معركة دامت ثلاث عشرة ساعة وبعد قتال عنيف شقوا لأنفسهم طريقهم إلى قصر حمد ، وكانت البواخر في انتظارهم فحملتهم إلى طرابلس وتركوا مصراتة بكل ما فيها من معدّات الحرب والأرزاق، وكان شيئاً لا يحصى كثرة. واستشهد في هذه المعركة مائة وعشرون شهيداً .





رمضان بـــك السويحلي

موجز عن حياة رمضان السويحلي

هو رمضان بن الشتيوي [1] السويحلي. وقد غلب لقب السويحلي على رمضان وإخوته وبه اشتهروا . وهو من سكان زاوية المحجوب بمصراتة ، ومن قبيلة يدّر من « القول أوغلية » .

مولده :

ولد في زاوية المحجوب بمصراتة في أوائـــل سنة ١٢٩٧ هـ . وتربى في بيئة بعيدة عن مظاهر الحكم ووظائف الحكومة [2] . واشتهر والده بعفـّة النفس وعزّة الجانب ، فكان لهذا الخلق أعظم الأثر على نفس رمضان .

تعليمــــه :

لما بلغ حوالي السادسة من عمره أرسله والده إلى زاوية سيدي إبراهيم المحجوب لحفظ القرآن كعادة الناس في زمنه في تعليم أولادهم بالبدء بحفظ القرآن ، فحفظه قبل البلوغ في السلكة الثانية على الفقيه سُويْسي بن ضيف الله

---

(١) ولد الشتيوي بن أحمد والد رمضان السويحلي سنة١٢٦٣ هـ. وتوفي في مدينة طرابلس في أواخر سنة ١٣٢٧هـ. بمرض الحمى،ودفن بمقبرة سيدي منيذر الصحابي المشهور بالقرب من ضريح الاستاذ البهلول ، وبجوار قبر الشيخ السماتي عن أربع وستين سنة عليه رحمة الله .

وقد وقع له في حياته كثير من مواقف البطولة فتغلب عليها كلها بما أعطاه الله من قوة الارادة والقدرة على مقارعة الخصوم .

(٢) أكثر سكان المدن الساحلية بطرابلس يتربون بعيدين عن وظائف الحكومة ، ويشتغلون بفلاحة الأرض وزراعتها ، وبتربية الماشية في البادية بواسطة الخدم أو تأجير سكان البادية . وفي الوقت نفسه تجدهم يشتغلون بفلاحة البساتين ويزرعون فيها جميع أنواع الفواكه والخضر . ولا يشغلهم هذا وذاك عن استعمال ما فضل لديهم من وقت في التجارة . لهذا تجد حياتهم ناعمة رخية بعيدة عن شظف البادية ، ورخاوة التمدن وكانت حياة بيئة رمضان من هذا النوع .

من أولاد المحجوب . وبعد أن حفظ القرآن أخذ مبادىء في الفقه على مذهب الإمام مالك في زاوية المحجوب على الشيخ إبراهيم عزوز ، وفي زاوية الزروق على الشيخ رمضان أبي تركية .

وجاءت الحرب الطرابلسية وهو في عزّ شبابه يتّقد حماساً ورجولة، فانخرط في سلك مجاهدي مصراتة ، وحضر واقعة يوم الأربعاء ٢٥ من أكتوبر ١٩١١ وفي يوم ٢٦ منه استشهد رئيس مجاهدي مصراتة الحاج أحمد المنقوش فأسندت رياستهم إلى رمضان .

وفي هــذا الدور من حياة رمضان يقول عنه الجنرال جرازياني في كتابه « نحو الفزان » ما ترجمته : « في أثناء الحرب التركية الإيطالية كان أكثر تقديماً وتفضيلاً لشجاعته وإقدامه اللذين يفوقان الحدّ الطبيعيّ وكان أشدّ عدوّ للقضية الإيطالية . ولم يحجم عن عرقلة أعمالنا بأيّ واسطة استطاع ، ولم يتردد مطلقاً في إظهار عداوته لنا . وهو ذو عزم قوي وصلابة لا تنثني » .

وبقي مرابطاً بمجاهدي مصراتة حوالي مدينة طرابلس إلى يوم أن احتلّ الطليان عين زارة في ٨ من ديسمبر سنة ١٩١١ . وفي هذا اليوم جرح في صدره جرحاً بليغاً ، فاضطرّ إلى الرجوع إلى مصراتة للتداوي . وهيّأت له فرصة انخراطه في سلك المجاهدين التعرّف إلى الناس فكان محلّ إعجابهم في نشاطه واعتزازه بنفسه .

ولما احتلّ الطليان مصراتة في ٧ من يوليه سنة ١٩١٢ كان رمضان في مقدمة المجاهدين للدفاع عنها. وجرح في بطنه جرحاً بليغاً فاضطر إلى البقاء في مصراتة للتداوي إلى أن وقع الصلح في أكتوبر سنة ١٩١٢ ، وكانت مصراتة من البلاد التي التزمت سياسة الصلح فلزم بيته .

وكان يعيش بعيداً عن الطليان ، غنياً بنفسه عن كل ما يملك الطليان التفضل به . وقد أكسبه ترفّعه عن تملق الطليان حباً لدى من عرفه أو سمع به ، فكان

منهم محلّ التقدير والإعجاب . وكانت الحرب ما تزال قائمة في فزان وغيرها ، فكان قطب دائرة إخوانه في التفكير فيما تقتضيه الظروف المحيطة بهم .

ولما انكسر الجيش الإيطالي في فزّان في أواخر سنة ١٩١٤ وأوائل سنة ١٩١٥ ضاعف الطليان جهودهم لمعرفة ما تنطوي عليه نفس رمضان نحوهم .

وفي المدة التي أقامها في مصراتة هيأ نفسه لما ينوي القيام به ضد الطليان. وبقي ينتظر الفرصة حتى جاءت مقدّمات القرضابية فكان ما سنأتي على قصصه.

وكانت واقعة القرضابية باكورة أعماله التي رفعت من شأن الوطن وأعزّت جانبه . وقد رفعت من قدره وألبسته فخراً وثناءً قصرت دونها أعناق معاصريه ، وأخذ نجمه يتألّق في سماء الوطنية ، وسارت بذكره أسلاك البرق وقوافل البريد ، واتجهت أنظار الناس إليه ، وعلّقوا عليه آمالهم في إنقاذ الوطن وتوالت نكباته على الطليان فكان الشغل الشاغل لسياستهم والصخرة التي انحسرت دونها مكائدهم وحيلهم، وكان العدوّ اللدود لإيطاليا كما صرح جرازياني.

ولما أجلى الطليان عن مصراتة عقب القرضابية في ليلة الخامس من أغسطس سنة ١٩١٥ شكل فيها حكومة وطنية برياسته وأظهر فيها من حسن الإدارة وقوة الإرادة ما أعجز الطليان عن النيل منها . ودان له الناس بالطاعة عن طيب نفس من الكثيرين ، وعلى مضض في النفوس من بعضهم .

وكان يعتمد في تنفيذ أحكامه على هيئة من علماء مصراتة يحول إليها كل ما يعرض عليه من مشاكل . وتؤلف هذه الهيئة من : الشيخ عمر الميساوي المفتي إذ ذاك، والشيخ رمضان بليبلو. والشيخ رمضان أبي تركية. والشيخ عبد الرحمن ابن نصر . والشيخ السنوسي بن عبد العال . وهو يتولى السلطة التنفيذية ، وإليه يرجع الأمر في تنفيذ ما تحكم به الهيئة الشرعية .

وأنشأ بيت مال تحفظ فيه الغنائم الإيطالية ، وجعله في عهدة جماعة من أغنياء مصراتة وأعيانهم ، وهم مسؤولون عن كل ما فيه . وأنشأ قلم محاسبة

برياسة صديقنا الفاضل التهامي بك قليصة مسؤولاً عن الداخل والخارج في جميع ما يتعلق بأموال الحكومة وصرفها في وجوهها . وأنشأ قسماً من الدرك يتولى حفظ الأمن وتنفيذ الأوامر ؛ وإلزام كل واحد بالقيام بواجبه نحو نفسه وغيره .

وجعل للمجاهدين رؤساءً يرفعون إليه شؤونهم للنظر فيما هم في حاجة إليه وهم مسؤولون عن ترتيبهم في أماكنهم من الثغور ومراقبة حركات العدوّ وسكناته . وعلى بساطة هذه الترتيبات فقد كفلت للناس حياة الهدوء والطمأنينة والأمن ، وضمنت لكل واحد ماله وما عليه من الحقوق والواجبات.

وقد كان في خلق رمضان من الحزم والصراحة ما جعله مهاباً في عيون الناس وتملّكت مهابته القلوب فكان شبحه ماثلاً في كل مكان ، يهدّد كل من تحدّثه نفسه بعمل يخالف مصلحة الوطن . وكانت حكومة مصراتة مضرب المثل في الدفاع عن الوطن ، لما كان يحيطها به رمضان من قوة الإرادة والعزم الصادق .

ولما فشلت السياسة التركية في برقة سنة ١٩١٦ واتجهت إلى طرابلس وجدوا في نظام حكومة رمضان أكبر مشجّع لهم على المضي في تنفيذ خطتهم السياسية. ولما شكلت حكومة الجمهورية الطرابلسية كان رمضان في مقدّمة العاملين لإنجاحها . وكانت حكومته من أكبر العوامل في تكوينها . ويمتدّ نفوذها إلى سرت . ويشمل كذلك زليطن وساحل الأحامد ، ومسلاتة والخمس ـ ما عدا المدينة ـ وقصر خيار .

ولما وقّع صلح بنيادم كان لرمضان فيه الرأي الفصل وكان تأسيس حكومة القطر الطرابلسي في سنة ١٩١٩ بموافقته كما جاء في قرار الوالي الآتي نصه .

وبعد أن انتقل من سواني المشاشطة عقب صلح بنيادم اتخذ مسلاتة مركزاً ثانياً له بعد مصراتة . وله فيها موقف سياسي وحربي سيأتي ذكره .

وأخباره في الحرب الطرابلسية كثيرة يجدها القارىء مفصّلة عند الكلام

عن أي دور من أدوار الحركة الوطنية. وآخر محاولة له في خدمة وطنه تلك الغزوة التي قام بها على أرفلة ، والتي سنفصّلها في محلها . وقد ذهب ضحيتها في ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٠ عليه رحمة الله ورضوانه .

واسمع ما يقوله عنه جرازياني القائد الإيطالي :

رمضان الشتيوي الأكثر ضراوة غير قابلة للتحوّل في عداوته ومعارضته للقضية الإيطالية . وهو الرجل الذي ظل من عام ١٩١٢ وما بعده لم يدع أية وسيلة تعرقل مساعينا إلا وسلكها . وقد برهن بجلاء على معارضته لأي عمل من أعمالنا التي تثبت سلطاننا .

وقال : وبتاريخ ٢٩ إبريل سنة ١٩١٥ وفي القتال الذي جرى مع قواتنا بقيادة الكلونيل (إمياني) ضد الثوار بقصر بوهادي خاننا رمضان الشتيوي، وغدر بنا مع جميع الفرق التي كانت معه ؛ والتي سلّحت من طرفنا ، واكتسح بقواته قافلة الذخيرة والتموين ، وفتح النار على قواتنا .

وفي أيام حكمه (سنة ١٩١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨) وجّه جميع تصرفاته دون هوادة ، ضد كل من يذكر الإيطاليين على لسانه ، أو يفكر فيهم .

وقد سمح بإقامة حامية إيطالية في مصراتة، (وكان هذا بعد صلح بنيادم) واعتبر ضابط الاتصال مجرد رجل يتصل به .

ولما قتل رمضان قال :

وكانت نهايته من حظنا، لأن هذا الشخص كان يملك بشكل ممتاز صفة القائد المقدام ، بالاضافة إلى أنه كان يمتاز بمقدرة غير عادية على التنظيم العسكري والسياسي ، ومن أقوى المتديّنين الأوائل .

حكومة مصراتة

برياسة رمضان السويحلي

يعتبر يوم ٥ أغسطس سنة ١٩١٥ مبدأ لقيام حكومة مصراتة برياسة رمضان السويحلي . ولم يكن لأحد فضل عليه في إنشاء حكومة مصراتة سوى قوّة عزيمته وصدق بلاء إخوانه الذين عرفوا فيه علوّ الهمّة والإخلاص لدينه ووطنه.

وأول ما بدأ به جمع الغنائم وحصرها في دفاتر ، ووضعها في مخازن في ضمان جماعة من أغنياء مصراتة وأعيانها تحت إشرافه ، على ألا يتصرّفوا في شيء منها إلا بإذنه .

ثم أخذ في اختيار من يرى فيهم الكفاءة لمعاونته من المخلصين له . وكان من بينهم صديقنا الفاضل التهامي قليصة عليه رحمة الله . وأخذ الأمور بما تستحق من الحزم ، فاستقامت له وسارت كما يجب أن تسير .

صفي الدين في مصراتة :

وبعد استيلاء رمضان السويحلي على مصراتة جاء إليها صفي الدين في ٢٥ من رمضان ١٣٣٣ هـ ، فاحتفل به أهلها وأجلّوا مقدمه وقابلوه بما يستحق من الترحاب وحسن الضيافة. وكان الناس يعتقدون في السنوسية البركة لما لطريقتهم من الإنتشار في صحراء طرابلس وجهات برقة . وعلى هذا الاعتبار كان

صفي الدين في محل الاحترام من سكان مصراتة .

كلمة عن السنوسية :

قضى السنوسية جلّ حياتهم قبل الحرب الطرابلسية وبعد وفاة السيد المهدي في عزلة عن الناس ، وكانت إقامتهم في الكفرة والجغبوب . واكتسب جدّهم السيد محمد بن علي السنوسي شهرته من طريق الدعوة إلى الله وإرشاد العامة . ومن هذه الطريق تسرّبت الشهرة إلى أبنائه وأحفاده . وكان بعض النـــاس يرحلون إلى الكفرة والجغبوب لزيارتهم . واتخذوا لهذه الزيارة تقاليد منها : الإستئذان بعد ثلاثة أيام من قدوم الزائر وأن يخلع الزوار نعالهم عند المقابلة ، وأن يدخلوا عليهم زاحفين على الأيدي والركب ، أو ماشياً على هيئة الراكع ، فإذا ما وصل الزائر إلى أحـــدهم وهو جالس ، قبّل يده وركبته ، ثم رجع القهقرى حتى يصل محل جلوسه ، فيجلس في صمت وخشوع ، وبعد هنيهة يرفع السنوسي يده علامة الإذن بالإنصراف ، فيرفع الحاضرون أيديهم ويقرأون الفاتحة ، وبهذا تنتهي الزيارة ، ويذهب الزائر حيث شاء ، فإذا كان الزائر من ذوي المكانة والتقدير فلزيارته نظام غير هذا .

ومن عادات السنوسية في أسفارهم أن يكون معهم جماعة من حفاظ القرآن يسمّون الإخوان ، يقرأون الأوراد التي تتطلبها الطريقة السنوسية ومن ضمنها قراءة شيء من القرآن أينما حطّوا رحالهم .

وكلمة (إخوان) يطلقها السنوسية على أتباعهم (كما كان المهدي بن تومرت) يسمي أتباعه . وهؤلاء الإخوان يتفاوتون في الحظوة لدى السنوسية : فكبراؤهم هم الحجّاب عليهم والوسطاء بينهم وبين الناس ، فإذا أراد أحد زيارة أحـــد السنوسية فلا بد من الإستئذان له من طريق أحد الإخوان . وقد لا يحصل الإذن بالزيارة قبل ثلاثة أيام ، وهو الغالب ، فإذا أراد الزائر استعجال الإذن لضيق وقته أو لأي أمر قيل له حتى يحصل الإذن .

وإذا غضب أحد السنوسية على أحد من الزوار أو من الإخوان قيل له أنت مهجور) ؛ والرجل العامي من أتباعهم يفضل الموت على أن يسمع من أحد أسياده السنوسية أنه مهجور .

وقد بلغ حب سكان البادية لهم أن يسموهم الأسياد، وكلمة الأسياد في برقة لا تطلق إلا على السنوسية. وأن يقولوا لنسائهم (أمهاتنا) تشبيهاً لهن بأمهات المؤمنين، نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن ينكروا موت المهدي السنوسي ، ويقولون إنه تغيب ، لاعتقادهم أنه المهدي المنتظر ولا يسمحون لأحد يقول إنه مات ، كما لا يسمحون لأحد أن يذكر أحداً من السنوسية باسمه مجرداً عن السيادة .

وكان من عادات السنوسية عدم الاختلاط بالناس ، والإكتفاء بملاقاة بعض الإخوان في بعض الأوقات ، وبما يخبرونهم به عن الناس خيراً كان أو شراً . هذا بعض ما درج عليه السنوسية فيما يتعلق بصلتهم بالناس في أكثر حياتهم . ومن هذا الطريق وحده ، وعلى هذا النظام اكتسبوا معلوماتهم فيما يتصل بالحياة العامة التي تتصل بأمم العالم وشعوبه .

وقد تغيّر هذا الشكل من الحياة بعد الحرب الطرابلسية فيما يتصل بالحياة الخارجية التي تستلزم اتصالهم بالغير، وكان سكان البادية من برقة يطيعونهم طاعة عمياء ، لا يسألون لماذا أمروا ، ولماذا نُهوا . ولا يعرفون إلا السمع والطاعة . ولهذا لم يسمع السنوسية في حياتهم كلمة (لا) ولم يتعودوا مخالفة في الرأي ، فلما جاءت الحرب الطرابلسية ،واضطروا إلى الاختلاط بالناس صعُب على صغار السن منهم الخروج عن عاداتهم وتقاليدهم في مجاملات الناس .

وكان لحجّابهم في هذا أثر سيىء ،وأمكن بعض ذوي الأغراض من حجّابهم أن يستغلوا الموقف لمصلحتهم ، وكثيراً ما يصدر عن هؤلاء الحجّاب أوامر وأعمال لا علم للسنوسية بها وقد لا تصلهم أخبارها . وكان كبير الإخوان الذين كانوا مع صفي الدين إذ ذاك مصطفى منينة .

وهذا ما حصل للسيد صفي الدين في مصراتة ، فقد استغل من معه سمعته ، ونسبوا إليه أوامر وأعمالاً لا علم له بهـــا حتى سفر الجو بينه وبين رمضان . واضطر رمضان أن يرفض ما يصدر إليه من أوامر يزعم أنصار صفي الدين أنها صدرت عنه .

ومن هذه الأوامر : الأمر بفرض ضرائب على الحيوانات ، وجباية الزكاة ، وتسليم الغنائم التي استولت عليها مصراتة بعد طرد الطليان منها .

وعلى حسب ما اعتادوه في الكفرة والجغبوب من الطاعة ونفوذ الأمر ممن حولهم كَبُر على أنصار صفي الدين أن يعارضهم رمضان وأن يقول لهم «لا» فيما يبلّغونه من أوامر .

ولما أبلغوا رمضان أمر فرض الضرائب ، وتسليم الغنائم ، وجباية الزكاة رفض هذه الأوامر وقال لهم : إن في فرض الضرائب على الناس إرهاقاً لهم لأن أكثرهم في صفوف القتال ونفقاتهم على أنفسهم . وأما جباية الزكاة فلا مانع منها ممن لم يؤدّها . وأما تسليم الغنائم فهذا شيء غير ممكن لأن الناس في حاجة إليها ، وهي عماد المجاهدين في هذه الحرب القائمة في كل مكان . وقـــد كلفت بضبطها لجنة من أعيان مصراتة وتجارها الأغنياء ، وسلمت إليهم بعد إحصائها إحصاءً دقيقاً ، وتحملوها أمانة في ذممهم لا يمكن أن يصرف منها شيء إلا بإذن الحكومة ، وهم مسؤولون عنها أمامها. فلم يقتنعوا بهذا وأصروا على ما قرروه.

ولم يكن رمضان ليعنى بهذا الإصرار ، وأبلغ صفي الدين أنه لن ينفذ من هذه القرارات شيئاً . وكان وقوف رمضان في وجه صفي الدين وعدم تنفيذ أوامره أول حادث من نوعه يسمعه الناس في معارضة السنوسية . ومن هنا نشأ الخلاف بين رمضان السويحلي وصفي الدين وانضم إلى صفي الدين بعض الذين كانوا ينازعون رمضان السلطة ، أو من أنصار السنوسية ، وقد تمكنوا من التأثير على صفي الدين ، فأعلن في ملأ من الناس أن رمضان « مهجور » وأنه معزول من وظيفته . وكلمة مهجور يعاقب بها السنوسية من يغضبون عليه من أتباعهم .

ورمضان لم يكن موظفاً من قبل صفي الدين ولا من أتباعه . وقد أجاب الناس صفي الدين بأنهم لا يرضون بعزل رمضان ، ولا حاجة لنا بالسنوسية في بلادنا ، ولم يكن لهذا الإعلان من صفي الدين أي أثر إلا بدء الفتنة والشقاق، وانعكست القضية على صفي الدين وأحس بأن بقاءه في مصراتة أصبح محفوفاً بالخطر فرحل عنها إلى أرفلة حيث كان يقيم وكيله أحمد التواتي .

وفي الحقيقة ان صفي الدين كان مستسلماً لجماعة من الإخوان يسيرونه كيف شاءوا من أجل ما كانوا يحيطون به من مظاهر الاحترام حتى أصبح يثق في رأيهم ثقة عمياء ، ولا يخالفهم في شيء . وسواء أكانت نواياهم حسنة ، ولكنهم كانوا يخطئون في فهم الأمور ، وأنهم كانوا يتعمدون الخطأ لأغراض في نفوسهم ، فإنهم كانوا يعملون كل شيء باسم صفي الدين وينفذونه رَضِيَ الناس أم كرهوا ، وما على صفي الدين إلا الموافقة إن طلبت منه .

ولصفي الدين كل العذر في تصريحه بعزل رمضان ، لأن استسلامه لأولئك الحجاب حال بينه وبين فهم حقائق الأمور ومعرفة الناس .

وفي أثناء ما كان الخلاف قائماً بين رمضان وصفي الدين في مصراتة جاء عبد النبي ليشكو له ما يلاقيه من عنت وكيله أحمد التواتي، وحمد سيف النصر ، ولما وجد الخلاف مستحكماً بينه وبين رمضان رجع إلى أرفلة واعتزم مشاكسته ، فلما رجع إليها وجده أمامه يناصبه العداء .

ولم يرق السنوسية ، وأنصارهم موقف رمضان منهم ، ونقموا عليه . وقد خيل إليهم أنهم يجدون سوقاً رائجة في ترهونة لبث الدعاية ضده وتأليب الناس عليه ، فانتقل إليها صفي الدين ووكيله أحمد التواتي . وكان مما احتالوا به على حمل الناس لتأليبهم على رمضان أن أرسلوا رسلاً إلى أعيان النواحي وورشفانة والزاوية وزوارة للمجيء لزيارة صفي الدين . وكانت هذه الدعوة تحمل في طياتها أخبث النوايا وهي حمل الناس على محاربة رمضان . والذي فهمناه من أعيان ترهونة أنهم ما كانوا يعلمون من أمر هذه الدعوة سوى أنها للزيارة، ولذلك

اعتبروا صفي الدين ضيفاً في بلادهم وقابلوه بما يستحقه الضيف من الإكرام والإحترام . وانتقل صفي الدين إلى مسلاتة حيث وافاه أعيان الغرب .

فتنـــة :

ظن أحمد التواتي أن ترهونة ومسلاتة يناصرونه على رمضان ويحاربونه من أجله ، وأن وجود أعيان الغرب في هذا الجمع الزاخر يجعلهم أمام الأمر الواقع ، فيوافقون على ما توافق عليه ترهونة ومسلاتة . وقد جمع الناس في حفل حاشد، وفاجأهم التواتي بما يدل على ما انطوت عليه نيَّته من فتنة كان يظن أنها واقعة لا محالة ، في أسلوب من القول في صورة استفتاء ابتدأه بقول الشاعر :

أترجو أُمةٌ قتلت حُسيناً　　شفاعةَ جده يومَ الحساب

ومضمون الإستفتاء أن رجلاً عصى الحكومة السنوسية وأهان الأشراف هل يقتل أو لا ؟ فاستغرب الناس هذا الإبهام ، وهذا الإستفتـــاء في مثل هذه الظروف ، ولم يبد أحد فيه رأياً ، فقال له الشيخ عمر المنصوري : نحن لا نوافق على هذا الكلام المبهم . وكانت قرائن الأحوال تدلّ على أن المقصود هو رمضان السويحلي ، فهو يريد الانتقام منه لمعارضته ما ينسبونه من أوامر لصفي الدين وهو لا علم له بها . ورمضان لم يعمل ما يخالف الأصول ، ولكن رغبة التواتي في التسلط على ما في أيدي الناس باسم صفي الدين هي التي حملته على هذا .

وقد أنكر الناس جميعاً على صفي الدين إقرار أحمد التواتي على هذه الأعمال. وكانت الفتنة متوقعة في كل لحظة ، والتواتي يرغي ويزبد ، ويأبى إلا أن يتفق الجميع على حرب رمضان ، فتقدّم إليه الشيخ سوف والشيخ عمر المنصوري ، وسلطان بن شعبان وقالوا له : نحن دعينا إلى زيارة ، ومن أجلها جئنا ؛ ولو دعينا إلى الحرب ، فإما ألا نجيب ونبقى في ديارنا ، وإما أن نجيب ونأتي مستعدين للحرب . على أنه لا يصح محاربة رمضان قبل الاتصال به وأخذ رأيه، واستأذنوه في مقابلته .

ولما سمع رمضان بحركة التواتي اختار عدداً من الفرسان من مصراتة وزليطن وعسكر بهم في فندق الزدام خارج زليطن مما يلي الساحل .

وذهب إليه سوف ومن معه [1] واجتمعوا به وعرضوا عليه الأمر ، فذكر لهم ما حصل بالتفصيل مما أشرنا إليه آنفاً ، فاقتنعوا بوجهة نظره ، وتحقق لديهم أن الذي قام بهذه الفتنة هو أحمد التواتي على حساب صفي الدين . ومما قاله لهم رمضان: إني مستعد للقيام بكل ما يلزم لصفي الدين ومن معه من مؤن وغيرها على شرط أن يتخذ له جبهة أمام العدو في أي مكان شاء . وقد رجع الوفد من عند رمضان بهذا الرأي وعرضوه على التواتي فلم يقبل وأصرّ على الحرب فلم ينضمّ إليه أحد في هذا الرأي ، ورجع الشيخ سوف ومن معه إلى أهلهم ، ولم يبق إلا صفي الدين ومن معه ولم يلبث أن هاجمهم رمضان فانسحبوا إلى ترهونة في فبراير سنة ١٩١٦ ومنها إلى أرفلّة . فلحقهم هناك ، وأجلاهم عنها ، وقبض على أحمد التواتي – رأس الفتنة – فقتله ، ونجا صفي الدين إلى أجدابية على طريق سرت .

ولم يشأ رمضان أن يتابعه بعد أن قبض على التواتي لأنه هو الرأس المفكـر .

وكان التواتي يريد أن يزجّ بترهونة ومسلاتة في حرب مع مصراتة لينتقم لنفسه بأيديهم من رمضان ، ولكن فشلت مساعيه ، ونجا الناس من فتنة كانت محققة الوقوع لولا موقف ترهونة المحمود .

أثر اجتماع مسلاتة :

كان لاجتماع مسلاتة أثر سيىء في نفوس الطرابلسيين وعلى سمعة السنوسية فقد ظهر فيه صفي الدين والتواتي بالتحيز لأغراضهم وعدم المبالاة بالمصلحة العامة . وكانت عاقبة هذه الآراء الخاطئة أن نقم الناس منهم سوء تصرفهم .

---

(١) روى لي بعض الثقات أن التواتي لم يتركهم يتصلوا برمضان ، فانتحلوا زيارة سيدي عبد السلام حيلة واتصلوا به .

وغادروا مسلاتة حانقين غاضبين . وبلغ الحنق بسلطان بن شعبان أن اتصل بالطليان يأساً من نجاح العمل مع مثل التواتي ، فسرّ الطليان بذلك أيّما سرور.

هذا ما حصل . وهكذا كانت نتيجة انقياد السنوسية لأنصارهم .

سلطان بن شعبان :

وكان سلطان بن شعبان ذا نفوذ كبير في زوارة وما حولها ، وعند الإباضية عموماً ؛ وقد تأثر برأيه أناس منهم حرب زعيم النوائل .

وأدرك « سوف » خطورة الموقف فجمع وفداً من الساعدي بن سلطان ، وساسي خزام ، والحاج محمد البلوطي . وتحالفوا على سيدي رمضان[1] بأن يكونوا يداً واحدة ولو لم ينضمّ إليهم سلطان . وذهبوا إليه في زوارة للاجتماع به .

ولسوء الحظ وجدوا عنده والي طرابلس الطلياني اميلّو ، وساني مدير السياسة ، وكانت معهم أموال كثيرة وأسلحة جاءوا بها ليسلموها إلى سلطان وأتباعه إن تم الاتفاق معهم . ولما اجتمع الوفد بسلطان رجوه ألا يشقّ عصا الطاعة ، وأن يبقى معهم. فأفهمهم أنه قد اتفق مع الطليان. وأقام لهم الدليل على صدقه بأن جمعهم بالوفد الإيطالي . وانتهز الوالي فرصة هذا الاجتماع فحاول اقناع «سوف» ومن معه بفكرة سلطان فأبوا ، وأيقنوا بحقيقة الأمر فقطعوا رجاءهم من سلطان ، ورجعوا . ولم يلبث الطليان أن احتلوا زوارة بعد رجوع «سوف» وصحبه سنة ١٩١٦ .

ساسي خزام :

ساسي خزام عين من أعيان البربر ، وبينه وبين سلطان بن شعبان روابط

(١) اسم ولي مدفون في العزيزية على قمة جبل ، وله مقام هناك وكان سوف إذ ذاك حاكماً في العزيزية .

جنسية ومذهبية وصداقة . وقد انتهز سلطان وجود ساسي مع الوفد فخلا به ؛ ويظهر أنه أقنعه بفكرته .

ولما رجع الوفد بقي ساسي خزام في زوارة ، ثم سافر منها إلى الجبل على طريق نالوت متشبعاً بفكرة سلطان ، وجمع له أنصاراً ممن ضعفت عزائمهم ناقضاً بذلك عهده الذي عاهد عليه الشيخ سوف وإخوانه في العزيزية .

وقويت شوكة سلطان بعد احتلال زوارة وانضمام ساسي خزام إليه ، وصفت إليه قلوب أناس كثيرين من السعفات والنوايل وما جاور تلك المنطقة ، وأصبح الأمر يتطلب سرعـــة العمل ، فجهز الشيخ سوف جيشاً من العزيزية . وجهز خليفة بن عسكر جيشاً من نالوت. وجاء جماعة من أولاد أبي سيف من الجنوب، وأطبقوا على ساسي خزام ومن معه في يفرن ، فدافعوا دفاع اليائس ، ثم غلبوا على أمرهم واستسلموا ، وأُخذ ساسي خزام حياً ثم قتل رمياً بالرصاص .

ولا يمكن أن يكون انضمام سلطان بن شعبان للإيطاليين نكاية في وطنه . وقد يكون نفوراً مما رآه من سوء معاملة التواتي وصفي الدين السنوسي . وكان عليه ألا يتعجّل الأمر ، خصوصاً بعدما ذهب إليه الوفد ورجاه في إصلاح ذات البين ؛ ولكن « العناد يورث الكفر » .

محمد العـــابد :

سبق أن أشرنا إلى كتاب محمد العابد الذي أرسله إلى الطليان في سرت ، يطلب منهم إعانة ، وقلنا إنه مبدأ ظهوره ، وفي واقعة القاهرة بفزان اتصل المهدي السني ـ وهو من أتباعه المقرّبين ـ بالمجاهدين الذين افتكوها من الطليان ، وأخذ منهم بعض الغنائم باسمه ، ومن هنا ظهر اسمه ، ووجد أنصاره طريقاً للدعاية له .

ولا يجهل أحد ما كان للسيد أحمد الشريف السنوسي من الأعمال المجيدة في الحرب الطرابلسية في برقة . وكانت أعماله الباهرة حافزاً لأخيه محمد العابد على

منافسته ، فتوجه من الكفرة إلى فزان ليتخذ منها ميداناً لأعماله . يجاهد كما جاهد السيد أحمد ، وينال من الفخر مثل ما نال . وقد أخطأ التقدير في أن يكون له من الذكر الجميل مثل ما كان للسيد أحمد ، كما أخطأه التوفيق الذي لازم السيد أحمد .

فالسيد أحمد رجل صقله العلم ، وهذبته العبادة ، فعفّت نفسه وكبرت همته وانكمشت يده عما للناس فيه حق أو شبه حق ، وأخلص عمله لله فتولى الله توفيقه ، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه .

أما محمد العابد فلم يؤت حظاً من العلم مثل أو قريباً مما أوتيه السيد أحمد . وقد سلك إلى ما تتوق إليه نفسه من الفخر طريقاً غير موصل إلى غايته ، فانتهى به إلى النهاية الطبيعية وهي الخيبة وسوء الأحدوثة لا إلى الغاية المنشودة له .

وقد وجد الطامعون سبيلاً إلى التأثير على نفسه بما أحاطوه به من أسباب الأبهة والإحترام فخيّل إليه أن ذلك بسبيل من الإخلاص له ، فزينوا له غير الحسن ، وقبّحوا له ما لا يمكن أن يكون قبيحاً ، فانطلت عليه حيلهم ، وتستروا بجاهه للوصول إلى ما في أيدي الناس من متع الدنيا وملذّاتها ، وجروا في هذا المضمار شوطاً كان لهم فيه الغُنم وعليه الغُرم ، وضربوا دونه ستراً من أعمال التصنّع حالوا به بينه وبين الانتفاع بآراء المحبين له والمخلصين للسادة السنوسية ، فصار سجين الخيمة لا يدري من شؤون الدنيا إلا ما يعرض عليه من أموال الناس بدعوى أنها مهداة إليه ، وما هي إلا أمتعة مسلوبة وأموال منهوبة ، سرقها أولئك الذين لم يخافوا الله فيه فأساءوا إلى سمعته ، وهو في خيمته أسيراً لا يدري ماذا يجري .

وكان « كلب السيد » ـ المدعو هاشماً الزُّوَيّي ـ رئيس تلك العصابة ، وهو الذي تولى كبر جميع ما اقترفته ، حتى نُسي اسم محمد العابد مع اسم « كلب السيد » .

ولقد كان كلب السيد في خزعبلاته هندياً ماهراً ، متغالياً الغلوّ كـلـه فيما يطمئن نفس محمد العابد من جهته ، فكان يكتب إلى الناس ويوقع كتبه باسم « كلب السيد » أو « كليب الحضرة » . وتنطلي على محمد العابد مثل هذه الحيلة فيصدق أن هذا من إخلاصه له .

وكيفما قلبت الأمر فلن تجد ما يبرز موقف محمد العابد من أعمال كلب السيد، كما لا تجد من أعمال الجهاد ما ينسب إلى محمد من أول حركته إلى آخرها، وإنما هي سلسلة إجرام ارتكبت باسمه ، فأصابه منها ما جعله عرضة للانتقاد واللوم . بل واللعن في بعض الحالات .

مسابقة :

يقول المطلعون على بواطن الأمور انه كانت هناك مسابقة بين صفي الدين ومحمد العابد لبسط نفوذهما على أكبر قطعة ممكنة من طرابلس وذلك لما رأوه من تمكن نفوذ السيد أحمد في برقة ، وكان كل منهما يعمل باسمه ولنفسه .

وبينما كان صفي الدين يقوم بالدور الذي ذكرناه آنفاً في مصراتة وأرفلّة ومسلاتة كان أخوه محمد العابد يقوم بمثله في فزان وما حواليها .

وكان أكثر أنصار صفي الدين ومحمد العابد ممن قضَوا جلّ حياتهم في الصحراء حيث تنتشر الأمية وتسيطر على العقول عادات البداوة. وكلما امتد بهم الشوط إلى حيث توجد مبادىء الحضارة والعلم وجدوا أناساً يزِنون الحياة بغير الموازين التي عرفوها في باديتهم فوقفوا منهم موقف العـاجز عن مجاراتهم ، واضطروا إلى الاحتفاظ بقديمهم فقلّت أنصارهم ، ووجدوا من الناس جفاء مـا كانوا يقدرون وجوده . وحاولوا أن يقنعوا الناس بما كان لآباء السنوسية من مكانـة وشهرة ، ولكن ما كان يأتيه هؤلاء الأتباع من السلب والنهب حـال دون أن يقتنع الناس بمثل هذه المحاولات ، فسقط في أيديهم وفشلت مشاريعهم .

خلاصة السلاطين :

هكذا كان يوقع محمد العابد على كتبه بهذا اللقب الذي انتحله لنفسه ولم يكن له فيه سلف ، كما لم يكن له من أسباب القوة ما يكسبه هذا اللقب ، ولعله انتحله ليصرف أنظار الناس عن السيد أحمد ، ولكن هيهات أن يكون انتحال الألقاب مما يكسب الشهرة إذا لم يصحبه العمل وقوة السيف . ولا شيء يدعو إلى انتحال هذا اللقب إلا مزاحمته لأخيه السيد أحمد في برقة . ولكن السيد أحمد لم ينتحل لنفسه لقباً لأنه كان يجاهد لله وفي سبيل الله ، فجاءته الألقاب من حيث لا يشعر .

ولم يعد على محمد العابد من انتحال هذا اللقب إلا سخرية العقلاء وانفضاض أهل الرأي من حوله ، بل التعصب عليه ونسبة قبائح كلب السيد إليه .

ولما انتهى أمر صفي الدين إلى ما ذكرناه كانت طلائع دعاية محمد العابد وصلت إلى الجبل فيما بين تالوت وغريان .

فوضى :

وكانت دعايته تحمل جميع أنواع الفوضى من السّلب والنهب تحت رعاية كلب السيد ومن انضمّ اليه .

وقد بلغ من أمر هذا الداعية أن قتل الشيخ سعد بن عمر جلغم شنقاً . واغتصب ابنته بدون رضاها ولا رضى أحد من أوليائها . وقتل الشيخ عمر القُريد من أعيان الشاطىء ، وكان من أهل الصلاح رحمه الله . وربط الشيخ الحبيب عز الدين الغدامسي على المدفع وخيّره بين القتل ودفع مبلغ من المال ، فدفع له ألف جنيه ذهباً .

وكان لكلب السيد أعمال قبيحة لا تحصى يرتكبها باسم محمد العابد ؛ وقد يكون كاذباً في هذا لأن شناعة أعماله لا يرضى بها أحد . وقد انضمّ إليه في

هذا الإجرام جماعة من حفاة البادية ممن لا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله .

كلب السيد في نالوت :

وأول ما وصل كلب السيد إلى نالوت قبض على خليفة بن عسكر وأرسله إلى الزنتان مسجوناً ، واستمرّ إلى أن وصل إلى الجوش فقبض أيضاً على عون ابن الحاج وأبي القاسم خيشة وربطهما على المدفع .

ولما علم بأمره الشيخ « سوف » بعد رجوعه من مسلاتة جمع له قوة كبيرة وهاجمه في الجوش وحاصره فيه ، وطلب إليه أن يشرح له ما جاء من أجله ، وما يبغي من وراء هذه الأعمال ، ولكنه لم يحر جواباً . فقال له الشيخ سوف : إن كنت تريد حرب الطليان فاذهب إلى زوارة وأقم هناك أنت ومن معك وعلينا كل ما يلزمكم ، ونشكركم على هذه المساعدة . وإن كنت لا تريد ذلك فارحل عنا . فأبى كل ما عرضه عليه الشيخ سوف ، فشدّد عليه الحصار أربعة عشر يوماً ، فرأى أنه قد غلب على أمره وطلب أن يخلي سبيله ليذهب إلى الرحيبات فخلى سبيله ، فوجد المجاهدين سبقوه إليها فواصل سيره إلى الزنتان حيث يكثر أنصاره ، فاستاء من وجوده في الزنتان أحمد الصيد وعلي الشنطة وغيرهما من أعيان البلد ، وطلبوا إخراجه فأبى أنصاره . وبعد فتنة مات فيها نحو عشرة من الناس حضر الشيخ « سوف » في قوة من المجاهدين إلى الزنتان ، ونزل في سيدي موسى وهدد كلب السيد إن لم يرحل عن الزنتان ، فخاف ، فطلب الأمان لنفسه فأعطيه ، ورحل إلى فزان ووقى الله الناس شره بعد أن أوقد الفتنة وفرّق الجماعة .

وقبل أن يطرد من الزنتان أراد محمد العابد أن يلتحق به فاعترضه أولاد أبي سيف وأجبروه على الرجوع إلى فزان حيث التحق به كلبه .

وإلى هنا ننتهي من قصة خلاصة السلاطين وكلب السيد ؛ ونكتفي بهذه الصورة المصغرة . ووراء ما ذكرناه من الحقائق المؤلمة ما لا يتسع المقام لذكره .

الشيخ حرب النائلي :

هو زعيم قبيلة النوائل ، ومن أشهر رجالاتها كرماً وشجاعة . وبطبيعة قربه من زوارة كانت له صلة برجالها المشهورين . وكانت إذ ذاك محتلة بالطليان فخيف عليه من التأثر بهذا الإحتلال . فاتصل به قائمقام الجوش الشيخ محمد ابن أبي القاسم المحمودي ليتحدث إليه في عدم الإصغاء إلى الدعايات الباطلة والانضمام إلى إخوانه المجاهدين. وبينما كانت المكاتبات جارية بينهما وكان الشيخ أبو القاسم خيشة المحمودي يفكر في الهجوم على الشيخ حرب . وقد وصلت أخبار هذه المؤامرة إلى الشيخ حرب فاستعد للطوارىء ، وأرسل إلى زوارة يطلب نجدة . وقبل أن يصل الشيخ محمد بن أبي القاسم مع الشيخ حرب إلى نتيجة هجم الشيخ خيشة على الشيخ حرب في حلته وكان على استعداد لمقابلة هذه المباغتة . ووصله أثناء المعركة أربعون فارساً من زوارة مردفين ، وكنت لا تسمع إلا طلقات الرصاص في نحور الرجال . وكانت معركة كبيرة قتل فيها من الرجال البارزين الشيخ أبو القاسم خيشة المحمودي ، قتله محمد بن الوحيشي من قبيلة الأعاقيب النوايل ، وكان موجوداً مع الشيخ حرب وقت الهجوم عليه ، والشيخ علي الخنجاري ، وأخوه الشيخ سعيد من الصيعان ، والشيخ مفتاح الحراري من الحرارات وغيرهم ، وانكسرت فيها رجل الشيخ حرب ، وأسفرت المعركة عن انتصار الشيخ حرب وأنصاره .

وقد اعتبر الشيخ حرب هذا الهجوم عليه إهانة له ولقومه ، وتعدّياً على كرامته فجاهر بانضمامه إلى الطليان هو ومن معه وانحازوا إلى زوارة. وفشلت فكرة محمد بن أبي القاسم في ضم الشيخ حرب إليه بسبب سوء تصرف أبي القاسم خيشة ، وكان عليه أن يتذرع بالصبر في جلب زعيم النوائل إلى صفه ، خصوصاً وأن هناك من ينافسه في استمالته إليه ، وقد انفرد بهذا التدبير الخاطىء من غير أن يستشير الشيخ « سوف » فذهب ضحية خطئه ،

وخسر المجاهدون قبيلة من أشجع القبائل العربية في طرابلس وهي قبيلة النوائل، وألحق الضرر بنفسه وبغيره، وقديماً قالوا: « في العجلة الندامة ».

الخلاف بين مصراتة وترهونة

لا بدّ لمن يكتب في تاريخ الحرب الطرابلسية أن يلاقي بعض الصعوبات في تحرّي الحقائق. وقد رأيت أن أقتصر على ما ظهر لي من أسباب هذا الخلاف تاركاً ما وراء ذلك للزمن فهو كفيل بإظهار ما خفي، أو ما ترك لأسباب اقتضت ذلك.

أسبابه :

من أهمّ الأسباب الظاهرة لهذا الخلاف النزاع على مسلاتة، فكل من مصراتة وترهونة تصرّ على أن تكون تابعة لها.

ومنذ أن أسست حكومة مصراتة حلّت مصراتة محل مدينة الخمس، وأصبحت كل البلاد التي كانت تابعة لمدينة الخمس تابعة لمدينة مصراتة، ومن ضمنها مسلاتة، خصوصاً وقد امتدّ نفوذ مصراتة إلى «قصر خيار» الذي لا يمكن الوصول إليه إلا من طريق مسلاتة.

وقد أقام فيها رمضان السويحلي في أواخر سنة ١٩١٥ الحاج فرج بن ابراهيم نائباً عنه. ولما جاء إليها صفي الدين في أوائل سنة ١٩١٦ خرج منها مندوب مصراتة؛ فانتهزت ترهونة هذه الفرصة وأقامت فيها مندوباً عنها. وبعد أن أجلى رمضان صفي الدين عن أرفلة رجع إليها وطرد منها مندوب ترهونة. ومن هنا أخذ الخلاف يشتد. وناصر فريق من زعماء مسلاتة ترهونة، كما ناصر فريق آخر منهم مصراتة، واتسعت شقة الخلاف بين الفريقين ونشبت بينهما الحرب في شوال سنة ١٣٣٤هـ أغسطس سنة ١٩١٦م.

ولم يكن لمسلاتة في هذا مصلحة ، ولو خيّرت لما اختارت أحد الطرفين . ولكنها رغبة الزعماء التي طالما وجهت الشعوب إلى الوجهة غير الصالحة .

وانتهز الطليان الفرصة فكانوا يزيدون الفتنة اشتعالاً ، وكان الوطن كله في خطر من هذه الحرب الداخلية التي استمرت خمسة أشهر ، ثم دفع الله شرّها . وسنذكر قريباً كيف كان ذلك .

السياسة التركية

في طرابلس وبرقة

بعد أن انضمت إيطاليا إلى الحلفاء وانضمت تركية إلى ألمانيا [1] في الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فكّرت تركية في الانتفاع من الثورة القائمة في طرابلس على الطليان . وقد هيأت ظروف الحرب لهذا التفكير بما جعله منتجاً . ذلك أنه بعد إعلان تركية الحرب على الطليان أصبح كل ما بينهما من المعاهدات والاتفاقات ملغى . فإذا أضيف إلى هذا قيام الثورة فيها على الطليان ، وحاجة الطرابلسيين إلى المعونة تبين أن اتصال الترك بطرابلس جد ميسور مفيد . ومن الممكن تقوية الحركة العدائية القائمة فيها ضد الطليان والانجليز بإمدادها بما يزيدها قوة واشتعالاً من المال والسلاح سواءً في طرابلس أو في برقة .

لهذه الأغراض السياسية جددت تركيا اتصالها بحركة الجهاد في طرابلس — بعد أن تنازلت عنها في معاهدة أوشى سنة ١٩١٢ — فإن نجحت كانت الغنيمة لها ، أو شريكة فيها ، في مقابل ما قدمته من مال قليل ، وسلاح أقل ، وإن خسرت كان الغُرم كله على الطرابلسيين .

---

(١) انضمت إيطاليا الى الحلفاء في نوفمبر سنة ١٩١٥ وانضمت تركية الى المانيا في ديسمبر سنة ١٩١٥ .

الترك في برقة :

كانت الحرب قائمة في برقة بين العرب والطليان أثناء الحرب الكبرى سنة ١٩١١ ، وكان القائم بشؤونها والمدير لحركتها هو السيد أحمد الشريف . ولم تترك السياسة الإيطالية فرصة للتأثير عليه لتهدىء من حدّته ضدّها ، كما كان الإنجليز في مصر يلتمسون رضاه خوفاً من انتمائه إلى الترك . والترك ينظرون إليه بعين العطف طمعاً في انتمائه إليهم ضد الإنجليز .

ومهما كان من شأن السياسة التركية ، أو الانجليزية ، أو الإيطالية فلا يمكن لإحداها أن تنفذ إلى برقة من غير طريق السيد أحمد السنوسي ، لذلك كان دائماً ملتقى تفكير هذه السياسات الثلاث ؛ والفائز هو الذي يمكنه أن يستميله إلى جانبه .

وبما أن أحداثاً وقعت للسيد أحمد كان لها اتصال بسياسة مصراتة ، لذلك كان ضرورياً أن نتناولها بما يجعلها مفهومة لدى من يعنيهم فهم الحقائق . أما الذين يتطفلون على التاريخ ، ويستبيحون لأنفسهم التهجّم على أعراض الناس بالبهتان وقول الزور فالحقائق كفيلة بإبطال مفترياتهم .

السيد أحمد الشريف :

المجاهد المخلص ، وعدو الطليان اللدود ، ووارث سرّ جده السيد محمد ابن علي السنوسي . وبانتقاله من برقة ماتت الدعوة إلى الله ، في بادية برقة ، كما انقطع الجهاد منها حتى تجدد بأول هجوم على أجدابية في إبريل سنة ١٩٢٤ . وهو بداية حرب السيد عمر المختار .

ولما غزت إيطاليا طرابلس في أكتوبر سنة ١٩١١ كان السيد أحمد في الجغبوب ، ولم يلتحق بالمجاهدين في برقة في جهة درنة إلا في مايو سنة ١٩١٣ بعد سفر أنور إلى الآستانة .

وكان أنور باشا قد ذهب إلى برقة بعد الاحتـــلال الإيطالي ومعه بعض الضباط ليكون على صلة بالحرب الطرابلسية . واستقر في الجبل الأخضر مدة ، وكان مدة بقائه على صلة بالمجاهدين . ثم ما لبث أن وقعت أحداث في تركية في أوائـــل سنة ١٩١٢ بسبب الثورات التي أحدثتها دول البلقان فاضطر إلى مغادرة برقة ، وقبل أن يغادرها وكل قيادة المجاهدين إلى عزيز بك المصري. وكان من ضمن المجاهدين بقية منجند الأتراك الذين كانوا في برقة.وذهب أنور إلى الجغبوب لمقابلة السيد أحمد الشريف لأنه ـ إذ ذاك ـ ما زال مقيماً بالجغبوب . ومنها توجه إلى الآستانة على طريق مصر . وبقي عزيز المصري نائبـــاً عنه في رياسة المجاهدين .

ولما عقدت معاهدة أوشى بين الحكومة العثمانية والطليان في أكتوبر سنة ١٩١٢ أصدرت الحكومة العثمانية أوامرها بالانسحاب إلى جميع الضباط والعساكر الموجودين في طرابلس وبرقة . فأصبـح عزيز المصري مضطراً إلى امتثال الأمر بالانسحاب . وكان الأمر بالانسحاب صريحاً في ألاّ يترك في برقة شيئاً من معدّات الحرب .

أخذ عزيز المصري يستعد للسفر ، وأخذ كلّ ما كان معه وسافر من برلـين سنة ١٩١٣ .

فاعترضه المجاهدون ، وحصلت مشادة بينه وبينهم أدّت إلى مقتلة كبيرة بين الطرفين . وننقل تفصيل هذه الحادثة عما كتبه الأمير شكيب أرسلان في تعليقه على حاضر العالم الإسلامي ج ٢ ص ١٢٤ ، ١٢٥ الطبعة الثانية .

قال الأمير شكيب :

« ولما نشبت حرب البلقان ألحّ الأتراك على أنور بالرجوع إلى الآستانة فرجع

مكرهاً وسلّم القيادة إلى عزيز بك المصري الذي واصل قتال الطليان . ثم لما عقدت الدولة الصلح مع إيطاليا سنة ١٩١٢ رأى عزيز بك نفسه مضطراً إلى ترك القتال ، فسحب العسكر النظامي الذي كان في برقــة ، وكانوا زهاء أربعمائة ، وأخذ الأسلحة التي أمكنه أخذها ، وسار قاصداً الحدود المصرية . وهو بهذا لم يعمل إلا بحسب الأصول الدولية ، ولكن المجاهدين السنوسيين نقموا عليه أن عطل المدافع التي بقيت عندهم ، ودفن القراطيس والقذائف في الأرض ، هذه روايتهم التي رووها لجميع الناس ، وحرروها وقدموها إلى الآستانة والله أعلم بها .

ثم إن عزيز بك أبى أن يسلّم العرب البنادق التي مع عسكره ، وذلك وفقاً للأصول الحربية التي تقضي بعد انعقاد الصلح بين تركيا وإيطاليا ألا يسلّم العسكر العثماني أسلحته لأعداء إيطاليا . ولكن العرب لم يقبلوا هذا العذر أيضاً ، ولم يفهموا كيف أن الدولة بعد أن عقدت الصلح مع إيطاليا مكرهة مرغمة بسبب حرب البلقان تعود فتسحب هذه القوة الضئيلة التي كانت باقيــة لها في برقة ، ثم تأبى أن تترك لهم البنادق التي كان يحملها الأربعمائة عسكري الذين مع عزيز بك ، ولذلك أصروا على عزيز بك في تسلـّمهم البنادق . وبدأوا أولاً معه بالجدال ، وانتهوا أخيراً إلى الجلاد ، فوقعت حادثة مؤسفة مؤلمـة ، نرى من واجبات الأمانة التي تلزم المؤرخ عند ذكر الوقائع ألا ندعها مسكوتاً عنها كيف كان الخطأ فيها .

وذلك أن الأعراب بجهلهم عندما قطعوا أملهم من تسلـّم البنــادق بالرضى أطلقوا الرصاص على العسكر العثماني ، وكان قد خيـّم في دفنة غربي السلوم ، ولم يبق إلا أن يصل الحدود . ولعلهم قتلوا أو جرحوا بعضــاً من العسكر ، فأمر عزيز بك بمقابلتهم بالمثل ، فنشبت معركة سقط فيها أكثر من ستين قتيــلاً من العرب ، وبضعة عشر قتيلاً من الجند . وعند ذلك امتد صريخ العرب بعضها إلى بعض ، وأقبلت من كل صوب تريد الانتقام من عزيز بك وعسكره . وهذا كله

في دفنة والأراضي المسّماة بالبطنان ، وأخذت العرب تجتمع لمهاجمة الجند النظامي . وكان السيد أحمد الشريف السنوسي في الجبل الأخضر . وقد سفر الجو بينه وبين عزيز بك المصري بسبب سحب هذا العسكر النظامي وتخليته لبرقة . ولكنه لم يكن ليرضى أن تكون النهاية قتل المسلمين بعضهم بعضاً، وأن يوقع العرب بجند الدولة التي كانت تحافظ على بلادهم . فأرسل السيد السنوسي الأكبر [1] الشهيد السيد عمر المختار لتلافي الشر ومنع الأعراب من الهجوم ، فقطع عمر المختار مسافة أربعة أيام في يوم واحد، مواصلاً الإغذاذ إلى أن أدرك العرب قبل هجومهم ، فحجز الشر ، وأبلغهم ما في مقاتلة عسكر الدولة من الفضيحة والشماتة وسوء القالة ، وسد أبواب عواطف الدولة على عرب طرابلس، وما زال بهم حتى أقنعهم بأمر السيد السنوسي أن يتركوا ثأرهم ، ويعدوا هذه الواقعة كأنها لم تكن . وفي مقابلة ذلك أخذ لهم ـ فيما سمعت ـ البنادق التي كانت مسألتها هي سبب الشر الذي وقع.ولكن عزيز بك علي المصري وصل إلى مصر ، ثم إلى الآستانة وقد امتلأ صدره وغراً على السنوسية ، كما أنهم هم أيضاً قدّموا الشكوى بحقه إلى الدولة بعد أن صار أنور ناظراً للحربية ، واتّهموه بأشياء كثيرة أحالته الدولة من أجلها إلى المحاكمة ، ثم خلّت بعد ذلك سبيله بشرط أن يغادر تركيا إلى مصر وطنه ، في خبر ليس هذا محله ؛ لأنه يتعلق بموضوع الحركة العربية على تركيا أكثر مما يتعلق بطرابلس الغرب » .

هذا ما كتبه الأمير شكيب أرسلان في هذه الحادثة المؤلمة ، وهو صريح في أن ما فعله عزيز المصري موافق للقانون العسكري .

وكانت إيطاليا ترى في السيد أحمد مصدر الخطر على وجودها في برقة ، فكانت تحاول بكل الوسائل أن تلين من قناته . ففي أواسط سنة ١٩١٣ توسلت إليه بجناب الخديو عباس حلمي الثاني ، فأرسل إليه وفداً من : المأمون ،

---

(١) يعني السيد أحمد الشريف .

والسنوسي ، ومصطفى ، أولاد السيد عبد المتعـال الإدريسي ، ومعهم عبد الحميد بك شديد ، وقابلوه بالجبل الأخضر ، وطلبوا منه ـ باسم الخديو ـ الكف عن القتـال ، على أن يتوسط سموّه لحمل إيطاليـا على التساهل معه ، فاعتذر الوفد ولم يقبل هذه الوساطة .

ونشبت الحرب العالمية في أغسطس سنة ١٩١٤ وأرادت تركيا وألمانيا أن تستغلا نفوذ السيد أحمد في برقة ، وحركة الجهاد القائمة فيهـا في إحداث ثورة على حدود مصر الغربية ضـد الانجليز لشغل أكبر عـدد ممكن من الجيوش الانجليزية عن المشاركة في الضغط على قناة السويس ، فاختير جعفر باشا العسكري للقيام بهذه المهمة ، فجاء إلى مصر واتصل ببعض رجالاتها وانتهى به السير إلى أن اتصل بالسيد أحمد فكان موضع ثقته وتقديره . ولم يلبث أن التحق بـه نوري بك أخو أنور باشا والكونت مانسمان [1] الألمـاني بطريق الغواصة ، وتمكنوا بما معهم من المال أن يكسبوا أنصاراً وصاروا يعملون للغاية التي جاءوا من أجلها وهي إحـداث الثورة على الإنجليز . ثم لحق بهم الشيخ سليمان الباروني في فبراير سنة ١٩١٥ بطريق الغواصة أيضاً لهـذا الغرض ولكنه عومل معاملة سيئة من السيد أحمد حتى أصبح شبه مسجون في خيمته ، فرجع الى الآستانة في غواصة في ديسمبر سنة ١٩١٥ . وفي هذه السنة لحق بهم عبد الرحمن بك عزام للغرض نفسه .

ويقول أمين سعيد : « وحمل نوري بك كتاباً خاصاً من أخيه أنور باشا إلى السيد أحمد يخبره فيه بإعلان الجهاد ويدعوه للاشتراك فيه ، ويقول له : « إن الخليفة عيّنه نائباً عاماً له في برقة ، ومنحه حق إعطاء الرُّتب والنياشين » [2] .

---

(١) أقام الكونت مانسمان مدة طويلة في بلاد المغرب وكان يمثل فيها الجاسوسية الألمانية . وهو من ضباط الجيش الألماني المشهود لهم بالتفوق .

(٢) هذه النيابة من قبيل المغريات السياسية التي يقصد بها التأثير على السيد أحمد للانتفاع به في تنفيذ أغراض مخصوصة . خصوصاً وقد جاءت في زمن لم تكن طرابلس فيه تابعة للآستانة ولم يكن لسلطان تركيا حق شرعي في طرابلس .

وجاء نوري بصندوق منها لتوزيعه على الزعماء والرؤساء. كما جاء برتب واوسمة ـ لأعضاء الأسرة السنوسية ـ .

وقد أصبح مفهوماً لدى السيد أحمد أن جعفر باشا ورفاقه إنما جاءوا لمحاربة الإنجليز على حدود مصر . فكان يعارضهم ، ويحاول إقناعهم بعدم نجاح هذه الحركة ، وقد أدرك حرج موقفه ، ولكن جعفر باشا ورفاقه لم يبالوا موقف السيد أحمد ، واستمروا في دعايتهم ، واختلطوا بالمجاهدين ورؤسائهم ، وبمشايخ القبائل وكبار الإخوان وبذلوا من المال والدهاء السياسي ما أقنع الكثير من هؤلاء بفكرتهم ، وأفلت الأمر من يد السيد أحمد ، وصاروا ينتظرون الفرصة للتنفيذ .

وفي سبتمبر سنة ١٩١٥ أرسل السلطان حسين كامل إلى السيد أحمد وفداً من السيد محمد الشريف الإدريسي وابنه السيد محمد ميرغني ، وقابلاه في المسيعيد ، وبلّغاه نصيحة السلطان حسين بعدم الانضمام إلى الأتراك والألمان ، وعدم الإصغاء إلى دسائسهم وحمل الوفد كذلك كتباً من السر هنري مكماهون نائب ملك الإنجليز في مصر ، ومن الجنرال مكسويل قائد جيش الإحتلال الانجليزي في مصر إلى السيد أحمد ينصحانه بمثل ما نصحه به السلطان حسين كامل . ويعدانه ـ إذا التزم الحياد ـ بالمساعدة على استقلال بلاده والتوفيق بينه وبين الطليان .

وفي الوقت الذي كان الإنجليز يحاولون فيه بهذه الطرق الدبلوماسية كسب الوقت لإتمام معدّاتهم والتأثير على السيد أحمد كان أنور باشا يرسل إلى أخيه نوري في برقة الأمر تلو الأمر بأن يتحرّش بالإنجليز ويحمل السيد أحمد على مهاجمتهم . وكان يكتب إلى السيد أحمد ـ في إلحاح ـ بمعاضدة نوري ، وأنه لا يقبل له عذراً في التباطؤ عن غزو مصر . وبلغ الأمر بنوري أن كتب إلى أخيه أنور يقول له : إن السيد أحمد لا يريد معاداة الانجليز ، وبعث أنور إلى مصر بإشاعات ضد السيد . ولما كثرت الإشاعات ضده قال الأمير

شكيب : « استدعى السيد أحمد نوري بك وقال له : ها أنذا حاضر للمسير فلا تقدر أن تقول إن العائق كان مني ؛ وإنما إذا فشلت هذه الحملة فلا أكون أنا المسؤول ، وركب السيد ، ومعه نوري قائداً أول ، وجعفر العسكري قائداً ثانياً . وكان كل ما جمعوه من الجند أربعة آلاف » .

هذا ما رواه الأمير شكيب ، وهو صريح في أن السيد اضطرّ أخيراً إلى الموافقة .

ولما اعتزم السيد العمل كان للإنجليز جيش لا يقلّ عن ثلاثين ألفاً .

ولما يئس السيد محمد الشريف الإدريسي من التأثير على السيد أحمد رجع إلى مصر هو وابنه واجتمع بالسلطان حسين وبكبراء الإنجليز وأخبرهم أن الأمر خرج من يد السيد أحمد ، وهو وإن كان شديد الرغبة في عدم الهجوم على مصر ولكنه مغلوب على أمره ، وأن الحرب واقعة لا محالة. واقترح عليهم أن يتصلوا بالسيد إدريس ، فأذنوا له أن يكاتبه في ذلك فكاتبه . ومن هذا الوقت تحوّل مجرى السياسة الإنجليزية الإيطالية إلى السيد إدريس . وجرت المكاتبات بينه وبين الطليان والإنجليز بواسطة محمد الإدريسي لتسوية ما بينهم وبين السنوسية من خلاف .

الهجوم :

ابتدأ الهجوم على الإنجليز في ١١ ديسمبر سنة ١٩١٥ واحتلّ الأتراك السلوم ، وجلا الإنجليز عنها إلى مطروح ، وتبعهم نوري ليتحرّش بهم هناك فثبتوا له ، ودارت بين الفريقين معارك كان أشدّها معركة بئر ماجد يوم ٢٤ ديسمبر سنة ١٩١٥ قتل فيها نحو ٣٠٠ مجاهد. وفي ٣١ منه احتلّ الإنجليز مرسى مطروح. ثم معركة العقاقير يوم ٢٩ فبراير سنة ١٩١٦ ، وكانت الفاصلة ، وفيها أسر جعفر باشا العسكري ونجا نوري بك بأعجوبة ، واحتلّ الإنجليز سيدي براني ، وفي يوم ١٤ مارس سنة ١٩١٦ استردّ الجيش البريطاني السلوم واستولى على

معسكر السنوسية وانتقل السيد أحمد مع بعض رفاقه إلى سيوه ، ومنها إلى الواحات ، وهناك قاومه الإنجليز فارتد إلى سيوه فلحقوا به وحصلت بينه وبينهم معركة في ٨ فبراير سنة ١٩١٧ دامت نحو ٢٠ ساعة وكانت الفاصلة . وكسر جيش السيد أحمد والتجـأ هو إلى الجغبوب ومنها أرسل إلى ابن عمه السيد إدريس يستأذنه في الرجوع إلى الجبل الأخضر فأبى ، وأبدى له رغبته في عدم بقائه في الجغبوب ، مستنداً إلى ما كتبه إليه الإنجليز ، وهو – كما يقول الأمير شكيب – « إن بقي السيد أحمد في الجغبوب فإنهم يهاجمون الجغبوب ويستولون عليها » . فسافر من الجغبوب إلى جالو على طريق صحراء قرضبة . ومات كثير من إخوانه في هذه الصحراء جوعاً وعطشاً . قال الأمير شكيب : « ولم يتوقف السيد أحمد في جـالو وأوجلة إتقاء الخلاف مع ابن عمه سيدي إدريس[1] » فسافر إلى سوكنة . ويقول الأمير شكيب « ومعه ثلاثة آلاف».

وخلا الجو في برقة للسيد إدريس . وتحت تأثير ما تضمّنته المكاتبات التي بينه وبين الإنجليزوالطليان من اقتراحات قبض على من بقي من الترك وأنصارهم: فسجن بعضهم ونفي موسى بك اليمني إلى الكفرة ، وبقي نوري بك والأستاذ عبد الرحمن عزام في البطنان فأرسل إليهما بالحضور إلىأجدابية فحضرا فحاولا إقناعه بمحاربة الإنجليز ثانية فرفض بشدة . ولما يئس عبد الرحمن عزام ونوري من إقناعه بحرب الإنجليز والطليان سافرا إلى مصراتة في أواخر سنة ١٩١٦ م ، وكان بها رمضان السويحلي قائماً بحركة الجهاد وكانت إذ ذاك أقوى مراكز الجهاد في طرابلس .

---

(١) جاء في معاهدة عكرمة التي أبرمت في إبريل سنة ١٩١٧على أساس محادثات الزويتينة في أواخر سنة ١٩١٦ على لسان السيد إدريس ما يقتضي منع السيد أحمد من دخول برقة . ونصه : « البند العاشر ـ نتعهد بأن نبعد عن قطر برقة كل مسبب للفساد ، أو ساع في إيجاد الفتن بيننا وبين الحكومة الايطالية وغيرها من أصدقائنا وأصدقائها » . وأول من طبق عليه هذا البند هو السيد أحمد ومن معه .

وبسبب مكاتبات السيد محمـد الشريف الإدريسي تهيّأت الفرصة للسيد إدريس السنوسي للمفاوضة بينه وبين الإنجليز والطليان ، فسافر السيد محمـد الشريف الإدريسي وولده من القاهرة إلى بنيغازي مع الوفد الإنجليزي للاجتماع بالوفد الإيطالي . وكان الوفد الإنجليزي مؤلفـاً من اللواء طلبت باشا وأحمد حسنين ، والوفد الإيطالي من الكلونيل بيلا ، والكوماندتور بياجينتي .

وسافر السيد الإدريسي مع الوفدين إلى الزويتينة حيث كان السيد إدريس في انتظارهم ، ويقول أمين سعيد : « إن المحادثة كانت مع الوفد الإيطالي ، أما الوفد الإنجليزي فكانت مهمته التوفيق بين الطرفين ، لأنه يرى أن النزاع بين الإنجليز والسنوسية انتهى بالتغلب على السيد أحمد وإبعاده عن الحدود المصرية » واتفق السيد إدريس مع الوفد الإيطالي على أساس المعاهدة وهو : انتهـاء حالة الحرب بين الطرفين ، واعتراف الإيطاليين بالإمارة السنوسية للسيد إدريس على جالو ، وأوجلة ، والكفرة ، والجغبوب ، في داخـل واحات برقة وهي أشبه بالصحراء منها بالقرى ، لا ثروة فيها ، ولا حضارة ولا علم. واحتفاظ الإيطاليين بما بأيديهم من مدن برقة وقراها ، ومن الأراضي الساحلية وبقائهم فيها ، وإقامة الحدود بين الأراضي الساحلية ، والأراضي الداخلية (١) .

واتفق الطرفان على صيغة المعـاهدة ، وحملها الوفد الإيطالي لعرضها على حكومة رومة. وفي إبريل سنة ١٩١٧ أقرّ الطليان مشروع المعاهدة وأخطروا الوفد الإنجليزي بذلك . وحضر الوفـد الإنجليزي والوفد الإيطالي إلى طبرق ووافاهم السيد إدريس في عكرمة ـ وهي بئر قريبة من طبرق ـ وتمّ الاتفاق نهائياً على المعاهدة ، ووقّع عليها الأميرالاي دوبنا الإنجليزي ، والكومندتور لويجي بنتور الإيطالي ، والسيد محمد إدريس السنوسي .

ويظهر مما نقله أمين سعيد أن المعاهدة التي نقلنا منها البند العاشر هي التي

---

(١) حددت بالفعل على خريطة رسمت قبل انتهاء المفاوضة .

وضع أساسها في الزويتينة في أواخر سنة ١٩١٦ ووقعها الطرفان في عكرمة إبريل سنة١٩١٧.وأطلق عليها معاهدة الزويتينة،باعتبار أن قواعدها ُوضعت في محادثات الزويتينة . وهي معاهدة عكرمة لأنها ُوقع عليها في عكرمة .

سياسة المعاهدات :

وبعد أن طرد الإنجليز السيد أحمد الشريف السنوسي من برقة سنة ١٩١٥ م وانفرد إدريس بالإشراف علىأمورها طلب منه الإنجليز والطليان عقد معاهدات فلم يمانع . وانتهزوا فرصة استسلامه لهم فسلبوا منه كل شيء ، ولم يعطوه شيئاً .

ونحب أن ننقل الى الليبيين نصوص هذه المعاهدات التي بقيت حقبة من الزمن في طي الكتمان ، والتي كانت أول حجر وضعه إدريس السنوسي في فصل برقة عن طرابلس ليروا ما كسبه إدريس لبرقة ؛ وما أصاب الوطن من تقسيم وضياع حقوق .

اتفاق الزويتينة :

بدأت المفاوضات في الزويتينة في أواخر سنة ١٩١٦ واستمرت بين أخذ وردّ بين السيد إدريس وبين الإنجليز والطليان إلى إبريل سنة١٩١٧حيث وقّع عليه الطرفان في عكرمة . ولذلك يعرف هذا الاتفاق بمعاهدة عكرمة . وهذا نصه :

اتفاق الزويتينة

شروط تمهيدية لراحة خواطر أهل الوطن

البند الأول ـ مستعدون لعمل الترتيب في الكف عن المحاربة في قطر

برقة (سيرنايكا) وذلك بمنع التعديات سواء كان عن الطليان والعرب الموجودين معهم والتجار بحيث يصير التعامل بين عرب الداخل والعرب الذين تحت النقط الإيطالية بكل حرية في المستقبل .

البند الثاني ــ التجارة يمكن إجراؤها بكل راحة . بحيث التجار العرب يجوز لهم التردد إلى الداخلية والوصول إلى الأدوار . ومثل ذلك عرب الداخل يتاجرون بكل حرية وبدون سلاح .

ونظراً لوجود الفتن ، فطرق التجارة بيننا تكون منحصرة مؤقتاً في ثلاث نقط ، وهي: بني غازي ودرنة وطبرق بحيث يمكن لنا حصر التجارة في الجهات المذكورة حتى لا تتعدّى لغيرنا . وعند انتهاء الفتن تطلق التجارة من جميع النقط حسب الاتفاق الذي يكون . والمحافظة على أمن البلاد تكون عائدة إلى حكومة إيطاليا في المناطق التي هي محتلة بها وإلى السيد إدريس في المناطق الداخلية الغير محتلّ بها الطليان .

البند الثالث ــ يقف الإيطاليون على حدّ نقطهم المحتلون بها الآن ولا يجددون نقطاً عسكرية زيادة على ما هو كائن ونحن كذلك . ونمنع نحن وإيطاليا وقوع التعدّيات من عرباننا وعساكرنا ضد بعض ، ونجري أشدّ العقوبات على من يتسبب في وقوع أي شيء منافٍ لشروطنا هذه . وبعد انتهاء الفتن تكون الراحة . وأن السيد محمد إدريس يتعهّد بأنه عندما يصير الاتفاق معمولاً به يحيط علم الحكومة الإيطالية بمواقع قوات أدواره . وإذا تألفت قوات مسلحة سواها بدون مسوّغ فيكون للحكومة الإيطالية كمال الحق في مهاجمتها .

البند الرابع ــ إن إيطاليا تتعهّد بإبقاء المحاكم الشرعية في الأماكن التي فيها لزوم لها وبأن تعيّن فيها قضاة علماء موثوقاً بهم ولهم صلاحية في الدعاوى المتعلقة بالنكاح والطلاق والفرائض وكل الأحكام الدينية الإسلامية. كما أن المحاكم النظامية تكون كما كانت مراعية لمبادىء الشريعة والعوائد الإسلامية . كذلك

توجد إيطاليا في برقة مدارس للعلوم والصناعات ويكون فيها تعليم القرآن وبها علماء دينيون ليتيسّر لنا إرسال أبناء العرب الممكن إرسالهم للتعليم في داخلية البلاد لا إلى جهة أخرى وليعلم من ذلك أن الحكومة الإيطالية تحبّ الدين الإسلامي وتحترمه وتسعى في نشره وتعليمه ببلاد تملكها ، وبذا يتيسّر لنا طمأنينة خواطر العرب وقبولهم لما نقوله ، وبذا نتوصل إلى ما نتمناه في المستقبل .

البند الخامس – إن الزوايا المحتلة من طرف الطليان يعيدوها لنا في المستقبل بعد الاتفاق ، كما أن إيطاليا ترد لنا الأملاك التي سيعترف بلزومها للزوايا وكانت مملوكة لها . وتكون الأملاك المذكورة معفاة من الأعشار . أما أراضي الزوايا المستعملة التي يحتلها الجند الإيطالي فتبقى بيد الطليان إلى أن يمكن إرجاعها لنا بعد الراحة . وأن الحكومة الإيطالية بمعرفتها وبناءً على طلبنا ستعيّن مرتبات للذين نعيّنهم من قبلنا بصفتهم مشايخ زوايا أي نواباً عنا وما يلزم . وذلك في الأراضي التي يحتلها الإيطاليون . ويكون لنا الحق في تعيين مشايخ زوايا في الأراضي المحتلة وعزلهم ونقلهم وقطع مرتباتهم وإعطائهم إياها . كل ذلك بشرط السبق بطلب رضى دولة الوالي .

البند السادس – وبما أنه لا سبيل الآن لحمل الناس على تسليم السلاح خصوصاً في هذه الحوادث والفتن التي يلزم فيها زيادة على أن ينزع منهم إجبارياً في المستقبل ويترك عندي . وبشرط أن نترك للعائلات العدد الذي لا بد منه للدفعة من اللصوص . ويتعهّد السيد إدريس بعدم معارضة الحكومة في نزعها السلاح من الناس . كما أن الحكومة يكون لها الحق في نزع السلاح قهراً من العائلات المعتدية على النقط والمراكز الإيطالية أو على المستسلمين للطليان .

البند السابع – يجوز للحكومة أن ترسل إلى الداخلية لدى أي شيخ من مشايخ الزوايا المعينين من قبلنا لمباشرة الأشغال التي تخصها نائباً عنها ليعرض ويُفهم الرئيس بتلك الجهة السبب الذي أوجب حضوره ، وعند وجود أسباب

يقوم بتسهيل الصلات بيننا ويتفاهم مع مشايخ الزوايا فيما يتعلق بحركات التجار الإيطاليين والتابعين لهم الذاهبين إلى الداخلية بأشغال تجارية . ويجوز للحكومة الإيطالية أن تعيّن نائباً عنها يزورنا عند وجود أسباب تدعو إلى ذلـك في محل وجودنا بمعرفة وكلائنا ومشايخ زوايانا ويجوز لنائب الحكومة الإيطالية عنـد وفوده الينا أو إلى شيخ أية زاوية أن يستصحب معه عسكراً (درك) مسلحين بالعدد اللازم لحفظه وخدمته . ويحافظ رجالنـــا عليهم خشية التعدّي، وبعد انقضاء مهمته يعود إلى مركزه .

البند الثامن - أما المسائل المتعلقة بواحات الكفرة فلا لزوم للتكلم عليها في هذا الاتفاق ومتى لزمنا أي إصلاح فبالطبع نأخذه من الحكومة الإيطالية .

البند التاسع - إن البضائع المستوردة والمخصصة لعائلة السيد إدريس ولطلبة واحات الكفرة تكون معفاة من جميع الرسوم الجمركية في جميع موانىء البلاد ما عدا تجارة السلاح فإنه لا يجوز دخوله كما أن محصولات واحتي الكفرة وجالو المحلية الممكن تصديرها على حساب العائلة المشار إليهـا تكون معفاة من جميع التكاليف الجمركية . وفي بعض الموانىء يكون تعيينها بالاتفاق بين الطرفين في برقة . تبني الحكومة الإيطالية مخـازن أو مظلات لحفظ البضائع المذكورة في الفقرتين السابقتين .

البند العاشر - نتعهّد بأن نبعد عن قطر برقة كل مسبب للفساد أو ساع في إيجاد الفتن بيننا والحكومة الإيطالية وغيرها من أصدقائنا وأصدقائها .

البند الحادي عشر - ونسبة لوجود أسباب تدعو الحكومة الإيطالية أن تمدّنا بالمساعدة المادية فإن الحكومة الإيطالية تنظر في طلبنـا بالمدد المالي بعين الالتفات وتسمح بتوصيل أدوارنا المعترف بها والمذكورة في المادة الثالثة بأقرب المراكز الإيطالية بواسطة التلفون وهذا تسهيلاً للمواصلات ولتبادل الآراء لأجل المحافظة على النظام والأمن .

البند الثاني عشر - لا لزوم للتكلم في شيء مما يخصّ مرتبات وخلافه للعائلة

السنوسية الآن بل الغرض راحة الوطن وخدمة الأمن.

البند الثالث عشر - يلزم الاتفاق استعجالاً وتمهيد الأمور لئلا يحصل عدم راحة والغرض السرعة في الأعمال والنوايا سليمة ونتفق الجميع الآن على الإصلاح وإطفاء الفتن ونعود إلى إتمام الأمور .

١٤ إبريل سنة ١٩١٧

الاميرالاي دوبتا الكومندتور لويجي بنتور

محمد إدريس المهدي السنوسي

الختم

* * *

اتفاق الرجمـــة

ووفاءً بالوعد الذي وافق عليه الطرفان في آخر اتفاق الزويتينة بالعودة إلى إتمام الأمور ، فقد عقد اتفاق الرجمة . وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة :

بما أن الحكومة الإيطالية قد عرفت بالتجربة أثناء الحرب العمومية عناية السيد محمد إدريس المهدي السنوسي في السعي معها وراء راحة البلاد ورفاهية أهلها وانتظام شغلها ورقيّها فإنها ستمنحه رتبة الأمير السنوسي وقد تقرر ما يأتي :

(١) الحكومة تفوض إلى الأمير السنوسي رياسة وإدارة واحات أوجـــلة

FHIT-R

وجالو والكفرة والجغبوب المستقلة داخلياً، وله أن يتخذ أجدابية مركزاً لأجل إدارة الواحات المذكورة .

(ب) يكون له الحق بأن يقدم للحكومة عدداً من نواب أهالي الواحات المذكورة بنسبة سكانها يقبلون في مجلس النواب لا فرق بينهم وبين النواب الآخرين ودرجتهم كدرجتهم وصفتهم كصفتهم .

(ج) يجب على الحكومة إستماع رأي الأمير وذلك في أوامرها إذا أصدرت أوامر تتعلق بالواحات أيضاً (كالأنظمة القانونية مثلاً) .

(د) يكون للأمير السنوسي الحق في التشريفات والأشعرة والنعوت المبينة على حدة في الملحق حرف (أ) .

المادة الأولى ـ ليس عند الحكومة الإيطالية ما يحملها على مخالفة السيد إدريس في رغبته بأن تكون رتبة الأمير السنوسي من بعده تنتقل بالوراثة إلى أولاده وأنساله الأكبر فالأكبر وفي الوقت الحاضر ينتخب الأمير بمعرفته أحد أفراد عائلته خلفاً له في رتبته وما يتعلق به .

المادة الثانية ـ يكون للأمير تمام الحرية في الإقامة و التجوال في جميع أنحاء القطر البرقاوي بالاتفاق مع الحكومة، والحكومة تكون مسرورة جداً كلما قدّم لها الأمير ملاحظاته على جريان الأمور لأجل مصلحة البلاد وسعادة أهلها .

المادة الثالثة ـ للأمير أن يتخذ علماً شخصياً يجوز له رفعه فوق منزله في كل مكان يقيم فيه وأيضاً في البلدان التابعة لإدارته ولكن السواحل، وما كان على الحدود من أماكن تلك البلدان لا تخفق عليها إلا الراية الإيطالية وحدها، ذلك حفظاً لسلامة أراضيها إزاء الدول .

المادة الرابعة ـ نظراً لما تنويه الحكومة من احترام الملكية وعدم التطاول على ما للجماعات والأفراد من الحقوق في أراضيهـــا فمن البديهي أنها ستراعي

مصلحة الأهالي والطائفة السنوسية وتعتبر ما سيبديه لها الأمير من رأيه وفكره عند منحها لكل شركة رخصة إمتياز لأجل إجراء أعمال إصلاحية أو تجارية في قطر بنغازي كله ، ولكي يتبين للناس أجمعين أن الحكومة لا تريد إيجاد مصالح لأحد خلافاً لأبناء البلاد من الآن فصاعداً على أرباب كل مشروع كبير يزيد رأس ماله عن ٥٠٠ ألف فرنك أن يقيموا اكتتاباً عاماً لا يقلّ عن ربع رأس المال يكون مخصصاً لأبناء الوطن ومن جملتهم العائلة السنوسية الكريمة دون غيرهم ويتركوه مفتوحاً لمدة ٦ أشهر كاملة ليشتركوا معهم في المشروع .

المادة الخامسة ـ إن الحكومة ستجعل تحت تصرف الأمير باخرة لائقة بمقامه كلما أراد الأمير ذاته أو أحد أفراد عائلة السادة السنوسية الكرام السفر .

المادة السادسة ـ سيترك لأهالي القطر البنغازي من أهالي الحاضرة والبادية ما عندهم الآن من السلاح ليحافظوا على الأمن ويدافعوا عن أنفسهم . هذا مع بقاء مجلس الشيوخ ملزماً بما فرض عليه في المادة التاسعة من الترتيب السياسي الإداري لقطر بنغازي المصدّق بأمر الولاية بتاريخ الأول من مايو سنة ١٩١٩ رقم ٢٢٦٠ وهكذا يكون رؤساء القبائل ومشايخ المشايخ هم الذين يديرون شؤون قبائلهم حسب نص القانون الأساسي ووفقاً لهذا القانون يكونون هم المسؤولين إزاء الحكومة عن حفظ النظام والأمن في الأراضي القاطنة فيها قبائلهم والتي هي بمنزلتها ، ولذلك سيلغي الأمير بصورة دائمة الأدوار وقرقولاته وكل التشكيلات السياسية والإدارية والعسكرية أية كانت من الجهات التي لم تعهد إدارتها إليه ويكون إجراء ما ذكر في الفقرة السابقة في مدة لا تزيد عن ثمانية أشهر من تاريخ التوقيع على هذا الإتفاق .

المادة السابعة ـ إن الحكومة الإيطالية تعلن على رؤوس الأشهاد أنها لا تنوي أصلاً أن تتملك أراضي الأهالي سواء كانت مملوكة لأفراد أو لجماعات فضلاً عن أراضي الزوايا لكي تعطيها ملكاً لآخرين .

المادة الثامنة ـ إن الحكومة ستجعل لمشايخ قبائل الواحات معاشات مثل

التي ستدفع لمشايخ القبائل الأخرى ـ إن هذه المعاشات ستكون دائمة وسترتب بغاية الإعتناء باعتبار دفاتر الأسماء التي يقدمها الأمير للحكومة .

المادة التاسعة ـ عملاً بالقانون الأساسي لا تفرض الضرائب إلا بعد أن يكون مجلس النواب المحلي قد بحث عن ذلك وقرّر إمكانه أو عدمه نظراً لحالة البلاد فإذا حدثت أحوال تراءى فيها من المصلحة استشارة بعض المهمين غير الحائزين لصفة النيابة فيمكن الحكومة أن تستقدمهم وتستشيرهم في ذلك الموضوع .

المادة العاشرة ـ للأمير السنوسي إذا اقتضت الحالة أو المصلحة العامة أن يشير على الحكومة بتخفيف جزاء أحد المحكومين أو يسعى في استحصال العفو له بالطرق القانونية .

المادة الحادية عشرة ـ سيعيّن في جيش برقة ضباط وصف ضباط من أهل الوطن وذلك بالطرق والكيفيات الواردة في القانون الأساسي . أما إذا لزم إرسال ضباط عسكريين من الإيطاليين وأبناء الوطن إلى الجهات التي قد فوّضت الحكومة إدارتها إلى الأمير فستعيّن الحكومة مراكزهم بالاتفاق مع الأمير وتعتبر كل الإعتبار ما يعرضه عليها في شأن سلكهم وللأمير أن يختار ضابطاً عالياً عربياً أو إيطالياً حسب رغبته لحرسه الخصوصي .

المادة الثانية عشرة ـ يعفى العرب من أهالي قطر برقة كافة من الخدمة العسكرية إلا من تطوّع بحرّيته ورضاء نفسه كما ورد في القانون الأساسي .

المادة الثالثة عشرة ـ تؤسس بكل سرعة ممكنة مدارس إبتدائية وإعدادية حسب ما يقتضيه الموقع تدرّس فيها جميع الفنون الدينية والعصرية باللغتين الإيطالية والعربية حسب التفريق الوارد في المادة الحادية عشرة من القانون الأساسي وهكذا يعترف الطرفان بلزوم تأسيس مدرستين إعدادية وعالية في بنغازي وإعدادية في درنة وواحدة رشدية في كل من طبرق وأجدابية والمرج

وعند اللزوم واحدة رشدية في كل من مراوة والزاوية البيضاء ، وأما المكاتب الإبتدائية فتؤسس كافة في مراكز الداخلية والشواطىء، ويكون جلب الأولاد لها تكليفاً إجبارياً على الأهالي المسلمين . وأما ما يختص بالنظام المدرسي فسيقرره مجلس النواب والمعارف الخصوصية التي يمكن أن تشكل لهذا الغرض.

المادة الرابعة عشرة - اللغتان الرسميتان في القطر هما : الإيطالية والعربية وفقاً للقانون الأساسي ، وأيضاً في المحاكم تكون المرافعات بالإيطالية والعربية إذا أمكن .

المادة الخامسة عشرة - الحكومة بقدر الإمكان ستدفع معاشات لبعض المشايخ السنوسية على ما يشير به الأمير ويراه موافقاً وستعترف الحكومة بإعفاء الزوايا السنوسية من كل الضرائب وداخل حدود ما كانت عليه الحكومة التركية .

المادة السادسة عشرة - إن الحكومة ستجعل للأمير معاشاً كافياً للقيام بشؤون إدارته الخصوصية ومصاريفه مع معاشات مختلفة لأفراد العائلة السنوسية على موجب الجدول المربوط بهذا الملحق (حرف ب) ويكون الدفع للأمير سنوياً، يعني تدفع الحكومة له معاش سنة كاملة من شهر أكتوبر سنة ١٩١٩ الذي جرى فيه الاتفاق بين الطرفين وتدفع معاشات العائلة السنوسية بواسطة الأمير ويكون لأفراد العائلة السنوسية الحق في انتقال مرتب أحدهم إذا وافته منيّته إلى ورثته فيكون للأمير وحده الحق في تقسيمه على الورثة حسبما يعطيه الشرع الشريف ومصلحة العائلة . والأمير بصفته رئيس العائلة يكون هو المرشد والمدير فيما يخص سلوك أفرادها وهو الكفيل والمسؤول إزاء الحكومة ، وبناءً عليه إذا ارتكب أحد منهم -لا سمح الله- بدون تعمد جريمة أو أشياء تستوجب الجزاء فلا تباشر الإجراءات اللازمة إلا بعد سماع رأي الأمير .

المادة السابعة عشرة - الحكومة ستعيّن أيضاً فيلقاً مخصوصاً للأمير يدفع

منه ما يلزم لإعاشة عــدد كافٍ من الجنود ليحرسوا شخص الأمير ويقوموا بالخدمات الشريفة وبالمحافظة على الأمن في الواحات والجهــات التي تفوض الحكومة إلى الأمير حفظ راحتها وأمنها وذلك بشرط ألا يكون دون الألف ويسوّغ زيادة عددهم باتفاق مع الحكومة .

المادة الثامنة عشرة – إن الأمير يمتنع بصورة قطعية عن تحصيل ما يقال له الجمرك وعن جباية الويركو والأعشار وغير ذلك ، ولا تعارض الحكومة في قبوله لشخصه أو لزواياه الزكاة الدينية المقدّمة له طوعاً وبدون إكراه حسبما يعطيه الشرع الشريف .

المادة التاسعة عشرة – إن العلاقات الحسنة التي بين الحكومة والأمير تقضي عليه ببذل قصارى جهده في معاونة الحكومة لأجل حسن تطبيق القــانون الأساسي فلأجل ذلك يتعهد بأن يسهّل لدى الأهالي تنفيذ هذا القانون وفروعه المشترط عرضها على مجلس النواب المحلي لكي يصادق عليها فيتمكن أبناء البلاد من تدبير شؤون أنفسهم بما يستحقون من الأحكام الحرة .

فبناءً على تلك المبادىء الحرة وتطبيقاً لها تكون التجارة حرة في كل البلاد حتى إلى أقصى الداخلية والعكس بالعكس . وستساعد الحكومة المبادلات التجارية بأحسن وجه حتى بإجراء ما يستفيد منه تجار القوافل من الأعمال النــافعة والإنشاءات الصالحة ، أما الأمير فهو من جهته يتعهد باستعمال نفوذه العظيم في الإرشاد والإقناع كي لا يحول أحد بأي وجه كان دون مدّ الطريق والسكك الحديدية ، وخطوط البريد والأوتوموبيلات ، والسيارات والتلغراف والتليفون ودون الأشغال اللازمة كرسم الأراضي ومساحتها ودون العمليات التي تقتضيها القوانين العقارية فإن مثل هذه الأشغال كلها لا بدّ منها لتعمير البلاد وترقيتها وترويج تجارتها .

المادة العشرون – إن المتعاقدين يتعهدان بأن يعيدا النظر على ما لم ينص عليه في هذا من المسائل الواردة في التسوية السابقة التي قبِلها السيد إدريس مبدئيــاً

وعلى كل مسألة تنشأ بعد هذا الإتفاق فتحلّ المسائل المذكورة بصفة ودادية وموافقة للمبادىء المقرّرة هنـــا مثلاً كيفيات تحصيل رسوم الجمرك وغيرها المفوّضة إدارتها المختارة إلى الأمير .

الرجمة في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠ الإمضاءات

* * *

ملحق حرف (أ)

بيان ما يخص الأمير السنوسي من ملحق النعوت وعلائم التعظيم والأشعرة

إن الحكومة الإيطالية ستمنح الأمير السنوسي لقب صاحب السمو لقباً فخرياً وفي الاحتفالات الرسمية يكون مكان الأمير أشرف مكان بعد الوالي . إن قدِم الأمير بصفة رسمية على كل مدينةٍ فيها مدافع وجب إطلاق المدافع إكراماً له ١٧ طلقة . وعند وصوله إما براً أو بحراً تؤدي له فصيلة من المعسكر التحية العسكرية الجارية بها العادة ، وإذا كان يقيم بصفة رسمية في مدينة واقعة في بلاد إسلامية ومرّ بحرس القشلاقات والمعسكرات وغيرها من الأماكن العسكرية وجب عليه نداء الخفراء فيصطفـّون صفاً ويقفون الوقفة التي يقال لها أتنتي (انشيه) وينفر البوق ثلاث نفرات ، وإذا كان يقيم بالصفة المذكورة وذهب إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة قامت فصيلة من الجنود لأداء التحية العسكرية له . وفي أثناء موكبه في أي موقع كان في القطر البنغـــازي ينصب على الزاوية السنوسية التي في المتصرفية التي يقيم فيها الأمير علمه والسفينة التي يركب الأمير فيها تنصب علمه في الصاري الكبير على حسب العوائد عند سفرها في البـــحر ووجودها في المياه الساحلية . وإذا طلب الامير من الحكومة الإنعام على أحد برتبة من رتبة نيشان كونت إيطالية فتعتبر الحكومة طلبه كل الإعتبار ! .

الرجمة يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٣٣٩

الموافق ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠ الإمضاءات

ملحق حرف (ب)

مقدار معاش سمو الأمير شهرياً فرنكاً إيطالياً (٦٣٠٠٠ فرنك إيطالي) معاش الخلف والمعية (١٥٠٠٠ فرنك إيطالي) أما السيد أحمد الشريف والسيد محمد عابد والسيد رضا والسيد هلال والسيد صفي الدين وأولاد السيد علي الخطابي المرحوم ، على أن هؤلاء الآخرين يعتبرون شخصاً واحداً فلكل منهم ١٠٠٠٠ فرنك إيطالي. ويكون أيضاً لكل واحدة من السيدات أمهات العائلة السنوسية الكريمة وعددهم ست معاشات شهرية ٣٠٠٠ فرنك إيطالي .

الرجمة يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٣٣٩ هـ

الموافق ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠ م

وهذا نصّ التعهد الذي أخذه الإنجليز على السيد إدريس .

قد اتفق السيد محمد إدريس السنوسي مع الحكومة البريطانية وتعهّد لها بما يأتي :

١ ـ أن يسلم جميع الأشخاص الذين يصلون للجهات الغير محتلة بالإيطاليين في مقاطعة برقة وجهات سرت سواء كان وصولهم بسبب غرق مركبهم أو لأي سبب من الأسباب متى كان هؤلاء الأشخاص تابعين لدولة بريطانيا أو لأي دولة من دول الحلفاء ، وأن يسلّم أيضاً جميع الأشخاص من أي جنسية كانت إن كانوا مسافرين على مركب بريطاني أو مركب تابع لدولة من دول الحلفاء والتجأوا إلى البر لضرر أصاب مركبهم ، ويقوم السيد إدريس بتسليم هؤلاء الأشخاص كلهم لأقرب نقطة بريطانية أو إيطالية من دون أن يمسّهم أي ضرر من تابعيه وبدون احتياج لمفاوضات جديدة بخصوصهم . وأن يسلم أيضاً جميع المصريين المحجوزين ضد رغبتهم في أقرب وقت ممكن .

٢ ـ أن يسلم إلى البريطانيين كأسرى حرب جميع الضباط الترك والضباط الآخرين المنسوبين لدولة معادية وجميع الأشخاص الذين ينتسبون لدولة معادية

لبريطانيا ويكونون تابعين لتلك الدولة إذا وقع هؤلاء الأشخاص في قبضته ، ولسيادته الخيار إذا شاء في أن يبعدهم من قارة إفريقية .

٣ ـ لا يسمح لأحد من السنوسيين المسلحين أن يقيم في «سيوة» أو الجغبوب وأن يدخل من جهة أخرى في الأراضي المصرية ولا يسمح بعقد أي اجتماع مسلح للسنوسيين قرب الحدود المصرية ويستثنى من ذلك ٥٠ من السنوسية يقيمون في الجغبوب يسمح لهم بحمل السلاح بقصد المحافظة على النظام والأمن في تلك الجهة .

٤ ـ أن يبعد من الجغبوب وبرقة كل شخص يسعى في الفساد أو يعبث بالأمن أو في إحداث القلاقل بين السنوسية والحكومة البريطانية .

٥ ـ يقوم وكلاء السنوسية بمساعدة الحكومة البريطانية بتنفيذ القوانين التي وضعتها لمراقبة التجارة بين مصر والجهات الغربية .

٦ ـ وبتعهد السيد إدريس بالقيام بالشروط المتقدمة ؛ تقوم الحكومة البريطانية بما يأتي :

أولاً ـ بفتح طريق التجارة ما بين مصر والجهات الغربية تحت القوانين الآتية :

(١) إن ميناء السلوم السوق الوحيد المفتوح للتجارة مع عرب الجهات الغربية ولا يسمح بالتجارة ما بين «سيوة» والواحات وبين الجهات الغربية .

(٢) البضاعة التي تُرد للسلوم تستحضر من الإسكندرية فقط ، وبكمية محدودة توافق عليها الحكومة . والمراكب التي تحمل البضاعة تسافر ما بين الإسكندرية والسلوم على مسؤولية أصحابها وطبقاً لقوانين الموانىء المصرية ، وليست الحكومة مسؤولة عن هذه المراكب ولا عما تحمله من البضائع .

(٣) يسمح لعدد محدود من التجار فقط تختارهم الحكومة بمزاولة التجارة بين مصر والسلوم .

(٤) جميع عرب الجهات الغربية الذين يريدون مشترى أشياء من السلوم يلزم أن يكون معهم تصريح من السيد إدريس وستكتب الحكومة إلى السيد إدريس صورة هذه التصاريح لتكون جميعها بالصورة التي توافق عليها الحكومة وليكن مفهوماً جلياً أنه إذا ظهرت علامات تدلّ على أن المؤن المشتراة من مصر أو من الأسواق الإيطالية ستصل إلى أعداء دول الحلفاء أو إذا ظهر أن شروط الإتفاق التي بين السيد إدريس والحكومة البريطانية والحكومة الإيطالية غير معمول بأحدها ففي إحدى تلك الحالتين يقفل سوق السلوم في الحال .

ثانياً ـ ولو أن الحكومة لا تسمح بوجود زوايا للسنوسية في أراضي القطر المصري أو في «سيوة»أو الواحات في المستقبل إلا أنها ستسمح لرجال السنوسية غير المسلحين أن يجمعوا الهبات التي يجود بها منتسبو هذه الطريقة في القطر المصري ، وذلك عندما يستتب الأمن ويرجع النظام الملكي في الجهات التي قد استبدل فيها بالحكم العسكري . وستخابر الحكومة السيد إدريس عندما يتم ذلك .

ثالثاً ـ الأشخاص المعتقلون في مصر والمشتبه فيهم بانحيازهم ومساعدتهم للسيد أحمد يطلق سراحهم متى تبيّن للحكومة أن إطلاق سراحهم لا يعود بالضرر لا عليهم ولا على الحكومة ، وقد سبق وأُطلق سراح كثيرين منهم . والحكومة تعيد النظر كل شهر في قائمة أسمائهم لتخلي سبيل من يمكن إطلاق سراحه منهم .

رابعاً ـ ولو أن الجغبوب ستبقى كما كانت داخلة في الحدود المصرية إلا أن إدارة شؤونها الداخلية ستعهد إلى السيد إدريس تحت مراعاة الشرط الثالث من

الشروط المتعهد بها السيد إدريس . في ١٤ إبريل سنة ١٩١٧ .

اللواء طلبت	محمد إدريس المهدي السنوسي
ممثل الحكومة البريطانية	النائب عن السنوسية

* * *

هاتان معاهدتان وقّعت أولاهما بين السيد إدريس من ناحية،وبين الإنجليز والطليان من ناحية أخرى . ووقعت ثانيتهما بينه وبين الطليان . وقد اختصّ الإنجليز بأخذ تعهد عليه في مقابلة اختصاص الطليان بإحدى المعاهدتين وكل من المعاهدتين والتعهد لا يختلف عن الآخر فيما تركه من أثر سيىء على وحدة طرابلس وبرقة .

ولم يكتف الإنجليز بما جاء في البند العاشر من اتفاق الزويتينة المشترك بينهم وبين الطليان ، بل أخذوا مثله على السيد إدريس في رقم ٤ من التعهد الخاص بهم . ولا يخفى على أحد أن السعي في الفساد ، والعبث بالأمن ، وإحداث القلاقل ، وما إلى هذه الألفاظ التي ذكرت في رقم ٤ من التعهد التي يمليها القوي على الضعيف إنما هي عبارات يقصد منها الحدّ من نشاط الوطنيين والضرب على أيدي كل من يناوىء سياسة الإستعمار أو يحاول معارضتها .

والبند العاشر من اتفاق الزويتينة وما ماثله في المعنى من التعهد الإنجليزي رقم ٤ هما اللذان بمقتضاهما منع السيد إدريس السيد أحمد الشريف من البقاء في برقة ــ بل ومن دخولها ــ بعد أن تغلب عليه الإنجليز على حدود مصر .

وقد طبّقت إتفاقية الزويتينة قبل توقيعها على من بقي في برقة من رؤساء المجاهدين والضباط الأتراك فطردوا من برقة إلى الكفرة وغيرها ، والتجأ عبد الرحمن عزام ونوري بك إلى مصراتة . وبطرد هؤلاء الرؤساء والقادة خلا الجو للسيد إدريس لمواجهة السياسة الإنجليزيةالإيطالية بمفرده،فلم يمكنه التخلص مما أملته عليه إلا بالموافقة .

وكان اتفاق الزويتينة أول حجر وضع في سياسة الفصل بين برقة وطرابلس، كما كان السيد إدريس أول من وضع هذا الحجر . وبهذه المعاهدة قضي على حركة الجهاد في برقة . وأمن الطليان بقاءهم فيها ، وحوّلوا جيوشهم وأسلحتهم التي كانت فيها إلى طرابلس . وفي هذا الوقت كانت الثورة الوطنية في طرابلس على أشدّها يتزعمها رمضان بك السويحلي ، ومختار بك كعبار ، ومحمد بك سوف وأحمد بك المريّض وخليفة بك بن عسكر، والحاج محمد فكيني ، ومحمد فرحات الزاوي وغيرهم .

معاهدة الرجمة :

وبمقتضى معاهدة الرجمة منحه الطليان الإمارة على أربع واحات في دواخل برقة لا ثروة فيها ولا حضارة ولا علم ، وهي : أوجلة ، وجالو ، والجغبوب، والكفرة . وقد جاء في هذه المعاهدة ما نصه :

« بما أن الحكومة الإيطالية قد عرفت بالتجربة أثناء الحرب العمومية عناية السيد محمد إدريس المهدي السنوسي في السعي معها وراء راحة البلاد ورفاهية أهلها ، وانتظام شغلها ورقيّها فانه ستمنحه رتبة الأمير السنوسي ؛ إلى آخر ما جاء في المعاهدة ، وقد وقّع السيد إدريس هذه المعاهدة بعد أن فهم أن إمارته منحة من الطليان ؛ وأنها قاصرة على أربع واحات في دواخل برقة هي أشبه بالصحراء منها بالقرى .

وهذا أول عهد العائلة السنوسية بالإمارة في حياتها الطويلة في برقة ؛ وهذه أول إمارة أُسندت إلى السيد إدريس السنوسي . وهي بما يحوطها من ظروف كان قبولها محلّ إستغراب من جميع مواطنيه . وكانت هذه المعاهدة أضرّ من سابقتها في إعتراف السيد إدريس بفصل برقة عن طرابلس. وقد احتاط الإنجليز والطليان في ألفاظ هاتين المعاهدتين بحيث لم يقع فيها لفظ يفيد العموم ، أو لا يكون صريحاً في برقة فقط .

وفي هذا الوقت كان في إمكان السيد إدريس أن يتصل بالزعماء الطرابلسيين في طرابلس ويتفاهم معهم على ما يجب عمله ، لأن ما كان بين برقة وطرابلس من سوء التفاهم قد زال ولم يبق له أثر بفضل ما حصل من الإتفاق في مؤتمر سرت الذي اجتمع فيه الطرابلسيون والبرقاويون في ٢١ يناير سنة ١٩٢٢ ولكنه لم يحاول ذلك .

وقد أدرك الطرابلسيون سوء عاقبة هذا التقسيم ، ولكنهم صبروا على مضض ، ولم يمكنهم أن يعدلوا من موقف السيد إدريس لأن ويلات الحرب كانت تشغلهم عن ذلك ، ولأنه لم يجعل في حسابه أن طرابلس وبرقة جزء لا يتجزأ ، ولم يحسب الإنجليز والطليان لغيره حساباً ، فوافقهم على ما تقدموا به من عروض .

وبقي الطرابلسيون ينتظرون فرصة يعبّرون فيها عن رأيهم في هذه الوحدة التي رأوا أن معاهدات السيد إدريس ضربتها في الصميم . وحينما عقدوا مؤتمر غريان في أكتوبر سنة ١٩٢٠ قرروا فيه ما يأتي :

« إن الحالة التي آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا بإقامة حكومة قادرة ، ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامي بزعامة رجل مسلم ينتخب من الأمة ولا يُعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب . وتكون له السلطة الدينية ، والمدنية ، والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقرّه الأمة بواسطة نوابها ، وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة » .

وقد أُرسل هذا القرار إلى والي طرابلس الإيطالي « مركتيلي » . وكانت هذه أول فرصة سنحت للطرابلسيين بمواجهة الطليان ـ من طريق رسمي ـ بوحدة برقة وطرابلس .

ولم يقف الطرابلسيون عند هذا الحدّ ، بل انتهزوا أيضاً فرصة مفاوضاتهم مع الطليان في مارس سنة ١٩٢٢ فاشترطوا على الطليان وحدة القطر كله من

حدود مصر إلى حدود تونس ، وتمسكوا بهذه الوحدة ، وعارض الطليان فيها ، وأصرّ الطرابلسيون على تنفيذها، فقطعت المفاوضات من أجل ذلك واستؤنفت الحــــرب .

واعتزم الطرابلسيون أن يحققوا هذه الوحدة ، وأن يجعلوا الطليان أمام الأمر الواقع ، فاتفقوا على إمارة السيد إدريس ، وأرسلوا إليه وفداً يدعوه إلى طرابلس ليبايعوه بالإمارة ، فأظهر تردداً كان من أقوى أسبابه ما كان بينه وبين الطليان من علاقات حسنة ، فحملهم إخلاصهم للوحدة ورغبتهم فيها على أن يكتبوا وثيقة البيعة بالإمارة وأرسلوها إلى السيد إدريس في أجدابية مع وفـد كان من بين أعضائه معالي عبد الرحمن عزام باشا ، فقبلها ، ووعد بتنفيذ ما جاء فيها من شروط الوحدة والشورى ومواجهة العدو صفاً واحـــداً في طرابلس وبرقة . وهذا آخر ما في إمكان الطرابلسيين عمله لتحقيق الوحدة في ظروف كانت الجيوش الإيطالية تهاجمهم فيها بالألوف ـ وقد عرّضوا من أجلهـا أنفسهم لحرب طاحنة انتهت بجلائهم عن وطنهم وتشريدهم في الأقطار العربية .

وكان في أملهم أن يقدر السيد إدريس هذا الإخلاص للوحدة ويقوم بتنفيذ شروط البيعة ، ولكنه لم ينفّذ شرطاً واحداً منها ، ولم يلبث بعد قبولها أن سافر إلى مصر وترك البلاد في أحرج الأوقات . وكانت صدمة عنيفـة خرّ من أجلها الوطن كله صريعاً تحت أقدام الإيطاليين ـ وهــاجر عشرات الألوف من أبنائه إلى مصر وغيرها من الأقطار العربية .

وبسبب عدم تنفيذ السيد إدريس شروط البيعة اعتبرها الطرابلسيون منحلّة واعتبروا أنفسهم غير ملزمين بالوفاء بها. ومنذ أن هاجروا إلى مصر سنة ١٩٢٤ وهم يشتغلون بقضيتهم على اعتبار أنهم غير مرتبطين بهذه البيعة .

* * *

هذا دور من أدوار القضية الطرابلسية كانت ظروفه تحتم على الوطنيين أن

يعملوا للوحدة ، وأن يبذلوا في تدعيمها ما استطاعوا من جهد . وقد أوجزنا فيه موقف الطرابلسيين من الوحدة، كما ذكرنا بعض مواقف السيد إدريس منها.

وإذا تتبّعنا هذه الفترة القصيرة من القضية الطرابلسية لا نجد فيها للسيد إدريس ما يوثق عرى الوحدة ، بل لو أنصفنا أنفسنا ووطننا في تتبّع أعماله فيها وتفهّم ما جاء في معاهداته مع الإنجليز والطليان لوجدنا عذراً للقائلين بأن أعماله ليس فيها ما يدعم الوحدة ، بل هي إنفصالية محضة .

وهناك حلقة أخرى من حلقات القضية الطرابلسية كانت ملابساتها في مصر، وكان العمل لها في مصر . وسردناها مفصّلة في الكتاب الأبيض ودعمنا كل حادثة بما يتصل بها من نصوص الكتب المتبادلة بين السيد إدريس وزعماء طرابلس ، ومحاضر الجلسات وما يعرفه كل مواطنينا ولا يجهله أحد ممن لهم صلة بالقضية الطرابلسية .

وبما أن اتفاق الرجمة هو الذي منح بسببه محمد إدريس المهدي السنوسي لقب أمير من قِبل ملك إيطاليا، فرأينا أن نثبت هنا نص المرسوم الملكي رقم ١٧٥٥ الذي مُنح به الإمارة [١]:

« تقديراً للأعمال التي قام بها السيد إدريس السنوسي أثناء الحرب العالمية ، والإتفاق مع الحكومة الإيطالية .. وتقديراً لهمته في التعاون مع الحكومة الإيطالية لتهدئة الخواطر في برقة ورفاهية البلاد وتقدمها ... وتقديراً وإثباتاً لفضله. وبعد الإصغاء إلى مجلس الوزراء .. وبناءً على اقتراح وزير المستعمرات؛ أمرنا بما هو آتٍ :

يُمنح السيد محمد إدريس السنوسي لقب أمير بما له من مزايا وإكرام للقب صاحب السمو . وبوصفه رئيساً منتدباً منا ليتولى إدارة واحات أوجلة وجالو

(١) نقلاً عن جريدة الثورة الصادرة في ٥ / ١١ / ١٩٦٩ .

والجغبوب والكفرة إدارة ذاتية .

كما يرخص له باختيار أجدابية كمركز رئيسي لإدارته .

نأمر بأن يسجّل هذا المرسوم وعليه خاتم الدولة في الجريدة الرسمية الخاصة بقوانين ومراسيم مملكة إيطاليا .

على كل من يخصه الأمر تنفيذ هذا المرسوم .. والعمل به » .

صدر في روما يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠ م .

فيتوريو إيمانويلي
جيوليتي ــ روسا

ومعاهدة عكرمة أو الزويتينة هي أول معاهدة عقدت بين إدريس السنوسي من ناحية ، وبين الإنجليز والطليان من ناحية أخرى .

ولما وقّعت هذه المعاهدة كان السيد أحمد الشريف يتنقـــل في الأراضي الطرابلسية بين الجفرة وسرت ، لأن إدريس السنوسي منعه من دخول برقة . وكان معه جماعة قليلة من إخوانه يفتك بهم الجوع والمرض ، وهو يتحسّر ألماً مما يشاهده ويقاسيه إخوانه من بؤس وحالة شاذة لا تمر بخاطر إنسان إلا جرحته .

واتجه السيد أحمد إلى سوكنة ــ وكان بها سيف النصر ــ وكان مضطراً إلى الحصول على ما يكفي أتباعه من المأكل والملبس ، ولم يكن لديه منه الكفاية ، ولا ما يقرب من الكفاية فأرسل إلى نوري في مصراتة يرجوه النظر في هـــذا الموقف : إما بإعانته ، أو بتسهيل الطريق له لدخول مصراتة .

وعرض نوري الأمر على رمضان ، فوافق أن تصرف له ولأتباعه إعانة . وأمر رمضان الحاج علي المنقوش ــ وكان حاكماً في سرت ــ أن يصرف أرزاقاً للسيد أحمد ومن معه ووافق نوري ومن معه من الأتراك على هذه الخطة ، تمهيداً لفتح الطريق أمامهم في المستقبل ، إذا اضطروا لذلك .

وكان مع السيد أحمد صالح الأطيوش ، وعبد الهادي البراني ، فعرض عليهما الحاج علي المنقوش أن ينضموا إليه في سرت، ويكونوا من ضمن موظفي مصراتة. ولكن السيد أحمد مانع في ذلك، فأمر رمضان السويحلي بقطع الأرزاق التي كان أمر بصرفها لهم .

سياسة الترك في مصراتة :

كان الترك في مصراتة فريقين في سياسة الاتصال بالسنوسية : فريق يريد الإتصال بالسيد أحمد على نية أن يستخدموا نفوذه في برقة ضد السيد إدريس ، لاستئناف الحرب على الإنجليز والطليان في برقة . وعلى رأس هذا الفريق نوري بك .

وفريق يريد قطع الصلة بالسنوسية من أي وجه، مكتفياً بما وقع للسيد أحمد لما لم يوافقهم على محاربة الإنجليز على الحدود المصرية . وبما عمله السيد إدريس مع الترك لما طرد من بقي منهم في برقة . وانضمّ رمضان السويحلي إلى هذا الفريق.

يتّضح من هذا أن سياسة الترك متفقة على كراهة السنوسية ، إلا أن بعضهم يجاهر بذلك وينادي بقطع الصلة بهم . وفريق يكتم هذه الكراهة ، ويريد أن يسلّط بعضهم على بعض ، وينتقم منهم بأيديهم .

وفي المدة التي كان نوري في مصراتة حدثت حادثة لها صلة بتعكير الجو بين السنوسية ومصراتة .. وهي أن جماعة من الطلبة المنتمين إلى السنوسية كانوا مع السيد أحمد في سرت، جاءوا إلى مصراتة للتجارة، وكان معهم شيء من المال يريدون أن يشتروا به شيئاً مما يلزمهم من مصراتة ، ونزلوا ضيوفاً على رجل من برقة اسمه عبد السلام ، واشتهر بضابط الحمْير ، فتآمر عليهم هو ومحمد الحداد ـ وكان شرطياً في مصراتة ـ فقتلوهم وأخذوا أموالهم ، ووضعوهم في بئر في دفنية مصراتة .

ويحاول المغرضون أن يلصقوا هذه الجريمة برمضان السويحلي ، ويقولون انه

أمر بقتلهم . ويعلم الله انه بريء منها ، ولا يمكن أن تنزل نفسه إلى هذه المحقرات . ولم يكن له فيها يد ، ولم يعلم بها إلا بعد وقوعها .. وكل ما يؤخذ على رمضان أنه لم يعاقب محمد الحداد وضابط الحمير بما يستحقون بارتكابهم هذه الجريمة .

وقد أراد نوري أن يمدّ السيد أحمد بإعانة ـ اعتماداً على ما له من نفوذ في مصراتة ـ فأرسل إليه شيئاً من المال وبعض البنادق .. ولكن الترك الذين لا يريدون الصلة بالسنوسية دبّروا مكيدة ضد هذه المعونة ، فأرسلوا من تربص للذين أُرسلت معهم ، فقتلوهم عن آخرهم ، وأخذوا ما معهم من المال والبنادق ، ولم يعلم رمضان بأمر هذه المكيدة إلا بعد وقوعها .

وكان نوري بك واهماً في تصوّره إمكان استغلال نفوذ السيد أحمد ضد إدريس في برقة ، فإن السيد أحمد كان من أشدّ الناس كراهة لقتال المسلمين بعضهم بعضاً . ولم تسمح له نفسه بمحاربة إدريس لمّا منعه من دخول برقة بعد رجوعه منهزماً من محاربة الإنجليز ، وهو في أشدّ حالات البؤس والفقر وقد تحمل أشدّ الآلام في سبيل إرضاء هذه العاطفة النبيلة .

وقد طال المقام بالسيد أحمد على تلك الحال نحو ثمانية أشهر ، ثم اتخذت له مساع من مصراتة لنقله إلى الآستانة ،وجاءته الغواصة فركبها من «مرسى العقيلة» في أكتوبر سنة ١٩١٧ م .

هذا موقف رمضان من السيد أحمد ، ولم يكن المدبّر للمكيدة وليس له بها علم ، وليس هو المرجع الأعلى حينذاك في ما يتعلق بسياسة الترك . ويعلم الله أن الترك هم الذين دبّروا المكيدة لقتل من أرسلت معهم الإعانة ، وعلى الرغم من أن نوري بك هو الذي أرسل الإعانة فقد دبرت المكيدة مناهضة لرأيه . وما كان يقصد من هذه الإعانة وجه الله ، ولكنه أراد بذلك استغلال السيد أحمد ضد ابن عمه بدليل أن الإعانة كانت تشتمل على كثير من البنادق ، وما كان السيد أحمد في حاجة إليها .

ولكن المغرضين يرمون دائماً رمضان بما هو منه براء . وهم بعملهم هـذا يكذبون على التاريخ ، ويدلّون على تحيّزهم إلى الباطل وغمط الحق . وقد أعانهم على هذا جهلهم بالحقائق وعدم التحري فيما يصل إليهم من أخبار .

ولرمضان كل العذر في أن يحترس من السنوسية ، وفي أن ينحاز إلى الأتراك الذين يذهبون إلى قطع الصلة بالسنوسية ، فإن الفتنة التي أحدثها أحمد التواتي باسم صفي الدين في أرفلة ومصراتة ومسلاتة ما تزال قريبة العهد ، وما زال الناس متأثرين بها ، ولها أنصار في كل البلاد ، ولولا ما أخذ به رمضان الناس من الشدة والحزم لما انطفأت . وما تزال فتنة « كلب السيد » في الجبل الغربي قريبة العهد، ولها أنصار يتربّصون الدوائر بخصومهم . كل هذا مما يجعل رمضان على حذر من نفوذ السنوسية . وما عرف عن السيد أحمد من طيب النفس ولين الجانب يفتح الطريق أمام دعاة الفتنة . وعلى أي حال قلّبت منـــع الأتراك السيد أحمد من دخول مصراتة لا تجده مخالفاً لمقتضيات السياسة إذ ذاك ، بـل ولا للمصلحة الوطنية ، فإن كل الظروف القائمة إذ ذاك تجعل الثورة في أقرب وجوه الإمكان .

وإذا كان هناك سبب لما حصل للسيد أحمد من التعب وما قاساه من الأهوال فإنما هو منعه من دخول برقة .

وبعد أن سافر السيد أحمد إلى الآستانة كان له فيهـــا وفي أنقرة مواقف مشرّفة ، ولاقى هناك من التكريم والإجلال ما يغبطه عليه كل إنسان يتمنى لنفسه علوّ الهمّة وحسن الأحدوثة . وقد ذكر الأمير شكيب في المجلد الثاني من تعليقاته على « حاضر العالم الإسلامي » ما يجعل السيد أحمد في مصاف الأبطال .

مناسبة :

ولهذه المناسبة نذكر نبذة تتعلق برمضان بك السويحلي من كتاب أرسل به السيد أحمد الشريف ــ وهو بماردين ــ إلى المجاهد الكبير وصفي بك الخازمي في

المحرم سنة ١٣٤٠هـ . قال رحمه الله يخاطب وصفي بك :

« نعم أيها الولد المكرم المحترم ، فإني والله تأسفت غاية الأسف على ما حصل ... » إلى أن قال : « فبالله الذي لا إله إلا هو إني كنت عازماً على إكرام رمضان بك السويحلي وإنزاله المنزلة التي ما كان يظنها . والناس الذين سموا في الفساد مثل أمين وغيره ، فهؤلاء لا حاجة لهم في صلاح الوطن ، بل حاجتهم في امتلاء جيوبهم ... » إلى أن قال : « وقد بلغني ما أساءني جداً وهو قتل المرحوم رمضان بك السويحلي فإني والله تأسّفت غاية الأسف ، لأنه كانت حاصلة منه رهبة للبلاد ومنفعة عمومية لأهلها . ونحن كل من سعى في المصالح العمومية فهو حبيبنا ... » .

هذا نوع من إحساس السيد أحمد نحو رمضان وهو لا شك يعبّر عن شعوره بمكانة رمضان الوطنية . وقد جاء فيه من الألفاظ ما يدلّ على أن رمضان بعيد عما كان يدبّره الترك

السيد أحمد الشريف

في مرسين

لما كان السيد أحمد في مرسين بتركية طلب كولونيل إيطالي مقابلته ، وفي أثناء المقابلة عرض عليه عقد صلح بينه وبين إيطاليا . فقال السيد أحمد : نحن لا نكره الصلح ، ولكن على شرط الاستقلال الحقيقي لوطننا . ثم سأله : هل عندك تفويض من حكومتك بالكلام في الصلح ؟ فقال الكولونيل : لا ، ولكن يمكنني أن أحصل على التفويض. فقال له السيد: إذاً بعد حصولك على التفويض قابل الأستاذ عبد العزيز جاويش ، واذكر له ما تريد . واتصل السيد أحمد بالأستاذ جاويش وذكر له القصة ، وقال له: أعرض عليّ الجواب .

وبعد قرابة شهر اتصل الكولونيل بالأستاذ جاويش وأفضى إليه بما تريده حكومته ، فعرض خلاصة الشروط على السيد ، فكان جوابه ما يأتي : « قل لهم لا نقبل أن تكون القوة العسكرية في أيديهم ، ولا أن تكون الشرطة منهم. وكل ما نتسامح معهم فيه هو الامتيازات الإقتصادية ، وأن يكون استثمار البلاد حقاً لهم دون غيرهم من الأجانب ، فأما حقوق الملكية فلا ننزل عن شيء منها ، وسلاحنا لا بدّ يبقى في أيدينا . وعلى غير هذه الشروط فلا سلام ولا كلام ، لأن طرابلس وبرقة ليستا ملكي لأجود بها على الطليان بل هما ملك أهلها » .

فلما رجع الأستاذ جاويش إلى الطليان بالجواب علموا ألا سبيل إلى الصلح ، فأذاعوا في الجرائد أن مفاوضتهم للسيد السنوسي غير صحيحة .

وقبل أن يقدم السيد أحمد على هذه المفاوضة أخبر مصطفى كمال بما جرى فأشار عليه بالصلح إذا طاب له ووافقته شروطه .

ونحن نقدّر للسيد أحمد الشريف هذا الموقف المشرّف من القضية الطرابلسية وتمسكه بحقوق طرابلس وبرقة على السواء واعتبارهما وحدة لا تتجزأ ، وما شرطه على الطليان من شروط كلها في مصلحة الوطن وأهله .

وقد كافأه الله بإخلاصه فأطلق ألسنة الناس بالثناء عليه ، سواء من عرفه ومن لم يعرفه .

ولد رحمه الله بالجغبوب ٢٧ من شوال سنة ١٢٩٠هـ - ١٨٧٣ م وتوفي بالمدينة المنورة يوم الجمعة ١٤ من ذي القعدة سنة ١٣٥١هـ -١٩٣٢م ، رحمه الله وشكر له.

مدة الحرب في برقة :

ابتدأت الحرب في برقة في أكتوبر سنة ١٩١١ . وانتهت في مارس سنة ١٩١٦ يوم أن استرد الانجليز السلوم وهذا إذا صح أن نسمي ما وقع بين السيد أحمد وبين الانجليز حرباً ، أما الحرب الإيطالية التي هي من أجل الوطن فقد

انتهت من برقة قبل ديسمبر سنة ١٩١٥ م . وبقيت مناوشات بين السيد أحمد والإنجليز في الواحات و«سيوة» انتهت في فبراير سنة١٩١٧ بتغلب الإنجليز على السيد أحمد .

بعد القضاء على حركة السيد أحمد

قضى الإنجليز على حركة السيد أحمد في أقل من سنة ونصف . وفي هذه المدة كانت الثورة في طرابلس مركّزة في السواحل ، وتمّ انسحاب الطليان من جميع البلدان الطرابلسية وانحصروا في مدينتي طرابلس والخمس .

وقد أيقن ولاة الأمور في الآستانة أن برقة لم تعد صالحة لتنفيذ السياسة المعاكسة للحلفاء بعد أن تغلب الإنجليز على السيد أحمد وتولى أمرها إدريس السنوسي ، فاتجهت أنظارهم إلى طرابلس ليتخذوا منها مركزاً للقيام بسياسة معاكسة لأعدائهم ، فرأوا أن يقدموا لهذا الأمر بما يجعلهم على بيّنة مما عليه الحال في طرابلس ، خصوصاً بعد ما وقع في برقة من أحداث قد يظن أن أثرها امتدّ إليها .

يحيى الباروني في مصراتة :

فكلفوا يحيى الباروني بالسفر إلى طرابلس – وكان إذ ذاك في الآستانة – لينظر الحال ويختبر وضع البلاد وشعور السكان ، فسافر في غواصة وأنزلته على « بورتة » جنوبي مصراتة ،ووصل إلى مصراتة يوم ٧ من رمضان سنة ١٣٣٤هـ ، وكان القائم بالأمر فيها إذ ذاك رمضان السويحلي ، فاتصل به وأخبره أخبار الآستانة وما تنويه الحكومة التركية من الاتصال بالثورة في طرابلس مرة ثانية وشاهد الحركة الوطنية بنفسه ودرسها على كثب .

ولم يلبث أن عاد إلى الآستانة في غواصة ومعه الدكتور عثمان [1]، وبلّغ حكومة الآستانة ما شاهده بنفسه وما فهمه من الزعماء في اجتماعه بهم، وشرح لهم ما عليه الوضع السياسي والحربي في طرابلس. كما أن الدكتور عثمان أدلى بما وصل إليه اختباره لروح الطرابلسيين، وما شاهده من تصميمهم على مداومة الحرب. فكانت معلومات يحيى الباروني والدكتور عثمان من أقوى الأسباب التي سهّلت لولاة الأمور في الآستانة أن يلحقوا طرابلس بتركية.

(١) الدكتور عثمان كان ضابطاً تركياً. وقد طوحت به ظروفه إلى السودان وجاء منها إلى طرابلس، ورجع إلى الآستانة في الغواصة التي أقلت يحيى الباروني.

إلحاق طرابلس بتركية

مهّد الترك لهذا الإلحاق فاستصدروا « فرماناً » مرسوماً سلطانياً من جلالة السلطان محمد الخامس بإلحاق طرابلس بتركية .

وقد جاء هذا الإلحاق في وقت كان الطرابلسيون محتاجين فيه إلى المساعدة فاغتبطوا له أيّما اغتباط ، وهم يعلمون أن الترك لم يقصدوا من اتصالهم بطرابلس في مثل هذه الظروف نفع الطرابلسيين ولكنها سياسة مبيّتة بينهم وبين الألمان لإشعال الثورة ضد الانجليز والطليان ربح الطرابلسيون أو خسروا. وقد مرّت على طرابلس نحو ثلاث سنوات وهي مقطوعة الصلة بتركية حساً ومعنى . ولم تفكر تركية في إعادتها إليها أو الاتصال بها من يوم أن تنازلت عنها للطرابلسيين بمعاهدة أوشي في أكتوبر سنة ١٩١٢ لأن الأحداث التي توالت عليها في الداخل والخارج ، والحرب العالمية التي انتهت بتمزيقها وسقوط الآستانة في يد الحلفاء أنهكت قواها وحالت بينها وبين التفكير في طرابلس . وما تغني عنها طرابلس وهي مهدّدة في الآستانة ، والدردنيل على وشك السقوط في أيدي الأعداء ، إذاً فإلحاق طرابلس بالآستانة كان سياسة مبيتة ـ كما ذكرنا ـ بين الترك والألمان لإذكاء نار الثورة في طرابلس واستئنافها في برقة إن أمكن من طريق وجودهم في طرابلس ليتمكنوا من شغل أكبر عدد ممكن من الجيوش الإنجليزية والإيطالية .

في سرت :

انتهز السيد إدريس السنوسي فرصة الخلاف القائم بـــين ترهونة ومصراتة وأرسل جماعة مسلحين من طرفه برياسة الشيخ صالح الأطيوش لاحتلال سرت ـ وكانت إذ ذاك تابعة لمصراتة ـ فاحتلوها على أثر ما حصل بين صفي الدين ورمضان السويحلي .

الفتنة الجائحة :

من حوادث سنة ١٩١٦ تلك الفتنة الجائحة التي وقعت في أوائلها . وهي حرب الإباضية والزنتان الأولى . حرب اشتملت على كثـــير من الشناعات ، اقتتل فيها الإخوة والمواطنون . فكانت حرباً مخرّبة ، ومقتلة إنتقامية أسفرت عن قتل الوطن كله بما خلفته من حزازات وأحقاد عجزت الأيام عن محوها .

وكانت سبباً في حرب سنة ١٩٢٠ التي كانت سبباً في إستيلاء الطليان على الوطن كله .

الباروني في مصراتة :

وقد وجدت حكومة الآستانة في المعلومات التي أدلى بها يحيى الباروني والدكتور عثمان ما أقنعها بصلاحية طرابلس لتكون مركزاً للسياسة التركية في شمال إفريقية ، وأن الثورة فيها على وضع يستحق العناية وبذل الجهود . فعينت سليمان الباروني والياً على طرابلس ، وقومنداناً عاماً لها ، وأرسلته في غواصة هو والدكتور عثمان الذي كان سافر للآستانة مع يحيى الباروني ، وأرسلت معهما ملابس ونياشين ورتباً عسكرية، ونحو أربعة آلاف جنيه ـ أكثرها عملة مجيدية ـ وآلات حربية، ونزل على مصراتة في١٧من ذي الحجة سنة ١٣٣٤هـ يوافق إبريل سنة ١٩١٦م .

ولم تترك الحكومة العثمانية التصرّف للطرابلسيين في ما كانت ترسله من

أموال وسلاح ، فأرسلت الدكتور عثمان مع الباروني للإشراف على ما أرسلته .

وعقب وصول الباروني إلى مصراتة أرسل كتاباً إلى «الشيخ سوف» في العزيزية ـ وكان رئيس المجاهدين فيها ـ وإلى الأعيان والمشايخ يخبرهم فيه بقدومه ، وهذا نصه :

« إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . عدنا ولله الحمد ـ والعود أحمد ـ إلى وطننا العزيز من دار الخلافة العظمى تحملنا عفاريت البحر السابحة فوق جبال الأمواج تارة ، وتحت عمق خمسين ذراعاً في لجج اليم أحياناً .

إلى أن قال : عدنا ولله الحمد ، ومعنا كل ما يلزم ، واستقبلنا أهل مصراتة الكرام بكل سرور وابتهاج .

هذا وقد تفضل أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ فأمر حكومته بإلحاق طرابلس الغرب بلادنا بالولايات العثمانية ، واقتضت إرادته السنية إرسالي لأجل إجراء الترتيبات اللازمة ملكية وعسكرية وتعهد أن يوالي المدد إلى النهاية كما تطلعون على ذلك في منشوره العالي الشأن .

وسنعرفكم من مركز مسلاتة بعد المذاكرة مع البطل الغيور رمضان بك ومن معه من الأبطال عن المكان واليوم الذي يصير فيه الاجتماع العمومي إن شاء الله ، فانتظروا جوابنا .

والسلام الأسنى على العلماء الأفاضل والمشايخ ورجالكم الكرام .

من أخيكم

١٩ ذي الحجة سنة ١٣٣٤ سليمان الباروني

وأرسل كتاباً بهذا التاريخ إلى المبروك المنتصر يحثه فيه على التوسط لإنهاء الفتنة القائمة بين ترهونة ومصراتة ويعلمه فيه أنه أُرسل من قبل السلطان محمد رشاد الخامس والياً على طرابلس وقومنداناً لها والمبروك المنتصر شيخ من شيوخ

ترهونة المبرزين . ومن الشجعان الذين اشتهروا في الحرب الطرابلسية . أمضى أكثر أوقاته مدة الحرب في خطوط الحرب يتولى رياسة المجـــاهدين وينظر في أحوالهم .

وقد اطلعت على كتاب بإمضاء قائد القوات الإفريقية الفريق نوري يمدحه فيه بعلو الهمّة والغيرة الوطنية وقال له فيه : « ولما نعهده فيكم من الشجاعـة والتدبير رأينا أن نوجهكم إلى خط «تاجورة» برفقة القومندان حمدي بك، وبوظيفة (معاون قومندان) وأن تأخذوا معكم الطوبجية والمدافع .... وغرضي أن تبذلوا قصارى الجهد في ضبط خط «تاجورة» ومنع التعامل مع العدو..الخ » .

والمبروك المنتصر غير مجهول للطرابلسيين في جهاده وشجاعته وقد هاجر فيمن هاجر إلى مصر سنة ١٩٢٤ وتوفي بالفيوم .

كتابه إلى إدريس السنوسي :

وقبل سفره إلى مسلاتة أرسل كتابـــاً إلى إدريس السنوسي يطلب منه الإنسحاب من سرت قطعاً للفتنة والنزاع . وهذا نصه بعد الديباجة :

«هذا وقد وصلتُ مصراتة مرسلاً من لدن حكومتنا السنية بطلب من الأهالي بعنوان والي وقومندان طرابلس . ولدى وصولي المركز وصل الخبر بأن قوة قدمت من جهة برقة تحت قيادة القائمقام موسى بك واحتلت قصر سرت بعد أن بارحتها قوة الجاندرمة التي هناك من طرف رمضان بك السويحلي باسم الدولة العثمانية ، فبادرت بإرسال جواب إلى موسى بك والشيخ صالح الأطيوش لأنه بلغني أنه مع القوة المذكورة . فجاء الجواب من الشيخ صالح مبيناً فيه أنه ما قدم إلا بأمر من سيادتكم ومن نوري باشا بعنوان « متصرّف سرت » فتأسفت لأنه كان أول أمر أصدرته متعلقاً بتجهيز قوة لمقابلة تلك القوة المنسوبة إليـكم إلا أنني أمرت قومندان القوة أن يتحاشى ـ ما أمكن ـ الدخول فـيما يكدر

الخواطر بين بني وطن واحد ودين واحد رجاء أن تتخلى القوة مختارة عن القصر بعد أن يبلغها المنشور السلطاني الذي أرسلناه إليكم .

بناءً عليه أرجو المبادرة إلى تسوية هذه المسألة إن كان أمر حركتها صادراً منكم .

٢٧ — ٢٨ من ذي الحجة سنة ١٣٣٤

فردّ عليه السيد إدريس بكتاب يقول فيه :

« ...... وذكرتم نزول عساكرنا بسرت فصحيح ذلك قبل قدومكم ، إذ كانت الفتن مشتعلة بين السويحلي وترهونة ، فأجبرنا الحال أن نطفئها بأي كان كما قال الله تعالى : « وإن طائفتان » وذكر الآية. فأرسلنا الجيش ونزل بسرت من دون إذن أحد .... وها نحن أمرناهم بأن يقفوا بالقصر [١] ...

نحن لا غرض لنا إلا اتحاد الإسلام وتخليص رقاب المسلمين فقط ، كما اننا نأمل من جنابكم معاونتنا على إطفاء الفتن ... ونحن وأنتم لا فرق بيننا ، كلنا مقصدنا شريف ومحارب تحت الراية الإسلامية العثمانية .

٨ المحرم سنة ١٣٣٥ — محمد إدريس ابن السيد المهدي

ولم يطل الباروني المقام في مصراتة ، ثم سافر إلى العزيزية مركز المجاهدين بالجهة الغربية ووصلها في ٤ من صفر سنة ١٣٣٥ . وقد مر في طريقه بسلاتة حيث الحرب قائمة بين مصراتة وترهونة ، واجتمع برمضان السويحلي وبرؤساء ترهونة وتوسط بينهما بالصلح ووقف الحرب ، فقبلت هذه الوساطة من الطرفين وأوقفت الحرب في ربيع الأول سنة ١٣٣٥ ، غير أن الحرب لم تضع أوزارها ، ولم يتمّ الصلح بين الطرفين وبقي كل منهما واقفاً في مكانه نحو ستة أشهر .

---

(١) يعني قصر سرت وجلوا عنها في شعبان سنة ١٣٣٥هـ ومن هذا التاريخ رجعت إلى نفوذ مصراتة .

استمر الباروني في طريقه إلى العزيزية . وهناك اجتمع بأعيان العزيزية والزاوية والجبل والجهة الغربية كلها ، وتلي الأمر السلطاني بإلحاق طرابلس بالولايات العثمانية ، كما قرىء الأمر العالي بتولية الباروني والياً على طرابلس [1] ، وكان ذلك بحضور جم غفير من الطرابلسيين من المجاهدين ورؤسائهم وأعيان القبائل وأشرافها .

وما زال الناس قريبي العهد بدولة الخلافة ونفوسهم متأثرة بتابعيتهم لدولة مسلمة تدين بدينهم وتعتقد ما يعتقدون. ولم يجدوا في نفوسهم غضاضة من إلحاق بلادهم بدولة الخلافة مرة ثانية ، بل وجدوا في ذلك راحة لهم وقوة على ما هم بسبيله من الجهاد . وانفضّ الاجتماع وانصرف الناس كلٌ إلى عمله ، كما انصرف الباروني لإدارة ما أُسند إليه من شؤون ، واتخذ «الزاوية» مركزاً له .

نوري وعزام في مصراتة :

لما فشل هجوم الأتراك على مصر ، وهزم الإنجليز السيد أحمد الشريف تولى الأمر بعده في برقة ابن عمه السيد إدريس فرأى من المصلحة أن تقطع صلة برقة بالترك لأن سياستهم فيها عادت عليها بالضرر والخسارة ، فعمل لذلك ، واتصل بالإنجليز والطليان وعقد معهم معاهدات .

وقد بقي من الأتراك ومناصريهم جماعة في برقة منهم نوري بك أخو أنور باشا ، وعبد الرحمن بك عزام والكونت مانسمان الألماني [2] . ولما يئسوا من تنفيذ سياستهم ضد الإنجليز في برقة ، واتضح لهم ميل السيد إدريس إلى عقد

---

(١) لم نتحصل على أمر الالحاق ولا على أمر التعيين .

(٢) كان الكونت مانسمان يمثل السياسة الألمانية في برقة ولما سافر نوري بك وعزام بك إلى مصراتة ، ولم يبق أحد من ممثلي السياسة التركية في برقة لم يعد في بقائه فيها فائدة فسافر إلى مصراتة ، وكانت معه نقود ذهبية كثيرة ، فقتل في الطريق قبل أن يصل إلى سرت ، وأخذ كل ما معه من النقود وكانت تربو على عشرة آلاف جنيه ذهباً .

معاهدة بينه وبين الإنجليز والطليان انتقل نوري بك وعزام بك إلى مصراتة فوصلاها في أواخر سبتمبر سنة ١٩١٦ وبقي الكونت مانسمان في برقة وقد أفاد وجود عزام ونوري في مصراتة الحركة الوطنية عنصراً آخر من النشاط. وقد تجلّى نشاط عزام بك في تهدئة الفتنة القائمة بين ترهونة ومصراتة، وما زال يسعى بالخير حتى قبلت وساطته وأتمّ ما مهّد له الباروني. واجتمع الفريقان في روضة سيدي أبي الأجراس في فواتير مسلاتة، وتسامحا، وتمّ الصلح بينهما. وكان ذلك في رمضان سنة ١٣٣٥، وبانتقال عزام ونوري إلى مصراتة انتقل النشاط السياسي التركي إليها.

اتفاق ترهونة ومصراتة :

كان اتفاق ترهونة ومصراتة من أقوى أسباب نجاح الحركة الوطنية، وكان بركة على جميع القطر، وكل ما وقع بعده من أدوار النشاط إنما تمّ بسببه. وقد حصل في وقت أضيف فيه إلى الجهاد الوطني عناصر قوية، فكان ـ مع ما لابسه من هذه العناصر ـ عهداً جديداً كله خير وبركة على الوطن.

تحوّل سياسي :

كانت الغواصات الألمانية تأتي إلى برقة لإمداد القائمين فيها بالسياسة التركية بما يلزمهم. ولما فشلت هذه السياسة، وانتقل عزام ونوري إلى طرابلس اتجهت الغواصات إلى مصراتة، وصارت تأتي بما يلزم لتغذية إدارة الحرب من المال والسلاح.

وفي ربيع الأول سنة ١٣٣٥ نزلت مركب على السميّرة شرقي قصر حمد بنحو ١٦ كيلومتراً برياسة محمد القابسي مرسلة من الآستانة محمّلة بالسلاح والأدوية وفيها ما ينوف على ثلاثين درّاجة. وفيها إثنا عشر صندوقاً مملوءة بالمجيدي (عملة فضية عثمانية) وحضر إليها نوري من مصراتة لتسلم ما فيها وقد طاردها

الأسطول الإيطالي وضربها بالمدافع ، ولكنها تمكنت من الوصول إلى البر سالمة . وفي اليوم الثاني جاءت بعض قطع الأسطول وأنزلت جنـــوداً للكشف عنها فكمن لهم المجاهدون وضربوهم بالرصاص وكان ذلك بحضور نوري بك وعزام بك فقتل بعضهم وفرّ الباقون .

ولم يعد غريباً أن تصبح طرابلس مركزاً لإدارة السياسة التركية الألمانية في إفريقية لأنها أصبحت تابعة لتركية ، وكان مركز هذا النشاط السياسي مصراتة .

مصراتة :

لهذه المناسبة نحب أن نعرّف بمصراتة تعريفاً سياسياً ليكون القارىء على علم من هذه المدينة .

مصراتة من أحسن المدن الطرابلسية ، وأقدمها في التاريخ ، وأشهرها في النشاط التجاري وعاصمتها المواطـــين ، وهي تبعد عن البحر بنحو عشرة كيلومترات إلى الجنوب الغربي . وميناؤها البحري قصر حمد ، وله شهرة قديمة بين موانىء البحر الأبيض المتوسط الإفريقية .

ولفظ مصراتة كما يطلق على البلد يطلق على سكانه ، فيقال للبلد مصراتة ، ويقال لسكانه مصراتة ، وقبيلة مصراتة . وكانت زمن الحكومة العثمانية تابعة في الإدارة لمتصرفية الخمس ، ويسمى رئيس الإدارة فيها قائمقاماً ، وجاء الاحتلال الإيطالي وهي على هذا الوضع .

وبعد أن أجلى رمضان السويحلي منها الطليان أسس فيها حكومة وطنية وتولى رياستها ودان له أهلها بالطاعة على طيب نفس من الكثيرين ، وعلى مضض من البعض ، وهم قلة .

وعلى هذا الوضع وجد الباروني مصراتة بعـــد مجيئه من تركية ، ووجدها

كذلك عزام بك ونوري بك بعد مجيئهما من برقة فطاب لهما بها المقام ، ووجدا في سياسة رمضان متسعاً لنشاطهما وبذل جهودهما في الإصــلاح والتنسيق . وكانت مصراتة فيما بعد محطاً للغواصات ، كما كانت مقراً للأمير عثمان ومديري السياسة التركية .

وقد اجتمع فيها من عناصر الحياة ما جعلها في مقدمة البلاد الطرابلسية أثناء الحرب كلها ، بل زعيمة للحركة الوطنية في طرابلس . وأقوى هذه العناصر هي رياسة رمضان بك السويحــلي عليها وصلابة عوده وعفة نفسه . ومن العناصر القوية اتخاذها مركزاً لإدارة السياسة التركية التي تتبعها إدارة الحرب . وكانت سياسة مصراتة هي الميزان الذي يوزن به سياسة الحرب في طرابلس كلها .

وكانت ضرورات الحرب تلحّ في إكمال ما ينقصها ، وولاة الأمور يبذلون جهودهم للوصول إلى سدّ هذا النقص ، فنشأ فيها نوع من صناعة الحديد لإصلاح بعض القطع الحربية الصغيرة وملء الخرطوش الفارغ . ونشأت فيها صناعة دباغة الجلود لإعــداد بعض ما يلزم لآلات الحرب من السيور . وأنشئت فيها مدرسة لتخريج صغار الضباط في أوائل سنة ١٣٣٥ واستمرت إلى أواخر سنة ١٣٣٦ هـ . وتبعاً لهذا النشاط الحيوي اتجهت أنظار الناس إليها من كل جهة ، وأصبحت سياسة مصراتة السياسة الوطنية التي يجب اتباعها وتنفيذ خططها .

ولم يؤثر وجود الأتراك في مصراتة على نفوذ رمضان بك السويحلي لأن وجهة النظر كانت واحدة تقريباً . على أن الأتراك وجدوا في صلابة رمضان ما جعلهم يتحرّون اتجاهه بنوع من الحكمة .

نفوذ مصراتة :

وكان نفوذ مصراتة المباشر يشمل : زليطن ، وساحل الأحامد ، والخمس (ما عدا المدينة) وقصر خيار ، ومسلاتة ، ويمتد جنوباً إلى سرت . وقــد استمر هذا الوضع منذ أن أسس رمضان بك حكومته فيها في أغسطس سنة

١٩١٥ إلى أن احتل الطليان البلاد كلها في سنة ١٩٢٢ .

وفي سنتي ١٩١٧و١٩١٨م كانت غدامس تابعة لنفوذ رمضان السويحلي، وكان القائمقام فيها علي الشنطة ، ثم جاء بعده أحمد الفسّاطوي . وفي هذه المدة كانت منازعات وحروب بين الشعانبة ـ وهم من سكان الصحراء ويتبعون الجزائر ـ وبين التوارك ـ وهم من سـكان الصحراء ويتبعون طرابلس ، ومركزهم (غات) .

وفي سنة ١٩١٧ أرسل رمضان السويحلي مع الحاج بعيو بيت المـال خمسة آلاف جنيه ذهباً إلى قائمقام غدامس [١] للإنفاق منها على الجند القائمين بمراقبة الأمن في غدامس وعلى الحدود التونسية . وقد سلّم الحاج بعيو المبلغ إلى قائمقام غدامس وسلّمه معه رسالة من رمضان إلى السلطان أمود رئيس التوارك يدعوه فيها إلى السعي بالصلح بين التوارك والشعانبة وأوصل قائمقام غدامس ـ وكان أحمد الفسّاطوي ـ هذه الرسالة إلى (السلطان أمود) ، وأرسل إلى الشعانبة بمثلها ، ولبّى الطرفان دعوة رمضان إلى غدامس وحضر السلطان أمود شيخ التوارك ومعه جماعة من أعيانهم ، كما حضر جماعة من الشعانبة ، وتمّ الصلح بينهم استجابة لوساطة رمضان السويحلي .

أما نفوذها الأدبي فقد كان لرمضان بك أنصار في جميع الجهـات . ومن هؤلاء الأنصار خليفة بن عسكر في نالوت ؛ والشيخ محمد هويسة في الزاوية ومعه قسم كبير من البلاعزة ، وخليفة الدعيك ـ الذي اشتهر أخيراً بخليفة الزاوي ـ في فزان ، وكان حاكماً عليها ، ومختار بك كعبار وأخوه الهـادي في غريان . وكل هؤلاء وأتباعهم كانوا من المعجبين برمضان بك وسياسته . وكانوا يرون فيه الرجولة الممتازة والوطنية الصادقة .

---

(١) وكان عمر البدشة رئيس الفرقة العسكرية . وقد أخبرني بهذا الحاج بعيّو بيت المال أحد أعيان مصراتة .



رمضان السويحلي ومعه قائد الغواصة وبعض الأعيان

هذه لمحة من حياة مصراتة السياسية في الجهاد الطرابلسي .

أما حروبها وما وقع فيها من معارك فسيجدها القارىء مدوّنة في أماكنها من سلسلة الوقائع الطرابلسية التي تكسب الفخر وتخلد المجد .

جديـــد :

جدّ على طرابلس في سنة ١٩١٦ عناصر قوة هي : إلتحاق بعض العناصر التركية والعربية بها ، وتردّد الغواصات الألمانية عليها محمّلة بالنقود والعتاد الحربي .

وقد أحدثت هذه العناصر قوة ملموسة في جميع ما يتصل بحياة المجاهدين ، ونشاطاً في روحهم المعنوية ، وكان لها أكبر الأثر في انتصاراتهم التي أحرزوها في سني ١٩١٧ و ١٩١٨ و ١٩١٩ ، كما أحدثت احتكاكاً في الأفكار كان من نتائجه أن فتح ميدان التنافس لتعرُّف طرق الحياة ،وتلقّي الدروس العملية فيما يجب للوطن وعلى الوطنيين . وقد استفاد الطرابلسيون من هذا الاحتكاك في تحسين إدارتهم وإصلاح شؤونهم . وأكسب وجود هذه العناصر الحركة الوطنية إستقراراً بعد تلك الانتصارات التي أحرزها الطرابلسيون في سنة ١٩١٥ وأواخر سنة ١٩١٤ . وتركزت في الساحل الذي يمتد من مصراتة إلى زوارة ، وكانت حرب طراد وجولان في ميادين متنقلة بين فزان وطرابلس، وبين سرت وزوارة .

وتولى نوري بك الإشراف على ما يتعلق بالأعمال الحربية وكان الاستاذ عبد الرحمن بك عزام نقطة الارتكاز فيما تلتقي فيه مصلحة الإدارة ومصلحة القيادة الحربية . وكان لحذقه ولعربيته المقام الاول في هذا المركز الممتاز .

وكان بيد المجاهدين كثير من الأسلحة المختلفة مما غنموه في مصراتة وترهونة وغيرهما ، من المراكز التي انسحب منها الطليان في سنة ١٩١٥ . يضاف إلى هذا ما كانت تأتي به الغواصات إلى مصراتة . فاجتمع لديهم من العتاد الحربي

ما شجعهم على ملاقاة العدو ، وأصبحوا على أتمّ استعداد لمنازلته .

نشاط العـــدو :

وقد أبدى العدو نشاطاً كبـــيراً في مختلف الجهات - وخصوصاً في جهة زوارة - حتى أصبح المجاهدون يتوقعون هجومه عليهم في كل وقت . وكان المجاهدون يكوّنون جبهة متصلة من العزيزية إلى زوارة . وكانت هذه المنطقة أكبر ميدان لنشاط العدو ويعلق عليها آماله في النجاح ، كما أنها كانت أكبر ميدان وقف فيه الطرابلسيون أشرف المواقف ولاقوا فيه أعظم الخطوب .

وكانت العزيزية هي مركز الأساس ، والقلب النابض لهذا الميدان ، تشرف على حركة الجهاد كلها من قصر القربولي إلى زوارة ، ويلي العزيزية في تركيز قوة المجاهدين الزاوية ، لأنها كانت ميسرة القلب المباشرة له ، فكانت تدافع عن نفسها ، وتمدّ القلب بما يحتاجه عند الإقتضاء . وكانت نقطة ارتكاز يعتمد عليها الجناح الأيسر الذي يمتد إلى زوارة في كثير من أعماله. فبينما ترى مجاهدي الزاوية يحاربون في زنزور إذا بالأمر يصدر إليهم بالذهاب إلى زوارة لملاقاة العدو هناك ، فلا يأتي مساء اليوم الثاني إلا وهم في زوارة .

وقد جمع الطليان في هذا الميدان ما أمكنهم جمعه من الجيوش وآلات الحرب ، استعداداً لمعركة فاصلة يتقرّر فيها مصيرهم في طرابلس . وذكر الباروني باشا في بعض كتاباته أن أحد الإيطاليين أخبره أنه كان لهم فيما بين طرابلس وزوارة مائة وعشرون ألف جندي ، وسيتضح للقارىء فيما سنفصله بعدُ أنّ الصراع كان عنيفاً بـــين الطليان والعرب لكسب المعركة ، ولكن ما أبداه المجاهدون من الصلابة وقوة الدفاع جعل هجمات الطليان الشديدة تبوء بالفشل . وبـــدأ المجاهدون يتحرّشون بالطليان ، فلم ير الطليان بداً من مقابلة هذا التحرش بمثله بل رأوا أن يسبقوا المجاهدين بالهجوم .

هذا أهم ما حصل في سنة ١٩١٦ ، وكان كله استعداداً لما حصل في سنة

١٩١٧ من معارك حامية .

معركة الجديدة :

ودخلت سنة ١٩١٧ وكان الطليان على أتمّ استعداد للهجوم . فجهزوا جيشاً عظيماً بقيادة الجنرال « لاتيني » وهجموا على المجاهدين يوم ١٦ من يناير سنة ١٩١٧في الجديدة بقرب بوعجيلة، وثبت المجاهدون النهار بطوله،ونازلوا الطليان منازلة الأبطال . وكان الطليان يقصدون من هجومهم على الجديدة صرف نظر المجاهدين عن بوعجيلة وجلب قوة المجاهدين منه إلى الجديدة . وكانوا أعدّوا قوة كبيرة للهجوم على بوعجيلة ، وقد حصل ذلك وهجموا عليه صبيحة اليوم التالي للمعركة وهو يوم ١٧ . وقد طيّر الخبر إلى الزاوية منذ اليوم الأول وجاء منها من المجاهدين ما سدّ النقص في بوعجيلة بدل الذين ذهبوا مدداً إلى الجديدة. وبهذا تكاثر المجاهدون وفازوا بالمعركتين وارتدّ الطليان إلى زوارة . والنصر من مميزاته حفز الهمم وتنشيط النفوس ، فكانت هذه المعركة حافزاً للمجاهدين ومنشطاً .

وقد أراد الطليان أن يعيدوا الكرّة في قوة أكثر وبقيادة قائد آخر . ففي أواخر مارس سنة ١٩١٧ جمعوا جيشاً عظيماً من ناحية زوارة بقيادة الجنرال « كسانيس » ووجهته طرابلس . وقد قسّم هذا الجيش إلى ثلاثة أقسام : قسم جاء على الطريق الساحلي ومعه سلطان بن شعبان . وقسم جـــاء على جنوبي بوعجيلة ، وقسم جاء في الوسط يشق بوعجيلة ، ووجهة الأقسام الثلاثة طرابلس على طريق صرمان والزاوية وزنزور للقضاء على من في طريقهم من المجاهدين الذين يحتلون كل هذه المناطق .

وخرج هذا الجيش يغطي وجه الأرض بجنوده وبنوده، فالتقى به المجاهدون في اليوم الخامس من إبريل سنة ١٩١٧ فحبسوه عن التقدم ، وركبته خيـــل المجاهدين . وعبثاً حاول الثبات ، فكانت جنوده تسابق الريح مرتدة إلى الوراء ، وآخر نقطة وصلت إليها ميسرته زواغة « صبراتة » من ناحية شاطىء

البحر ، ثم ارتدّ من بقي منه إلى زوارة يجرّ أذيال الهزيمة . ووقع سلطان بن شعبان في بئر وأُخرج منها ومات عقب وصوله إلى زوارة مباشرة.

سلطان بن شعبان :

كان عيناً من أعيان زوارة ، وسرياً من سراتها . ورث الحسب والنسب عن آبائه وأجداده . وأول ما نزل الطليان في طرابلس كانت زوارة ـ وعلى رأسها هو وغيره من أعيانها ـ في طليعة المجاهـدين ، وكانت لهم مواقف محمودة في قرقارش وهاني وزنزور وحروب زوارة ، وكانوا وحدة متممة لصفوف المجاهدين .

وقد وقعت مسائل يظهر أن سلطان بن شعبان تأثر بها : منها أن سوف بك المحمودي لما رجع من الشام عيّن عيسى بو سهمين قائمقاماً على زوارة ، وكان يرى نفسه أحقّ بهذه الوظيفة . وحينما ذهب إلى مسلاتة رأى من سوء تصرّف السنوسية واستبداد التواتي في فتنة صفي الدين واجتماع مسلاتة ما زاد نفسه تأثراً . وما كان من فتنة « كلب السيد » التي كانت من أكبر الأسباب في حرب الإباضيـة والزنتان . فإذا أضيف إلى هذا ما وقع في الحرب الأولى بين الزنتان والإباضية أمكن للإنسان أن يقول إن نفس سلطان بن شعبان كانت متأثرة بهذه الأسباب مجتمعة ومتفرقة . مما حمله على الاتصال بالطليان .

وإنّـا نأسف أن يحرم الوطن من معاونة عظيم من أبنائه مثل سلطان ابن شعبان . ولو استعان على نفسه بشيء من التسامح وسعة الصدر ، لساق الله على يديه من الخير للوطن ما خلد ذكره وأسعد وطنه ، ولكن شاء الله ذلك ولا رادّ لمشيئته .

استئناف الهجوم :

وكان لهزائم الطليان المتتابعة أثر سيىء على نفوسهم ، فأحبوا أن يجددوا كرة ثالثة ولكنها ليست كسابقتيها ، بل إن قيادتهم رأت أن تكون الحملة

مزدوجة : يخرج قسم من الجيش من طرابلس ليشغل قيادة المجاهدين بالعزيزية وما حولها ، ويمتدّ بعض هذا القسم إلى زنزور وإلى الزاوية إن أمكن لتوسيع الجبهة على المجاهدين وشغل أكبر قسم منهم بالحرب حتى لا يمكنهم إرسال نجدة لمواجهة الجيش الآتي من زوارة . ويخرج قسم من زوارة ووجهته طرابلس لاحتلال بوعجيلة والزاوية والقضاء على من فيهما من المجاهدين . وتكون نتيجة نجاح هذا التدبير التقاء القوتين ، والاستيلاء على الساحل الغربي كله من طرابلس إلى زوارة . ومضت خمسة أشهر بعد هزيمتهم في إبريل سنة ١٩١٧ وهم يعدّون العدة لهذه الحملة الهائلة . وخرج مع هذا الجيش يوسف خربيش رئيساً على المرتزقة .

وقد ترامت أخبار هذه الاستعدادات إلى قيادة المجاهدين في العزيزية، فكان الباروني باشا ، ونوري بك هما اللذان يشرفان على ترتيب المجاهدين ، وأعدوا للأمر عدّته ،وصدرت الأوامر إلى «سوف»وغيره من رؤساء المجاهدين بالاستعداد لملاقاة العدو ، وجمعوا من المجاهدين ما يمكن جمعه ، وأعدّوا أنفسهم للقتال .

بدء الهجوم :

وفي فجر اليوم الثالث من سبتمبر سنة ١٩١٧ ابتدأ الطليان الهجوم من ناحيتي طرابلس وزوارة ، واعترض المجاهدون هذا الزحف الهائل ، وكان سيلاً جارفاً من ناحية زوارة ، فلم يقووا على صدّه ، وفي اليوم الرابع احتلّ جهة الوادي بقرب بوعجيلة . واستمر الطليان في تقدمهم إلى ناحية الشرق فاحتلوا بوعجيلة وصرمان والزاوية وجدّايم وصياد . وقد أتوا في الزاوية من المخجلات ما يندى له جبين الإنسانية : فمدّوا أيديهم إلى الحرمات ، وسلبوا النساء أقراطهن وحليهن في قسوة كانت تؤدي في كثير من الأحيان إلى قطع شحمة الأذن مع القرط. وخرج النساء والأطفال والعجزة من الرجال إلى العراء هرباً بأرواحهم ، ولم يغن عنهم ذلك شيئاً ، فقد قتلوا في غير رحمة . وكم من

أعمى قتل وهو يتلمس موضع قدمه ، ومُقْعد اخترقت الرصاصة قلبه وهو لا يقدر على النهوض .

أدوّن هذا وأمامي كثير من الحوادث مع أناس أعرفهم ويعرفونني قتلوا على هذا النحو ، وما زال على قيد الحياة الذين شاهدوا في مدينة طرابلس أقراط النساء معروضة للبيع وفيها قطع من آذانهن . وكانت قسوة الطليان والمتطلينين أشدّ من أن تحترم حرمة النساء ، وضعف الأطفال والمُقْعَدين . وقد تولى كبر هذه الشناعات يوسف خربيش ومن انضمّ إليه من المرتزقة ، وهم الآن بين يدي الله يجازيهم بما يستحقون .

وفي اليوم التاسع – وهو اليوم السابع للمعركة التقت القوتان في زنزور .

وفي أثناء ما كان الجيش الآتي من زوارة يتقدّم إلى الشرق كانت القوة التي خرجت من طرابلس بقيادة الكلونيل بروني مشتبكة في معارك هائلة مع المجاهدين في سواني بنيادم وفندق ابن غشير . وفي اليوم الحادي عشر اشتركت القوتان : الآتية من زوارة والآتية من مدينة طرابلس في محاربة المجاهدين ، فتراجعوا إلى فندق ابن غشير وسواني بنيادم .

حسين الكريتلي :

وقد ظن الطليان أنهم على قاب قوسين من النصر النهائي ، فأرادوا أن تكون الضربة قاضية ، فجاءوا بقوة أخرى هائلة فيها كثير من المرتزقة وعلى رأسهم حسين الكريتلي ، واجتمعت هذه الجيوش الإيطالية كلها واتجهت نحو العزيزية وهي مركز قيادة المجاهدين. وأُتيحت للمجاهدين برهة من الوقت جمعوا فيها ما يمكن جمعه . وأصبح المجاهدون أمام خطر داهم وقوة لا تعدّ بالألوف بل بعشرات الألوف. ونزل الباروني باشا ومحمد سوف بك ونوري بك إلى الميدان بأنفسهم واشتركوا في المعركة ، وحفزت الهمم وثارت الحمية ، وكان الموت أقرب إلى المجاهدين من أنوفهم ، واعتزموا الدفاع إلى آخر رجل منهم . وفي يوم ٢٠

من سبتمبر سنة ١٩١٧ التقى الجمعان في فندق ابن غشير ، وحمي الوطيس ، وسكت كل شيء إلا الحديد والنار ، ووجّه المجاهدون نيرانهم إلى قلب الجيش الإيطالي فقتل حامل الراية ، فازدحموا على حملها ، فانتهز المجاهدون فرصة هذا الازدحام واشتدّوا في إطـــلاق الرصاص عليهم ، واشتركت رشاشات المجاهدين في هذا الزحام فكانت تحصدهم حصد الهشيم ، وقتل اثنان ممن تبادلوا حمل الراية الإيطالية ، واستمرّت المعركة خمس ساعات على أشدّ ما تكون المعارك قتلاً ، ثم وقف تقدم العدو ، وقتل حسين الكريتلي فكان قتله بدء تقهقر الإيطاليين ، وحال الظلام دون استمرار المعركة . وانسحب الطليان إلى المدينة وانسحب المجاهدون إلى العزيزية وكلٌ من الفريقين لا يدري ما فعل الله بصاحبه وكادت هذه المعركة تكون فاصلة لولا ثبات المجاهدين وقوة إيمانهم ، وما أبداه نوري بك من دقـــة الإشراف على فرقة المدافع الرشاشة . وهي من المعارك المعدودة في الحرب الطرابلسية التي أبلى فيها الطرابلسيون بـــلاءً حسناً أمام جيوش الطليان الهائلة كثيرة العدد والعُدد .

وقد لاقى الطليان في هذه المعركة صدمة هائلة جعلتهم يفيقون من غفلتهم ، ويحسبون لقوة المجاهدين حساباً غير ما كانوا يحسبون ، وتراجعوا عن المراكز التي أخذوها وتحصنوا في زوارة ، وأنشأوا لهم مخفراً في الجميل ، ومكثوا سنة لا يجرأون على الخروج ولا تحدثهم نفوسهم بالهجوم . ولم يقوموا بعمل حربي يستحق الذكر سوى مناوشات صغيرة كانت تقع في فترات متقطعة ، واستمرّت هذه الحال إلى سبتمبر سنة ١٩١٨ .

سفر نوري وعزام إلى الآستانة [١] :

قال الأمير شكيب في حاضر العالم الإسلامي : « لما استدعى أنور أخاه

(١) سافر نوري وعزام من مصراتة في أغسطس سنة ١٩١٧ وتوفى نوري قتيلاً في حادث انفجار مصنع للذخيرة الحربية سنة ١٩٤٩ .

نوري – من مصراتة – إلى الآستانة وولاّه قيادة جيش القفقاس استصحب معه إلى الآستانة الأستاذ عبد الرحمن عزام . وقال لي نوري مرة هذه الجملة : « لولا هذا الشاب ما كان يمكنني أن أوفّق في طرابلس » . وكان عزام يد نوري اليمنى » .

الأمير عثمان فؤاد في مصراتة :

قال الأمير شكيب: « لما أرسلت الدولة الأمير عثمان فؤاد ابن الأمير صلاح الدين إلى طرابلس أميراً وقائداً عاماً عليها مكان نوري باشا أرسلت معه عبد الرحمن عزام المصري [1] مستشاراً ومديراً ، فلما انتهت الحرب الكبرى وانعقدت المتاركة – ومن جملة شروطها إخلاء الأتراك لطرابلس – صدرت الإرادة السلطانية إلى الأمير عثمان فؤاد بترك تلك البلاد فذهب إلى تونس وسلّم نفسه إلى الفرنسيس ، وهؤلاء سلموه إلى الطليان الذين أفرجوا عنه ، ولكن بقيت الحكومة الوطنية في طرابلس على ما كانت عليه ، وهي حكومة حلفية [2] مركزها مصراتة ، وعبد الرحمن عزام هو الذي يدير أمورها ، ويرتق فتوقها ، ويؤلف بين الجهات المتنافرة حتى يتسنى لهم بالاتحاد حفظ استقلالهم [3] » .

---

(١) جاء الامير عثمان وعزام في مارس سنة ١٩١٨ .

(٢) يقصد الامير حكومة الجمهورية ، وهي التي كانت تشتمل على معنى الحلف ، ولم تتخذ مصراتة مركزاً لها . ونظراً لظروف الحرب التي كانت قائمة حين تأسيسها ، فقد رأى أعضاؤها الأربعة أن يقيم كل واحد منهم في منطقة نفوذه. وفي سنة ١٩١٩ كانت أكثر إقامتهم في العزيزية .

(٣) ننقل هذا عن الامير شكيب، وهو من حوادث سنة ١٩١٧ . ونحن الآن في سنة ١٩٥٠ وما زال عزام باشا يحيط هذه القضية بروحه وجميع جهوده ، وكأن الله خلقه من أجلها ، وقد انغمس في العمل للقضية الطرابلسية حتى نسي نفسه . وقد أصبح المرجع الوحيد الذي لا يستغني أحد عن رأيه فيها . فما من حكومة – عربية أو أوروبية – أو مؤسسة عالمية أو هيئة سياسية – وطنية أو غير وطنية – لها صلة بقضية طرابلس إلا وتصدر عن رأي عزام باشا فيما تريد أن تعمله في هذه القضية .

ومن حسن حظ قضيتنا ، أن كان عزام باشا أميناً عاماً لجامعة الدول العربية، فقد حاول =

ولما طرد مصطفى كمال آل عثمان من استانبول لجأ الأمير عثمان فؤاد إلى مصر وقرر أن يقضي حيـــاته متنقلاً بين مصر وباريز ، وتزوج من الأميرة المصرية (قدرية حليم) .

« وقد مثّل دوراً عظيماً في هذه الوقائع رمضان الشتيوي الملقب بالسويحلي، وجاهد في الطليان حق الجهاد، ولكنه كان صعب المقادة ، أشوس مرّ العداوة. وكان يناصب السنوسية العداء [1] . فلما قدم عليه نوري مغتاظاً مما فعله سيدي إدريس تلقاه براً وترحيباً وعزز به مركزه » .

جاء الأمير عثمان فؤاد إلى مصراتة في مارس سنة ١٩١٨ لتنفيذ سياسة متفق عليها بين الترك والألمان لتغذية الثورة في طرابلس ضد الطليـــان ، حتى إذا ما وفقوا حاولوا أن تمتد الثورة إلى برقة للإغارة على الإنجليز في مصر مرة ثانية . وكان الأمير عثمان يمثل السياسة التركية أما السياسة الألمانية فكان يمثلها البارون فريدفون توندورف ، وقد تولى هذا إدارة التلغراف اللاسلكي . وكان مجيئهما هما ومن معهما من الضباط بطريق الغواصة ، وجاء مع الأمير عثمان عبد الرحمن بك نافذ أركان حربه .

وكان مما تنطوي عليه هذه السياسة إحياء فكرة جمهورية شمال إفريقية التي قامت من أجلها ثورة الحامة سنة ١٩١٥ . وقد وجدوا من نشاط الطرابلسيين ما شجّعهم على المضي في العمل من أجلها . وكان الأمير يحمل لقب « القائد الأعلى

= بجميع الطرق إقناع الدول العربية بأحقية هذه القضية ، وبالانفاق في سبيل نجاحها إلى أبعد حدود الامكان حتى أصبحت منهم محل العطف وعرفوا عنها ما لم يكونوا يعرفونه . وإن الذين شاهدوا ما بذله عبد الرحمن عزام باشا من الجهود لنجاح القضية الطرابلسية من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٥٠ لا يشك في أن ما نقله الامير شكيب حلقة من سلسلة جهاده الطويل للقضيـة الطرابلسية .

(١) سبب هذه العداوة ما وقع بين صفي الدين ورمضان في مصراتة ، بسبب التصرفـــات السيئة التي كان يأتيها أنصاره وقد بيّنا هذا في محله .

للقوات الإفريقية » إعداداً له ليكون قائداً عاماً فيما لو تحققت جمهورية شمال إفريقية [1] .

---

(١) جمهورية شمال إفريقية : كان الاستعمار الفرنساوي في شمال إفريقية مضرب المثل في الاستبداد بالعرب والاساءة إليهم ، وكان الاحرار من التونسيين ، والجزائريين والمراكشيين يفكرون دائماً في التخلص من هذا الكابوس الذي جثم على صدورهم وسلب حقوقهم ، وقد انتهزوا فرصة نشوب الحرب في سنة ١٩١٤ فألف جماعة منهم في الآستانة وفداً أخذ يعمل لانشاء « جمهورية شمال إفريقية » ينضوي تحت لوائها من حدود مصر إلى حدود بحر الظلمات وكان في مقدمة هؤلاء السادة المجاهدين السيد علي باشا حنبه، والشيخ صالح الشريف ، والشيخ إسماعيل الصفائحي ، وهؤلاء الثلاثة من تونس ، ومعهم جماعة من الجزائريين والمراكشيين ، وزار الوفد ناظر الخارجية العثمانية وأبلغه رغبة سكان شمال إفريقية في الاستقلال ، وإنشاء جمهورية إفريقية متحدة ، وطلبوا منه إبلاغ ذلك إلى ألمانيا والنمسا رسمياً ، وأن يسمح لهم بالسفر إلى برلين وفييّنا لبسط مطالبهم والحصول على الوعود والمساعدات اللازمة .

وعرض اقتراح الوفد على سفير ألمانيا في تركية ، فأبلغه بأن حكومته لا تتعهد لأبناء شمال إفريقية بالاستقلال إلا إذا ثاروا على الفرنساويين الذين يحتلون بلادهم . وغادر الوفد الآستانة عقب ذلك إلى برلين وزار وزارة الخارجية الالمانية ، وقدّم طلباته فقبلتها وسجلتها رسمياً ، كما اعترفت بها النمسا وتركيا أيضاً فكان ذلك أول اعتراف دولي بالجمهورية الافريقيـة المتحدة في شمال افريقية . وقصد الوفد بعد ذلك إلى لاهاي (مقر المحكمة الدولية) فسجل هذا الاعتراف في سجلاتها ، لأن عصبة الامم لم تكن أنشئت إذ ذاك .

وتنفيذاً لرغبة الالمان في الثورة على الفرنساويين ، ورجاء الوفاء بما وعدوا به الوفـد من المساعدة ، وإمداد الثورة بما يلزمها من المال وآلات الحرب وإنشاء جمهورية شمال إفريقية قامت ثورة الحامة سنة ١٩١٥ فاضطرت فرنسا إلى أن ترسل من جيشها ثلاثين ألفاً لاخماد الثورة . وقد اختيرت الحامة مكاناً للثورة لقربها من الحدود الطرابلسية ، وليسهل الاتصال بها والاستناد إليها ، وكانت إذ ذاك على أشدها . وقد قام بهذه الثورة الشيخ سعيد دبان من أعيان جنوبي تونس وممثله في الجمعية الشورية ، فأغار على مراكز الفرنساويين في الحامة . وقد تداركها الفرنساويون بجيوشهم فأخمدوها في مدة خمسة أيام ، وأسفرت عن قتل الشيخ سعيد وابنه وخادمه، وجماعة من رجاله ، وعن نحو مائة قتيل من الفرنساويين .

وانتقم الفرنساويون ممن وقعوا في أيديهم من أنصار الشيخ سعيد بالقتل والشنق والسجن . والتجأ كثير منهم إلى الحدود الطرابلسية،وجاهدوا مع الطرابلسيين،وكنا نسميهم «المهاجرين»=

وباشر الأمير أعماله في مصراتة ، ومعه عبد الرحمن بك نافذ أركان حربه ، والأستاذ عبد الرحمن بك عزام مستشاره . ووزّع الضباط على مناطق الحرب ، فتولى إسحاق باشا منطقة الزاوية فكان فيها خير مثال للقائد الحربي .

وكانت الحرب إذ ذاك قائمة في جزيرة العرب بين الإنجليز والعرب من ناحية، وبين الترك من ناحية أخرى ، ولم يطل الأمر حتى رجحت كفـة الإنجليز على الترك ، ثم اشتدّ الضغط عليهم من الجيوش العربية والإنجليزية في الشام ،وتتابعت عليهم الهزائم فخارت قواهم وانهار جيشهم ، فانكسر في معارك حمص وحماه ، وحلب في أكتوبر سنة ١٩١٨ ، فرَضَوْا بالهزيمة مكرهين وألقوا السلاح،واستولى الإنجليز على المنطقة الممتدة من السويس حتى شمالي حلب. وعقد الترك مع الحلفاء معاهدة جزيرة « موندروس » في ٣١ أكتوبر سنة ١٩١٨ تعهّدت فيها بسحب جيوشها من جميع البلاد العربية .

ومما جاء في هذه المعاهدة مما يتعلق بطرابلس في المادة ١٧ « يجب على جميع الضباط الترك في طرابلس الغرب أن يسلّموا أنفسهم إلى أقرب مركز إيطالي . ويجب على تركية أن تقطع الأرزاق والمساعدات وكل صلة مـع هؤلاء إذا لم يذعنوا ويسلموا » .

وجاء في المادة ١٩ « تسلم جميع الموانىء في طرابلس ومصراتة إلى أقرب قائد لجيوش الحلفاء » .

وكانت هذه المعاهدة آخر سلاح استعمله الحلفاء لقطع صلة الترك بالعرب ، كما كانت آخر عهد العرب بدولة آل عثمان التي تفككت أوصالها ، وتراخت بها

= وكان كبيرهم الشيخ الوحيشي رحمه الله.

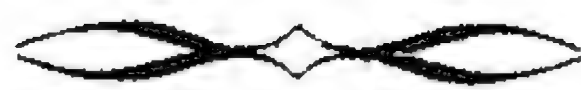
وكان من أكبر أسباب فشل ثورة الحامة عدم وفاء الترك والالمان بما وعدوا به من إمداد الثورة بالمال والسلاح . وكان يوجد عدد كبير من الضباط التونسيين على استعداد للالتحاق بالثورة ، ولكن الترك والالمان لم يفوا بما وعدوا .

الحياة حتى طمعت فيها الأرانب بله الأسود والفهود ، وزال ظلها عن طرابلس بعد أن حكمتها ٤١٦ سنة ، من سنة ٩٢٢هـ إلى ١٣٣٨هـ لم تنقطع صلتها بها . حتى وصلت في آخر عهدها إلى أحطّ الدركات ، وطوى التاريخ صفحاته على ما لها وما عليها في بلاد العربية . ولله درّ الشاعر إذ يقول :

أوتيتُ مُلكاً فلم أُحْسِنْ سياستَه كذاكَ من لا يسوسُ المُلكَ يُخلَعُه

وفي هذه الفترة القصيرة التي تبتدىء من مجيء نوري بك والأستاذ عزام سنة ١٩١٦ . وتنتهي بسقوط تركية في أكتوبر سنة ١٩١٨ أخذت الإدارة تتركز في مصراتة وبدأ التحسن في جميع الشئون إدارية وصناعية وعسكرية . وأبدت الغواصات نشاطاً في إمداد المجاهدين بما شدّ عزائمهم ، وزادهم قوة على الدفاع وصبراً على المضي فيه .

وبينما الأمور تسير في مصراتة من حسن إلى أحسن إذ وقعت الكارثة ، وطير الخبر إلى الأمير بسقوط تركية فأحدث عنده إرتباكاً عظيماً ، وكان له وقع سيىء على الذين يتولون حركة الجهاد في طرابلس. واتجهت الأفكار إلى إيجاد ما يجمع الشمل ويوحّد الكلمة قبل أن يتسرب الوهن إلى صفوف المجاهدين ، فكانت الجمهورية الطرابلسية وليدة هذا التفكير ، وكان لها من الأثر ما سنفصله فيما بعد .



الدور الثالث

الجمهورية الطرابلسية

الجمهورية الطرابلسية

١٣ صفر سنة ١٣٣٧هـ — ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨م

مقدمـــة :

كان لإنشاء الجمهورية الطرابلسية ظروف دقيقة ، وأسباب لم تترك للقائمين بأمر الجهاد في طرابلس وقتاً للتفكير العميق في التمهيد لإنشائها . فقد وجد التفكير فيها عقب مجيء الخبر إلى مصراتة في أوائل نوفمبر سنة ١٩١٨ بسقوط تركيا في الحرب العظمى الأولى وتسليمها . ووقوع هذا الحادث فجأة وعلى غير انتظار أحدث ارتباكاً في تفكير من بيدهم تسيير دفة الجهاد. ومن طبيعة هذا الحادث أنه يقتضي سفر الأمير عثمان ، الذي كان يمثل السيادة التركية في طرابلس والقائد الأعلى للجيوش الإفريقية . وسفر الأمير يتبعه قطع المدد الذي كان يأتي من تركية ، بل إن المدد كان سينقطع ولو لم يسافر الأمير ، لأن تركية سقطت واحتلّها الحلفاء . وقطع المدد يؤثر ـ بلا شك ـ إلى حد كبير في نشاط المجاهدين ، ويضعف من حركة القتال . والبـــلاد ما تزال قريبة عهد بحروب داخلية قد يكون من المحتمل جداً أن يرى أحد الخصمين في هذه الظروف الحرجة فرصة للثأر لنفسه ، فتعيد الفتنة سيرتها وتقع البلاد في شر مستطير . وقد جاء خبر سقوط تركية إلى مصراتة في وقت كان زعماء البلاد كل واحد في

منطقة نفوذه يدير شؤونها ، وهي مناطق بعيدة عن المركز الذي يقيم فيه الأمير وهو مصراتة. كل هذه الأسباب ـ آخذاً بعضها برقاب بعض ـ فرضت الجمهورية فرضاً لتعالج من هذه الشؤون الكثيرة ما يمكنها معالجته ، مع التغلب على ما خلفته الفتن الداخلية من الأحقاد والضغائن حتى تصفو النفوس ويسهل العمل.

وكيفما قدّرت أسبابها وظروفها فقد لاقت نجاحاً باهراً بفضل ما بذل لأجلها من جهود من عناصر وطنية وغير وطنية. وكان للأخوة الإسلامية الفضل الأول في جمع ثلاث عناصر : تركي ، ومصري ، وطرابلسي وطني. وكان كل منها دعامة في إقامة هذه الجمهورية مع تفاوت بين هذه العناصر في السعي لتكوينها ومدّها بأسباب الحياة والصلاح. وقد وجدت في ظروف أحوج ما يكون الوطن فيها إلى حكومة تتولى منه ما يجمع شمله ويصون وحدته.

ظروفها :

لما جاء الخبر إلى مصراتة بسقوط تركية بطريق اللاسلكي أسرّه البارون فريدفون توندورت رئيس التلغراف اللاسلكي الألماني إلى الأمير مصحوباً بأمره بمغادرة طرابلس هو ومن معه من الضباط تنفيذاً لشروط معاهدة «موندروس» فوقع في حيرة ، ورأى أن بقاءه قد يعرّضه إلى الخطر ، وترجح عنده السفر إلى الآستانة ، فذهب في الصباح المبكر إلى الغواصة ، وكانت في انتظاره على الرومية ـ شرقي قصر حمد بعشرة ك م ـ وكانت أتت معها بعبد القادر الغناي ، وذهب مع الأمير عثمان عبد الرحمن بك نافذ للسفر معه. والأستاذ عبد الرحمن عزام وسليمان باشا الباروني لتوديعه ، وكان الأستاذ عزام لا يعلم عن الأمر شيئاً ، فاتصل بربان الغواصة وسأله عن الأمر فباح له به ، فقال له عزام : وما الذي تعتزمه ألمانيا ؟ فقال ربان الغواصة : ستحارب إلى النهاية. فقال له عزام: ونحن يمكننا أن نشكل حكومة عربية في طرابلس لمداومة الحرب ضدّ

إيطاليا ، على شرط أن تتعهدوا بإمدادنا بالمال والسلاح ، وعلى ألا يسافر الأمير في هذا الدور لنستعين بوجوده في تشكيل الحكومة ، فوافق ربان الغواصة على ذلك ، وبقي إلغاء سفر الأمير سراً بينه وبين الأستاذ عزام . ويقال إن لسفر الغواصة بدون أن تأخذ الأمير سبباً آخر وهو أن البارون فريدفون توندورت لم يؤمر بالسفر ، فتدخل في الأمر لدى ربان الغواصة ، لتسافر بدون أن تأخذ أحداً ففعل . وسافرت الغواصـــة بعد أن اعتذرت للأمير عن عدم نقله في هذه المرة بشدة مراقبة أساطيـــل العدو ، ووعدته بالعودة في أقرب فرصة .

ورجع الأمير ومن معه إلى المواطين . وصرح الأمير للحــاضرين بحقيقة الأمر . ومن هنا ظهرت فكرة الجمهورية وطرحت على بساط البحث . واشترك فيها رمضان بك ، وعزام بك ، والباروني باشا ، وسمو الأمير عثمان ، ومختار بك كعبار . وعرض على الأمير أن يكون رئيساً لها فوافق على فكرة الجمهورية ولم يوافق على الرياسة . لأنه كان متأثراً بتسليم تركية ، وببقائه في طرابلس . واتفق الكل على تأسيس الجمهورية ، وأرسل رمضان إلى عبد النبي للتشاور في الأمر .

ونظراً لأن الأمير كان على وشك السفر فقد بوشر في العمل ، وأرسلت الدعوة إلى رؤساء القبائل وزعمائها وأعيان البلاد باسم الأمير عثمان لعقد اجتماع عام في مسلاتة لإعلان الجمهورية، وأجاب الناس الدعوة، ووفدوا على مسلاتة من جميع البلاد الطرابلسية . فوسعتهم براً وضيافة ، وتشرفت مسلاتة بهذا الاجتماع التاريخي العظيم .

وفي يوم السبت الثالث عشر من صفر سنة ١٣٣٧ الموافق ١٦ من نوفمبر سنة ١٩١٨ اجتمعت الوفود الطرابلسية في جامع المجابرة بمسلاتة ، وهو أكبر جامع فيها ، وحضر الأمير عثمان فؤاد ، وأخبر المؤتمرين أن الأستاذ عبد الرحمن عزام بك سيخطب فيهم بالنيابة عنه ، وأنه سيتكلم بلسانه ، ورجاهم أن يوافقوا على

ما سيطلبه منهم وينفّذوه .

وخطب الأستاذ عزام خطبة طويلة كان المقام الأول فيها للحثّ على الدفاع عن الوطن والموت في سبيله ، وعلى جمع الكلمة في صفوف متراصة وأخوة متبادلة ، وعلى المثابرة على العمل للوصول إلى الاستقلال وطرد العدو عن الوطن ثم طرح عليهم فكرة إنشاء حكومة وطنية تتوحد فيها الكلمة وتتولى أمور البلاد ، وتنظر في شؤون الوطن ، فلقيت الفكرة استحساناً من الجميع ، واجماعاً بدون خلاف وسميت « الجمهورية الطرابلسية » . وأُجريت الانتخابات في الحال لاختيار أعضاء الجمهورية . فأسفرت عن انتخاب الآتية أسمائهم :

رمضان بك السويحلي . سليمان باشا الباروني . أحمد بك المريض . عبد النبي ابن خير .

وهؤلاء الأربعة يمثلون البلاد الطرابلسية من حدود برقة إلى حدود تونس .

وكانت النية متجهة لانتخاب مختار بك كعبار أحد أعضاء الجمهورية الأربعة ولكن عرض ما يقتضي انتخاب عبد النبي ، فأبدى رمضان بك رغبة في ذلك نزولاً على ما تقتضيه المصلحة ، فتنازل مختار بك عن ترشيح نفسه وانتخب عبد النبي بدلاً منه عضواً للجمهورية وانتخب هو رئيساً للمالية ، فكان هذا التنازل منه محلّ تقدير إخوانه جميعاً .

مناسبة :

ولهذه المناسبة نقول إن وجود مختار بك كعبار في مصراتة وقت تأسيس الجمهورية كان لمهمة وطنية نرويها كما أملاها علي . ذلك أنه جاء موفداً من أعيان وزعماء الجهة الغربية للتحدث مع الأمير عثمان في طلب إمداد الجهة الغربية بأكثر مما اعتيد أن تمدّ به من المال والسلاح ، وذلك نظراً لكثرة الحركات الحربية فيها . وليطلب إليه التوسط في إنشاء قاعدة للغواصات في الزاوية في الجهة الغربية لتمدّها بما يلزم الحرب من عتاد ونفقات ، لأن مصراتة

مركز بعيد عن الزاوية ووسائل النقل غير متوفرة . وكان على استعداد للسفر إلى الآستانة . وقبل الوصول إلى نتيجة جاءت الأخبار بسقوط تركية فبقي في مصراتة وحضر تأسيس الجمهورية .

وقد رأى المجتمعون إذ ذاك أن من المصلحة عدم انتخاب رئيس الجمهورية حتى تستقر الحال . وكانت الآراء متجهة إلى أن تكون الرياسة للأمير عثمان ، لولا أنه امتنع نظراً لما ساوره من الشكوك في استقرار الحال بعد سقوط تركية .

وقبل افتراق المجتمعين انتخب مجلس شورى للجمهورية ، فأسفرت النتيجة عن انتخاب :

الشيخ محمد سوف بك	رئيساً أول	من الزاوية
يحيى الباروني	« ثانياً	« الجبل
الشيخ عبد الصمد النعاس	عضـــواً	« ترهونة
الحاج مفتاح التريكي	«	« مسلاتة
الشيخ علي بن رحاب	«	« قماطة
الحاج محمد بن خليفة	«	« الساحل
عبد السلام الجدّايمي	«	« زليطن
الحاج علي المنقوش	«	« مصراتة
محمد المنتصر	«	« عن سرت
مفتاح التايب	«	« أرفلة
السيد محمد بن بشير	«	« أولاد أبي سيف
عبد الرحمن بركان	«	من مرزق ـ فزان
محمد بن أحمد الفايدي	«	« الشاطىء
الشيخ الحبيب عز الدين	«	« غدامس

إبراهيم أبي الأحباس	عضـــواً	من الجبل
الحاج محمد فكيني	«	« الزجبان
الشيخ أحمد البدوي	«	« الزنتان
سالم البرشوشي	«	« الجبل ـ يفرن
علي بن عبد الرحيم	«	« ككلة
الشيخ شطيبة	«	« غريان
« علي بن تنتوش	«	« ورشفانة
« عبد الرحمن شلابي	«	« الزاوية
« علي شلابي	«	« النواحي الاربعة
« عبيدة المحجوبي	«	عن صرمان والعجيلات

وانتخب « مجلس شرعي » للجمهورية من العلماء الأساتـــذة : الشيخ عمر الميساوي والشيخ الزروق بورخيص ، والشيخ محمد الإمام ، والشيـخ مختار الشكشوكي [١] .

ولم يحضر كل أعضاء مجلس الشورى الاجتماع ، بل كان بعضهم غائباً ، وإنما انتخب توزيعاً للمسئولية وتحقيقاً للمساواة والوحدة بين جميع القبائل . وقبل الانصراف من المسجد أقسم الحاضرون جميعاً يمين الولاء والإخلاص للجمهورية . وتوكيداً لليمين أحضروا مصحفاً وكل من أراد اليمين وضع يده عليه . وهـذا نص اليمين .

« أقسم بالله العظيم قابضاً بيدي على هذا القرآن الكريم أن أجعل نفسي ومالي فداءً لوطني وحكومتي الجمهورية الطرابلسية . وأن أكون لعدوّها عدواً ولصديقها صديقاً ، ولقانونها الشرعي مطيعاً » .

---

(١) الاول من الزاوية . والثاني من غريان . والثالث من الزنتان ، والرابع من سكان المدينة .

ثم وزع الأمير عثمان بعض النياشين والرتب على أعضاء الجمهورية وكثير من الأعيان والوجهاء .

ومن هذا التاريخ أصبحت حكومة الجمهورية الطرابلسية قائمة وأصبح لهـا عهد في عنق كل طرابلسي يحميها ممـا يحمي منه نفسه وماله ، وأصبح من المحتم عليه الوفاء بما أقسم عليه لها من الولاء والإخلاص .

بلاغات الجمهورية :

وبعد أن تمّ انتخاب أعضاء الجمهورية وانتخاب أعضـاء مجلس الشورى والمجلس الشرعي اجتمع الأعضاء وقرّروا إعلان سكان طرابلس وجميع الدول الأوروبية ، بما تم من تشكيل الجمهورية الطرابلسية . وكان أول ما ابتدأوا به عملهم هذا الكتاب المبارك لتوزيعه على الناس في جميع أنحاء القطر :

« بسم الله الرحمن الرحيم

في الساعة الرابعة والنصف من يوم السبت المبارك الثالث عشر من شهر صفر سنة ١٣٣٧ قررت الأمة الطرابلسية تتويج استقلالها بإعلان حكومتها الجمهورية باتفاق آراء علمائها الأجلاّء وأشرافها وأعيانها ورؤساء المجاهدين المحترمين الذين اجتمعوا من كل أنحاء البلاد . وقد تمّ انتخاب أعضاء مجلس الشورى الطرابلسي، وانتخب أعضاء مجلس الجمهورية وافتتح أعماله بتبليغ إعلان الجمهورية إلى الدول الكبرى وإلى الدولة الإيطالية .

إن الأمة الطرابلسية تعتبر نفسها حائزة لاستقلالها الذي اكتسبته بدماء أبنائها وقوتها منذ سبع سنين ، وسعيدة بالوصول إلى هذه الغاية التي هي أشرف ما تصل إليه الأمم وتهنىء أبناءهـا بتمام نجاحها واتحادهم على الثبات التام في الدفاع عن وطنهم وحكومتهم الجمهورية الجديدة . والتوفيق بيد الله تعالى وحده » .

١٣ صفر سنة ١٣٣٧

سليمان الباروني — أحمد المرّيض

رمضان الشتيوي — عبد النبي بن خير

البلاغ الثاني – إلى الضباط الوطنيين :

« إلى حضرة   الوطني

بما أن جنابك وطني صادق ، ومجاهد في سبيل الدين والوطن ، منذ ابتداء الحرب الطرابلسية فإننا ندعوك إلى تقديم طاعتك لحكومتك الجمهورية الجديدة والقيام بما تقلدك إياه من الخدمة والدفاع عن شرف الوطن حتى تنال منها شرف الاحترام والترفع ، وتبرهن للعالم أنك ابن الوطن العزيز وأحد رجاله الذين سيحفظ لهم التاريخ ذكرهم المجيد » .

البلاغ الثالث – إلى رئيس الحكومة الإيطالية :

« تفتخر الأمة الطرابلسية بتتويج استقلالها بإعلان الحكم الجمهوري وانتخاب نواب عنها من كافة أنحاء القطر لمجلسي الحكومة والشورى ولا هدف لها إلا ضمان وحدتها وحريتها داخل حدودها السياسية المعروفة ، ولا تقصد إلا أن تعيش عيشة هنيئة مسالمة لجميع الأمم التي لا تحاول غصب حقوقها .

لذلك فالحكومة الجمهورية الطرابلسية تدعو الحكومة الإيطالية إلى الاعتراف بها ، وسدّ كل باب يضطر الحكومة الطرابلسية إلى مداومة الحرب إلى أن تحقق أملها المشروع » .

١٣ صفر سنة ١٣٣٧

ملحق :

إذا قبلت المواد الآتية ووضعت موضع الإجراء فالحكومة الجمهورية الطرابلسية مستعدة للبحث مع الحكومة الإيطالية في عقد صلح طبقاً للقواعد الآتية :

١ – في حال دوام المذاكرة يجب على كل من الطرفين المحافظة على مواقعه بصورة هدنة .

٢ — لا تقرب السفن الحربية السواحل غير المحتلة بالعساكر الإيطالية .

٣ — لا تتجاوز الطيارات حدود الاستحكامات .

٤ — لا تقع مخابرة خصوصية مع أي أحد كان لا من جهة المناطق الحربية ولا من غيرها .

٥ — يقطع كل ما فيه وسيلة للاختلاط بالأهالي من طرف الحكومة الإيطالية كأخذ وإعطاء البضاعة وتوزيع الإعانات على أي صورة وبأي طريقة كانت .

٦ — المخابرات الرسمية والدخول والخروج لا يكون إلا من الموقع الذي يصير تعيينه في منطقة الخمس من طرف الحكومة الطرابلسية .

٧ — الحكومة الجمهورية الطرابلسية مستقلة في شؤونها وحركاتها تمام الاستقلال ، وغير مقيّدة بأي شرط أو قيد تضعه حكومة أخرى أو تتعهد به لحكومة إيطاليا في طرابلس .

٨ — ضباط الترك والألمان الموجودون في داخل طرابلس هم بمنزلة ضيوف عند الحكومة الطرابلسية ، ولا تسمح بسفرهم إلا بصورة تكفل منفعة وشرف الأمة الطرابلسية وحكومتها الجمهورية .

٩ — بما أن الأمة الطرابلسية لها الحق في إظهار حقوقها للعالم الإنساني وبالخصوص الحكومات الموجودة قناصلها في مدينة طرابلس مثل انجلترا وفرنسا وأمريكا فعلى الحكومة الإيطالية قبول وتوصيل ما يرسل من الحكومة الطرابلسية إليها بدون اطلاع عليه ، وأخذ سندات من القناصل المذكورين وإرسالها إلى الحكومة الطرابلسية حتى لا تضطر إلى اتخاذ طريقة أخرى لمواصلة مخابراتها المذكورة .

١٠ — المخابرة مع الحكومة الإيطالية لا تجوز إلا تحريراً . ولا يعتبر أي كلام شفهي .

١٣ صفر سنة ١٣٣٧

الإمضاءات

وقد حمل هذا البلاغ مختار بك كعبار رئيس المالية في الحكومة الجمهورية ، وذهب به إلى الخمس ـ وهي أقرب مدينة محتلة إلى مسلاتة ـ لمقابلة ذوي الشأن من الإيطاليين والمذاكرة معهم في إبلاغه إلى حكومتهم . وقد أبوا أن يتفاهموا معه في موضوعه ، وأفهموه أن حكومتهم لا تعترف بالجمهورية الطرابلسية ، وأنها مستعدّة للحرب إلى النهاية . وبهذا الرفض أصبح موقف الطليـان إزاء الطرابلسيين موقفاً عدائياً بكل ما تفيده هذه الكلمة من معنى العداوة .

البلاغ الرابع ـ إلى الرئيس ولسن :

« نتشرف بأن نعرض على فخامتكم أن الأمة الطرابلسية قد توّجت استقلالها بإعلانها حكومة جمهورية . وفي ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ تمّ انتخـاب مجلس شوراها ومجلس جمهوريتها .

إن قواعدكم المشهورة بالنسبة لمقدرات جميع الأمم سواء كانت في أوروبا أو خارجها قد شجّعتنا كثيراً على أن نضع آمالنا في مقاصدكم العظيمة ونواياكم العالمية الإنسانية .

انه ليس هناك حدّ للحقوق والواجبات البشرية ، لذلك إننا متأكدون من أنه لا يمكنكم أن تنظروا بعدم الإكتراث إلى استعباد أمة صغيرة بقوة السلاح مثل أمة طرابلس وهي تقاتل لثامن سنة ضد الغاصب المعتدي بكل متانـة . وهي متأكدة من أن بسالة أبنائها قادرة على أن ترد قوات المعتدين عليهـا في كل زمان .

وإننا نؤمل أن عواطفكم السامية نحو الحكومات والأمم الصغيرة الحية ستحثكم على أن تمنعوا تكرار سفك الدماء بيننا وبين الطليان بتكليفهم بالاعتراف

بحكومتنا الجمهورية .

وفي الختام نرجو قبول احترامنـــا ووضع المسألة الطرابلسية على بساط مذكرات الصلح العمومي » .

البلاغ الخامس – إلى رئيس الوزراء الإنجليز :

« نتشرف بأن نحيط فخامتكم علماً بأن الأمة الطرابلسية قد توّجت استقلالها بإعلانها الحكومة الجمهورية . وفي ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ أعلنت نتيجة انتخابات مجلس شوراها ومجلس جمهوريتها .

ليس بين الأمم من هو جدير بحريته واستقلاله أكثر من الأمة الطرابلسية التي تقاتل إلى الآن ثماني سنوات ضدّ غاصب أرضها وحريتها . وإننا لا شك في أن إحساساتكم العالية نحو حرية الأمم والحكومات الصغيرة ، كما أن غيرتكم على حماية العرب تجبركم على العطف على جمهوريتنا الجديدة الحرة . وإننا نؤكد لكم أيضاً أن قومنا وضعوا جلّ آمالهم في انجلترا حامية حقوق الأمم الصغيرة . فرجاؤنا أن تتفضلوا بوضع المسألة الطرابلسية على بساط مذكرات الصلح العمومية حتى تنال جمهوريتنا ما يضمن لها مستقبلها . والمرجو قبول عظيم احترامنا » .

البلاغ السادس – إلى رئيس الحكومة الفرنسية :

« نتشرّف بأن نحيط فخامتكم علماً بأن الأمة الطرابلسية قد توّجت استقلالها بإعلان الحكم الجمهوري . وفي ١٦ نوفمبر سنة ١٩١٨ أعلنت نتيجة انتخاب مجلسي الجمهورية والشورى .

إن ما قامت به فرنسا الحرّة من نشر إعلان الحرية في العالم وتكبّدها كل الصعوبات في سبيل حمايتها لا يجهله أحد ، وإنه لمكتوب على صفحات القلوب بمداد الحياة تتغذى به أرواح الأحرار في كل الأقطار لا ينسخه توالي الدهور ولا تمحوه زلازل الحروب .

إن من قام في هذا العصر بطلب حريته سواء كان بسيفه أو قلمه فإنما هو مستمد من منبع الحرية الزلال ، ومقتبس من سناها الساطع، ومغترف من بحرها الطافح ، ومستخرج من معدنها الصافي (قاعدة فرنسا الحرة) .

فلا عجب إذا قامت الآن فرنسا لحماية حرية الأمم الصغيرة ، كأمة طرابلس الغرب التي ما برحت تريق دماء أبنائها منذ سبع سنين وزيادة في سبيل نيل حريتها واستقلالها وردّ جيوش إيطاليا الغاصبة لأرضها المعتدية على شرفها .

إن الأمة الطرابلسية التي لا تجهل تاريخ فخرها القديم لم ترض أن تساق الآن بعصا الذل والهوان،وأن تُستعبد في زمن مادت فيه الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بالحروب الهائلة لأجل تحرير بني الإنسان .

إنّ كل من يتتبع التاريخ بإنصاف يجد أن الأمة الطرابلسية لم تملكها دولة من الدول كما تملك البلاد ملكاً مطلقاً، بل لم تزل منذ خلقت أو عرفت بين الأمم في مناضلة كل من يقصد استعبادها سواءً كان من الدول الإسلامية أو المسيحية وكانت ولا تزال تفضل الجلاء وسكنى القفار على تحمل الضيم والاحتقار . وها هي أطلال بلادهم الخالية بادية ، وأنسابها المنتشرة شرقاً وغرباً شاهدة . فسعي الأمة الإيطالية وراء استعبادها الآن هو ضرب من طلب المستحيل ، ولو راجعت تاريخ أجدادها وأجدادنا القدماء لرأت فيه ما يصدّها الآن عن سفك الدماء .

لذلك تؤمل حكومة طرابلس الجمهورية الجديدة من جارتها الجمهورية الفرنسية أن تنظر إلى المسألة الطرابلسية بنظرة الاهتمام والاعتبار ، وأن تعنى بوضعها على بساط مذكرات الصلح العمومي ، وأن تقنع حليفة ألمانيا القديمة وحليفتها هي الآن حكومة إيطاليا بالاعتراف بحقنا المشروع حتى يقف تيّار إراقة الدماء بين الأمتين ، وتستريح البلاد والعباد ، وتنال البلاد الطرابلسية نصيبها من هذه الراحة أيضاً فإن منفعة البلدين ومضرتها واحدة » .

* * *

وقد أرسلت هذه البلاغات إلى الحكومات الموجّهة اليها ممضاة كلها بإمضاءات أعضاء الجمهورية . وعيّن موظفو الإدارة في جميع أنحاء القطر ، وانصرف الأعضاء والموظفون كلّ الى عمله .

وقد قامت قيامة الطليان لهذه الجمهورية ، وأخذتهم العزّة بالإثم ، وأنفوا من أن تدعوهم الجمهورية الطرابلسية إلى الإعتراف بها ، وألقت طائراتهم منشورات تهدد فيها بالقتل والفناء وتتوعّد بالسحق والمحق ، واستعملوا الغازات الخانقة على الزاوية وغيرها . وهم في ذلك كله يعتمدون على جيشهم الذي بقي ثمان سنوات وهو محصور في ثلاث مدن على الساحل . وقد جرّب حظه مرة في ظروف واتته فوصل إلى فزان . ولكن لم تمض عليه سنة حتى هزم تلك الهزيمة الشنعاء التي تركت أشلاءه مبعثرة في كل مكان من صحراء طرابلس ، وصار يضرب به المثل في جبنه .

وعلى مثل هذا الجيش يعتمد الطليان دائماً في كسب فخرهم . وها نحن أولاء في سنة ١٩٥٠ وبعد أن سقطت روما في يد الحلفاء بنحو سبع سنوات [١] وما زالت أصداء الهزائم التي حلّت بهم في الحرب الأخيرة في سيدي براني ، وفي العلمين وغيرهما ترنّ في آذان العالم [٢]. ولولا جيوش الألمان التي كانت تدافع عنهم لما أفلت من جيوشهم جندي واحد . وقد دالت دولة موسوليني وقتل بيد الإيطاليين في ٢٩ إبريل سنة ١٩٤٥ وبقيت جثته ملقاة على قارعة الطريق يرميها المارة بسيل من البصاق استخفافاً بقدره . ثم علّق على خشبة من رجليه ورأسه إلى أسفل . وهكذا لاقى من الإهانة من أبناء جلدته ما هو جدير بتهوّره وعجرفته .

---

(١) سقطت روما في يد الحلفاء في ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ .

(٢) في ديسمبر سنة ١٩٤٠ انكسرت جيوش الطليان في سيدي براني . وفي أول يوليو سنة ١٩٤٢ أوقفت جيوش المحور في العلمين . وفي ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٢ تم تحطيم خطوط المحور فيه .

كان موسوليني وعشيقته كلارابتاشي أسيرين في كوخ في قرية دونْجوا على بحيرة كومو. فجاءه الثوار وقتلوه رمياً بالرصاص هو وعشيقته يوم ١٩٤٥/٤/٢٩ ونقلت الجثتان إلى ميدان ميلانو الرئيسي حيث طرحتا وتزاحم الشعب يركلهما ويبصق عليهما في زراية واحتقـــار ، وقد ضرب موسوليني برصاصة في جبهته فتناثرت خلايا مخه . وفي المساء علّـق الجمهور الجثتين من الأرجـل في إحدى محطات البنزين . وفي صباح اليوم التالي أُنزلتا ونقلتا في عربة الى فناء معرض الموتى .

ويقول قاتله « والتر أديسيو » : ان موسوليني مات جباناً لأنه وقف وظهره الى الحائط يرتعد فزعاً قبيل إعدامه رمياً بالرصاص ، وظل يتمتم « ولكن ... ولكن ... ولكن يا كولونيل » .

وقد قتلته بخمس طلقات من مدفع سريع صغير .

وقد روى عنه الذين عاصروه في ساعاته الحرجة وقبل مصرعه أنه قال :

لقد أخطأت الاختيار ... كان أمامي أحد طريقين : إما أن أقف مـــع الفلاحين والعمال وغيرهم من الطبقات الكادحة في سبيل الحق ، وإما أن أقف مع رجال المال وملوك الصناعة الكبار والمغامرين العسكريين .

ولقد بدت لي المجموعة الأخيرة على الطريق الثاني أقرب الى السلطة وسرت معها الى حيث أنا الآن .

بعد تأسيس الجمهورية :

كان للجمهورية الطرابلسية أحسن الأثر في نفوس الشعب الطرابلسي ، ونشاط سرى في جميع مرافق الحياة وأحسّ الناس بتطوُّر غريب في حياتهم السياسة اعتقدوا أن مصدره هذه الجمهورية التي رأوا فيها فتحاً مبيناً ، وثمرة من ثمرات جهادهم الموفق .

ولم يكن سكان المدن في طرابلس أقلّ فرحاً بهذه الجمهورية من إخوانهم المجاهدين ، فقد كان شعور الطرابلسيين متجهاً الى ناحية واحدة هي التغلب على الطليان ، وكانت الجمهورية مثالاً بارزاً في التعبير عن هـذا المعنى ، فكانت في محل الإجلال والتعظيم من نفس كل طرابلسي .

وقد رأى أعضاء الجمهورية ان الوضـع الحربي يقضي بأن يقيم كل عضو من أعضاء الجمهورية في منطقة نفوذه يصرف أعمالها كيفما يرى متحملاً تبعة أعماله : فأقام رمضان بك في مسلاتة ، وأحمـد بك المريض في ترهونـة ، وسليمان باشا البـاروني في العزيزية والزاوية ، وعبد النبي بن خير في أرفلة . وكان من بين قرارات الجمهورية إسناد قيادة المجاهدين العامة الى عبد القادر الغناي بدلاً من اسحاق باشا ، وأن تكون الزاوية مقرّ هذه القيادة .

الزاوية :

كانت الزاوية عقدة العقد ، وشجىً في حلوق الطليان ، فكانت المركز الأوسط من ثلاثـة مراكز حربية فيما بين طرابلس وزوارة : المركز الأول العزيزية ، وهي معسكر قلب الجيوش الطرابلسية ، ومركز قيادتهم العامـة . والمركز الثاني الزاوية ، والمركز الثالث بوعجيلة وكانت الزاوية على اتصال دائم مع هذين المركزين لمدّهما بالمجاهدين عند الحاجة . وكلما أراد الطليان أن يهجموا من الشرق إلى الغرب ، أو من الغرب إلى الشرق كانت هي الصخرة تتكسّر عليها جيوشهم . وكان أكثر الهجوم عليها من الغرب إلى الشرق .

وقد حاول الطليان احتلالها عدة مرات فلم يفلحوا إلا في بعضها ، وكان احتلالها يقتضيهم استعداداً خاصاً وجيوشاً هائلة . وقد استعدوا لاحتلالها في ديسمبر سنة ١٩١٨ ، وجهّزوا جيشين عظيمين خرج أحدهما من طرابلس بقيادة الجنرال « بنتانو » والثاني من زوارة ، وغرضهما الهجوم من الشرق والغرب لطرد المجاهدين من الساحل واحتلال الزاوية ، وقبل بدء الهجوم تقدّم من قِبَلهم بعض الوسطاء بالسعي لدى عبد القادر الغنـّاي لتسليم الزاوية ، فوافق مبدئياً على التسليم

وأوقف الهجوم الإيطالي. وانقضى شهر ديسمبر في المفاوضات بينه وبين الطليان للإتفاق على خطة التسليم .

وانتهت سنة ١٩١٨ والطليان ما زالوا محصورين في طرابلس والخمس وزوارة.



مجاهدان على فرسيهما

إسحاق باشا :

جاء إسحاق باشا إلى طرابلس سنة ١٩١٨ بعد أن سافر نوري إلى الآستانة وتولى قيادة المجاهدين العامة في طرابلس ، وكان مركز قيادته الزاوية . وهو أرنأوطي الأصل شجاع في غير تهوّر ، وحازم مع علم بشؤون القيادة وتصريف أمور الجند ، قوي الإعتداد بنفسه شديد التمسك برأيه ، جبار في غير رحمة على من ثبتت إدانتهم بانتمائهم للعدو أو حامت حولهم الشبهة . وكان إذا اشتبه في إنسان بأنه جاسوس صلم أذنيه حتى إذا عاد مرة أخرى كانت أذناه أقوى

دليل على إدانته . أما من ثبتت إدانته فجزاؤه الصلب في الحال. وكانت الزاوية في أيامه أمنع من عقاب الجو ، وقد أكسبته جرأته مهابة في قلوب الناس صرفتهم عن غيره. وكانت له مواقف حازمة مع الذين يتهاونون في أداء الواجب الوطني مثل موقفه مع عبيدة المحجوبي ، فقد كان يريد قتله لما رآه فيه من التلاعب والميل إلى الطليان . وقد فطن عبيدة لما بيّته له إسحاق باشا فهرب إلى مصراتة فأرسل في أثره وطردته الخيل حتى دخـــل مصراتة فحماه رمضان السويحلي . وكانت حمايته له سبباً في فتور السياسة بينه وبين إسحاق باشا ، واعتبر هذا من رمضان تحدياً له . ولو استطاع أن ينتقم منه لما تأخر ، وقد أراد أن يبطش بالباروني ليتخلص من نفوذه ، فالتجأ إلى ترهونة ، واحتمى بأحمد المريّض . وكان إسحاق يرى أنه متى كانت كل قبيلة تخضع لرئيس فلا يمكن توحيد البلاد توحيداً يمكنها من مقاومة العدو ، وبناءً على هذا كانت نفسه تطمح للقضاء على جميع الرؤساء ، وهي فكرة بعيدة المنال في طرابلس من أجنبي عنها يريد أن ينضم الطرابلسيون إليه على قتل رؤسائهم ، أو التخلي عنهم ، ودون تحقيقها حروب أشد هولاً من حروب الطليان .

وقد شعر الرؤساء من أعماله بما أوغر صدورهم عليه وجعلهم يتربصون به ، ولم يقتصر التبرّم به على رؤساء العرب ، بل تعدّاهم إلى الضباط الأتراك ، بل وإلى سمو الأمير عثمان فؤاد ، فكان يرى في أعماله نوعاً من الإستبداد به ، واغتصاب سلطته التي خوّلها له جلالة السلطان،لأنه هو الذي كان يمثّل جلالته في شمالي إفريقية .

ولما تمّ تشكيل الجمهورية عرض عليه البقاء في منطقة قيادته فأبى ، فعيّنت الجمهورية بدله عبد القادر الغناي .

ويعلم الله أنه كان من قبيـــل استبدال الدرهم بالدينار : فإسحاق باشا في حزمه وشهامته وحسن قيادته من خيرة من شهدوا الحرب الطرابلسية . وعبد القادر الغناي ليس من طبقة إسحاق باشا لا في حسن القيادة ولا في الحزم

والإخلاص ، بل ولا قريب الشبه به .

ولما اعتزل إسحاق باشا القيادة ترك الزاوية وانتقل إلى غريان وأقام بها إلى أن عقد صلح بنيادم فسلم نفسه إلى الطليان . وسيأتي ذكر ذلك .

عبد القادر الغناي :

هو من مواليد بني غازي ، وتعلّم في المدارس التركية وتخرّج فيها ،وتقلب في وظائف الجيش التركي إلى أن بلغ رتبة أميرالاي . وجاءت به الغواصة إلى مصراتة ليحاول الاتصال ببرقة للترويج للسياسة التركية وبثّ روح الثورة في الناس على المعاهدات التي عقدها إدريس مع الطليان والإنجليز ، وعقب وصوله إلى مصراتة جاء الخبر بسقوط حكومة الآستانة ، وتسليمها للحلفاء في الحرب العامة الأولى ، فعدل عن تنفيذ الخطة التي جاء من أجلها وأقام بمصراتة . ولما أنشئت الجمهورية عيّن قائداً عاماً للجيوش الطرابلسية ، وتقرّر أن تكون الزاوية مركزاً لهذه القيادة . وبما أن الباروني عضو في الجمهورية عن المنطقة الغربية فقد ذهب معه إلى الزاوية لإعلام الضباط والمجاهدين بتأسيس الجمهورية وبتعيين عبد القادر الغناي قائداً عاماً بدلاً من إسحاق .

الغنّاي في الزاوية :

جاء الغناي مع الباروني إلى الزاوية ، وتسلّم القيادة من إسحاق ، وانتقل إسحاق ومن معه من الضباط الترك إلى غريان ، وزار الغناي المجاهدين في تلّيل [1] ورجع إلى الزاوية ، واتّضح أن له صلة بالطليان ليسلّم لهم الزاوية ، وصار يتردّد عليهم في سيدي بلال في جهة .

وقد اشتبه فيه بعض الضباط الوطنيين الموكول إليهم حراسة شط البحر بسيدي بلال ، ومن بينهم محمد سيف النصر الورشفاني فسألوه عن سبب تردده

---

(١) قرية صغيرة ، من أملاك الملالقة . شمالي بوعجيلة .

على سيدي بلال ، فلم يجبهم بما يستريحون إليه .

وأسرّها في نفسه ، وعاقبهم على هذا السؤال . واجتمع بهم في الزاوية ، وأخذ منهم السلاح ، وأرسلهم إلى ترهونة مسجونين .

واستمرّ في اتصاله بالطليان بسيدي بلال ، وذات مرة رجع إلى الزاوية ومعه ثلاثة ضباط إيطاليون والسيد حسن المصراتي (وكان برتبة قائمقام) وفرحات الزاوي ، وخطب السيد حسن في الناس بما معناه : أنه حصل صلح مع الطليان . ونبّه على عسكر المجاهدين بلزوم الهدوء وعدم القيام بأي حركة عدائية ضد الطليان ، ومن يقوم بأي حركة عدائية يُعدم .

وخطب الشيخ عبد الرزاق بن عبد الحميد البشتي بما يؤيد كلام السيد حسن، وقال : إن الصلح تمّ مع جميع الرؤساء والأعيان،إلا رمضان السويحلي الشقي .

وكان بين عسكر المجاهدين جماعة من برقة فانضم بعضهم إلى الغناي، وخالفه بعضهم وفيهم عبد العاطي الجرم .

وقبل انتقال إسحاق باشا من الزاوية أرسل الدكتر عثمان (وهو تركي) والشيخ مصطفى الجزائري إلى« غات»ليؤلفوا فيها حكومة عربية .وقبل وصولهما إلى «غات» جاء الخبر بسقوط تركية ، فأرسل إليهما وردهما من غدامس وانتقل الدكتر عثمان مع إسحاق باشا ومن معه من الضباط الأتراك إلى غريان ، وبقي الشيخ مصطفى الجزيري بالزاوية مع العساكر الموجودين فيها وكان الشيخ مصطفى برتبة قومندان بلك ، فأسندت إليه رياسة من بقي من عسكر المجاهدين .

وسرى التذمّر في صفوف المجاهدين بسبب ما خالط نفوسهم من الريبة في حركات عبد القادر الغنّاي ، فاجتمعوا ليلاً بالشيخ مصطفى الجزيري وتداولوا في الأمر ، واتفق رأي الجميع على إعلان الثورة . ووزّع الموجود من السلاح على العساكر ، وأطلق الرصاص إعلاناً بالثورة .

وسمع عبد القادر فحضر على صوت الرصاص إلى مركز الزاوية حيث تجمّع العسكر والمجاهدون ، وحاول أن يهدىء من غضب الثائرين فلم يستمع له أحد ، فاختفى هو والسيد حسن ، والطليان الثلاثة . ويقال إن سفينة إيطالية كانت في انتظارهم على شطوط الزاوية (ولعلها كانت على مرسى ديله) فركبوا فيها وذهبوا إلى طرابلس . والتحق الشيخ مصطفى الجزيري ومن معه بالعزيزية .

وحاول جماعة البرقاويين الذين كانوا يؤيدون الغناي ـ وتركهم والتحق بطرابلس ـ حاولوا أن يأخذوا إبلاً من الزاوية بالقوة لينقلوا عليها أثقالهم إلى العزيزية فلم يمكنهم ذلك . ووقع بينهم وبين أهل الزاوية قتال ، وقتل منهم جماعة ، والتحق من بقي منهم بالعزيزية حيث مركز المجاهدين.



محمد شلابي قائمقام الزاوية

وكانت محاولات الغناي في ديسمبر سنة ١٩١٨، وبعد اختفاء الغناي من الزاوية احتلها الطليان في أول يناير سنة ١٩١٩ .وكان بها إذ ذاك محمد بك شلابي [١] قائمقاماً .

---

(١) محمد بك شلابي من قبيلة أولاد الحاج ، من أولاد عيسى « بلاعزة » سكان الزاوية ، ولد في الآستانة من أم تركية ، وتعلم في المدارس التركية ، وأسندت إليه عدة وظائف . وعينه نشأت بك قائمقاماً في الزاوية سنة ١٩١٢ . وكان لين العريكة سهل الجانب، وكان لينه يغري=

سحب الضباط الأتراك من طرابلس :

كان من شروط معاهدة موندروس أن تسحب تركية جنودها وضباطها من طرابلس ومن جميع البلاد العربية . وأمضيت الهدنة العامة في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ فأكـّدت هذا الشرط . وعلىأثر معاهدة موندروس جاء الأمر إلى الأمير عثمان في مصراتة بالإنسحاب هو ومن معه من الضباط .

وقد طلب إلى الأمير ومن معه أن يسلموا أنفسهم إلى أقرب مركز إيطالي . ولكن الطرابلسيين أبوا ذلك وأبقوهم عندهم ضيوفاً حتى يحين الوقت لسفرهم إلى الآستانة في عزة وكرامة . وقد ضمّنوا هـــذا المعنى بلاغ الجمهورية الذي أرسل إلى الطليان . ولكن الطليان أرادوا أن يستعجلوا الأمر لاعتقادهم أن المسيّر لدفة الحرب هم الأتراك فإذا ما انسحبوا من طرابلس عجز العرب عن المقاومة ووضعت الحرب أوزارها فألحـّوا على الحكومة العثمانية بطلب سحب ضباطها من طرابلس تنفيذاً لشروط الهدنة فلم تجد تركيا بداً من تنفيذ هذه الرغبة فأرسلت أكرم بك بن رجب باشا إلى طرابلس مندوباً عنها لتبليغ أوامرها إلى الضباطبوجوب سفرهم إلى الآستانة. فوصل إلى طرابلس في فبراير سنة ١٩١٩ وأرسل إلى زعماء العرب يخبرهم بقدومه ، وأنه موفد من قبل جلالة السلطان في مهمة ، ويريد أن يتذاكر فيها معهم . وهذا نص رسالته :

« لحضرات السادة المحترمين أحبابي الأعزاء : أحد أعضاء مجلس الأعيان

=به الناس بالالحاح عليه في قضاء حوائجهم ولو في غير المصلحة، وكانوا يجدون في حلمه ما يوصلهم إلى أغراضهم. وكان يمتز بالبلا عزة إلى حد كبير. وكثيراً ما وضعه حلمه موضع الضعف وفتح الباب للتدخل في شئونه . ومن أجل هذا كان محل النقد والمؤاخذة . وفي سنة ١٩٢٢ كان في مقدمة الذين هاجروا من الزاوية، ومرض في غريان وطال به المرض، ولما احتلت غريان في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ انتقل إلى أرفلة وهو مريض ، وتوفي في وادي سوفجين في ٢٣ من شعبان سنة ١٣٤١ الموافق ١١ إبريل سنة ١٩٢٣ ودفن في قلعة سوفجين وتسمى (قلعة الشيخ) وقد صليت عليه وحضرت دفنه . وعمره إذ ذاك يناهز الستين رحمه الله رحمة واسعة .

الكرام سليمان بك الباروني وأحمد بك المريّض والهـادي بك كعبار وسوف بك والصويعي الخيتوني وعلي بك ابن تنتوش وجميع الأعيان الأفاضل الموجودين بالمنطقة أدام الله إقبالهم .

بعد إيفاء التحيات الخالصة والاحترامات القلبية اللائقة إني أعد نفسي سعيداً بتقديم هذا الكتاب لحضراتكم الذين نعدكم أحباباً خالصين، مخبراً إياكم بأني قدمت من استانبول بموجب إرادة جلالة سيدي ومولاي حضرة السلطان الأعظم إلى طرابلس ، واني متهيء العزيمة في أثر هـذا الكتاب بكمال السرعة لجهتكم الفيحاء لأجل الاجتماع بكم، كما أن خروجي من طرابلس سيكون إن شاء الله بعد غد للعزيزية في (كهربة) إيطالية . وعليه أرجو أن تستقبلوني في العزيزية .

وفي الختام نكرر احتراماتي القلبية لحضراتكم وكافة الأعيان والأهلين . ودمتم بخير وعافية .

(فبراير سنة ١٩١٩)　　　　　　　　أكرم رجب باشا

وقد أرسل الطليان مع أكرم بك كتابين أحدهما يتضمن العفو العـام عما حصل من العرب من جرائم سياسية وهذا نصه :

« إلى حضرة اليوزباشي بالجيش العثماني أكرم بك ابن المرحوم رجب باشا والي طرابلس الغرب سابقاً مندوب الحكومة العثمانية لتنفيذ شروط الهدنة المختصة بقطري طرابلس الغرب وبني غازي التي قبلتها الحكومة العثمانية .

قد وكلت حضرة اليوزباشي أكرم بك رجب بأن يصرّح أن حكومـة المستعمرة بناءً على قصدها المتجه لرفع ما وقع من سوء التفاهم بينها وبين الأهالي قد نسيت كل ما سبق من طرف الأفراد والجموع ، ومنحت الأهالي ـ فرادى وجماعات ـ عفواً تاماً عمومياً في كل ما يتعلق بالجرائم السياسية ، وعلاوة على ذلك وكّلنا اليوزباشي المومى إليه بأن يصرّح بأن كل من أراد ترك القطر الطرابلسي والتوجه إلى جهة أخرى فلهم الحرية التامة في ذلك ، ولا يصير لهم

أدنى ضرر لا في أشخاصهم ولا في أموالهم ».

طرابلس في ٧ فبراير سنة ١٩١٩ — رئيس دائرة السياسة

الماجور جنرال تارديتي

أما الكتاب الثاني فيتضمن الإذن للباروني بمغادرة طرابلس إلى حيث يريد وهذا نصه :

« قد وكلنا اليوزباشي أكرم رجب بك بأن يصرّح أن حكومة المستعمرة نظراً إلى كون حضرة سليمان الباروني قد عيّن قبل نشوب الحرب الأوروبية عضواً في مجلس أعيان الدولة العثمانية لا تصير له صعوبة في أن حضرة المومى إليه سيركب على سفينة للتوجّه إلى الآستانة العلية والإقامة بتركية مع كونه من أبناء القطر الطرابلسي » .

عن طرابلس في ٨ فبراير سنة ١٩١٩ — رئيس دائرة السياسة العسكرية

الجنرال تارديتي

وحمل أكرم بك الكتابين، وذهب إلى العزيزية لمقابلة زعماء العرب للمذاكرة معهم في تنفيذ شروط الهدنة بشأن الضباط الأتراك .

وقد ظهر الطليان في هذين الكتابين بمظهر المتفضل بمنح العفو عمن أخطأ ثم ندم على ما فرّط منه . وهي لغة سياسية لا يجهلها زعمـــاء العرب ، ولا يخفى عليهم ما تنطوي عليه من اللفّ والدوران وإحداث الفتنة .

واجتمع أكرم بك برؤساء العرب وتذاكر معهم فيما جاء من أجله ، وبلـغ الضباط الأتراك رغبة الحكومة العثمانية في مغادرة طرابلس وسفرهم إلى الآستانة تنفيذاً لشروط الهدنة فلم يصغ لقوله أحد لا من رؤساء العرب ولا من الضباط الأتراك . وقد لوّح أكرم بك لرؤساء العرب بطلب الهدنة من الطليان والدخول في مفاوضات للصلح . ويظهر أن هذا العرض كان موعزاً به من قبل الطليان من قبيل الجسّ والاختبار ، ولم يعطوه صبغة رسمية خوفاً من رفض العرب فيكون

في ذلك تحقير لهم وتسفيه لرأيهم . وقد وطأوا له بهاتين الرسالتين ليجد أكرم في حملها مبرراً لفتح الكلام في موضوع الهدنة . وكانت رغبة رؤساء العرب متجهة إلى أن تكون المفاوضات بينهم وبين الطليان مباشرة وبدون واسطة أجنبية ، كما كانت وجهة نظرهم في الأتراك والألمان الموجودين في غريان أنهم بعد تسليم حكوماتهم أصبحوا ضيوفاً عندهم لهم حق الضيافة والتكريم ولايمكن تسليمهم إلا بعد عقد الصلح واستتباب الأمن . وقد رأى أكرم بك أنه فشل في مهمته ، فسافر إلى الآستانة من غير أن يصل إلى نتيجة .

بعد الهدنة العامة :

اقترن تأسيس الجمهورية بعقد الهدنة العامة في ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وانتهت مهمة جيوش الطليان التي كانت تحارب في أوروبا ، فسنحت للطليان الفرصة للإتيان بالعدد الكافي منها إلى طرابلس لفك الحصار عنهم والتقدم لاحتلال العزيزية .

وقد انتهى دور الغناي إلى تلك النهاية التي طالما تمنّوها وهي احتلال الزاوية، فرأوا في احتلالها فرصة فتحت لهم باب التفكير في القيام بمعركة فاصلة يكون فيها القضاء على الجمهورية ، فجاءوا بجيوش كثيرة وعتاد حربي هائل من مختلف أنواع الأسلحة .

وكان الاشتراكيون يعارضون في الإتيان بالجنود إلى طرابلس ، ويحاولون إقناع الشعب الإيطالي وحكومته بحلّ المشكلة الطرابلسية من طريق الصلح ، وامتنع بعض الجنود من الذين انتهت مدتهم العسكرية بانتهاء الحرب الكبرى من المجيء إلى طرابلس .

وكان بعض الاشتراكيين يلقي بنفسه على قضبان سكة الحديد ليمنع القطار المقلّ للجنود إلى طرابلس من السفر .

ونشأ عن هذا الخلاف أن الحزب العسكري لم يحقق رغبته في الحصول على

العدد الكافي من الجنود الذي كان يرجو الحصول عليه . وإذا كان ما سنذكره من الجيوش الإيطالية قليلاً في نظر الحزب العسكري فكم كان يأمل أن يسوق على الطرابلسيين من الجيوش يا ترى ؟!.

وصف الجيوش الايطالية :

ولنقتصر في وصف هذه الجيوش وما جُهزت به من معدات الحرب على ما ذكره الجنرال جرازياني في كتابه « نحو الفزان » ليطلع الناس على مقدار ما بلغه حنق الطليان على الطرابلسيين حتى بيّتوا سحقهم من الوجود لو أمكنهم ذلك . قال الجنرال جرازياني :

« وابتدأت تأتي من أم الوطن وحدات كثيرة من مختلف أسلحة الجيش . وانضمت إلى الجيوش الموجودة في المستعمرة من قبل ، فتكوّنت فرقتان : ٣٨ و ٨١ وفي أواخر فبراير سنة ١٩١٩ وصل إلى طرابلس الفرقة الأولى وهي فرقة الجنرال زوبيّ، ونزلت في جهات مختلفة من طرابلس . وبهذا أصبح في طرابلس ثلاث فرق إيطالية : الفرقة ٣٨ والفرقة ٨١ والفرقة الأولى . وفي أول مارس كان تحت تصرف طرابلس الجيوش الآتية : ثلاثة قواد فرق . و٥٦ أورطة من الجيوش المشاة ، و ٢٩ بطارية مدافع من أحجام مختلفة عدا الجيوش القيام في طرابلس والخمس وزوارة. وفي ١٧ مارس سنة ١٩١٩قررت الحكومة الإيطالية الموجودة بهجوم كبير على « سواني بنيادم » .

وبينما هي مشغولة بإعداد الجيوش اللازمة لهذا الهجوم اتصلت بزعماء العرب وجرت بينها وبينهم مفاوضات للصلح فأوقف الهجوم .

ولما فشلت المفاوضات استأنفت الحكومة إعداد الجيش ، وقرّرت الهجوم في ١٧ من إبريل سنة ١٩١٩ . وكان ترتيب الهجوم هكذا :

يهاجم الفرسان سكة الحديد الممتدة بين العزيزية وطرابلس وتحتلها، والفرقة الموجودة في الزاوية وزنزور تهاجم ترّينة وسواني بنيادم لاحتلالها ، والفرقة

٣٨ تهاجم فندق ابن غشير لاحتلاله . والفرقة الأولى خصّصت للاحتياطي لتمدّ مواضع الضعف في الجيش بما يسدّ النقص . وتقرر أن يكون الهجوم على جبهة طولها خمسون كيلومتراً ، من الزاوية إلى بئر الفرجاني ، وعلى أن يكون الجيش متصلاً بعضه ببعض ليكون التعاون تاماً بين وحداته إلا الجيش ذا الألوان – وهو مؤلف من سبع أرط – وجيش خربيش غير النظامي ، والفرقة ٨١ وهذه الوحدات كان عليها أن تعتمد على نفسها لبعدها عن الجيش الأبيض [١] .

وكان الجيش الذي وُكل إليه احتلال المنطقة من زنزور إلى بئر الفرجاني مكوناً من ٢٩ أورطة [٢] ، يشد أزرها سبعة طوابير مدافع رشاشة ، و ١٨ بطارية مدافع متنقلة . وكان مع الجيش المختلط من الحبش وغيرهم أربع بطاريات مدفعية . وكان لدى قيادة الجيش العامة سبع بطاريات من المدافع بعيدة المرمى لتمهد الطريق لتقدّم الجيش. يضاف إلى هذه الجيوش ٢٧ أورطة لحماية القواعد.

وجعل لكل فرقة من الجيش ٤٤ سيارة لحمل الماء والأمتعة : وأعدت مائة وستون سيارة في زنزور للنقل السريع لسدّ ما عساه أن يطرأ على الجيش من نقص في أقصر وقت ممكن ، والغرض من كثرة الاستعداد الوصول إلى النتيجة بطريقة اتصال الأشياء بعضها ببعض بحيث إذا نقص شيء حلّ محله غيره بنفسه من غير أن يحتاج إلى من يضعه فيه : « أتوماتيكي » على التعبير الافرنجي .

وبينما كانت هذه الجيوش قد استكملت عدّتها وتنتظر الأمر بالهجوم [٣] ،

(١) الجيش الابيض هو المكون من جنود إيطاليين . والجيش الملون هو المكون من أحباش وغيرهم . وجيش خربيش هم المرتزقة الذين باعوا ضمائرهم وحاربوا وطنهم لقاء دريهمات قليلة برياسة يوسف خربيش ، لا سد الله جوعتهم .

(٢) الأورطة من ٨٠٠ إلى ألف جندي .

(٣) لم تكن هذه الجيوش منتظرة الأمر بالهجوم ، بل كانت تخوض غمار الحرب بالفعل ، وكانت الحرب مستعرة من زنزور إلى الزاوية ، وفي وسط هذا الجحيم نبتت فكرة الصلح .

اشيع في الدوائر السياسية أنه حصلت مفاوضات في الصلح بين الحكومة وزعماء العرب ، فأوقف الهجوم حتى تنتهي المفاوضات .

وكان يجب أن نسيطر على المستعمرة من طريق استعمال الآلات الحربية وانتصار الجيش ، لا من طريق السياسة الواهية وهي المفاوضات والصلح في بلد علمنا من تقاليده أن السيطرة عليه لا تكون إلا بالقوة .

وهذا الاتفاق مع العرب عطّل الاستيلاء على مصراتة أيضاً ، وكان قد أُعد جيش هائل لاحتلالها .

وفي الوقت الذي كان في طرابلس ثمانون ألف جندي لاحتلال البلاد بالقوة رضخت الدوائر السياسية إلى هذا الصلح المشين لحكومة خرجت منتصرة من الحرب العظمى » .

وقد نقلنا هذه الترتيبات الحربية الهائلة من كتاب الجنرال جرازياني « نحو الفزان » ليرى القارىء مبلغ الاستعدادات التي يعدّها الطليان للقضاء على الطرابلسيين . وليدرك الأسباب التي من أجلها ركن الطليان إلى الصلح وعندهم هذه القوة الهائلة التي جمعت بين قوتي البر والبحر . وقد أحسّ المجاهدون بما يعدّه الطليان من هذه الجيوش الجرّارة فهيأوا نفوسهم لملاقاتها ووصلوا جبهة دفاعهم بالزاوية على طريق ترّينة ولم يمهل المجاهدون الطليان بل هاجموهم في ترينة والزاوية عدة مرات . وفي آخر مرة تقهقرت قوة الطليان في الزاوية ، وتمكن المجاهدون من مطاردتهم في شوارعها وبين البيوت وأصبحت مهدّدة بالسقوط واستشهد كثير من المجاهدين في واقعة ترّينة .

وكانت فكرة الصلح تبدو مستحيلة التنفيذ من ناحية الطليان لتفوقهم بكثرة الجيوش وآلات الحرب . وما كان أحد يشك في أنهم يريدون الانتقام من الطرابلسيين والثأر لشرفهم العسكري الذي لصقت به أكبر سبّة لصقت بجيش أوروبي لما أصابه من النكبات المتكررة والهزائم الشنيعة . وفي وسط هذه

المعارك الطاحنة والجيوش المتقاتلة نبتت فكرة الصلح .

سبب طلب الصلح :

عجيب جداً أن يركن الطليان إلى الصلح في مثل هذه الظروف المواتية لهم. ويرجع السبب في ذلك – في نظر ممثلي السياسة العسكرية ، وفي مقدمتهم الجنرال جرازياني – إلى سياسة الضعف التي سلكتها الحكومة في التقرب من العرب ، ومبادلتهم رغبة الصلح ، ويرجع – في نظر ممثلي السياسة المدنية – إلى ما دلت عليه التجارب الطويلة من فشل السياسة العسكرية في الاستيلاء على البلاد بالقوّة المسلحة وقد مضت على الجيش ثمان سنوات مُنِيَ فيها بهزائم مريعة في كل مكان ، من فزان إلى البحر ، وهو الآن محصور في ثلاث مدن على البحر لا يتجاوز حماية الأسطول ، فمن الواجب إذاً الوصول إليه من طريق الصلح .

وهناك سبب آخر وهو اشتداد الخلاف بين ممثلي السياسة المدنية وممثلي السياسة العسكرية وتعصّب كلّ إلى رأيه . وكل من الفريقين غير واثق بانتصار هذه القوة الهائلة التي يحشدونها ، وقد بدت عليها بوادر الضعف في معارك الزاوية وترّينة . ولو قدر على هذه الجيوش الهائلة أن تنكسر لكانت القاضية على الطليان في طرابلس .

وممن كان يعمل لإقناع الطليان بفكرة الصلح محمد بك فرحات الزاوي وهو عنصر قوي في الرأي الطرابلسي فإنه كان من الذين بنوا سياستهم على أخذ ما يمكن أخذه من طريق الحجة وأساليب السياسة ، وكان مقتنعاً بأنه إذا اتفق رؤساء العرب على هذه السياسة وعملوا لها مخلصين فسيكون كسبهم من الطليان – من هذه السياسة – أكبر من كسبهم من سياسة الحرب والقتال . فما عند العرب من عتاد الحرب شيء محدود لا مورد له ومآله الفناء طال الأمر أو قصر . وما عند الطليان شيء غير محدود، ولهم من صناعاتهم ومواردهم وعمالهم ما يجعله أضعافاً مضاعفة .

والطليان يعلمون منه هذه السياسة ، ولكنهم يعلمون أيضاً أن الرؤساء الذين بيدهم الأمر على خلاف رأيه ، فكانوا لا يعلقون عليه أملا كبيراً ، وكان يؤكد للطليان دائماً أن سياسة السلم في طرابلس أجدى عليهم من سياسة الحرب. ولما نجح فرحات بك في سياسته ضد عبد القادر الغناي ، عدّوا هذا نجاحاً لسياسته وتأثرت أفكارهم بآرائه .

وبقي فرحات في الزاوية يعمل لسياسة التقريب بين العرب والطليان رغم ما يقوم به الطليان من حشد الجيوش ، ورغم ما قام به المجاهدون من الهجوم على الزاوية . وكاتب رؤساء العرب في العزيزية فوجد منهم ما شجّعه على المضي في مهمته .

وأذكر أن من الذين وسّطهم الطليان للصلح بينهم وبين العرب « خلافو ناحوم » ، وهو يهودي من أكبر تجار طرابلس ، وله صلة صداقة برمضان بك السويحلي ، فأوفدوه إليه ليحمله على الصلح في مقابل إصدار عفو عام على الطرابلسيين وردّ ما اغتصب منهم من أملاك — وكانت قليلة إذ ذاك — وهي سخافة أراد الطليان أن يخفوا بها ضعفهم أمام العرب . وشبيه بها ذلك العرض الذي عرضوه عليهم بواسطة أكرم بك . انظر ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

وقد ردّت هيئة الجمهورية على هذا التلاعب من الطليان بكتاب قالت فيه : « إننا قوم لا نأبى الصلح ، ولكننا لا نرضى المذلّة والعار . ونحن الذين يجب أن نمنحكم العفو على هذا الاعتداء الفظيع . وإذا أصرّ الطليان على هذا العناد فسنواصل الحرب إلى النهاية .

وإذا لم يكُنْ منَ الموت بُدٌّ   فمنَ العجزِ أن تكون جبانا

وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير في دائرة السياسة الإيطالية ، وفهموا منه أنهم واهمون في تقدير موقف العرب ، وأن العرب عازمون على مواصلة القتال مهما بلغت التضحية . واقتنع الجنرال « ترديتي » رئيس دائرة السياسة بما جاء في كتاب الزعماء من الرغبة الأكيدة في الصلح . وكان يصرّح بعد عقد الصلح بأن

كتاب الزعماء كان له أثر بالغ على نفسه في وجوب مبادلتهم رغبة الصلح .

والطليان في مجموعهم مقتنعون بأن العرب ميّالون دائماً إلى الصلح ، ولكنهم لا يريدون أن يفسروا شروطه كما يفسرها العرب ، ولذلك تراهم دائماً يعرضون العفو وردّ الأملاك ، يحاولون بذلك صرف اتجاه العرب إلى مثل هذه الأمور التافهة . فلما جاء ردّ الجمهورية صريحاً فيما تعتزمه من الدفاع ، وخاب أمل قيادتهم العسكرية في الحصول على نصر عاجل رجحت كفة أنصار السياسة المدنية في طلب الصلح وأذعنوا إلى تفسير شروطه بما يجب أن تفسر به الشروط التي بذلت في الحصول عليها الدماء الطاهرة والأرواح الغالية .

واشتدّ الخلاف بين أنصار السياستين العسكرية والمدنية ، وفشلت أعمال السبر والاختبار التي قام بها الطليان في الزاوية وترّينة ، وعلى أثر ذلك تقدم إلى ميدان العمل أنصار الصلح وأخذوا في تهيئة أسبابه .

هيئة المفاوضات :

تتكوّن هيئة المفاوضات في صلح بنيادم من : الهادي كعبار ، والصويعي الخيتوني ، ومحمد فكيني ، وعلي بن تنتوش . ثم التحق بهم بعد عدة جلسات أحمد المريّض .

وقبل أن تباشر المفاوضة في مسألة من المسائل تتبادل الرأي فيها ؛ مع رمضان السويحلي وسليمان باشا الباروني والأستاذ عبد الرحمن عزام ومختار كعبار وغيرهم من ذوي الرأي حتى إذا ما انتهوا إلى رأي تقدموا به إلى المفاوض الإيطالي ليناقشوه رأيه ، ويبيّنوا له وجهة نظرهم .

عبد النبي بن خير :

أما عبد النبي بن خير الذي هو أحد أعضاء الجمهورية الأربعة فقد سافر إلى أرفلة قبل البدء في مفاوضات الصلح ليجمع المجاهدين ويرسلهم إلى صف القتال ،

ولكنه انتهزها فرصة وبقي هناك. وكان كلما طلب منه القدوم إلى جبهة القتال حيث يقيم الرؤساء أبدى المعاذير، ووعد بما ينوي عدم الوفاء به. وقد فتحت المفاوضات بين الطليان والعرب، وأصبح صلح بنيادم قاب قوسين فلم يهتم لذلك. وأصرّ على عدم حضور المفاوضات، وانتهت ولم يحضر.

ولما انتهت المفاوضات وقّع على القانون الأساسي بالنيابة عنه الهادي كعبار والصويعي الخيتوني، وبعد انتهاء الصلح رأى الرؤساء ان يستطلعوا جليته ويقفوا منه على هذه الشكوك التي تساوره فأرسلوا إليه وفداً مكوّناً من الشيخ عبد الصمد النعاس، والحاج فرج بن إبراهيم المسلاتي، والصويعي الخيتوني، والشيخ أحمد الفساطوي، واجتمعوا به في وادي بني وليد فأخبرهم أن رمضان السويحلي يريد أن يقتله، وحذّرهم منه، وحاول أن يقنعهم بضرورة الانشقاق عنه، فأفهموه أن هذه شكوك في غير محلها، وأظهروا له رغبتهم في الجمع بينهما ليزول سوء التفاهم، واتفقوا أن يكون الاجتماع في ترهونة، فجاء معهم إلى ترهونة وأرسلوا إلى رمضان في «سواني المشاشطة» يطلبون قدومه إلى ترهونة للبحث في سوء التفاهم الحاصل بينه وبين عبد النبي. ولكن رمضان السويحلي وكثيراً من الناس رأوا أن هذه فتنة يرمي من ورائها عبد النبي إلى تفريق الكلمة والتحزّب ضد رمضان.

والحقيقة أن ما لجأ إليه عبد النبي من القدح في رمضان والتخوّف منه ودعوة الناس إلى الانفضاض من حوله لم يكن له سبب، ولم يحدث بينه وبين رمضان ما يكدّر الصفو ولا ما يقتضي العداوة، وعلى ضوء هذه الحقيقة رأى رمضان بك أنه لا داعي لهذه المقابلة في ترهونة، وإذا كان ولا بدّ من التفاهم فيصح أن يكون هنا حيث يوجد زعماء البلاد وأعيانها، فلم يقتنع عبد النبي بهذا، ورجع إلى أرفلة، ووقف الأمر عند هذا الحد.

والواقع أن عبد النبي مصاب بحب الذات حريص على أن يكون زعيماً لا من طريق التضحية والعمل، بل من طريق التدليس والدعاوى الكاذبة. لأننا

لم نرَ عبد النبي يتقدم الصفوف إذا جدّ الجد وفتح الرصاص والمدفع ميدان التضحية والفداء حيث مقام الزعامة ومنبر الصدارة . وها هو تاريخ الحرب الطرابلسية نقلبه صفحة صفحة لنعثر فيه على عبد النبي في صفوف المجاهدين فلم نعثر له على أثر . ولكنا وجدناه يتقدم صفوف الطليان وهم ذاهبون إلى محاربة السيد محمد بن عبدالله في فزان ، . ورأيناه يركن إليهم في طرابلس ويحيا حياة البذخ على حساب خزانتهم ،ويركن إلى الخلاف وتفريق الكلمة بعد إنشاء الجمهورية وفي مؤتمر غريان ، وبعد تغلب الطليان وجلاء المجاهدين إلى أرفلة سنة ١٩٢٢ .

وقد سبّب له حب الذات الوسواس ومركب النقص ووجهه ، وجهة سوء ، فهو يرى كل عمل لا يأتي على يديه ناقصاً ، وهو لم يعمل شيئاً ، ويرى كذلك كل أعمال الرؤساء إنما يقصد بها مناوأته أو ضرره من قريب أو بعيد . وكانت نيّته نحو رمضان بك سيئة إلى أبعد درجات السوء لا لشيء سوى أن عدم إخلاصه قصر به عن إدراك تقدير الأمة له كما تقدر رمضان. وقد رأى رمضان بك أن من الصواب إهمال شأنه ،وإذا بدر منه أي شرّ فعلى أعضاء الجمهورية أن يفكروا في ردعه .

بدء المفاوضات :

اجتمع الفريقان في خلة الزيتونة في مارس سنة ١٩١٩ للمفاوضة فيما يكون أساساً لشروط الصلح. واستمرّت المفاوضات نحو شهر لم يصلوا فيها إلى نتيجة. وكان الطليان يهددون بجيوشهم الهائلة التي جمعوها ، ولكن أعضاء الجمهورية لم يمنعهم هذا التهديد من التمسك بحقوقهم. وفي ١٨ من إبريل سنة ١٩١٩ أعلن وقف الحرب واتفاق العرب والطليان على قاعدة للصلح وهي « منح الشعب الطرابلسي دستوراً يخوّل له مباشرة حقوقه المدنية والسياسية ،ويعطيه الحق في القيام بجميع واجباته الكبرى كالشعوب المتمدنة كما هو من شروط الحرية

الحديثة . وإلى أن ينفذ هذا الاتفاق ويصير العمل بمقتضاه تعطى للزعماء ضمانات وامتيازات ، ويخوّلون حقوقاً .

على هذا اتفق الطرفان اتفاقاً وقتياً ، ولكنه كافٍ لأن يكون ضماناً ناجزاً من الناحيتين » .

وقد استاء كثير من الطليان ـ وفي مقدمتهم الدوائر العسكرية ـ من قبول الصلح على هذه القاعدة ، واعتبروه تسليماً من الطليان بدون تروّ ، وقال بشأنه الجنرال جرازياني : « إنه من التمويه والتضليل أن يسمى ما جرى في خلة الزيتونة صلحاً ، بل هو إزالة لسلطتنا عن طرابلس » ويلقي التبعة على سياسة الحكومة الخاطئة التي تورّطت بسببها في قبول هذا الصلح .

ولم يخف جرازياني تعصبه العسكري وامتعاضه من هذا الصلح في مناسبات كثيرة . وصرّح بأن « العرب فسروه بأنه دليل على ضعفنا لأن عظام جنودنا الذين قتلوا في سنتي ١٩١٤ و ١٩١٥ ما تزال إلى الآن تظهر بيضاء ملقاة على الأرض في ترهونة وبني وليد ، وعلى السهول المهجورة . وكانت سنة ١٩١٩ سنة تحقير لإيطاليا وكره لها . وليس لهذا من سبب سوى سياسة الضعف والملاينة التي كانت ترسم خططها في الخفاء على مقتضى تلك الكلمة التي طالما همست بها « كلنا إخوان » .

وفي نظر الطليان أن إعطاء الطرابلسيين صلحاً على هذه القاعدة غلطة سياسية وخطأ ارتكبه أنصار فكرة الصلح . فإن الطرابلسيين في نظرهم لا يستحقون صلحاً على هذه القاعدة التي تعطيهم من الحقوق اكثر مما يستحقون .

قطع المفاوضات :

وقطعت المفاوضات ، وكادت الحرب تعيد سيرتها لتشدّد الطليان في كثير

من المسائل ، واضطرار العرب لمقابلة هذا التشدد بمثله . وفي آخر لحظة سوّيت المسائل المختلف عليها واستؤنفت المحادثات مرة ثانية في خلة الزيتونة في مايو سنة ١٩١٩ لإتمام ما تضمنته القاعدة المتقدمة وتفصيل شروط الصلح . وانتهى المفاوضون إلى الاتفاق على الصلح ووضع القانون الأساسي في أول يونية سنة ١٩١٩ ووافق عليه الطرفان .

وإلى هنا تمّ الصلح ووضعت الحرب أوزارها ، ودخل الناس في عهد سلم وأمان ، واستقبلت البلاد عهد النضال السياسي كما استقبلت قبله عهد الحرب والمقارعة بالسلاح .

ويقول جرازياني في كتابه «نحو الفزان» :

(إن الزعماء الرئيسيين الذين حوّلوا حقنا إلى طيف خيال ،وحكم غير مباشر وإلى حالة من الاذلال والإهانة هم : رمضان الشتيوي ، أحمد المريّض . الصويعي الخيتوني ، عبد الرحمن عزام ، محمد فكيني ، علي الشنطة ، الأخوان الهادي ومختار كعبار ، وخليفة بن عسكر وغيرهم) .

خاتمة :

إلى هنا ينتهي الدور الثالث من الجهاد الوطني في طرابلس الغرب ، وبانتهائه انتهت مهمة الجمهورية بعد جهاد دام ثمانية أشهر ، حصلت بعده على استقلال لم يتحصل عليه غيرها في عشرات من السنين .

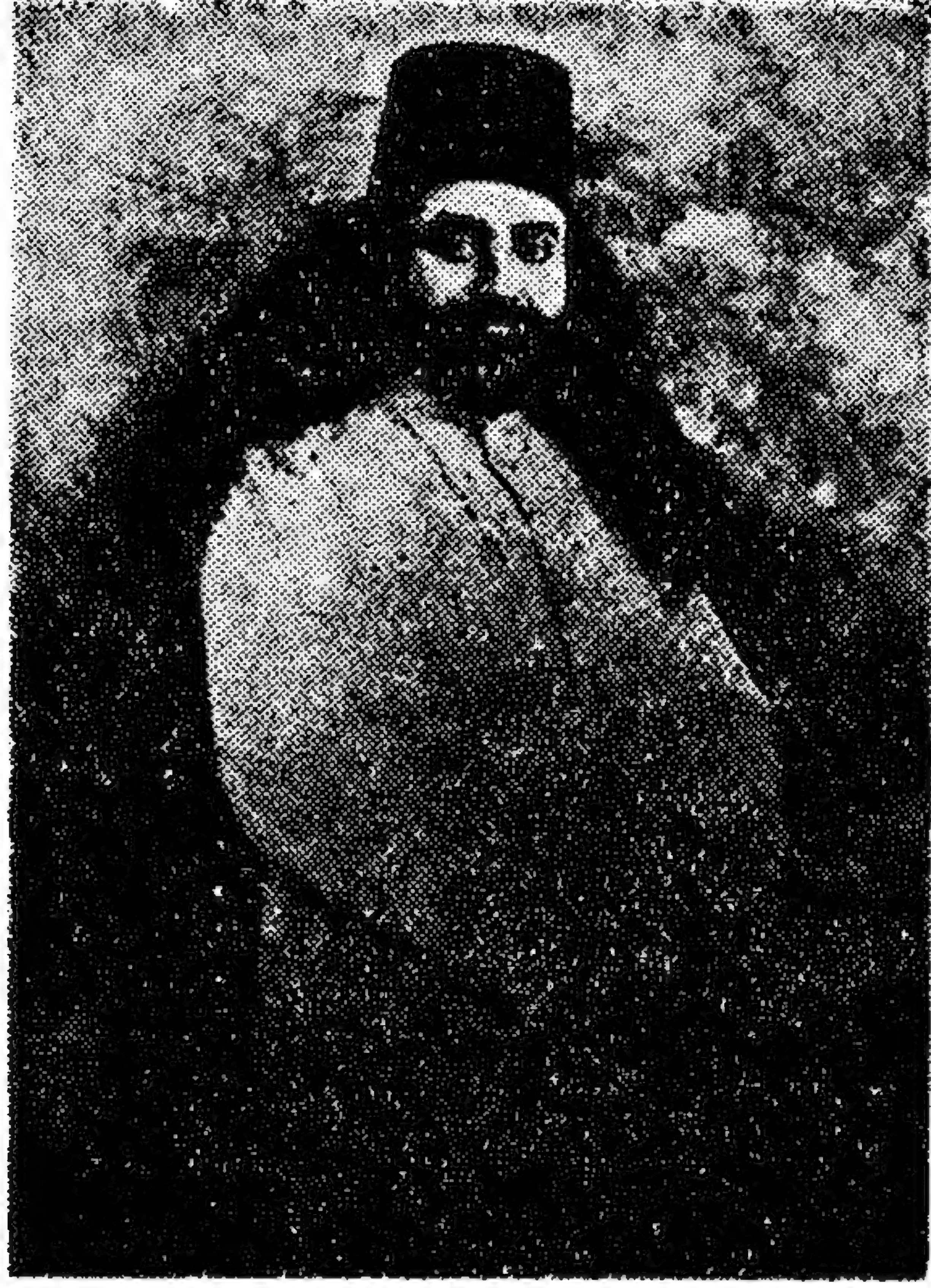
وقد صحبها التوفيق في هذا العمر القصير ، فأدارت دفة الحكم في ظروف أقسى ما تكون من الحرج ، وكانت الشؤون العسكرية في المقام الأول من واجباتها. وشغلت من أفكار قادة الطليان العسكريين والمدنيين ما هم في حاجة إلى الاستعانة به في تنظيم أمورهم ، ووقفت منهم في مفاوضات الصلح موقفاً مشرفاً، فلم تـَلِنْ قناتها، ولم تتخاذل أمام قوة الطليان الهائلة، ودلـّت بنشاطها على أن نظام الحكم الجمهوري في طرابلس أحسن نظام يوحّد كلمة الشعب ويدير

شؤونه . وكانت في محل الإجلال والإكبار من جميع طبقات الشعب . وكانت رمزه الذي يحيطه بكل ثقته واحترامه ، مما سهّل عليها القيـــام بأعباء الحكم فقامت بها خير قيام .

وقد هيّأ لهذا الدور ما حصل في الدور الثاني منانتصارات باهرة للمجاهدين وهزائم للطليان مريعة أقنعت الكثير منهم بأن امتلاك طرابلس بالقوة المسلّحة غير ممكن ، فجاء صلح بنيادم نتيجة حتمية لهذا الضعف العسكري من ناحية الطليان ولنشاط الجمهورية من ناحية العرب .

وكان دور صلح بنيادم دوراً سياسياً محضاً ، وكان الطرابلسيون فيه مضرب المثل في الوفاء بالعهد . ولما كان من مقومات السياسة الأوروبية الغدر وعدم الوفاء صار الطليان يتحينون الفرصة لنقض القانون الأساسي ، وانضم المدنيون منهم الذين كانوا يؤيدون فكرة الصلح ـ يوم أن كان الضعف آخذاً من جيشهم كل مأخذ ـ إلى العسكريين الذين نظموا أنفسهم وظهرت بوادر الشر منهم في كل حركة وكان من أمرهم ما سنفصله في الدور الرابع .





سليمان باشا الباروني احد اعضاء الجمهورية الطرابلسية
وعضو هيئة المفاوضة في صلح بنيادم



جماعة من المجاهدين في طريقهم إلى مواجهة العدو

الدور الرابع

من الجهاد الطرابلسي

دور الحريـــة

صلح بنيادم

في يونية سنة ١٩١٩

مقدمة :

هذا هو الدور الرابع من أدوار الجهاد في طرابلس الغرب . ويمتاز عن غيره من الأدوار التي تقدمته بالنضال السياسي الذي وقع فيه . فبعد أن فشلت جميع محاولات الطليان في تحسين مركزهم في طرابلس ، وظهورهم بمظهر المتفوق الغالب ، وفي إزالة ما لصق بهم من عار من الهزائم المتكررة في سنة ١٩١٤ وما بعدها . وبعد أن عجزت جيوشهم عن التقدم بل وعن مجاوزة حماية الأسطول - بعد هذا كله سئموا هذا الموقف المشين أمام دول العالم وأمام أنفسهم فأرادوا التخلص منه بأي طريق وعلى أي شكل .

وقد كان في أملهم أن يتحصلوا على صلح يلونه كما تشاء لهم ألاعيب السياسة وعلى وفق أغراضهم . ولكنهم وجدوا من انتباه أعضاء الجمهورية ما خيب آمالهم وأبوا إلا أن يكون صلحاً شريفاً تنال فيه طرابلس من الحقوق ما يتفق مع تضحياتها وجهادها ، فمضوا - مكرهين - في إتمام إجراءات الصلح ، ولكنهم بيّتوا الغدر واعتزموا الخيانة . فما كادت الحرب تضع أوزارها ويبدأ تشكيل الهيئات التي نص عليها القانون الأساسي حتى بدت منهم محاولات نقض نصوصه وما جاء فيه مما يكسب الطرابلسيين شيئاً من الحرية . وقد وقف الطرابلسيون أمام هذه الألاعيب الإيطالية موقفاً مشرفاً ، استعملوا فيه أساليب الإقناع والحجة إلى أبعد حدودها ، وتذرّعوا فيه بالأناة حتى ضاقت الصدور . ولكن الطليان كانوا أزمعوا أمرهم على نقض هذا الصلح ، فلم تغن الحجة والإقناع ، فاضطرّ الطرابلسيون إلى مقابلة عناد الإيطاليين بمثله ، وقامت الحرب الرابعة في ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ (٢٦ من ينـاير سنة ١٩٢٢) وسنفصل قريباً ما اشتملت عليه من أحداث إن شاء الله .

القانون الاساسي

للقطر الطرابلسي

الصادر بتاريخ ١ يونية سنة ١٩١٩

(نحن) ويتوريو عمانوئيل الثالث ملك إيطاليا وبفضل الله ومعونة الأمة.

بعد الاطلاع على الفصل الخامس من قانون المملكة الأساسي ، وبعد الاطلاع على الأمر الملوكي المؤرخ في ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ رقم ١٢٤٧ المحوّل قانوناً بتاريخ ٢٥ فبراير سنة ١٩١٢ رقم ٨٣ . وبعد الاطلاع على القانون المؤرخ في ١٣ يونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ . وبناء على ما عرضه علينا وزيرنا ناظر المستعمرات . وبعد استماع مجلس الوزراء (أمرنا ونأمر بما يأتي) .

باب في (الشيتادينانسة)

وهي (الوطنية)

(الفصل الأول) في القطر الطرابلسي . يعتبر وطنيين إيطاليين (شيتاديني إيتالياني) بناء على الأحكام المندرجة في هذا الأمر .

أولاً — المولودون في القطر الطرابلسي حين تاريخ هذا الأمر أينما أقاموا إذا

لم تكن لهم صفة وطنيين أجانب ، أو صفة تبعة أجانب حسب القوانين الإيطالية .

ثانياً – من أبوه وطني بموجب الفقرة السابقة .

ثالثاً – من أمه وطنية بموجب الفقرتين السابقتين إذا كان أبوه مجهولاً ، أو لم تكن له وطنية إيطاليا ولا وطنية دولة أخرى أو تبعيتها .

رابعاً – المولود في القطر الطرابلسي إذا كان والداه مجهولين ، أو لم تكن لهما وطنية إيطاليا ولا وطنية دولة أخرى أو تبعيتها .

خامساً – المرأة التابعة للدولة الإيطالية أو لدولة أجنبية المتزوّجة بمن يعتبر وطنياً إيطالياً بموجب الفقرات السابقة .

(الفصل الثاني) كل من سكن عادة واختياراً في القطر الطرابلسي وليس من الوطنيين الإيطاليين بالمملكة أو من الوطنيين الأجانب ، أو من التبعة الأجانب يحمل على أنه وطني حسب الفصل الأول .

(الفصل الثالث) لأجل إجراء الحقوق المذكورة في هذا الأمر وإلى حين تأسيس دوائر النفوس فالشهادات اللازمة لإثبات الشروط المذكورة في الفصل الأول يعطيها مختارو المحلات أو القبائل التي يسكن فيها صاحب الحق عادة بتصديق المحكمة الشرعية فيما يخصّ المسلمين ، وبتصديق محكمة الأحبار فيما يخص الإسرائيليين .

(باب فيما للوطنيين وما عليهم)

(الفصل الرابع) في القطر الطرابلسي : كل الوطنيين الإيطاليين بلا تميز بينهم على حدّ سواء أمام القانون .

(الفصل الخامس) تبقى للوطنيين المذكورين في الفصل الأول أحكامهم الخاصة بالأحوال الشخصية والمواريث ، ولهم الحقوق المدنية والسياسية الآتية :

أولاً — أن تُصان حريتهم الشخصية فلا يجوز تقييدها إلا فيما هو مقرّر بالقانون الجاري في إيطاليا من الأحوال والوجوه .

ثانياً ـ حرمة المنزل ، فلا يجوز لأرباب الضبط دخوله إلا عندما يقتضيه القانون المذكور مع مراعاة الكيفية المقررة فيه والعوائد المحلية .

ثالثاً ـ حرمة الملك إلا إذا وجب الانتزاع (الاستملاك) للمصلحة العامة بعد دفع عوض مناسب حسب القانون ، وذلك إذا لم تمنعه العوائد المحلية منعاً صريحاً .

رابعاً ـ حق المسابقة إلى الوظائف المدنية والعسكرية المذكورة في التراتيب المحلية وهي أيضاً شرائط المسابقة وكيفيتها .

خامساً ـ حق مباشرة الحرف العالية حتى في إيطاليا بشرط حصولهم على الشهادات اللازمة .

سادساً — أن ينتخبوا أو يُنتخبوا (بضم الياء) وذلك على ما بيّنه ترتيب مخصوص من الشرائط والكيفية .

سابعاً — عرض مطالبهم وشكاياتهم على مجلس الأمة .

ثامناً — حق الإقامة .

تاسعاً — حق الخروج من القطر ، وذلك على ما يبينه ترتيب مخصوص .

(الفصل السادس) احترام الدين والأصول والعوائد المحلية مضمون .

(الفصل السابع) تقرّرت حرية الطبع والاجتماع وستصدر في ضبطها تراتيب محلية يبيّن فيها عقاب من تجاوز الحدود .

(الفصل الثامن) إن الوطنيين المذكورين في الفصل الأول لا يجوز إجبارهم على الخدمة العسكرية وإنما يجوز إحداث قوى عسكرية محلية بتجنيد اختياري سينظم بمقتضى نظامات خصوصية .

(الفصل التاسع) لا يجعل في القطر الطرابلسي ضرائب حكومية مضروبة

مباشرة (تريبوتي ديريتي) إلا إذا عمّت جميع سكانه أو كل من له مصالح فيه ووافق عليها مجلس النواب المحلي ، وللمجلس أيضاً أن يقرر كيفية تنفيذها وتوزيعها على من جعلت عليه تلك الضرائب. ولا تصرف الواردات الناشئة مما ذكر إلا في مصالح القطر الطرابلسي لا غير .

(الفصل العاشر) التدريس الخصوصي أي غير الرسمي حر،ولكن للحكومة النظر عليه بواسطة مأموريها . وما عدا المكاتب المختصة بالتعليم الابتدائي الإجباري ستحدث الحكومة دروساً للتعليم المتوسط وللتعليم العالي أيضاً فيما بعد ، وأما فيما يخصّ المسلمين فالتعليم الإجباري مقصور على الذكور فقط .

(الفصل الحادي عشر) فيما يخص المسلمين تدرس باللغة العربية جميع مواد التعليم الإبتدائي ، وجميع المواد العلمية في التعليم المتوسط ، وفي جميع الصفوف يجب تعليم اللغة الإيطالية أيضاً ما عدا الصفوف الثلاثة الإبتدائية الأولى فإن تعليمها فيها اختياري .

(الفصل الثاني عشر) لا يجوز تعليم المسلمين أصولاً مخالفة لدينهم .

باب في حكومة القطر الطرابلسي

وإدارته المختارة (آوتونما)

(الفصل الثالث عشر) ترأس القطر الطرابلسي حكومة مؤلفة على ما يأتي:

أولاً ـ من والٍ ينصّبه جلالة الملك وهو يجمع كل السلطة المدنية والعسكرية مما يدخل في دائرة الصلاحية الموكولة إليه بمقتضى الأحكام المتعلقة بذلك .

ثانياً ـ ومن مجلس نواب محلي ينتخبه أهل البلاد وفيه عدد محدود من أعضاء يستحقون الجلوس فيه بمقضى وظيفتهم وغيرهم يعينهم الوالي طبق ما في الفصل الخامس عشر الآتي .

ثالثاً ـ ومن دوائر رئاسية مدنية وعسكرية يعين رؤساؤها بأمر ملكي .

(الفصل الرابع عشر) إن أعضاء مجلس النواب المحلي ينتخبون باعتبار عضو واحد عن كل عشرين ألف نفس من سكان البلاد .

(الفصل الخامس عشر) إن رؤساء الدوائر الرئاسية للحكومة يستحقون الجلوس في مجلس النواب المحلي بمقتضى وظيفتهم ، ولهم صوت قراري ، ويجوز للوالي أن ينصّب غيرهم من الأعضاء لهذا المجلس من بين رؤساء دوائر الإدارة المحلية ، غير أنه لا يجوز أن تتجاوز جملتهم بحساب أعضاء الاستحقاق سدس الأعضاء المنتخبين . إن أعضاء الاستحقاق ينوبون عن المجلس في الحكومة . ينتخب مجلس النواب المحلي رئيسه من بين أعضائه من المسلمين .

(الفصل السادس عشر) لا ينتخبُ (بضم الياء) عضواً في مجلس النواب المحلي إلا من تجاوز عمره الثلاثين سنة وكان من الوطنيين حسب القانون ١٣ جونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ أو طبق ما في الفصل الأول من هذا الأمر .

(الفصل السابع عشر) إن الوطنيين الإيطاليين المذكورين في القانون المؤرخ في ١٣ جونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ لا ينتخبون أعضاء في مجلس النواب المحلي ولا يعطون صوتهم في الانتخاب إلا إذا أثبتوا أنهم سكنوا في القطر الطرابلسي مدة خمس سنين متوالية لينتخبوا أعضاء ، ومدة ثلاث سنين لإعطاء الصوت .

(الفصل الثامن عشر) إن الوطنيين الإيطاليين المذكورين بالقانون المؤرخ في ١٣ جونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ والوطنيين المذكورين بالفصل الأول من هذا الأمر ليس لهم أن يعطوا صوتهم في انتخاب أعضاء مجلس النواب المحلي إلا إذا تجاوز عمرهم العشرين سنة وذلك ما عدا الشروط التي سيقرّرها الترتيب المخصوص .

(الفصل التاسع عشر) إن أعضاء مجلس النواب المحلي لا يجوز رفعهم لدى المحاكم الجزائية بلا إذن المجلس المذكور إلا إذا كانت الجريمة المشهودة .

(الفصل العشرون) إن التراتيب اللازمة لإجراء الأصول المندرجة في هذا الأمر يوافق عليها مجلس النواب المحلي قبل صدورها . وللمجلس أيضاً القرار فيما يأتي (١) في جعل الضرائب الحكومية الموضوعة مباشرة مع ما يخصها من كيفية التنفيذ والتوزيع على من جعلت عليه تلك الضرائب (٢) في القواعد المرشدة للخدمات المدنية العامة الجارية بالمبالغ المخصصة لها في القسم الاعتيادي لميزانية القطر الطرابلسي بشرط أن لا تزيد المبالغ المطلوبة على القدر المعين في الميزانية .

(الفصل الحادي والعشرون) يقسم القطر الطرابلسي إلى ألوية وقضاءات ونواحٍ . ويرأس كل قسم من الأقسام المذكورة رئيس اللواء وهو المتصرّف ، ورئيس القضاء وهو القائمقام ، ورئيس الناحية وهو المدير .

(الفصل الثاني والعشرون) يحدّد اختصاص الدوائر التنفيذية للحكومة في الترتيب السياسي الإداري .

(الفصل الثالث والعشرون) إذا خلا منصب متصرف أو قائمقام أو مدير بعد ابتداء العمل بهذا الأمر يقع التعيين في الوظائف المذكورة بأمر من الوالي بعد استماع هيئة مخصوصة تسمى (مجلس الحكومة) يرأسها الوالي أو من ينوب عنه وهي تتألف من عضوين يعينهما الوالي وثمانية أعضاء ينتخبهم مجلس النواب المحلي من خارج المجلس . وتجدّد الهيئة المذكورة عند كل انتخاب جديد لمجلس النواب المحلي .

(الفصل الرابع والعشرون) قبل انتخاب مجلس النواب المحلي فالأعضاء الثمانية يعيّنهم الوالي بأمر منه بوجه وقتي بناء على إشارة من رؤساء جهات طرابلس المختلفة بالاتفاق بينهم . إن الأعضاء المذكورين يبقون في وظيفتهم ما دام مجلس النواب المحلي الأول .

(الفصل الخامس والعشرون) كل من يتولى رئاسة اللواء والقضاء ، وكذلك في الناحية إذا لزم له أن يجعل مجلساً ينتخبه أهل البلاد من بين الوطنيين الساكنين بالمكان . إن مجالس الألوية والقضاءات والنواحي يرأسها المتصرّفون وقائمو المقام والمديرون ، ولها القرار فيما يتعلق بالإدارة الإعتيادية حسب ما يبيّنه الترتيب السياسي الإداري .

(الفصل السادس والعشرون) مدة مجلس النواب المحلي أربع سنين وأما مدة سائر المجالس فثلاث سنين، ويجوز للوالي حلّ المجالس المذكورة ولكن يجب عليه أن يجدد الانتخاب في أربعة أشهر من تاريخ أمره بحلّ المجلس . في أثناء بطالة مجلس النواب المحلي وعند تأكد الضرورة للوالي أن يباشر ما للمجلس من السلطة بشرط موافقة المجلس على ما فعله . عند بطالة سائر المجلس فالعمل على ما ذكر لرؤساء الإدارة .

باب في البلديات

(الفصل السابع والعشرون) كل مركز قضاء أو ناحية هو عادة مركز بلدية . تؤلف إدارة البلدية من رئيس ومجلس ينتخبه الوطنيون كل ثلاث سنين ويجوز أن يلحق بالبلديات التي تزيد على غيرها أهمية ناظر من الحكومة لإجراء المراقبة على جميع شؤونها ، وأيضاً لإجراء التفتيش عند اللزوم لسائر بلديات القطر الطرابلسي ولو بواسطة مندوبين منه . يتولى رئاسة البلدية العضو الذي حصل في الانتخاب على أكثرية الأصوات بشرط أن يعرف القراءة والكتابة .

(الفصل الثامن والعشرون) للمجلس القرار في جميع المواد المتعلقة بالمصالح المحلية إذا لم تكن من اختصاص غيره طبق القوانين والنظامات وينفّذ قراراته بواسطة رئيس البلدية .

باب في العدلية

(الفصل التاسع والعشرون) الأمور المتعلقة بالأحوال الشخصية وحقوق

العائلة والمواريث والمناسك الدينية ترفع إلى المحاكم الشرعية فيما يخص الوطنيين المسلمين ، وإلى محاكم الأحبار فيما يخص الوطنيين الإسرائيليين .

(الفصل الثلاثون) إن أمور العدلية مدنية كانت أو جزائية تتولاها المحاكم الاعتيادية برئاسة حاكم من المحاكم المنتظمين في سلك العدلية وذلك ما عدا الأمور المذكورة في الفصل السابق .

إن الوطنيين الذين يدعون إلى المشاركة في المحاكم حسب أحكام الترتيب لهم صوت قراري . أما المسائل المدنية الواقعة بين أصحاب ملة واحدة من الوطنيين المذكورين في الفصل الأول فيجوز إحالة النظر فيها إلى المحاكم الشرعية وإلى محاكم الأحبار إذا تبينت مناسبة ذلك .

(الفصل الحادي والثلاثون) تعيين قضاة القطر الطرابلسي يوكل — على طريق النيابة — إلى مجلس النواب المحلي ، إلا أن الأعضاء غير المسلمين يجب عليهم الإمساك عن إعطاء الصوت في أثناء الانتخاب .

باب في نيل الوطنية في المملكة

(الفصل الثاني والثلاثون) كل من هو من الوطنيين الإيطاليين المذكورين في الفصل الأول له أن ينال صفة الوطنيين في المملكة طبقاً للقانون المؤرخ في ١٣ يونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ إذا طلبها وتوفرت فيه هذه الشروط : (١) أن يكون عمره ٢١ سنة كاملة (٢) أن يكون ذا زوجة واحدة أو عزباً (٣) إن لم يصدر عليه حكم في جناية يقتضي حرمانه من الحقوق السياسية (٤) أن تثبت إقامته بإيطاليا أو بالقطر الطرابلسي خمس سنين إقامة اعتيادية . وفضلاً على ما سبق يجب أن يوجد فيه أحد الشروط الخصوصية الآتية : (١) أن يكون قد خدم بشرف وصدق في الجيش الملوكي أو في البحرية الملوكية أو في غيرهما من قوى الدولة العسكرية (٢) أن تكون له شهادة إحدى المدارس الإيطالية ،

ولا أقل من شهادة إتمام الدراسة الابتدائية (٣) أن يكون من أرباب وظائف الحكومة أو ممن أُحيل إلى التقاعد بسبب خدماته السابقة في الإدارات العمومية (٤) أن يكون قد قلّد وظيفة عمومية انتخابية (٥) أن يكون صاحب نيشان أو رتبة شرف منحتها له الحكومة الإيطالية وأن يكون أبوه وطنياً إيطالياً طبق ما في الفصل الأول وصار وطنياً في المملكة حينما تجاوز ٢١ سنة .

(الفصل الثالث والثلاثون) إن زوجة من كان وطنياً إيطالياً في المملكة بعد زواجها يجوز لها أن تطلب نيل صفة زوجها .

باب في أحكام عمومية

(الفصل الرابع والثلاثون) إن الوطنيين المذكورين في الفصل الأول الساكنين في الخارج أو الناقلين سكناهم لا يجوز لهم أن يكتسبوا صفة وطنيين أجانب أو تبعة أجانب إلا بعد حصول الرخصة في ذلك بأمر ملوكي، ويفقدون هذه الصفة لمجرد وجودهم في القطر الطرابلسي أو في المملكة أو في المستعمرات الإيطالية .

(الفصل الخامس والثلاثون) ستقرّر بترتيب مخصوص الأصول الواجب اتباعها في نيل الوطنية المذكورة في الفصل الأول أو عدمها فيما يخصّ التبعة الأجانب وذلك بمراعاة المعاهدات الدولية كما ستقرّر أيضاً الأصول المتعلقة بنيل الوطنية المذكورة في الفصل الثلاثين وفي الفصول التالية أو عدمها فيما يخصّ الوطنيين المذكورين في الفصل الأول .

(الفصل السادس والثلاثون) لتنفيذ أحكام القانون المؤرخ في ١٣ يونيو سنة ١٩١٢ رقم ٥٥٥ تعتبر مدة الإقامة في القطر الطرابلسي إذا كانت تالية لتاريخ ٥ نوفمبر سنة ١٩١١ .

(الفصل السابع والثلاثون) التراتيب اللازمة للعمل بالأصول المندرجة في الفصول السابقة وسائر التراتيب العامة المتعلقة بإدارة القطر الطرابلسي ستوضع بأوامر ملوكية .

(الفصل الثامن والثلاثون) إن القوانين والأوامر والنظامات الصادرة بعد تاريخ هذا الأمر إذا وضعت فيها أحكام جديدة تتعلق بالوطنية لا تجري على الوطنيين المذكورين في الفصل الأول إلا إذا شملتهم بوجه صريح وسبق وفاق مجلس النواب المحلي عليها .

(الفصل التاسع والثلاثون) في جميع الأوراق الرسمية وعند إجراء الأعمال لدى الدوائر العمومية في القطر الطرابلسي يجوز استعمال كل من اللغتين الإيطالية والعربية .

إن القوانين الصادرة بعد التوقيع على هـــذا الأمر الواجب امتثالها على الوطنيين المذكورين في الفصل الأول أيضاً تنشر باللغتين الإيطالية والعربية .

(الفصل الأربعون) عند ابتداء العمل بهذا الأمر يبطل فيما يخص القطر الطرابلسي الأمر السابق المؤرخ في ٦ إبريل سنة ١٩١٢ رقم ٥١٣ . وسيعرض هذا الأمر على مجلس الأمة حتى يصير قانوناً .

نأمر بإدراج هذا الأمر المختوم بطابع الدولة في المجموعة الرسمية لقوانين مملكة إيطاليا وأوامرها ، وعلى كل من يجب عليه ذلك أن يمتثـــله ويسعى في امتثاله من الغير .

حرر في روما في ١ جونيو سنة ١٩١٩ .

* * *

انتهى نص القانون الأساسي .

وهذا القانون ليس كل شيء فيما يلزم لحرية الشعوب واستقلالها ، وهو كذلك قليل بالنسبة لتضحيات الطرابلسيين وما قدّموا لوطنهم من فداء ، ولكنه باب فتح بين الطرابلسيين والحرية ليشاهدوا من جمالها ما يحفزهم للتمسك بحقوقهم ، ولمجاراة الأمم التي وصلت فيها إلى حدّ ما زالوا دونه بمراحل ، وسيجد الطرابلسيون بين مواده ما يوسع أفقهم السياسي ، ويفتح أمامهم المجال للمطالبة بتعديل ما يحدّ من نشاطهم ويجحف بحقوقهم ، ويتخذون منه سلماً للوصول إلى دستور يكون أشمل لأنواع الحرية ، وأوسع مادة في بناء الأمة ، ولو صحبه

حسن النية من الطرفين لما قصر دون تحقيق بعض هذه الأماني فيما يستقبله الشعب الطرابلسي من حياته . ولكن غدر الطليان جعله حبراً على ورق ، وجعله مولوداً ميتاً لم يسمع أهله له صوتاً ، ولم ينعموا بحياته ساعة .

تغيير بعض نصوص القانون الأساسي :

بعد أن اتفق العرب والطليان على مواد القانون الأساسي أرسل الطليان منه نسخة إلى روما ليوقعها الملك . ولم يكن الطليان أُمناء على هذه الصورة ولا موفين بوعدهم للعرب ، فقد غيروا وبدّلوا في النسخة التي أخذوها ليوقع عليها الملك ، ووقع عليها الملك بعد التغيير فيها ، فلما رجعت صورة القانون من روما وقوبلت بالصورة التي بقيت عند العرب وجدت مخالفة في عدة مواد .

ومن المواد التي غيِّرت : جعل رأي البرلمان قرارياً فجعل استشارياً وجعل الجند الوطني تابعاً لحكومة القطر الطرابلسي ، فجعل تابعاً للقيادة الإيطالية . ومنع التجنس بالجنسية الإيطالية فجعلوه مباحاً . وقصر أعضاء حكومة القطر الطرابلسي على الطرابلسيين فجعلوا فيها عضوين إيطاليين . ولم ينص على رياستها في القانون فجعلوها للوالي .

وكان صدور أمر الوالي بتعيين أعضائها تحضيرياً ، ولتأخذ صبغة رسمية من قبل الطليان في الفترة التي تسبق انعقاد مجلس النواب ، لتكون أعمالها رسمية. وبعد انعقاد مجلس النواب واعترافه بها تكتسب شكلها القانوني الرسمي .

وكان تمسك حكومة القطر الطرابلسي بنصوص القانون الأساسي قبل تغييرها من أقوى أسباب الخلاف بين الطليان والعرب . وأضطر الطليان إلى الموافقة على شروط خاصة يتمتع بها العرب ، وهي :

١ – أن يكون لهم الحق في تجنيد عدد من الوطنيين للخدمة المحلية .
٢ – إلتزام الحكومة الإيطالية إبدال الأوراق العثمانية بالأوراق الإيطالية .
٣ – عدم دخول الجنود الإيطالية المراكز الآتية : الزاوية ، العزيزية ،

زنزور ، مصراتة ، سرت ، ترهونة ، غريان ، الرياينـة ، لالوت ، بني وليد ، على أن يكون للطليان فيها ممثل برتبـة ضابط يقوم بعملية الاتصال بين العرب وحكومته ، ومعه بعض الجنود للمحافظة عليه والقيام بأعمال البريـــد والتلغراف .

٤ – عدم أخذ السلاح من العرب .

وقد قبل الطليان هذه الشروط ، وعيّنوا ضباطـاً في هذه المراكز حسب الاتفاق ، وتولى العرب إدارة شئونهم ، وبقي الضباط الإيطاليون ينظرون إلى الأعمال من بعيد لا شأن لهم في شيء إلا فيما يتعلق بالحكومة الإيطالية فيبلغ إليهم ليبلغوه إليها .

ولم تكن هذه الشروط كافية لحسم الخلاف بين الفريقـــين . وكان تلاعب الطليان في مواد القانون الاساسي دليلاً واضحاً على سوء النية التي يضمرونهـــا للعرب ، كما كان باعثاً للعرب على أخذ حذرهم من ألاعيب الطليان .

تبادل الأسرى :

وقرّر الفريقان تبادل الأسرى دليلاً على الإخلاص وصفاء النية ، فأطلـــق الطليان من عندهم من المساجـــين العرب وكان من بينهم الأستاذ الشيخ مختار الشكشوكي وأطلق العرب من عندهم من الأسرى الإيطاليين ويبلغ عددهم قرابة ستمائة وكان بعضهم ممن أسروا في أرفلة وبعضهم أتت به الغواصات من عرض البحر ممن أمكن التقاطهم من الأساطيل المغرقة . وتمّ هذا التبــادل يوم ٢٦ من يونية سنة ١٩١٩ .

مظهر وطني :

كان لإعلان صلح بنيادم ، وصدور القـــانون الأساسي أثر حسن على نفوس الطرابلسيين ، وقابله الناس بفرح وسرور بالغين ، وتلاه مظهر من أروع المظاهر

الوطنية التي شهدتها طرابلس في تاريخها الحديث . وذلك أنه بعد ن أوقع أعضاء الجمهورية على القانون الأساسي وزال شبح الحرب ، واطمأنت النفوس إلى السلم ، وقبل أن يرجع المجاهدون إلى بيوتهم رأوا أن يزوروا أم الوطن (مدينة طرابلس) التي حيل بينهم وبينها زهاء ثمان سنوات من أول أكتوبر سنة ١٩١١ إلى يونية سنة ١٩١٩ وكان هذا الرأي محلّ استحسان الجميع إلا أن رمضان بك السويحلي أبدى رغبته في تأخير دخوله هو إلى فرصة أخرى . ولكن الطليان ألحّوا في دخوله وفسرّوا موقفه هذا بأنه غير راض عن الصلح . وإزاء هذا الإلحاح وإظهاراً لحسن النية أجاب الرغبة ودخل مع الداخلين .

وقد هيّأوا لهذا الحفل ٦٠٠ فارس ، ورتبوهم صفوفاً يتقدمهم أعضاء الجمهورية فالزعماء فالرؤساء ثم الأمثل فالأمثل ، ودخلوا المدينة في يوم مشهود بين زغاريد النساء وأناشيد الفتيات وكانت أصواتهن تشقّ عنان السماء وهنّ مطلات من قلا ليات [1] المنازل ونوافذها يردّدن أنشودتهن الوطنية :

ينصرْ جيش الجمهورية　　　　اللّي خلاّ الطليانْ رعيهْ

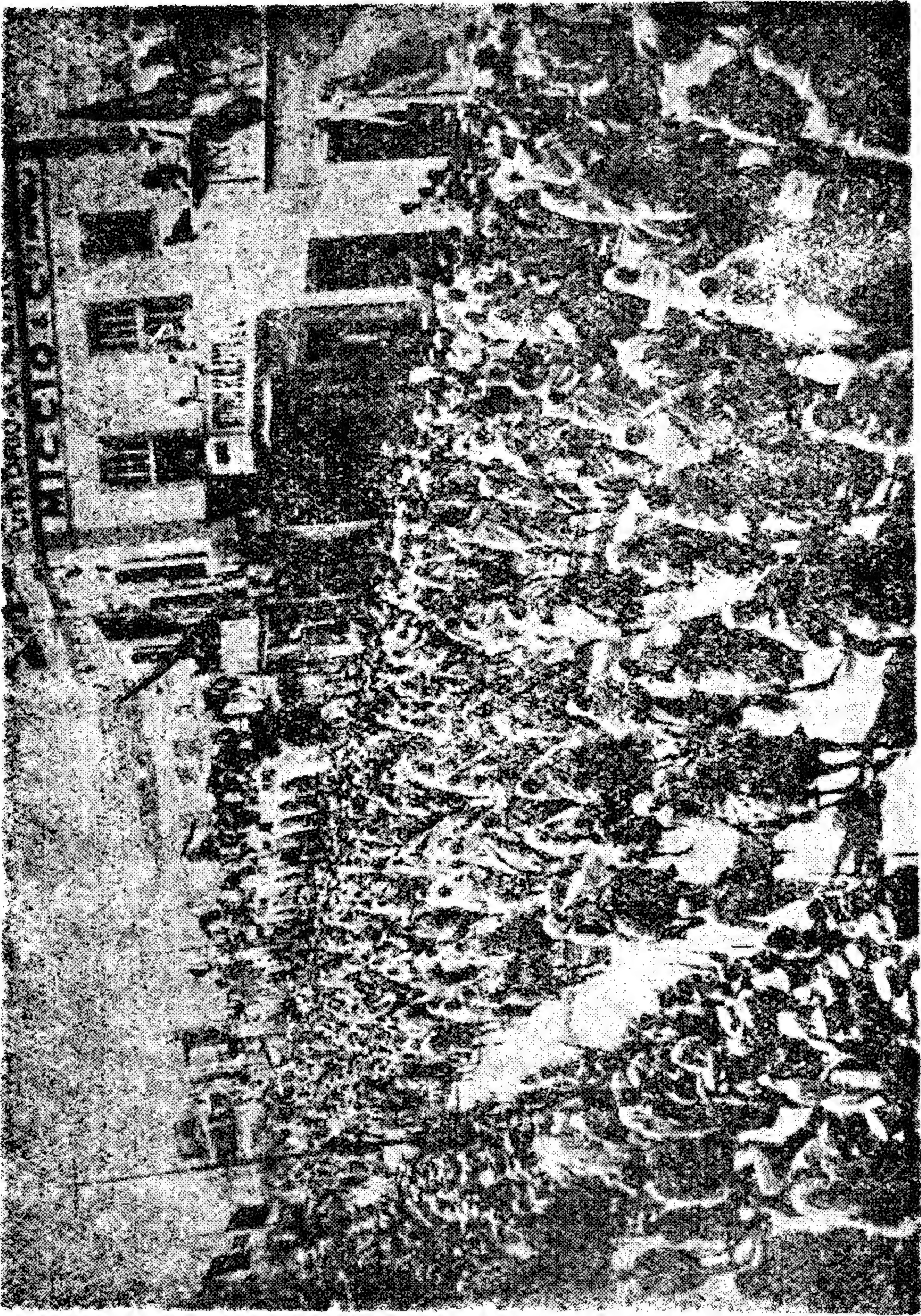
وكان الحماس بالغاً ، والنفوس في جذل تكاد تثب من الصدور ، وحادي الخيل يستفزها في نغم كادت به تجنّ ، ولولا شكشكة اللجم لما سمعت إلا حمحمتها .

وكان هذا المشهد الرائع في يوم ٦ من ذي الحجة سنة ١٣٣٧ .

وقع هذا على مرأى من الطليان ومسمع ، ومرّت بآذانهم تلك الهتافات القومية المدوية ، وأحضروا آلافاً من جنودهم لحفظ النظام . وكان لهذا الموكب الوطني المنقطع النظير أثر بالغ في بعث النشاط في الطرابلسيين حتى لكأنهم بعثوا من القبور .

---

(١) القلالية : كلمة عربية طرابلسية يطلقونها على البلكونة .



موكب وطني حافل يمثل دخول المجاهدين إلى طرابلس بعد إتمام صلح بنيادم

وتقابل الزعماء مع الوالي «مينزينجر» ومكثوا معه قليلاً في السراية الحمراء[1]



رمضان بك السويحلي خارج من قصر الحكومة بعد مقابلة الوالي ، ومعه الجنرال تارديتي

وأبى رمضان بك أن يبقى في ضيافة الحكومة ، وخرج بعد مقابلة الوالي مباشرة إلى محل معسكر المجاهدين في سواني المشاشطة .

(١) هي قصر الحكومة .



صورة للفرسان عند وصولهم إلى مدينة طرابلس

حكومة وطنية :

كان مما جاء في القانون الأساسي الاعتراف بحكومة وطنية مقرّها مدينة طرابلس .وقد شكلت من ثمانية أعضاء.وصدر أمر من الوالي الإيطالي بتعيينهم، وهذا نصه :

« إن والي طرابلس بعد اطلاعه على فصلي ٢٣ و ٢٤ من قانون أساسي القطر الطرابلسي الصادر بتاريخ أول جونيو سنة ١٩١٩ عدد ٩٣١ . وبما أنه في التحرير المؤرخ ٣ سبتمبر الجاري المتقدم من أحمد بك المريض إلى الحكومة قد صار عرض الثمانية الوطنيين المنتخبين أعضاء في مجلس الحكومة . وأن هؤلاء الثمانية قد صار تقديمهم علناً بمراسم احتفالية إلى الوالي من طرف رمضان بك شتيوي الذي كان برفقته جمع كثير من رؤساء وأعيان القطر الطرابلسي .وحيث

انه من التحرير المبحوث عنه ، ومن الاحتفال الواقع تحقق أن العرض المذكور حصل باتفاق من رؤساء جهات طرابلس المختلفة .

يأمر بمـا يأتي :

إن الذوات الآتي ذكرهم قد صار تعيينهم أعضاء لمجلس حكومـــة القطر الطرابلسي .

عمر بك أبو دبوس	محمد الصويعي بك
أحمـد بك الفسّاطوي	علي بك الشنطة
محمد بك مختار كعبار	الحاج محمد فكيني بك
أحمد بك شتيوي	محمد بك ابن الفقيه حسن

وسيصير تعيين مخصصاتهم بأمر اخر » .

حرر بطرابلس في ٤ سبتمبر سنة ١٩١٩ .

	صورة مطابقة للأصل	الوالي
صار الاطلاع عليه	كاتب الوالي	الإمضاء : مينزينجر
الوالي	طابع الحكومة	طابع الحكومة

وعين الهادي كعبار في وظيفة « متصرف المركز » وقـد طلب أن يكون مركزه مدينة طرابلس بحجة أنه لا يمكنه معرفة مصالح السكان إلا إذا كان مقيماً بطرابلس لأنها عاصمة القطر وجميع المراكز مربوطة بها ، وقـد سلك الطليان معه مسلك المراوغة فلم يمكنوه من اتخاذ مركز له في العاصمة .

واجتمع مجلس الحكومة في مدينة طرابلس وصارت مراكز القطر كلهـا مربوطة به ، وكان عبد الرحمن بك عزام موجوداً مع الأعضاء ، وله بهم أكبر الصلة . وامتنع الباروني عن الدخول في هذه الهيئة بعد الإلحاح عليـه بدعوى أنه عثماني ويريـد الاحتفاظ بعثمانيته وبوظيفته في مجلس الشيوخ العثماني . وكان يريد انتخاب موسى قرادة عضواً في مجلس الحكومة ، ولكن الزعماء خالفوه

لأنه لوحظ في انتخابهم ألا يكون العضو مقيماً بالمدينة وقت الانتخاب ، ولهذا السبب عينه لم ينتخب من بينهم أحمد بك المريض لأنه كان مقيماً بالمدينة ، وكان موسى قرادة مقيماً بها إذ ذاك فلم يوافقوا على انتخابه احتراماً لهـذه القاعدة ، ولم يشذ عنها إلا انتخاب محمد بك الفقيه حسن لأنه قصد بانتخابه تمثيل أهـل المدينة . وأيضاً فإنه لم يكن له محل إقامة في غيرها . وإلى هنا وقفت المسألة .

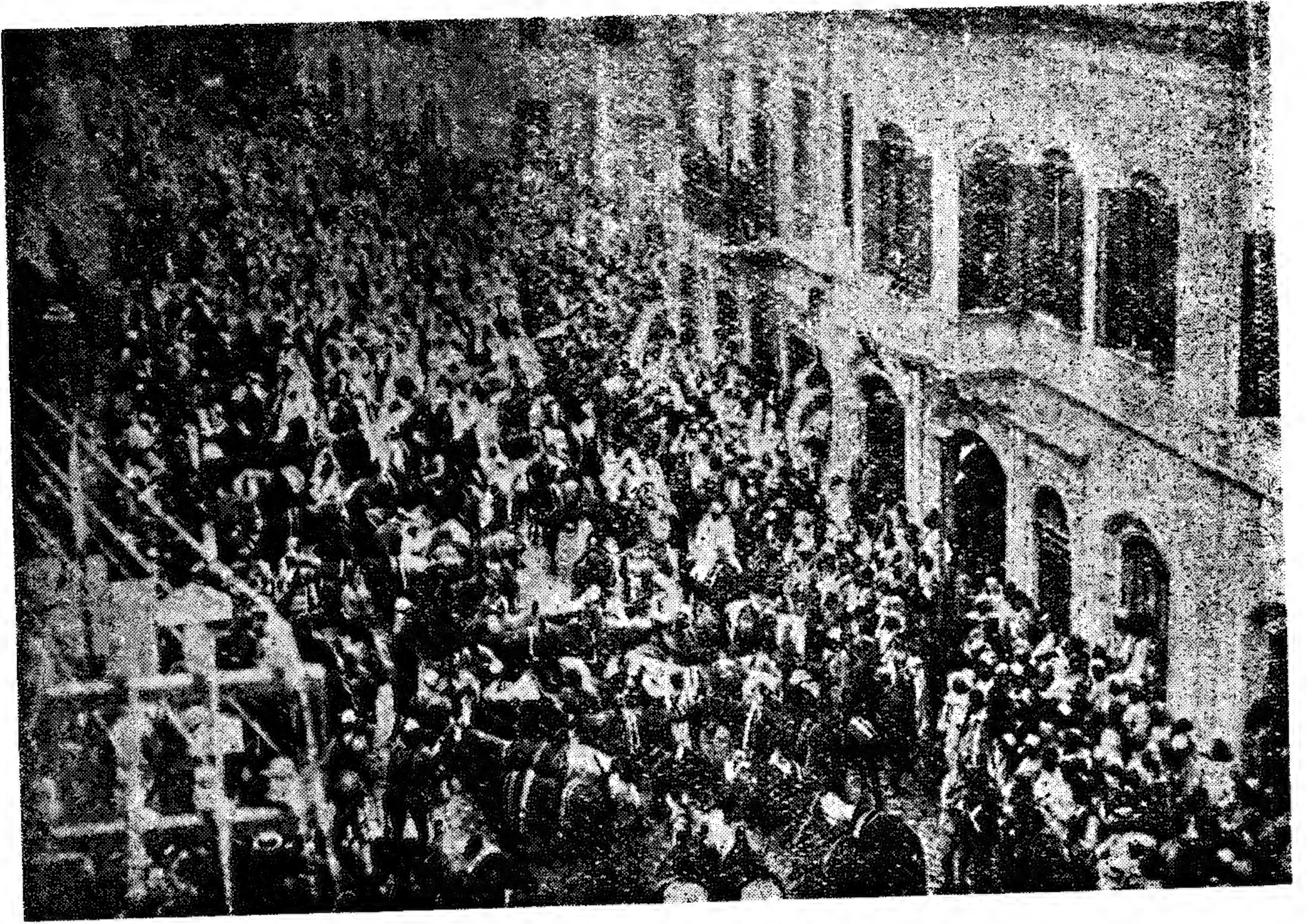


محمد الفقيه حسن عضو حكومة القطر الطرابلسي

وبقي الباروني في طرابلس بعيـداً عن كل شيء يتعلق بالحركة الوطنية إلى أن سافر إلى الآستانة في ١٢ صفر سنة ١٣٣٨ الموافق ٦ من نوفمبر سنة ١٩١٩ ولما وصل إلى الآستانة لم يجد من الحكومة التركية إقبالاً بسبب البـلاغات التي قدّمها في حقه إسحاق باشا وبعض الضباط الأتراك، وصادف قدومه إلى الآستانة وقت الانقلاب الذي قام به مصطفى كمال . وقطع الأتراك معـــاشه من عضوية مجلس الشيوخ، فلم يطب له المقام بها فسافر إلى رومة ، ومنها إلى باريس، وبقي فيها إلى أن رجع إلى طرابلس سنة ١٩٢٠ .

وحاولت هيئة الحكومة أن تباشر أعمالها في دائرة سلطتها. ولكن الطليان سرعان ما أفسدوا الجو بالدسائس فلم يصف لها الجو للعمل .

وفي أثناء محاولات مجلس الحكومة استعمال سلطته كان رمضان بك مقيماً بسواني المشاشطة بزنزور يرقب الحال عن كثب ومعه قسم كبير من جيش المجاهدين النظامي بقيادة عبد الله تامسكت ، ريثما يطبق القانون الأساسي ، وينتخب مجلس النواب ، وتتخذ آخر الترتيبات لاستقرار الحال ، ومعرفة كل من العرب والطليان دائرة اختصاصه ، وبقي رمضان السويحلي في سواني المشاشطة إلى نوفمبر سنة ١٩١٩ .



فرسان أمام قصر الوالي بطرابلس

حزب الاصلاح الوطني :

رأى الطرابلسيون وهم في بدء نهضة جديدة ، أن الظروف تحتم عليهم إنشاء حزب شعبي سياسي ، فأسسوا حزب الاصلاح الوطني في ٣٠ سبتمبر سنه ١٩١٩

وأسندوا رياسته إلى أحمد بك المريض ورياسة شرفه إلى رمضان بك السويحلي .

وكانت مبادئه :

١ — المحافظة على حقوق الطرابلسيين الواردة في القانون الأساسي كاملة .

٢ — التعجيل بتنفيذ القانون الاساسي ، خصوصاً ما يتعلق بالإصلاح ، وما ينص على تدريب الطرابلسيين على حكم أنفسهم حتى يصلوا إلى حريتهم في أقرب وقت .

٣ — تحقيق التضامن بين العرب والإيطاليين على أساس المساواة التامة واتحاد المصالح .

٤ — نشر التعليم بكل الوسائل ، مع المحافظة على العادات الإسلامية ، لتدعيم الأخلاق العربية .

٥ — بذل العناية لإصلاح الحالة الاقتصادية وتوزيع الثروة الوطنية على أساس عادل .

وأنشأوا جريدة « اللواء الطرابلسي » لتكون لسان حاله . وكان الحزب يستمد قوته من الشعب ، واستندت الحكومة الوطنية على الحزب في تأييدها وإقناع الطليان بمطالبها ، وأبدى الطليان مراوغة في انتخاب مجلس النواب الذي ينص عليه القانون الأساسي ، فكان حزب الإصلاح الوطني يلح في تنفيذه وكانت جريدة اللواء الطرابلسي تعبّر عن هذا المعنى في إلحاح وجرأة .

واتخذ الناس من جريدة اللواء منبراً يصارحون عليه حكومة الطليان بآرائهم وبما يرجونه لوطنهم من خير في الإسراع بتنفيذ القانون الأساسي، وكان لعبد الرحمن عزام جولة على صفحاتها بإمضاء ع . ع كانت دائماً مطمح الأنظار وكان وجود رمضان بك السويحلي في المشاشطة هو ومن معه من جيوش المجاهدين يمد الحزب والحكومة الوطنية بالتأييد المعنوي اللازم للمثابرة على المطالبة بحقوق الوطن .

ومما كان مثاراً للخلاف بين الطليان والعرب الصفة التي تكون لصوت البرلمان الطرابلسي ، فالطرابلسيون تمسكوا بأن يكون صوته قرارياً كما جاء في القانون الأساسي، والطليان يتمسكون بأن يكون استشارياً. والقانون الأساسي صريح فيما تمسك به الطرابلسيون ولكن الوالي يريد أن يجعل لنفسه صلاحية التغيير فضلاً عن التفسير ، فكانت هذه المراوغة منهم من أقوى أسباب الخلاف .



رمضان السويحلي في إحدى مقابلاته لرئيس دائرة السياسة
وبعض الضباط الايطاليين ومعه عبد الرحمن شلابي
أحد أعيان الزاوية

وقد وجد الطرابلسيون أنفسهم بين عشية وضحاها في مركز اجتماعي هائل يجمع حكومة وطنية، وحزباً وطنياً، وجيشاً وطنياً، ثلاث قوى يؤيد بعضها بعضاً في المطالبة بحقوق الأمة وإلزام الطليان بتنفيذ القانون الأساسي، فأوجدت فيهم هذه الحال نشاطاً كبيراً رأى الطليان فيه خطراً على سياستهم .

دسائس الطليان :

رأى الطليان في هذا الصلح غبناً ، ورأوا من بوادر النشاط من العرب ما جعلهم يتوجسون خيفة منهم ، فعملوا على إفساد هذا الصلح وسعوا بالتفريق بين الناس، واتصل أذنابهم ببعض ضعفاء النفوس فزيَّنوا لهم الانشقاق فاستجابوا لهم وأصبحوا معاول للهدم . وفهم جماعة من البربر من عدم دخول الباروني في هيئة الحكومة أنه غير راضٍ عنها . فانكمشوا عن العرب . وفهم الحاج محمد فكيني والشيخ علي الشنطة من امتناع الباروني أنه يريد معاكسة العرب ، بل ذهب بهم سوء الظن إلى أبعد من هذا ، فزعموا أنه يريد أن يؤلف في الجبل حكومة بربرية مستقلة عن العرب [1] . وأخذوا يناوئونه في مناطق نفوذه في الجبل ، وأخذ الباروني يحذر البربر من سوء عاقبة دعايتهما . ورأى بعض أعضاء هيئة حكومة القطر الطرابلسي في أعمال فكيني والشنطة خروجاً عن دائرة اختصاصهما ، وهو شيء يمسّ كرامة الحكومة التي هم من أعضائها ويثير الفتنة ، وحذّروهم عاقبة هذا العمل .

وقد أحدثت فتن الطليان عدم انسجام بين أعضاء الحكومة العربية ، فانتهزوها فرصة للتدخل في شؤون العرب ، وما زالوا يسوّفون تنفيذ القانون الأساسي ، ويلتمسون أسباب الفتنة بين العرب ، ويوغرون الصدور بالدسائس ،

(١) ذكر جرازياني في كتابه « نحو الفزان » أن الباروني قدم مذكرة للحكومة الايطالية سنة ١٩١٣ يطلب فيها إمارة بربرية في جبل نفوسة مستقلة بأعمالها عن العرب » . وجرازياني مشهور بالدس على الطرابلسيين والكيد لهم . ولعلهما استندا في دعايتهما إلى هذا الرأي .

حتى فسد الجو السياسي بينهم وبين العرب ، وانتهت الحال إلى ما سنفصله بعد .

بوادر الفتنة :

رويت تفاصيل هذه الحركة عن الشيخ مصطفى عوني الجزائري . وكان ضابطاً في عسكر تامسكت ، ومع المجاهدين . وهو من أصدقائي ، ومن الذين يعتمد على أخبارهم . وقد وقعت هذه الحوادث وأنا بالزاوية وكنت أسمع ما جاء مطابقاً لما رويته عن الشيخ مصطفى وهو واثق مما يقول ، ولا يشك في شيء منه .

رأى الطليان أن في بقاء رمضان السويحلي في زنزور (سواني المشاشطة) ومعه قسم كبير من العسكر والمجاهدين تهديداً لهم ، وتقوية لمركز الحكومة العربية في طرابلس ،فدبّروا مكيدة للقضاء على الجيش وتسريح المجاهدين فاتفقوا مع بعض الرؤساء أن يسعوا في تسريح المجاهدين ، وإدخال الجيش النظامي إلى ثكنات المدينة ، فاتصلوا ببعض رؤساء المجاهدين ، وحرّضوهم على الهرب ، فتأثر بعضهم بهذه الدعاية الخبيثة ، وصاروا يتسللون جماعات وأفراداً ، وعلم بهذا أحمد السويحلي في المدينة فطيّر الخبر لأخيه رمضان من زنزور ، فاتصل رمضان برئيس الجيش عبدالله تامسكت وأخبره الخبر ، وأنّبه على حصول مثل هذا وهو لا يشعر .

إشاعة :

أخبرني الشيخ الطاهر الأزهري الزنتاني عن لسان عمه الشيخ أحمد الأزهري « أنه لما شكلت (حكومة القطر الطرابلسي) بعد صلح بنيادم ، دعا رمضان السويحلي أعضاءها إلى الإجتماع بهم في محل إقامته بسواني المشاشطة بزنزور ، فأرسلوا اليه الشيخ أحمد الأزهري للإستفسار من رمضان عما يريده من هذا الاجتماع ـ وقد بدت في الجو إشاعات ضد المصلحة الوطنية ـ فجاء الشيخ أحمد

الأزهري إلى رمضان وقال له : ماذا تريد من دعوة أعضاء الحكومة ؟ فأفهمه بأن هناك إشاعات لبثّ الفتنة ، وأفهمه أنها صادرة من بعضهم وأظهر له أسفه الشديد لقيام هذا البعض بمثل هذه الفتنة ، وأخبره بأنه سينتقل إلى مسلاتة ، وسوف ترى ما يحدث .

وبمجرد سفر رمضان من سواني المشاشطة ظهرت مقدمات الفتنة التي قص علينا تفصيلها الشيخ مصطفى عوني الجزائري ، ونقلناها رواية عنه .

وقد أصبح من الخطر على رمضان البقاء في زنزور ، فاعتزم الانتقال إلى مسلاتة ريثما ينجلي الموقف وتتجه الامور وجهة واضحة .

وقبل مغادرته لسواني المشاشطة جمع العسكر والمجاهدين وشرح لهم الموقف ، وأن هناك مؤامرة قام بها بعض الناس للقبض عليه وإدخال الجيش إلى المدينة ليتمكنوا من أخذ سلاحه وتشتيته .

وحذّرهم من الإصغاء إلى هذه الآراء الخاطئة التي لا يقصد منها إلا تشتيت شملهم . وتكفّل لهم بإمدادهم بكل ما يلزمهم من السلاح والمؤونة ، وبنجدتهم في أي وقت . وأخذ معه قسماً من الجند والمجاهدين وذهب إلى مسلاتة ، وكان ذلك في صفر سنة ١٣٣٨ وبقي بعض المجاهدين وبقية الجيش في زنزور .

وبعد سفره اجتمع رؤساء الجند ونظروا في الأمر ، وخاطبوا أحمد المريض ، والهادي كعبار ، والصويعي الخيتوني ومن معهم من بقية الرؤساء في العزيزية فيما يجب عمله إزاء هذه الفتنة القائمة ، فردّ أحمد المريض وقال : (خاطبوا الوالي) يعني الوالي الإيطالي . وقال الهادي كعبار : (أنتم أدرى بمصلحتكم) فكان رد أحمد المريض صريحاً في تسليم الجيش للطليان وفي موافقته على ذلك ، وأصبح الجيش بين أمرين : إما أن يسلم نفسه للطليان وهو ما لم يحصل ، وإما أن يمتنع عن التسليم ، وهو ما حصل ، وقد حفظ الله الجيش والمجاهدين من شر هذه الفتنة .

ولا نعلم سبباً يبيح لهؤلاء الرؤساء هذا الموقف الذي نعتقد أنه لا يتفق ومصلحة الوطـــن .

ودُعي عبدالله تامسكت ـ رئيس الجيش إلى زنزور ، ولما ذهب وجد في انتظاره أحمد المريض والصويعي الخيتوني ، وأحمد الفساطوي ، وصالـح بن سلطان ، وبشير الشامي ، وترجمان دائرة السياسة الماجوتريبيسته ، ودار الحديث معـه حول دخول الجيش الوطني إلى المدينة ، ونزوله في قشلة بوستة ويبقى هو قائداً عليه ، فأجّل الجواب إلى ما بعد التشاور مع الضباط .

وقد أوجس ضباط الجيش خوفـــاً على تامسكت فلحق به بعض الضباط والجنود في أثناء الاجتماع . ولمـــا انفض الاجتماع رجعوا إلى معسكرهم في سواني المشاشطة بزنزور .

وفي صبيحة اليوم التالي حضر أحمد المريض ومن معه في سيارة ايطالية الى معسكر تامسكت ، وحضر هذا الاجتماع جميع رؤساء الجند ، وأعـاد المريض الحديث في موضوع دخول الجيش الى المدينـة ، فرفض الجيش هـذا الطلب ، واقترح عبد الله تامسكت أن يجعل لهم معسكراً في قرقارش أو سيدي بلال ، فقال المريّض : الحكومة لا تخلي مراكزها المهمة وتعطيها لكم .

واقترح عبـد العاطي الجرم أن يجعل لهم مركزاً في ترهونة أو غيرهـا من الأماكن البعيدة عن نفوذ الطليان ، فلم يؤخذ برأيه ، وأصرّ المريض على أن يدخل الجيش قشلة بوستة [١] .

وقد سأل الشيخ مصطفى أحمـد المريض : لم تخاطبوننـا بلسان الحكومة

(١) قشلة بوستة : ثكنة معدة لاقامة الجيش زمن الحكومة التركيـة ، واستعملها الطليان لهذا الغرض . وتقع عنـد انتهـاء شارع الشط في الزاوية الشمالية الشرقية من السور الذي بناه الطليان . وهي في النوفليين في الموضع الذي يقال له بوستة ، وبينها وبين البحر نحو ٣٠٠ متر .

الايطالية وأنتم رؤساؤنا ؟ فقال المريض : الحكومة تريد راحتكم ، فقال الشيخ مصطفى : لم لا تكون هذه الراحة من ناحيتكم، وتكون من ناحية ايطاليا ونحن غير تابعين لها ؟ فأحرج أحمد المريض . ثم قال للشيخ مصطفى الجزيري : قرر المجلس دخول الجيش للمدينة فلا بد من دخوله ، ولا لزوم لكثرة الكلام .

وصمم ضباط الجيش على عـدم الدخول ، وانفض المجلس ولم يوافق الجيش على الدخول .

وفي اليوم الثالث حضر أحمـد الفساطوي وترجمان دائرة السياسة وأعادوا الحديث في الموضوع ، وعبثـاً حاولوا اقنـاع ضباط الجيش بدخول المدينة والاقامة فيهـا .

وانتقل الجيش من سواني المشاشطة فالتحق بعضه برمضان السويحلـي في مسلاتة ، وذهب بعضه إلى غريان وترهونة ووقى الله المجاهدين شر هذه الفتنة .

بعد انتقال رمضان :

كان انتقال رمضان السويحلـي من سواني المشاشطة باكورة فوز السياسة الإيطالية في تفريق الكلمة ، وبداية تحرّش كل من الفريقين بالآخر ، وبوادر فتنة أخذت تتجمع أسبابها في كل مكان .

وعلى أثر انتقال الجيش رأى بعض أعضاء حكومة القطر الطرابلسي أنهذه الأعمالبإيعاز من الطليان، واعتبروها تدخلاً فيشؤون العرب فيغير محله ومخالفة لروح القانون الأساسي ، بـل هي عمل عدائي ضد العرب ينقض شروط الصلح من أساسها ، يضاف إلى هذا ما كانوا يلاقونه من عَنَت من الوالي في تمسكـه بأن يكون صوتالبرلمان استشارياً بدلاً من أن يكونقرارياً.ولما اشتدّ الخلاف بينهم طلبوا إلى الوالي أن يعرض الأمر على حكومة رومة فأبى ، وقال إن الفصل في هذه المسألة من اختصاصه بصفته نائباً عن حكومتـه في طرابلس . فقالت له هيئة الحكومة : ونحن ننوب عن الأمة الطرابلسية بأسرهـا . وعبثاً

حاولوا إقناع الوالي بوجهة نظرهم، فتحرّج الموقف، ووقف دولاب العمل ، ولم يسع أعضاء الحكومة إلا الاستقالة ، فأجمع رأيهم عليها، وسلموا كتاب الاستقالة إلى علي الشنطة ليرفعه إلى الوالي . وقد رأى هو وبعض الأعضاء العدول عن الاستقالة ، ورضوا بأن يكون صوت النواب استشارياً ، وعلى ذلك عدل عن رفع كتاب الاستقالة إلى الوالي . ولكن مختار كعبار، وأحمد السويحلي ،وعمر بودبوس ، ومحمد بك الفقيه حسن لم يوافقوا على ما عدلوا اليه ، وأصرّوا على الاستقالة احتجاجاً على تلاعب الطليان ونقضهم العهود. وغادروا مدينة طرابلس، وبقي الشنطة ومن على رأيه في المدينة. ولكن الطليان لم يقبلوا منهم رأياً حيث ان نصف أعضاء الحكومة استقالوا .

ولم يتمكن الأستاذ عبد الرحمن عزام من الخروج مع من خرج ، وكان الطليان يودّون أن يبقى في المدينة ، بل سَعوا لذلك ولكنه أفلت منهم حيث اتخذت لخروجه ترتيبات خاصة فتمكن من الهرب هو والاستاذ خالد القرقني والتحقا برمضان السويحلي بسلاتة .

وبقي بعض أعضاء حزب الإصلاح الوطني في طرابلس ومنهم الأستاذ عثمان القيزاني محرر جريدة اللواء الطرابلسي ، فكان يقوم بواجبه الصحفي خير قيام ، ويلحّ على الطليان في تنفيذ القانون الأساسي ، لا يترك فرصة تمرّ إلا نادى فيها بحقوق طرابلس في تنفيذ القانون الأساسي . وكلما ألحّوا في الطلب تمادى الطليان في التسويف وصار المتعلمون من الأمة ـ داخل العاصمة وخارجها ـ يغذّون جريدة اللواء بآرائهم فيما يجب اتباعه حيال المطالبة بحقوق الوطن .

حكومات عربية :

وبمقتضى شروط الصلح أُنشئت حكومات عربية : في الزاوية ، والعزيزية ، وزنزور ، ومصراتة ، وسرت ، وترهونة ، وغريان ، والرياينة ، ونالوت ، وأرفلّة ، وسارت على ما ذكرناه آنفاً .

وقد رأى الطليان أن وجودهم مع العرب على وضع لا يمكنهم من مباشرة الأمور لا معنى له من الناحية العملية ، فأخذوا يعملون لإفساد هـــذا النظام بالتدخل في شؤون العرب لسبب ولغير سبب ، وقابل العرب هذا التدخل بشيء من الشدة تمسكاً بحقوقهم . وأدّى هذا التشدد من الطرفين إلى الاصطدام في أكثر من مناسبة : منها ما حدث للماجور شيتاريلا[1] في الزاوية ، فقد هدده الشيخ علي بنّيني بالقتل وشهر عليه بندقيته ، ولكنه احتمى بمحمد بك شلابي فحماه . ومنها أنه في ١٥ مارس سنة ١٩١٩ اعتقل الطليان بعض الجنود التابعين لخليفة بن عسكر ، فقابل أعمالهم بالمثل واعتقل الموجودين منهم بمحطة اللاسلكي ـ وكانوا تسعة ـ وأخذ ما معهم من السلاح .

وقد اتصل رمضان بهذه الحركة فكان يكاتب الذين تقع عندهم مثل هذه الحوادث ويطلب إليهم عدم التساهل مع الطليان . وحدث في الرياينة شبه ما حدث في لالوت . ونشط الإيطاليون في إفساد النظام القائم بينهم وبين العرب بالتماسهم الأسباب للتدخل في شؤونهم . وكلما أمعن الطليان في هذه المشاغبات قابلهم العرب بما يصون حقوقهم ، وساد الموقف السياسي شبه فتور. وكان وجود رمضان السويحلي بمسلاتة يحول دون مجاهرة الطليان العرب بالعداء. ويتجنّبون الإصطدام به ما أمكنهم ، ولكنهم يعملون جاهدين للتخلص منه من طريق الدسّ والمكيدة .

رمضان السويحلي في مسلاتة :

بعد أن انتقل رمضان السويحلي من سواني المشاشطة اتخـذ مسلاتة مركزاً ثانياً لأعماله، وصار يتنقل بينها وبين مصراتة . وكان يطيل المقام بمسلاتة لقربها من منطقة النفوذ الإيطالي ، فوجوده فيها يمكنه من مراقبة أعمـــال الطليان وحركات جيشهم ، ومن الاتصال بطرابلس لتغذية أعضاء حزب الإصلاح الوطني

---

(١) كان متهماً بتحريض عبيدة المحجوبي على معاكسة أعيان الزاوية ويسمى بينه وبينهم بالفتنة.

وجريدة اللواء بما يلزم .

وقد تجاهل ما دبَّرته السياسة الإيطالية للقبض عليه في سواني المشاشطة رغبة في الوصول إلى نتيجة صلح بنيادم . ونظراً لما وقع من الطليان في نالوت وغيرها من تعدّيهم على حقوق العرب التي خوّلها لهم القانون الأساسي كان يقابل أعمالهم بالحذر والاحتجاج عليها ، وتقوية مركزه رغبة في السلام وأملاً في تنفيذ المعاهدة .

وقد وقف منهم موقفاً دقيقاً ، فلم يترك لهم أي مجـــال للتدخل في شؤون المنطقة التي يتولى إدارتها من مسلاتة إلى سرت في غير ما خوّلته لهم شروط المعاهدة ، وكان حرّ التصرف في منطقة نفوذه يجبي الضرائب ، وينفـّذ الأحكام في الخصومات المدنية وغيرها ، ويشرف على البريد الإيطالي ، ويفتش السفن الإيطالية التي ترسو على سرت ومصراتة . ولما رجعتُ من مصر إلى طرابلس في أواخر ذي الحجة سنة ١٣٣٧ الموافق أغسطس سنة ١٩١٩ م رست بنا السفينة على سرت ، فصعد على ظهرهـــا حاكم سرت ومعه بعض من الجنود الوطنيين لتفتيشها . وكان لباس الجندي طربوشاً أبيض من القماش وبذلة من الصوف الوطني ، ويحملون بنادق إيطالية . وكان لا يسمح للمندوبين الإيطاليين أن يتصرّفوا في شيء من مصالح العرب ولا يتعدّون اختصاصهم ، وهو : مباشرة أعمال البريد والتلغراف ، والنظر في ما له صلة بحكومتهم من شؤون العرب .

وتعدّي الطليان هذه الدائرة المتفق عليها هو الذي أدى إلى قطع العلاقات فيما بعد وقيام الحرب . وكان رمضان لا يسمح للوطنيين بالاتصال بالطليـان إلا في الدائرة العامة التي لا بد للحياة المشتركة منها .

الماجور غالياني :

كان موظفاً من قبـل الحكومة الإيطالية بمصراتة بمقتضى الشروط الأربعة

التي اتفق عليها العرب والطليان خارج القانون الأساسي، وليس له حق التدخل في شيء .

وقد حدث أن أوعز الطليان ـ بواسطة غالياني ـ إلى بعض المفسدين بإغراء أرفلة على مناوأة مصراتة. فأرسل رمضان بك احتجاجاً إلى الإيطاليين على هذا العمل المخالف ، فتلقّى الرد بأن الحكومة لا علاقة لها بهذه الأعمال ، ولكن رمضان لم يصدّق هذا ، واعتبره مراوغة سياسية يقصد منها التعمية ، والحقيقة أن هذه الأعمال كانت بإيعاز من الطليان بواسطة غالياني مندوبهم في مصراتة .

واستطاع دعاة الفتنة ـ ومنهم عبد القادر المنتصر ـ أن يجعلوا الطليان يصدقون بأن عملهم سيؤثر على مصراتة . وعلى هذا توهم غالياني أن مركزه سيكون حرجاً أمام رمضان فيما إذا هاجم هؤلاء المفسدون مصراتة ، فأخذ ينتحل المعاذير لسفره إلى طرابلس .

وحدث أن امرأة قتلت في مصراتة لسوء سلوكها ، فاتخذ من هذا مبرراً لسفره بدعوى أنه عمل يخل بشرف حكومته . فأفهمه رمضان بأنه سيحقق في الموضوع وإذا ثبتت إدانة المتهم حكم عليه بما يستحق ، فلم يقتنع وصمم على السفر ، فأذن له رمضان . وذهب معه صديقنا الفاضل التهامي قليصة إلى مرسى قصر حمد،وفي أثناء الطريق أفهمه التهامي بأن سبب سفره لا كما يدّعي، ولكنه يخاف افتضاح امره لأنه هو المدبر لفتنة أرفلة فاعترف بذلك .

ومن هذا الوقت تغيرت السياسة بين الطليان ومصراتة وأخذوا يفكرون في مهاجمة مسلاتة ، فأرسلوا من يختبر لهم الطريق الموصل من جهة قصر خيار للتأكد من صلاحيتها عند اللزوم ، وليعلموا مقدار يقظة رمضان وانتباهه لأعمالهم . ففي يوم ٢١ مايو سنة ١٩٢٠ خرجت سيارتان إيطاليتان وفيهما ضباط وعساكر إيطاليون قاصدين قصر خيار ـ وقصر خيار من مناطق نفوذ رمضان السويحلي بمقتضى شروط الصلح ـ فما كان للطليان أن يدخلوها بدون

إذنه ، فلما وصلوا إلى قصر خيار طيّر حاكم المنطقة الشيخ علي بن رحاب الخبر الى رمضان في مسلاتــة بالتلفون ، فأمر بالقبض عليهم ، فقبض عليهم وأرسلوا إلى مسلاتة .

نخوة عربيـة :

كان من بين المقبوض عليهم الماجور شيتاريلا ، وكان قريب عهـد بالزواج ، فلما سمعت زوجه بالقبض عليه جنّ جنونها ، وأبت إلا أن تلحق بـه . وعبثاً حاولت الحكومة إقناعها بالعدول عن رأيها ، فأباحت لها الخروج وأفهمتها أنها غير مسؤولة عنها ، فخرجت من الخمس قاصدة الساحل ، فعثر عليها العسس من العرب فأتوا بها إلى قائمقام الساحل محمد الذيب فأكرمها وأرسلها إلى رمضان بك في مسلاتة . ولما سئلت عما جاء بها أفادت بأنها جاءت لتشفع في زوجها ، فقبل رمضان بك شفاعتها وأطلق لها زوجها ، وأرسلها في خفارة بعض رجاله إلى ان وصلا مدينة الخمس . وكم كان عجب الطليان شديداً من هذه المروءة العربية .

وقد استاء رمضان بك من هذا الإعتداء المتكرر من الطليان فأمر الحاج علي المنقوش قائمقام سرت بالقبض على من فيها من الطليان ـ وكانوا نحو مائة ـ فقبض عليهم وأرسلوا إلى مصراتة ، وقبض على من في مصراتــة ايضاً وأصبحوا جميعاً أسرى ، وبهذا الحادث انقطعت العلائق بين رمضان بك السويحلي والطليان .

واعتبر الطرابلسيون هذا العمل من رمضان عملاً وطنياً يستحق عليه التقدير . واحتلّ من قلوب الناس مكان الاحترام بهذه المواقف المشرفة ، واتجهت الأنظار إليه في طول البلاد وعرضها ، وصار له انصار وأصدقاء في كل مـــكان : في الزاوية برئاسة الشيخ محمد هويسة [1] ونالوت برياسة خليفة بن عسكر ، وغريان

---

(١) هو من أولاد الواعر من قبيلة أولاد عيسي من بلاعزة الزاوية . وكان كريم الخلق طيب النفس، حارب الطليان في جميع أدوار الحروب الطرابلسية ، وكان من ألد أعدائهم ، واشتدت عداوته لهم حينما علموا بانتصاره لرمضان السويحلي،وقد حاولوا القبض عليه مراراً فلم يفلحوا. =

برياسة مختار بك كعبار ، وكان من أشدّ انصاره وأعزّ أصدقائه ، وغيرها من البلدان الطرابلسية .

واقتنع العرب ـ بسبب تكرُّر هذه الحوادث من الطليان ـ أنهم يقصدون إفساد شروط الصلح من طريق الخداع وانتهاز الفرص للوثوب عليهم ، وأن هذا تعدٍّ على حقوقهم . فسرت فيهم روح الثورة ، وكانوا في اتجاههم إلى الثورة يعتمدون على قوة رمضان وجيشه المنظم .

وكان الطليان شرعوا في تمثيل دور في غريان مثـــل الدور الذي مثلوه في نالوت وغيرها ، وظهرت ترهونة بمظهر المخالف لغريان .

ومما وجدت فيه ترهونة مبرراً لخلافها مع غريان أن الاسلحة التي كانت في العزيزية ونقلت إلى غريان بعد صلح بنيادم لم ينقل منها شيء إلى ترهونة ، فصارت تطالب بنقلها إليها ، وأبى مختار كعبار ان يسلمها شيئاً منها .

وكان رمضان السويحلي في مصراتة ، وخليفة بن عسكر في نالوت ، ومحمد هويسة في الزاوية ، وعبد السلام العربي في النواحي الاربعة يؤيدون رأي غريان . وكان الحاج محمد فكيني ، وورشفانة ، وبعض النواحي يؤيدون رأي ترهونة . ومن هذا نشأت فكرة الشرق والغرب انقسمت فيها البـلاد إلى قسمين : قسم شرقي تتزعمه مصراتة ، وقسم غربي تتزعمه ترهونة . وقد اشتد النزاع حتى خيفت عواقبه . فرأى محبو الإصلاح ان يتداركوا الامر قبل وقوع الفتنة فألّفوا وفداً من الشيخ محمد هويسة وعبد الرحمن شلابي عن الزاوية . وعبد الصمد النعاس من ترهونة . والفيتوري الزمالي من زنزور ، وصالح بن تنتوش من ورشفانة . ومسعود الشويخ من النواحي الاربعة وأحمد الصيد من الزنتان .

= وكان من المعجبين برمضان ومن أنصاره المخلصين. وهاجر من الزاوية في حرب سنة ١٣٤٠ ، ومات في هنشير بودريهيبة من أراضي ترهونـــة في ٢ من جمادي الآخرة سنة ١٣٤١ عليه رحمة الله .

وانضم الهادي كعبـــار وأخوه المختار كعبار الى الوفـــد لأنهما طرف النزاع الثاني ، وحتى يمكنهما الدفاع في مواجهة ترهونة أمام الوفد .. ولم يجد الوفد ما يبرر موقف ترهونة من غريان وأيّد رأي غريان . وفي أثناء وجود الوفـد في ترهونة جاء الخبر بموت رمضان. وقد أخبرني مختار بك كعبار أنه رأى جماعة من ترهونة يهنىء بعضهم بعضاً بموته وقال لي ايضاً : لو طلب مني رمضان بك ان اهاجم معه ورفلة لما تأخرت ، لأني اعتقد ان عبد النبي كان خائناً ؛ وأن القضاء عليه واجب .

وابتدأ الطليان تمثيل هـــذا الدور فجاءوا بزكي امقيق وجعلوه قائمقاماً في غريان ، وأخذ يناوىء مختار بك كعبار. وأعانه على ذلك بعض صغار النفوس، وفطن مختار بك كعبار للأمر الذي يرتـّب ضده فعمل للقضاء عليـــه ، وأمر بالهجوم على الطليان في قصر الحكومة في غريان. وكان مأمور السياسة القبطان « دسكاتا » فهجم عليهم العرب يوم ٨ يونية سنة ١٩٢٠ فسلموا انفسهم بـــدون دفاع، وكانوا نحو سبعين جندياً وأخذ العرب كل ما في المركز من سلاح وأمتعة. وفي هذا اليوم أغار العرب على سيارة البريد الإيطالي في وادي القواسم وأخذوا ما فيها ، وقطعت اسلاك التليفون بين العزيزية وغريان ، وبين المراكز الموجودة في نفس غريان بعضها مع بعض ، وفي مساء اليوم نفسه جاء مختار كعبار ومعه قوة من الفرسان وأخذ الطليان أسرى واعتقلوا في بيت كعبـــار وجرت بينه وبين الطليـــان مخابرات بشأنهم ، فاتفق معهم على ان يسلمهم إليهم في فنـــدق الشيباني ، وفي يوم ١٩منه ارسل هؤلاء السبعون أسيراً إلى فندق الشيباني، ومن هناك تسلمهم الطليان وذهبوا بهم الى طرابلس . ولم يحتفظ بهم مختار كعبار كما احتفظ رمضان السويحلي بمن عنده ، لأن غريان لم تكن مستعدة للانفاق عليهم، ولم يكن في قتلهم ـ وهم أسرى ـ ما يعود على البلاد بخير ، فآثر تسليمهم على الاحتفاظ بهم .

متفرّقات

كل الطرابلسيين يعلمون ـ مع الاقتناع التام ـ أن مصراتة هي مركز الحركة الوطنية وقلبها النابض ، لا لشيء سوى انها مركز لأعمال رمضان السويحلي .

وقد عرف رمضان ـ بصلابته وقوة ارادته ـ كيف يكوّن من سكان مصراتة وما جاورها من البلدان انصاراً يعتمد عليهم في تنفيذ رغباته وقد أُتيحت لمصراتة فرص لم تتح لغيرها من البلدان الطرابلسية ، فقد هيأها موقعها الجغرافي لتكون محطاً للغواصات الالمانية . وليس الموقع الجغرافي وحده هو الذي هيأها لذلك ، بل وجود رمضان فيها هو الذي هيأ لها هذه الظروف الصالحة ، وجعل منها مقراً لحكومة عربية كانت لها سمعة ووجود قبل مجيء الغواصات ، وكانت زوارة أولى بهذا المركز لو وجد فيها مثل رمضان السويحلي .

وكان جندياً بطبعه : فيه طبع الجندي الباسل ومميزات الزعيم ، كما يقول « جرازياني » وفيه حب الاستقلال بالأمر في غير استبداد او محاباة .

وقد قال عنه جرازياني ـ والفضل ما شهدت به الاعداء ـ في كتابه (نحو الفزان) انه : « في اثناء الحرب التركية الإيطالية كان اكثر تقديماً وتفضيلاً لشجاعته وإقدامه اللذين يفوقان الحد الطبيعي . وكان اشدّ عدو للقضية الإيطالية ، ولم يحجم عن عرقلة اعمالنا بأي واسطة استطاع ، ولم يتردد مطلقاً في اظهار عداوته لنا ، وهو ذو عزم قوي وصلابة لا تنثني » .

هذا بعض ما يقوله عنه جرازياني ، في حين انه يذكر غيره بما أغدقه عليه الطليان من الالقاب الكبيرة والاموال الطائلة .

وهو فوق ما وصفه جرازياني بكثير ، فقد كوّن نفسه بسيفه في مواقفه المشهودة ، ولم يصف جرازياني غيره في واقعة القرضابية بالانتقاض على الجيش الايطالي والإيقاع به ، ولم ينسب هزيمة الجيش الإيطالي في تلك الكارثة لغيره .

ولم يظهر تألمه من أعمال اي شخص مثل مـا اظهره من اعمال رمضان السويحلي ضد الطليان مدة حياته كلها .

وليت الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، يطالعون ما كتبه عنه جرازياني في واقعة القرضابية ليعلموا من هو بطل هذه الموقعة الهائلة : اهو رمضان السويحلي ؟ ام غيره من الذين يحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا .

ولم يترك رمضان السويحلي فرصة تمرّ الا قوّى فيها مركزه، وأحاط حكومته بما يثبّت دعائمها ، وكان شديد السهر عليها ، يراقب الصغيرة منها والكبيرة ، وينال من موظفيه على ما يطلع عليه من اهمال او تقصير . ومن هـذا الطريق اكتسب طاعـة الناس في غير ذلة ولا استبداد . وأصبحت شخصية رمضان محترمة وأوامره نافذة ، وحكومته محطّ الآمال ومعقد الرجاء . وأصبح لديه جيش منظم احسن تنظيم حسبما تقتضيه الحال إذ ذاك ، لا يقلّ عدده عن ثلاثة آلاف جندي مسلحين بالبنادق وبعض المدافع الرشاشة .

وقد طعن عليه جرازياني بأنه يقتل الذين يساعدون الاسرى الطليـان (١) ويقطع أيديهم ، وليس في هذا طعن على مصراتة ولا على رمضان ، بل هذا ممـا يزيدهم شرفاً .

حقيقة :

والحقيقة ان الأسرى في مصراتة كانوا يعيشون كما يعيش اهل مصراتـة : لا ينقصهم اكل ولا ملبس ولا مسكن، آمنين على ارواحهم. وقد بلغ من إكرام اهل مصراتة لهؤلاء الاسرى انهم تقاسموا كثيراً منهم ، وصاروا ينفقون عليهم مما ينفقون على عيالهم، وأصبحوا مسؤولين عنهم امام الحكومة. هذه هي الحقيقة التي عرفها التاريخ ، والتي يشهد بها لمصراتة امام الاجيال القادمة .

---

(١) يقصد أحمد السنوسي المنتصر الذي قتله رمضان .

وقد صرح جرازياني غير مرة بأن رمضان السويحلي هو العدوّ اللدود لإيطاليا ، فهو يكرهه من ناحية عداوته للطليان . وعداوته للطليان هي التي

اما قتل الذين ساعدوا بعض الاسرى على الهرب ، فلا يمكن ان يكون غيره جزاء لأولئك الذين اسدوا تلك المساعدة حتى عند جرازياني . وتفصيل ذلك :

أن احمد السنوسي المنتصر كان في طرابلس، وقد كلفه الطليان ان يخرج الى رمضان لمفاوضته في إبدال الاسرى . فخرج من طرابلس لهذا الغرض وقابل رمضان وأخبره بما جاء من اجله ، فاحترمه وأكرمه ، واعتذر له عن قبول هذه الوساطة الآن، وأقنعه بأن تؤخّر حتى يجيء وقتها المناسب ، ووقف الأمر عند هذا الحدّ .

ولكن السنوسي المنتصر لم يقف عند هذا الحد ، بل أخذ يعمل سراً لتهريب الاسرى ، فاتفق مع بعض النوتية ليأخذ بعض الاسرى في مركبه حتى يوصلهم الى طرابلس وقد نفّذت هذه الفكرة ، وحملوا معهم كتاباً منه ومن العرابي بن عطية ، ووضع هذا الكتاب في علبة من الصفيح ليمكن خبؤه اذا اقتضى الحال في ظهر المركب مما يلي الماء ، وسافر النوتية بمن معهم من الأسرى ، وبتلك الكتب المصفحة . ويريد الله أن يفضح الأمر. فهاج البحر بتلك المركب الصغيرة ورمى بمن فيها الى قعره ، وطفت تلك العلبة التي فيها الكتاب على وجه الماء وظلّ يقذفها حتى رمى بها على ثمد حسان فعثر عليها بعض الناس . ومن الصدف أن نوري بك كان مارًّا بتلك الجهة فسلمت اليه ، فلما فتحت وقرىء ما فيها فإذا هو قصة تهريب الأسرى ، ممضاة بإمضاء السنوسي المنتصر والعرابي بن عطية، فلما سئلا عما في الكتاب اعترفا بما فيه وبتوقيعيهما ، وجيء بالسمكري محمد بن حسونة الذي لحم العلبة فاعترف ، فشنقوا الثلاثة .

هذه هي قصة رمضان السويحلي مع الذين ساعدوا الاسرى على الفرار ، والتي ينتقده من أجلها جرازياني . وماذا كان يصنع جرازياني لو وقع له مثل هذا . ولكن كراهته لرمضان جعلته ينتقده حتى فيما يسلّم هو بصوابه .

احبه من أجلها مواطنوه ، وأحلوّه من نفوسهم محـل ّ التعظيم والإجـلال ، فكراهة إنسان لا تستدعي الكذب عليه ، كما لا تسوغ انتقاص اعماله الموافقـة للصواب .

ولكن جرازياني ايطالي قبل كل شيء ، فكذبه على رمضان السويحلي ليس اعظم من تلك المجازر التي كان يقتـل فيها الطرابلسيين بالعشرات والمئات ظلماً وعدواناً .



أحمد المريّض رئيس هيئة الاصلاح المركزية
وعضو الجمهورية الطرابلسية

التفكير في غزو أرفلة

أسبابه :

أحسّ رمضان – بعد صلح بنيادم – بحركة من الطليان، لا يشك أحد أنهم يقصدون من ورائها إفساد هذا الصلح . وقد وجد الطليان من أصاخ لدعوتهم واتخذوا منهم أداة للإفساد ، وفي مقدمة هؤلاء يوسف خربيش الذي انضمّ إلى الطليان في تلك الجموع الهائلة المسلحة من المرتزقة . وقد وقع ما أشرنا إليه من حوادث الزاوية ونالوت وغريان ومصراتة ، فكان ذلك من بوادر ما بيّته الطليان للغدر بالطرابلسيين .

وقد أراد رمضان أن يتدارك هذه الحال قبل أن يتفاقم خطبها بتوسيع نفوذه وإخضاع بعض البلدان لحكمه ليمكنه الضرب على أيدي بعض أنصار الإيطاليين ، وليفتح الطريق بينه وبين أنصاره في غريان والجنوب . ومن غريان يسهل عليه الاتصال بأنصاره في السواحل وجبل نفوسة . وحينما فكّر في هذا كان يعلم أن هناك أناساً يتسمعون لهذه الفتنة الإيطالية ويروّجون لها في السر . ومواقفهم السلبية لا تقلّ عن الصراحة في عدم مؤازرة الحركة الوطنية .

ومن الذين وقفوا هذه المواقف المريبة عبد النبي بن خير في أرفلة ، فهو منذ

أن ابتدأت مفاوضات صلح بنيادم انتقل إلى أرفلة،وبقي فيها، ولما كان رمضان في مسلاتة ذهبت بعثة إيطالية إلى عبد النبي وحصلت اتصالات بين عبد النبي وبعض خصوم رمضان. واقتنع بأن هناك تدبيراً ضدّه فأخذ يعدّ للأمر عدّته. وقد حدث بعد هذه الاتصالات ما قوّى هذه الشكوك عند رمضان، وهو أن أحد خصومه وهو عبد القادر المنتصر اتخذ أرفلة مركزاً لهوصار يغير علىأراضي مصراتة ويستولي على مواشيهم من ناحيتها.

ومركز أرفلة الجغرافي مركز مهمّ يمكن للمستولي عليه التأثير في الحركة الوطنية قوة وضعفاً،فإذا أضيف إلى هذا أنه تحت سيطرة عبد النبي،وهو رجل مصاب بالشكوك والوساوس، يتخيل عداوة الناس لأوهى الأسباب،ولا يسعى في غير مصلحته وما يقي نفسه مما يتوهم من عداوات الناس له. وقد وقف من أعمال الطليان موقف المتفرّج، فلم يشارك في الحركة الوطنية حتى ترجح كفتها، ويحسّ بقوته أنصار الفتنة فتخفّ وطأتهم، ولم يجاهر بالعداء ليعامل معاملة الأعداء. وإنما كان يعمل في الخفاء لتنفيذ أغراض الطليان، وفي الحق ان ظاهره إلى العداوة أقرب منه الى الصداقة، لأنه — وهو في هذا الموقف السلبي— كان متصلاً بالطليان، وكانت قوافل أرفلة تغدو وتروح على طرابلس متخذة طريقها على حدود ترهونة الشرقية مما يلي غريان، وتمرّ بالعزيزية؛ فإذا أُضيف هذا إلى ذاك، وأضيف اليها ما حدث من التحرش بمصراتة من عبد القادر المنتصر ومن معه من تحميهم ارفلة وتحرّضهم على هذا التحرّش تبين ان بقاء ارفلة على ذلك الوضع خطر على الحركة الوطنية ولا شك، وتبين انه من اقوى أسباب ضعفها، وأن إزالة هذا الخطر مما يزيدها قوة ونشاطاً. والبدء بإخضاع غيرها من البلاد الطرابلسية قد لا يكون مضمون النجاح لأن وجودها في الجنوب يجعلها تسيطر على ما أمامها من البلاد الشمالية، فكل حركة في الداخل يناصبها عبد الغني العداء في ارفلة بمساعدة انصاره تكون معرضة للخطر.

كل هذا فكّر فيه رمضان طويلاً وحسب حسابه، وانتهى منه إلى نتيجة

هي غزو ارفلة اولاً، حتى إذا ما وُفّق إلى الاستيلاء عليها سهل عليه الاستيلاء على غيرها .

وقبل أن يشرع في غزو أرفلة أراد أن يكون له منها أنصار ، فاتصل بكثير من رؤساء قبائلها فحبذوا له الفكرة ، ووعدوه بالمساعدة على الاستيلاء عليها وبذل ما يمكن بذله ، وكان في أرفلة قسم من العسكر ، فلما اتصل بهم الخبر ، وجد هوى نفوسهم لأنهم كانوا متبرمين بمعاملة عبد النبي ، ووعدوا بالمساعدة .

وقد وجد رمضان من موافقة بعض أهل ارفلة – وفي مقدمتهم جماعة الطبول–ما قوّى عزمه على تنفيذ الفكرة، فاعتزم الأمر وأخذ يعدُّ نفسه للتنفيذ.

غزو أرفلة :

كان رمضان السويحلي يعلم ان غزو ارفلة عملية شاقة محفوفة بالأخطار ، ولكن الخطر الذي كان يحدق به من ارفلة وأنصارها ومن الطليان أشد بكثير مما كان يتوقع من غزو أرفلة ، فلا بد من القيام بهذه العملية للقضاء على آمال المتلاعبين ، ولإنقاذ مصراتة من هذا الموقف الحرج، فألّف جيشاً يقرب من ألفي مسلح . وكان رمضان يعلم من دهاء عبد النبي ما لا يعلمه غيره ، وفوق ذلك يعلم أن له مكانة عند أرفلة، لذلك أوصى بعدم قتله، وبذل ما يمكن بذله في المحافظة على حياته .

وتوجّه الجيش إلى ارفلة في حوالي ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ ، وتولى قيادته بنفسه ، وكان الحرّ شديداً ، والمسافة تقتضيهم ثلاث مراحل ، لأن الجيش تجمع على دوفان، ومن هناك ابتدأ سيره. ويظهر ان الترتيبات التي اتخذت لتوفير الماء للجيش كانت اقلّ مما يجب ان تكون ، ولم تتخذ التدابير الكافية للاستيلاء على الآبار، فكان عدم توفر الماء الكافي لجيش رمضان هو العنصر القوي الذي تحكّم في المعركة ، وكان الفصل فيها له .

وفي فجر يوم ٢٤ أغسطس سنة ١٩٢٠ صبّح رمضان بجيشه ارفلة على حين غفلة من أهلها ، وكان الجيش منهوك القوى من التعب ومتأثراً من العطش إلى حد كبير ، ومما زاد في تأثره من العطش شدّة الحر وحمارّة القيظ .

وأول ما نزل الجيش على قصر أرفلة ونصب المدافع أمامه . وكان من الترتيبات التي اتخذها رمضان أن كلف جماعة بالقبض على عبد النبي ، فتسللت هذه الجماعة إلى بيته في الصباح المبكر ، وكان أحد افرادها عمر العوراني من ساحل آل حامد ، فدخلوا عليه في حجرة نومه ، وأيقظوه على صوت « أجب دعوة رمضان السويحلي » فلم ينتبه إلا وهو في قبضتهم ، وفي أثناء إخراجه من حجرة نومه لاحت له فرصة للإفلات منهم فانتهزها وصاح في بعض رجال كانوا بالقرب من منزله ، فصاحوا هم بدورهم فيمن كان قريباً منهم ، فانتشر الخبر وتجمع الناس للقتال ونشبت المعركة ، وتسابق رجال عبد النبي إلى الآبار حتى أصبحت كلها في حوزتهم . وخذل رمضانَ اعيانُ ارفلة ورؤساؤها الذين وعدوه بالمساعدة لما رأوه من اتفاق عبد النبي وبعض انصاره ، وصلته بالطليان ، ومجيء بعثة من الطليان إلى عبد النبي في أرفلة ، فتوّهموا ان ذلك يسبب فشلهم وعملوا على ذلك ، واشترك كثير منهم في المعركة ضده ، واشتدّ العطش برجال رمضان فأحيط بهم ، وأسفرت المعركة عن قتل رمضان شرقي قصر أرفلة بالقرب من شعبة ابن فايد ، رحمه الله رحمة واسعة ، وهكذا انتهت هذه الحياة المملوءة بجلائل الأعمال بهذا النوع من النهايات الذي لم يكن منتظراً .

وقد كرّس حياته لخدمة طرابلس فكان لا يعمل لغيرها . وغامر من اجلها عدة مغامرات : في القرضابية ، وفي حصار مصراتة ، وفي سواني بنيادم ، وفي غيرها كثير ، فكان التوفيق حليفه ، وكان هذا التوفيق لا يزيده إلا تواضعاً لإخوانه وإمعاناً في خدمة طرابلس . وكانت الأمنية التي لا يخطر على قلبه سواها هي خدمة طرابلس . ولهذا الغرض كان يحيط جيشه وحكومته بعزماته

الصادقة ليجعل منها أداة صالحة للدفاع عن وطنه. وكانت حكومته هي الوحيدة من نوعها في طرابلس كلها .

ولهذه المناسبة يقول الجنرال جرازياني : « وعلى هذه الحال انتهت حياة الرجل الذي كان أشد الناس كراهة وحقداً للاسم الإيطالي ، وكان ذلك من حسن حظنا ، لأنه كان يتصف بجميع مميزات الزعيم مع جدارة وخبرة نادرة المثال في التنظيم العسكري والسياسي ، مع ما نال من شهرة تديّن قوي ، فلو بقي حياً لكان امامنا عمليات شاقة ومصاعب جمة .

هذا قصص ما يتعلق بهجوم رمضان السويحلي على أرفلة ، نقصّه للحقيقة والتاريخ على من يريدون إنصاف الناس ومن يقدرون ظروف الأحوال ، ومقتضياتها وما تقتضيه واجبات الوطن من تضحية ، ومن أخذ الأمور بالحزم ، حتى تكسر قرون الفتنة ويقضى على دُعاتها ، وهم لا شكّ واجدون فيها ما يبرّر موقف رمضان من ارفلة ، ومقدرون له هذه المغامرة التي أودت بحياته في سبيل خدمة طرابلس ، وهو وإن لم يصحبه التوفيق فيها فقد صحبه في كثير من امثالها مما رفع به شأن طرابلس ، وخلد له من الذكر الطيب ما سيحفظه له التاريخ في صفحاته البيض .

ويشيع بعض خصومه أن غزو أرفلة غلطة من غلطات رمضان أملاها عليه حب التسلط وغرور النفس . ولكن ما اقترن بهذه الحادثة من أسباب لا يدل على شيء من هذا ، بل ما كان يبدو في أفق السياسة من تحزّب ضده ، وتحريض الطليان عليه ، وتلاعب عبد النبي وأشياعه ، واتصالهم بالطليان ، كان يحتم عليه القيام بمثل هذه الحملة كما أشرنا إلى ذلك آنفاً .

كارثة :

هي كارثة حقاً ، بل هي كارثة الكوارث تلك التي تفقد بها طرابلس رجلها الوحيد رمضان السويحلي ، لا يماري في ذلك أحد غير خصومه ومنافسيه ،

وهكذا تنتهي حياة العظماء في سبيل الوطن والمبدأ الشريف . فقدت طرابلس هذا الرجل الفذّ في أشد الأوقات حاجة إليه ، ففقدت فيه أبرّ أبنائها وأخلصهم لها ، وكانت تعلّق عليه آمالاً لا تنتهي دون الحرية الكاملة وتطهيرها من العدو ، فانفرط بموته عقد هذه الآمال وذهبت مع أحلام الحالمين .

وفي اليوم الذي توفي فيه رمضان كان أخوه أحمد في قوة من الخيل يطارد عبد القادر المنتصر ، وهو أحد أنصار عبد النبي في قرارة القطف لأنه كان من المنضمين إلى الطليان ، وكان يحارب من أجلهم . ولكنه لم يُقبض عليه ، وهرب على حصانه وترك ثيابه وسلاحه . وانتهى به الهرب إلى بني وليد ملتجئاً إلى عبد النبي ــ وهو أحد أنصاره ومشايعيه ــ فوجد المعركة قد انتهت بقتل رمضان.

وبعد يومين من انتهاء المعركة تسامع الناس بخبر موته فانقضّ على رؤوسهم إنقضاض الصاعقة . ونشرت جريدة اللواء الطرابلسي الخبر تحت عنوان « موت عظيم من عظماء المسلمين » وبلغ الناس من حب رمضان وإكبارهم إياه أنهم لم يصدّقوا بموته مع اقتناعهم بحضوره المعركة ، وبقيت هذه الإشاعة نحو ستة أشهر لم تنقطع ، واستغلّ الموقف مدّعو البركة فأخذوا يؤكدون لبسطاء العقول أن رمضان لم يمت وسيظهر عما قريب .

ولم أنس أني اجتمعت بصديقنا الفاضل التهامي بك قليصة (١) أيام مؤتمر غريان في غريان فسألته عن جلية الأمر ــ وكان يعلم قوة الإشاعة وانتشارها ــ فأكد لي أن رمضان قد مات ، وعلى الناس أن ينظروا في غير هذا الشأن فقد أصبح مما لا شك فيه .

إلى هذا الحدّ بلغ إكبار الناس لرمضان وإعجابهم به ، وإلى هذا الحدّ رفع الناس من شأن رمضان بما قدّمه للوطن من الأعمال الجلية حتى لم تسمح نفوسهم

---

(١) كان من أعيان مصراتة ومن رجالاتها الذين كان رمضان يعتمد عليهم في تصريف الامور.

بالاعتراف بموته . فموت مثل هذا كارثة على الوطن أي كارثة رحمه الله وشكر له .

أحمد بك السويحلي



اقترن موت رمضان بالفتنة التي كانت قائمة بين الزنتان والبربر عقب تلك الحرب الطاحنة ، وخيف أن ينتهز الطليان هذه الفرصة للهجوم على مصراتة ، كما خيف أن يجد خصوم رمضان من هذه الفرصة سبيلاً إلى تنفيذ أغراضهم .

وبعد جهود بذلت لتلافي الموقف ، سعى الناس لجمع الكلمة على رجل يخلف رمضان في منصبه بمصراتة ، فاجتمعت الكلمة على انتخاب أخيه أحمد السويحلي

وأُسندت إليه رياسة حكومة مصراتة ، وكان ذلك في أواخر أغسطس سنة ١٩٢٠ وأسندت إليه كذلك رياسة الجيش ، فكان الضباط يتصلون به مباشرة وبهذا العمل استقرّ الأمر في مصراتة. وكان انتخابه في مصراتة بالإجماع، وظهر بعض المخالفين في زليطن ، ولكنهم لم يقووا على مناوأة الأكثرية،ووافق ساحل الأحامد ومسلاتة وقماطة وكل من كان تابعاً لحكومة رمضان . وكان لعبد الرحمن عزام فضل كبير في تهدئة الخواطر وجمع الكلمة ، شكر الله له .

وبقيت حالة طرابلس العامة فيها شيء من الاضطراب: فأرفلة تعتبر هجوم رمضان عليها إهانة لكرامتها فهي تسعى لجمع أنصارها للثأر لنفسها ، وإن كانت هي التي فازت في المعركة. وخصوم رمضان يرون في موته فرصة للوصول إلى غاياتهم . وفتنة الزنتان والبربر فتنة عمياء تهدّد الوطن كله من أقصاه إلى أقصاه . والطليان من وراء ذلك كله يتحفزّون بجيوشهم الهائلة للقضاء على الوطن وما في الوطن .

وعقب استتباب الأمر لحكومة مصراتة ذهب عبد الرحمن عزام إلى ترهونة — وكان بينها وبين مصراتة فتور وسوء تفاهم — لمقابلة أحمد المريض للسعي في حسن التفاهم مع مصراتة وإزالة ما في النفوس ، وقد كلّل الله مسعاه بالنجاح. وأراد الله بالطرابلسيين خيراً فلمست رحمته قلوب الخيّرين منهم فقاموا بدعوة إلى عقد مؤتمر يمثل البلاد من أقصاها إلى أقصاها للنظر فيما آلت إليه حال الوطن . وكان في مقدمة هؤلاء الخيرين عبد الرحمن عزام فكانت دعوة متقبَّلة وجدت من القلوب المحل اللائق بها ، واستجاب لها الطرابلسيون من جميع الجهات ، وهيئت الأسباب لعقد مؤتمر غريان .

حرب الزنتان والبربر :

وقعت بين الزنتان والرجبان من ناحية ، وجماعة البربر من ناحية ، حروب طاحنة فقدت فيها طرابلس من أبنائها ما لا يعلم عدده إلا الله .

وقعت الحرب الأولى بينهم سنة ١٩١٦ وخلّفت من الضغائن بين الفريقين ما كان سبباً من أكبر الأسباب في الحرب الثانية التي دارت رحاها في سنتي ١٩٢٠ و ١٩٢١ .

وكان لرؤساء الفريقين سبب مباشر في هذه الحرب وتلك . ولهما أسباب ومقدمات ملتوية ومتداخلة ، تتصل بالطليان تارة ، وبغيرهم أخرى . وقد يقتضينا ذكر هذه الأسباب الملتوية المتداخلة التعرّض إلى أشياء لم يحن وقت التعرض إليها بعد .

والاحتفاظ ببعض الحقائق إلى أجل قد تدعو إليه ظروف تحتم على الإنسان مراعاة شعور مواطنيه وخواطرهم ، لذلك رأيت ان اقتصر على ما لا بدّ منه، وأترك ما وراء ذلك إلى المستقبل . وكنت أُريد ان اذكر بعضها في هذه الطبقة الثانية ، ولكني رأيت في التأجيل خيراً فأجلت .

وللتاريخ مناسبات تحدّ من نشاطه في ذكر الحقائق ، كما لغيره من أمور الحياة الأخرى .

كان من نتيجة الحرب الأولى سنة ١٩١٦ ان جلا البربر عن اوطانهم من جبل نفوسة ، وأقاموا في زوارة وما حولها من البلاد الساحلية ، وقد طالت بهم الهجرة وألحّت عليهم الحاجة ، فلم يجدوا بداً من العودة إلى اوطانهم ، فسعوا بكل وسيلة حتى تم لهم ذلك فيما بين شهري نوفمبر وديسمبر سنة ١٩١٩ .

ولم يرق هذا الرجوع الحاج محمد فكيني وعلي الشنطة خوفاً من ان يتحرّش بهم البربر مرة أخرى وتنشب بينهم حرب ثانية . ولكن هذا لا يبرر أن يترك البربر اوطانهم .

وبقي البربر في عزلة عن الزنتان ، وقابل الزنتان هذه العزلة بمثلها . وسعى الطليان للإتصال بكل من الفريقين لإغرائه بصاحبه .

ومما كان يعترض مصالح الطليان في إثارة هذه الفتنة خروج خليفة بن عسكر

عن طاعتهم وكان يحقد عليهم حقداً لا حدّ له ووقف امامهم عدة مواقف عدائية : فحرّض عليهم اهالي لالوت سنة ١٩١٤ ومنع الأورطة الايطاليـــة من دخول نالوت التي كانت ذاهبة إليها لأجل المحافظة على الحدود ، ومنعهم من اقامة نقطة عسكرية في « بو الشول » . وكانت فرقة من الهجانة ذاهبـة الى غدامس فمنعها من الذهاب اليها . وفي سنة ١٩٢٠ طرد ضابط الاتصال الذي كان بنالوت هو ومن معه ، واستولى على كل ما لديه من امتعة الحكومة ، كل هذا محفوظ لخليفة بن عسكر لدى الطليان . وهو يعرفه من نفسه ، ويعرف الطليان أنـه من أكبر أنصار رمضان السويحلي وأنه مستعدّ لعمل اكثر من هذا ، ولكنهم يودّون ان ينضم اليهم بأي ثمن ، لأنه ما دامت العداوة قائمة بينه وبينهم فلا يمكن ان يصلوا الى ما يؤملونه من اثارة الفتنة بين الزنتان والبربر .

وقد استاء الطليان من أعماله فأرسلوا اليه في اوائـل سنة ١٩٢٠ ليكف عن مناوأتهم فوعد بذلك سياسة منه لتسكين غضبهم ، وأبى ان يستسلم لهم .

واستغلّ الحاج محمد فكيني عضويته في حكومة القطر الطرابلسي ، فتدخّل في فصل المراكز الجبليـة بعضها عن بعض فلم يرق هـذا التدخل خليفة بن عسكر واعتبره الباروني وأعيان البربر تدخـــلاً في شؤونهم الخاصة . ولعبت اصابع الطليان في توسيع الخرق ، وتمكنّت ايدي الفتنة من الدخول فيه وتهيأت النفوس للشر .

وأعاد الطليان الكرة في وساطتهم لدى خليفة بن عسكر ، وقـــام بهذه الوساطة سليمان الباروني وقبلت الوساطة .

ولم يختلف اثنان من الطرابلسيين — لا من العرب ولا من البربر — في قيام سليمان الباروني بهذه الوساطة ، ولكن الذي اختلفت فيه وجهـــات النظر هو أسبابها ، لأن الباروني في مقدمة رؤساء المجاهدين في طرابلس .

ابتدأ الباروني باشا وساطته في يونيه سنة ١٩٢٠ وجاء مع ابن عسكر إلى

طرابلس في يوليه سنة ١٩٢٠ . ورحّب الطليان بمقدمه ، وأصدرت الحكومة عفواً عنه ورجع إلى نالوت .

وبمقتضى هذا التغير في سياسة ابن عسكر تغيّر الموقف فيما يتعلق بحرب الزنتان والبربر ، وسيتغير مجرى الحديث عنه تبعاً لما يظهر على أعماله من آثار هذه السياسة الجديدة . ويظهر أن موت رمضان بك السويحلي كان من العوامل التي فتحت طريق اليأس إلى نفس خليفة بن عسكر لأنه كان يعتزّ به وينتصر له ، وكان وجوده يبعد عن نفسه شبح الحرب بين الزنتان والبربر . ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه كان يمثل رمضان في جميع مظاهر السياسة الوطنية ، والرجولة الكاملة .

ولم ينس الطليان لخليفة بن عسكر مواقفه منهم وما ألحقوا بهم من ضرر ، وأنه ثالث ثلاثة : رمضان السويحلي ومختار كعبار ، وأنه وطني متطرّف لا تلين قناته . فلم يروا في استسلامه هذا أي مبرر للركون إليه ومعاملته معاملة المخلص لهم ، فلما أمكنتهم الفرصة منه قتلوه شنقاً ، وحين ذاك أدرك الباروني أنه خُدع . وأدرك ابن عسكر أنه سقط في يده ، وأن الحذر لا يمنع القدر .

بدء المناوشات :

رجع ابن عسكر بعد مقابلة الطليان إلى نالوت ووقعت مناوشات بينه وبين أبي الأحباس ، وبما أن الأحباس كان منحازاً في سياسته إلى الزنتان والرجبان أرادوا أن يحولوا بينه وبين ابن عسكر وانتصروا له ، وجاء حسن فكيني في خيله إلى الحرابة انتصاراً لأبي الأحباس واصطدمت خيله بخيل ابن عسكر . وكانت أول معركة في الحرب الأخيرة بين العرب والبربر فتح فيها باب الشرّ على مصراعيه ، وهزم حسن فكيني وأُخذ بعض أصحابه أسرى .

وحاول الزنتان أن يوقفوا الأمر عند هذا الحدّ ، فأرسلوا وفداً لابن عسكر من خمسة عشر فارساً ، منهم : شايب عينه البوسيفي ، وعمر المحروق الزنتاني ،

ومسعود العايب، وخاطبوه في ردّ الأسرى، وكانوا يعتقدون أنه لا يرد وساطتهم لأنهم لم يشاركوا في الحرب التي قام بها حسن فكيني، فامتنع، فرجعوا منه غضاباً.

وقد أخطأ ابن عسكر في انتهاز هذه الفرصة لوقف الحرب، لأنه كان في إمكان الزنتان أن يؤثروا على الرجبان في وقف الحرب، وقد تأثروا بردّ وساطتهم فانضموا إلى الرجبان ووقعت معارك طاحنة، واحتلّ البربر تاردية بلد الرجبان وأحرقوها يوم ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٢٠ وقتل في معركتها حسن فكيني، وغلب الزنتان والرجبان وارتحلوا إلى «رأس الحصان»[١] وارتد إبن عسكر وخيله إلى فسّاطو.

وفي أواسط إبريل سنة ١٩٢١ اصطدم الزنتان والبربر في «السيح»[٢] وكانت معركة صبر فيها الفريقان على الموت، وفقد فيها الوطن من أبنائه نحو ٢٦٠ قتيلاً. والتجأ البربر إلى فسّاطو. واتصل الزنتان والرجبان ببلادهم تاردية وتاغرمين. وفي أوائل يونيه سنة ١٩٢١ اتصل ابن عسكر بالباشا الباروني في يفرن.

وبعد معركة السيح تغير الموقف، ونشط الزنتان والرجبان، وأحسّ البربر بهذا النشاط فأعدوا له عدّته.

وفي أكتوبر سنة ١٩٢١ هاجم الزنتان والرجبان البربر في يفرن، وأجلوا عنها ابن عسكر والباشا الباروني إلى فسّاطو فلحقوا بهم هناك وأجلوهم عنها في حالة ما سمع بها إنسان إلا جرحت عواطفه، وكان محل الغرابة منها كيف يقسو الإنسان على جاره ومواطنه بهذه القسوة، وحلّ بفساط ما حلّ بتاردية من حرق وتخريب وسلب ونهب.

---

(١) مكان جنوبي السيح بنحو ستين كيلومتراً.
(٢) مكان سهل بين الرجبان وفساطو.

وفي ١٣ منه وصل إلى الوطية نساء البربر وأطفالهم والعاجزون عن الحرب منهم . والتجأ ابن عسكر ومن معه الى نالوت ، وجعل كاباوْ مركز قيادته ، ووقف النشاط الحربي إلى أوائل ديسمبر سنة ١٩٢١ واستعدّ كل من الطرفين لصاحبه . وفي اليوم السابع منه التقى الفريقان ، وحاول ابن عسكر أن يحتفظ بمضيق فرسطّة فاضطر إلى التخلي عنه ، وارتحل إلى الحضارة في سيف الجبل الشمالي . والتحق من بقي من نساء البربر وأطفالهم ، فيما وراء فرسطّة إلى نالوت ، بإخوانهم في الوطية . وأصبح الجبل — من يفرن إلى نالوت — خالياً إلا من أصوات البوم وعواء الذئاب ، وإلا من حمحمة الخيل الغازية ، وطلقات الرصاص المتتالية تجول فيه خيل الزنتان والرجبان وتصول ، واستحال ما كان فيه من أنس وحياة إلى وحشة وموت . وتناوحت الدور المتهدمة والخرائب الموحشة ، فلا تمرّ من شعبة إلا على أشلاء القلى ، ولا من طريق إلا وحواليك ضحايا الرصاص وأسلاب الحرب .

حرب تجرد فيها الإنسان من كل عاطفة وإحساس . وأصبح لا قيمة عنده لحقوق الجوار ، ولا لأوامر الدين ، ولا للنفس التي حرّم الله قتلها إلا بالحق ، ولا لحرمات الحرائر وضعف الشيوخ والأطفال .

حرب اختلط فيها المظلوم بالظالم ، وتطاحن فيها الآباء مع الأبناء ، والأخ مع أخيه. لم تترك في الجبل بيتاً إلا أنذرت ساكنيه بيتم البنات وثكل الأمهات، ولا قرية إلا صاحت فيها بصوت غراب البين : هلموا إلى الرحيل فقد آن خراب الديار .

حرب تولى قيادتها رؤساء لم يكن لهم من الدين وازع ، ولا من الأخلاق رادع ، رؤساء أخلصت لهم الرعية فاستعملوها فيما يغضب الله ولا يرضي الإنسان ، وساقوها إلى المجازر لتنحر ولا تدري لماذا تنحر ، واهتبلوا طاعتها لأغراضهم بدون رحمة ولا شفقة ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

حرب ضاعت فيها نفوس بريئة على مذبح مطامع الرؤساء وشهواتهم ، وفقد فيها الوطن من شيوخ أبنائه و كهولهم ألوفاً كانوا على استعداد للدفاع عنه يوم ينزل به البلاء ، ويحيط به الأعداء ، فما كان أغناه عن موتهم وأحوجهم للحياة له ، وإذا سئلت تلك النفوس البريئة – يوم يقوم الناس لرب العالمين – بأي ذنب قتلت ؟ فسيكون جوابها: ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا و كبراءنا فأضلّونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ .

البربر في الوطية :

اجتمع من البربر في الوطية في ديسمبر ١٩٢١ بعد أن التحق بهم ابن عسكر ومن معه نحو ١٠٠٠٠ بين نساء وأطفال ورجال .

وكانوا في حاجة إلى الاستقرار لينالوا قسطاً من الراحة مما نالهم من عناء الجلاء ، ليتدبروا فيما يدفع غائلة الجوع عن أنفسهم .

والى هذه الحال انتهى البربر بعد أن تغلب عليهم الزنتان والرجبان ، وأخذوا أموالهم ، وقتلوا رجالهم ، وأحرقوا قراهم ، مثل ما أخذ البربر أموال الزنتان والرجبان ، وقتلوا رجالهم ، وأحرقوا قراهم من قبل ومكثوا نحو أربعة أشهر في راحة من الحرب .

وقد استغلّ الطليان منهم هذه الحال فعرضوا على بعضهم الانخراط في الجندية ، وتولى يوسف خربيش هذه الدعاية فاستجاب له بعضهم كما استجاب له كثير من غير البربر ، وشكل جيشاً من المرتزقة برياسته كان الضربة القاتلة للوطن كله . ولقد أسرف هذا الرجل في الانتقام لنفسه ولكن ممن لا يستحقون الانتقام وهم سكان السواحل . أما الزنتان والرجبان الذين تسببوا في إجلاء البربر عن أوطانهم فلم يلحق بهم أي ضرر .

وقبل هذه الفتنة الجائحة كان البربر في مقدمة المجاهدين المخلصين ، وكانوا مع العرب في وفاق تام . ولكن تنازع الرؤساء من الطرفين على السلطة هو الذي

أثار هذه العنصرية البغيضة التي رمت بالوطن كله في أحضان الطليان .

وسينتقم الله ممن سعى لهذه الفتنة يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

القبض على ابن عسكر :

لم ينس الطليان لابن عسكر تلك المواقف الوطنـيـة التي كان يقفها منهم ، وتلك العداوة الصريحة التي كان يصارحهم بها ويناز لهم القتال من أجلها ، فعملوا من أول وهلة لإبعاده وعدم تمكينه مما يقوي سلطته ونفوذه .

ولم ينس ابن عسكر عداوة الطليان له وما أنزلوه بوطنه من نكبات ، وهو يعتقد انهم لم ينسوا عداوته لهم ، فكل من ابن عسكر والطليان يقرأ في وجه صاحبه ما يقرؤه الثاني من عداوة وبغض . ومن اول وهلة تقدم ابن عسكر لجرازياني بطلب تشكيل جيش برياسته لاحتلال الجبل وإرجاع البربر إلى اوطانهم . وقد أبدى هذه الرغبة إلى وولبي وبادوليو حينما جاءا الى العسَّة ، فطلب منهم تأليف جيش برياسته ومبلغاً كبيراً من المال . وقد احتال لتنفيذ غرضه بأن أفهمهم ان الزنتان والرجبان ينوون الهجوم على الوطية ليسرع الطليان في اجابة مطالبه . ولكن الطليان اعتزموا القبض عليه لعدم اطمئنانهم له ، ولو علموا انه لا يستعمل مطالبه ضدهم لأجابوه اليها : فكانت كل طلباته تقابـل بالتسويف والمراوغة اكتساباً للوقت الى ان تحين الفرصة المناسبة للقبض عليه .

وعلى ضوء ما فهمه جرازياني من نوايا ابن عسكر ، وعلى ما يحمله له من عداوة قديمة أخذ يكتب التقرير تلو التقرير إلى وولبي (والي طرابلس) يحرّضه على القبض عليه . وما زال به حتى استصدر أمراً بالقبض عليه .

ولم يكن من السهل القبض على ابن عسكر علانية وبدون تحيّل خوفاً من غضب أنصاره له ، لأن ابن عسكر ما زال مرموقاً بتلك العين الوطنية المخلصة . ولهذه الأسباب صرح جرازياني بأنه كان مضطراً إلى التحيّل للقبض عليه . وكان من

الحيل التي اتخذت لذلك أن قبض على كثير من الناس : من أنصاره وغيرهم لأسباب مختلفة لتتجه الأنظار إلى هؤلاء المقبوض عليهم، ويزيد ذلك في اطمئنان ابن عسكر وأنصاره .

وفي أواخر شهر مايو سنة ١٩٢٢ تحركت جيوش جرازياني من زوارة إلى الوطية ، ومعها جماعة ابن عسكر . وقد صفّت هذه الجيوش بما فيها أنصار ابن عسكر للتفتيش عليها . ومسألة التفتيش معروفة حينما تريد الجيوش الحركة من مكان إلى آخر . ولو تمت حيلة التفتيش لتمكنوا من القبض على ابن عسكر وأنصاره ، ولكنه لم يخف عليه وعلى أصحابه هذا التدبير ، ويقول جرازياني : « إنهم كانوا مستعدين للطوارىء » . ويقول أيضاً: « ولم يكن هذا كافياً للقبض عليه خوفاً من أنصاره لأنهم كانوا يطيعونه طاعة عمياء ، وقد يؤدي إلى تذمر جماعة البربر على العموم» . واشتكى ابن عسكر من تصفيف رجاله بهذا الشكل فاحتال جرازياني للأمر بأن طلب التحدث إلى ابن عسكر وبعض رجاله ، ولما ذهبوا إلى محل القيادة لمقابلته كانت الأوامر أعطيت إلى الجيش بالقبض على أنصاره ، كما اتخذت التدابير للقبض عليه وعلى من معه داخل القيادة ، ونفّذت الخطة ونجحت الحيلة .

ويقول جرازياني في كتابه (نحو الفزان) : « وكنت مع خليفة بن عسكر في مقصورة منفردين. وفي هذه الأثناء كان يقبض على أنصاره الواحد تلو الآخر ، ومن الصدف أن وقع سقف الحجرة التي كنت فيها أنا وابن عسكر علينا . فلما خرج من الحجرة قبض عليه ووضع الحديد في يديه [١] » .

وكانت هذه الحادثة يوم ٢٨ مايو سنة ١٩٢٢ . وفي هذا اليوم أُخذ إلى طرابلس حيث أودع السجن انتظاراً للمحاكمة . ولهذه المناسبة يقول جرازياني:

---

(١) سمعنا هذه الاشاعة عند القبض على ابن عسكر . ولولا أنه كتبها جرازياني في كتابه لما صدقناها .



خليفة بن عسكر
أحد أبطال الجهاد في طرابلس

« وهكذا اختفى من الغرب رجل خطر جدا كرمضان السويحلي » .

إي والله ، لقد كان ابن عسكر خطراً على الطليان وأعداء الوطن .

وفي يوم القبض عليه قبض على جميع أفراد أسرته ونزع السلاح من أتباعه .

وبعد القبض على ابن عسكر أمن الطليان جانب أكبر عدوّ لهم كانوا يرهبون جانبه ويخشون سطوته . تمت محاكمته في يونيه سنة ١٩٢٢ م . وحكم عليه بالإعدام فأعدم شنقاً ، ويعلم الله يا سيد خليفة وكل مواطنيك أنك وطني مخلص ، وأنك بطل ، فاهنأ بلقاء ربك شهيداً ، راضياً مرضياً عنك .

وقد أثبتت الحوادث أن ابن عسكر بعد انتمائه إلى الطليان لم تتغير نواياه نحوهم ، وكان يعتبرهم ألدّ أعداء الوطن ، فكان يعمل لما يخلصه ويخلص أنصاره من قبضتهم . كما أن الطليان لم يروا في انتمائه إليهم ما يستحقّ الاطمئنان إليه ، فكانوا يعاملونه بكل حذر ، وقال جرازياني في حقه : « يجب معاملته بحذر كعدو » وقد عملوا للقضاء عليه وعلى أنصاره من أول وهلة .

وبفقده فقد الوطن رجلاً من أبرز رجالات الوطن إخلاصاً وشجاعة . شكر الله له وجزاه أحسن الجزاء . وبعد انتهاء هذه الرواية المحزنة اتجهت جيوش الطليان إلى الجوش على طريق الهبيلية لاحتلال الجبل .

يوسف خربيش :

كان من أعيان البربر الذين انحازوا إلى الوطية بعد أن أجلاهم الزنتان من الجبل .

ولم يجد سبيلاً للأخذ بالثأر من الزنتان إلا الانضمام إلى الطليان، فانضم إليهم وقاد جيوشهم وفتح لهم الأمصار والقرى ، وسلم لهم الوطن لقمة سائغة ، وفي أحد عشر شهراً أوصلهم إلى غاية حاربوا من أجلها اثنتي عشرة سنة فلم يفلحوا ،

وهي استيلاؤهم على طرابلس من زوارة إلى ما وراء مصراتة [1] . وقد أباح لجيشه أموال الناس ، فما وقعت أيديهم على شيء إلا أخذته ، ولا تركت شيئاً إلا امتدت إليه ، وقد كافأه الطليان بالأموال حتى أصبح أغنى رجل في طرابلس ، ومنحوه أكبر وسام إيطالي يحمله غير الإيطاليين .

احتلال الجبل :

وأول ما فكر فيه الطليان بعد القبض على خليفة بن عسكر احتلال الجبل ليؤمنوا رجوع البربر إلى أوطانهم . فألفوا جيوشاً أربعة ، برياسة : جرازياني ، وبتسيري ، وفلينو ، وبلتّي ، يتألف من مجموعها ثمانية آلاف جندي بين فرسان ومشاة ، وعشرة مدافع ، وقد عهد إلى جرازياني باحتلال الجوش . وكان معه ثلاثة آلاف مقاتل . وثلاثمائة فارس ومدفعان . وعهد إلى الجيوش الأخرى أن تسنده من الجهة الشرقية لتشغل المجاهدين في غريان من ناحية العزيزية ، وفي يفرن من ناحية بئر الغنم خوفاً من إرسال نجدة إلى جهة الجبل الغربية ، لأن العرب في ذلك الوقت كانوا مستولين على الجبل كله : من غريان إلى نالوت .

ابتداء الأعمال الحربية :

تحرك جيش جرازياني في ٢ يونية سنة ١٩٢٢ من زوارة قاصداً الجوش . ولما مرّ بآبار قصور غدّو والحمراء لم يجد فيها من الماء ما يكفيه فهلك كثير منه بالعطش ، وقبل وصول الجيش إلى آبار الكردي اعترضته جماعة فكيني ، فناوشته دونها ولم يصل إليها إلا وهو في آخر رمق ، ولم يمكنه مواصلة السير إلى الجوش بدون التعرّض إلى خطر الزنتان والرجبان برياسة الحاج محمد فكيني .

---

(١) ابتدأ زحفه من زوارة على الزاوية في إبريل سنة ١٩٢٢ واحتل مصراتة في ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٣ .

وفي اليوم الثالث أرسل الطليان كشافة وقع أكثر رجالها في أيدي العرب وبقي العرب يحاصرون الطليان على آبار الكردي نحو عشرة أيام . وكانت الطائرات ترميهم بالقنابل صباحاً ومساء حتى جاءوا بقسم من الهجانة من رِقْدالين ، وفي ليلة ١٢ يونيه جاءتهم نجدة في سواني الكردي فتمكنوا من فكّ الحصار وساروا إلى الجوش من طريق عين الجديدة . وبقي الجيش الإيطالي في طريقه من زوارة إلى الجوش ١٢ يوماً منها نحو عشرة أيام في الحصار .

القتال في الجوش : وصلت جيوش الطليان إلى الجوش يوم ١٢ يونيه سنة ١٩٢٢ وكان فيه جماعة من الزنتان والرجبان والحرابة والصيعان . وكانت الطائرات تمطرهم بقنابلها بدون انقطاع لأنها اتخذت لها مطاراً في سواني الكردي. وبعد ثلاث معارك اضطرّ العرب إلى الانسحاب نحو شكشوك ، واحتلّ العدو قصر الجوش في الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم ١٣ منه بعد قتال شديد . واعترف الطليان بأنهم أصيبوا بخسائر كبيرة في الضباط والجنود. والتجأ العرب إلى الجبل قاصدين جادو .

وفي صبيحة يوم ١٤ منه خرجت قوة من الوطنية متجهة إلى تيجي ، ثم منها إلى كاباوْ لاحتلالها . وكان خربيش بصحبة هذه الحملة، فوصلت كاباو واحتلتها يوم ١٦ منه . وفي يوم ١٨ منه هاجم خربيش السلامات واحتلها بعد معركة دامت من الصباح إلى الساعة الرابعة بعد الظهر .

وفي يوم ١٧ منه زحفت القوة التي احتلت كاباو على فسّاطو فاحتلتها في يوم ١٩ منه . واتجهت قوة أخرى من كاباو إلى نالوت فاحتلتها في يوم ٦ يولية ١٩٢٢ وتقدم الطليان في زحفهم حتى تاردية وتاغرمين [1] فاحتلوهما . واضطرّ فكيني ومن معه إلى الالتجاء إلى الجنوب « القبلة » ونزلوا على بئر الكلاب وبئر علاق، وسانية الجديد .

---

(١) تاردية : بلد الرجبان وتاغرمين بلد الزنتان ، وهما متجاورتان .

وعلى أثر معارك الجوش التجأ كثير من العرب إلى القبلة[1] ، ولم يبق إلا قليل قاموا بمناوشات لتأخير تقدُّم العدوّ مؤقتاً حتى يتمكنوا من النجاة .

وكانت جيوش الطليان تمتدّ من زوارة إلى الجوش على طريق الوطية والهبيلية والزّرير .

الزحف على يفرن :

استمر الزحف على يفرن من جادو من يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٢٢ إلى يوم ٣١ منه . وفي يوم ٢٩ وصلوا الريباينة وفي يوم ٣٠ منه وصل خربيش ومن معه إلى الرومية واحتل يفرن يوم ٣١ منه .

احتلال غريان :

اتخذ الطليان الأهبة لاحتلال غريان. وفي يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٢٢ صدرت الأوامر باحتلالها . واتخذت خطة للإطباق عليها من جميع الجهات . فتقدم جرازياني من يفرن إلى جنوب غريان وشرقيها لمنع المدد من ترهونة . وكان معه ٣٥٠٠ مسلح و ٣٥٠ فارساً وأربع بطاريات ، وتقدم بللي من الغرب على طريق سفح الجبل ليحتلّ بوغيلان ، ومعه ٦٠٠ مسلح و ١٠٠ فارس . وتقدم بتزاري ومعه ٢٢٠٠ مسلح ، و ٣٠٠ فارس من الغرب ، وخرجت قوة من العزيزية لتحتل « بوعرقوب » ، والسايح ، والجيلاني . وأطبقت هذه القوى الأربعة على غريان ، ونفذت كل واحدة خطتها فجلا المجاهدون عنها واحتلّت يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ .

---

(١) ما وراء جبل نفوسة الى الجنوب يقال له « القبلة » .

مؤتمر غريان

انتهى بنا الحديث عند سرد حوادث حرب الزنتان والبربر إلى احتلال غريان في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ مع أن بعضها وقع بعد مؤتمر غريان الذي عقد في نوفمبر سنة ١٩٢٠ وقد أخرنا الكلام عنه لنتمكن من سرد ما ترتب عليه من أعمال الإدارة الوطنية وحوادث الحرب .

وقد ألمعنا آنفاً إلى أن الطليان أخذوا يعملون لنقض صلح بنيادم بالمراوغة في تنفيذ القانون الأساسي تارة ، وبالدسّ بين الطرابلسيين لإيقاد الفتنة الداخلية بينهم تارة أخرى .

وقد وجدوا من الفتنة القائمة بين البربر والعرب ميداناً جروا فيه إلى نهاية الشوط وأيقظوا منها ما كان نائماً ، فكانت أوسع باب ولجوا منه للقضاء على الوطن .

وقد ضاع كل أمل للعرب في إصلاح الحال ووفاء الطليان بما عاهدوا عليه ، ففكّروا في عقد مؤتمر عام يمثل البلاد من أقصاها إلى أقصاها للنظر فيما آلت إليه الحال ، وما يجب اتخاذه لإصلاح الموقف ، فاستقرّ رأيهم على عقد مؤتمر غريان .

مؤتمر تحضيري :

وقد مهّدوا لعقد مؤتمر غريان بمؤتمر تحضيري عقد في العزيزية في المحرم سنة ١٣٣٩ ـ أكتوبر سنة ١٩٢٠ لينسّق أعمال مؤتمر غريان ويحضّر له المواد التي يبحثها .

وكان من أعضاء هذا المؤتمر : الشيخ عمر الميساوي . والشيخ علي الهمالي عن مصراتة والشيخ أحمد الرجيبي والفقيه علي بن حسن عن الزاوية . والشيخ الزروق الأجهر عن زليطن [1] وبقي منعقداً نحو أسبوع .

وكان فيما قرّره (١) انتخاب وفد يسمى « وفد الإصلاح » ليصلح بين الزنتان والبربر (٢) الشروع في انتخاب أعضاء مؤتمر غريان (٣) تقسيم البلاد إلى مناطق وتحديد الأعضاء لكل منطقة (٤) إرسال دعوة إلى جميع المناطق التي تقرر اشتراكها في مؤتمر غريان لانتخاب أعضاء وفد الإصلاح ومؤتمر غريان .

وفد الاصلاح :

انتخب وفد الإصلاح وكان مكوّناً من حضرات السادة : الشيخ الطاهر الزاوي من الزاوية . والأستاذ عبدالله أفندي الشريف من ساحل طرابلس . ومحمد بن حمد من ترهونة . وعلى المشلوخ من الأصابعة . والشيخ محمد بن خليفة من ككّلة . والشيخ محمد بو زويدة من ورشفّانة . وكل واحد من هؤلاء الأعضاء كان يمثل بلده وبلاداً أخرى ضمّت إليها في هذا التمثيل ، حتى أصبحت جميع البلاد الساحلية ممثلة في هذا الوفد . ولم تمثل فيه زوارة ولا سكان الجبل والجنوب لأن حالة الحرب حالت دون الاتصال بهم .

وقد اجتمعنا نحن أعضاء الوفد في بئر الغنم ، وسافرنا في أواخر المحرم سنة

---

(١) حضره أعضاء آخرون لم تحضرني أسماؤهم .

١٣٣٩ إلى الجبل حيث مقرّ البربر ، على طريق تاغمة ، وكان بها الشيخ سوف فزوّدنا ببعض النصائح في مهمتنا ، وكان أملنا في النجاح ضعيفاً لأن الزنتان والرجبان كانوا انتقلوا إلى الجنوب على أثر هزيمتهم ، أما البربر فما زالوا في الجبل وجيوشهم تتجول فيه حرة . وكل من قابلناه من الأعيان لأخذ رأيه كان يتمنى لنا النجاح ، ولكنه كان يشكّ في الحصول عليه .

ومررنا في طريقنا بالرياينة فوجدنا أهلها منقسمين إلى قسمين : قسم يرأسه عبدالله الرحيبي [1] وهو من أنصار الزنتان والرجبان. وقسم يرأسه أحمد جلبان وعبدالله بن حسين وهما من أنصار البربر ، وكان الحزبان على أشدّ ما يكون من الخلاف ، وقد حاول الوفد أن يصلح بينهما ، فأرجئت إجابة رغبته إلى ما بعد الانتهاء من الصلح بين الزنتان والبربر .

وتقدّم الوفد إلى « فسّاطو » وكان رئيس جيش البربر الموجود بها إذ ذاك عمرو بن عسكر أخو خليفة بن عسكر ، واجتمعنا فيها بيوسف خربيش والشيخ سليمان بن سعيد وبعض أعيان البربر ، فأظهروا استعدادهم للصلح وعلقوا الأمر على استعداد عدوهم لقبول هذا العرض . ولا أرى هذا إلا من قبيل المجاملة ، لأنهم يرون أن عدوّهم لا يرضى بالصلح عقب تلك الهزيمة المنكرة ، وأيضاً فإن الزنتان والرجبان انتقلوا إلى الجنوب ، واتضح فيما بعد أن هذا الانتقال كان لجمع شتاتهم وحشد جيوشهم للأخذ بالثأر ، وأصبحت أمام الوفد مهمة شاقة ، وهي لحاقه بالزنتان والرجبان في الجنوب لأخذ رأيهم . وبما أن الاستعدادات كانت قائمة لعقد مؤتمر غريان فقد أرجأ الوفد مهمته إلى ما بعد انعقاد المؤتمر ليستنير برأيه .

---

(١) الرحيبي بالحاء المهملة هو من أعيان الرياينة من بلدة « العين » . وكان يناصر الزنتان والرجبان في حروبهم ضد البربر ، ولما استتب الامر للطليان قتلوه رمياً بالرصاص يوم الثلاثاء ٩ من يناير سنة ١٩٢٣ . وحكم على عشرين رجلا من أنصاره بمصادرة أموالهم ، وبالسجن من خمس سنوات إلى عشرين سنة .

ورجع الوفد إلى غريان — مكان اجتماع المؤتمر — بدون أن يتصل بأحد من الزنتان والرجبان ليبلغ المؤتمر نتيجة مهمته ورأيه فيما يجب اتخاذه. ووصل غريان في أوائل ربيع الأول سنة ١٣٣٩ نوفمبر سنة ١٩٢٠ فوجد بعض أعضاء المؤتمر قد وصلوا إليها .

ملحوظـــة :

كان الوفد معتزماً كتابة تقرير بما شاهده ، وبما يراه صالحاً لمعالجـة الحال كما هو شأن الوفود التي ترسل في مهمة حكوميـة أو شعبية . ولكن بعض أعضاء المؤتمر أوعز إلى أحد أعضاء الوفد وهو عبدالله أفندي الشريف أن يكتب مـا يتراءى له ، وأسرَّ إليه بأمور يضمّنها ما يكتبه لغرض في نفس هـذا العضو . وانتهى الأمر بالإكتفاء بما أملاه أو كتبه عبدالله الشريف عضو الوفد بدون أن يطلع بقية أعضائه على شيء منه .

ويتصل بهذا الموضوع مهزلة أخرى ، وهي : أنه لما كنـا في الرياينة أظهر السيد عبدالله الشريف ورقة مكتوبة ، ادّعى أنها وقعت من الباروني ، يحرّض فيها البربر على عدم قبول الصلح وعدم الانضمام إلى العرب . وأنا أعتقد أن هذه الورقة مزوّرة لحاجة في نفوس بعض الناس ، لأن الباروني لم يكن من البلاهـة بحيث تقع منه هذه الورقة وهي هناة تؤخذ على من أرسل لإصلاح ذات البين ، وجمع ما فرّقه التعصب للعنصرية والأغراض الشخصية . كما تؤخذ هناة مثلها على من يتصدّر لحضور المؤتمرات للنظر في مصير أمة بأسرها وهو لا يملـك من نفسه أن يستمع إلى الحقائق . فإذا كانت نفسه تحرص على مثل هذه المحقرات في مثل هذه الظروف التي يقف فيها الوطن على الهاوية لغرض لا يعدو أن يكون انتقاماً أو إثارة فتنة ، فكيف يرجى من مثـله أن يحسن التصرّف في شؤون الوطن العـامـــة ؟

وفي مثل هذه المهازل عِبَرٌ لا يسع العاقل أن يمرّ بها بدون أن يعمل على عدم

تكررها فقد كان لها من الآثار السيئة ما لا يخفى على أحد .

إجتماع مؤتمر غريان [1] :

اجتمع المؤتمر في شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٩ ـ نوفمبر سنة ١٩٢٠ بعد أن اختار كل بلد من يمثله فيه ما عدا بلاد البربر . وأسفرت النتيجة عن انتخاب :

أحمد بك المريض		رئيساً
الأستاذ عبد الرحمن عزام		مستشاراً
محمد بك فرحات	مختار بك كعبار	أعضاء
الصادق بن الحاج	عبد الرحمن زبيدة	
عمر أبو دبوس	الحاج محمد بن عمر	
صالح بن سلطان	عبد السلام الجدايمي	
التهامي قليصة	نوري السعداوي	
الشيخ أحمد الرجيبي	بشير السعداوي	
العيساوي بوخنجر	حسين بن جابر	
محمد التايب	سالم البحباح	
عثمان القيزاني	الصويعي الخيتوني	
علي بن تنتوش		

---

(١) بمجرد ان ساءت العلاقات بين الطرابلسيين والطليان، وظهرت فكرة عقد مؤتمر غريان خاف الطليان أن يكون من نتائج هـذا المؤتمر اتحاد برقة وطرابلس فسعوا لدى السيد إدريس وعقدوا معه معاهدة الرجمة في ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٢٠ . وهي التي بمقتضاها أعطوه الامارة وقد عقد هذه المعاهدة بدون أن يستشير الطرابلسيين في شيء . ودعي الى رومـا لمقابلة ملك إيطاليا في نوفمبر سنة ١٩٢٠ . وبقي ضيفاً على الحكومة إلى أن رجع إلى برقـة في يناير سنة ١٩٢١ . وجاء في هذه المعاهدة (الحكومة تفوض الى الامير السنوسي رياسة وإدارة واحات اوجلة وجالو والكفرة والجغبوب) وهذا مـا خص السيد إدريس من برقة ، وهي واحات في جنوب برقة لا ثروة فيها ولا علم ، يعيش اهلها على بلح النخل وما يجلبونه على ظهور الابل .

ودامت جلساته ١٥ يوماً .

وقد انتخب المؤتمرون بالإجماع أحمد بك المريض رئيساً للمؤتمر . وكانت الظروف إذ ذاك تقضي بهذا الانتخاب . فرمضان بك السويحلي الذي كان يظن أنه ينافسه هذا المنصب كان قد توفي ، وما يتصف به المريض من دماثة الخلق وسهولة الطبع كان الناس في أشد الحاجة إليه في تلك الظروف التي ظهرت فيها قرون الفتنة في كل ناحية . وكانت تؤدته في الأمور ورزانته في التفكير من أسباب توجّه الناس إليه ، وعقد الرجاء به .

وهذه المميزات هي التي وجهت المؤتمر لانتخابه رئيساً لهيئة الإصلاح المركزية أيضاً . وقد تحمّل هو وإخوانه أعضاء الهيئة أعباء الحكم في تلك الظروف التي كان يحيط بها كثير من عوامل الفساد والانحلال وبذلوا في الإصلاح وسعهم ، وما عليهم إذا لم يوفقوا ، فإن التوفيق بيد الله يؤتيه من يشاء .

وقد وقفت حكومة الطليان من مؤتمر غريان موقف الحذر ، وسعت في إخفاقه بكل ما أمكنها من السعي بالرغم على أنها كانت وافقت على انعقاده . ونظراً لما كان بين البربر والزنتان من الحرب فقد امتنع من الاشتراك فيه هم وأولاد أبي سيف والمشاشية . وامتنع كذلك عن الاشتراك فيه عبد النبي ابن خير ، نظراً للحرب التي وقعت بينه وبين مصراتة . ولم تتأثر مصراتة بموت زعيمها، فقد تناسته في سبيل مصلحة الوطن ونزلت عند إرادة الأمة. وأظهرت استعدادها للتفاهم مع عبد النبي ، ولكن شكوكه ووساوسه أبت عليه أن ينضم إلى صفوف الأمة واستمرّ في انشقاقه . وكانت له صلة متينة بالطليان فكانت رسله وقوافله تغدو وتروح بينه وبينهم متخذة طريقها إلى طرابلس بين حدود غريان وترهونة ، وكان يمثل أرفلة عبد الرحمن زبيدة والسيد محمد العيساوي بوخنجر بموافقة خصوم عبد النبي وموافقة المؤتمر .

وقد امتنع الباروني عن حضور المؤتمر لأنه كان متأثراً بالحرب التي وقعت

بين الزنتان والبربر وارسلت إليه دعوة خاصة من مؤتمر العزيزية التحضيري فلم يقبل . وأرسل إليه أحمد بك المريض بعد انتخابه رئيساً للمؤتمر بأنه مستعد للتنازل له عن الرياسة فأبى ، وأصرّ على موقفه وذهبت جميع المساعي لديه سدى .

وفي أثناء انعقاد المؤتمر وقبله كان يتنقل بين زوارة وفساطو للاشراف على شؤون البربر .

ولم يكن خافياً على زعماء العرب أنه متأثر مما أصاب البربر في حربهم مع الزنتان ، الأمر الذي حمله على تخصيص الكثير من وقته للعمل على استقرارهم. ولكنهم حرصوا على وجوده معهم ؛ لأنه سبب قوي في إصلاح ذات البين .

وعلى كل حال فإن فضل سليمان الباروني في الجهاد الطرابلسي لا ينكر .

ولما أيس المؤتمر من حضوره استمر في أعماله ، وأصدر بعد انتهاء جلساته قراراً هذا نصه :

« إن الحالة التي آلت إليها البلاد لا يمكن تحسينها إلا باقامة حكومة قادرة، ومؤسسة على ما يحقق الشرع الإسلامي بزعامة رجل مسلم ينتخب من الأمة لا يعزل إلا بحجة شرعية وإقرار مجلس النواب ، وتكون له السلطة الدينية والمدنية والعسكرية بأكملها بموجب دستور تقرّه الأمة بواسطة نوابها ، وأن يشمل حكمه جميع البلاد بحدودها المعروفة » .

وانتخب حكومة وطنية أطلق عليها اسم «هيئة الإصلاح المركزية» وكانت مكوّنة من :

أحمد بك المريض	رئيساً
الأستاذ عبد الرحمن عزام	مستشاراً

بشير السعداوي	حسين بن جابر	محمد فرحات	
عبد الرحمن زبيدة	محمد التايب	سالم البجباح	أعضاء
عثمان القيزاني	عمر بودبوس	صادق بن الحاج	
مختار كعبار	الحاج محمد فكيني	الصويعي الخيتوني	

وقرّر المؤتمر إرسال وفد إلى روما ليطالب بتنفيذ قراراته – وفد مؤتمر غريان – وانتخب هذا الوفد من: محمد بك فرحات الزاوي رئيساً. ومحمد نوري السعداوي. والصادق بن الحاج، وخالد القرقني أعضاء. وعبد السلام البوصيري كاتباً «سكرتيراً».

وانفضّ المؤتمر، وأبلغ قراراته إلى الحاكم الإيطالي في طرابلس، وطلب إليه أن يبلغها إلى حكومة روما. وذهب كل فرد من أعضاء الحكومة العربية الجديدة إلى بلده ليمثلها في إدارة شؤونه. وكان النفوذ الإيطالي إذ ذاك لا يتجاوز زوارة ومدينتي طرابلس والخمس.

وجاء دور إرسال وفد مؤتمر غريان إلى روما. وقبل أن يتهيأ للسفر ذهب إلى أرفلة [1] لإقناع عبد النبي بضرورة موافقته على قرارات المؤتمر ودخوله في هيئة الإصلاح المركزية. وعبثاً حاول التفاهم معه، وأصرّ على امتناعه.

وقبل سفر الوفد إلى روما قابل الحاكم الإيطالي في طرابلس «مركتيلي» ليستأذن منه في السفر، فمانع وأغلظ في القول، وهدّد بالاستقالة إذا قبلت حكومة روما الدخول معهم في المفاوضة. وبعد جدال طويل رخص له بالسفر بعد أن وضع في سبيله كل المعوقات والمثبطات، واستوثق من حكومته بأن توصد في وجهه جميع الأبواب.

(١) ما عدا خالداً فإنه كان في رومة.

سفر وفد مؤتمر غريان :

سافر الوفد إلى روما في ديسمبر سنة ١٩٢٠ وحاول الاتصال برجال الحكومة وذوي الشأن فيها فلم يفلح ، فاضطر إلى مغادرتها إلى البلاد الإيطالية الأخرى واتصل برؤساء الأحزاب ومحرري الجرائد ، وتمكن من الإعلان عن قضيته في بعض الجرائد ، وأخيراً اتصل بالحزب الاشتراكي ، فكان من حجّته أننا نخاف من غضب الشعب إذا ساعدناكم والأسرى ما زالوا في أسرهم ، فإذا ما أطلقتموهم أمكننا أن نساعدكم ، وبناءً على هذا الوعد أُطلق الأسرى في رمضان سنة ١٣٣٩ ، ولكن الاشتراكيين لم يبرّوا بوعدهم واتضح أنها كانت خيانة منهم . وفي إطلاق الأسرى تسرّع ممن بيدهم الأمر حيث إنهم لم يستوثقوا من الإشتراكيين بما يكفل هذه المساعدة .

وفد المعارضة :

وقد تمكن الطليان من التأثير على بعض الموظفين ، فألّفوا منهم وفداً ليعارض الوفد الذي أرسلته الحكومة الوطنية إلى روما ليطالب باستقلال البلاد وتنفيذ مقررات مؤتمر غريان . وكان هذا الوفد مؤلفاً من حسن باشا القرمانلي . ومصطفى بن قدارة . ومحمود عزيز . وحميدة الزمرلي . وعلي بن شعبان . وعامر المعكف . ومحمد العاشق . والشيخ أبي الإسعاد العالم . ولاواجّي (لبناني) مترجم .

وكنت ذكرت في الطبعة الاولى من ضمن أعضاء الوفد (موسى قرادة) وقد اتضح لي أنه لم يكن معهم . وذهبوا به إلى روما في أوائل سنة ١٩٢١ ، وبكل جرأة أخذوا يناوئون وفد مؤتمر غريان ، ويصرّحون بأنهم لا يوافقون على مطالبه ، ولا يقرّون قرارات المؤتمر . ومضى وفد مؤتمر غريان في مطالبته بحرية الوطن واستقلاله ، ويقول إن الأمة لا يصلح شأنها إلا بتنفيذ قرارات مؤتمر غريان ، ولا يمكن الاتفاق إلا على أساسها احتراماً لإرادة الأمة الممثلة في

مؤتمرها . ووفد المعارضة يرفض كل هذا ويعارض في تنفيذه .

وكان من حجة وفد الأمة أن وفد المعارضة لا يمثل الأمة لأن أعضاءه موظفون لدى الحكومة ، وقد استأجرتهم بهذه الوظائف ، فهم ينطقون بلسانها ويعبّرون عن آرائها .

وبقي وفد مؤتمر غريان في روما نحو تسعة أشهر ، وعبثاً حاول التفاهم مع الطليان، ولما أعيته الحيل من جميع الطرق في فتح المفاوضات رجع إلى طرابلس وتخلف خالد بك القرقني في إيطاليا ، ثم ذهب إلى فرنسا ، ورجع إلى طرابلس على طريق البر من جهة تونس ، والتحق بالهيئة أثناء مفاوضات فندق الشريف سنة ١٩٢٢ .

وقابل الطرابلسيون هذا الإعراض بالسخط الشديد ، والإصرار على تنفيذ قرارات مؤتمر غريان مهما كانت التضحية .

وتحرّج الموقف بعد رجوع الوفد ، وأظهر الطليان نشاطاً عسكرياً وشدة مقاومة للروح الوطنية . واعتقلوا أُناساً ممن ينتمون إلى حزب الإصلاح الوطني.

وقد حصلت في طرابلس سنة ١٩٢٠ أحداث جسام ختمت بموت رمضان السويحلي .

وعقب هذه الأحداث ظهر نشاط عربي سياسي شامل لتهدئة الفتنة التي كادت تحصل بموت رمضان ، ثم السعي لعقد مؤتمر غريان الذي اجتمع فيه الشمل واتحدت الكلمة ، ثم انعقاده في غريان في نوفمبر سنة ١٩٢٠ ، وتم فيه انتخاب حكومة وطنية (هيئة الاصلاح المركزية) بناء على قرار مؤتمر غريان، ثم إرسال وفد إلى روما للمطالبة بتنفيذ قرارات مؤتمر غريان .

كل هذا كان يجري في طرابلس بمنتهى السرعة ، والحرص على التنفيذ .

أما إدريس السنوسي فكان في برقة بمعزل عن هذا كله ، ويعمل في حدود

سياسة انفصالية عن طرابلس رسمت له بمقتضى معاهدات حصلت بينه وبين الطليان ، والتي بسببها منحته إيطاليا لقب أمير على دواخل برقة ، أوجلة ، وجالو ، والكفرة ، والجغبوب ، وجخرة.

وفي الوقت الذي كانت فيه طرابلس منهمكة في أحداثها السياسية والحربية ، وهو يقف منها موقف المتفرج ـ دعاه ملك إيطاليا لزيارة روما [1] ، وسافر في أواخر نوفمبر سنة ١٩٢٠ . وبقي فيها ضيفاً على ملك إيطاليا إلى ما بعد ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٠ . ورجع إلى برقة في النصف التالي منه .

مطاردة أعيان البلاعزة :

كان الشيخ محمد هويسة والشيخ محمد صُهيب من أعيان البلاعزة ومن أنصار رمضان بك السويحلي ، وبقيا ـ بعد موته ـ يعملان بهذه الروح لمناهضة الطليان. بكل ما يمكنهما وقد علم الطليان منهما هذه الروح العدائية لهم ، فأخذوا ينتهزون لهما الفرص للقبض عليهما . ورأى القبطان « كسطريوطي » رئيس البوليس الإيطالي بالزاوية في تحرج الموقف بعد رجوع الوفد فرصة سانحة للقبض عليهما ، فجهز جيشاً كبيراً في الزاوية وخرج به في رمضان سنة ١٣٣٩ للقبض عليهما وعلى غيرهما من أعيان البلاعزة ، وكانوا إذ ذاك يقيمون في البادية فذهب قسم من الجيش إلى بئر هويسة [2] للقبض على الشيخ محمد هويسة ، وذهب القسم الآخر إلى جديد كرداسة [3] للقبض على محمد صُهيب وعليّ البشت . ولم تتمكن القوة التي ذهبت إلى محمد هويسة من القبض عليه . أما القوة التي ذهبت للقبض على محمد صُهيب وعلي البشت فإنها لما التقت بعليّ البشت دافع عن نفسه ، وتسامع الناس بها فأطلقوا عليها الرصاص ، فقتل منها نحو اثني عشر جندياً وبعض الخيول ولم تتمكن من القبض عليه ، وقبضت على محمد صُهيب بدون

---

(١) ما يتعلق بزيارة إدريس إلى روما نقلته من كتاب الطيب الأشهب في تاريخ حياة إدريس .

(٢ و٣) موضعان ببادية الزاوية على مسافة نحو ٣٠ كيلومتراً إلى الجنوب .

مقاومة ، فأركبوه فرسه ، وأخذ أحد الجنود بلجامها يقودها به ، فانتهز منه غفلته وخلع لجامها وركضها فانطلقت به كالريح ، فأطلقوا عليه الرصاص ، وجرت خيلهم وراءه فنجا منهم ، وذهبت الحملة في طريقها إلى بئر الغنم وهناك التقت بجماعة من المجاهدين فيهم الطاهر شلابي ، وحصلت بينهم مناوشات جرح فيها الطاهر شلابي ، ثم رجعت بدون أن تكسب شيئاً .

وعلى ضوء هذه الحوادث أيقنت هيئة الإصلاح المركزية أن الحال ستنتهي إلى الحرب لا محالة فأخذت تعد للأمر عدّته .

الامارة :

كان مما قرّره مؤتمر غريان إقامة حكومة بزعامة رجل مسلم . ولما قرّر هذه الزعامة لم يكن متجهاً إلى تحقيقها في شخص بعينه ، وإنما ترك تعيين هـذا الزعيم إلى وقت حاجة الأمة إليه فتختاره من بين تلك الطبقة الممتازة التي تقدم للأمة من جلائل الأعمال ما تستحق به التقدم ، فتفرضه أعماله على الأمة فرضاً ، وتوحي به إلى ضمائر أبنائها فيختارونه لدفع الكوارث التي تحيط بالوطن العزيز . وما كان يدور بخلد أعضاء المؤتمر أن الزعيم يكون من غير هذا النوع . ولم يقصد المؤتمر شخصاً بعينه . وقد كذب من قال ان مؤتمر غريان انتخب إدريس السنوسي أميراً على برقة وطرابلس ، أو ذكر إسمه في قراراته .

بين طرابلس وبرقة :

منذ أن احتلّ السيد إدريس سرت سنة ١٩١٦ وطرد منها موظف مصراتة حصل فتور بين البرقاويين والطرابلسيين ، وامتدّ هذا الفتور نحو خمس سنوات وترتب عليه من التعديات على الأموال والأشخاص ما لا يصح أن يكون بين المواطنين .

وقد رأى بعض الخيّرين من أعيان برقة وطرابلس أن يسعوا بالخير لقطع

هذه المنازعات . وحصلت مكاتبات بينهم وبين حكومة مصراتة أعقبها حضور الشيخ مفتاح الفيل والشيخ عبد الله بوقشاطة إلى سرت لرسم خطة للقضاء على هذا الخلاف . واتفقوا مع بعض الأعيان وممثلي حكومة سرت على الاجتماع في جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ الموافق يناير سنة ١٩٢٢ في سرت .

ووصلت هذه الأخبار إلى الطليان فقامت قيامتهم وصمموا على استئناف الحرب مهما كانت النتيجة ، فأعدّوا قوة هائلة في البر والبحر . وكانوا يعلمون أن مصراتة هي منبع الحركة الوطنية فبيّتوا الهجوم عليها وصاروا ينتظرون الوقت المناسب .

مؤتمر سرت :

جاء الوقت المحدد لاجتماع سرت ، وسافر الأعضاء للاجتماع ، وكان يمثل طرابلس في هذا الاجتماع أحمد بك السويحلي ، وعبد الرحمن بك عزام ، وعمر بودبوس ، ومحمد نوري السعداوي ، والشتيوي بن سالم ، والصويعي الخيتوني ، والحاج صالح بن سلطان . ويمثل برقة : الشيخ صالح الأطيوش ، والشيخ نصر الأعمى ، والشيخ خالد القيصة ، والشيخ صالح السنوسي بن عبد الهادي البرّاني. واجتمع الوفدان في عدة جلسات استعرضوا فيها الحال القائمة في البلدين وبحثوا أسباب الخلاف وما يصلح علاجاً لها .

وفي الوقت الذي قرّر فيه مؤتمر غريان إقامة حكومة بزعامة رجل مسلم كان الطليان اعترفوا بإمارة السيد إدريس السنوسي على دواخل برقة [١] . فلما عرض مؤتمر سرت لتوحيد كلمة طرابلس وبرقة ذكرت الإمارة كسبب من أسباب هذا التوحيد فكان مما لفت النظر أن وجود السيد إدريس أميراً — على الرغم من أنه لم يؤخذ رأي الطرابلسيين في هذه الإمارة — قد يستأنس به

(١) دواخل برقة : جالو ، وأوجلة ، والكفرة ، والجغبوب .

لتحقيق هذه الرغبة ، وتتوحد الكلمة بتنصيبه أميراً على طرابلس وبرقة . ولم تكن هذه الملحوظة محل اتفاق أو بحث جدي ، وإنما كانت مما يتطرق إليه الحديث ، خصوصاً وأن مؤتمر غريان ترك الباب مفتوحاً لتحقيق الزعامة في أي شخص إذا ترتّب عليها توحيد الكلمة . وهذا نصّ القرار الذي اتفق عليه مؤتمر سرت :

« الحمد لله المبدىء المعيد ،الفعّال لما يريد . ألـّف بين قلوب المسلمين وجعلهم خير أمة للعالمين . والصلاة والسلام على رسول الهدى والرحمة الذي جاء يدعونا إلى العزّة والإباء ، ويعلمنا كيف نقاتل الأعداء .

وبعد؛ فقد اجتمعنا نحن الموقـّعين على هذه المعاهدة المفوّضين من قبل طرابلس وبرقة ، وقررنا بعد مداولة الفكر المواد الآتية المتضمنة اتفاق القطر الطرابلسي البرقاوي على الاتحاد والتعاون في السرّاء والضرّاء :

١ — يجب أن نوحد كلمتنا ضد عدونا الغاصب لبلادنا وضد المفسدين .

٢ — يجب أن يكون عدونا واحداً وصديقنا واحداً .

٣ — إن كافة ما وقع بين الطرفين من التجاوز لا يطالب به أحد الآخر إلى أن تستقر الحالة في الوطن ، وتتعيَّن وضعية البلاد العمومية . ومع ذلك يجب أن يسعى الطرفان في المسامحة بين العربان. ومن يتعدّى بعد الآن فعلى الحكومة التابع لها أن تعاقبه بما يستحق .

٤ — كل من يخالف الجماعة ويدسّ الدسائس الأجنبية ،على الحكومة المنسوب إليها إعدامه ومصادرة أمواله حسب الشريعة الإسلامية .

٥ — يرى الطرفان أن مصلحة الوطن وضرورة الدفاع ضد العدو المشترك تقضي بتوحيد الزعامة في البلاد ، ولذلك يجعلان غايتهما انتخاب أمير مسلم تكون له السلطة الدينية والمدنية داخل دستور ترضاه الأمة .

٦ — يتخذ الطرفان الوسائل اللازمة لتحقيق هذه الغاية المذكورة في المادة الخامسة وأن تكون تولية الامير بإرادة الأمة .

٧ — متى تحققت الغـــاية المذكورة في المـادة الخامسة يجب انتخاب مجلس تأسيسي من الفريقين لوضع القانون الأساسي والنظم اللازمة لإدارة البلاد. وقبل ذلك ، وتمهيداً لهـــذه الاعمال ، يجب على الفريقين أن يرسل كل منهما مندوباً للبلدين لأجل أن يشتركا في سياسة البلاد والتدابير المقتضاة للدفاع عن الوطن .

٨ — يتعهّد الطرفان بألا يعترفوا للعدو بسلطة ، وأن يمنعوه من بسط نفوذه خارج الاماكن المتحصّن فيها الآن . وفي حالة وقوع حرب يتضافر الفريقـان على حرب العدو ، وألا يعقدوا صلحاً أو هدنة إلا بموافقة الفريقين .

٩ — إذا خرج العدوّ من حصونه مهاجماً جهة من الجهات وجب على الجهـة الأخرى أن تمد المهاجَم بالمهمات الحربية والمـال والرجال ، وأن تنذر العدو بالكف عن التجاوز ، وإذا لم ينكفّ تهاجمه هي بدورها .

١٠ — تجتمع هيئة منتخبة من أهالي طرابلس وبرقة مرتين في كل سنة في شهر المحرم ورجب للنظر في مصالح البلاد .

١١ — يشترط أن توافق على هذه المعاهدة كل من حكومة برقة والهيئـــة المركزية في جهة طرابلس .

١٢ — مهمة الهيئة المذكورة تأييد العلائق الودية بين الطرفين وتأييد هذه الإتفاقية .

قصر سرت في يوم السبت ٢٢ من جمادى
الأولى سنة ١٣٤٠ (٢١ يناير سنة ١٩٢٢) .

ووصلت أخبار هذا المؤتمر إلى الطليان منذ التفكير فيه فخافوا أن يترتب على

اتفاق طرابلس وبرقة ما لا تحمد عقباه، ففكّر «وولبي» في إحتلال مصراتة قبل أن يصل العرب إلى نتيجة في مؤتمر سرت . وكانت أفكار العرب مشغولة بمؤتمر سرت ، وأكثر الجنود يقيمون في عبد الرؤوف لتغيير الهواء في فصل الربيع ، ولم يبق في قصر حمد إلا عسس قليـــل ، فانتهزها الطليان فرصة ونزلوا في قصر حمد .



احتلال قصر حمد

٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ (٢٦ يناير سنة ١٩٢٢)

أسبابــه :

إن تغلب الزنتان على البربر أوجد في البلد شعورين متضادَّين : شعور الألم والحزن لما أورثته هذه الحرب الطاحنة من العداوة والبغضاء بين أبناء الوطن الواحد قد لا تقوى الأيام على محو آثارها السيئة ، ولما أحدثته هذه الحرب من النقص في الأموال والأنفس من الفريقين المتحاربين ، وكلهم أبناء الوطن وعدته يوم الدفاع عنه ... وشعور الفرح بالنصر والظهور من قصار النظر وصغار العقول الذين لا يقرأون العواقب ، ولا يعلمون ما يترتب على المقدمات من نتائج.

وقد خلق الطليان من بين هذين الشعورين فرصة لبث الفتنة ، فنشطت دعايتهم لاستمالة بعض المتأثرة نفوسهم بهذا الحادث ، فصغت بعض القلوب إلى دعاتهم . وجرى الطليان في هذه الحوادث شوطاً كان له أسوأ الأثر في تأصيل العداوة وحب الانتقام . وكان ضعف الحكومة الإيطالية ، واختلاف الرأي فيها وعدم الاستقرار على خطة في سياستها نحو طرابلس. ومعارضة الاشتراكيين في روما مشاريع الاستعمار وبذل دماء أبناء روما وأموالها في هذا السبيل مما

يحمل حكومة الطليان دائماً على محاولة الكسب من طريق بثّ الفتنة وتفريق الكلمة . على أن بث الفتنة هو أساس السياسة الاستعمارية دائماً . ولا أدلّ على هذا الضعف من أنها بقيت أكثر من اثنتي عشرة سنة لم يتجاوز احتلالها السواحل وحماية الأسطول ، يضاف إلى هذا ما أحدثته وفاة رمضان بك السويحلي في صفوف الطرابلسيين من ضعف وما ترتّب عليها من خلاف في الرأي ، وكانت مصراتة هي منبع القوة ووجهة الأمل في الانتصار على الطليان ، لذلك اتجهت أفكار الطليان إلى احتلالها . وصادف ـ في هذه الظروف الحرجة ـ أن عيّن وولبي حاكماً على طرابلس في يوليه سنة ١٩٢١ وهو من أنصار الاستعمار . وأول ما فكّر فيه احتلال مصراتة . وقد خاطب حكومة روما في سبتمبر سنة ١٩٢١ بما يعتزمه وطلب منها إمداده بقوة لتنفيذ رغبته فلم توافقه على ذلك وقد مرّت شهور أكتوبر ونوفمبر وديسمبر سنة ١٩٢١ في مراجعة الحكومة ولكنها لم توافقه . وأخيراً اعتزم تنفيذ فكرته بالقوة الموجودة في طرابلس . وقد جاء فيما كتبه : « قررنا في السر الاستيلاء على قصر حمد ، وعزمت على القيام بالأعمال الحربية في يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٢٢ ... ويرجع الفضل في نجاح الحملة إلى سرّية التجهيز وشدة التكتم في المفاجأة حتى أن العرب لم يشعروا بنزول جيشنا إلا بعد ثلاث ساعات من نزوله حتى وجدوا أنفسهم أمام مدافعنا ورشاشاتنا » .

وكانت الحملة مكوّنة من : ١٥٠٠ بندقية ، وأربعة مدافع جبلية ، و ٣٤ مدفعاً رشاشاً ، وكان الأسطول مؤلفاً من ١٨ قطعة . وفي فجر يوم الخميس ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٤٠ الموافق ١٦ من يناير سنة ١٩٢٢ رست قطع الأسطول على شاطىء مصراتة . وفي الساعة السادسة نزل بعض الجنود الإيطاليين ومعهم مدفع رشاش فاستولوا على المحل الذي كان يقيم به العسس بعد أن أسروه ، ورفعوا الراية الإيطالية على الرصيف ، وأرسل وولبي كتاباً مع أحد العسس

إلى حكومة المواطين يخبرها فيه بأن الحكومة استولت على قصر حمد وقصدها البقاء فيه والتفاهم مع العرب .

سعدون يتولى القيادة

وجاء الصريخ إلى المواطين يعلن نزول الطليان في قصر حمد ، فتسابق الجند والمجاهدون الأول فالأول إلى قصر حمد ، وفي مقدمتهم سعدون ، وما حانت الساعة العاشرة حتى اشتدّ إطلاق الرصاص بين الطرفين وحمي وطيس المعركة . وتوجّه الأسطول إلى « بوشعيفة » وأنزل فيه قسماً من القوة تحت حماية مدافعه . واقتحم العرب المعركة في جرأة كانوا فيها عرضة لنيران العدو ،وتدافع الفريقان مدًّا وجزراً حتى اضطر الطليان إلى التراجع . وكانت ملحمة هائلة استشهد فيها في اليوم الأول نحو ثمانين شهيداً من العرب. وفي يوم ٢٩ منه جاء الطليان بأروطة من المشاة ووحدة من المدفعية الثقيلة لتخفيف ضغط المجاهدين على الجناح الأيسر. وكان سعدون هو قطب رحى الحرب في مصراتة بعد احتلال قصر حمد .

وفي يوم ٤ من فبراير سنة ١٩٢٢ هجمت فصيلة من الأحباش على بيوت دكيران ، وكان فيها قسم من المجاهدين ، فتواثبوا لهم وتطاعنوا بالخناجر ، واستشهد أكثر من في البيوت من المجاهدين وتمكنوا من إجلاء العدو عن البيوت وأرجعوه إلى الساحل ، وقطعوا المواصلات بينه وبين بوشعيفة ، وحاول الأسطول أن يبعد المجاهدين ولكنه لم يفلح رغم شدة إطلاق المدافع ، وأصبح مركز الطليان في « بوشعيفة » مهدداً .

وقد جمعوا قوة كبيرة للقيام بهجوم كبير لتثبيت مراكزهم وتأمين مواصلاتهم وفي ١١ فبراير « يوم السبت » ١٣ من جمادى الآخرة سنة ١٩٤٠ اشتد إطلاق المدافع من الأسطول وخرجت جيوش الطليان تغطي وجه الأرض جنوبي طريق المواطين ملتفة إلى اليمين ومعها ثلاث سيارات مصفحة ، فاستمات المجاهدون في

الدفاع ، وأسروا إحدى المصفحات وقتلوا من فيها ، وغنموا منها ثلاثة مدافع رشاشة ونسفوها بالديناميت . وكانت معركة هائلة استمرت خمس ساعات ، واستشهد فيها نحو ٢٦٠ شهيداً ، وتعرف في أيام المعارك الطرابلسية « بيوم السبت » واستمرّ القتال ١٧ يوماً — من يوم ٢٦ يناير إلى يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٣ — وبعد هذه المعركة أمكن الطليان أن يتترّسوا بالمتاريس ، وأن يثبتوا أقدامهم في قصر حمد ، ووقف المجاهدون أمامهم يمنعوهم من التقدم إلى المواطين. واستمر هذا الموقف إلى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٢٢ حينما تقدم الطليان من الناحية الغربية واحتلوا المواطين ، وسنذكر ذلك قريباً .

وهذا أول هجوم قام به الطليان على الطرابلسيين بعد صلح بنيادم ، وبهذا الهجوم قطع الطليان ذلك الركود الذي خيّم عليهم حوالي سنتين ونصف ، وأصبحوا مهاجمين بعد أن كانوا واقفين .

وقد وجد وولبي معارضة شديدة من الاشتراكيين في استئناف الهجوم على مصراتة لأنهم كانوا لا يريدون الاستيلاء على طرابلس من طريق القوة ، ويرون من العبث بذل الأرواح والأموال في سبيل الاستيلاء عليها ، وقوبلت مساعيه في روما بمعارضة شديدة ، رغم أنها أثرت في روح العرب المعنوية تأثيراً شديداً لأنها كانت ضد وعود الطليان لهم ، ونقضاً لشروط صلح بنيادم واعتداء على القانون الاساسي ، ولكنه نجح في مهمته ، وأمكنه أن يجعل الحكومة أمام الأمر الواقع ، واضطرها إلى الدخول في الحرب .

ويقول الجنرال جرازياني : « وقد رأى الإيطاليون في احتلال مصراتة إرجاعاً لهيبة حكومتهم . . . وأحدث في العرب نشاطاً حملهم على إعداد أنفسهم للمستقبل » .

وكان احتلال مصراتة بعد ان انتهى مؤتمر سرت من مهمته بخمسة أيام . وبينما كان الوفد في طريقه إلى مصراتة مرّوا بثمد حسان فأخبرهم عامل التلفون به ان الطليان احتلوا قصر حمد ، فأرسل احمد بك السويحلي — وكان

حاكم مصراتة إذ ذاك – البريد إلى سرت يأمر القائمقام – الحاج علي المنقوش – بأن يرسل في أثر الوفد البرقاوي يخبرهم بما حصل ، ويطلب إليهم تنفيذ المادة التاسعة من قرار المؤتمر ، فنفـّذ الحاج علي المنقوش الأمر وأرسل في إثرهم وأخبرهم بما حصل ، وواصل الوفد سيره إلى مصراتة فوجدها تشتعل ناراً . أما الوفد البرقاوي فلم ينفـّذ شيئاً من قرارات المؤتمر ، وخاض الطرابلسيون الحرب بأنفسهم .

وانتشر خبر نزول الطليان في قصر حمد في سرعة مدهشة ، فثارت زليطن ومسلاتة وترهونة . وامتدت الثورة إلى الزاوية في نحو أسبوع. وفي يوم ٩ فبراير سنة ١٩٢٢ حوصرت العزيزية وكان فيها نحو عشرة آلاف جندي ، وقطعت سكة الحديد بينها وبين طرابلس . وهي إلى الجنوب الغربي من مدينة طرابلس على مسافة ٤٥ ك م . وفي يوم ١٩ مارس قطعت سكة حديد زوارة واستولى العرب على الزاوية برياسة فرحات بك ، وكان فيها نحو ألف عسكري إيطالي ، ولكنهم تمكـّنوا من الهرب تحت جنح الليل وتحصنوا في الرأس الأحمر [١].وفي أواخر مارس لم يكن بيد الطليان إلا طرابلس والخمس وزوارة ، وقصر حمد ، ومواصلاتها بطريق البحر .

وكانت جماعات من المجاهدين ترابط في عدة أمكنة تختلف قلة وكثرة بحسب أهمية المكان. فكان يوجد في جنوبي زوارة ٧٠٠ مسلح، منهم ١٠٠ فارس و١٧٠٠ مسلح حوالي سواني بنيادم وزنزور، منهم ٣٠٠ فارس، و١٢٠٠ مسلح في منطقة بنغشير منهم ١٥٠ فارساً ، وألف مسلح حوالي العزيزية ، منهم ٢٥٠ فارساً و٤٠٠ مسلح شرقي المجينين بين مشاة وخيالة، و٣٠٠ مسلح في ترّينة منهم مائة فارس . فيكون مجموع جيش المجاهدين حوالي ٤٣٠٠ مسلح في خط يمتد من زوارة إلى ترهونة حوالي ٢٠٠ ك م .

---

(١) ربوة عالية شرقي مدينة الزاوية بنحو كيلو متر .

والجيش الإيطالي المهاجم يتألف مما يأتي : أربع أرط من الطليان ، و٤أرط من المرتزقة وأرطتان من الأحباش ، و ٤ أرط من الأحباش وغيرهم واسكدرونان من الخيالة و ٣ مجموعات سبابيس ، و ٣ بطاريات مدافع جبلية ، ومجموعة من المهرست [1] (راكبي الإبل) . وثمان مصفحات بمدافع رشاشة . فيكون مجموع جيش الطليان حوالي ١٥ ألفاً و ٥٠٠ جندي وهذا عند بداية الحرب ، ولكنه ما كادت الهدنة تنتهي بالفشل حتى جمعوا من الجيوش ما يفوق الثلاثين ألفاً .

مقارنــــة :

وإذا قارنـّا بين الجيشين وجدنا الفرق بعيداً بينهما ، يضاف إلى الفرق بينهما في كثرة العدد والفرق بينهما في كثرة الأسلحة وأنواعها التي يمتاز بها الجيش الإيطالي : من البنادق والمدافع الرشاشة ، والمدافع السيارة المحمولة على البغال واللوريات ، والمدافع الجبلية ، والطائرات وكثرة المخازن المملوءة بما يلزم لهذه الأسلحة . في حين أن العرب لا يوجد لديهم إلا البنادق وقليل من المدافع الرشاشة تعد على الأصابع .

وكانت جيوش الطليان هذه قليلة جداً بالنسبة لجيوشهم في سنة ١٩١٩ إذ كانت تبلغ ثمانين ألف جندي بما معها من أنواع الاسلحة الحديثة ، ومع ذلك فقد تمكنوا من التغلب على المجاهدين في سنة ١٩٢٢ ، ولم يتمكنوا من التغلب عليهم في سنة ١٩١٩ حيث أُرغموا على الصلح وعلى الاعتراف بالقانون الاساسي . وهذا يرجع إلى ما طرأ على الطرابلسيين من اختلاف في الرأي وتفرّق في الكلمة لسبب : أولاً : خلو ميدان الجهاد من رمضان بك السويحلي لأنه كان قوة هائلة في رأيه ، وفي حزمه وإدارته . ثانياً : ما أحدثه عبد النبي بن خير من انشقاق عن الجماعة ثم انحيازه إلى الطليان . ثالثاً . ا أحدثته الحرب بين الزنتان والبربر من نقص

---

(١) عدد أفراد الارطة نحو ألف ، وعدد أفراد الاسكدرون نحو ٣٠٠ . المجموعة يختلف عددها قلة وكثرة . ويلزم للبطارية الجبلية نحو ٢٠٠ جندي . والسبابيس : الجندرمة .

في الرجال وتفرق في الكلمة . رابعاً انفصال : البربر عن العرب وهم كثرة لا يستهان بها .

كل هذا أحدث نقصاً في صفوف العرب وضعفاً من الناحيتين المادية والمعنوية ، مما سهل على الطليان التغلب عليهم بقوة أقل بكثير من قوة سنة ١٩١٩ .

خدعـــة :

وقد رأى الطليان أن يخدعوا العرب من طريق الهدنة ليكسبوا الوقت الكافي لإتمام استعدادهم ، لأن وولبي كان مصرّاً على أحد أمرين : إما تسليم العرب بلا قيد ولا شرط ، وإما الحرب . وتنفيذاً لهذه الخدعة أرسلوا الأستاذ عثمان القيزاني ، والأستاذ مارتينو إلى مصراتة للدخول في المفاوضات . وقد أخبرت الطائرات بقدومهما فأخليت لهم الطريق من قصر حمد إلى المواطنين ، واتفقوا مع حكومة مصراتة على وقف الحرب مدة شهر ، وأن المفاوضات ستكون في فندق الشريف ، ورجع مارتينو إلى الباخرة حيث أقلّته إلى طرابلس وأبلغ حكومته ذلك ، وبقي الاستاذ القيزاني مع المجاهدين ، وابتدأت الهدنة في أوائل رجب سنة ١٣٤٠ (٣ مارس ١٩٢٢) .

مفاوضات فندق الشريف :

ابتدأت المفاوضات في فندق الشريف في مارس سنة ١٩٢٢ ، وقد حضرها أحمد بك السويحلي ، وأحمد بك المريّض ، وفرحات بك الزاوي ، وعزام بك ، والصويعي الخيتوني ، والصادق بن الحاج ، وحسين افندي ابن جابر ، ومختار بك كعبار ، وعمر دبوس ، والاستاذ عثمان القيزاني ، وخالد بك القرقني ، والحاج محمد بن عمر ، وعبد السلام الجدايمي ، والحاج سالم البحباح وغيرهم من الاعيان ، وكانوا يتداولون الرأي فيما يعرضه الطليان من حلول ، وفيما يعرضونه عليهم منها ، ويبلغها بعضهم إلى الهيئة الإيطالية المفاوضة . أما

الشيخ سوف فلم يكن من المفاوضين ولكنه كان يعدّ نفسه لما تسفر عنه المفاوضات .

وأناب الطليان عنهم في المفاوضات « بيَّلا » أحد أعيان الطليان وتجارهم ووكيل الوالي ومعها ضابطان . وابتدأت المفاوضات ، واستعرضت المسألة الطرابلسية بجذافيرها ، وما أظهره الطليان من مراوغة في تنفيذ شروط صلح بنيادم ، والتدخل في شؤون العرب فيما كفله لهم القانون الأساسي . وقد تظاهر الطليان باستعدادهم لحسن النية في المستقبل ، وطلبوا فك الحصار عن الجيش المحاصر في العزيزية فلم يوافق الطرابلسيون على ذلك وأجّلوا هذا الطلب إلى آخر المفاوضات. وكان مما عرضه الطليان عدم التعرّض لشؤون برقة وحصر المفاوضات فيما يتعلق بطرابلس،ولكن هيئة الإصلاح لم توافق على ذلك، وأبدت رغبتها في حل المشكلة بتوحيد الزعامة بين برقة وطرابلس . وقد مهّدت لهذه الرغبة في مؤتمر سرت بين الطرابلسيين والبرقاويين ، ولم يقبل الطليان هذا الحل ، وبعد محاولات رضوا بزعامة تمثل طرابلس وبرقة إدارة مستقلة عن الأخرى .

وكان الطليان ـ أثناء المفاوصات ـ يعدّون أنفسهم للحرب فيما إذا فشلت المفاضات، وقد أدرك الطرابلسيون منهم ذلك فكانوا حريصين على تقوية جانبهم بما يمكن ، وكانت المواثيق التي أخذوها على أهل برقة في مؤتمر سرت مشجعاً لهم على التشدد في المفاوضات مع الطليان ثقة بوفائهم وإخلاصهم لما عاهدوا عليه . وقد مرّ على اتفاق سرت أكثر من شهرين ولم يظهر له أي أثر من ناحية برقة . وكان يجب على الطرابلسيين أن يحسبوا حساب تأثير إدريس على أهل برقة في تأخير إرسال النجدة إلى طرابلس كما حصل بالفعل .

وتمسَّك الطرابلسيون بوجهة نظرهم في وحدة برقة وطرابلس،وحاولوا إقناع الطليان بذلك ، وأن يخففوا من وطأتها على عقولهم ، وأفهموهم أن توحيد البلدين بالنسبة للمصالح الإيطالية لا يفترق في شيء عن انفراد كل واحدة منهما . ولكن

الطليان أصرّوا على عدم القبول بتاتاً . وقابل العرب هذا الإصرار بمثله وقرروا تمسكهم بطلب توحيد الزعامة . وتوترت العلائق بين الفريقين ، وفي أثناء هذا التوتر سافر الوالي وولبي إلى روما لمشاورة حكومتها ، وجاء يحمل تعليمات منها بأنه لا يمكن الاتفاق مع العرب على أي شيء إلا إذا استولت الجيوش الإيطالية على جميع البلاد ورجعت إلى مراكزها في فزان ، وعند ذلك يتقدم العرب إلى الحكومة بمطالبهم لتنظر فيها ، وعلى أثر إبلاغ هذه التعليمات للعرب أوقفت المفاوضات .

ولما اتضح للعرب أن الطليان اعتزموا الحرب ، وأنهم لا ينوون استئناف المفاوضات كتبوا تقريراً بوجهة نظرهم في أسباب هذه المفاوضات وما كان يقصد منها وأرسلوه إلى وولبي حاكم طرابلس فكان الصخرة التي تكسر عليها كل أمل في تجنب الحرب . وهذا نص التقرير :

« باندفاع أسلافكم مع تيار الفتنة والتفريق حدث في البلاد اضطرابات وقفت الحكومة الإيطالية أمامها موقف المتفرج ، فاضطرّت الأمة إلى عقد مؤتمر في غريان وأبلغت مقرراته الصائبة إلى الحكومة . وأرسلت وفدها للمطالبة بما أجمع عليه المؤتمر فلم يكن حظه إلا الإعراض والاستخفاف بمهمته مع استمرارها في خطة المراوغة والتفريق .

ولما حال الحول على وفدنا وهو يستعطف المصادر الرسمية وغير الرسمية والحكومة مصرّة على تلك السياسة المقوتة ، وتحقق أهل القطرين طرابلس وبرقة ، أن حياتها محفوفة بالخطر في الحال والاستقبال ، وأن ما دهم أحد القطرين لا بد أن يحيق بالآخر لما بينهما من العلائق المادية والمعنوية لا سيما وأن إدارتها إلى عهد الاحتلال واحدة عندئذ تبادل عقلاء القطرين المراسلات والآراء فيما يضمن الراحة ويفسح مجال الإخاء ، ويسهل سير الأمتين العربية والإيطالية في سبيل الحالة الاقتصادية مع المحافظة على حق إيطاليا السياسي .

فقرر الفريقان بالإجماع في سرت اتفاقية من جملة نصوصها المطالبة بتوحيد إدارة القطرين ، وهو الحل النهائي الذي لا يبقي ريباً لهذه القضية المعضلة التي لا تزيدها سياسة المراوغة والتفريق وطول الامد الا تحكيماً في عقد الخلاف ، فتصبح من الأمراض المزمنة ويعسر حلها ، فضلاً عما تصاب به الأمّتان من الخسائر وما يفوتهما من المنافع كما لا يخفى .

أما نحن أهل القطرين فإن الأدوار المحزنة والتجارب المؤلمة أرشدتنا الى حل هذه المشكلة حلاً لاحظنا فيه المنافع الإيطالية : سياسية كانت أو اقتصادية ، وهو أن تؤسس حكومة نيابية للقطرين يرأسها رجل مسلم تنتخبه الأمة وتكون له السلطات الإدارية جميعها مع السلطة الدينية . ولا نظن أن الحكومة لا تستحسن هذا الحل المفيد إن تجرّدت عن ملاحظة الاشكال والإعتبارات ، ووجهت نظرها الى الحقائق والجوهريات .

كنا قرّرنا مهادنة للتفاهم والمفاوضة علمنا خلالها أن سفركم الى روما بقصد التفاهم مع حكومة جلالة الملك والحصول على إذن وصلاحية واسعة تخول لكم المفاوضة للحصول على ما يرفع الخلاف الذي لا تتحمل البلاد دوامه . ورعاية لأحكام اتفاق سرت المذكور فإنا في انتظار مندوبي برقة الذين قرب وصولهم لإشعار سمو الامير السيد محمد ادريس ، ومتى وصلوا يتعين الزمان والمكان للمذاكرة التي لا نشك أنها ستبنى على أساس الإخلاص وحسن النية . والأمل وطيد في أن دولتكم ستضمُّون الى تاريخ حياتكم السياسية فخراً آخر في حل المشكلات » .

ولما وصل هذا القرار إلى الوالي الإيطالي في طرابلس رفض كل ما جاء فيه ، وانقطعت المفاوضات يوم ١٠ إبريل سنة ١٩٢٢ واستعد كل من الطرفين لما يتمخض عنه المستقبل . وكان من أقوى الأسباب التي حملت وولبي على التشدد مع العرب ورفض مطالبهم أن الفاشستية أخذت تتغلغل في إيطاليا وقوي حزبها ، وأصبحت وشيكة أن تستولي على مقدرات إيطاليا .

ولمناسبة ذكر الفاشستية نذكر كلمة عن مبادئها نقلاً عن الأمير شكيب من تعليقه على (حاضر العالم الإسلامي) .

مبادىء الفاشست :

من مبادىء الفاشست السامية عندهم الوصول إلى أغراضهم بكل وسيلة، ولا يجدون في نفوسهم غضاضة إذا كانت أعمالهم مخالفة للانسانية أو للحقوق العامة متى كان فيها مصلحة لهم أو لوطنهم . ولا يخجلهم أن يعلنوا في صراحة بأنهم لا يعرفون الحرية ، ولا يقدّسون الحقوق العامة ، ولا يحترمون العهود متى كان ذلك ضرورياً لمصلحة إيطاليا. ويقول الامير شكيب في هذا المعنى: «لموسوليني خطب كثيرة و كتابات بتوقيعه تؤخذ منها هذه المقاصد بدون إشكال ، فلهذا لم تبق في إيطاليا لا حرية قول ، ولا حرية كتابة ، وكل شيء يصادم إرادة الفاشست فهو ممنوع » مهما كان مصدره .

ولا ينكر أحد أنهم من أنصار الكاثوليكية المخلصين ، ولكن لما أراد البابا أن يشكل جمعيات كاثوليكية عارضوه وقفلوا أبوابها خوفاً من أن توجد أحزاب تعارض الفاشستية ، وقد مزّقوا صورة البابا في الشوارع وداسوها بالنعال ، لا كراهة في الكثلكة والبابا ، ولكن تعصباً لمبدئهم ، وخوفاً من ظهور المناوىء لهم ولو كان البابا نفسه أو من ينتمي إلى البابا . وإذا كانت الفاشستية تظهر في ايطاليا بهذا المظهر فظهورها في طرابلس أقسى وأشدّ .

ومن المعروف عن الدول الأوربية أنها تحافظ في بلادها على مبدأ الإنصاف واحترام الحقوق الى ابعد حدّ ممكن ، وعلى نقيض هذا تعامل العرب والمسلمين في بلادهم . ويكاد الإنسان لا يستثني واحدة من الدول الاوربية من هذا المقياس. فهذه الجزائر ، وتونس ، وهذه طرابلس وفلسطين . بل وهذه مصر أيضاً فقد دهمتها هذه العاصفة الاوربية الهوجاء في عدة مناسبات ومنها دنشواي وحوادث قبلها وبعدها مما شاهدناه ولمسناه . فإذا ارتكب الإيطاليون ما ارتكبوه في

طرابلس في تلك القسوة القاسية فإنما هي شنشنة عرفناهـا من الأوروبيين ، وخلق من أخلاقهم درسناه عن كثب لا يماري فيه الا من لم يعرف نفسه .

وقد أرتنا الحرب الطرابلسية من أخلاق الاوروبيين ما كان العقل البشري لا يتصوّر وجوده في بني الإنسان. وقد أراد الله أن يكون ظهور هذا الجنون في الانتقام من بني الإنسان على يد موسوليني وقومه من أبناء رومة ليهيئهم لهـذه العاقبة السوأى التي ذاقوا فيها وبال أمرهم ، وقد أخذهم الله من الطريق الذي أخذوا به الناس وكانت عاقبة أمرهم خسراً .

حقيـقة :

كانت هيئة الإصلاح المركزية تعلم علم اليقين ما سيترتب على تمسكها بتوحيد الرياسة في برقة وطرابلس من تشدّد الطليان في معارضة هـذه الفكرة . وتعلم أيضاً أن سكان برقة وطرابلس حصل بينهم نزاع قبـل مؤتمر سرت أدى الى خصومة قتل فيها أفراد من الطرفين ، ولم يكن نسيان الثـأر من السهل على القبائل البدوية .

وتعلم الهيئة أن سكان برقة سنوسيون قبل كل شيء ، فكل ما لا تقرّه السنوسية لا ينفذه أهل برقة مهما أعطوك من مواثيق ، وكلام السنوسية عندهم في محـل التقديس لا تمكن مخالفته .. ولهذه الاعتبارات جميعها فإن الهيئة لم تدخل مـع البرقاويين في مفاوضات إلا بعد أن أكدوا لها أنهم على اتفاق مع السيد ادريس على عقد مؤتمر سرت وقد أذن لهم بذلك . وبناء على هذا الاذن حضر أعوانهم الى سرت وعقدوا المؤتمر مع الطرابلسيين .

وبعد أن اتفق مؤتمر سرت على التعاون الوثيق بين الطرفين وخوض الحرب جنباً الى جنب سواء في برقة وطرابلس ومؤتمر غريان حينما قرر انتخاب حاكم مسلم لم يكن في نيته تحقيق هذا المعنى في شخص السيد ادريس ، وانما ينتظر لانتخابه الظروف المناسبة .

وحينما أثيرت مسألة الإمارة في مفاوضات فندق الشريف كانت محل جدل شديد ونقاش حاد. وكان من أشد المعارضين فيها محمد فرحات بك الزاوي. ومختار بك كعبار، وخالد بك القرقني، لأن معاهدات السيد إدريس مع الطليان في سنتي ١٩١٧ و ١٩٢٠ بدون أن يشرك معه الطرابلسيين أو يستشيرهم في شيء دلت على أنه يريد الإنفصال عن طرابلس، وقد وثق الطليان من هذا، فالتمسك بإمارة السيد إدريس يعرّض المفاوضات للخطر. وهذا المعنى لا ينكره الفريق الذي يتمسك بها.

ولكن الظروف التي أحاطت بالطرابلسيين بعد مؤتمر سرت هي التي جعلت إسناد الإمارة إلى السيد إدريس ضرورة لا مناص منها. وقد سهّل على هيئة الإصلاح ارتكاب هذه الضرورة ما وافق عليه وفد برقة في مؤتمر سرت ونص عليه في المعاهدة بأنه إذا هاجم العدو جهة فعلى الجهة الأخرى أن تمدّها بالمال والرجال. ويعلم الله أن التباطؤ في تنفيذ معاهدة سرت وعدم إرسال النجدة من برقة إلى طرابلس هو الذي خيَّب الأمل ومكّن الطليان من الاستيلاء على طرابلس وبرقة. وكان بين نزول الطليان في مصراتة وقطع المفاوضات شهران ونصف لم ينفّذ فيها شيء من قرارات مؤتمر سرت. وهو وقت يكفي لإرسال النجدة من برقة إلى طرابلس لو كان السيد إدريس يزمع ذلك، كما أنه وقت يكفي لتعديل رأي الهيئة في معاهدة سرت حينما رأت هذا التأخير، ولكن الأكثرية مضت في رأيها وقررت الإمارة، وبناء على ما قررته الأكثرية وقع ما خافته الأقلية.

وكان تأخير المعونة عن طرابلس دليلاً على أن إدريس السنوسي ينظر إلى معاهدة سرت من ناحية واحدة، هي ما يتفق مع ميوله ويرضي رغباته. وهذه حقيقة طبقتها الحوادث أكثر من مرة، فقد تكرر هذا الدور من إدريس السنوسي سنة ١٩٤٠ في مصر، حينما أراد أن يقدم محاربين من الليبيين معونة للإنجليز في الحرب العالمية الثانية. فلم يقبل أي تفاهم مع الطرابلسيين، على

الرغم من العهود التي قطعها على نفسه ، ومن الاتفاقات التي اتفق فيها مع الطرابلسيين على أن لا يعمل أحد الطرفين إلا بعد الإتفاق مع الآخر .

وفي أثناء مفاوضات فندق الشريف كان الطليان يعدّون أنفسهم للحرب . وكان جرازياني يريد أن يؤلف جيشاً وطنياً برياسة أحد الطرابلسيين فلم يجد من ينفـّذ له هذه الفكرة إلا يوسف خربيش ، فقد حضر إلى زوارة يوم ٧ إبريل سنة ١٩٢٢ وأخذ في جمع المحاربين . ولم يأت عليه يوم ١٥ منه حتى تمكن من جمع ألف محارب . ويتضح من هذا التاريخ أن الطليان كانوا يتهيأون للحرب والمفاوضات جاريـــة .

إعلان الحرب :

انقطعت مفاوضات فندق الشريف في١٠ إبريل سنة ١٩٢٢، وأول رصاصة أُطلقت لاستئناف الحرب كانت في الزاوية يوم الجمعة ١٥ من شعبان سنة ١٣٤٠ . وضيق مجاهدو الزاوية الخناق على الطليان في الرأس الاحمر ونصر بن ربوُح . وكان الاسطول الإيطالي يقذف حممه على الزاوية قذفاً لا هوادة فيـه ، فكانت قنابله تهدّ البيوت وتحصد النخل والزيتون ، وتملأ الفضاء بما ينفجر منهـــا من رصاص وشظايا . وقد بقيت المعركة في الزاوية بين مـــدّ وجزر نحو عشرة أيام . وأحسّ الطليان بشدة المقاومة لأنهم كانوا يهاجمون العرب وجهاً لوجه من الرأس الاحمر ونصر بن ربوح . ورأت قيادتهم أن تقوم بهجوم من الجهة الغربية ليكون الهجوم مزدوجاً .

والزاوية بطبيعة موقعها الجغرافي تقع بين مدينة طرابلس وزوارة . وكانت نقطة ارتكاز الهجوم الأولى طرابلس ومنهـا كان يأتي المدد للجيش الموجود في الرأس الاحمر ونصر بن ربوح [1] ، فأحبوا أن يقوموا بهجوم ثان تكون نقطة

(١) اسم ولي مدفون فوق ربوة عالية شمالي الزاوية تشرف على البحر .

ارتكازه زوارة . فجمعوا جيشاً يشتمل على نحو اثني عشر ألف جنــــدي من بعض المرتزقة والاحباش والطليان الحمر ، وساروا به إلى الزاوية ليضربوها من الخلف .

وخرج هـــذا الجيش من زوارة في ٢٢ إبريل سنة ١٩٢٢ ومعه خربيش ومرتزقته بقيادة جرازياني قاصداً نحو الزاوية فوصلت طلائعه الى صرمان يوم ٢٣ منه . وفي هذا اليوم تقدم الجيش الذي كان معسكراً بالرأس الاحمر ونصر ابن ربوح واحتلّ الحارة[١]، وتقهقر المجاهدون الى بساتين شلابي فمسكروا فيها.

وكان عبيدة المحجوبي من الرجال البارزين في صرمان ، وكان مشهوراً بملاينة الطليان واذا ابتعدوا عنه ظهر بمظهر المحايد الذي لا يعمل مع الطليــان ولا مع العرب . ووقوفه موقف المحايد هو عمل في مصلحة الطليان ولا شك ، لأن عدم مشاركته في الاعمال الوطنية هو ومن ينضم إليه في رأيه إضعاف لها ، ويد يقدمها للطليان وقت ان يقتربوا منــه يستشفع بها لديهم ، ولمثل هذه المواقف المريبة سجنه اسحاق باشا وأراد ان يقتله ، فأخرجه الباروني من السجن ونجــا الى مصراتة . وقد اتصل الطليان بعبيدة في صرمان وأرادوا أن يحتالوا به على أهل الزاوية ليأخذوهم على غرة ففعل .

واقعة الزاوية

في غرة رمضان سنه ١٣٤٠ (٢٤ و ٢٥ إبريل سنة ١٩٢٢) .

كانت احتلال الزاوية في الدرجة الاولى من الأهمية عند الطليان للتمكن من إتمام احتلال طرابلس . وهي تقع غربي مدينة طرابلس بـ ٤٣ ك م . وقد دلت التجارب على أن الذي يملك الزاوية من أحـــد المتحاربين هو الذي يسيطر على

---

(١) القسم الذي يسكنه اليهود بالزاوية يسمى الحارة ، او حارة اليهود .

الموقف غربي مدينة طرابلس وعلم الطليان هذه الحقيقة فحاولوا احتلالهـا في عدة منـــاسبات . من الغرب تارة . ومن الشرق أخرى ، ومن الشرق والغرب كذلك ، وذلك لوقوعها في الوسط بين العاصمة وبين أقرب مدينـة الى الحدود الغربية وهي زوارة ، وتتصل كذلك من الجنوب بغريان ، ومن الجنوب الشرقي بالعزيزية ، فالذي يستولي عليها يمكنه مهاجمة هذه الأماكن إن كانت محاربة ، ومدّها بالقوة اللازمة إن كانت تابعة له ، لذلك كان كل من الفريقين المتحاربين حريصاً على الإستيلاء عليها مهما كلّفه ذلك من ثمن .

ولما وصل جيش زوارة إلى صرمان يوم ٢٣ من إبريل دبَّر جرازياني مكيدة بالإشتراك مع عبيدة المحجوبي لأخذ أهل الزاوية على غرة، فأرسل عبيدة إلى محمد بك شلابي يطلبه للمذاكرة معه فيما يجب عمله ، ليصرف الناس عن التفكير في احتمال خروج الطليان من زوارة . وكان محمد بك شلابي ومن معه لا يعلمون شيئاً عن خروج الطليان من زوارة ، وقد جاء رسول عبيدة إلى محمد بك شلابي ليلة ٢٤ منه وأبلغه الرسالة ، فركب شلابي في أربعين فارساً وتوجه إلى صرمان يوم ٢٤ منه لمقابلة عبيدة . ولما وصلوا بلدة « بوعيسى » التقوا بطلائع جيش الطليان، وإذا به جيش عرمرم يملأ ما بين البحر « وحِسْي الحُمرة » فتصدّى الفرسان الذين مع شلابي لمكافحته، وأرسلوا نذيراً لمن وراءهم في الزاوية بالتأهّب للقتال . وفي هذا اليوم اتصلت ميسرة هذا الجيش بميمنة الجيش الذي احتلّ الحارة في اليوم الذي قبله ، وكوّن الجيشان شكل هلال أحاط بالمجاهدين من الغرب والشمال والشرق ، واشتدّ وطيس المعركة جنوبي الحرشا في الرملة ، ودامت المعركة إلى ما بعد الظهر استشهد فيها نحو مائة مجاهد من الزواية منهم الشيخ محمد الشيباني من أولاد صقر [1] . والشيخ محمد خماج البلعزي [2] . وكانت الغلبة للكثرة ،

---

(١) مشهور بالبريطاجي .

(٢) من قبيلة أولاد الواعر ، من بلاعزة الزاوية ، أولاد عيسى .

وانسحب من بقي من المجاهدين إلى الجنوب . وفي يوم ٢٥ منه تمّ الإستيلاء على الزاوية . وهذه آخر معركة وقعت في الزاوية في الحرب الطرابلسية .

بعد احتلال الزاوية :

اجتمعت الجيوش الإيطالية في الزاوية، وما زال أمامها التغلب على المجاهدين في زنزور وسواني البيابصة وفندق ابن غشير ، وعلى المجاهدين الذين يحاصرون العزيزية، فتوجّه قسم من الزاوية إلى بئر الغنم وحصلت معركة بينه وبين المجاهدين برياسة طاهر أفندي شلابي وخالد بك القرقني ، وجــرح فيها طاهر أفندي شلابي ، ثم انحدر إلى الشمال الشرقي ليهاجم المجاهدين الذين يحاصرون العزيزية من الجنوب . وتوجه قسم منها إلى العزيزية رأساً ليهاجم الذين يحاصرونها من الشمال. وخرج جيش آخر من سيدي بلال ليهاجم المجاهدين في زنزور ، وسواني البيابصة وسواني بنيادم. وفي يوم ٢٩ من إبريل ابتدأت هذه الجيوش الهجوم على المجاهدين في وقت واحد فلم يقووا على الثبات أمامها . وفي يوم ٣٠ منه تمّ فك الحصار عن العزيزية بعد معارك شديدة ، وانسحب المجاهدون إلى الجنوب ناحية بئر السايح، وعسكروا في «بوعرقوب» و«حوش الصويعي» وحواليها. وتمّ تمكن الطليان من العزيزية وزنزور والزاوية وصرمان . وبهذا أمّنوا طرق مواصلاتهم البرية بين طرابلس وزوارة . وأخذوا يستعدّون لاحتلال غريان حيث مقر الحكومة الوطنية (هيئة الإصلاح المركزية) .



صورة الأستاذ عبد الرحمن عزام وهو على جواده
حينما كان مع هيئة الاصلاح المركزية في غريان

وفد الدعوة

وفي أثناء ما كانت الحرب في الزاوية رأت هيئة الإصلاح المركزية أن توفد وفداً إلى السيد إدريس السنوسي في برقة لتدعوه إلى الحضور إلى طرابلس لتبايعه بالإمارة تنفيذاً لما قررته في فندق الشريف ، وسمي هذا الوفد وفد الدعوة ، وهو يتألف من الشيخ محمود المسلاتي ، والشيخ الطاهر الزاوي ، والشيخ محمد بن حسن ، واجتمع الوفد في مصراتة . وقبل أن نغادرها جاءتنا الأخبار بسقوط الزاوية في يد العدو .

وقبل سفرنا منها وصل إليها الشيخ عبد العزيز العيساوي ، موفداً من قبل السيد إدريس ليمثل حكومة أجدابية لدى هيئة الإصلاح المركزية حسب شروط معاهدة سرت في تبادل التمثيل بين حكومة طرابلس وحكومة أجدابية . وكان من رأيه أن السيد إدريس لا يجيء إلى مصراتة ولا يقوم بأي عمل حربي قبل أن يبايع بالإمارة. وقد صارح بهذا حكومة مصراتة وأكّده لها، في الوقت الذي كانت فيه جيوش الطليان تتوغّل في طرابلس والمجاهدون يعانون من ضغط الطليان الأمرّين. وكان من رأيه أن الوفد لا يذهب إلى أجدابية إلا ومعه البيعة. وبما أن هيئة الإصلاح قررت سفره ، وكان على أهبة للسفر فلم ير هذا الرأي ،

وسافر ليطّلع بنفسه على حقيقة الأمر . وقد تحقق رأي الشيخ عبد العزيز العيساوي ، واعتذر السيد إدريس عن إجابة الدعوة ، مما يدل على أن ما أخبر به الشيخ عبد العزيز كان متفقاً عليه .

وتوجهنا من مصراتة في أواسط رمضان سنة ١٣٤٠ – يونية سنة ١٩٢٢ ووصلنا إلى أجدابية – وهي المكان الذي يقيم فيه السيد إدريس إذ ذاك – في شوال سنة ١٣٤٠ وخصص منزل السيد محمد الهوني لنزول الوفد . ودعي الوفد بعد ثلاثة أيام لمقابلة السيد إدريس ، وأبلغه الوفد مهمته التي جاء من أجلها ، فاعتذر عن الذهاب إلى طرابلس بشدة الحر وانحراف صحته ، ووعد بالسفر عندما تخف شدة الحر وتتحسّن صحته .

ولما وصل الوفد إلى أجدابية كانت صلة السيد إدريس بالطليان ما تزال حسنة . فصلته بالطرابلسيين، ومجيء الوفد لدعوته إلى طرابلس لمبايعته بالإمارة بعد أن رفض الطليان الاعتراف بها في مفاوضات فندق الشريف قد يكون لها أسوأ الأثر على صلته بالطليان ، وهو اتصال – لا شك – على غير رغبتهم لأن فكرة اتحاد طرابلس وبرقة هي التي كانت سبباً في قطع مفاوضات فندق الشريف ومن أجلها أعلن الطليان الحرب على الطرابلسيين .

وقد قام الطليان وقعدوا لوجود الوفد في أجدابية ، وأحسّ السيد إدريس بحرج مركزه ، فليس من الهيّن عليه أن يغضب الطليان ، فربما أعلنوا عليه الحرب فكانت المصيبة أكبر ، ولا هو قادر على إغضاب الطرابلسيين لأن مؤتمر سرت أيّد الصلة بينهم وبين البرقاويين . فإغضابهم قد يكون فيه إغضاب البرقاويين ، فلم يكن أمامه مندوحة للخروج من هذا المأزق إلا أن يعتذر بالمرض ويسافر إلى مصر للتداوي .

وفي أثناء بقاء الوفد في أجدابية جاء مشايخ القبائل وفي مقدمتهم :

الشيخ عبد السلام الكزّة	من العواقير
« صالح الاطيوش	« المغاربة
« محمد بوشديق	« البراعصة
« الفضيل المهشهش	« المرابطين
« قطيط الحاسي	« الحاسة
« محمود بولطيّف	« العبيدات

للسلام ومناقشتنا في عدم إتياننا ببيعة الإمارة للسيد إدريس . وكان من كلامنا لهم أنهم لم يفوا بما جاء بمعاهدة سرت فيجب الوفاء بها قبل كل شيء وُجدت إمارة أو لم توجد . أما البيعة فلم نعط بها عهداً إلى الآن . ورغماً على هذا فإن الحكومة الطرابلسية اعتزمتها إلا أنها تريد أن تكون في طرابلس حيث يشترك فيها أكبر عدد ممكن من الأعيان وأهل الرأي ، وإن أكبر دليل على اعتزامها مبايعة السيد إدريس بالإمارة هو تمسكها بتوحيد الزعامة للقطرين في مفاوضات فندق الشريف. وكان تمسكها بهذه الفكرة سبباً في قطع المفاوضات واستئناف الحرب . ولم نجد عندهم أي فكرة لإعلان الحرب وفاءً بمعاهدة سرت وكان ما صرّح به عبد العزيز العيساوي للوفد في مصراتة هو محور الجدل بيننا وبينهم".

وبعد أن قابل الوفد في أجدابية بأيام قلائل غادرها بدعوى مقابلته وزير المستعمرات الإيطالي للمذاكرة معه في مصلحة البلاد. وكانت هذه المقابلة محوطة بشيء من الغموض لوقوعها بعد مجيء الوفد مباشرة .

ويظهر أن تمسك الحكومة الطرابلسية في مفاوضات فندق الشريف بإمارة السيد إدريس الذي كان على خلاف رغبة الطليان ، ومجيء الوفد إلى أجدابية لدعوة السيد إدريس للبيعة حمل الطليان على استطلاع رأي السيد إدريس في هذا الموضوع . ومن أجله حصلت هذه المقابلة للتأكد مما اعتزمه السيد إدريس.

ولما ذهب السيد إدريس لمقابلة وزير المستعمرات أناب عنه أخاه الرضا في

أجدابية . وفي الليلة التي تلي يوم سفره دعي الوفد إلى محلّ الرضا وكان موجودا معه صفي الدين ، فتكلم صفي الدين بالنيابة عن الرضا، وأبلغ الوفد : أن السيد إدريس ذهب لمقابلة وزير المستعمرات الإيطالية للتكلم معه في مصلحة البلاد ، ونظراً لما بينه وبين الطليان من الاتفاق ووجود الوفد في أجدابية قد يؤثر على هذا الاتفاق ، فهو يرجو الوفد أن « يقحز » إلى الطبيل [1] .

وكان هذا الخبر نذيراً بالخيبة ، ولم يقتصر الأمر على انتقال الوفد ، بل انتقل معه مندوب حكومة طرابلس الأستاذ بشير السعداوي.وفي الوقت الذي يطرد فيه مندوب الحكومة الطرابلسية من أجدابية إبقاء على صلة سياسة الطليان كان مندوب حكومة أجدابية الشيخ عبد العزيز العيساوي يقيم مع هيئة الإصلاح في غريان معززاً مكرماً . وقد شعر الوفد من حديثه مـــع الرضا بمقدمات خيبة الأمل ، ولكنه انتظر حتى تنتهي مقابلة السيد إدريس للوزير ليرى ماذا يتم .

وبعد بقاء الوفد في الطبيل نحو ١٥ يوما جاءه كتاب من السيد إدريس مع الشيخ صالح الأطيوش هذا نصه [2] :

« تحريراً في ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ » .

من خادم الملة الإسلامية محمد إدريس المهدي السنوسي .

حضرات ذوي الفضيلة الشيخ الطاهر أفندي ، والشيخ محمد حسن أفندي والشيخ محمود أفندي المسلاتي حفظهم الله ورعاهم آمين .

أهديكم سلاماً عاطراً واحتراماً فاخراً .

إنني قد اجتمعت بسعادت الوزير وذاكرنا في المسألة الطرابلسية وكان مفاد

---

(١) مكان شرقي أجدابية على مسافة ساعتين لا شيء فيه إلا الرمال تذروها الرياح وحـــر الشمس اللافح ومعنى « يقحز » ينتقل مسافة قليلة .

(٢) لم نغير شيئاً من ألفاظ الكتاب محافظة على نصه .

المذاكرة هو أن لا يمكنهم توقيف الحرب إلا بعد أن أهـل طرابلس يخابروا الحكومة هناك بأنهم أوقفوا الحرب ومستعدين لحسن التفاهم مع الحكومة فحينئذ الحكومة مستعدة لتوقيف الحرب من جهتها . وسعادته قال : هو كل ما يمكنه عمله من حسن التفاهم معهم مستعد له .

فمن حيث المسألة هكذا وتسيطر فصل الحرّ مع عدم مساعدة صحتي للسفر أظن أن سفري للقطر الطرابلسي سيتأخر بالرغم عن إرادتي لغاية فتور الحـر وتقدم الصحة قليلاً ، ولعل أن يصادف توقيف الحرب في تلك الأصقاع لأنه مما هو يسهل علينا السفر .

بناءً عليه يمكن لفضيلاتكم التوجه للهيئة وإعلامها بالأسباب جلية ، وها هو طيه كتاب لرئيس الهيئة تصحبوه معكم [١] . وفي الختام تفضلوابقبول إهـداء تحياتي » .

محمد إدريس بن السيد المهدي

رجوع وفد الدعوة :

وبعد أن تسلم الوفد هذا الكتاب لم ير لبقائه من فائدة فسافر من الطبيل في أواخر ذي القعدة سنة ١٣٤٠ (أغسطس سنة ١٩٢٢) ووصل إلى مصراتة في ذي الحجة .وواصل سيره إلى غريان حيث مقر هيئة الإصلاح فوصلها غرة المحرم سنة ١٣٤١ (اكتوبر سنة ١٩٢٢).وأبلغ الهيئة ما دار بينه وبين السيد إدريس من الحديث ، وأطلعها على كتابه الذي ذكرنا نصه آنفاً . وقد عملت الهيئة بما نسبه السيد إدريس إلى وزير المستعمرات من طلب وقف الحرب ، وأرسلت إلى الوالي الإيطالي في طرابلس تخبره بأنها قررت وقف الحرب بناءً على اقـتراح وزير المستعمرات على السيد إدريس السنوسي. وقد أهمل الطليان هذا الكتاب،

---

(١) لم يكن معه كتاب لرئيس الهيئة ولكن جاءت هذه العبارة غلطاً .

ولم يحظ منهم حتى بالردّ فضلاً عن العمل بما جاء فيه ، بل ما زادهم إلا اشتدادا في الحرب ، وكانت بشائر النصر تلوح لهم . وكانت الحرب دخلت في شهرها الخامس بعد انتهاء الهدنة ،وتمّ للطليان احتلال السواحل من زوارة إلى طرابلس وخرجوا إلى الجبل ، وظهر على الحالة العامة فتور لا شك أنه بداية النهاية .

كل هذا والطرابلسيون ما زال عندهم بقية من أمل في وفاء البرقاويين بما عاهدوا عليه في معاهدة سرت . وهم إلى هذا الوقت لم يرسلوا معونة إلى الطرابلسيين لا من الرجال ولا من الأرزاق ، ولم يعلنوا الحرب على الطليان . وليس هذا فقط ، بل إن السيد إدريس ما زال محافظاً على علاقته بالطليان كما صرّح به صفي الدين بالنيابة عن وكيله في أجدابية .

وقد رأت الهيئة ألا تبقي عذراً للسيد إدريس فقررت بيعته بالفعل وانتخبت وفداً لحمل كتاب البيعة إليه ، مكوناً من الأستاذ عبد الرحمن بك عزام ، والصادق بن الحاج ، وسافر الوفد من غريان في صفر سنة ١٣٤١ (نوفمبر سنة ١٩٢٢) ووصل إلى أجدابية في ربيع الأول من هذه السنة وقدّم إلى السيد إدريس كتاب البيعة وهذا نصه :

نص كتاب البيعة

« إلى سمو مولانا الأمير الجليل السيد محمد إدريس حفظه الله ورعاه. تحية تليق بالمقام الرفيع والجناب الأسنى المنيع. وبعد : فإنه غير خاف على سموكم أن الخلاف لم يزل قائماً بيننا وبين الحكومة الإيطالية . وذلك لأنها وجّهت عزمها إلى العبث بجميع حقوقنا شرعيها وسياسيها وإداريها . وجعلت من قوتها مبرراً للتصرف في مصيرنا وحقوقنا الطبيعية ، ونحن خير أمة أُخرجت للناس لا نتحمل ضيماً ، ولا نرضى أن تضمحلّ شريعتنا ، ولا أن يتطرق الخلل إلى ديننا القويم كائناً ما كان ، الأمر الذي حملنا على ركوب الأخطار واقتحام الحروب المتوالية ،

معتمدين على قوة الحق إلى أن نظفر بتحقيق أمنيتنا القومية ألا وهي تأسيس حكومة دستورية يرأسها أمير مسلم جامع للسلطات الثلاث الدينية والسياسية والعسكرية ، مع مجلس نيابي تنتخب الأمة أعضاءه ، وبهذا يسلم وطننا ويتمّ أمر ديننا وتصلح أحكام قضاتنا ، ويحفظ شرعنا وعنعنة تاريخنا الباهر . وهذا لا ينافي ما تدّعيه إيطاليا وما دأبت عليه في خطب رجالهامن أنها لم تحتل ديارنا بنية الاستعمار ، وإنما ساقتها دواعي السياسة الدولية في البحر المتوسط . ولو كانت صادقة في دعواهاهذه لما عرّضت بلادنا للخراب بتوالي المهاجمات واستعمال دهائها وقدرتها للتفريق والفوضى . وقد حاولت فصل الأمة بعضها عن بعض بطرق مختلفة وأبى الله إلا أن يجمع كلمة القطرين الشقيقين بأن يلتفّا حول أمير واحد يرضيانه .

وحيث كان سموّكم من أشرف عائلة وأكرم بيت مع ما تجمّع في ذاتكم الشريفة من المزايا العالية والأوصاف الجليلة فإن«هيئة الإصلاح المركزية» الحائزة للوكالة المطلقة من « مؤتمر غريان » الذي يمثل الأمة الطرابلسية بانتخاب واقع منها قد وجدت في سموكم أميراً حازماً قادراً على جمع الأمة حائزاً للثقة العامة محبوباً ، فهي لذلك تبايع سموكم أميراً للقطرين طرابلس وبرقة على أن تقودهما إلى ما يحقق أمانيها الشريفة الإسلامية المنوه عنها .

على أن مبايعتكم كانت مضمرة في كل نفس منذ وقع الاتحاد بين مندوبي القطرين في « سرت » وكان السبب في تأخير تحقيقها تلك طوارىء التي طوّحت بكل واحد من أعضاء الهيئة ورجال القطر في منطقة شاسعة من المناطق الحربية .

وبهذه المبايعة إن شاء الله أصبح سموكم الأمير المحبوب للقطرين المباركين . ومتى سنحت الفرصة عند تشريفكم إيانا ، حسب رغبة الأمة ، تقام لكم مظاهر هذه البيعة في موكب لائق بسموكم »

والله سبحانه وتعالى يمدّكم بروح من عنده ، ويجعل البركة في البيت السنوسي المؤسّس على التقوى والصلاح » :

(في ٣ ذي الحجة سنة ١٣٤٠)

رئيس هيئة الإصلاح المركزية	أحمد المريّض
مستشار هيئة الإصلاح المركزية	عبد الرحمن عزام

الأعضاء :

محمد بن عمر	عثمان القيزاني
بشير السعداوي	عمر بودبوس
حسين بن جابر	محمد صادق بن الحاج
محمد فرحات	محمد مختار كعبار
عبد الرحمن زبيدة	محمد فكيني
محمد التايب	الصويعي الخيتوني
سالم البجباج	

الأعيان :

محمد الديب	فرحات القاضي
محمد سوف	محمد القرقني
عمر ضياء	أحمد السني
علي بوحبيل	البغدادي بن معيوف
أحمد الشتيوي	محمد الصغير المريّض
محمد سعدون قائد الجيش الوطني	

وقد قَبِلَ السيد إدريس البيعة مغتبطاً ، وقرأ كتابها فوجده موقعاً عليه من ستة وعشرين رجلاً من رجالات طرابلس وأعيانها وأعضاء حكومتها وقواد

جيوشها ، فامتلأ فرحاً ،وأعطى من العهود والمواثيق على نفسه بالقبول وبالعمل بمقتضاها بكل ما بلغته قوة إنشاء الكاتب وتحبيره . وقد اتضح أن هذه الوعود كانت تكتب وركابه على جناح السفر إلى مصر .

وقد أجاب السيد إدريس عن كتاب البيعة بما نصه :

نص الرد على كتاب البيعة

« من خادم الملة الإسلامية محمد إدريس المهدي السنوسي إلى أصحاب السعادة رئيس هيئة الإصلاح المركزية وأعضائها وعموم الموظفين ورؤساء الجيوش وكافة الأعيان والأهالي الطرابلسيين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد، فقد تناولت بيد الشكر عريضتكم التي أظهرتم فيها رغبتكم الخالصة في تحقيق غايتكم التي أجمعتم عليها في مؤتمر غريان ، وجاهدتم لهـــا جهاداً صادقاً بالأنفس والثمرات في شخصي ، فأخذتها داعياً الله أن يحقق آمال هذه الأمة ويكلل مساعيها كلها بالنجاح .

ولما كان اتحاد الوطن وسلامته هما الغاية التي طالما سعيت إليها وجدت من واجبي أن أتلقى طلبكم بالقبول ، وأن أتحمل المسؤولية العظمى التي رأت الأمة تكليفي بها ، فعليّ إذن أن أعمل بجدّ معكم ، ولكن لا تنسوا أنني بغير إقدامكم وجدّكم لا قدرة لي على شيء .

إني أعلم أن الحياة الخالدة هي للأمم لا للأفراد ، وكذلك الأعمال العظيمة الباقية هي التي تنصرف إلى صالح الجميع ، فلذلك أدعوه سبحانه وتعالى أن يهدينا إلى كل عمل ثمرته للأمة .

إن من حق كل شعب أن يسيطر على شؤونه ، والناس منذ نشأوا أحرار .

وقد أظهر شعبنا في كل أدواره مقدار محبته للحرية ، فدفع مهورها غالية ، فلا يصح لأحد أن يطمع في استعباده والإستبداد بشؤونه .

لقد اشترطتم عليّ الشورى وهي أساس ديننا وسأعمل على قاعدتها . هـذا وقد رأيت أن أقرّ الأمور على ما هي عليه حتى تجتمع جمعية وطنية لوضع نظام البلاد ، فلذلك أكل إلى الهيئة المركزية لما أبدت من الحمية والعدل والدراية أن تستمر على إدارة شؤون القطر الطرابلسي ، ولي الثقة العظيمة في حكمة رئيسها البطل الحازم أحمد بك المريّض ورفقائه والرؤساء الكرام الذين أيّدوا مساعي الهيئة الملية أن يتحملوا مشاق المسؤولية بصبر لتثبيت دعائم البنـاء الوطني الذي شيّدوه .

وأسأله تعالى أن يمدّ الجميع بعنايته ، وأن يثبت الأقدام ويقهر الأعداء ويمنّ بالنصر الموعود إنه على ما يشاء قدير » .

الإمضاء

في ٢٢ ربيع الأول سنة ١٣٤١ محمد إدريس المهدي السنوسي

وبعد وصول وفد البيعة إلى أجدابية حمي وطيس السياسة ، وكان من فرسان هذا الميدان عمر منصور الكيخيا للبحث عن رأي يوفق بين سياسة السيد إدريس مع الطليان وسياسته مع الطرابلسيين ، وحصلت مشاورات واجتماعات ، واستمر هذا الميدان مفتوحاً نحو أربعين يوماً ولم يهتد الباحثون إلى الحل المنشود ، حتى قفل بمغادرة السيد إدريس أجدابية في طريقه إلى مصر في اليوم الثاني من جمادى الأولى سنة ١٣٤١ (٢١ من ديسمبر سنة ١٩٢٢) .

سفر السيد إدريس إلى مصر :

كان لسفر السيد إدريس أكبر الأثر في حـلّ العزائم ووهن القوى . فقد اشتدت الحرب على الطرابلسيين ، وكانوا يؤملون من وراء هذه البيعة اتفاق الكلمة وإعلان السيد إدريس الحرب على الطليان وفاءً بمعاهدة سرت وشروط البيعة ، وقد مضى نحو سنة والطرابلسيون يَصْلون الحرب ويصارعون هجوم

الطليان عليهم ، وكانت آمال الطرابلسيين معلقة على هذه الإمارة ، ويرون في وعود السيد إدريس وتأكيداته لهم بالوفاء مدعاة لانتظار هذا الوفاء في مثل هذه الظروف الحرجة . وكان بعض البرقاويـــين يألم لألم إخوانهم الطرابلسيين وكانوا يتمنّون المساعدة ولكنهم لا يملكون التنفيذ . وبودّهم لو تقدّم السيد إدريس إلى الميدان ليفوا بما عاهدوا عليه في مؤتمر سرت . وعلم الطرابلسيون من سفره هذا أن مسألة الإمارة قد فشلت .

وقد اضطرب مركز برقة بعد سفر السيد إدريس اضطراباً كبيراً دام نحو ١٦ شهراً ، وانتهى الأمر بإعلان الطليان الحرب على البرقاويين بأول هجوم على أجدابية في رمضان سنة ١٣٤٢ (إبريل سنة ١٩٢٤) بعد سنتين وأربعة أشهر من إعلان الحرب على الطرابلسيين على مرأى ومسمع من السيد إدريس السنوسي ، ولم يفِ لا بما جاء في معاهدة سرت ، ولا بما تضمنته شروط البيعة بالإمارة .

بداية النهاية :

كانت بيعة السيد إدريس بالإمـــارة آخر سهم رمى به الطرابلسيون سعياً وراء الحصول على القوة للوصول إلى النصر . ولمّا لم يفِ بشروط البيعة وسافر إلى مصر وتسرّب اليأس إلى عزائم المجاهدين وأحسّوا بقرب النهاية .

في غريان :

كانت غريان مركز (هيئة الإصلاح المركزية) وهي الحكومة التي تدير شؤون البلاد وقيادة المجاهدين . وبعد أن سافر السيد إدريس إلى مصر وأيقن الطرابلسيون بعدم مجيء العون من برقة فكثّرت هيئة الإصلاح المركزية في تقوية صفوف المجاهدين . وكان من رأي الهادي كعبار أن ينشأ خط دفاعي يمتد من ترهونة شرقاً إلى فساطو غرباً ليمكن الوقوف في وجه العدو ، والدفاع عن غريان مركز الحكومة . وقد أصبحت وجهة العدو . وكان الهادي كعبار يلحّ على أحمد المريّض بتجنيد أكبر عدد ممكن من ترهونة ليسدّ النقص الذي أصبح

بادياً في صفوف المجاهدين من كل ناحية ، ومرّت الأيام ولم تتحقق هذه الرغبة التي كانت الضرورة تحتم تحقيقها، وكان الهادي يرى أن اتخاذ غريان مركزاً للحكومة الوطنية مما يعرضها لانتقام الطليان فيما اذا تغلبوا . فكان يلحّ على رئيس الهيئة في تجنيد المجاهدين بكل وسيلة وخصوصاً من ترهونة .

وفي الوقت الذي كان يلح فيه الهادي على الهيئة بالتجنيد كان الضعف بادياً في صفوف المجاهدين ، وفي معنوياتهم وقيادتهم ، وكانت عوامل الفناء والوهن تحيط بالوضع الحربي من كل مكان .

ومما أغرى الهادي كعبار بهذا الإلحاح تقدّم الطليان في الجبل من الجهة الغربية قاصدين غريان . وقد هدّد بالالتجاء الى الطليان إن لم تسرع الهيئة في إحضار المجاهدين للدفاع عن غريان والجبل . ويظهر أن عوامل أحاطت برئيس الهيئة لم تمكنه من جمع القوة الكافية للدفاع . وكانت النتيجة أن تقدم الطليان إلى يفرن . ومنها إلى غريان ، فاضطرت هيئة الحكومة إلى مغادرتها، واحتلوها يوم ١٧ من نوفمبر سنة ١٩٢٢ كما ذكرنا آنفاً ، وبقي الهادي فيها رجاء أن يتمكن من تخفيف الضغط عنها . ولكن الطليان دخلوها بدون أن يحسبوا لاستسلامه حساباً. وقد ترك فيها حراً بضعة أيام مع المراقبة ، ثم نقل إلى الخمس تحت المراقبة ، ثم نقل إلى مصراتة . وهناك حوكم في يناير سنة ١٩٢٣ وحكم عليه بالإعدام فقتل شنقاً .

ويقول جرازياني : « إن ما لاقاه الهادي وأمثاله المتلاعبون الذين لا يثبتون على مبدأ هو جزاء تلاعبهم وردع لغيرهم » .

والجرازياني أن يقول ذلك بعد أن وضع الهادي بين يديه حياته ومصير غريان . ولولا انخداع الهادي بوعوده وتأكداته له بالأمان التي لم يفِ بشيء منها لأمكن للهادي أن يهاجر وينجو بحياته ، ولدفع جرازياني ثمن احتلال غريان غالياً كما دفعه في غيرها .

ويقول جرازياني : « إنه كانت – إذ ذاك – مساع مبذولة من حسن باشا وأحمد المنتصر لخضوع المريض وضمان الأمان له » وليقل جرازياني ما شاء . فإن هذه المساعي – على فرض صحتها – لم يكن لها أي أثر على نفس المرّيض ، بل ترك وطنه في سبيل المحافظة على شرفه ، وهاجر إلى مصر ، وتوفي في الفيوم يوم ٧ من فبراير سنة ١٩٤٠ .

وقد انتهت حياة الهادي إلى هذا المصير الذي إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن الهادي كعبار لم يكن عند ظن الطليان به ، وأن الطليان لم يجدوا فيه رغبتهم ، ولو وجدوا فيه ما وجدوه في خربيش لما لاقى هذا المصير السيء .

بعد احتلال غريان :

باحتلال غريان ازداد الموقف تحرجاً ، وضاق خط دفاع المجاهدين ، فأصبح يبتدىء من رأس أبي عرقوب قبالة العزيزية من الشرق الجنوبي ، ويمرّ بباطس وفوليجة ، فثنية [١] فحدود غريان الشرقية إلى كـــور . كل هذا والناس في انتظار ما تسفر عنه بيعة السيد إدريس من نجدة قد تقوّي عزائم المجاهدين وتشد من أزرهم .

ولما سمع الطرابلسيون بسفره إلى مصر أيقنوا أنه قد سُقط في أيديهم ، فواجهوا الأمر حسبما اقتضته الظروف إذ ذاك وبذلوا ما بقي من جهود ، ولكنها كانت غير كافية لصدّ العدو .

ولم يخف على الطليان فشل بيعة السيد إدريس ، فشددوا الضغط على الطرابلسيين وحشدوا جيوشاً هائلة للإسراع بالقضاء على بقية المجاهدين الباقية .

---

(١) الثنية : الطريق في الجبل .

حالة المجاهدين :

بعد احتلال غريان بقي المجاهدون في كور [1] بقيادة مختار بك كعبار ، وفي بوعرقوب [2] والسايح [2] والمدور [2] وسيدي بوعيشة [2] بقيادة عبد الله تامسكت ، وفي ترهونة الشرقية الى تاجورة بقيادة المبروك المنتصر الترهوني . وهذه المناطق الثلاثة متصلة في شبه هلال تبتدىء من قبالة تاجورة من الناحية الشمالية ، وتنتهي بسامتة بوغيلان من الناحية الجنوبية الشرقية . وبالرغم على هذا الإتصال الذي كان بينها فقد كانت مفككة . وكان المجاهدون في حاجة إلى المأكل والملبس ، وقد فقدوا كل نوع من أنواع النظام . وكانت الأرزاق التي تأتي من مصراتة وغيرها إلى ترهونة ، لا تجد من وسائل النقل ما يوصلها من ترهونة إلى خطوط القتال [3] ، ولذلك كان المجاهدون في بوعرقوب والمدور لا يجدون من الأكل كفايتهم من مخازن الحكومة في ترهونة ، فكانوا يضطرون إلى ترك مراكزهم للبحث عن القوت ، ويعلم الله أن الحالة الاجتماعية والنظامية في المجاهدين كانت سيئة وذلك تبعاً لما كان عليه وضع الهيئة المركزية، فقد كانت مفككة ضعيفة . ولقد حاولت الهيئة أن تصحح الوضع القائم إذ ذاك فعينت محمد فرحات بك الزاوي قائداً على منطقة النواحي . ولكن جاء ذلك بعد فوات الوقت ، وبعد ان استشرى الفساد في جميع نواحي النظام ، وانهارت القوة المعنوية لفقد وسائل الدفاع .

حشد الجيوش الايطالية :

ولم يخف هذا الإنحلال على الطليان فجمعوا قوى كثيرة للقضاء على هذا الرجل

---

(١) من أراضي غريان الجنوبية الشرقية .

(٢) أمكنة في أراضي النواحي الأربعة .

(٣) شاهدت هذا بنفسي . وما كان فيه المجاهدون من عسر لا يمكّن أي إنسان من الدفاع حتى عن نفسه فضلاً عن الوطن .

المختصر : فجمعوا قوة في تاجورة بقيادة (بيتزاري) مكونة من ٣١٠٠ مسلح و ٣٠٠ فارس، وأربع بطاريات مدافع وقصدها (الخمس) لتخرج منها إلى مسلاتة لتطبق على ترهونة من الناحية الشرقية .

وجمعوا قوة في غريان بقيادة جرازياني مكونة من ٣٧٠٠ مسلح و ٣٥٠ فارساً وأربع بطاريات مدافع وقصدها الإطباق على ترهونة من الناحية الجنوبية .

وجمعوا قوة في العزيزية بقيادة (بيللـّي) مكونة من ١٤٠٠ مسلح و٢٠٠ فارس وأربعة مدافع وقصدها الهجوم على وادي ملـّغا [١] على طريق بوعرقوب والجيلاني . وبهذا الترتيب يصبح مركز الهيئة ، والمجاهدون في النواحي الأربعة في مربع تحيط به الجيوش الإيطالية من جميع الجهات . واتفقت هذه الجيوش كلها على ابتداء الهجوم في يوم واحد .

ابتداء الهجوم :

ابتدأت هذه الجيوش الإيطالية كلها الهجوم في حركة إطباق يوم ٢٩ يناير سنة ١٩٢٣ وفي هذا اليوم اصطدمت القوة التي تقصد مسلاتة بمجاهدي الرواجح والزياينة برياسة المبروك المنتصر الترهوني . وجاءت نجدة من قماطة اشتركت في هذه المعركة فحمي وطيسها وصبر فيها المجاهدون على الموت . وكان لمجاهدي قماطة الفخر كعادتهم ، وحظي منهم بالشهادة في هذه المعركة نحو ثلاثمائة شهيد ذهبوا فداء للوطن وفي سبيل الله ، وكسب العدو المعركة . وفي يوم ٣٠ منه احتل قصر خيار .

وفي صباح يوم ٣١ منه احتلت قوة العزيزية بوعرقوب وفيه قتل مسعود الشويخ أحد أعيان عكارة .

---

(١) مكان من أراضي ترهونة على حدودها الغربية .

أعيان عكارة :

وفي اليوم الثاني من فبراير سنة ١٩٢٣ وصلت قوة جرازياني إلى كور [١] واشتبكت مع المجاهدين برياسة مختار كعبار في معركة دامت إلى الليل . وفي اليوم الخامس منه احتلوا المدور في النواحي الأربعة بقرب حوش الصويعي . وفي مساء هذا اليوم حاول المجاهدون استرداده فلم يفلحوا .

وبعد انتهاء المعركة في هذا المساء وصل خبر من مختار كعبار إلى تامسكت في المدور [٢] بأنهم تخلّوا عن (كور) واحتله الطليان . وانسحب مختار كعبار ومن معه من المجاهدين ـ وكانوا خمسمائة ـ فلم يمكنهم الصمود أمام قوات العدو الكثيرة .

وباحتلال كور في الجنوب ، والمدور في الشمال أصبح المجاهدون بين فكي الكماشة الإيطالية ، فلم يسعهم إلا الانسحاب إلى أراضي أرفلّة ، على طريق ترهونة ، فانسحبوا في ليلة ٦ من فبراير سنة ١٩٢٣ م . ورحل كثير من سكان تلك المنطقة . وكان من بين المنسحبين فرحات الزاوي عضو الحكومة الوطنية (هيئة الإصلاح المركزية) . وكنت مع هؤلاء الراحلين مع جماعة منهم : عبد السلام بن غشير ، والهادي بن رخا ، من المرازيق من قبيلة عكارة . ومررنا بمحل سكناه ، فوجدنا به عدة بيوت من الشعر ، وحولها أغنام وإبل كثيرة ، فنزل ونزل معه بعض الرفاق . وكان يعتزم البقاء ، وكنت لا أعرف الطريق ، فرجوته أن يرسل معي من يدلني على الطريق ، إلى البويرات ـ مركز ترهونة ـ فأبى ، فأعدت عليه الرجاء فأبى . وكلما أعدت عليه الرجاء ازداد إصراراً ، خوفاً من أن يقال عنه لدى الطليان : إنه هرّب الطاهر الزاوي . ولعله كان يريد أن يتقرب بي لدى الطلمان في صباح تلك الليلة السوداء .

---

(١) موضع من أراضي غريان على حدود ترهونة الجنوبية الغربية .

(٢) موضع فيه جبل صغير بأراضي النواحي الأربعة بقرب حوش الصويعي .

ولقد أظلمت الدنيا في وجهي ، وأيقنت بالهلاك . وفي أثناء محاولاتي مع هذا الهادي ـ لا هداه الله ـ قال لي السيد عبد السلام بن غشير : أنا أريد اللحاق بأهلي فهيا معي إلى البويرات ، فقلت :فرجت والحمد لله ، فذهبت معه، وتركنا الهادي بن رخا ومن معه ينتظرون قدوم الطليان ليسلموا إليهم أنفسهم .

وقد مررنا في طريقنا على البويرات (مركز ترهونة) فوجدناها خالية ، لأن أهلها قد أُنذروا بالعدو فرحلوا، وفي مقدمتهم أحمد المريّض رئيس حكومة المجاهدين (هيئة الإصلاح المركزية) وبقية رؤساء ترهونة .

وبعد البويرات بقليل إلى الجهة الشرقية الجنوبية فارقني صاحبي عبد السلام ابن غشير . وقد قبض عليه الإيطاليون وقتلوه . رحمه الله .

والتحقت أنا بجماعة البلاعزة ، وفي مقدمتهم محمد بك شلابي ، وإبن أخيه الطاهر أفندي شلابي . والحاج علي هويسة ، والشيخ محمد الزويك ، والشيخ محمد جموم وكثير من أعيانهم.وسار الجميع في قافلة واحدة الى أراضي أرفلة.

وما كدنا نتجاوز البويرات (مركز ترهونة) حتى احتلهـا الطليان هي والنواحي الأربعة ، فكانت جيوشهم تقتل وتفظع وتهتك ؛ لا تحترم وقار الشيوخ ، ولا ضعف الاطفال وحرمة النساء .

وكانت أكثرية هذه الجيوش من المرتزقة ، من العرب والبربر ، برياسة يوسف خربيش .

ويقدر الجيش الإيطالي ـ بما فيه من الإيطاليين والأحباش ، والمرتزقة ـ بحوالي ثلاثين ألف مقاتل . بما يلزمهم من عتاد حربي وكادت ترهونة تؤخذ على غـرة لولا عناية الله . وخرج أهلها بدون دفاع عنها .

وتابع العدو زحفه الى الشرق . فتلقاه المجاهدون في (عشيبة) [1] وبعد

---

(١) قرية صغيرة في الجنوب الغربي من قصر القربولي كانت في ذلك الوقت مركزاً لتجمع المجاهدين .

معركة كبيرة انسحب المجاهدون . وهذه القوة هي أحد فكي الكماشة الإيطالية الشمالي التي يقابله الفك الجنوبي الذي تغلب على المختار كعبار في غان وكور على حدود ترهونة الجنوبية الغربية. واستمرت قوة الطليان في زحفها، فالتقت بالمجاهدين في رأس غزال [١] في أواخر ينـاير ١٩٢٢ . وحصلت بينهم معركة كبيرة .

ومعركة رأس غزال من المعـارك المشهورة في الحروب الطرابلسية . استشهد فيها من قماطة وحدها ٣٦٠ شهيداً، ما عدا من استشهد من ترهونة والقربولـّي .

وانتقل من بقي من المجاهدين إلى (قصر خيار) [٢] . وكان به الشيخ علي بن رحاب رئيس المنطقة الإداري ورئيس المجاهـدين . ولم يقو المجـاهدون على الصمود فانسحبوا الى (العلـّوص) [٣] وصاروا يناوشون العدو من ميمنته في الجنوب الشرقي من قصر خيار .

ولما وصل العدو قصر خيار حاول الشيخ علي بن رحاب أن يتصل بسعدون رئيس جيش مصراتة بالتليفون ، ولكن وصل الخبر متأخراً، فتحرك بجيشه من مصراتة لملاقاة الإيطاليين .

وجاءت نجدة من مسلاتة وشقران والتقوا بإخوانهم المجاهدين في العلـّوص وحاولوا الثبات أمـام العدو ، وأرسلوا في طلب النجدة ممن حولهم ، ولكن قوة العدو كانت كثيرة فتغلبت عليهم ، وخاف مجاهدو مسلاتة على بـلدهم وحريمهم ، فـذهبوا إلى مسلاتة ؛ ليبعدوا أهلهم عن طريق العدو . ووصلت قوة العدو إلى (غنيمة) [٤] .

---

(١) موضع غربي قصر خيار ، وقريب من القربولي .

(٢) قصر قديم في أرض قماطة ، من قصور بني خيار ، إحدى قبائل البربر القدماء .

(٣) أرض في قماطة من الكيلو ٨٠ الى الكيلو ٨٨ يطلق عليها كلمة العلوص .

(٤) بلد كانت في القديم تابعة لمسلاتة .

وشاع خبر وصول سعدون في جيش مصراتة ، فعسكر العدو في غنيمة خوفاً من مباغتة سعدون له في مضايق النقازة [1] .

وفي هذه الأثناء كانت القوة التي احتلت ترهونة – وهي شق الكماشة الإيطالية الجنوبي – اتجهت إلى مسلاتة لتتصل بالقوة الثانية وهي شق الكماشة الشمالي . وفي هذه الأثناء واصل العدو سيره إلى السلحيبة ، فالتقوا فيها بسعدون في أول فبراير سنة ١٩٢٣ م. وأمكنه أن يوقفهم عن الوصول إلى مسلاتة حتى يتمكن سكانها من نقل الحريم والأطفال . ووقعت فيها بينه وبينهم معركة هائلة استشهد فيها أكثر الجيش الذي كان معه ، وكان أكثر من استشهد من جماعة تاورغة وكان مع سعدون الشيخ علي بجيح . وأعاد الطليان الكرّة على سعدون فتخلى عن السلحيبة واحتلوا القصبات عاصمة مسلاتة . وانضم إلى سعدون جماعة مسلاتة وشقران بعد أن أجلوا عائلاتهم عن طريق العدو ، فانحاز بهم سعدون إلى القطارة بقصد منع تقدم العدو إلى زليطن والساحل ، وانضم إليه كذلك جماعة من زليطن والجحاوات .

وقد ترك الطليان سعدون واقفاً في السلحيبة وحالوا بينه وبين التقدم إلى مسلاتة ريثما تجتمع جيوشهم وتنظم من جديد . وبقيت جيوش الطليان نحو عشرة أيام لا تقوم بغير حركات الاستطلاع . وفي هذه المدة اجتمعت جميع الجيوش في ترهونة ومسلاتة ، وبقيت تنتظر الأمر باستئناف الزحف .

وفي يوم ٢٠ من فبراير سنة ١٩٢٣ صدر لها الأمر بالزحف على الساحل وزليطن ومصراتة . فزحف بيزري في قوة من طريق الخمس – سوق الخميس . وزحف جرازياني في قوة على طريق الداوون والقطارة . وكانت قوة ثالثة تعسكر في السلحيبة ، وبهذا تكون الجيوش الإيطالية أحاطت بسعدون من الشمال والجنوب والغرب في كماشة تحاول أن يلتقي فكّاها وراءه من الجهة الشرقية . وفي يوم ٢٣

---

(١) رؤوس جبال صعبة المسالك بأرض قماطة .

منه اصطدمت قوة العدو الشمالية بجماعة من مجاهدي تاورغة ومصراتة ، فلم تقدر قلتهم على دفع كثرة العدو الجارفة ، وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وتقدمت في طريقها إلى الشرق . وحبس محمد سعدون القوة التي خرجت عليه حتى الليل.

احتلال زليطن يوم الجمعة ١٦ من رجب سنة ١٣٤١ :

وتقدمت قوة بيزري حتى دخلت زليطن من ناحية الجمعة يوم ٢٣ من فبراير سنة ١٩٢٣ واحتلت مرتفعات ماجر الشمالية ولم تلق مقاومـة . وبقي سعدون أمام ملتقى الكماشة ، وقد أدرك خطر مركزه وأن فكـيّها سيلتقـيان وراءه إذا بقي في مكانه ،فانسحب ليلاً إلى وادي ماجر قبالة زليطن ، وبهذا خرج من وسط الكماشة ، وأمن الطريق بينه وبين مصراتة .

وقد طلب سعدون من رؤساء ترهونة الثبات وجمع المسلحين لمساعدته في صد تيار العدو، ولكن الناس كانوا فيحالة يأس وعدم استقرار فلم يستجيبوا لطلبه، وبقي هو في قلة من المجاهدين والعسكر لبذل آخر جهد في تأخير تقـدم العدو حتى يتمكن الناس من إخراج النساء والأطفال إلى البادية .

كل هذا وحكومة مصراتة ما تزال باقية فيها . وما زال المجاهدون يرابطون على قصر حمد . على أن الطليان لم يحاولوا الهجوم على المواطنين من قصر حمـد منذ معركة يوم السبت التي تقدم ذكرها ، وبقوا ينتظرون نتيجة الهجوم البريالذي أعدّوا له العدّة ، والذي قاربت طلائعه تصل إلى مصراتة .

وقد أخبر سعدون ـ وهو في ماجر ـ حكومةمصراتة بتقدمالعدو واحتلاله زليطن والساحل ، وفشله في إقناع رؤساء ترهونـة بالثبات وجمع المجاهـدين ، فرأت حكومةمصراتة أن ليس من الممكن الدفاع عنها، لأن جميع البلاد الغربية سقطت في يد العدو . والجيوش البرية في تلك الكثرة الهائـلة احتلت زليطن وأصبحت على حدود مصراتة الغربية . والأسطول واقف لهـا بالمرصاد في قصر

حمد بمدافعه وجنوده . وعلى ضوء ما يبدو من كل هذه الظروف القاسية قررت الرحيل عن مصراتة .

وقبل انتقالها بأربعة أيام تقريباً أباحت الرحيل للسكان فأخذوا يرحلون عن البلاد ، وأخذت هي في نقل أثقال الجيش وأمتعته ، وبقي الجيش في أماكنه في مواجهة العدو حتى يتمكن الناس من نقل ما يهمهم نقله . وكان تقدم العدو في استمرار .

وفي ٢٦ من فبراير سنة ١٩٢٣ وصلت قوات العدو إلى « بوروية » وفي هذا اليوم غادرت حكومة مصراتة المواطين ، وفي الساعة الخامسة والنصف منه احتلها العدو .

احتلال مصراتة

١٨ من رجب سنة ١٣٤١ هـ — ٢٦ من فبراير سنة ١٩٢٣ م

لا شك أن مصراتة هي مركز الحركة الوطنية الطرابلسية ومنبع قوتها . وقد أثبتت التجارب وتقلّبات الأحوال في طرابلس أن حياة الحركة الوطنية فيها رهن بوجود مصراتة في يد العرب ، وما خرجت مرة من أيديهم إلا وانقطع الجهاد من طرابلس .

وإذا تتبعنا تاريخ مصراتة في الجهاد الطرابلسي نجد أنها لم يستول عليها العدو استيلاء كاملاً إلا مرتين : مرة عقب صلح أوشى سنة ١٩١٢ ، وكان استيلاؤه عليها لا بالحرب بل باستسلامها بمقتضى صلح أوشى ، شأنها في ذلك شأن جميع المدن الطرابلسية . وقد أجلاهم عنها رمضان في أغسطس سنة ١٩١٥ . أما المرة الثانية فهي هذه التي حصلت في ٢٦ فبراير سنة ١٩٢٣ . وقد حصلت أثناء نهاية مؤلمة ، فكانت ضربة قاصمة للحركة الوطنية . وكان سقوط أي مدينة

غيرها من مدن القطر لا يعدو أن يحدث فتورا جزئياً في الناحية الـتي تتبع تلك المدينة ، مما أثبت أن مصراتة قلب الحركة الوطنية في طرابلس وشريان الحياة فيها .

وقد كان سقوطها هذا الذي نحن بصدد تقييد حوادثه أمضى خنجر طعنت به الحركة الوطنية فقضى على حياتها. وليس ذلك من تقصير أو تفريط من مصراتة. ولكنه نتيجة لتلك الشيخوخة التي دبّت ـ مبكـّرة ـ في جسم الحكومة الوطنية لعوامل كانت مصراتة وحكومتها بعيدة عنها كل البعد .

وهكذا نجد التاريخ الوطني في طرابلس لا يمر بمصراتة إلا وقف عندها موقف الإجلال والتعظيم ، وأكبر منها مـا نشـّأها عليه البطل العظيم رمضان بك السويحلي من روح التضحية والجهاد . شكر الله له ما خلـّد لنا من مجد ، وما ترك لنا من حسن الأحدوثة .

وبعد احتلال مصراتة أنشأ الطليان قيادتين : قيادة في الشرق يمتد نفوذها إلى مسلاتة والخمس ، وقيادة في الجبل يمتد نفوذها إلى حدود ترهونة الشرقية . وأسندت إلى وولبي جميع الأمور المدنية والعسكرية ، وبذلك جمع إلى رياسة الحكومة قيادة الجيش من سرت إلى حدود تونس .

انتقال حكومة مصراتة :

خرجت حكومة مصراتة من المواطين بما معها من العسكر ، وأخرجت من أثقالها ما لا يمكن الاستغناء عنه ، تتمهل في السير ليتمكن الناس من الإبتعاد بأطفالهم ونسائهم عن مواطن الخطر. وتلبثت قليلاً في السّكت [1] لهذا الغرض.

ولم يرَ محمد سعدون من الصواب رجوعه إلى مصراتة ، بل ذهب من ماجر

---

(١) السكت : مكان جنوبي مصراتة على مسافة ساعتين .

إلى « عبد الرؤوف »[١] وهو مستودع عتاد الجيش الحربي ومعداته ، فأمر بنقل ما فيه إلى « أسيوطة »[٢] ونقلوا منه ما أمكن نقله .

وكان الطليان يعتمدون في هذه الحرب على جيش المرتزقة برياسة خربيش . فلم يترك في طريقه بلداً إلا أحرقه ، ولا مالاً إلا نهبه . واستعملوا القتل في غير رحمة . وكم من شيخ وطفل استجار بهم فلم يجيروه . وكان الإنتقام من أجلى مظاهر هذه الحرب يستوي في ذلك الحبشي والمرتزق والإيطالي ، ويشاركهم في ذلك القائد والضابط بدون أن نحاشي أحداً ينتمي إلى هذا الجيش.وباستيلاء الطليان على مصراتة تمّ لهم الإستيلاء على جميع السواحل وخط الجبل . ولجأ أكثر سكان السواحل إلى الجنوب ، ونزل كثير منهم وادي بني وليد وامتدوا في أراضي أرفلة إلى نفد ، وذهب بعضهم إلى فزان وسرت .

محمد سعدون في أسيوطة :

بقي محمد سعدون في أسيوطة ، والتحق به بقية عسكر مصراتة والذين كانوا مرابطين في قصر حمد.وكانت حالة الجلاء حالة مؤسفة لقلة وسائط النقل، ولبطء حركة النساء والأطفال، ولفقر كثير من الناس وعجزهم عن تموين أنفسهم ونقل أثقالهم ، فكانت هذه الاعتبارات داعية لتريث محمد سعدون في أسيوطة ريثما يتاح للناس الوقت الكافي لابتعادهم عن منطقة الخطر في طمأنينة وراحة. وبعد أن أمن الناس شرّ العدو ، واختاروا لأنفسهم مناطق في البادية ينزلون فيها انتقل سعدون من أسيوطة إلى أم العرفج ، ونقل ما معه من معدّات الحرب ورابط فيها . وصارت دورياته تراقب حركات العدو . واختار الناس منازل لاستقرارهم ، فنزل جماعة المحاميد والبلاعزة في وادي سوفجّين بقرب قلمة الشيخ ، ونزلت مصراتة في نفد وما حوله . وتقارب الناس بعضهم من

---

(١) عبد الرؤوف : مكان جنوبي مصراتة ويسمونه « عبد الروف » .

(٢) أسيوطة : مكان جنوبي مصراتة بنحو أربع ساعات .

بعض ، وكانوا جميعاً يسكنون الخيام والأخصاص وقد استقرّ بهم المقام إلى حدّ ما .

حكومة مصراتة في نفد :

ومنذ أن خرجت حكومة مصراتة من المواطين جعلت وجهتها وادي نفد ، فاستقرت فيه ، ونقلت إليه بعض المهمات عدا ما بقي مع سعدون في أم العرفج. وفي أواخر مارس سنة ١٩٢٣ اجتمع المجاهدون من البلاعزة والمحاميد ومصراتة وغيرهم والتحقوا بسعدون في أم العرفج، ثم انتقلوا إلى تاجموت والقديرية لمراقبة حركات العدو من قرب لأنهم كانوا يترقـّبون خروجه إلى تاورغة . وبقي العدو في مصراتة من ٢٦ فبراير إلى آخر إبريل يعدّ نفسه للخروج على المجاهدين .

وفي أول مايو سنة ١٩٢٣خرج العدو من مصراتة في قوة كبيرة[1] لاحتلال تاورغة . وقد التقى ببعض خيالة المجاهدين في القُديرية . وبعد مناوشة معهم تمكن من احتلال تاورغة في مساء هذا اليوم. واستشهد في هذا اليوم خالد مدالي وهو من أعيان تاورغة . وقد قرب لهم احتلال تاورغة المسافة بينهم وبين المجاهدين . وفي يوم ٣ منه التقت دوريات المجاهدين المرابطة على تاجموت بجماعة من خيالة العدو . وفي اليوم الرابع منه خرج العدو في قوة كبيرة .

واقعة المشرك[2] :

من أكبر المعارك وأكثرها خسارة على المجاهدين واقعة المشرك . وقد خرج العدو في يوم ٤ من مايو سنة ١٩٢٣ من تاورغة في قوة كبيرة وتلقـّاه المجاهدون في

---

(١) يقول جرازياني : إن هذه القوة مؤلفة من ١٣٠٠ جندي و ٢٠٠ فارس ومدفعين .

(٢) هذه هي المعركة الثانية في الحروب الطرابلسية التي ينصرف فيها المتحاربان من ميدان المعركة وكل منهما يعتقد أنه مغلوب . والمعركة الاولى هي التي قتل فيها حسين الكريتلي في سبتمبر سنة ١٩١٧ .

المشرك ونازلوه القتال فكانت معركة حامية الوطيس دامت من الصبـــاح إلى الظهر . وقد أبلى المجاهدين فيها بلاءً حسناً . وكان محمـد سعدون رئيس المجاهدين يقتحم صفوف العدو في جرأة فائقة ممـا شجع المجاهدين على الثبات والتدافع على الموت . وكانت رغبة التغلب على العدو تدفعهم إلى اقتحام صفوفه في غير مبالاة به . وكانوا أشبه شيء بالمتبارين في النيل من العدو للوصول بنتيجة المعركة إلى رجحان كفتهم . وقـد كان لكثرة جند العدو وكثرة معداته أثر واضح في الحد من وصول المجاهدين إلى الغاية . وقد انصرف كل من المتقاتلين وهو يعتقد أنه مغلوب . وبعد هذه المعركة خرج الطليـان من تاورغة وذهبوا إلى مصراتة . وانجلت المعركة عن نحو ١٥٠ قتيلاً تشرّفوا بالشهادة في سبيــل الوطن . وكان في مقدمة هؤلاء الشهداء محمـد سعدون القائد العام للمجاهدين .

ومن هؤلاء الشهداء الشيخ السنوسي الكاسح من العبادلة ، والشيخ محمد بن عبد الله الدّكام من الطبول ، ورمضان بن عبـد السلام الأدغم ، وسعيد بن موسى البرزان من مصراتة برتبة ضابط ، وعبد الرحمن أفندي التريكي من البلاعزة [1] وجرح الشيخ علي بنّيني [2] ، وغير هؤلاء كثير من الشهداء والمجروحين ، ونظراً لشدة المعركة فقد ترك المجاهدون قتلاهم في المعركة كما ترك العدو قتلاه كذلك .

وفي يوم الأحد التالي ليوم المعركة رجع الناس إلى محل المعركة لنقل الشهداء ، فنقل سعدون إلى السدادة ، ودفن فيهـا يوم ١٩ من رمضان سنة ١٣٤١هـ الموافق ٥ من مايو سنة ١٩٢٣م .

وفي أواخر شهر مـــايو من هذه السنة الموافق شهر شوال ١٣٤١هـ كانت سيارة ايطالية ذاهبة من العزيزية إلى غريان ، وفيها بعض الضباط الإيطاليين فهاجمها جماعة من البلاعزة منهم علي بن فرج بن وليد وعلي البشت قبل ان تصل

(١) من بلاعزة المطرد ـ بالزاوية ـ وهو جندي باسل برتبة « ضابط » وكان من المتفوقين في استعمال المدافع الرشاشة ، ومن الذين يعتمد عليهم سعدون في حروبه . استشهد وهو على مدفعه الرشاش رحمه الله .

(٢) من بلاعزة الزاوية من أولاد صقر ، جلا إلى فزان وتوفي هناك .

ثنية بوغيلان ، وقتلوا من فيها من الضباط ، وأخذوا مـــا فيها من أمتعتهم وأحرقوها .

بعد موت سعدون :

كان لموت سعدون أثر بيّن في ضعف قوة المجاهدين المعنوية ، فكان ـ رحمه الله ـ شجاعاً قوي الإرادة ، مهاب الجانب ، مقداماً في الحروب، لا يبالي أنزل على الموت أم نزل الموت عليه ، وقد أُعجب بمضاء عزيمته المجاهدون والجند إلى أبعد حـــد ، فكان عندهم مثالاً للرجولة الكاملة ، والتضحية الخالصة في سبيل الله والوطن .

ولم يكن أفراد الشعب أقل إعجاباً به من المجاهدين والجند ، فكان لاسم سعدون من نفوسهم مكان الإحترام والتقدير لما قدّمه من خدمات صادقة لوطنه. وكان موته في ظرف ساءت فيه حال المجاهدين ، وتوالت انتصارات العدو . وكان العثور على مثله في ذلك الوقت في حكم المتعذر أو يكاد. لهذا كله كان موت سعدون محفوفاً بكثير من أسباب اليأس من القدرة على مكافحة العدو ، وبفتور في العزائم وهنت معه قوى الناس المعنوية .

وقد حدث ذات مرة أن الطليان اتفقوا مع سعدون (شفهياً) على أمكنة معيّنة يقف كل من الطرفين عندها لضرورة كانت قائمة . ولم يلبث الطليان أن حاولوا نقض هذا الاتفاق الشفهي فكتب القائد الإيطالي إلى سعدون يقول له : انك لم تقف عند الحد الذي اتفقنا عليه واحتللت أمكنة كانت لنا . فرد عليـه سعدون بقوله : اننا لا نعلم هذه الأمكنة التي تدّعيها لنفسك ، فإن كل ما تدعيه في البحر والبر والجو هو لنا . فردّ عليه القائد : ما ادعيته لنفسك هو لنا، ولو حفرت تحت أقدامك لوجدت عظام أجدادنا . فردّ عليـه : إن مجيء أجدادك الى هذا الوطن كان اعتداء على سكانه، وكذلك مجيئك أنت كان اعتداء علينا .

وقد شغل الذين يعنيهم الأمر بالتفكير فيمن يخلفه في رياسة الجيش والمجاهدين،

وقد رأوا ـ للضرورة الملحّة ـ أن يعينوا بدله الحـاج علي المنقوش . وانتقل مجلس قيادة المجاهدين من أم العرفج إلى نفد ، ونقل إليه ما كان فيها من أثقـال الجند ومتاعهم . ويظهر أن في الحاج علي المنقوش حدة في الطبـع جعلت ضباط الجيش يشعرون بوحشة من ناحيته ، فتقدموا إلى حكومة مصراتة بطلب تعيين إبراهيم بن رمضان بك قائداً للجيش بدلاً من الحاج علي المنقوش فكان ذلك .

إبراهيم السويحلي :

أسندت رياسة العسكر والمجاهدين إلى إبراهيم بن رمضان بـك السويحلي ، وهو حدث السن لا يبلغ السابعة عشرة . ونظراً لصغر سنه كانت توليته محـل انتقاد من بعض الناس ، لأنه كان في الجيش ـ بل وفي المجاهدين ـ من هو أكبر منه سناً وأدرى بشؤون الحرب والقيـادة . ولم يكن في الوقت متسع لمناقشة آراء المعترضين، لأن مسألة الدفاع كانت تمشي إلى النهاية بخطى واسعة ، والمنتقدون أنفسهم كانوا يدركون هـذا ، لذلك لم يكونوا شديدي الحرص على التمسك بآرائهم ، وترك الأمر يسير في طريقه تحيط بـه جميع عوامل الانحلال وسار إبراهيم السويحلي في وظيفته ، مسترشداً ببعض الآراء تحت إشراف عمه أحمد بك رئيس الحكومة. وكان عمه يعالج الأمور بما يتناسب مع ذلك الوضع القائم الذي أشرفت فيه جميـع الأمور على النهاية .

صفي الدين في نفد :

لا شك أن السنوسية كانوا يعرفون إلحاح الطرابلسيين في تنفيذ معاهدة سرت وشروط البيعة ، ويشعرون بأنهم لم يفوا بشيء مما جاء فيها .

وقد أدركوا من طريق اليقين أن عدم تنفيذ معاهدة سرت وشروط البيعة

كان من أقوى الأسباب المباشرة في ضعف المقاومة في طرابلس . ويعلمون أن قبول السيد إدريس بيعة الطرابلسيين كان على خلاف رغبة الطليان . وأن سفره الى مصر سيؤثر في حالة المقاومة في طرابلس ، كما يؤثر في حالة الاستقرار التي كانت موجودة في برقة ، لأن الطليان سيهاجمونها نتيجة لقبول السيد إدريس بيعة الطرابلسيين التي يعتبرونها مناقضة لما بينه وبينهم من المعاهدات .

فلهذه الأسباب رأوا أن يرسلوا صفي الدين الى نفد ، حيث تقيم رياسة المجاهدين الطرابلسيين ، ليحاول اصلاح ما ترتب على عدم تنفيذ معاهدة سرت وشروط البيعة من فساد . فوصل الى نفد في ذي القعدة سنة ١٣٤١هـ يوليه سنة ١٩٤٣م .

وليت هذا المجيء كان قبل تغلب العدو وجلاء الناس الى البادية ، وليته أيضاً كان مصحوباً بالمعونة من المال والرجال التي وعد بها السنوسيون ، ووفاءً بقرارات مؤتمر سرت وشروط البيعة . وقد جاء في جماعة أشبه بحراس له لا يتجاوزون عدد الاصابع ، ولم يأت معه حتى بما يقوم بنفقته الخاصة .

وقد كاتب صفي الدين ـ وهو في طريقه الى نفد ـ عبد الجليل سيف النصر، فالتحق به في سرت ، وقدموا جميعاً الى نفد في ذي القعدة سنة ١٣٤١ . وما لبث عبد الجليل أن غادر نفد ورجع الى الجفرة ، وبقي صفي الدين معنا .

وقبل رجوع عبد الجليل إلى الجفرة كلفه صفي الدين بالذهاب إلى عبد النبي ليدعوه إلى الاتفاق وتوحيد الكلمة ، فلم يرضَ ، لأنه يعتبر دخول عبد النبي في الاتفاق خضوعاً لمصراتة وهو لا يوافق على ذلك .

وقد دلّ عبد الجليل بموقفه هذا على أنه يؤيد تمادي عبد النبي على موقفه المخالف . وهذا ما كان الناس إذ ذاك مقتنعين به ، ومن ضمنهم السيد صفي الدين [١] .

---

(١) صرح السيد صفي الدين بهذا في سياق حديث لأحمد بك السويحلي .

وكاتب صفي الدين عبد النبي يدعوه إلى الاتحاد مع المجاهدين فلم يعبأ بذلك، لأنه ما زال يحفظ له ذلك النزاع الذي حصل بينهما في أرفلة عقب القرضابية سنة ١٩١٥م .

إرسال وفد إلى الزنتان :

كان الزنتان والمقارحة وأولاد أبي سيف يقيمون في طبقة ، والقريات ، وقرزة ، والوديان ، والحمادة ، ولم يشاركوا في الحرب الأخيرة التي قامت سنة ١٩٢٠ لا بقليل ولا بكثير. وكان مما فكّر فيه الناس إذ ذاك بعد مجيء صفي الدين إلى نفد إرسال وفد اليهم للاتفاق مع المجاهدين وإرسال المعونة إليهم من المال والرجال . وانتخب الوفد من الشيخ الطاهر الزاوي ، وعبد السلام العربي، وعبد السلام التومي ، والمبروك الغدي ، والحاج علي المنقوش ، والشيخ أبي القاسم الطبولي . وصدر الأمر إلى الوفد بالتوجه إلى حيث يقيم هؤلاء العربان في ٢٨ من ذي القعدة سنة ١٣٤١هـ (يوليه سنة ١٩٢٣م) واستعد الوفد للسفر، وسافر في منتصف ذي الحجة من هذه السنة ، ومر في طريقه إلى الزنتان بالشيخ أحمد قرزة في «قرزة» واجتمعنا به وبالشيخ أبي بكر قرزة. وكان أولاد أبي سيف منضمين في ميولهم السياسية الى المشاشية والبربر في حروبهم مع الزنتان والرجبان لما بينهم وبين المشاشية من صلة قديمة ورابطة الجوار والمناصرة .

وقد شرح لهم الوفد مهمته التي جاء من أجلها وطلب إليهم الانضمام إلى المجاهدين ومعونتهم بالمال والرجال ، فكان عذرهم أن الوقت لا يسمح بمغادرتهم منازلهم لما يتوقعونه من هجوم الزنتان والمشاشية بعضهم على بعض ، وبما أن منازلهم قريبة من منازل المتحاربين فقد تنجر إليهم الحرب، وأظهروا أن بودّهم لو تتاح لهم فرصة المعاونة. ورأوا أن فيما أبدوه من المعاذير مبرراً لعدم الاشتراك في الحرب . وانتهوا مع الوفد إلى رأي : هو أنه ما لم يتفق الزنتان والمشاشية فلا يمكنهم تقديم أي مساعدة .

ومررنا في طريقنا إلى الزنتان في القريات وطبقة ، واجتمعنا في القرية الشرقية بالشيخ سالم بن عبد النبي . وفي طبقة بالشيخ أحمد الأزهري والأستاذ محمد الإمام وغيرهم من أعيان الزنتان وشرحنا لهم حالة المجاهدين وما آلت إليه من ضعف . وأكّدنا لهم أن الموقف يتطلب المعونة وجمع الكلمة ، فكان عذرهم لنا هو أنهم في حالة حرب مع المشاشية وهم ينتهزون لنا الفرص للهجوم علينا ، وعلى هذا فلا يمكننا أن نستغني عن أحد من رجالنا ، ونحن دائماً في انتظار غزو أعدائنا علينا .

مناورة :

وقد أراد الزنتان أن يثبتوا هذه الحقيقة للوفد من طريق المشاهدة، فدبّروا فيما بينهم أن يحضر المسلحون على خيلهم وإبلهم في صبيحة يوم اتفقوا عليه . وفي ذات صباح عند بزوغ الشمس لم يشعر الوفد الا والخيل تحمل الرجال ، والإبل تحمل الأزواد والمسلحين في كثرة تعد بالمئات وهم يتنادون للحرب وللأخذ بالثأر ، فلما سألنا عن الخبر أجابونا بأن المشاشية أغاروا على مواشينا ونحن ذاهبون الى ملاقاتهم، فركبنا معهم وسرنا الى حيث هم سائرون. وحوالي الظهر أبلغوا الوفد بأنه اتضح لديهم أن الخبر مكذوب .

والوفد يعلم حق العلم أنها حيلة مدبرة ليبرروا بها امتناعهم عن معونة المجاهدين والاشتراك في الحرب . وقد خيل إليهم أن مثل هذه المناورة تبرر موقفهم وتقنع الوفد بصحة ما انتحلوه من أعذار . وقد ثبت للوفد أن محاولة إقناعهم بالمشاركة في الحرب ومعاونة المجاهدين محاولة فاشلة لأن ارتكابهم مثل هذه المناورة دليل على الإصرار على التمنع ولا شك .

وآخر ما اتفق عليه الوفد مع أعيان الزنتان أن يسافر الوفد ويلتحق به الشيخ أحمد الأزهري عند السيد محمد بن بشير من أعيان أولاد أبي سيف ليبحثوا الأمر بحضوره . فسافر الوفد ومرّ في طريقه بأولاد أبي سيف ونزل عند السيد

محمد بن بشير ، ولم يطل الوفد الانتظار عنده وسافر إلى نفـــد حيث مركز المجاهدين قبل أن يلحقه الشيخ أحمـد الأزهري عنـــد السيد محمد بن بشير . واستغرقت مهمة الوفد بقية ذي الحجة سنة ١٣٤١ وأكثر المحرم سنة ١٣٤٢ .

ملحوظة :

إن أولاد أبي سيف والزنتان والمقارحة من سكان البادية ، ما زالوا في حالة بدوية بدائية . ومنازلهم في الوديان، ووادي قرزة والقريات ، وطبقة والحمادة. وينتشرون في تلك الأراضي الواسعة إلى ملاحة غدامس وصحراء فزان . وهي مساحات من الأرض يحتاج الراكب في قطعهــا إلى سير عشرات من الأيام . وأسرع ما عندهم من وسائل المواصلات الإبل ، فإذا أرادوا أن يتبادلوا الرأي في موضوع فلا بد من الوقت الكافي لقطع هذه المسافات على الإبل ليتصل بعضهم ببعض . وفيما إذا اتفقوا على شيء ووصلوا إلى دور التنفيذ فلا بـــد من الوقت الكافي أيضاً لجمع ما اتفقوا عليه وتوزيعه على القبائل، بحسب كبر القبيلة وصغرها وبُعد القبائل وقربها بعضها من بعض .

فهذا الوضع الإجتماعي لسكان البادية يجعل الانتفاع بهم متعذراً ، وإقناعهم بواجب الوطن يحتاج إلى كثير من الوقت للتأثير فيما ألفوه في محيطهم الضيق وتفكيرهم المحدود، وظروف المجاهدين لا تتسع لبعض هذا لما هم فيه من مضايقة العدو وقلة ذات اليد .

على أن هؤلاء الإخوان سكان البادية لم يكونوا في غفلة عن جلاء المجاهدين من السواحل ، وعن انتصارات الطليان عليهم ، وهم يعلمون أن أهل السواحل هم الحصن الذي إذا اقتحم فشلت المقاومة في طرابلس كلها . ورغم هذا كله فقـد وقفوا ذلك الموقف الذي أعيى الوفد إقناعهم بالتحوّل عنه ، واعتذروا بتلـك

الأعذار التي أفهمهم الوفد أنه غير مقتنع بها . وما كان وضعهم الاجتماعي يسمح لهم بغير هذا التفكير الضيق الأفق .

وكانت الفكرة السائدة في محيط حكومة المجاهدين أن هذه الوفود وهذه المكاتبات شبيهة برقصة المذبوح ، أو بتعلق الغريق بأشعة الشمس ، وهي طرق يرى فيها المضطر تأدية ما بقي عليه من واجب حتى إذا نزلت المحنة لم تجد نفسه طريقاً لتأنيبه على التقصير .

رجع الوفد في المحرم سنة ١٣٤٢ إلى نفد حيث حكومة المجاهدين ، واتضح لحكومة مصراتة أن السيد صفي الدين لم يأت معه بشيء لا من المـــال ولا من الرجال . ولم يلبث أن طلب من حكومة مصراتة فرض مرتبـات له ولحاشيته وأجرت عليهم نفقات يومية ، واستمر معنا في نفد نحو أربعة أشهر أنفقت عليه حكومة مصراتة فيها ٨٢ ألف قرش .

وكانت حكومة مصراتة تؤمل أن يأتي صفي الدين معه بجيش من برقة مزوّد بما يلزمه من السلاح والأرزاق ليجاهد مع المجاهدين ، ولكنه لم يفعل ، بل جاء معه بحاشية من الخدم والإخوان وأصبح هو وإياهم عبئاً على خزانة المجـاهدين .

رغبة :

رغب السيد صفي الدين أن يكون له الإشراف على خزانة حكومة مصراتة : ما يدخل فيها وما يخرج منها . ودعم هذا الطلب بما له من الحق من النيابة عن الأمير ، وكاشف حكومة مصراتة بهذه الرغبة ، فاعترضت حكومة مصراتـة بأنه إذا كنت تريد أن تتمسك بهذا الوصف ، فيجب أن تطبقه على أرفلة وعبد الجليل وخليفة الزاوي في فزان وأولاد أبي سيف والزنتان والمقـارحة وعربان سرت وغيرهم ، لأن الإمارة – إن صحّت – فهي على جميع القطر لا على مصراتة وحدها ، ونحن أول من ينفذ هذه الرغبة ، أما بغير هذا فلا . وعلى كل حـال

فنحن مستعدون للإنفاق عليك مـــا دمت مقيماً معنا ، وانتهى الحديث إلى هذا الحد .

إرسال وفد الى مصر :

أصبح الأمل في عودة السيد إدريس من مصر كأمل الغريق في نجاته بأشعة الشمس ، ووقر في أذهان الناس أن البرقاويين لا يقومون بأي مساعدة إلا من طريق إدريس . على أن مجيء صفي الدين على تلـك الحال أثبت لديهم أن السنوسيين والبرقاويين لا ينوون القيام بأي مساعدة حربية ، بـل ولا تخطر ببالهم ، ولكن كان يغريهم بهذه الآمال الكاذبة ذلك الموقف الذي كان يتهددهم بالخطر من كل جانب : فجيوش الطليان تتقدم في كل يوم على المجاهدين ، وإن وقفت يوماً تقدمت أياماً ، واستماتة المجاهدين في الدفاع إنمـا ينشأ عنها تناقص مطرد في عَددهم وعُددهم . وما في خزانة الحكومة أصبح على وشك النفاد . وحالة الحرب ، وجلاء الناس عن أوطانهم من أقوى الأسباب التي حالت دون الاشتغال بالتجارة والزراعة . وامتناع عبد النبي عن المعاونة ، وامتناع عبـد الجليل سيف النصر وأولاد سليمان وقبائل الزنتان والرجبان وأولاد أبي سيف والمقارحة عن الدخول في الحرب – كل هذا كان سبباً في فشل الحركة وإشرافها على الغاية .

وكان الناس يرون في هذا التشتت المريع أقوى أسباب الانهيار . وقـد يكون وجود السيد إدريس من دواعي الإلفة وجمع الشمل ، فرأوا – بموافقة صفي الدين – أن يرسلوا إليه وفداً ليشرح له الحالة ويدعوه إلى المجيء فربمـا تأثرت نفسه بتلك الحال السيئة وأجاب الدعوة .

وتألف الوفد من الأستاذ عثمان القيزاني ، وعمر أفندي المتجون ، وخالد بك القرقني ، ومحمد أفندي التركي ، والشيخ مصطفى الترجمان . وتوجه الوفد من نفد

في صفر سنة ١٣٤٢ (سبتمبر سنة ١٩٢٣) . ووصل إلى مصر . وقد فطنت له السياسة الإيطالية فبذلت من المساعي لدى الحكومة المصرية مـا عاق مساعيه وحالت بينه وبين مقابلة السيد إدريس ، وسجن في حمام مريوط مدة من الزمن . وتوسط الطليان لدى الحكومة المصرية أن تسلمه إليهم ،ولكن فشلت وساطتهم



الوفد الذي أرسل إلى مصر لمقابلة إدريس السنوسي

بسبب مساعي عبد الرحمن بك عزام وغيره من رجالات مصر . وانتهت مساعي الطليان بإخراج الوفد من مصر .

عبد النبي في أرفلة :

منذ أن غزا رمضان بك السويحلي أرفلة اعتزل عبد النبي الطرابلسيين واتخذ وادي بني وليد مركزاً له، والتف حوله أكثر قبائل أرفلة، وكاتبه مؤتمر غريان ليدخل مع بقية مواطنيه فأبى . وحاولت هيئة الإصلاح المركزية أن تقنعه بضرورة دخوله فيما دخل فيه الناس ، وبذلت له من التوكيدات ما ينفي عن نفسه المخاوف من مصراتة وغيرهم فأبى ، ولما انتقلت حكومة مصراتة إلى نفد اجتمع به رؤساء القبائل وكبار المجاهدين لإقناعه بالمشاركة في الجهاد فأبى . وقد زادت هواجسه وقلقت نفسه من هجرة هذه الجموع الكثيرة من سكان السواحل وفي مقدمتهم حكومة مصراتة لأنه توهم أن حكومة مصراتة وسكانها سيطالبونه بثأر رمضان ، فأراد أن يختبر شعور هؤلاء الناس نحوه . وفي الوقت نفسه أراد أن يحدث فتنة بين ترهونة ومصراتة ، فأرسل وفداً مكوناً من عثمان السكبي ، وعقيلة التُلمَّاتي ، ومحمد بو حمرة ، واجتمعوا بأحمد بك السويحلي في نفد ، وتذاكروا معه في الحالة ، وصارحوه بأن المريِّض يميل إلى الطليان وسينتهز فرصة وجوده في سرت [1] للالتحاق بهم . وطلبوا منه الموافقة على القبض عليه. وعبد النبي لا يعتقد هذا في المريّض، ولكنها حيلة دبَّرها لإيقاد الفتنة بين مصراتة وترهونة .

وفهم أحمد بك السويحلي هذه الحيلة ، وأكَّد للوفد أن هذا الكلام لا صحة له، وأن المريِّض أبعد الناس عن العودة الى الطليان، ثم أكَّد لهم أن مصراتة لا تنوي شراً لعبد النبي ولا لغيره ، وإنما تريد الآن اتفاق الكلمة وجمع الشمل ، ورجع الوفد إلى عبد النبي وأخبره برأي أحمد بك السويحلي فلم تهدأ نفسه ، وطلب اجتماعاً آخر يعقد بقلعة الشيخ . وحدد الموعد ، وعقد الاجتماع في قلعة

---

(١) لما هاجر سكان السواحل بعد احتلال مصراتة ذهب المريض إلى سرت . وبقي أكثرية المجاهدين في أراضي أرفلة حول حكومة مصراتة .

الشيخ في رجب سنة ١٣٤٢ هـ. وحضره هو بنفسه ، وحضره من مصراتة : صديقنا التهامي بك قليصة ، وعبد السلام الجدايمي ، وشرف الدين العمامي ، وصالح المضوي ، وعبد السلام التومي ، وصالح البصير . واتهم عبد النبي المريّض بالخيانة ، ورماه بكل نقيصة ، وقد أكّد له جماعة مصراتة أنهم لا يقصدون أرفلة بسوء ، وقد تناسوا كل شيء ، وأنهم لا يقصدون إلا الاتفاق والاتحاد ، وأن ترهونة لا تقل رغبة عنهم في هذا المقصد الحسن ، وكل ما يقال خلاف هذا فهو خلاف الواقع ، وفتنة يروجها سماسرة السوء .

وأظهر عبد النبي الاقتناع ورجع إلى أرفلة ، ولكن هل عمل شيئاً يفيد المجاهدين ؟ كلا . ولما فشل في إيقاد الفتنة بين ترهونة ومصراتة اعتزل الناس وبقي في بني وليد يفرض الضرائب على ما يرد من سوقها من بضائع وحبوب وحيوانات ويجبيها لنفسه بصفته حاكم المنطقة . وكانت رسله تغدو وتروح بينه وبين الحكومة الإيطالية في مدينة طرابلس ويداهن الطليان بما يؤخر هجومهم على أرفلة ، وفي هذا التأخير قد تلوح له فرصة تكفل له تغير السياسة القائمة بينه وبينهم في مصلحته ، وهو يعلم أنه إذا لم تتغير سياستهم في مصلحته فسيفتكون به كما فتكوا بأمثاله من قبل .

واستمر على هذا الموقف المشين الذي كان من أكبر المعاول الهدامة في الحركة الوطنية . ومهما حاولت أن تقف له على عذر في حركته الانفصالية فما أنت بواجد ما يدفع عنه اللائمة سوى تلك الشكوك والأوهام التي أحاطت به بسبب خوفه من مصراتة ، وأمله في أن يكون انفصاله شافعاً له لدى الطليان .

وكان المجاهدون يهاجمون العدو في مصراتة على مرأى ومسمع من عبد النبي وقبائل أرفلة فكانوا لا يحركون ساكناً ، وكان عبد النبي لا يهمه من الأمر إلا جباية الأموال وخزنها .

وشبيه بموقفه هذا مواقفه الأولى ، ولم يغن عنه هذا الشذوذ شيئاً فمات

عطشاً في صحراء الجزائر طريد الطليان في نحو ٣٥ نفساً ممن معـه ، وحفظ له التاريخ شر ما حفظه لأمثاله ممن كانوا يتلمسون أوهى المعاذير للعمل ضد الوطن وقد أخطأه التوفيق في جميع أدوار الحركة الوطنية .

التفكير في القبض على عبد النبي :

ولما طال الأخذ والرد بين رؤساء المجاهدين وعبد النبي في التكلم في الاتفاق، وتحقق لديهم جميعاً تلاعبه فكـّر بعضهم في القبض عليه. وتقدم مختار بك كعبار بهذا الرأي إلى صفي الدين راجياً منه الموافقة عليه لاتخاذ التدابير اللازمة له ، ولكنه لم يوافق .

وكان مختار بك رحمه الله يرى أن من السهل تنفيذ هذه الفكرة ، لأن مركز أرفلة كان يسكنه كثير من المهاجرين من غير أنصار عبـــد النبي ، وقد أخبرني بأنه كان يريد إدخال جماعات آخرين من أنصار الحركة الوطنية إلى مركز أرفلة في دفعات متوالية وأوقات مختلفة حتى إذا ما تجمع منهم العدد الكافي للمقاومة ـ فيما إذا حصلت ثورة ـ عيّنوا الوقت المنـاسب وأوجدوا الظروف الملائمـــة ، وانتهزوا منه غرة لبدء العمل . وكان موقناً بنجاح هذه الفكرة ولم يخامره فيها أي شك .

وكان محمد سعدون السويحلي بعد خروجه من مصراتة فكـّر في أخذ عبـد النبي على أي وجه . واستشار فيـه بعض أنصاره ومنهم عون سوف ، ولكن أكثرهم لم يوافق خوف الفتنة . وقد سمعت من عون سوف أنه كان يعتقد نجـاح هذه الفكرة وأنه من السهل القبض على عبد النبي ، ولكن من المرجح أن تنتشر الفتنة بين القبائل ويصطف بعضها ضدّ بعض وتصبح المسألة أشد مما لو لم يقبض على عبد النبي .

مختار بك كعبار



زعيم من زعماء طرابلس وبطل من أبطال الثورة فيها . ينتسب إلى قبيلة الشراكسة من « قول أوغلية » الزاوية انتقل آباؤه إلى غريان واتخذوها وطناً لهم وأصبحوا فيها سادة محترمين .

ولد سنة ١٢٩٦ هـ في غريان، وفيها حفظ القرآن، وفي سنة ١٣١٤ ذهب إلى مدينة طرابلس لتلقي العلوم بمكتب الرشدية . وفي سنة ١٣١٧ التحق بمكتب العشائر في الآستانة ، وهو المكتب الذي أنشأه السلطان عبد الحميد لتعليم أولاد الأعيان ، لتكميل دراسته هناك ، وبقي فيه خمس سنوات ، وتخرج فيه ، ونال

منه الشهادة [1] . ثم التحق بمكتب الملكية – ودراسته تشبه دراسة التخصص – وبقي فيه سنة وأخذ منه الشهادة العالية . وكان في أدوار حياته التعليمية مثال النشاط والجد . وحينما تخرج من مكتب الملكية كانت سنه تناهز الثلاثين فعين سكرتيراً خاصاً للمشير رجب باشا في طرابلس ، ورجع وباشر وظيفته حوالي سنة ١٣٢٤ ، وفي هذه السنة رجع إلى الآستانة في إجازة ، وهناك عيّن موظفاً في معية متصرف أزمير إحدى الولايات التركية . وبقي في وظيفته هذه نحو ١٨ شهراً ، ثم عين سكرتيراً في مجلس شورى الدولة ، وبقي فيها نحو تسعة أشهر . وفي كل هذه الوظائف كان مثال الموظف المستقيم في أخلاقه وعمله ، وكان محل إعجاب رؤسائه وثقتهم .

وفي سنة ١٣٢٧ عين قائمقاماً في غدامس ، وبقي فيها سنتين ، وقبيل الإحتلال الإيطالي عيّن قائمقاماً في العجيلات وبقي فيها حتى احتل الطليان طرابلس . وفي أيام وجوده في العجيلات كثر تهديد الطليان وإشاعات احتلالهم البلاد ، فكان مثال النشاط في مراقبة البحر في منطقة نفوذه خوفاً من نزول الطليان .

واحتل الطليان البلاد في شوال سنة ١٣٢٩ فكان في مقدمة المحرضين على الثورة الغاضبين للكرامة . وفي سنة ١٣٣٠ ، وفي أثناء الحرب الأولى انتخب ممثلاً لمركز ولاية طرابلس في مجلس المبعوثان التركي فسافر إلى الآستانة على طريق تونس وأوربا .

ونظراً لتطور الحرب الطرابلسية واشتدادها رأى أن يرجع إلى طرابلس ليشارك في الدفاع عن وطنه ، فرجع إليها بعد ستة أشهر قضاها في الآستانة عضواً في مجلس النواب ،وكان رجوعه على طريق أوربا ثم تونس ثم إلى طرابلس ، وفي هذا الوقت كان يناهز الخامسة والثلاثين من عمره . وكان يملك من عقله وتفكيره خير ما يملك شاب مثقف في سنه ، مملوءاً حماساً وفتوة ، تقلّب في

---

(١) تساوي شهادة البكالوريا في مصر .

كبير الوظائف وصغيرها . فكان كبيراً في تفكيره، شاباً في نشاطه وقدرته .

وكانت إدارة الجهاد في طرابلس إذ ذاك برياسة نشأت بك، وكان مختار بك من ضمن الزعماء الذين يتولون شؤون المجاهدين مع نشأت. وتولى إدارة المجاهدين ما يتعلق بتوزيع الأرزاق ومرتبات الجند عدا ما أُسند إليه من شؤون مجاهدي غريان ومراقبة استبدالهم والسهر على شؤونهم . وكان على شيء كبير من دماثة الخلق والتأني في الحكم على الأمور ، مما مكّنه من ضبط عواطفه في كثير من المواقف . وإلى جانب هذا كانت عنده صلابة في الرأي إذا ما ظهر له وجه الصواب .

ولما عقدت معاهدة أوشي في أكتوبر سنة ١٩١٢ م كان من الفريق القائل بفتح المفاوضات مع الطليان ، على أن نحتفظ بكل ما لدينا من قوة وإدارة في صفوف متراصة وكلمة متحدة ، ثم ندخل في المفاوضات لنكمل بها ما أهملته معاهدة أوشي من حقوقنا ، فإذا لم نوفق عرض الأمر على الأمة وقررت فيه ما تراه .

ولما حصلت الثورة بعد القرضابية سنة ١٩١٥ م كان مختار بك في مقدمة الثائرين وأجلى الإيطاليين عن غريان .

وتقلص ظل الطليان من طرابلس كلها إلا من مدينتي طرابلس والخمس واتخذ مختار بك وأخوه الهادي بك والشيخ « سوف » وغيرهم من الزعماء العزيزية مركزاً لإدارة المجاهدين . وهناك وافاهم الباروني باشا قادماً من الآستانة .

وفي سنة ١٩١٨ كانت الغواصات تأتي إلى مصراتة، وهي بعيدة عن خطوط الحرب الغربية ففكّر هو وإخوانه أن ينشئوا محطة أخرى للغواصات غربي مدينة طرابلس . واختير ليسافر إلى الآستانة للقيام بهذه المهمة ، فذهب إلى مصراتة ليسافر منها بطريق الغواصة . وفي أثناء انتظاره الغواصة جاءت الأخبار بسقوط تركية وبقي في مصراتة . ونشأت فكرة تأسيس الجمهورية ،

فكان مختـــار بك من المرشحين لعضويتها . وفي آخر لحظة رئي من المصلحة للوطن أن يرشح بدله عبـد النبي بن خير فحمله إخلاصه لوطنه على التنازل عن ترشيح نفسه ليحل محله عبد النبي ، وتمّ ذلك بالفعل ، ولمـــا كانت الجمهورية لا تستغني عن خدماته أسندت إليه رياسة ماليتها .

ولما شكلت الجمهورية كتبت بلاغات لجميع الدول تخبرهم بتشكيلها، فاختارته لتبليغ تلك البلاغـات إلى الحكومة الإيطالية فذهب في نفر من إخوانـه إلى مدينة الخمس مخترقاً خطوط الحرب وأبلغ المختص الإيطالي قرارات الجمهورية ، وكان اجتماعه به خارج المدينة .

وجاء دور مفاوضات خلة الزيتونة وصلح بنيادم في سنة ١٩١٩ فكان في مقدمة الزعماء رأياً ومشورة . وانتهى صلح بنيادم ، وشكلت حكومة القطر الطرابلسي سنة ١٩١٩ من ثمانية أعضاء فكان أحد الثمانية .

وكان من المؤسسين للحزب الوطني ، ومن أكبر المساهمين في إنشاء جريدة اللواء الطرابلسي . وقد بـذل جهوداً جبارة في إطفاء الفتنة التي كانت تهدد الوطن في سنة ١٩٢٠ .

وكان رسول سلام بارك الله في مساعيه حتى أثمرت بسبب إخلاصه لوطنه . ولما راوغ الطليان في تنفيذ شروط القانون الأساسي كان أول المحتجين على الطليان. وكان من المبرزين في مؤتمر غريان بـآرائه وأفكاره . وانتخبه المؤتمر عضواً في هيئة الإصلاح المركزية .

ولما سفر الجوّ بـين الهيئة والطليان أرادت الهيئة أن تزيل سوء التفاهم من قبيل المفاوضات فكان أحد المفاوضين الذين وقع اختيارها عليهم . ولمـا انتهى الأمر إلى قطع المفاوضات كان أول من حاصر الطليان في غريان حتى استسلموا له وغنم كل ما معهم من عتاد ومتاع .

وقد ترأس المجاهدين في كثير من أدوار الجهاد الطرابلسي، فكان لا تنمه رياسته

أن يشارك إخوانـــه فى الغزو والهجوم . وكثيراً ما تجشم في سبيل وطنه الصعاب وبات الليالي الشاتية وطاؤه الأرض وغطاؤه السماء ، لا يزيده ذلك إلا نشاطاً . وله محاولات سياسية بالغة في الجرأة ستحتل من تاريخ حياته المكان اللائق بها ، وكانت عنده رتبة بك ممتازة من جلالة السلطان محمد الخامس وكان يحمل نيشانها .

وفي سنة ١٩٢٣ تغلبت جيوش الباطل المدججة بالحديد والنار على من بقي من أنصار الحق فتركوا وطنهم مكرهين ، فاختار الإلتجاء إلى فزان أملاً منه في أن تعيد المقاومة سيرتها الأولى .

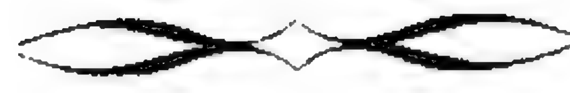
وقد أبت عليه نفسه أن يترك الميدان وفي المحاولات ما يمكنه من الهجوم على العدو ، فأرسل أولاده وحريمه إلى فزان ورجع على طريق سرت ، وانتهز من الطليان غرة في وادي تارسين وهاجم نقطة فيه بمن معـــه من المجاهدين فأبادوها عن آخرها. وحاول بعد ذلك أن يطيل البقاء في أراضي أرفلة ويحارب الطليان على طريق حرب العصابات ، ولكن الظروف لم تمكنه من ذلـــك ، فأشرف على وطنه من أراضي أرفلة وهضابها وألقى عليه آخر نظرة وهو يجود بروحه تحت ضربات الإيطاليين القاتلة ، ولحق بأهله في فزان محسوراً مهموماً .

وفي شعبان سنة ١٣٤٨ احتلت القوات الإيطالية فزّان فجاء إلى مصر على طريق الكفرة . وأقام بالاسكندرية بعضاً من الوقت ثم ذهب إلى الآستانة ، ثم إلى أنقرة .

وبقي في الأراضي التركية يتسقّط أخبار وطنه ، وينتظر ما تسمح بـه الظروف من الفرص المواتية ليعود إلى ميدان الجهاد .

وقد تغيّر الوضع السياسي في طرابلس منذ سنة ١٩٤٣ وذهب الله بالطليان وحـلّ محلهم الإنجليز فعاوده حنينه إلى وطنه . وألحّت عليه نفسه الكبيرة باستطلاع ما عساه أن يأتي به هذا التغيير السياسي، ولم تمنعه شيخوخته أن ينفذ

ما اعتزم ، فجاء إلى مصر في يولية سنة ١٩٤٦ وسافر إلى طرابلس ليشاهد ما يجري فيها ، وبقي فيها نحو أربعة أشهر درس فيها ما عليه الوضع من جميع وجوهه فرأى فيه ما زاد نفسه غماً وألماً ، ورأى الفساد قد استشرى في جميع ما وضع الإنجليز أيديهم عليه ، وقد وضعوا أيديهم على كل شيء ، فرجع إلى مصر مثقلاً بهمومه ، ولكن نفسه الفتية لم تقعده عن العمل ، فأخذ يفكر في تدبير حملة يتولى قيادتها بنفسه ، ويهاجم فيها تدخل الإنجليز ومساعيهم في تفريق كلمة الطرابلسيين واستعمال سلطاتهم في التأثير على الرأي العام لأغراضهم. وقد اتصل باللجنة الطرابلسية فأفضى إليها بذات نفسه واتفق معها على ما يريد القيام به . ولكن القدر عاجله ، ورمى طرابلس فيه بسهم صائب بعد حياة امتدت به سبعين سنة قضاها كلها في خدمة وطنه وسعادة شعبه . وتوفي بمدينة القاهرة في الساعة العاشرة من ليلة يوم الإثنين ٢٦ من صفر سنة ١٣٦٦ الموافق ٢٠ من يناير سنة ١٩٤٧ ودفن بجوار الشيخ محمد الكميشي الغرياني بقرافته . عليه رحمة الله ورضوانه .



تنظيم الدفاع

وعقب مجيء صفي الدين عقد اجتماع حضره هو وأحمد بك السويحلي رئيس حكومة مصراتة ومختار بك كعبار وأحمد سيف النصر وسليمان التواتي من ترهونة ، وقرروا أن يذهب قسم من المجاهدين والعسكر لمناوشة الطليان على حدود مصراتة وزليطن ومسلاتة وترهونة وكان ذلك في النصف الأخير من أغسطس سنة ١٩٢٣ : فذهب إبراهيم السويحلي وعون سوف في قسم كبير من مجاهدي مصراتة والزاوية إلى مصراتة . وذهب عمر بو دبوس وعلي بجيح في جماعة زليطن ، وذهب المهدي السني في جماعة إلى مسلاتة . وذهب عبد السلام المرّيض إلى ترهونة . ويقول جرازياني ما يفيد أن هذا الترتيب وقع مع الطليان موقع الانزعاج والخوف .

وكان الطليان اتخذوا لهم حصوناً لهم للدفاع في زاوية المحجوب وفي سانية العوكلي عدا ما عندهم من الحصون داخل مصراتة ، فرابط إبراهيم السويحلي وعون سوف بمن معهما من العساكر والمجاهدين أمام هذين الحصنين ، وصارت بينهم وبين الطليان مناوشات لم تطل حتى تمكن المجاهدون من حصر الطليان في زاوية المحجوب وسانية العوكلي والحيلولة بينهم وبين المدد إليهم من مصراتة ، ولم يتمكن المجاهدون من اقتحام البيت الذي تترّس به الطليان في سانيـــة

العوكلي إلا بعد ضربه بالمدافع ، وكان مع المحصورين علي الكريتلي – أحد رؤساء المرتزقة – وبعد حصار دام يومين تقريباً سلّم من في المنزل أنفسهم ، واستسلم علي الكريتلي لعون سوف ، وطلب الأمان لنفسه ولمن معه فأمنهم عون . واستولى المجاهدون على كل ما في البيت من سلاح ومتاع ، وأرسل المقبوض عليهم إلى نفد حيث الحكومة الوطنية ، وقد شكل مجلس شرعي لمحاكمة علي الكريتلي ، وبعد استجوابه ثبتت إدانته ، وحكم بقتله شنقاً بتهمة الخيانة العظمى وممالأة العدو على الوطن . ومن أعضاء المجلس الشرعي الشيخ عمر الميساوي عليه رحمة الله .

وقد اتسع المجال للمجاهدين واقتربوا من حصون مصراتة نفسها ، وصاروا يناوشون الطليان ، وشددوا الحصار على المواطنين نحو عشرين يوماً .

وفي يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٣ هاجمت خيل المجاهدين سيارة إيطالية في فوليجة كانت ذاهبة من العزيزية إلى غريان وكان فيها ثلاثة إيطاليون قتلوا واحداً وأسروا اثنين أرسلا إلى نفد فاعترضهما عبد النبي وأبقاهما عنده في أرفلة وسيأتي لهما ذكر .

وفي الوقت الذي كان يقوم المجاهدون بحصار مصراتة كانت ميسرتهم محمية بخط دفاع يمتد من مصراتة إلى حدود غريان كما ذكرنا آنفاً . وكانت خيل المجاهدين تغزو حدود غريان من الشرق والشمال ، وأراضي ترهونة والنواحي .

معركة الكوم

وقد أقلقت الطليان هذه الحركة التي أوقعتهم في شبه حصار ، ووقفت سدا بينهم وبين التقدم إلى الجنوب . فجهزوا جيشاً كبيراً وخرجوا به على عبد السلام المريّض فدافعهم قدر المستطاع وقتل كثير من إخوانه مائتي شهيد ، ولم تمكنهم قلتهم من الوقوف أمام كثرة العدو ، فانسحب من بقي منهم إلى الجنوب ،

واستمر الطليان في طريقهم إلى الشرق ، فكان موقف المهدي السني ، في ناحية مسلاتة ، وموقف عمر بو دبوس وعلي بحيح في ناحية زليطن شبيهاً بموقف عبد السلام المريّض ، وانتهى الكل إلى نتيجة واحدة هي انسحابهم وتقدم العدو .

ولم يشعر المجاهدون — وهم يحاصرون مصراتة — بتقدم العدو حتى جاءهم النذير بخروج العدو عليهم ووصوله إلى جنوبي مصراتة فأرسلوا خيلهم للاستطلاع ، ولمدافعته ريثما يتمكنون من الانسحاب وتتاح الفرصة لجلاء أكبر عدد ممكن من السكان . وقد أخبرني عون سوف — وهو قائد المجاهدين إذ ذاك — بأن الجيش الإيطالي كان من الكثرة بحيث لو سار في طريقه لما أمكننا أن نقف أمامه ، ولما ترك واحداً على قيد الحياة . وكأن الله صوّر له أولئك الناس الفارين جنوداً ومجاهدين خرجوا لقتاله فتوقف عن التقدم . وتمكنت خيل المجاهدين من مكافحته إلى أن خرج الناس من مصراتة على طريق كرزاز . وقد تعقبتهم الطائرات وأخذت تضربهم برشاشاتها وقنابلها ، لا تفرّق بين النساء والأطفال الفارين بحياتهم وبين المقاتلين . وقد أثّرت يوم ذاك تأثيراً بليغاً ، خصوصاً في البغال والجمال التي كانت تحمل أثقال المجاهدين . وقد اشترك في هذه المعركة قوات الجو والبر فأصبح المجاهدون بين نيران الجيش والطائرات . وقد استمر المجاهدون في انسحابهم إلى الكراريم . وما وصلوا إلا بشق الأنفس ، وهناك توقفوا بضعة أيام استردوا فيها شيئاً من نشاطهم ، وأعادوا الكرة على مصراتة فصاروا يغزونهم وكان ذلك في سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

وقد قلّ عدد المجاهدين والعسكر ، ونقصت آلاتهم الحربية بفعل الجلاء من مراكزهم الأصلية ، وعدم استقرارهم في مكان ، والمعارك الكثيرة التي خاضوها . ولكن الواجب الوطني كان يحملهم دائماً على الصبر حتى النهاية .

وقد رأى الطليان أنهم لم يصلوا إلى نتيجة ، وأن عملهم غير حاسم ما دام المجاهدون يغزون عليهم في مصراتة ويقلقون راحتهم ، وما دامت أرفلة في

موقفها الشاذ الذي جعل الطليان لم يجزموا بعداوتها أو صداقتها . وأرادوا أن يستعجلوا النهاية ، فجهزوا جيشاً كبيراً ، وكان في هذا الجيش عـــدد كبير من الأحباش والمرتزقة فرساناً ومشاة ، وصبَّحوا المجاهدين في الكراريم في أواخر سبتمبر سنة١٩٢٣، وكان يوماً مشهوداً صبر فيه المجاهدون على قلتهم على الموت، واشتركت فيها أسراب الطائرات ، وكانت الكفة الراجحة إلى جانب العـدو لكثرة خيله وطائراته وشدة هجومه، واستشهد من المجاهدين نحو مائتين،وجرح قائد العسكر إبراهيم السويحلي ، وقائد المجاهدين عون سوف ، وقبض العدو على كثير من العسكر والمجاهدين أحياء ، وقضت الطائرات على مـا بقي لديهم من البغال والجمال التي كانت تحمل أثقالهم . واستشهد من كبار المجاهدين عـــلي بن مصطفى المستيري ، وأحمد بو طلاق ، وأحمد قليصة ابن صديقنا التهامي بك قليصة ، وكلهم من مصراتة وكانت الفاصلة .

وإلى هنا انتهت الأمور إلى غاياتها وانقطع الدفاع من طرابلس .

خداع فات أوانه :

لمـا أحسّ عبد النبي بمجيء دوره ، وأنه سيلاقي من الطليان جزاء سنمار ، عمد إلى تلـك الصفة التي كانت تكأته في جميع أدوار الحرب الطرابلسية وهي « الخداع » فأرسل مع خاله سعد بن عطية إلى أحمد بك السويحلي في نفد يعرض عليهم استعداده للحرب . فكان جوابه له : « الصيف ضيّعت اللبن » لأنه كان طلب منه قبل ذلك ، هو ورؤساء المجاهدين الاتفاق ومواجهة الطليان صفاً واحداً ، وكان في الوقت متّسع لذلك ، ولكنه أبى ، ولما فلتت الفرصة ، وأحسّ باقتراب الخطرمنه، جاء يحاول ما أباه في وقته ، فكان جوابه ما ذكر .

احتلال أرفة

قدَّمنا آنفاً أن معركة الكراريم كانت آخر معركة بين الطليان والمجاهدين في الساحل، ولم يبق أمام الطليان إلا (نفد) مركز حكومة مصراتة، وبني وليد مقر عبد النبي . وانقضى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٢٣ بدون عمليات حربية . وفي هذه المدة استعد الطليان للقضاء على البقية الباقية من المجاهدين وابتدأوا في حشد الجيوش في منتصف ديسمبر فحشدوا منها ما رأوا فيه الكفاية لهذا الغرض. وقبل تقرير الموعد النهائي لبدء الهجوم أرادوا أن يتحققوا من سياسة عبد النبي، فأرسل إليه جرازياني كتاباً مع الحاج المبروك الحصني يؤكد فيه الأمان له ولكل من معه على نفوسهم وأموالهم، وأنهم لا يمسون بسوء من قبل الحكومة. وأرسل إليه جواباً من حسن باشا القره مانلي وجواباً من أحمد الفساطوي يؤكدان له فيهما ما جاء بكتاب جرازياني . وقد أرفقت هذه الكتب بمنشور من الوالي يؤكد فيه الأمان له ولكل من التجأ إليه ولم يعارض الحكومة ، وقد قال له : «نعلمك بأن العساكر إذا طاردت أحداً من الثوار لإبعاده أو القبض عليه، فلا شك أن ذلك في مصلحتك ولا نقصد به أذيتك مطلقاً » وتاريخ الكتاب ١٩ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، وطلب إليه رد الجواب بسرعة .

فرد عبد النبي بما ترجمته :

« جناب الجنرال جرازياني : بعد التحية .

تسلمت خطابكم وخطاب حسن باشا ، وخطاب أحمد الفساطوي وقرأت الجميع على مشايخ البلاد الذين فهموا الحقيقة ، وقرروا أنه لا داعي لأن تحتل الحكومة أرفلة بالقوة نظراً لأن أرفلة عملت كل ما يلزم لإبقائها على الحياد وعدم معارضة الحكومة ، فلا موجب لزحف القوات عليها . وهذا يعدّ نقضاً لما سبق الإتفاق عليه .

أرجوكم قبول تحياتي »
١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٤٢ (٢٢ من ديسمبر سنة ١٩٢٣) .

واعتبر جرازياني رد عبد النبي مراوغة وتهرباً من مواجهة الحقيقة كعادته ، وكان قد اعتزم الهجوم على أرفلـّة من قبل وصول ردّ عبد النبي إليه .

فخرجت قوة على « سيناون » لتقطع طريق تونس عمن يريد الهجرة اليها من المجاهدين ، وقوة على طريق الوديان ، لتطارد الفارين من أرفلة ، وتمنع المرور إلى الجهة الغربية ، وانتهت هذه القوة إلى الطابونية . وكان معها أحمد العياط البوسيفي ، وهي التي التقت بجماعة الشيخ عمر الغـُز ، وسيأتي ذكرها . وقوة على طريق مزدة ، ثم إلى شميخ وسوفجـّين لتحاصر بني وليد ، مركز أرفلة من الجهة الغربية وقوة من ترهونة قاصدة بني وليد رأساً من الجهة الشمالية وقوة من مصراتة قاصدة السدادة . وقد ابتدأت هذه القوات كلها الحركة يوم عشرين من ديسمبر غير أنها توقفت عن الإطباق على بني وليد حتى تنتهي المكاتبات مع عبد النبي . وقد وصلت القوة إلى السدادة يوم ٢٣ منه . وفي هذا اليوم جلت عنها حكومة مصراتة ، وتوقفت فيها حوالي يومين . وكنا نراقب حركاتها من سفح جبل (نفد) الشمالي في مكان يقال له الـُجبود من ناحية سوفجين .

ولمّا وصل جواب عبد النبي إلى جرازياني رأى فيه أثراً من المراوغة ، فأمر ببدء الهجوم يوم ٢٣ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ بعد أن بعث العيون والطائرات

لاستكشاف قوات المجاهدين، فظهر له أنها ما تزال موجودة حوالي نفد وتتجول فيما بينه وبين بني وليد ، وظهر له من هدوء الحركة في بني وليد أن عبد النبي ينوي الوفاء بوعده ، ولا يريد محاربة الطليان . ولم يكن هذا كافياً لاطمئنان جرازياني ، بل أرسل منشوراً باسم الوالي ألقته الطائرات على بني وليد جاء فيه : « إن الحكومة أرسلت إلى الأهالي كتباً من حسن باشا وأحمد الفساطوي بواسطة عبد النبي تعدهم فيها بالأمان على أملاكهم وأرواحهم وحيواناتهم ، وتأمرهم فيها بعدم محاربة جيوش الحكومة ، وبالتسليم لها ، والابتعاد عن الثوار » .

ولما [1] قربت جيوش العدو من وادي بن وليد خرجت جماعة كثيرة من أرفلة لملاقاتها في مكان يقال له أمقرارة شمالي بن وليد بنحو عشرة ك م، بالقرب من وادي دنيار ، واشتبكوا معه في معركة كبيرة .

وأحاط العدو بالمجاهدين من الأمام والخلف. فاضطروا إلى التقهقر، واستشهد منهم نحو سبعين رجلاً . وكان من بين الشهداء عبد الرحيم الجدي ، وأبو طبل الجدي ، والزرقاني الجدي ، وأولادهم محمد ، وسالم ، ومبارك ، وتعرف هذه المعركة بمعركة أم قرارة .

واحتلت أرفلة يوم ١٩ من جمادى الاولى سنة ١٣٤٢ هـ الموافق ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٢٣ . وأول من دخلها جيش الشمال الذي جاء على طريق ترهونة واحتلها في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر ، واستعملوا فيها القتل ، ونهبوا أموالها وتعدّوا على حرماتها . وهرب عبد النبي إلى شميخ بعد أن أخذ معه ما خفّ حمله وغلا ثمنه ، وتركها تحترق ولم يدافع عنها لحظة واحدة ، وأخذ يطل عليها من مرتفعات سوفجين ، يحاكي بذلك نيرون حينما أحرق روما وأخذ

---

(١) من املاء الاستاذ سليمان عيسي الجدي الورفلي .

يطل عليها من رؤوس الجبال ويضحك . ولما أحسّ بخيل العدو تطارده انتقل إلى القريات .

وكان في بني وليد ثلاثة أسرى من الطليان : إثنان منهم أُسرا في فوليجة يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٢٣ في الأتومبيل الذي أُحرق يوم ذاك ، وكان معهما ثالث قتل . وأرسلا إلى نفد حيث حكومة المجاهدين، ولكن عبد النبي أمر بحجزهما في أرفلة فبقيا هنالك ، وقتل الثلاثة قبل أن يتمكن الطليان من احتلال البلد ، وكان قتلهم من أسباب الانتقام من بني وليد .

بطولة :

يوجد في صحائف المجـــد المجهولة من تاريخ الحرب الطرابلسية وقائع من مدهشات الحروب وغرائب الدفاع عن النفس والوطن .

من هذه الصحائف المجهولة ما وقع في الملاحة غربي طبقة في طريق الذاهب منها إلى غدامس في يناير سنة ١٩٢٤ .

ذلك أنه بعد احتلال أرفلة وانسحاب المجاهدين من أراضيها ظهر الطليان على تلك الجهات وجلا الناس إلى جهات مختلفة كما ذكرنا آنفاً . وكان الحـــاج محمد فكيني ومن انضم إليه اختاروا الهجرة إلى فزان . وقد أشرنا آنفاً إلى أن أحد جيوش الطليان خرج على طريق الوديان، وكان في هذا الجيش أحمد العياط — نصف البوتسعين — البوسيفي ، ويوسف خربيش ، ومحمد بن حسن المشاي ، وكان مع كل واحد من هؤلاء جماعات كثيرة من أنصاره كلفوا بمطاردة المجاهدين. وكان بين هؤلاء الرؤساء جميعاً وبين الحاج محمد فكيني ومن معه ثأر قديم وترات يطالبونهم بها . وقـــد اجتمع هذا الجيش في الوعسة (فيما بين فسانو وبئر الكلاب ووُديات الخيل) .

وبينما هذا الجيش في طريقه يقتفي أثر الحاج محمد فكيني ومن معه التقى — صدفة — بالشيخ عمر الغُز الزنتاني قادماً من الخور في طريقه إلى طبقة في جماعة

قليلة من إخوانه عددهم واحد وأربعون رجلاً . فرأى رؤساء الجيش أن أخذ هؤلاء لا يكلفهم إلا أن تمر عليهم الخيل وعربات المدافع فتطحنهم طحناً، ثم يمر في مطاردة الحاج محمد فكيني . وماذا يغني واحد وأربعون رجلاً أمام جيش لا تقل خيله ورجله عن أربعة آلاف مجهزين بما يكفي لهم من المدافع السيارة والرشاشات ؟ ولكن : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ .

وصدرت الأوامر بأخذ هذه الجماعة فتوجه الجيش نحوها ، وبدا الشر من الأحباش ومرتزقة خربيش وغيرهم ، فعرج الشيخ عمر ومن معه إلى منخفض من الأرض كان قريباً منهم وأنزلوا متاعهم عن الإبل وشدوا عقالها ، وأحاطوا نساءهم وأطفالهم بما معهم من المتاع وقاية لهم ، ثم انتشروا في نواحي هذا المنخفض مما يقابل العدو ، وأمسكوا ببنادقهم ووضعوا بالقرب منهم ما كان محمولاً معهم من الخرطوش ، وهللوا و كبّروا ، وانحبست الأنفاس ، وخلا ما حولهم من كل شيء إلا من أصوات الرصاص ودوي المدافع .

تلك لحظة من أخطر اللحظات في حياتهم لا تتجاوز الثواني .

أخذ العدو يهاجمهم بخيله وَرَجِلِهِ ، وسددت المدافع والرشاشات نحوهم ، فكنت تسمع من ناحيتهم إحدى وأربعين طلقة من إحدى وأربعين بندقية ، في أيدي واحد وأربعين رجلاً ، وكنت تسمع من الجيش الإيطالي مئات الألوف من الطلقات : من قنابل المدافع، ورصاص الرشاشات والبنادق يرسلها عليهم جيش لا يقل عدده عن أربعة آلاف مقاتل .

وقد أخبرني السيد محمد العيساوي بوخنجر قال : حدثني الشيخ عمر الغنُز — أحد هؤلاء الأبطال — يحكي عما شاهده في هذه المعركة ، قال : كان العدو يهاجمنا في جماعات من الخيل ، وبينما نحن نشاهد صدورها وهي تشتد في عدوها نحونا ، إذا بالرصاص قد حصدها فترتمي على الأرض بمن عليها ، وإذا بفلولها مدبرة لا تلوي على شيء ، وكان يهاجمنا بصفوف من الرجال متراصة ، وإذا بهم

على الأرض يتشحطون في دمائهم. واستمرت المعركة من الصباح إلى نصف الليل في هذا القتال المميت، ودفاع المستميت.

ويريد الله أن يكون لهؤلاء الأبطال رفقة – سبعة رجال – تخلفوا عنهم لبعض الشؤون، وبينما هم في طريقهم إليهم، إذ سمعوا دوي المدافع فعلموا أنها معركة، وأنها مع رفقائهم، فكان من تدبيرهم أن وزّعوا أنفسهم وراء العدو في عدة أماكن وأطلقوا الرصاص ليوهموا العدو أنهم كثيرون، وانطلت الحيلة على الطليان، ووقع في روعهم أنها نجدة جاءت لإنقاذ المحاصرين فانسحبوا يجرُّون ذيل الهزيمة، وبقي الأسود في مرابضهم جاثمين. ولما انقطع إطلاق المدافع والرصاص فهموا أن العدو انسحب فنهضوا من معاقلهم وتركوا خمسة من إخوانهم لحقوا بربهم في أسعد الأوقات وألذّ ساعات الحياة، وهي ساعات الدفاع عن النفس والعرض. وكان من بين هؤلاء الشهداء الأستاذ الشيخ أبو القاسم الرماح من علماء الزنتان وأعيانهم. وحفظ الله على هؤلاء الأبطال نساءهم وأطفالهم. وكان من بين قتلى الطليان أحمد بن حسن العياط (نصف البوتسعين) من أولاد أبي سيف. وقد أخبرني من شاهد مكان المعركة أنه شاهد فيها ثلاثة وسبعين حصاناً، قتلت برصاص المجاهدين، وما يقارب عشرة أكوام من جثث الأحباش والمرتزقة. وهكذا أعز الله جنده وصدق قوله تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾.

وفي أثناء ما كانت المعركة حامية الوطيس وصل الخبر إلى الزنتان سكان طبقة والطابونية فجمعوا من رجالهم نحو ٣٥٠ رجلاً وثمانين فارساً، وجهّزوا من الإبل ما يكفي لحمل الرجال والأمتعة، على كل جمل رجلان، وتوجهوا لنجدة إخوانهم المحاصرين، وقد وصلوا إلى محل المعركة بعد انفضاضها، فاقتفوا أثر العدو المنهزم حتى أدركوه في وديات الخيل [١] فبيّتوه ثم هاجموه ليلاً،

---

(١) جمع واد، مصغراً.

فأوقعوا في صفوفه الرعب ، وقتلوا منه نحو مائــة رجل . ورجع من بقي من فلوله إلى الجبل .

هذه واقعة من عشرات الوقائع الهائلة التي يقوم فيها الطرابلسيون بنوع من البطولة الممتازة ،يجدها الباحث في صحائف المجد المجهولة التي يتركها الطرابلسيون مكتوبة بدمائهم الطاهرة على أرض الوطن ، لا تقوى يد الزمان على محوها ، ويجد فيها الباحث ما يشجعه على التنقيب وراء مجد الشعوب العربية وأقدار رجالهـــا .

السيد محمد الزدام :

وفي هذا اليوم ، وبيد هذا الجيش الطاغي الذي استأصل الله شأفته أخـذ السيد محمد الزدام ـ وكان مهاجراً نحو الحدود التونسية ـ وسلب ماله ، ومثّل بمن معه من نساء طاهرات وأطفال أبرياء ، وأُخذ هو حياً إلى جـــادو حيث قتل رمياً بالرصاص . عليه رحمة الله .

إنتهاء المقاومة

إلى هنا بلغ الكتاب أجله ، وانتهى كل نوع من أنواع المقاومة في طرابلس من البحر الأبيض إلى حدود فزان ، وذهب الناس مذاهب في طريق النجــاة بأنفسهم : فريق قصد الحدود التونسية على طريق غدامس وفيهم الطاهر أفندي شلابي [1].وقد انتهى به المطاف إلى (جربة) وتوفي بها رحمه الله،وقسم ذهب إلى

---

(١) ابن عبد الرحمن بك شلابي ، من أعيان البلاعزة سكان الزاوية وسادتهم .

فزان للإلتحاق بخليفة الزاوي، منهم الفقيه علي بن حسن [1] ، وقسم ذهب معنا إلى مصر . ومنهم أحمد بك السويحلي وأحمد بك المريّض والتهامي بك قليصة[2] وعمر بو دبوس ، والشيخ سوف وابنه عون ، والشيخ صالح بن سلطان ، والشيخ المبروك المنتصر والشيخ عبد الصمد النعاس وغيرهم كثير من مصراتة وترهونة والزاوية ومن جميع القبائل الطرابلسية .

وكان هذا الجلاء آخر عهد المجاهدين بوطنهم بعد جهاد دام أربع عشرة سنة، لم يتركوا منه شبراً إلا دافعوا دونه ، ولا تجد مرتفعاً ولا منخفضاً إلا ولهم فيه دم مطلول أو جسد ممزق ، وقد حفظ لهم التاريخ في صفحاته من الجهاد المجيد ما لم يحفظه لغيرهم على قلة من المال والرجال وآلات الحرب .

ولقد خاضوا هذه الحرب على رضىً منهم وطيب نفس دفاعاً عن وطنهم وذوداً عن كرامتهم ، لا ينتظرون من وراء ذلك إلا ما ادّخره الله لهم من ثواب المدافعين عن أوطانهم .

والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

---

(١) مات في فزان ، في « حجحجين » وكان طيب النفس حميد الاخلاق ، انتخب نائباً عن الزاوية في مؤتمر العزيزية التحضيري لمؤتمر غريان . وهو من الكنارة من قبيلة كرداسة من البلاعزة سكان الحرشا ، وكان يحفظ القرآن . عليه رحمة الله .

(٢) من أعيان مصراتة ووجهائها. وله أعمال بارزة في حكومة مصراتة الوطنية ومن أصدقاء رمضان بك وإخوانه الذين يعتمد عليهم . وكان رئيس مالية مصراتة . وانتخب عضواً عن مصراتة في مؤتمر غريان . وكان شجاعاً، قوي الحجة ، وكثيراً ما يرسل في مهام حكومة مصراتة وكان على جانب من العلم . وقد ذكر في عدة مواضع من كتابنا هذا. توفي في تطون تبع مدينة الفيوم بمصر يوم ١٩ من مارس سنة ١٩٣٩ . عليه رحمة الله .

ابراهيم السويحلي

قلت آنفاً : إن ابراهيم بن رمضان السويحلي تولى قيادة العسكر والمجاهدين بعد موت عمه محمد سعدون . وبعد جلاء حكومة مصراتة من نفد بقي معه قسم كبير من العسكر ومدفعان ، ومدفع رشاش . وقد اتجه في أول الأمر معنا إلى الشرق ، ولما وصل إلى العقيلة اتصل بصالح الأطيوش فلم يطب له المقام فرجع إلى سرت ، وكان بها أحمد سيف النصر ، ولم يحتلها الطليان إذ ذاك. وقد حاول هو وأحمد سيف النصر أن يقوما بعمل مشترك لمنع الطليان من التقدم إلى سرت ولكنهما فشلا .

وارتحل أحمد سيف النصر إلى فزان ، وبقي ابراهيم في سرت ، لا أملاً في القيام بحركة مجدية ، ولكن الدنيا ضاقت في وجهه فلم يدرِ أين يتوجه . وخرج الطليان بقوة كبيرة لاحتلال سرت ونزلوا على بويرات[1] الحسون على بعد مرحلتين من سرت إلى الشمال. وقد أرادوا أن يخدعوا ابراهيم فكاتبوه ليصرفوا نظره عن الهرب ليتمكنوا من القبض عليه . وقد وصل إليه بريدهم وكانت الجيوش زاحفة من ورائه ، فلم يشعر إلا والجيوش محيطة به، فأعجل

---

(١) جمع بئر مصغرة .

عن أخذ متاعه، وفرّ هو ومن معه بما أمكنهم الفرار به، واحتل الطليان سرت في ٢٣ نوفمبرسنة ١٩٢٤ وقصد ابراهيم ومن معه إلى الجفرة وكان بها عبد الجليل. وكان قصد ابراهيم أن يتنقل منها إلى فزان ليتصل بخليفة الزاوي في مرزق .

مقتل ابراهيم السويحلي :

لم يرق هذا التنقل من ابراهيم نظر عبد الجليل سيف النصر . ورأى في التحاقه بخليفة خطراً عليه، فبيّت له الشر ، وطلب إليه أن يتخلى عن العسكر الذي معه فامتنع ، ورأى إبراهيم في هذا الطلب بادرة من بوادر الشر فاعتزم الخروج من المنطقة التي يشملها نفوذ عبد الجليل . ولكن عبد الجليل جمع له عدداً كبيراً من أنصاره ، وترصّدوا له في طريق الرواغة – وهو طريق جبلي وعر المسالك، ولا بد للمسافرين من سلوكه – وبينما هم سائرون في هذا الطريق في فجر يوم ١٩ مارس سنة ١٩٥٢ فما شعروا إلا والرصاص ينطلق عليهم من كل جانب ، ودافع ابراهيم وصحبه دفاعاً مجيداً . وقتل من أنصار عبد الجليل نحو العشرين وأسفرت المعركة عن قتل إبراهيم السويحلي واثني عشر رجلاً من صحبه، وانتهت هذه الحياة القصيرة الصغيرة إلى ما تنتهي إليه حياة الإقدام والجرأة التي لم تستفد من تجارب الحياة ، ولم يسعدها الحظ بالتلقي عن المرشد الخبير .

في فزان (١)

وبعد أن انتهى الجهاد في طرابلس وصحراء أرفلة ، هاجر إلى فزان جماعات كثيرة من البلاعزة ، وغريان وأرفلة ، والزنتان وغيرهم .

وكان في فزان حكومة يرأسها خليفة أفندي الدعيك المشهور بخليفة الزاوي من « قول أوغلية » الزاوية . وقد حاولت هذه الجماعات من المهاجرين الإقامة

في فزان ، واتخاذ الوسائل لسماح الطليان لهم بالرجوع لمن أراد الرجوع منهم إلى وطنه . وكان ممن هاجروا إلى فزان فرحات بك الزاوي .

وقد بقي أوزاع من هؤلاء المجاهدين كوّنوا عصابات انتشرت فيما بين أرفلة ، وغدامس ، وفزان ، وسرت . وكلما سنحت لهم فرصة للإغارة على قوافل الطليان ومراكزهم انتهزوها . وكانت حروب عمر المختار تشغل الطليان عن أن يجهزوا جيشاً للقضاء على هذه العصابات المنتشرة في الصحراء ، فكانت هذه العصابات تستفيد من هذا الموقف ، كما كانت تستند في أعمالها إلى حكومة خليفة الزاوي في فزان . وكان الطليان ينظرون إلى هذه العصابات بعين القلق والتربص . وكانوا يكتفون في فزان بسياسة الخداع والإغراء بالوعود الكاذبة ريثما ينتهون من حركة عمر المختار .

فرحات بك الزاوي :

هو من « قول أوغلية » الزاوية . أخذ العلم على مفتي ولاية طرابلس الأستاذ محمد بن مصطفى . وذهب إلى فرنسا فتعلم اللغة الفرنسية ودرس فيها القانون خمس سنوات . وتولى (قائمقام) بالشاطىء في فزان . وكان في مقدمة المجاهدين الذين انتدبوا للجهاد من أول وهلة ، والتحق بنشأت بك في العزيزية . وكان نائباً عن طرابلس في مجلس المبعوثان التركي. وكانت سياسته في الحرب الطرابلسية تميل إلى مسالمة الطليان — نظراً لكون دولتهم من أكبر دول أوروبا — ومجادلتهم بالحجة للوصول إلى ما يكفل للوطن الراحة والتقدم . وقد اضطر في بعض الأحوال إلى مخالفة سياسته واشترك في الحرب . وكان عضواً في مؤتمر غريان مندوباً عن الزاوية ، وانتخب عضواً في هيئة الإصلاح المركزية . وانتخب رئيساً للوفد الذي ذهب إلى روما للمطالبة بالحقوق التي قررها مؤتمر غريان . وفي حرب سنة ١٣٤٠ (سنة ١٩٢٢) انضم إلى المجاهدين لمحاربة الطليان فصودرت أملاكه وأُخذت أمواله . وبما أنه كان عضواً في هيئة الإصلاح

المركزية أسندت إليه إدارة الشؤون السياسية في الزاوية، والإشراف على شؤون المجاهدين وما يتعلق بالحرب. ولما تغلب العدو على الزاوية في رمضان سنة ١٣٤٠ (ابريل سنة ١٩٢٢) انتقل مع المجاهدين إلى النواحي الأربعة، وحضر معركة الجيلاني . وقد أخبرني أنه كان من رأيه الهجوم على بوعرقوب بمجرد احتلاله ، ولكن رؤساء المجاهدين لم يوافقوه، ولما تغلب الطليان على المجاهدين بعد معركة الجيلاني وجلوا عن النواحي في مساء ٥ من فبراير سنة ١٩٢٣ انتقل إلى سرت ، وكان من أشد الناس معارضة لإمارة السنوسية .

وقد فتحت عليه سياسة الملاينة للطليان باباً من الطعن في وطنيته ولجه كثير من الناس للنيل من كرامته ورميه بممالأة الطليان ضد الوطن . ويعلم الله أنه لم يجنح لسياسة ملاينة الطليان لمثل هذا الغرض، وإنما حمله عليها علمه بقوة الطليان وكثرة مواردهم في الرجال والعتاد الحربي ، وضعف الطرابلسيين وقلّتهم. ولما أعيته الحيلة في معارضة فكرة الحرب لم يجد مناصاً من الإنضمام إلى أنصارها ، نزولاً على رأي الأكثرية – وهو مقتنع بهذا المصير الذي صارت إليه الحركة الوطنية ، وعلى رأي عمرو بن العاص « مكره أخاك لا بطل » . وآخر عهدي به في سرت في رجب سنة ١٣٤٢ (فبراير سنة ١٩٢٤) ، ونحن في طريقنا إلى مصر . وقد تقدمت به السن وضعفت قواه بحيث كان من أشد الناس حاجة إلى الراحة . وقد تركته في سرت ، ولم يلبث أن سافر إلى فزان سنة ١٩٢٤ .

كان خليفة الزاوي هو الذي يتولى شؤون فزان وإدارة حكومتها حينما ذهب إليها فرحات . وكانت مكتظة بالمهاجرين ، ومنهم كثير من أعيان البلاعزة . واحتل الطليان سرت وغدامس ولم يبق أمامهم إلا فزان . ورأى فرحات بك من الخير لهؤلاء المهاجرين الرجوع إلى أوطانهم لأنه إذا احتل الطليان فزان بالقوة فسيبطشون بهم البطشة الكبرى، وإذا جلوا عنها فستبتلعهم الصحراء ويموتون فيها جوعاً وعطشاً – وهذا ما حصل – ويقال إنه اقترح على خليفة الزاوي أن يتصلوا بالطليان لعلهم يصلون معهم إلى حل فيه شيء من الراحة

للمهاجرين ، وحصلت اتصالات مع الطليان في طرابلس عن طريق غدامس – وكانت محتلة بالطليان – قام بها كمال بن فرحات بك وبقي كمال في طرابلس نحو شهر ثم رجع إلى فزان ، ولم نعلم شيئاً عما اتفق عليه مع الطليان .



محمد فرحات بك الزاوي

مقتل فرحات :

ولأسباب لم نتحققها حصل سوء تفاهم بين خليفة الزاوي وفرحات بك ، ولم يلبث فرحات بك أن كلف بالذهاب إلى براك . وكان برفقته أحمد الدرناوي ،

وعلي بوستة ، وحسن بن رخا ، ويقال انهم كلفوا بقتله في أثناء الطريق . ولما وصلوا إلى زلاّف نفذوا فيه أمر القتل واشتركوا الثلاثة في قتله رمياً بالرصاص .

وقبل مباشرة القتل أخبروه بما أُمروا به ، فتوسل إليهم بشيخوخته للإبقاء على حياته ، وحذّرهم من عقاب الله على مثل هذا القتل الظالم ،ولكنه عبثاً حاول أن يرقق من قلوبهم القاسية بوعظه ، وأفرغوا فيه بنادقهم ، فسقط مضرجاً بدمائه وباءوا بإثمه — عليه رحمة الله .

وهكذا انتهت حياة هذا الرجل العظيم على يد هؤلاء الظلمة ، في ظروف اكتنفها من الغموض ما جعل أسبابها مجهولة كل الجهل. وكان ذلك في شعبان سنة ١٣٤٣ ـ مارس سنة ١٩٢٥ .

خليفة الزاوي وأولاد سيف النصر :

هو خليفة الدعيك من « قول أوغلية » الزاوية ، تخرّج من المدارس التركية العسكرية برتبة ضابط .

وأول عهده بالحرب الطرابلسية أنه جاء مع سوف من الشام سنة ١٩١٥ أيام القرضابية على طريق برقة .

وسبب وجوده في فزان أنه لما هُزم محمد العابد السنوسي وداعيته كلب السيد وطرد من الجبل سنة ١٩١٦ بقي في فزان (مرزق) . ولما التحق نوري بك بمصراتة سنة ١٩١٦ كان العابد ما يزال بفزان ،فأرسل إليه نوري خمسمائة مقاتل لطرده منها برياسة إحسان ثاقب أفندي[١] وأرفق معه خليفة أفندي الدعيك ، وهذا أول عهده بفزان . وجُهِزَت هذه الحملة بما تحتاج إليه من نقود وسلاح وانضم إليها في الطريق أحمد العياط البوسيفي (نصف البوتسعين) ولما وصلت

---

(١) ضابط طرابلسي تخرّج في المدارس العسكرية العثمانية ، وكان شجاعاً قوي الارادة .

هذه الحملة الى فزان اشتبكت مع العابد وأنصاره في حرب فتغلبت عليهم وصارت تطاردهم من بلد الى بلد ، فالتجأوا إلى (وَاوْ حريرة) فطاردوهم إلى هنــاك ، وقبض على عبد الله الأشهب وهو من أنصار العابد المشهورين بالسلب والنهب ، وقتل شنقاً في سبها . وتشتت شمل العابد ونجا بنفسه إلى الكفرة واضطر إلى ترك ما جمعه من فزان فاستولى عليه ثاقب أفندي وخليفة الزاوي . ومن هذا الوقت صارت فزان تابعة لمصراتة تتلقى منها الأرزاق والسلاح والأوامر . وكانت مركزاً للاتراك إذ ذاك. واستمرت هذه الحال إلى أن سافر نوري بك فاحتفظت بصلتها بمصراتة ، وبقيت تابعة لها في الإدارة تحت رياسة رمضان بك . ولما صار صلح بنيادم وسافر الضباط الاتراك من طرابلس ، وسافر معهم ثاقب بك ، أسندت سياستها إلى خليفة الزاوي ، وبقيت تابعة لمصراتة إلى أن توفي رمضان بك ، فاستقلّ بها خليفة ، واشتهر بخليفة الزاوي لأنه من «قول أوغلية» الزاوية .

وفي الوقت الذي أرسلت فيه الحملة إلى فزان أرسلت فيه حملة اخرى إلى الجفرة برياسة عبد النبي بن خير ، وكان إذ ذاك متفقاً مع رمضان ـ ومعه برتو توفيق ، وكان بها عبد الجليل سيف النصر. وكان مع الحملة قسم كبير من مسلحي مصراتة وزليطن برياسة شرف الدين العمامي من زليطن ، والحاج محمد الروياتي من مصراتة ، ولم يقاوم عبد الجليل وسلّم البلد إلى عبد النبي ، ولم يلبث عبد النبي أن سلّم البلد إلى برتو توفيق بعد أن استقر فيها الأمر ورجع إلى أرفلّة . وكانت أرفلّة إذ ذاك متفقة مع مصراتة ، وبقي برتو توفيق في الجفرة مع قسم قليل من الدرك الذين أنيط بهم حفظ الأمن .

وكان السيد إدريس إذ ذاك متفقاً مع الطليان . وكان بين سكان برقة وسكان طرابلس حزازات وسوء تفاهم أدّت إلى حصول بعض المناوشات وقطع الصلة بينهم

وقد انتهز عبد الجليل سيف النصر فرصة قلة الحامية مع برتو توفيق ، في

الجفرة التي أصبحت تابعة لمصراتة فهاجمها، فلم يجد أمامه مقاومة، وقتل برتو توفيق، واستولى عبد الجليل على الجفرة، وبقي فيها يناوىء خليفة الزاوي في فزان. وصادر خليفة أملاك سيف النصر في فزان، وأخذت العداوة بينهم تتزايد شيئاً فشيئاً حتى استحكمت. وختمت بالدور الذي سيأتي ذكره.

أسرة سيف النصر :

أسرة عربية ترجع في نسبها إلى بني سليم. ومن قبل مائتي وخمسين سنة وهي صاحبة النفوذ الأول في فزان. وأرادت الحكومة العثمانية أن تقضي على هذا النفوذ في عدة محاولات باءت كلها بالفشل. وكل ما وصلت إليه بمحاولاتها العديدة الحد من نفوذها في بعض الأوقات، لا القضاء عليه بتاتاً.

ولما تولى خليفة الزاوي الأمر في فزان من قبل رمضان السويحلي، حاول أن يقضي على نفوذها. ووقف منه أولاد سيف النصر موقف المدافع عن نفوذه وسمعته، وكل ما وصل إليه الخليفة هو السيطرة على منطقة مرزق، أما فزان الشرقية فما تزال تحت نفوذ أولاد سيف النصر.

وكانت نفوسهم دائماً تنازعهم إلى استرداد مرزق من خليفة وطرده منها. وكانوا دائماً يتحيّنون الفرص لتحقيق هذه الرغبة.

وفي سنة ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م كانت الحرب قائمة بينهم وبين خليفة الزاوي واستمرت نحو تسعة أشهر، ثم اصطلح معهم على أن يترك لهم فزان ويذهب هو إلى « أوباري » ونفذ هذا الاتفاق. وكان الطليان إذ ذاك لم يخرجوا إلى فزان ولكنهم كانوا يستعدون لها، فاستأنف خليفة صلته بهم وتحصل منهم على وعود رأى فيها ما يكفل له حياته، فالتحق بهم في طرابلس.

احتلال فزان الثاني

كانت الإدارة في برقة وفزان غير متحدة، فكان لكل منها حكومة مستقلة

عن الأخرى . وكان الطليان يجدون في هذا الوضع بعض الصعاب في الإجراءات الإدارية ، فكان لهذه التفرقة في الإدارة أثر واضح في عدم التغلب على العصابات المسلحة التي ما تزال منتشرة بين غدامس والجبل الأخضر . وقد فكروا – للقضاء عليها – في توحيد إدارة القطرين ، فعزلوا حاكمي برقة وطرابلس وجيء ببادوليو حاكماً عليهما في ديسمبر سنة ١٩٢٨ وتولى سلطتي الحاكم العام والقائد الاعلى ، ووضعت الخطط الحربية حسب ارشاداته ،ولم تتجاوز مصاريفها ٢١ مليوناً من الفرنكات أي ما يقارب ٢٠٠ ألف جنيه.وكان بادوليو في مقدمة القواد الإيطاليين في المقدرة وحسن التصرف،وكان إذا انتدب لحل مشكلة فذلك لأنهم عجزوا عن حلها . وكانت السياسة الإيطالية قبل مجيء بادوليو ترى القضاء على حركة السيد عمر المختار ثم تتجه إلى القضاء على الحركات الأخرى . ولكن بادوليو رأى غير ذلك ، فأعد المدة للقضاء على العصابات المنتشرة من سرت إلى غدامس واحتلال فزان ، ثم يتفرغ لحركة عمر المختار ، فجمع جيوشاً هائلة لاحتلال فزان . وابتدأت العمليات الحربية في أواخر أغسطس سنة ١٩٢٩ . واحتلوا (غات) في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٠ وخرج جيش على طريق القريات وكان فيه خليفة الزاوي الذي كان حاكماً على فزان زمناً ما ، وخرج جيش آخر على طريق سرت ، وكان معه عاكف أمسيك الغرياني ، ومرّ خليفة الزاوي مع الجيش الذاهب إلى فزان بديار أولاد أبي سيف . واستمر في طريقه إلى أن تم احتلال فزان على يديه يوم ٢٤ من شعبان سنة ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩ م . وكان بها عبد الجليل سيف النصر فلم يمكنه الدفاع عنها ففر إلى (وَاوْ حريرة) ،فتعقبه الطليان إلى هناك وقتلوا ابن عمه السنوسي بن غيث سيف النصر ، وأخذوا كل ما جمعوه من أموال . ويقول البلاغ الإيطالي : إن ما أخذ منهم من الأموال يزيد على مائة كيس كانت كلها ملأى بالذهب والفضة . وتم استيلاؤهم على فزان ، وفرّ أكثر من التجأ إليها من المهاجرين – من بلاعزة الزاوية وغيرهم – إلى تونس والجزائر ،

والسودان ومصر ، واستسلم من لم يقدر على الجلاء .

كلمة عن فزان :

طول فزان من الشرق إلى الغرب ٩٠٠ ك م . ومن الشمال إلى الجنوب ٨٠٠ ك م . ومساحتها أكثر من ٣٠٠ ألف ك م مربع ، وهي تكوّن هضبة يبلغ ارتفاعها فوق سطح البحر ٥٠٠ متر ، ويوجد فيها منخفضات تبلغ في بعض الأحيان إلى ١٥٠ متراً تحت سطح البحر .

وفي الحرب العالمية الثانية في أغسطس سنة ١٩٣٩ اتخذت فرنسا التدابير لاحتلالها . وفي ٤ من يناير سنة ١٩٤١ وفي ١١ منه أغارت عليها الطائرات الفرنساوية من السودان ودمرت مطار مرزق الإيطالي . وبعد هذه الحملة تعرضت الكفرة وجنوبي فزان سنة ١٩٤٢ لعدة هجمات .

وفي ١٢من يناير سنة١٩٤٣سلمت مرزق . وفي٢٦منه زحفت قوة فرنسيةمن الجنوب لاحتلال فزان مكوّنة من ٧٣٨ جندياً وضابطاً ، أكثرهم من السنغال . وفي ٢٥ منه أذيع أول بلاغ فرنساوي يعلن دخول القوات الفرنساوية فزان يوم ٢٢ منه . وفي ٣٠ منه احتلت أم الأرانب بعد مناوشات ، واستسلم عشرة من الضباط الإيطاليين وأكثر من مائتي جندي . وفي الوقت نفسه احتل الفرنساويون القطرون وسبها .

ومنذ الساعة الاولى من احتلال فزان أظهر الفرنساويون رغبتهم في البقاء فيها ، ودلّت على هذه الرغبة بياناتهم وتصريحاتهم .

وفي ١٧ من يناير سنة ١٩٤٣ أصدر ديغول بياناً للفزانيين جاء فيه :

(إلى أهالي فزّان : أحييكم باسم فرنسا التي حررت بأسلحتها أراضيكم ، وستأخذ من الآن فصاعداً على عاتقها حمايتكم .

إن فرنسا ستبقى في فزان وفي غيرها الصديقة المخلصة لرعاياها المسلمين ... ولقد ترتب على هزيمـــة العدو المشترك أن أصبحت مقاطعتكم تتمتع بالأمن والرفاهية تحت سيطرة فرنسا) .

وطالبت فرنسا في هيـئة الامم المتحدة بأن تنتدب على فزان ، وصرحت بأنها جزء متمم لتونس ، وأنها أقرب إلى تونس من ليبيا ، وأنها المحطة الرئيسية للطريق الجوي بين مدغشقر وفرنسا وأول حاكم عسكري على فزان هو الجنرال دلانـــج .



كلمــة ·

ايطاليا في طرابلس

صفحة من التاريخ ضاقت بما اشتملت عليه من حوادث وعبر ، فـانتهت إلى غاية جرت إليها ، ثم ختمت على ما حوت من خير وشر ، وأُودعت في خزائن التاريخ حيث تحفظ سجلات الأمم وتواريخها .

وللدول — كما للأفراد — أعمار لها بداية ونهاية ، وفيما بينهما يسجل التاريخ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

وللتاريخ في هذه الصحائف نظرات عادلة يقيم من أجلها موازين القسط ، لتجد كل دولة ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .

وسيجد التاريخ في صفحات دولة الروم التي طواها منذ ثلاثة أيام [1] ما تسود الوجوه لفظاعته وبشاعته ، ومـا تتبرأ منه الإنسانية ، بل الوحوش في آجامها .

---

(١) سقطت روما في أيدي الحلفاء يوم ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ وكتبت هذه الكلمة بعده بثلاثة أيام . وكانت إيطاليا اعلنت الحرب على انجلترا في يونيه سنة ١٩٤٠ .

ولقد كان لهذه الدولة في طرابلس عمر قليل السنوات كثير السيئات ، لم تخل ساعة منه من ألم ممض ، أو إهانة تنفذ إلى أعماق النفوس فتذيبها حسرة . لذلك كانت كل ساعة من هذا العمر القصير لا تقل في طولها عن سنة . فقد حكمتها ٣٣ سنة بيد من نار تحرق حيثما لمست ، وبقلوب انتزعت منها الرحمة انتزاعاً ، حتى أصبحت لا تألف إلا الشر ، ولا تستريح إلا للتعذيب والقتل . وفي مقدمة حملة هذه القلوب القاسية موسوليني، وجرازياني، وبالبو، ودودياشي، وكسطريوطسي، ومازيتي وغيرهم ممن يسوؤهم أن يمر يوم لا يقتل فيه الطرابلسيون بالعشرات والمئات . فكان جرازياني يخرج بالمصفحات وعليها المدافع الرشاشة إلى سكان البادية فينصبها عليهم ويرميهم بالرصاص حتى يبيدهم ، ثم يأمر المصفحات أن تمر على القتلى والمجروحين ومن بينهم النساء والأطفال، وتكرر المرور عليهم ذهاباً وإياباً حتى تختلط أجسامهم بالتراب [١] . وتشد الرجال في الحبال والسلاسل بالعشرات ، ثم يؤمر بضربهم بالرصاص حتى لا يبقى منهم أحد . وتصلب النساء عاريات — إي والله عاريات — [٢] أمام ذويهن وبحضور ألوف من النظارة إرهاقاً لشعور الطرابلسيين وإمعاناً في النكاية بهم . ويشد الرجل والرجلان ، ويجعلان في محل الهدف يتسلى الجنود والضباط برميها بالرصاص ، ويدخل على الأسرة في بيتها فتقتل نساؤها وأطفالها ثم ترمى جثثهم في بئر المنزل وتطم عليهم [٣] . وتملأ البيوت بالرجال ثم يطلق عليهم الرصاص فيموتون ويسد عليهم باب الدار [٤] . ويوثق الرجال في السلاسل، ويرمون في البحر

---

(١) وقع هذا في برقة سنة ١٩٣٠ .

(٢) وقع هذا في حوادث برقة في العقيلة . من سنة ١٩٣٠ إلى سنة ١٩٣٤ حيث كانت النساء يشنقن عاريات ويضربن بالسياط . ووقع أيضاً في الجفارة سنة ١٩٢٣ فقد شنقوا عشرة نسوة عاريات وبقين أياماً معلقات .

(٣) وقع هذا في تاغرمين بلد الزنتان ، وما زالت الدار مغلقة على أولئك الشهداء إلى الآن في سنة ١٩٥٠ .

(٤) وقع هذا في مصراتة في منزل الشريف فيدان ، فقد قتل في ٣٣ من اسرته . بين رجال ونساء واطفال ، ثم ألقوهم في بئر المنزل ، وأحرقوا البيت وهدموه عليهم .

أحياء فتتقاذفهم الأمواج حتى يموتوا غرقاً . ويقذف البحر بجثثهم وهي مكبلة في السلاسل [1] ، ويشكو الرجل من أخذه في الجندية لأنه كبير السن وله طفل صغير يحتاج إلى رعايته فيؤتى بابنه ويقتل بالرصاص أمام عينيه . وتسلب الأموال والأملاك بدون ثمن وتعطى للطليان ينعمون بخيرها ، ويموت الطرابلسيون جوعاً في جوارها . ويحرّم القانون أن يركب الطرابلسي إلى جنب الإيطالي في سيارات الاجرة العامة ، كما يحرم على الحوذي الإيطالي أن يُركب في عربته طرابلسياً .

ويأتي موسوليني إلى طرابلس فيجمع لمقابلته سكان البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، ثم يؤتى له بمدفع فيصعد عليه ، ويفرغ رصاصة من مسدسه في الهواء ويقول : « طرابلس ملكنا إلى الأبد » .

ومما جاء في خطاب موسوليني قوله :

(إن الملك العظيم فيكتور عمانويل المبارك من الله والمحبوب من شعبه أرسلني إلى طرابس التي هي ملك إيطاليا إلى الأبد . فإذا ثبت الطرابلسيون في طاعتهم لمليكي وسيدي سننت لهم القوانين العادلة التي تحميهم) .

كانت هذه الزيارة في ١١ إبريل سنة ١٩٢٩ وبقي فيها إلى ١٥ منه وبمناسبتها نشرت اللجنة العربية التي ألفت لاستقباله منشوراً هذا نصه [2] :

يا مسلمي ليبيا :

« إن زيارة الزعيم لبلادنا لمن الحوادث التاريخية النادرة التي تتعدى آثارها حدود الزمان والمكان . إن أول اتصال للرجل العظيم بمسلمي ليبيا والعالم أجمع بعد أن قطعت السياسة الموسولينية إزاء الإسلام والمسلمين مراحل عظيمة كنا

---

(١) قذف البحر ١٤ جثة سنة ١٩٣١ على مقربة من مرسى مطروح من الأراضي المصرية مكبلة في سلسلة واحدة .

(٢) منقول عن مجلة (ليبيا المصورة) السنة الثانية سنة ١٩٣٧ م .

ولم نزل نحن معشر الليبيين أول من جنى ثمارها وشهد آثارها .

فاستقبالنا يجب أن يخرج عن كل حد مألوف ، ويبلغ من العظمة والسمو الدرجة التي تعبر عن شعور الامتنان والموافقة الذي يتملك اليوم أفئدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لهذه السياسة التي اختصت بها إيطاليا الفاشستية دون سائر الدول ، وخرجت بها عن كل ما سجل التاريخ لحد الآن في معاملة الشرق للغرب .

أيها الاخوان :

كونوا جديرين بتحية موسوليني بإسم أربعمائة مليون من المسلمين ، وأكّدوا للعالم أجمع أن هذه المجموعة الهائلة تقدر تلك السياسة القائمة على احترام الدين والرغبات والحاجات ، والتي هي الوسيلة الوحيدة للتعاون الحقيقي بين الشرق والغرب » .

اللجنة الطرابلسية لاستقبال الزعيم

سليمان قرهمانلي ... محمود المنتصر ... مصطفى ميزران
عمر فخري المحيشي ... علي نور الدين العنيزي ... علي أسعد الجربي

وانا لنعذر هؤلاء المواطنين الذين وقّعوا هذا المنشور ، فإنا نعتقد أنهم لا يملكون الامتناع إلا إذا اختاروا الموت .

هذه المظالم المميتة التي كان الطليان يعدّونها من مفاخر حكمهم في طرابلس قابلها الطرابلسيون بكل صبر ، ونالت من دمائهم وكرامتهم ما تعجز الجبال عن حمله ، وانطوت جوانحهم على مرارة كانوا يفضلون من أجلها الموت في أبشع صوره على الحياة مع الطليان .

ودولة تأتي مثل هذه المنكرات في حماية القانون راضية بها نفوس عظمائها وملوكها ، لا شك أنها تتحدى نواميس الحياة وسنن الكون ، وتحاول الحياة من

طريق لا يؤدي إلا إلى الفناء .

ومنذ نشأة الإنسان الأول عرف الظلم ، ولكن إذا اعتقد الإنسان أن ظلمه عدل" كان ذلك طريقاً إلى الزوال لا محالة . ولو علم الطليان أن الله يمهل ولا يهمل لاتعظوا بمن تقدّمهم من الأمم التي أدال الله دولتها بسبب الظلم .

كان ما يأتيه الطليان — شعباً وحكومة — في طرابلس من الجور والمظالم في محل الرضى من جميع الهيئات كلها من الملك إلى السوقة ، ولم يرتفع صوت واحد باستنكاره . وقد تولى كبره موسوليني ومنفذو أوامره ، فنالهم من العقاب شر ما نال ظالماً في التاريخ . وكان الجزاء وفاقاً ، فرأت هذه الدولة وشعبها من الفواجع ما كان مخبوءاً في القدر مما يماثل ما أنزلوه بالطرابلسيين سواء بسواء .

وأخلف الله ظن موسوليني في طرابلس، فخرج منها هو وقومه أذلة صاغرين ورأوا من شتات الشمل وذهاب الدولة ما فيه عبرة لمن يعتبر .

وقد ضحوا فيها بمائتين وخمسين ألف جندي بين قتيل ومفقود. وأربعةعشر مليار ليرة نفقات حربية . وأنفقت الحكومة على إصلاح الأراضي ألفين ومائة مليون دولار . وأنفق الأهالي الإيطاليون ٣٠٠ مليون دولار . عدا الاموال الصغيرة فإنها بلغت حداً لا يحصى كثرة . .

وبلغ من هوان موسوليني على قومه أن قتل بأيد إيطالية ، وبقيت جثته على قارعة الطريق تتلقى لعنات الإيطاليين ، وتركل بأرجلهم ، وكلما مرّ عليها ملأ من قومه بصقوا عليها تحقيراً لشأن موسوليني وجزاء لإجرامه .

ولعل في مثل هذه الكوارث ما يُعمر نفوس النشاوى بخمرة النصر بحب الإنصاف والإعتراف للشعوب بحق الحياة الحرة ، فإن ما يخبئه القدر لهم قد يكون أبلغ في النكاية مما صارت إليه إيطاليا بسبب العدوان والإمعان في الظلم . وما الله بغافل عما يعمل الظالمون .

خاتمة

إلى هنا انتهى كل نوع من أنواع المقاومة في طرابلس ، وجف قلم التاريخ من كتابة ما للمحسنين للوطن ، وما على المسيئين إليه . وطويت صحفه على مـا كتب فيها من إحسان لمن أخلص لله عمله ، ومن إساءة لمـن سهل عليه الهوان فهانت نفسه ، وحقـر شأنه .

وسيجد مواطنونا في هـذه الصحائف أساساً لبناء المجد الذي اكتسبه الطرابلسيون بجهادهم المجيد ، كما سيجد العرب في هـذا الجهاد مُثُلاً للبطولة النادرة من أعمال هذا الشعب الأبيّ ،تـُعلي من شأنهم،وتشق طريقها إلىالصدر ، يوم تجتمع الأمم للتفاخر بما قدّم كل منها لفداء الوطن .

ذو القعدة سنة ١٣٦٣ هـ ـ سبتمبر سنة ١٩٤٤ م .

الطاهر أحمد الزاوي

ملحق :

هذا الملحق من املاء الاستاذ سليمان عيسى علي الجدي الورفلّي .

ونظراً لما في هذا الملحق من بيان لما أجملته في الطبعة الأولى « لجهاد الأبطال» تحت عنوان (في فزان) فقد ألحقته بالطبعة الثانية .

وهذا نص ما أملاه عليّ :

« بعد احتلال أرفلّة هاجر عبد النبي ومن معه إلى الجفرة على طريق القريات . وهاجر بعض أرفلة إلى سرت .

واتصل الطليان ببعض أعيان سرت ، وفي مقدمتهم (بوبريق) واتفقوا معهم على اجلاء المهاجرين من سرت . فاستجابوا لرغبة الطليان . ولكن حمد سيف النصر جمع إليه بعض المسلحين من المجاهدين وحال بين (بو بريق) ومن معه وبين تنفيذ رغبة الطليان فهاجموا أحمد سيف النصر ولكنه تغلب عليهم ، فهربوا إلى مصراتة ملتجئين إلى الطليان بها ، وبقي أحمد سيف النصر في سرت مدة ثم ارتحل إلى الجفرة .

وجهز الطليان قوة كبيرة على بئر الحشادية بقرب وادي نفد لغزو الجفرة . وسمع المجاهدون الموجودون بالجفرة بهذه القوة ،فأغاروا عليها بقيادة أحمد سيف النصر ، وباغتوهم عند طلوع الفجر ، وأوقعوا بهم خسارة كبيرة ، واستشهد من المجاهدين نحو خمسين رجلاً ، وجرح كثير منهم . ورجع الطليان إلى ابن وليد . وتأخر غزو الجفرة نحو ثلاث سنين .

وفي سنة ١٩٢٦ خرج الطليان في قوة كبيرة لغزو الجفرة ، وكان فيها كثير من المهاجرين من أرفلة . ولما سمعوا بقدومه انتقلوا إلى آبار تاقرفت وأخلوا

الجفرة خوفاً من انتقام الطليان من سكانها .

والتقى الطليان في بونجيم – وهم في طريقهم إلى الجفرة – ببعض المجاهدين برياسة محمد الجدي الورفلّي ، فحصلت بينهم مناوشة لم تحل بينهم وبين وصولهم إلى الجفرة .

وبعد استقرارهم في الجفرة سمعوا بوجود المجاهدين على آبار تاقرفت شرقي زلّة ، فهجموا عليهم سنة ١٣٤٦هـ، وحصلت بينهم معركة شديدة دامت طول اليوم ، استشهد فيها نحو سبعين من المجاهدين واحتل الطليان آبار تاقرفت .

وفي الوقت الذي كانت المعركة دائرة فيه على آبارتاقرفت ، كانت معركة أخرى دائرة في زلة برياسة عيسى الجدي الورفلّي ، وجرح فيها جرحاً بليغاً .

وجمع المجاهدون أنفسهم ، وأغاروا على العدو في الجفرة في (قارة عافية) سنة ١٣٤٧ هـ، وتمكنوا من دخول القارة،واشتبكوا مع العدو بالسلاح الأبيض . واستشهد في هذه المعركة السيد محمد الجدي الورفلّي أحد رؤساء المجاهدين ، واضطر من بقي من المجاهدين إلى الانسحاب من القلعة .

وبعد مدة جمع المجاهدون أنفسهم بقيادة حمد سيف النصر ، وهاجموا الطليان في القريات ، لأنهم كانوا يجمّعون قواتهم هناك لغزو فزان ، واشتبكوا معهم في معركة بقلعة المكيمن سنة ١٣٤٨ هـ خارج القريات .

وبعد هذه المعركة اتجه المجاهدون إلى بئر الشويرف لحماية أُسرهم التي كانت بقربه. ولم تمض إلا أيام قلائل حتى هاجمهم الطليان من جميع الجهات سنة ١٣٤٨هـ ، وحصلت معركه حامية دافع فيها المجاهدون عن حريمهم ، واستشهد فيها نحو ثلاثين شهيداً ، وتمكّن بعضهم من فك الحصار فنجوا بأهلهم ، واتجه من بقي منهم إلى فزّان .

وبعد نحو شهر من معركة الشويرف جهز العدو قوتين لاحتلال فزّان جاءت

إحداهما من الجهة الشرقية من ناحية « سبها » والأخرى من الجهة الشمالية من ناحية « براك » (الشاطىء) سنة ١٣٤٩ هـ .

واشتبك العدو في « سبها » في معركة مع المجاهدين من أرفلّة وأولاد سليمان فرجع العدو نحو الجفرة، وتبعه المجاهدون حتى بئر أم العبيد، واشتبكوا معه في معركة كبيرة ، ورجع المجاهدون إلى « سبها » .

والتقت قوة العدو التي جاءت من ناحية « براك » بالمجاهدين من أولاد أبي سيف وأرفلّة برياسة الشيخ النعاس الفقهي ، واستمر القتال سجالاً بين الطليان والمجاهدين نحو عشرين يوماً ، ما دخل العدو قرية إلا هاجمه المجاهدون فيها .

ونظراً لقلة ما في أيدي المجاهدين من السلاح واستشهاد كثير منهم ، مع ما في أيدي العدو من كثرة السلاح والمقاتلين ، فقد رأى المجاهدون ألاّ فائدة من المقاومة ، وقرروا الهجرة نهائياً بعد أن فقدوا الأمل في النصر .

فهاجر أحمد سيف النصر ومن معه إلى السودان . وهاجر جماعة من أرفلة وأولاد أبي سيف إلى الجزائر على طريق « غات » ، ومات كثير من المهاجرين بالعطش واتصل المهاجرون من الجزائر بتونس .

ولما نشبت الحرب العالمية في أغسطس سنة ١٩٣٨ طلبت فرنسا من المهاجرين الطرابلسيين في تونس الانضمام إليها لقتال الطليان ، فلبوا الطلب ، ولكن انهيار فرنسا السريع حال دون التنفيذ . وبقي المهاجرون ينتظرون فرصة العودة إلى وطنهم ، وفي سنة ١٩٤٥ رجعوا إلى وطنهم » .

وإلى هنا انتهى إملاء الاستاذ سليمان عيسى علي الجدي الورفلّي .

حقيقة :

جنود الهجانة

كانوا ستة وأربعين جندياً من المواطنين مكلفين بحراسة الحدود بين طرابلس وتونس ، في أيام العهد الإيطالي ، برياسة ضابط إيطالي الفنني (بيوندو) .

وكانوا يقومون بعملهم بين غدامس ونالوت .

وذات مرة أمرهم رئيسهم الإيطالي بالسفر يوم عيد ، فأبوا عليه . وأدّى الأمر إلى أن تآمروا على قتله ، فقتلوه يوم ٢٧ من ديسمبر سنة ١٩٣٥ والتجأوا إلى تونس .

وقد تمكنت السلطات الفرنساوية من تسليم أربعة وعشرين منهم إلى السلطات الإيطالية بعد التحقق من ارتكابهم الجريمة .

وقدموا لمحكمة الجنايات في طرابلس في أواخر ديسمبر سنة ١٩٣٧ ، فحكمت على أربعة منهم بالسجن المؤبد ، وعلى واحد بالسجن عشرة أعوام ، وعلى واحد بالسجن عاماً واحداً .

وحكمت بالإعدام على الشنباشي محمد بن صالح ونفذ فيه ، كما حكمت بالإعدام على ثلاثة غائبين . وحكمت ببراءة الباقين .

وقد بنى الإيطاليون – حيث قتل ضابطهم – مبنى يشبه الخيمة ، وما زال موجوداً . واتخذه المسافرون محل استراحة يستريحون فيه .

المؤلـــف

الطاهر أحمد الزاوي . ولدتُ سنة ١٨٩٠ بالحرشا إحدى قرى مدينةالزاوية بطرابلس الغرب . وتربّيتُ في كنف والدي أحمـد ، وحفظتُ القرآن — في جامع سيدي علي بن عبد الحميد بالحرشا — على أستاذي الفقيد محمد بن عمر الصالح عليه رحمة الله . وأخذت مبادىء الفقه على الشيخ الطـــاهر بن عبد الرزاق البشتي ، والشيخ أحمد بن حسين البشتي . وحضرت الآجرّومية على الشيخ الطيب ابن محمد بن عبد الرزاق البشتي .

واحتل الطليان طرابس في اكتوبر سنة ١٩١١ وحضرت معركة الهاني في ٢٦ من هذا الشهر .

وفي أوائل سنة ١٩١٢ سافرت إلى الأزهر على طريق صفاقس لإتمام دراستي . وقيّد اسمي بسجل رواق المغاربة في ٨ من ذي القعدة سنة ١٣٣٠ هـ .

وأخذت الفقه عن الشيخ أحمد الشريف [1] ، والشيخ علي الجهاني المصراتي ، والشيخ حسن مدكور . وأخذت النحو عن الشيخ علي الجهاني المصراتي وغيره ،

---

(١) الاستاذ أحمد مصطفى الشريف . كان حميد الأخلاق ، رقيق العاطفة ، عف اللسان عن التكلم فيما لا يعنيه . وكان علامة في جميع العلوم الاسلامية ، ويمتاز في التفسير والحديث وعلم القراءات . وقلّ أن يجد طالباً مغربياً في عصره لم يأخذ عنه .
توفي في السادس من اكتوبر سنة ١٩٢٦ عن سن تناهز الخامسة والستين رحمه الله وشكر له

والتفسير والحديث عن الشيخ محمود خطاب، والشيخ يوسف الدجوي ، والأصول عن الشيخ الدسوقي العربي وبقية العلوم عن مشائخ آخرين .

ورجعتُ إلى طرابلس في أغسطس سنة ١٩١٩ . وعاصرت حركة الجهاد الوطني إلى أن انتهت في آخر ديسمبر سنة ١٩٢٣ .

وشرّفتني الحكومة الوطنية بإيفادي في وفود ثلاثة : وفد الإصلاح بين الزنتان والبربر في نوفمبر سنة ١٩٢٠ . ووفد الدعوة في يونية سنة ١٩٢٢ إلى أجدابية لدعوة السيد إدريس لزيارة منطقة الجهاد في طرابلس، فاعتذر ولم يجب الدعوة .ووفد في يولية سنة ١٩٢٣ لدعوة أولاد أبي سيف والزنتان للاشتراك في الجهاد . وكانت حكومة المجاهدين في نفد — واد بأرض ورفلة —

وفي أول يناير سنة ١٩٢٤ خرجنا من نفد حيث كانت تقيم حكومة المجاهدين في طريق الهجرة إلى مصر ، بعد أن انتهت كل أنواع المقاومة في طرابلس .

والتحقت بالأزهر مرة ثانية في يونية سنه ١٩٢٤ .

وفي هذه السنة ابتدأت حركة السيد عمر المختار في الجبل الأخضر ضد الطليان، فكنت أكتب مقالات في جريدة الأخبار جريدة الأستاذ أمين الرافعي انتصاراً لقضية الوطن ضد الاعتداء الإيطالي ..

واضطررت ـ بسبب الحاجة ـ إلى الاشتغال بالتجارة فلم أوفق فيها . وفي هذه المدة كتبت كتاب (عمر المختار) ، ونظراً لنفوذ السياسة الإيطالية في مصر وقعته باسم مستعار (محمد محمود) وقام بطبعه السيد عبد العزيز الحلبي ، ولما اطّلع عليه إدريس السنوسي رفع عليّ وعلى السيد عبد العزيز الحلبي دعوى في النيابة ، بصفتي مؤلفاً، وبصفة الحلبي ناشراً. ودُعيت إلى النيابة واعترفت بنسبة الكتاب إليّ . وبوساطة السيد عبد العزيز الحلبي رُفضت الدعوى .

وأخذت شهادة العالمية من الأزهر سنة ١٩٣٨ م . وتجنست بالجنسية المصرية

في إبريل سنة ١٩٤٠ ووُظفت في وزارة الأوقاف المصرية في مايو من هذه السنة. وبقيت فيها إلى سنة ١٩٥٣ .

واشتغلت بتصحيح الجرائد والكتب في المطابع المصرية .

ووُظفت مدرساً بالمملكة السعودية في المدينة المنورة سنة ١٩٥٥ ، و ٥٦ ، و ٥٧ م وبعد أن تركت التدريس في المدينة المنورة التحقت بمطبعة عيسى الحلبي بجوار سيدنا الحسين سنة ١٩٥٨ أُصحّح ما يطبع فيها من كتب دينية وغيرها .

وكانت للطرابلسيين صلة بالسيد الأستاذ عبد الرحمن عزام أمين الجامعة العربية مكـّنتنا من تأسيس (اللجنة الطرابلسية) بالقاهرة في اكتوبر سنة ١٩٤٣ وكان يمدنا من الجامعة العربية بما نحتاج إليه من معونة .

وكانت اللجنة الطرابلسية تمثل سياسة أكثرية المهاجرين الطرابلسيين بمصر والإسكندرية . وكانت لها منشورات كثيرة ورسائل تبين فيها سياستها نحو ليبيا ، ومواقف إدريس ، وسياسته الإنفصالية ، وانحيازه إلى سياسة المستعمر . وكنت وكيلـَها ، ورئيسُها الحاج الفيتوري السويحلي .

وكان ما نشرته اللجنة الطرابلسية ضد إدريس وكتاب عمر المختار سبباً في منعي من دخول ليبيا .

وبقيت في مصر ٤٣ سنة من مايو سنة ١٩٢٤ إلى مايو سنة ١٩٦٧ . أُتيحت لي فرصة زيارة وطني فيها مرتين : مرة في اكتوبر سنة ١٩٥٠ زمن الإدارة البريطانية ، وفي أعقاب اعتراف هيئة الامم المتحدة باستقلال ليبيا . وكانت فرصة سعيدة مكنتني من جمع معلومات قيمة عما كان يتجاذب القضية الليبية من سياسات دولية ووطنية .

ومرة أخرى في زمن الحكم الإدريسي من اكتوبر سنة ١٩٦٤ إلى اكتوبر سنة ١٩٦٥ وبعد انتهاء السنة لم يسمح لي بالبقاء فرجعت إلى مصر .

وفي مايو سنة ١٩٦٧ أُذن لي مرة ثانية في العهد الإدريسي بزيارة وطـني ، وكانت بواسطة السيد فتحي الخوجة جزاه الله خيراً. وبواسطته أُعطيت لي إقامة خاصة (عشر سنوات) .

وفي سبتمبر سنة ١٩٦٩ أعطتني ثورة أبنائي البررة إقامة دائمة في وطني . وردّت عليّ جنسيتي الليبية . فأنا اليوم ليبي ، وجنسيتي ليبية في وطني ليبيا .

الطاهر الزاوي



هـــذا الكتاب

هو (جهاد الأبطال في طرابلس الغرب) . وهو وثيقة من أصح الوثائق التي كتبت في الجهاد الطرابلسي . وفيه من الحقائق ما لا يرقى إليه الشك ؛ لأنـــه يستند إلى المشاهدة، والرواية عن الزعماء الذين تولوا رياسة حكومات المجاهدين، وتولوا ما كان بينهم وبين الطليان من مفاوضات ومعاهدات ، ومكاتبات في صميم القضية وعن الذين باشروا الحرب رؤساء وجنوداً .

وقد شرعت في تأليفه منذ أن استقر بي المقام في مصر سنة ١٩٢٥ .

ولم اسمه (جهاد الأبطال في ليبيا) أو (في طرابلس وبرقة) لسببين : الأول : أن كلمة ليبيا لم تكن رسخت في أذهان الناس وقت تأليفه لأنها أحدثها الطليان فيما بعد . وفي اعتقادي أنهم أحدثوهـا لغرض سياسي ، هو القضاء على كلمتي طرابلس وبرقة العربيتين، واقرت بعد استقلال ليبيا . واتفق على إطلاقها على هذا الجزء من إفريقية الواقع بين حدود مصر وتونس .

السبب الثاني : أن معلوماتي عن الحرب في طرابلس أكثر ، وأصح سنداً من معلوماتي عن الحرب في برقة ؛ لأني شهدت الكثير من الحرب في طرابلس ، وما لم أشهده رويته عن الثقات الذين عرفتهم على كثب ، واطمأنت نفسي لصدقهم ، لصلتي الشخصية بهم ، وحضوري الكثير من اجتماعاتهم .

أما حروب برقة فلم أشهد منها شيئاً ، وقد بذلت جهداً كبيراً للوصول إلى حقيقة ما رويته منها . وهو جد قليل ؛ لذلك كانت تسميته (جهاد الأبطال في

طرابلس الغرب) أقرب إلى الحقيقة ، وأدعى إلى تصديق ما رويته فيه .

ولم اسمه (أبطال الجهاد) لأن هذا الاسم يقتضي أن أذكر أسماء الأبطال الذين اشتركوا في الجهاد الطرابلسي ، من طريق الرياسة أو من طريق الجندية ، وهم لا يحصون كثرة. فلا تجد بيتاً إلا وفيه بطل، ولا تجد قرية إلا وفيها أبطال. ولا تجد معركة إلا والمجاهدون فيها يتهافتون على الموت ، لا يبالون أوَقعوا على الموت ، أو وقع الموت عليهم .

وقد أحصيت في (جهاد الأبطال) من الوقائع وملابسات الجهاد ما لم يكتب لغيري أن أحصاه .. فقد تتبعتها من قصر « بوكماش » غرباً، إلى ما وراء سرت شرقاً ، ومن ساحل البحر إلى « غات » وفزان جنوباً .

وذكرت فيه جوانب من حروب أهلية شغلت كثيراً من المواطنين عن التفرغ لقضية الوطن الكبرى (قتال الإيطاليين) . وكان لهذه الحروب أثر سيء عسى أن يكون للطرابلسيين فيه عبرة .

وذكرت بعض الحقائق التي تحطُّ من أقدار بعض المواطنين الذين ما زالوا أحياء ، ولم أذكر أسماءهم ستراً عليهم ، وتجنباً للتشهير بهم . وحينما يقرؤونها في جهاد الأبطال سيحسُّون بالخجل . وقد يندمون ، ولات ساعة مندم .

ومن اليسير على الباحثين عن الجهاد الليبي العثور على حقائق كثيرة لم اذكرها، لأني لم أعرفها . وأنى لمثلي أن يحيط بحقائق جهاد مقدس استمر نحو ٢٢ سنة .

وقد بلغني أن في دار الآثار الطرابلسية ما يشرّف ذكره ، ويضيف إلى ما ذكرته حلقات نحن في أشد الحاجة إلى معرفتها ، وأكثره كُتب بلغات أجنبية لا أعرف منها شيئاً.. والبحث عن مثل هذا موكول إلى المواطنين الذين أسعدهم الحظ بمعرفة تلك اللغات ، وعليهم وحدهم تقع تبعة هذا التقصير .

طبع (جهاد الأبطال) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٤ . ولم تمكني قدرتي المالية من طبع أكثر من ألف نسخة ، وبعد استقلال ليبيا سنة ١٩٥١ منعت حكومة

إدريس دخوله إلى ليبيا ، كما منعت تداول النسخ التي كانت موجودة بها قبل الإستقلال .

وقد نهجت حكومة إدريس في مدارسها منهجاً تاريخياً لا يتفق مع الحقيقة، ومسخت فيه الحقائق ، ونسبتها إلى أُناس لم يكن لهم في الجهاد الوطني ناقة ولا جمل . وكل الناس على علم بهذه التوجيهات الخاطئة التي قصد بها طمس حقيقة الجهاد الوطني في ليبيا ، وخصوصاً في طرابلس .

وجاءت ثورة سبتمبر سنة ١٩٦٩ فأطلقت عقال(جهاد الأبطال في طرابلس) وألحّ المواطنون في إعادة طبعه .

وها أنذا أُعيد طبعه نزولاً على رغبتهم ، وسيجد فيه طلاب الحقيقة ما يرضيهم ، أما الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنقول لهم ما قال الله في القرآن الكريم :

﴿ الحقّ أحقّ أن يتبع ﴾ .

الطاهر الزاوي

محتويات الكتاب

الدور الثالث

الدور الرابع

DARF PUBLISHERS LTD
LONDON
1984

Printed by A. Wheaton & Co. Ltd.,
Exeter, Devon, England

